الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

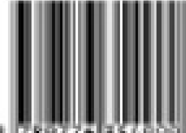
حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨



الدار العلمية للنشر والتحقيق

العالمية للثقافة الدولية

 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الخامس عشر




بسم الله الرحمن الرحيم

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ} عَنْ تَبُوك {بِمَقْعَدِهِمْ} أَيْ بِقُعُودِهِمْ {خِلَاف} أَيْ بَعْد {رَسُول الله وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسهمْ فِي سَبِيل الله وَقَالُوا} أَيْ قَالَ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ {لَا تَنْفِرُوا} تَخْرُجُوا إلَى الْجِهَاد {فِي الْحَرّ قُلْ نَار جَهَنَّم أَشَدّ حَرًّا} مِنْ تَبُوك فَالْأَوْلَى أَنْ يَتَّقُوهَا بِتَرْكِ التَّخَلُّف {لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا تَخَلَّفُوا.

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢).

{فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا} فِي الدُّنْيَا {وَلْيَبْكُوا} فِي الْآخِرَة {كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون} خَبَر عَنْ حَالهمْ بِصِيغَةِ الْأَمْر[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قوله: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ} إلى قوله: {كَانُوا يَفْقَهُونَ} وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله! الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا ننفر في الحر؛ فقال الله: {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}؛ فأمره الله بالخروج.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٠/ ١٣٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٥٥).

وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

=

=

وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: خرج رسول الله في حر شديد إلى تبوك، فقال رجل من بني سلمة: لا تنفروا في الحر؛ فأنزل الله: {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٠/ ١٣٩): ثني الحارث بن أبي أسامة ثني عبد العزيز ثنا أبو معشر عنه به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل: الأولى: عبد العزيز هذا، هو ابن أبان؛ متروك، وكذبه ابن معين وغيره؛ كما في "التقريب".

والثانية: أبو معشر؛ ضعيف، أسن واختلط.

والثالثة: الإرسال.

وعن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم: أن رسول الله ﷺ قَلَّ ما كان يخرج في وجهٍ من مغازيه إلا أظهر أنه يريد غيره، غير أنه في غزوة تبوك قال: "أيها الناس! إني أريد الروم"، فأعلمهم، وذلك في زمان من البأس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها، فبينا رسول الله ﷺ ذات يوم في جهازه إذ قال للجد بن قيس: يا جد! هل لك في بنات بني الأصفر؟ قال: يا رسول الله! لقد علم قومي إنه ليس من أحد أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخاف إن رأيت نساء بني الأصفر أن يفتنني؛ فأْذَنْ لي يا رسول الله صلى الله عليك فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: قد أذنت؛ فأنزل الله ﷻ: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا}، يقول: ما وقع فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه عن نفسه أعظم مما يخاف من فتنة نساء بني الأصفر، {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} يقول لمن وراءه. وقال رجل من المنافقين: لا تنفروا في الحر؛ فأنزل الله ﷻ: {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}. قال: ثم إن رسول الله ﷺ جدّ في سفره، وأمر الناس بالجهاز، وخصَّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان رضي الله عنه في ذلك نفقة

=

=

عظيمة لم ينفق أحد أعظم منها وحمل على مائتي بعير.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٢١٣، ٢١٤) من طريق أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن عاصم به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علل: الأولى: الإرسال. والثانية: ابن إسحاق مدلس، وقد عنعن. والثالثة: أحمد بن عبد الجبار؛ ضعيف.

وعن جابر بن عبد الله؛ قال: استدار برسول الله ﷺ رجال من المنافقين حين أذن للجد بن قيس ليستأذنوه، ويقولوا: يا رسول الله! ائذن لنا؛ فإنا لا نستطيع أن ننفر في الحر، فأذن لهم وأعرض عنهم؛ فأنزل الله في ذلك: {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ...} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٥٦) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ} [التوبة: ٨١]، أي:" فرح المخلفون الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بقعودهم في (المدينة) مخالفين لرسول الله صلى".

فيقول تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه.

- والمراد بهم: أولئك المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك بسبب ضعف إيمانهم، وسقوط همتهم، وسوء نيتهم..

قال السعدي: وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فرح الذين خلَّفهم الله عن الغزو مع رسوله والمؤمنين به وجهاد أعدائه {بمقعدهم خلاف رسول الله}، يقول: بجلوسهم في منازلهم {خلاف رسول الله}، يقول: على الخلاف لرسول الله في جلوسه

=

=

ومقعده. وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالنَّفْر إلى جهاد أعداء الله، فخالفوا أمْرَه وجلسوا في منازلهم".

قال ابن كثير:" يقول تعالى ذَامّا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه".

عن قتاده في قوله: " {بمقعدهم خلاف رسول الله}، قال: هي غزوة تبوك".

عن ابن إسحاق قال: " [ثم] ذكر قول بعضهم لبعض، حين أمر رسول الله ﷺ بالجهاد، وأجمع السير إلى تبوك، على شدّة الحرّ وجدب البلاد. يقول الله جل ثناؤه: {وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًّا}".

وفي قوله تعالى: {بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ} [التوبة: ٨١]، وجهان:

أحدهما: يعني: مخالفة رسول الله ﷺ حكاه الماوردي عن الأكثرين.

والثاني: معناه بعد رسول الله ﷺ قاله أبو عبيدة، وأنشد قول الحارث بن خالد المخزومي:

عَقَبَ الرَّبِيعُ خِلافَهُمْ فَكَأَنَّمَا بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرَا

قال الطبري:" وذلك قريبٌ لمعنى ما قلنا، لأنهم قعدوا بعده على الخلافِ له".

- وإنما فرحوا بهذا القعود، وكرهوا الجهاد لأنهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان بالله واليوم الآخر، وهبطت نفوسهم عن الارتفاع إلى معالى الأمور، وآثروا الدنيا وشهواتها الزائلة على الآخرة ونعيمها الباقي.

- وفي التعبير بقوله (المخلفون) تحقير لهم، وإهمال لشأنهم، حتى لكأنهم شيء من سقط المتاع الذي يخلف ويترك ويهمل لأنه لا قيمة له، أو لأن ضرره أكبر من نفعه.

- **قال الآلوسي:** وإيثار ما في النظم الكريم على أن يقال، وكرهوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ إيذان بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب التي

=

=

ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون، قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح وهو القعود خلاف رسول الله ﷺ، وفي الكلام تعريض بالمؤمنين الذين آثروا ذلك وأحبوه.

قوله تعالى: {وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ} [التوبة: ٨١]، أي:" وكرهوا أن يجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وكره هؤلاء المخلفون أن يغزُوا الكفار بأموالهم وأنفسهم في دين الله الذي شرعه لعباده لينصروه، ميلا إلى الدعة والخفض، وإيثارًا للراحة على التعب والمشقة، وشحًّا بالمال أن ينفقوه في طاعة الله".

عن سعيد بن جبير:" {في سبيل الله}، قال: في طاعة الله".

قوله تعالى: {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} [التوبة: ٨١]، أي:" وقال بعضهم لبعض: لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر".

قال الطبري:"وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك، في حرّ شديدٍ، فقال المنافقون بعضهم لبعض: «لا تنفروا في الحر»".

قال ابن كثير:" وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار".

قال السعدي: أي: قالوا إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة.

وحذروا من الحر الذي يقي منه الظلال، ويذهبه البكر والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

- **قال في التفسير الوسيط:** هذا حكاية لأقوالهم التي تدل على ضعفهم وجبنهم، وعلى أنهم قوم لا يصلحون للأعمال التي يصلح لها الرجال.

وفي قوله تعالى: {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} [التوبة: ٨١]، وجهان:

=

=

أحدهما: هذا قول بعضهم لبعض حين قعدوا.

والثاني: أنهم قالوه للمؤمنين ليقعدوا معهم، وهؤلاء المخلفون عن النبي ﷺ في غزاة تبوك وكانوا أربعة وثمانين نفسًا.

عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: "كانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ وهي غزوة الحر، قالوا: لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا وهي غزوة العسرة".

قوله تعالى: {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا} [التوبة: ٨١]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: نار جهنم أشد حرًا".

قال الطبري:" فقال الله لنبيه محمد ﷺ: {قل} لهم، يا محمد {نار جهنم}، التي أعدّها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله {أشد حرًّا}، من هذا الحرّ الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه. يقول: الذي هو أشد حرًا، أحرى أن يُحذر ويُتّقى من الذي هو أقلهما أذًى".

قال ابن عباس:" وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجل: يا رسول الله، الحر شديد ولا نستطيع الخروج، فلا تنفر في الحر، فقال: قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون".

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: "اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا فنفسني، فأذن لها في نفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر من سمومها، وأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها".

قال ابن كثير:" قال الله تعالى لرسوله: {قل} لهم: {نَارُ جَهَنَّمَ} التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم {أَشَدُّ حَرًّا} مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون بها جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم»، فقالوا: يا

=

=

رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا» ".
وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد".
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أوقد على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم".
عن أنس قال: "تلا رسول الله ﷺ: {نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [التحريم: ٦] قال: "أُوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل، لا يضيء لهبها".
وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نَجِيح - وقد اختلف فيه - عن الحسن، عن أنس مرفوعا: "لو أن شرارة بالمشرق - أي من نار جهنم - لوجد حرها مَنْ بالمغرب".
وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لو كان هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه، لاحترق المسجد ومن فيه". قال ابن كثير:" غريب".
عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لمن له نعلان وشِرَاكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، لا يرى أحدا من أهل النار أشدُّ عذابا منه، وإنه أهونهم عذابا".
عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: "إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه".
عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "إن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلي منهما دماغه".

=

قال ابن كثير:" والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: {كَلا إِنَّهَا لَظَى نزاعَةً لِلشَّوَى} [المعارج: ١٥، ١٦] وقال تعالى: {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج: ١٩ - ٢٢] وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [النساء: ٥٦]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة [الأخرى: {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حَرَّ جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال الآخر:

عُمــرُكَ بالحميَــة أفْنَيْتَــه مَخَافَــةَ البــارد والحَــار

وَكــانَ أولَــى بــك أنْ تَتقــي مِــنَ المعَاصِــي حَــذرَ النَّــار".

قوله تعالى: {لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة: ٨١]، أي:"لو كانوا يعلمون ذلك".

قال الطبري:" يقول: لو كان هؤلاء المنافقون يفقهون عن الله وعظَه، ويتدبَّرون آي كتابه، ولكنهم لا يفقهون عن الله، فهم يحذرون من الحرّ أقله مكروهًا وأخفَّه أذًى، ويواقعون أشدَّه مكروهًا وأعظمه على من يصلاه بلاءً".

قوله تعالى: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا} [التوبة: ٨٢]، أي:" فليضحك هؤلاء المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة (تبوك) قليلا في حياتهم الدنيا الفانية، وليبكوا كثيرًا في نار جهنم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فرح هؤلاء المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، فليضحكوا فرحين قليلا في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول الله

=

ولَهْوهم عن طاعة ربهم، فإنهم سيبكون طويلا في جهنم مكانَ ضحكهم القليل في الدنيا".

قال الزمخشري:" معناه: فسيضحكون قليلا، ويبكون كثيرا جزاء إلا أنه أخرج على لفظ الأمر، للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم".

عن ابن عباس قوله: " {فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرًا}، قال: هم المنافقون والكفار، الذين اتخذوا دينهم هُزُوًا ولعبًا. يقول الله تبارك وتعالى: {فليضحكوا قليلا}، في الدنيا {وليبكوا كثيرًا}، في النار".

وروي عن ابن عباس أيضا: "قوله: {فليضحكوا قليلا}، قال: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، {وليبكوا كثيرا}، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا".

وعن أبي رزين: " {فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرًا}، قال يقول الله تبارك وتعالى: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا صاروا إلى الآخرة بكوا بكاءً لا ينقطع. فذلك الكثير".

عن الحسن: " {فليضحكوا قليلا}، قال: ليضحكوا قليلا في الدنيا {وليبكوا كثيرًا}، في الآخرة، في نار جهنم {جزاء بما كانوا يكسبون}".

عن الربيع بن خثيم: " {فليضحكوا قليلا}، قال: في الدنيا {وليبكوا كثيرًا}، قال: في الآخرة".

عن قتادة: " {فليضحكوا قليلا}، أي: في الدنيا. {وليبكوا كثيرًا}، أي: في النار. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا. ذكر لنا أنه نودي عند ذلك، أو قيل له: لا تُقَنِّط عبادي".

قال ابن زيد في قوله: " {فليضحكوا}، في الدنيا، {قليلا}. {وليبكوا}، يوم

=

=

القيامة، {كثيرًا}. وقال: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ}، حتى بلغ: {هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، [سورة المطففين: ٣٦]".

قال الماوردي:" قوله ﷻ {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا}، هذا تهديد وإن خرج مخرج الأمر، وفي قلة ضحكهم وجهان:

أحدهما: أن الضحك في الدنيا لكثرة حزنها وهمومها قليل، وضحكهم فيها أقل لما يتوجه إليهم من الوعيد.

الثاني: أن الضحك في الدنيا وإن دام إلى الموت قليل، لأن الفاني قليل".

وفي قوله تعالى: {وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا} [التوبة: ٨٢]، فيه وجهان:

أحدهما: في الآخرة لأنه يوم مقداره خمسون ألف سنة، وهم فيه يبكون، فصار بكاؤهم كثيرًا، وهذا معنى قول الربيع بن خيثم.

الثاني: في النار على التأبيد لأنهم إذا مسهم العذاب بكوا من ألمه، وهذا قول السدي.

قال الماوردي:"ويحتمل أن يريد بالضحك السرور، وبالبكاء الغم".

عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يا أيها الناس، ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون. فلو أن سُفُنًا أُزْجِيَتْ فيها لَجرَت".

عن زيد بن رُفَيْع، رفعه قال: "إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زمانا، ثم بكوا القيح زمانا" قال: "فتقول لهم الخَزَنَة: يا معشر الأشقياء، تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا، هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتهم: يا أهل الجنة، يا معشر الآباء والأمهات والأولاد، خرجنا من القبور عطاشا، وكنا طول الموقف عطاشا، ونحن اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من

=

فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣).

{فَإِنْ رَجَعَك} رَدَّك {الله} مِنْ تَبُوك {إِلَى طَائِفَة مِنْهُمْ} مِمَّنْ تَخَلَّفَ بِالْمَدِينَةِ مِنْ الْمُنَافِقِينَ {فَاسْتَأْذَنُوك لِلْخُرُوجِ} مَعَك إِلَى غَزْوَة أُخْرَى {فَقُلْ} لَهُمْ {لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّل مَرَّة فَاقْعُدُوا

=

الماء أو مما رزقكم الله، فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم، ثم يجيبهم: {إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف: ٧٧] فييأسون من كل خير".

وعن أنس بن مالك مرفوعًا بلفظ: " يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى تصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيه السفن لجرت".

قال السمعاني:" «الضحك»: حالة تكون في الإنسان من التعجب والفرح، و «البكاء»: حالة تعتري الإنسان من الهم وضيق القلب مع جريان الدمع على الخد، ويقال: إن الضحك في بني آدم كالصهيل في الخيل".

قوله تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٨٢]، أي:" جزاءً بما كانوا يكسبون في الدنيا من النفاق والكفر".

قال الطبري:" يقول: ثوابًا منا لهم على معصيتهم، بتركهم النفر إذ استنفروا إلى عدوّهم، وقعودهم في منازلهم خلافَ رسول الله {بما كانوا يكسبون}، يقول: بما كانوا يجترحون من الذنوب".

عن السدي قوله: " {جزاء بما كانوا يكسبون}، يقول: إن مرجعهم إلى النار".

مَعَ الْخَالِفِينَ} الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ الْغَزْو مِنْ النِّسَاء وَالصِّبْيَان وَغَيْرهمْ(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: فأمره الله بالخروج؛ فتخلف عنه رجال، فأدركتهم أنفسهم؛ فقالوا: والله ما صنعنا شيئًا، فانطلق منهم ثلاثة، فلحقوا برسول الله ﷺ، فلما أتوه؛ تابوا، ثم رجعوا إلى المدينة؛ فأنزل الله ﷻ: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٥٦، ١٨٥٧) بسند ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

* قوله تعالى: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ} [التوبة: ٨٣]، أي:" فإنْ رَدَّك الله -أيها الرسول- مِن غزوتك إلى جماعة من المنافقين الثابتين على النفاق".

وإنما قال (إلى طائفة) لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين، بل كان فيهم معذورون ومن لا عذر له، ثم عفا عنهم وتاب عليهم؛ كالثلاثة الذين خلفوا.

قال السمعاني:" يعني: لو ردك الله إلى طائفة منهم".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فإن ردّك الله، يا محمد، إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه".

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرا لرسوله عليه الصلاة والسلام {فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ} أي: ردك الله من غَزْوَتك هذه {إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ}".

قال الزمخشري:" وإنما قال {إلى طائفة منهم}، لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، أو اعتذر بعذر صحيح. وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة: المنافقين منهم".

قال قتادة:" ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا، وفيهم قيل ما قيل".

=

=

قوله تعالى: {فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ} [التوبة: ٨٣]، أي:" فاستأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى بعد غزوة «(تبوك»".

قال السمعاني:" ليخرجوا معك في القتال".

قال الطبري: أي:" معك في أخرى غيرها".

قال ابن كثير:" أي: معك إلى غزوة أخرى".

قال الزمخشري:" يعنى: إلى غزوة بعد غزوة تبوك. وأول مرة هي الخروج إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق، بخلاف غيرهم من المتخلفين مع الخالفين".

قوله تعالى: {فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا} [التوبة: ٨٣]، أي:" فقل لهم: لن تخرجوا معي أبدًا في غزوة من الغزوات".

قال ابن كثير: أي:" تعزيرا لهم وعقوبة".

قال ابن عطية: قوله تعالى (لن تخرجوا معي أبدا) هو عقوبة لهم وإظهار لدناءة منزلتهم وسوء حالهم، ولا خزي أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع ورده كالجمل الأجرب.

- **قال الشوكاني:** أي: قل لهم ذلك عقوبة لهم، ولما في استصحابهم من المفاسد، كما تقدم في قوله (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا).

قوله تعالى: {وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} [التوبة: ٨٣]، أي:" ولن تقاتلوا معي عدوًا من الأعداء".

قال السمعاني:" قال أهل التفسير: «العدو» ها هنا: أهل الكتاب؛ فإنه لم يكن بقي بجزيرة العرب مشرك في ذلك الوقت".

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [التوبة: ٨٣]، أي:" إنكم قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى «تبوك»".

=

=

قال الطبري:" وذلك عند خروج النبي ﷺ إلى تبوك".

قال ابن كثير:" ثم علل ذلك بقوله: {إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} وهذا كقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ١١٠] فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عُمرة الحديبية: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ} [الفتح: ١٥]".

قوله تعالى: {فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} [التوبة: ٨٣]، أي:" فاقعدوا مع الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ".

قال الطبري:" يقول: فاقعدوا مع الذين قعدوا من المنافقين خلاف رسول الله ﷺ، لأنكم منهم، فاقتدوا بهديهم، واعملوا مثل الذي عملوا من معصية الله، فإن الله قد سخط عليكم".

وفي قوله تعالى: {فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} [التوبة: ٨٣]، وجهان:

أحدهما: أنهم النساء والصبيان، قاله الحسن، وقتادة.

عن قتادة قوله: " {فإن رجعك الله إلى طائفة منهم}، إلى قوله: {فاقعدوا مع الخالفين}، أي: مع النساء. ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين، قيل فيهم ما قيل".

الثاني: هم الرجال الذين تخلفوا بأعذار وأمراض، قاله ابن عباس.

روي عن ابن عباس: " {فاقعدوا مع الخالفين}، و «الخالفون»: الرجال".

قال السمعاني:"و «الخالفون» هاهنا هم النساء والصبيان، وقيل: هم أهل الزمانة والضعف".

قال الطبري:" والصواب من التأويل في قوله: {الخالفين}، ما قال ابن عباس، فأما

=

=

ما قال قتادة من أن ذلك النساء، فقولٌ لا معنى له. لأن العرب لا تجمع النساء إذا لم يكن معهن رجال، بالياء والنون، ولا بالواو والنون. ولو كان معنيًّا بذلك النساء لقيل: " فاقعدوا مع الخوالف"، أو " مع الخالفات". ولكن معناه ما قلنا، من أنه أريد به: فاقعدوا مع مرضى الرِّجال وأهل زَمانتهم، والضعفاء منهم، والنساء. وإذا اجتمع الرجال والنساء في الخبر، فإن العرب تغلب الذكور على الإناث، ولذلك قيل: {فاقعدوا مع الخالفين}، والمعنى ما ذكرنا".

قرأ مالك بن دينار رحمه الله: «مع الخلفين»، على قصر «الخالفين».

- **قال السعدي**: فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة، لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضا تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان ذلك توبيخا لهم، وعارا عليهم ونكالا أن يفعل أحد كفعلهم.

* وفي هذه الآية: دليل على أن من وقع منه خيانة وغدر وضرر: لا يعاد فيولى على ما غدر به؛ وذلك أن الله لم يأذن للمنافقين بعد ما سبق منهم، ولقوله ﷺ: (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين).

فالذين ينتكسون عن الحق ثم يعودون إليه، تقبل توبتهم، وتحمد أوبتهم، ولا يشمت بسابقتهم، ولكن لا يولون ولا يصدرون لقيادة الأمة، ولا في مواضع التأثير فيها؛ وذلك أنهم لا يؤتمنون في عودتهم إلى ما كانوا عليه، فالتذبذب صفة المنافقين، وربما كان ذلك يعود إلى عدم رجاحة العقل وسلامته، وكل ذلك يضر بالأمة، ولم يكن النبي ﷺ والخلفاء الراشدون يولون مرتدا تائبا على بلد، ولا يجعلونه إماما في ثغر، وإن قبلوا توبته وحمدوها؛ إلا ما كان من جعل عثمان بن عفان ابن أبي السرح واليا على مصر؛ وذلك بعدما سبر حاله واستقامة أمره، وقد

=

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤).

وَلَمَّا صَلَّى النَّبِيّ ﷺ على بن أُبَيٍّ نَزَلَ {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَد مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْره} لِدَفْنٍ أَوْ زِيَارَة {إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاَللهِ وَرَسُوله وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} كَافِرُونَ[1].

=

تدرج في توليته؛ فبدأ به على الخراج والحرب، ثم على صعيد مصر، ثم على مصر، وكان بين توبته وولايته عليها نحو من خمسة عشر عاما.

وهذا يختلف عمن كان على كفر أو شرك، ثم دخل إلى الإسلام والحق، ثبت عليه؛ فهؤلاء لم يدخلوا الحق ثم خرجوا منه، وإنما أتوه مقبلين، ولزموه مستيقنين، وهؤلاء كعامة الصحابة؛ كانوا على جاهلية وشرك فدخلوا إلى الخير، ولم تكن سابقتهم عيبا فيهم بعد إسلامهم، ولا مانعا من ولا يتهم ولا سيادتهم، وحالهم وحال أمثالهم يختلف عمن دخل الإسلام واتبع الحق ثم تركه بعد معرفته؛ فإن هؤلاء لا يؤمنون من تركه مرة أخرى؛ لأنهم أقل ثباتا من غيرهم غالبا.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دُعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه؛ فقلت: يا رسول الله! أتصلي على ابن أبيّ بن سلول وقد قال يوم كذا وكذا وكذا وكذا -أُعدّد عليه قوله-؟! فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: "أخّر عني يا عمر"، فلما أكثرت عليه؛ قال: "إني خيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغفر له لزدت عليها"، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} إلى

=

=

{وَهُمْ فَاسِقُونَ}، قال: فعجبت بَعدُ مِن جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ١٣٦٦، ٤٦٧١) وغيره.

و عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: إن عبد الله بن أبيّ لما توفي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! أعطني قميصك أكفنه فيه، وصلّ عليه واستغفر له، فأعطاه النبي ﷺ قميصه، فقال: "آذني أصلي عليه"؛ فآذنهُ، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه، (وفي رواية: فأخذ بثوب رسول الله ﷺ) فقال: يا رسول الله! أليس الله قد نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال: أنا بين خيرتين، قال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ} قال: إنه منافق، فصلى عليه؛ فنزلت: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ١٢٦٩، ٥٧٩٦)، ومسلم (٤/ ٢١٤١ رقم ٢٧٧٤) وغيرهما.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: مات رأس المنافقين بالمدينة وأوصى أن يصلي عليه النبي ﷺ وأن يكفنه في قميصه، فجاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال: أبي أوصى أن يكفّن في قميصك، فصلى عليه وكفّنه في قميصه وقام على قبره؛ فأنزل الله: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)}.

أخرجه ابن ماجة (١٥٢٤)، وابن حبان (٣١٧٤)، والنسائي (٤/ ٨٤) وغيرهم، والحديث قال عنه وقال ابن كثير في تفسيره: وإسناده لا بأس به، وما قبله شاهد له، وقال العلامة الألباني في ضعيف ابن ماجة: منكر بذكر الوصية، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٢/ ٤٨٤): إسناده ضعيف لضعف مجالد.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: إن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن

=

أبي بن سلول فأخذ جبريل عليه السلام بثوبه وقال: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)}.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٠/ ١٤٢)، وأبو يعلى في "المسند" (٧/ ١٤٤، ١٤٥ رقم ٤١١٢) من طريق حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس به.
وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ الرقاشي هذا متروك الحديث، وفي متنه نكارة يأتي بيانها.
قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (٢/ ٣٩٤): "ورواه الحافظ أبو يعلى في "مسنده" من حديث يزيد الرقاشي وهو ضعيف".
وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٣/ ٤٢): "رواه أبو يعلى، وفيه يزيد الرقاشي وفيه كلام وقد وثق". وقال ابن حجر في "الكافي الشاف": "ويزيد ضعيف".
ووجه النكارة: أن الآية نزلت بعد صلاة النبي عليه؛ كما في "الصحيح"، وهذا الحديث يبين أن جبريل جاء للنبي قبل الصلاة وهو منكر؛ لضعف سنده مع المخالفة.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن عبد الله بن أبيّ قال له أبوه: أي بني! اطلب لي من رسول الله ﷺ ثوبًا من ثيابه تكفنني فيه، ومره يصلّي عليّ، فقال عبد الله: يا رسول الله! قد عرفت شرف عبد الله، وإنه أمرني أن أطلب إليك ثوبًا نكفّنه فيه، وأن تصلي عليه، فأعطاه ثوبًا من ثيابه، وأراد أن يصلي عليه، فقال عمر: يا رسول الله! قد عرفت عبد الله ونفاقه، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ قال: "وَأَيْنَ؟"، قال: {إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ}، فقال رسول الله ﷺ: "فَإِنِّي سَأَزِيدُهُ"؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}؛ وأنزل الله ﷻ: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ [لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ]} [المنافقون: ٦]، قال: ودخل رجل على رسول الله ﷺ، فأطال الجلوس، فخرج النبي ﷺ ثلاثًا لكي يتبعه، فلم يفعل، فدخل عمر رضي الله عنه فرأى

=

الرجل، فعرف الكراهية في وجه رسول الله ﷺ بمقعده، فقال: لعلك آذيت النبي ﷺ، [ففطن الرجل فقام، فقال النبي ﷺ]: "لقد قمت ثلاثًا؛ لتتبعني فلم تفعل"، فقال: يا رسول الله! لو اتخذت حاجبًا؛ فإن نساءك لسن كسائر النساء وهو أطهر لقلوبهن؛ فأنزل الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا (٥٣)} [الأحزاب: ٥٣] إلى آخر الآية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأخبره بذلك، قال: واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر في الأسارى؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله! أستحيي قومك وخذ منهم الفداء، فاستعن به، وقال عمر بن الخطاب: اقتلهم، فقال: "لو اجتمعتما ما عصيناكما"، فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر؛ فأنزل الله ﷻ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)} [الأنفال] قال: ثم نزلت: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} إلى آخر الآيات، فقال عمر: تبارك الله أحسن الخالقين، فأنزلت: {فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤].

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٣٤٧، ٣٤٨ رقم ١٢٢٤٤)، و"المعجم الأوسط" (٦/ ١٦، ١٧ رقم ٥٦٦٢)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٢٨٨)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ٤٠١)، والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ١٦٠، ١٦٢ رقم ١٥٩، ١٦٠) من طريق بشر بن السري ثنا رباح بن معروف المكي عن سالم بن

=

=

عجلان الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا إسناد حسن؛ رجاله ثقات عدا رباح، وفيه كلام لا ينزل حديثه عن رتبة الحسن.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩/ ٦٨): "رواه الطبراني في "الكبير" و"الأوسط"؛ وفيه أبو عبيدة بن فضيل بن عياض، وهو لين، وبقية رجاله ثقات". وأبو عبيدة؛ صدوق، ومع ذلك توبع ولم يتفرد به؛ بل توبع عند الطبراني نفسه والبيهقي. قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن سالم بن عجلان الأفطس إلا رباح بن أبي معروف، تفرد به بشر بن السري". وهو ثقة متقن، ولا يضره تفرده.

وعن قتادة؛ قوله: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} الآية، قال: بعث عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله ﷺ وهو مريض ليأتيه، فنهاه عن ذلك عمر، فأتاه نبي الله ﷺ، فلما دخل عليه قال نبي الله ﷺ: "أهلكك حب اليهود"، قال: فقال: يا نبي الله! إني لم أبعث إليك لتؤنّبني ولكن بعثت إليك لتستغفر لي، وسأله قميصه أن يكفن فيه فأعطاه إياه؛ فاستغفر له رسول الله، فمات فكفّن في قميص رسول الله ﷺ ونفث في جلده ودلاه في قبره؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} الآية. قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كُلِّم في ذلك، فقال: "وما يغني عنه قميص من الله -أو ربي-، وصلاتي عليه؟ وإني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٠/ ١٤٢): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وأخرجه عن محمد بن عبد الأعلى عن محمد بن ثور عن عمر عن قتادة. وأخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٨٤، ٢٨٥): نا معمر عن قتادة. وهو مرسل صحيح الإسناد.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: لما مرض عبد الله بن أبي بن سلول مرضه

=

=

الذي مات فيه عاده رسول الله ﷺ، فلما مات صلّى عليه وقام على قبره، قال: فوالله إن مكثنا إلا ليالي حتى نزلت: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ...} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٥٩) ونسبه لابن المنذر.

* قوله تعالى: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} [التوبة: ٨٤].

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ، يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقررا في المؤمنين.

- ما سبب إعطاء النبي ﷺ قميصه ليكفن به هذا المنافق؟

قيل: لتطييب قلب ابنه. قال النووي: وهو أظهر.

وقيل: لأنه كان قد كسا العباس عم رسول الله ﷺ ثوبا حين أسر يوم بدر ، فأعطاه الرسول ﷺ ثوبا بدله لئلا يبقى لكافر عنده فضل.

وقيل: فعل ذلك النبي ﷺ إجابة لسؤال ابنه حين سأله ذلك.... (المجموع).

- ما سبب صلاته ﷺ على أبي بن سلول مع نفاقه وكفره؟

اختلف العلماء في ذلك:

القول الأول: أن النبي ﷺ استغفر له وصلى عليه بناء على الظاهر، حيث إن ظاهره هو أنه من المسلمين، ولم يعلم بباطنه - وأنه مات على الكفر والنفاق - إلا بعد أن نزل النهي عن الصلاة عليه.

=

=

وهـذا رأي النحـاس، والخطـابي، وابـن حـزم، والقاضـي عيـاض، وابـن الجـوزي، والرازي، وابن جزي، والحافظ ابن حجر.

قال ابن عطية: وظاهر صلاته عليه أن كفره لم يكـن يقينـا عنـده، ومحـال أن يـصلي على كافر، ولكنه راعى ظواهره من الإقرار، ووكل سريرته إلى الله ﷻ، وعلى هـذا كان ستر المنافقين من أجل عدم التعيين بالكفر.

وقال الحافظ ابن حجر: أما جزم عمر بأنه منافق فجرى على ما كان يطلع عليه من أحواله، وإنما لم يأخذ النبي ﷺ بقوله وصلى عليه إجراء له على ظاهر حكـم الإسلام كما تقدم تقريره واستصحابا لظاهر الحكم، ولما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته، ومصلحة الاستئلاف لقومه، ودفع المفسدة، وكـان النبـي ﷺ في أول الأمر يصبر على أذى المشركين ويعفـو ويـصفح ثـم أمـر بقتـال المـشركين فاستمر صفحه وعفـوه عمـن يظهـر الإسـلام ولـو كـان باطنـه علـى خـلاف ذلـك لمصلحة الاستئلاف وعدم التنفير عنه، ولذلك قـال لا يتحـدث النـاس أن محمـدا يقتل أصحابه، فلما حصل الفتح ودخـل المـشركون في الإسـلام وقـل أهـل الكفـر وذلوا، أمر بمجاهرة المنافقين وحملهم على حكم مر الحق، ولا سـيما وقـد كـان ذلك قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على المنافقين وغيـر ذلـك ممـا أمـر فيـه بمجاهرتهم، وبهذا التقرير يندفع الإشكال عما وقع في هذه القصة بحمد الله تعالى.

فائدة: وقد مال بعض أهل الحديث إلى تصحيح إسلام عبد الله بن أبي لكون النبي ﷺ صلى عليه، وذهل عن الوارد من الآيـات والأحاديـث المـصرحة في حقـه بمـا ينافي ذلك، ولـم يقف على جواب شـاف في ذلـك، فأقـدم علـى الـدعوى المـذكورة وهو محجوج بإجماع من قبله على نقـيض مـا قـال، وإطبـاقهم علـى تـرك ذكـره في كتـب الـصحابة مـع شـهرته، وذكـر مـن هـو دونـه في الـشرف والـشهرة بأضـعاف مضاعفة، وقد أخرج الطبري من طريق سعيد عن قتادة في هذه القصة قال فأنزل الله

=

=

تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره).قال فذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: وما يغنى عنه قميصي من الله، وإني لأرجو أن يسلم بذلك ألف من قومه.

القول الثاني: أن المنهي عنه هو الاستغفار الذي ترجى إجابته، حتى يكون مقصوده تحصيل المغفرة للمستغفر له، كما فعل النبي ﷺ بأبي طالب، فإنه إنما استغفر له كما استغفر إبراهيم لأبيه، على جهة أن يجيبهما الله تعالى، فيغفر للمدعو له، وهذا النوع هو الذي يتناوله منع الله ونهيه، وأما الاستغفار لأولئك المنافقين الذي خير فيهم فهو استغفار لساني، علم النبي ﷺ أنه لا يقع ولا ينفع، وغايته لو وقع تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر لهم.

قاله أبو العباس القرطبي (في المفهم)، واختاره أبو عبد الله القرطبي في التفسير.

ويدل لهذا القول رواية (لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها)، وهي صريحة بأن النبي ﷺ قد علم بأن استغفاره لن ينفعه بشيء.

القول الثالث: أن النبي ﷺ لم يصل على عبد الله بن أبي ولم يشهد جنازته. وهذا اختيار أبي جعفر الطحاوي.

والجواب عن هذا: بأنه قد جاء في حديث ابن عمر وابن عباس التصريح بأن النبي ﷺ صلى عليه.

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولا تصلِّ، يا محمد، على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك أبدًا".

قوله تعالى: {وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} [التوبة: ٨٤]، أي:" ولا تقم على قبره لتدعو له".

قال الطبري:" يقول: ولا تتولَّ دفنه وتقبيره".

قال الصابوني:" أي: لا تقف على قبره للدفن، أو للزيادة والدعاء".

=

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

=

عن أنس: "أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول، فأخذ جبريل عليه السلام بثوبه فقال: {ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره}".

عن جابر قال: "جاء النبيُّ ﷺ عبدَ الله بن أبيّ وقد أدخل حُفْرته، فأخرجه فوضعه على ركبتيه، وألبسه قميصه، وتَفَل عليه من ريقه، والله أعلم".

عن عاصم بن عمر بن قتادة قال: "لما مات عبد الله بن أبي، أتى ابنه عبد الله بن عبد الله رسولَ الله ﷺ، فسأله قميصه، فأعطاه، فكفَّن فيه أباه".

قال الإمام البيضاوي:" وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه ونهى عن الصلاة عليه لأن الضن بالقميص كان مخلا بالكرم ولأنه كان مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين أسر ببدر، والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له وهو ممنوع في حق الكافر ولذلك رتب النهي على قوله: {مات أبدا}، يعني: الموت على الكفر فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يحي، {ولا تقم على قبره}، ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: ٨٤]، أي:" لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر".

قال الطبري:" يقول: إنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله وماتوا وهم خارجون من الإسلام، مفارقون أمرَ الله ونهيه".

قوله تعالى: {وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة: ٨٤]، أي:" وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان".

قال أهل العلم:"وهذا حكم عام في كل من عُلِمَ نفاقه".

أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥).

{وَلَا تُعْجِبك أَمْوَالهمْ وَأَوْلَادهمْ إنَّمَا يُرِيد الله أَنْ يُعَذِّبهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَق} تَخْرُج {أنفسهم وهم كافرون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ} [التوبة: ٨٥]، أي:" ولا تعجبك -أيها الرسول- أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم".

والمعنى: أي لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم (إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا) فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنئون بها، بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحرقة.... (السعدي).

- قال ابن عطية: تقدم تفسير مثل هذه الآية، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، إذ هو بإجماع ممن لا تفتنه زخارف الدنيا.

ويحتمل أن يكون معنى الآية ولا تعجبك أيها الإنسان، والمراد الجنس، ووجه تكريرها تأكيد هذا المعنى وإيضاحه، لأن الناس كانوا يفتنون بصلاح حال المنافقين في دنياهم.

قال الطبري:": يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تعجبك، يا محمد، أموالُ هؤلاء المنافقين وأولادهم، فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره، من أجل كثرة ماله وولده".

قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا} [التوبة: ٨٥]، أي:"، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا بمكابدتهم الشدائد في شأنها".

قال الطبري: يقول:" فإني إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذبه بها في الدنيا =

وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ

=

بالغموم والهموم، بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات، وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات".

وفي قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا} [التوبة: ٨٥]، أربعة وجوه:

أحدها: يعذبهم بحفظها في الدنيا والإشفاق عليها.

والثاني: يعذبهم بما يلحقهم منها من النوائب والمصائب.

والثالث: يعذبهم في الآخرة بما صنعوا بها في الدنيا عند كسبها وعند إنفاقها.

والرابع: أنه على التقديم والتأخير، وتقديره: ولا تعجبك أموالهم وأولادهم في الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الآخرة. حكاه الماوردي عن ابن الأنباري.

قوله تعالى: {وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٨٥]، أي:" وتخرج أرواحهم ويموتوا على كفرهم بالله ورسوله".

قال الطبري:" يقول: وليموت فتخرج نفسه من جسده، فيفارق ما أعطيته من المال والولد، فيكون ذلك حسرة عليه عند موته، ووبالا عليه حينئذٍ، ووبالا عليه في الآخرة، بموته جاحدًا توحيدَ الله، ونبوةَ نبيه محمد صلى".

قال الزحيلي:"أي: تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب".

عن السدي: " {وتزهق أنفسهم}، في الحياة الدنيا".

عن سفيان:" {وتزهق أنفسهم} في الدنيا، {وهم كافرون}".

قال البيضاوي: وهذه الآية" تكرير للتأكيد والأمر حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوس مغتبطة عليها. ويجوز أن تكون هذه في طريق غير الأول".

مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦).

{وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَة} أَيْ طَائِفَة مِنْ الْقُرْآن {أَنْ} أَيْ بِأَنْ {آمِنُوا بِاَللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رسوله استأذنك أولو الطول} ذوو الغنى {منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين}.

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧).

{رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِف} جَمْع خَالِفَة أَيْ النِّسَاء اللَّاتِي تَخَلَّفْنَ فِي الْبُيُوت {وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبهمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} الْخَيْر[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ} [التوبة: ٨٦]، أي:" أن من الصفات الذميمة لهؤلاء المنافقين، أنهم كلما نزلت سورة قرآنية، تدعو في بعض آياتها الناس إلى الإيمان بالله والجهاد في سبيله، ما كان منهم عند ذلك إلا الجبن والاستخذاء والتهرب من تكاليف الجهاد".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإذا أنزل عليك، يا محمد، سورة من القرآن، بأن يقال لهؤلاء المنافقين: {آمنوا بالله}، يقول: صدِّقوا بالله {وجاهدوا مع رسوله}، يقول: اغزوا المشركين مع رسول الله ﷺ".

قال سعيد بن جبير:"قوله: {آمنوا بالله}، يعني: بتوحيد الله".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ} [التوبة: ٨٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: استديموا الإيمان بالله.

والثاني: افعلوا فعل من آمن بالله.

والثالث: آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بأفواهكم، ويكون خطابًا للمنافقين.

قال أهل العلم: "ومعنى الأمر للمؤمنين بالإيمان: الدوام عليه والتمسك به في مستقبل الأوقات، مع أن هذا أمر عام يدخل فيه أمر المنافقين بالإيمان، ثم الجهاد؛ لأنه لا ينفعهم ذاك مع النفاق".

=

=

قوله تعالى: {اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ} [التوبة: ٨٦]، أي:" طلب الإذن منك -أيها الرسول- أولو اليسار من المنافقين".

والطول - بفتح الطاء - يطلق على الغنى والثروة، مأخوذ من مادة الطول بالضم التي هي ضد القصر.

والمراد بأولى الطول: رؤساء المنافقين وأغنياؤهم والقادرون على تكاليف الجهاد.

أي: عند نزول السورة الداعية إلى الجهاد، يجيء هؤلاء المنافقون أصحاب الغنى والثروة، إلى الرسول ﷺ ليستأذنوا في القعود وعدم الخروج... وليقولوا له بجبن واستخذاء ذرنا نكن مع القاعدين.

أي: اتركنا يا محمد مع القاعدين في المدينة من العجزة والنساء والصبيان، واذهب أنت وأصحابك إلى القتال.

- وإنما خص ذوى الطول بالذكر، تخليدا لمذمتهم واحتقارهم لأنه كان المتوقع منهم أن يتقدموا صفوف المجاهدين، لأنهم يملكون وسائل الجهاد والبذل، لا ليتخاذلوا ويعتذروا، ويقولوا ما قالوا مما يدل على جبنهم والتوائهم.

قال الطبري:" يقول: استأذنك ذوو الغنى والمال منهم في التخلف عنك، والقعود في أهله".

وفي تفسير قوله تعالى: {اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ} [التوبة: ٨٦]، وجوه:

أحدها: أهل الغنى، قاله ابن عباس، وقتادة.

والثاني: يعني: الكبراء المنظور إليهم، وخص هؤلاء بالذكر لأن الذم لهم ألزم بكونهم قادرين على الجهاد والسفر. قاله ابن كيسان.

الثالث: أهل القدرة. ذكره الماوردي.

قال السمعاني:" الطول: هو السعة والغنا بإجماع المفسرين، وقيل: إنه إنما سميت

=

=

السعة طولا؛ لأن الإنسان يتطاول بها الناس".

قال الواحدي:"والصحيح: أنه ذكر {أُولُو الطَّوْلِ}، لأن من لا مال له ولا قدرة على السفر لا يحتاج إلى الاستئذان في القعود؛ لأنه معذور، وهؤلاء لا عذر لهم في القعود، فيستأذنون ويقعدون، وقد فضح الله ﷻ المنافقين بهذه الصفات التي ذكرهم بها أشد الفضيحة.

روي عن ابن إسحاق: " {وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم}، كان منهم عبد الله بن أبيّ، والجدُّ بن قيس. فنعى الله ذلك عليهم".

قوله تعالى: {وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٨٦]، أي:" وقالوا: اتركنا مع القاعدين العاجزين عن الخروج".

قال الطبري:" وقالوا لك: دعنا، نكن ممن يقعد في منزله مع ضعفاء الناس ومرضاهم، ومن لا يقدر على الخروج معك في السفر".

قال السمعاني:" يعني: مع القاعدين عن الجهاد".

عن أبي مالك قوله: " {ذر}، يعني: خل".

قوله تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ} [التوبة: ٨٧]، أي:" رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم بالعار، وهو أن يقعدوا في البيوت مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: رضي هؤلاء المنافقون الذين إذا قيل لهم: آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله، استأذنك أهل الغنى منهم في التخلف عن الغزو والخروج معك لقتال أعداء الله من المشركين أن يكونوا في منازلهم، كالنساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد، فهن قعود في منازلهنّ وبيوتهنّ".

قال ابن كثير:" يقول تعالى منكرًا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع

=

=

القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: {ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلامًا، كما قال الله) تعالى، عنهم في الآية الأخرى: {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [الأحزاب: ١٩] أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر:

أفي السّلم أعيارًا جفَاءً وَغلْظَةً وَفي الحَرْب أشباهُ النّسَاءِ العَوارِكِ

وقال تعالى في الآية الأخرى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نزلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ [فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ} الآية [محمد: ٢٠ - ٢٢] "

وفي قوله تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ} [التوبة: ٨٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: مع المنافقين، حكاه الماوردي عن مقاتل.

والثاني: أنهم خساس الناس وأدناهم مأخوذ من قولهم فلان خالفه أهله إذا كان دونهم، قاله ابن قتيبة.

والثالث: أنهم النساء، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وشمر بن عطية، وأبي مالك، والضحاك، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والكلبي، وبه قال الفراء، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والطبري، والبيضاوي، وابن عاشور.

عن السدي:" {رضوا بأن يكونوا مع الخوالف}،: وهم النساء. رضوا بأن يقعدوا

=

لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨).

{لَكِنْ الرَّسُول وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسهمْ وَأُولَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَات} فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة {وأولئك هم المفلحون} أي الفائزون.

=

كما قعدت النساء".

قوله تعالى: {وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [التوبة: ٨٧]، أي:" وختم الله على قلوبهم؛ بسبب نفاقهم وتخلفهم عن الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ في سبيل الله".

قال الطبري:" يقول: وختم الله على قلوب هؤلاء المنافقين".

قال ابن كثير:" أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله".

عن سعيد المقبري في قول الله- ﷻ-: " {وطبع على قلوبهم}، قال: ختم على قلوبهم".

عن قتادة قوله: وطبع على قلوبهم أي: بأعمالهم فهم لا يفقهون".

قوله تعالى: {فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة: ٨٧]، أي:" فهم لا يفقهون ما فيه صلاحهم ورشادهم".

قال الطبري: أي: "عن الله مواعظه، فيتعظون بها".

قال ابن كثير:"أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه".

قال البيضاوي: أي:" ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في التخلف عنه من الشقاوة".

أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)

{أعد الله لَهُمْ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا ذلك الفوز العظيم}(١).

---

(١) قوله تعالى: {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} [التوبة: ٨٨]، أي:" إنْ تخلَّف هؤلاء المنافقون عن الغزو، فقد جاهد رسول الله ﷺ والمؤمنون معه بأموالهم وأنفسهم".

لما شرح تعالى حال المنافقين في الفرار عن الجهاد بين أن حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لم يجاهد هؤلاء المنافقون الذين اقتصصت قصصهم المشركين، لكن الرسول محمد ﷺ والذين صدقوا الله ورسوله معه، هم الذين جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم، فأنفقوا في جهادهم أموالهم واتعبوا في قتالهم أنفسهم وبذلوها".

قال البيضاوي:" أي: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم".

قال الرازي:" لما شرح حال المنافقين في الفرار عن الجهاد بين أن حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه.

وقوله: {لكن} فيه فائدة، وهي: أن التقدير أنه إن تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو، فقد توجه إليه من هو خير منهم، وأخلص نية واعتقادا، كقوله: {فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما} [الأنعام: ٨٩] وقوله: {فإن استكبروا فالذين عند ربك} [فصلت: ٣٨]".

=

=

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} [التوبة: ٨٨]، أي:" وأولئك لهم النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة".

قال البيضاوي: أي:" منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة".

قال الطبري:" يقول: وللرسول وللذين آمنوا معه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم (الخيرات)، وهي خيرات الآخرة، وذلك: نساؤها، وجناتها، ونعيمها".

قال ابن كثير:" أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى".

وفي قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} [التوبة: ٨٨]، اربعة وجوه:

أحدها: أنها غنائم الدنيا ومنافع الجهاد.

والثاني: فواضل العطايا.

والثالث: ثواب الآخرة.

والرابع: حُور الجنان، من قوله تعالى: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [الرحمن: ٧٠].

قال الطبري:" [«الخيرات»]: واحدتها " خَيْرَة"، كما قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلاتِ رَبَلاتِ هِنْدٍ خَيْرَةِ المَلِكاتِ

و «الخيرة»، من كل شيء، الفاضلة.

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التوبة: ٨٨]، أي:" وأولئك هم الفائزون".

قال البيضاوي: أي:" الفائزون بالمطالب".

قال الطبري:" يقول: وأولئك هم المخلدون في الجنات، الباقون فيها، الفائزون بها".

عن ابن عباس: " {وأولئك هم المفلحون}، أي: الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا".

=

=

عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي قال: "سمعت أبا حازم يقول: إن الله ليعد للعبد من عبيده في الجنة لؤلؤة مسيرة أربعة برد، أبوابها وغرفها ومغاليقها ليس فيها فصم ولا قصم، والجنة مائة درجة فثلاث منها ورق وذهب ولؤلؤة وزبرجد وياقوت، وسبعة وتسعون لا يعلمها إلا الذي خلقها".

قال الرازي:" ولما وصفهم بالمسارعة إلى الجهاد ذكر ما حصل لهم من الفوائد والمنافع. وهو أنواع:

أولها: قوله: {وأولئك لهم الخيرات}، واعلم أن لفظ «الخيرات»، يتناول منافع الدارين، لأجل أن اللفظ مطلق. وقيل: «الخيرات الحور»، لقوله تعالى: {فيهن خيرات حسان} [الرحمن: ٧٠].

وثانيها: قوله: {وأولئك هم المفلحون}، فقوله: {لهم الخيرات} المراد منه الثواب. وقوله: {هم المفلحون} المراد منه التخلص من العقاب والعذاب.

وثالثها: قوله: {أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} يحتمل أن تكون هذه الجنات كالتفسير للخيرات وللفلاح، ويحتمل أن تحمل تلك الخيرات والفلاح على منافع الدنيا، مثل الغزو، والكرامة، والثروة، والقدرة، والغلبة، وتحمل الجنات على ثواب الآخرة. والفوز العظيم عبارة عن كون تلك الحالة مرتبة رفيعة، ودرجة عالية".

قوله تعالى: {أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة: ٨٩]، أي:" أعدَّ الله لهم يوم القيامة جنات تجري مِن تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أعد الله لرسوله محمد ﷺ وللذين آمنوا معه {جنات}، وهي البساتين، تجري من تحت أشجارها الأنهار".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} [التوبة: ٨٩]، أي:" ماكثين فيها أبدًا".

عن سعيد بن جبير: {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

=

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠).

{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ} بِإِدْغَامِ التَّاء فِي الْأَصْل فِي الدَّال أَيْ الْمُعْتَذِرُونَ بِمَعْنَى الْمَعْذُورِينَ وَقُرِئَ بِهِ {مِنْ الْأَعْرَاب} إلَى النَّبِيّ ﷺ {لِيُؤْذَن لَهُمْ} فِي الْقُعُود لِعُذْرِهِمْ فَأَذِنَ لَهُمْ {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا الله وَرَسُوله} فِي ادِّعَاء الْإِيمَان مِنْ مُنَافِقِي الْأَعْرَاب عَنْ الْمَجِيء للاعتذار {سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم}(١).

=

عن السدي: " {هم خالدون}: خالدا أبدا".

قال الطبري:" يقول: لابثين فيها، لا يموتون فيها، ولا يظعنون عنها".

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٨٩]، أي:" وذلك هو الفلاح العظيم".

قال الطبري:" يقول: ذلك النجاء العظيم، والحظّ الجزيل".

قال سعيد بن جبير: " يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم".

قال الراغب: " ووصف الفوز بالعظيم اعتبارا بفوز الدنيا".

قال النسفي: " لأنه باق بخلاف الفوز في الدنيا فهو غير باق".

(١) قوله تعالى: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ} [التوبة: ٩٠]، أي:" وجاء جماعة من أحياء العرب حول (المدينة) يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج للغزو، غير مبالين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وجاء}، رسولَ الله ﷺ {المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم}، في التخلف".

قال ابن كثير:" ثم بَيَّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا

=

=

رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة".

قال البيضاوي:" والمعذر إما من عذر في الأمر إذا قصر فيه موهما أن له عذرا ولا عذر له، أو من اعتذر إذا مهد العذر".

قال الفخر:" «المعذر»: هو المجتهد البالغ في العذر، ومنه قولهم: «قد أعذر من أنذر»، وعلى هذه القراءة، فمعنى الآية: أن الله تعالى فصل بين أصحاب العذر وبين الكاذبين، فـ «المعذرون» هم الذين أتوا بالعذر... وهذا القول أظهر في معنى الآية لأنه سبحانه قال بعد هذا: (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله).أي: لم يأتوا فيعتذروا".

وفي قوله تعالى: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ} [التوبة: ٩٠]، وجهان:

أحدهما: أنهم المعتذرون بحق اعتذروا به فعذروا، قاله ابن عباس، ومجاهد-في أحد قوليه، وهو تأويل قراءة من قرأها بالتخفيف. وهو اختيار ابن كثير.

عن الضحاك قال: كان ابن عباس يقرأ: «وَجَاءَ الْمُعْذِرُونَ»، مخففةً، ويقول: هم أهل العذر".

والثاني: هم المقصرون المعتذرون بالكذب، قاله الحسن، وقتادة، ومجاهد، وتأويل من قرأها بالتشديد، لأنه إذا خفف مأخوذ من العذر، وإذا شدد مأخوذ من التعذير، والفرق بينهما أن العذر حق والعذير كذب.

وقد سار على هذا الرأي صاحب الكشاف فقال: «المعذرون» من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد فيه، وحقيقته أنه يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له.

أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال، وهم الذين يعتذرون بالباطل، كقوله،

=

=

يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم.

وعلى هذا الرأي تكون الآية الكريمة قد ذكرت قسمين أيضا من الأعراب، إلا أن أولهما قد اعتذر بأعذار غير مقبولة، وثانيهما لم يعتذر، بل قعد في داره مصرا على كفره، ولذا قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان سيئا: قوم تكلفوا عذرا بالباطل وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله (وجاء المعذرون)، وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدوا جرأة على الله وهم المنافقون، فتوعدهم الله بقوله: (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم).

عن يونس قال: "كان الحسن يقرأ: وجاء المعذرون من الأعراب قال: اعتذروا بشيء ليس بحق".

عن أبي إسحاق:" {وجاء المعذرون من الأعراب}، ذكر لي: أنهم نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم رسول الله ﷺ".

قال السدي:"من قرأها «وجاء المعذرون» خفيفة، قال: بنو مقرن، ومن قرأها «وجاء المعذرون من الأعراب»، قال: الذين لهم عذر".

عن مجاهد: " {وجاء المعذرون من الأعراب}، قال: نفر من بني غفار، جاءوا فاعتذروا، فلم يعذرهم الله".

وروي عن ابن إسحاق قال: "كان المعذرون، فيما بلغني، نفرًا من بني غِفارٍ، منهم: خفاف بن أيماء بن رَحَضة، ثم كانت القصة لأهل العذر، حتى انتهى إلى قوله: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، الآية".

قوله تعالى: {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ} [التوبة: ٩٠]، أي:" وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله صلى الله عليه".

قال ابن كثير:"أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار"

قال الطبري:" {وقعد}، عن المجيء إلى رسول الله ﷺ والجهاد معه {الذين

=

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١).

=

كذبوا الله ورسوله}، وقالوا الكذب، واعتذرُوا بالباطل منهم".

عن ابن عباس:" {عذاب أليم}، يقول: نكال".

قوله تعالى: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٩٠]، أي:" سيصيب الذين كفروا من هؤلاء عذاب أليم في الدنيا بالقتل وغيره، وفي الآخرة بالنار".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: سيُصيب الذين جحدوا توحيد الله ونبوة نبيه محمد ﷺ منهم، عذابٌ أليم".

قال البيضاوي:" {سيصيب الذين كفروا منهم}، من الأعراب أو من المعذرين، فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره عذاب أليم بالقتل والنار".

عن ابن عباس في قوله: " {عذاب أليم}، يقول: نكال".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده "عن أبي العالية، في قوله: {ولهم عذاب أليم}، قال: الأليم الموجع في القرآن كله".

قال ابن أبي حاتم: " وكذلك فسره سعيد بن جعفر، والضحاك بن مزاحم، وقتادة وأبو مالك، وأبو عمران الجوني، ومقاتل بن حيان".

قال الثعلبي: أي: "وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم، وهو بمعنى مؤلم".

قال القرطبي: " «أليم»، في كلام العرب معناه مؤلم أي موجع، مثل السميع بمعنى المسمع، قال ذو الرمة يصف إبلا:

ونرفع من صدور شمردلات يصُك وجوهها وهج أليم

{لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء} كَالشُّيُوخِ {وَلَا عَلَى الْمَرْضَى} كَالْعُمْيِ وَالزَّمْنَى {وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ} فِي الْجِهَاد {حَرَج} إثْم فِي التَّخَلُّف عَنْهُ {إذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُوله} فِي حَال قُعُودهمْ بِعَدَمِ الْإِرْجَاف وَالتَّثْبِيط وَالطَّاعَة {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} بِذَلِكَ {مِنْ سَبِيل} طَرِيق بِالْمُؤَاخَذَةِ {وَاَللَّه غَفُور} لَهُمْ {رَحِيم} بِهِمْ فِي التَّوْسِعَة فِي ذلك.

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢).

{وَلَا عَلَى الَّذِينَ إذَا مَا أَتَوْك لِتَحْمِلهُمْ} مَعَك إلَى الْغَزْو وَهُمْ سَبْعَة مِنْ الْأَنْصَار وَقِيلَ بَنُو مُقْرِن {قُلْت لَا أَجِد مَا أَحْمِلكُمْ عَلَيْهِ} حَال {تَوَلَّوْا} جَوَاب إذَا أَيْ انْصَرَفُوا {وَأَعْيُنهمْ تَفِيض} تَسِيل {مِنْ} لِلْبَيَانِ {الدَّمْع حَزَنًا} لِأَجْلِ {أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ} فِي الجهاد.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣).

{إنَّمَا السَّبِيل عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَك} فِي التَّخَلُّف {وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِف وَطَبَعَ الله عَلَى قُلُوبهمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} تقدم مثله[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن زيد بن ثابت؛ قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ براءة، فكنت أكتب ما أنزل الله عليه، إني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى، فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ} الآية.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٦١): ثنا أبي ثنا هشام بن عبد الله =

=

الرازي ثنا ابن جابر عن أبي فروة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن زيد به. وهذا إسناد ضعيف؛ ابن جابر هذا هو محمد بن جابر بن سيار بن طلق السحيمي؛ قال في "التقريب": "صدوق، ذهبت كتبه؛ فساء حفظه، وخلط كثيرًا، وعمي؛ فصار يتلقن، ورجحه أبو حاتم على ابن لهيعة"؛ كما في "التقريب"، وأبو فروة؛ هو مسلم بن سالم أبو فروة الهمداني؛ ثقة.

وعن قتادة؛ قال: نزلت في عائذ بن عمرو وفي غيره.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٠/ ١٤٥): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قوله: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى} إلى قوله: {لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ}، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله! احملنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: "والله ما أجد ما أحملكم عليه"؛ فتولوا ولهم بكاء، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملًا، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ} إلى قوله: {فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٠/ ١٤٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٦٣، ١٨٦٤). وإسناده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن مجاهد؛ قال: نزلت في المنافقين.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٦١) من طريق ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد. ونص قول مجاهد كما عند ابن أبي حاتم: عن

=

=

مجاهد قال: يعني نزل من عند قوله (عفا الله عنك) إلى قوله: (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) في المنافقين.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قوله: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى} إلى قوله: {حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله! احملنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: "والله ما أجد ما أحملكم عليه"؛ فتولوا ولهم بكاء، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملًا، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ} إلى قوله: {فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٠/ ١٤٥) وتقدم عليه الكلام في الحديث السابق.

وعن عبد الرحمن السلمي وحجر بن حجر الكلاعي قالا: أتينا العرباض بن سارية وهو ممن نزل فيه: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} فسلمنا، وقلنا: أتيناك زائرين وعائدين ومقتبسين، فقال العرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًا؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة".

أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجة

=

=

(٤٢) و (٤٣)، والدارمي (٩٥)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: (١/ ٧٤ - ٧٥)، والآجري في الشريعة (ص ٤٦ - ٤٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧ - ١٩)، وأبو عبيد في الخطب والمواعظ (٢)، والحاكم (١/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٥)، وابن وضاح في البدع (ص ٢٣، ٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٢٠، ٢٢١ و ١٠/ ١١٤، ١١٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٦٩)، والهروي في ذم الكلام (٦٩/ ١ - ٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤)، وفي الإعتقاد (ص ١١٣)، والخطيب في الموضح (٢/ ٤٢٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١١/ ٢٣٥/ ١) وغيرهم من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، والحديث صححه الترمذي، وكذا صححه البزار كما في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٤)، وحسنه البغوي في شرح السنة، وقال أبو نعيم في المستخرج على صحيح مسلم: حديث جيد من صحيح حديث الشاميين كما في جامع العلوم والحكم (ص ٢٢٦)، وصححه ابن حبان والحاكم، وقال الجوزقاني في الأباطيل والمناكير (١/ ٤٧٢): صحيح ثابت مشهور، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٤): ثابت صحيح، وقال شيخ الاسلام الانصاري هو أجود حديث في أهل الشام وأحسنه كما في تحفة الطالب (٤٦)، وصححه الضياء المقدسي في جزء في اتباع السنن واجتناب البدع (رقم ٢)، وصححه شيخ الإسلام في الإقتضاء (٢/ ٨٣)، وجوده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٣١٣)، وقال العراقي في الباعث على الخلاص (رقم ١): صحيح مشهور، وقال ابن كثير في تحفة الطالب (رقم ٤٦): وصححه أيضا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، والدغولي، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة وانظر الصحيحة (٩٣٧)، وحسنه الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٥/ ٢٤ - ٢٥)، وصححه الحويني في تخريج فضائل القرآن (ص ٦٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق

=

=

المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت هذه الآية: {وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} في معقل بن يسار، وصخر بن سلمان، وعبد الله بن كعب الأنصاري وعلبة بن يزيد الأنصاري.

أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٤/ ١٨٣٨ رقم ٤٦٤١) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به.و مَن دون ابن عباس كذابون.

وعنه -أيضًا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: أتى رسول الله ﷺ قوم يسألونه الحملان؛ ليخرجوا معه إلى تبوك، فقال لهم: "ما أجد ما أحملكم عليه"؛ فمنهم: سالم بن عمير أخو بني عمرو بن عوف -وهو من بني واقف-، وعبد الله بن مغفل المزني، وعلبة بن زيد بن حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب -أخو بني مازن-، وصخر بن سلمان، وعمرو بن الحضرمي، وثعلبة بن غنمة، وكانوا أهل حاجة، ولم يكن عند رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه؛ فتولوا من عند رسول الله ﷺ وهم يبكون؛ حرصًا على الجهاد ألا يجدوا ما يتحملون به، وهو قوله: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢)}.

أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٣/ ١٥١٦، ١٥١٧ رقم ٣٨٣٤٩) بالسند السابق، وهو سند تالف.

وعن محمد بن كعب القرظي وغيره؛ قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يستحملونه، فقال: "لا أجد ما أحملكم عليه"؛ فأنزل الله: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ} الآية، قال: هم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، ومن بني واقف: حِرْمي بن عمرو، ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن

=

=

كعب؛ يكنى أبا ليلى، ومن بني المعلى: سلمان بن صخر، ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه، ومن بني سلمة: عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزني.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٠/ ١٤٦) من طريق عبد العزيز بن أبان ثنا أبو معشر عن محمد به. وسنده ضعيف جدًا، تقدم الكلام على سنده مرارًا.

وعن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده؛ قال: والله إني أحد النفر الذين أنزل الله فيهم: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢)}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٦٢ - ١٨٦٣) من طريق محمد بن خالد بن عثمة عن كثير به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ كثير بن عبد الله متروك الحديث، متهم بالكذب.

* قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ} [التوبة: ٩١]، أي:" ليس على أهل الأعذار من الضعفاء والمرضى والفقراء الذين لا يملكون من المال ما يتجهزون به للخروج إثم في القعود".

والضعف عن القدرة على الجهاد على نوعين:

النوع الأول: ضعف البدن، وهو اللازم فيه، وهو ضعف البدن من هزال أو مرض من عرج أو عمى أو صمم، وغير ذلك من علل الأبدان التي تضعف الإنسان عن لقاء العدو.

النوع الثاني: ضعف العدة، فلا يجد سلاحا يقابل به العدو، ولا مركبا يحمله إلى مكان الغزو ويركبه، فيكر ويتحيز ويتحرف، ولا طعاما يتفوته في طريقه ورباطه.

=

=

وهذان النوعان من الضعف الذي يعذر بمثله صاحبه في ترك الجهاد الذي يتعين عليه لو كان قادرا.

قوله (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) أي: لا يجدون زادا، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم.

(حرج) أي: إثم أو ذنب بسبب عدم خروجهم مع النبي ﷺ إلى تبوك لقتال الكافرين.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ليس على أهل الزمانة وأهل العجز عن السفر والغزو، ولا على المرضى، ولا على من لا يجد نفقة يتبلغ بها إلى مغزاه حرج، وهو الإثم".

وفي «الضعفاء»، ها هنا أربعة أوجه:

أحدها: أنهم الصغار لضعف أبدانهم.

الثاني: المجانين لضعف عقولهم.

الثالث: العميان لضعف بصرهم. كما قيل في تأويل قوله تعالى في شعيب: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا} [هود: ٩١]، أي: ضريرًا.

والرابع: أنهم الزّمنى، والشيخ الكبير. قاله مقاتل.

قال الزمخشري:" {الضعفاء}: الهرمى والزمنى. و {الذين لا يجدون}: الفقراء. وقيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة".

عن ابن لهيعة، "أن أبا شريح الكعبي كان من الذين قال الله: {ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله}".

قوله تعالى: {إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: ٩١].

أي: بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث

=

=

والترغيب والتشجيع على الجهاد.

قال الطبري: أي:" إذا نصحوا لله ولرسوله في مغيبهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ".

قال ابن كثير:" فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا".

قال الجمل: ومعنى النصح - هنا - أن يقيموا في البلد، ويحترزوا عن إنشاء الأراجيف، وإثارة الفتن، ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو، ويقوموا بمصالح بيوتهم، ويخلصوا الإيمان والعمل لله ويتابعوا الرسول ﷺ، فجملة هذه الأمور تجرى مجرى النصح لله ورسوله.

وفي قوله تعالى: {إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: ٩١]، وجهان:

أحدهما: إذا برئوا من النفاق.

الثاني: إذا قاموا بحفظ المخلفين من الذراري والمنازل.

قال الماوردي:" فإن قيل بالتأويل الأول كان راجعًا إلى جميع من تقدم ذكره من الضعفاء. والمرضى الذين لا يجدون ما ينفقون، وإن قيل بالتأويل الثاني كان راجعًا إلى الذين لا يجدون ما ينفقون خاصة".

قال الزمخشري:" النصح لله ورسوله: الإيمان بهما، وطاعتهما في السر والعلن، وتوليهما، والحب والبغض فيهما كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه".

بذكر عن أبي ثمامة قال: "قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا من الناصح لله؟ قال: الذي يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران، أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذي للآخرة ثم يفرغ للذي للدنيا".

قوله تعالى: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} [التوبة: ٩١]، أي:" ليس عليهم جناح، ولا الى معاتبتهم سبيل، وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله،

=

=

ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم، وهذا من بليغ الكلام لان معناه: لا سبيل لعاتب عليهم، وهو جار مجرى المثل".

قال الطبري:" يقول: ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلّفه عن رسول الله ﷺ عن الجهاد معه، لعذر يعذر به، طريقٌ يتطرَّق عليه فيعاقب من قبله".

قال الزمخشري:" معنى: لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم. ولا طريق للعاتب عليهم".

عن الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء، فقام فيهن بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر، ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم إنا نسمعك تقول: {ما على المحسنين من سبيل}، وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا، واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم، فسقوا".

قال السعدي: وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في نفسه أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمفرط، أن عليه الضمان.

ففي الآية إشارة إلى عفو الله عن المجتهد الذي بذل وسعه في الإحسان ووقع منه تقصير لم يرده، وقد استدل بها بعض الفقهاء على سقوط الدية عمن استوفى حقه في القصاص من خصمه فيما دون النفس - كقطع اليد والرجل، وفقء العين - وتحرى العدل، ثم مات المقتص منه؛ أنه لا دية عليه؛ وبهذا قال مالك والشافعي وجماعة، خلافا لأبي حنيفة.

ومثل ذلك من دافع عن نفسه من دفع صائل من إنسان أو حيوان؛ كفحل هاج عليه فدفعه، أو رماه بما لا يدفع عادة إلا به، فمات؛ فإنه لا دية عليه؛ لأنه بفعل ذلك

=

=

محسن، ولم يكن قاصدا للسوء، والمحسن لا سبيل عليه.

ومثل ذلك من قام بإنقاذ غريق أو حريق أو هديم، وجذبه بما لا يخرج إلا بمثله، فقطع يده أو جرحه أو أتلف لباسه أو مركبته، ومثلهم الذين يعملون في إنقاذ النفوس من الحوادث والكوارث فيحسنون إلى الناس، فيصيب الناس منهم ضرر في أنفسهم وأموالهم، ولم يقصدوا الإساءة، وتحروا الإحسان؛ فليس عليهم ضمان على الصحيح.

وفرق بين الخطأ الذي لم تأذن الشريعة بمباشرته ولا الإحسان فيه، وبين ما أذنت الشريعة بمباشرته والإحسان فيه:

فأما الأول: فكمن يسير في شأنه، فدعس بالخطأ رجلا أو أتلف مالا، فهذا عليه الضمان؛ لأن الشريعة لم تأذن له بمباشرة التعرض للإنسان ولا للحيوان في تلك الحال.

وأما الثاني: فكما سبق ممن أذنت له الشريعة بالتعرض للإنسان وللحيوان الصائل ولإنقاذ الغريق، وإنما لحقت الجناية من أذنت الشريعة بالإحسان في رفع شره والعدل فيه، فمن لم يقصر فيما أذن له بمباشرته، فهو محسن، والله يقول: {ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم}، فبين بقوله: {ما على المحسنين من سبيل} رفع الحق في الدنيا؛ إذ لا سبيل عليهم، وبين بقوله: {والله غفور رحيم} رفع الإثم في الآخرة.

قوله تعالى: {وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٩١]، أي:" والله غفور للمحسنين، رحيم بهم".

قال الطبري:" يقول: والله ساتر على ذنوب المحسنين، يتغمدها بعفوه لهم عنها = {رحيم}، بهم، أن يعاقبهم عليها".

عن سعيد بن جبير في قوله: " {والله غفور}، لما كان منهم في الشرك، {رحيم}

=

=

بهم بعد التوبة".

والغفور: اسم من أسماء الله.

(رحيم) اسم من أسماء الله دال على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى، كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) وقال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء).

قال السعدي: الغفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب.

قوله تعالى: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢)} [التوبة: ٩٢]

اختلف فيمن نزلت هذه الآية، على أقوال:

أحدها: أنها نزلت في العرباض بن سارية، قاله عبد الرحمن بن عمرو السلمي، وحجر بن حجر الكلاعي، وإسناده صحيح.

والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن الأزرق وأبي ليلى، قاله السدي.

عن السدي قوله: " {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه}، قال: أقبل رجلان من الأنصار، أحدهما يقال له: عبد الله بن الأزرق والآخر: أبو ليلى فسألوا، النبي ﷺ أن يحملهم فيخرجون معه فقال: لا أجد ما أحملكم عليه. فبكوا حزنا ألا يجدوا ما ينفقون".

والثالث: أنها نزلت في بني مقرّن من مُزينة، قاله مجاهد.

وروي محمد بن خالد بن عثمة عن كثير بن عبد الله بن عمرو المزني:"وكان إذا حدث قال: أبي والله، يعني جده عمرا- أحد النفر الذين أنزل الله فيهم: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا} الآية".

والرابع: أنها نزلت في سبعة من قبائل شتى، قاله محمد بن كعب، ومحمد بن إسحاق.

=

=

عن أبي معشر، عن محمد بن كعب وغيره قال: "جاء ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ يستحملونه، فقال: {لا أجد ما أحملكم عليه}! فأنزل الله: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، الآية. قال: هم سبعة نفر: من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير ومن بني واقف: هرمي بن عمرو ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى: سلمان بن صخر ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد، أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضِه فقبله الله منه ومن بني سَلِمة: عمرو بن غنمه، وعبد الله بن عمرو المزني".

عن ابن إسحاق قوله: " {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، إلى قوله: {حزنًا}، وهم البكاؤون، كانوا سبعة".

والخامس: أنها نزلت في عبد الله بن مغفل وأصحابه. قاله ابن عباس.

عن ابن عباس، قوله: " {تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون}، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم: عبد الله بن مغفل فقالوا: يا رسول الله، احملنا فقال لهم رسول الله ﷺ «والله ما أجد ما أحملكم عليه فتولوا ولهم بكاء»، وعزيز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة، ولا محملا، فلما رأى الله ﷻ حرصهم على محبته ومحبة رسوله، أنزل عذرهم في كتابه فقال: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى} إلى قوله: {تولوا وأعينهم تفيض من الدمع} الآية".

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن الربيع بن أنس:"عن أبي العالية عن عبد الله بن مغفل وكان أحد هؤلاء الذين ذكروا في هذه الآية: ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه الآية".

والسادس: أنها نزلت في أبي موسى وأصحابه، قاله الحسن.

قوله تعالى: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ}

=

=

[التوبة: ٩٢]، أي:" وكذلك لا إثم على الذين إذا ما جاؤوك يطلبون أن تعينهم بحملهم إلى الجهاد قلت لهم: لا أجد ما أحملكم عليه من الدوابِّ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولا سبيل أيضًا على النفر الذين إذا ما جاءوك، لتحملهم، يسألونك الحُمْلان، ليبلغوا إلى مغزاهم لجهاد أعداءِ الله معك، يا محمد، قلت لهم: لا أجد حَمُولةً أحملكم عليها".

عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «لقد خلفتم بالمدينة أقواما، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديا، ولا نلتم من عدو نيلا، إلا وقد شاركوكم في الأجر، ثم قرأ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد الآية".

قال البيضاوي: هم " البكاءون، سبعة من الانصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك، فقال عليه الصلاة والسلام: لا اجد ما احملكم عليه، فتولوا وهم يبكون.

وفي قوله تعالى: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة: ٩٢]، وجهان:

أحدهما: أنه لم يجد لهم زادًا وماءا، لأنهم طلبوا ما يتزودون به، قاله أنس بن مالك.

والثاني: أنه لم يجد لهم نعالًا، لأنهم طلبوا النعال، قاله الحسن، وإبراهيم بن أدهم.

وروي عن الحسن بن عطية قال: "سمعت الحسن بن صالح يقول في هذه الآية: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، قال: استحملوه النعال".

عن إبراهيم بن أدهم في قوله: " {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، قال: ما سألوه الخيل، ما سألوه إلا النعال".

قوله تعالى: {تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ} [التوبة: ٩٢]، أي:" فانصرفوا عنك، وقد فاضت أعينهم دَمعًا أسفًا على ما فاتهم من شرف

=

=

الجهاد وثوابه؛ لأنهم لم يجدوا ما ينفقون، وما يحملهم لو خرجوا للجهاد في سبيل الله".

قال الطبري:" يقول: أدبروا عنك، وهم يبكون من حزن على أنهم لا يجدون ما ينفقون، ويتحمَّلون به للجهادِ في سبيل الله".

قال السدي:" فبكوا حزنا {أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}".

وقد جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال (كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض» وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر) رواه مسلم.

ورواه البخاري عن أنس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال (رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: «إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا، حبسهم العذر) رواه البخاري.

قوله تعالى: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ} [التوبة: ٩٣]، أي:" إنما الإثم واللوم على الأغنياء الذين جاءوك -أيها الرسول- يطلبون الإذن بالتخلف، وهم المنافقون الأغنياء".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما السبيل بالعقوبة على أهل العذر، يا محمد، ولكنها على الذين يستأذنونك في التخلف خِلافَك، وترك الجهاد معك، وهم أهل غنى وقوّةٍ وطاقةٍ للجهاد والغزو، نفاقًا وشكًّا في وعد الله ووعيده".

قال ابن كثير:" ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء".

قوله تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ} [التوبة: ٩٣]، أي:" اختاروا لأنفسهم القعود مع النساء وأهل الأعذار".

قال الطبري:" يقول: رضوا بأن يجلسوا بعدك مع النساء وهن "الخوالف"، خلف الرجال في البيوت، ويتركوا الغزو معك".

=

=

قال ابن كثير:" وأنَّبَهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال".

قال الزمخشري:" فإن قلت: {رضوا} ما موقعه؟ قلت: هو استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف".

عن الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وشمر بن عطية، وأبي مالك، والضحاك، والسدي، {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ}، قالوا: "النساء".

قال السدي:" رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء".

قوله تعالى: {وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [التوبة: ٩٣]، أي:" وختم الله على قلوبهم بالنفاق، فلا يدخلها إيمان".

قال مقاتل:" يعني: وختم على قلوبهم بالكفر، يعني: المنافقين".

قال الطبري:" يقول: وختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب".

قال الزمخشري:" يعنى أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم".

قال سعيد المقبري:" ختم على قلوبهم".

عن قتادة، قوله: " {وطبع على قلوبهم}، أي: بأعمالهم فهم لا يفقهون".

قوله تعالى: {فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة: ٩٣]، أي:" فهم لا يعلمون سوء عاقبتهم بتخلفهم عنك وتركهم الجهاد معك".

قال الطبري: أي:" سوء عاقبتهم، بتخلفهم عنك، وتركهم الجهاد معك، وما عليهم من قبيح الثناء في الدنيا، وعظيم البلاء في الآخرة".

قال ابن كثير:" ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبَهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، {وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}".

=

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤).

{يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ} فِي التَّخَلُّف {إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ} مِنْ الْغَزْو {قُلْ} لَهُمْ {لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِن لَكُمْ} نُصَدِّقكُمْ {قَدْ نَبَّأَنَا الله مِنْ أَخْبَاركُمْ} أَيْ أَخْبَرَنَا بِأَحْوَالِكُمْ {وَسَيَرَى الله عَمَلكُمْ وَرَسُوله ثُمَّ تُرَدُّونَ} بِالْبَعْثِ {إِلَى عَالِم الْغَيْب وَالشَّهَادَة} أَيْ الله {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} فيجازيكم عليه[1].

=

قال السعدي: وإنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية (فهم لا يعلمون) عقوبة لهم، على ما اقترفوا.

(١) قوله تعالى: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ} [التوبة: ٩٤]، أي:" يعتذر إليكم -أيها المؤمنون- هؤلاء المتخلفون عن جهاد المشركين بالأكاذيب عندما تعودون مِن جهادكم من غزوة (تبوك)".

قال القرطبي:" قوله تعالى: {يعتذرون إليكم}، يعني: المنافقين".

قال ابن كثير:" أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم".

قال محمد بن إسحاق:" ثم ذكر حلفهم للمسلمين، واعتذارهم إليهم، يعني قوله: {يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم}".

قوله تعالى: {قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ} [التوبة: ٩٤]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: لا تعتذروا لن نصدقكم فيما تقولون".

قال ابن كثير:" أي: لن نصدقكم".

=

=

قال الزمخشري:" {لن نؤمن لكم}، علة للنهي عن الاعتذار، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال".

قال القرطبي:" {لن نؤمن لكم}، أي: لن نصدقكم".

قوله تعالى: {قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ} [التوبة: ٩٤]، أي:" قد نبأنا الله من أمركم ما حقق لدينا كذبكم".

قال السدي: "فأخبرنا أنكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالا".

قال القرطبي:" أي: أخبرنا بسرائركم".

قال ابن كثير:" أي: قد أعلمنا الله أحوالكم".

قال الزمخشري:" قوله: {قد نبأنا الله من أخباركم}، علة لانتفاء تصديقهم، لأن الله ﷻ إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم".

قوله تعالى: {وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ} [التوبة: ٩٤]، أي:" وسيرى الله عملكم ورسوله، إن كنتم تتوبون من نفاقكم، أو تقيمون عليه".

قال السدي: " فسيرون ما تفعلون".

قال ابن كثير:" أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا".

قال الزمخشري: أي: "أتنيبون أم تثبتون على كفركم".

قوله تعالى: {ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [التوبة: ٩٤]، أي:" ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الذي لا تخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها".

قال الزمخشري: " وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية".

قال البيضاوي:" {تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}، أي: إليه، فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم".

=

سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥).

{سَيَحْلِفُونَ بِاَللهِ لَكُمْ إذَا انْقَلَبْتُمْ} رَجَعْتُمْ {إلَيْهِمْ} مِنْ تَبُوك أَنَّهُمْ مَعْذُورُونَ فِي التَّخَلُّف {لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ} بِتَرْكِ الْمُعَاتَبَة {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إنَّهُمْ رِجْس} قذر لخبث باطنهم {ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون}.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦).

{يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ الله لَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْم الْفَاسِقِينَ} أَيْ عَنْهُمْ وَلَا يَنْفَع رِضَاكُمْ مَعَ سَخَط الله(١).

=

قال الحسن: "الشهادة: ما قد رأيتم من خلقه، والغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قوله تعالى: {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ٩٤]، أي:" فيخبركم بأعمالكم كلها، ويجازيكم عليها".

قال ابن كثير:" أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها".

قال الزمخشري: " فيجازيكم على حسب ذلك".

قال البيضاوي:" بالتوبيخ والعقاب عليه".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن كعب؛ قال: سمعت كعب بن مالك حين تخلف عن تبوك: والله ما أنعم الله عليّ من نعمةٍ بعد إذ هداني أعظم من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا حين أُنزل الوحي: {سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا

=

=
انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ} إلى {الْفَاسِقِينَ}.
أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٣٤٠ رقم ٤٦٧٣).
وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قوله: {سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥)} وذلك أن رسول الله ﷺ قيل له: ألا تغزو بني الأصفر؟ لعلك أن تصيب بنت عظيم الروم؛ فإنهم حسان، فقال رجلان: قد علمت يا رسول الله أن النساء فتنة، فلا تفتنا بهن؛ فَأْذَنْ لنا؛ فأذِن لهما، فلما انطلقا قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأول آكل، فسار رسول الله ﷺ ولم ينزل عليه في ذلك شيء، فلما كان ببعض الطريق؛ نزل عليه وهو على بعض المياه: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ}؛ ونزل عليه: {عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ}؛ ونزل عليه: {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}؛ ونزل عليه: {إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} فسمع ذلك رجل ممن غزا مع النبي ﷺ، فأتاهم وهم خلفهم، فقال: تعلمون أن قد نزل على رسول الله ﷺ بعدكم قرآن؟ قالوا: ما الذي سمعت؟ قال: ما أدري، غير أني سمعت أنه يقول: {إِنَّهُمْ رِجْسٌ}، فقال رجل يدعى مغشيًا: والله لوددت أني أجلد مائة جلدة وأني لست معكم، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: "ما جاء بك؟"، فقال: وجه رسول الله ﷺ تسفعه الريح وأنا في الكنّ؛ فأنزل الله عليه: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي}، {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ}؛ ونزل عليه في الرجل الذي قال: "لوددت أني أجلد مائة جلدة، قول الله: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ} فقال رجل مع رسول الله: لئن كان هؤلاء كما يقولون ما فينا خير، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال له: "أنت صاحب الكلمة التي سمعت؟"، فقال: لا والذي أنزل عليك الكتاب؛ فأنزل الله فيه: {وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
=

إِسْلَامِهِمْ}؛ وأنزل فيه: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٣). وإسناده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

* قوله تعالى: {سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ} [التوبة: ٩٥].

يخبر تعالى رسوله والمؤمنين فيقول سيحلف لكم هؤلاء المخلفون إذا رجعتم إليهم أي إلى المدينة من أجل أن تعرضوا عنهم.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: سيحلف، أيها المؤمنون بالله، لكم هؤلاء المنافقون الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، إذا انصرفتم إليهم من غزوكم {لتعرضوا عنهم}، فلا تؤنبوهم".

قال ابن كثير:" ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تُؤَنِّبُوهم".

قال البيضاوي: أي:" فلا تعاتبوهم".

قوله تعالى: {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ} [التوبة: ٩٥]، أي:" فاجتنبوهم وأعرضوا عنهم احتقارًا لهم".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه للمؤمنين: فدعوا تأنيبهم، وخلوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق".

قال البيضاوي: أي:" ولا توبخوهم".

قال ابن كثير:" احتقارا لهم".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ رِجْسٌ} [التوبة: ٩٥]، أي:" إنهم خبثاء البواطن".

قال الطبري:" يقول: إنهم نجس".

قال ابن كثير:" أي: خُبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم".

=

قال البيضاوي: أي:" لا ينفع فيهم التأنيب فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فهو علة لإعراض وترك المعاتبة".

عن موسى بن عبد العزيز، قال: "سألت الحكم قلت: قوله: {سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس}، قال: حدثني عكرمة قال: قال محاش بن عويمر: إن كانوا هم أرجاسا فنحن أشر من الحمير، ففيهم نزلت هذه الآية، فسأله رسول الله ﷺ ما قلت؟ فقال: لم أقل

شيئا فسأله، فقال: ما قلت شيئا فقال: لا جرم كيف لا أعترف وقد جاء بها جبريل عليه السلام من السماء؟!".

قال السدي:" لما خرج رسول الله ﷺ خلف عليا بعده ولم يخرج به معه فخاض الناس فقالوا: إنما خلفه لسخطه، فأدركه علي في الطريق فأخبره بما قال المنافقون فقال النبي ﷺ لعلي - رضي الله عنه -: إن موسى لما ذهب إلى ربه استخلف هارون، وإني أستخلفك بعدي أفما ترضى أن تكون مني كمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي، قال: بلى يا رسول الله، فلما رجع استقبله علي، فأردفه النبي ﷺ خلفه وقال: لعن الله المنافقين والمخالفين، فدخل النبي ﷺ المدينة وعلي قائم خلفه يلعن المنافقين، وقال النبي ﷺ للمؤمنين: لا تكلموهم ولا تجالسوهم، فأعرضوا عنهم كما أمركم الله ﷻ".

قوله تعالى: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [التوبة: ٩٥]، أي:" ومكانهم الذي يأوون إليه في الآخرة نار جهنم".

قال الطبري:" يقول: ومصيرهم إلى جهنم، وهي مسكنهم الذي يأوُونه في الآخرة".

قال البيضاوي:" {ومأواهم جهنم}، من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ فى الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أن

=

=

النار كفتهم عتابا فلا تتكلفوا عتابهم".

قوله تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٩٥]، أي:" جزاء بما كانوا يكسبون من الآثام والخطايا".

قال الطبري:" يقول: ثوابًا بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من معاصي الله".

قال ابن كثير:" أي: من الآثام والخطايا".

قوله تعالى: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ} [التوبة: ٩٦]، أي:" يحلف لكم -أيها المؤمنون- هؤلاء المنافقون كذبًا؛ لتَرضَوا عنهم".

قال الزمخشري:" أي: غرضهم في الحلف بالله طلب رضاهم لينفعهم ذلك في دنياهم".

قال البيضاوي: أي:" بحلفهم، فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم".

عن مجاهد، قوله:" {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا} إلى قوله: {الْفَاسِقِينَ}، قال: في المنافقين".

قوله تعالى: {فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٩٦]، أي:" فإن رضيتم عنهم -لأنكم لا تعلمون كذبهم- فإن الله لا يرضى عن هؤلاء ولا غيرهم ممن استمروا على الفسوق والخروج عن طاعة الله ورسوله".

قال الزمخشري: أي:" فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. وقيل إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم. قيل: هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلا منافقين فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة، لا تجالسوهم ولا تكلموهم. وقيل: جاء عبد الله ابن أبى يحلف أن لا يتخلف عنه أبدا".

قال البيضاوي:" أي: فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله ورضاكم وحدكم لا ينفعهم

=

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧).

{الْأَعْرَاب} أَهْل الْبَدْو {أَشَدّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} مِنْ أَهْل الْمُدُن لِجَفَائِهِمْ وَغِلَظ طِبَاعهمْ وَبُعْدهمْ عَنْ سماع القرآن {وأجدر} أولى {أ} ن أَيْ بِأَنْ {لَا يَعْلَمُوا حُدُود مَا أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُوله} مِنْ الْأَحْكَام وَالشَّرَائِع {وَاَلله عَلِيم} بِخَلْقِهِ {حَكِيم} فِي صُنْعه بِهِمْ.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨).

{وَمِنْ الْأَعْرَاب مَنْ يَتَّخِذ مَا يُنْفِق} فِي سَبِيل الله {مَغْرَمًا} غَرَامَة وَخُسْرَانًا لِأَنَّهُ لَا يَرْجُو ثَوَابه بَلْ يُنْفِقهُ خَوْفًا وَهُمْ بَنُو أَسَد وَغَطَفَان {وَيَتَرَبَّص} يَنْتَظِر {بِكُمْ الدَّوَائِر} دَوَائِر الزَّمَان أَنْ تَنْقَلِب عَلَيْكُمْ فَيَتَخَلَّص {عَلَيْهِمْ دَائِرَة السُّوء} بِالضَّمِّ وَالْفَتْح أَيْ يَدُور الْعَذَاب وَالْهَلَاك عَلَيْهِمْ لَا عَلَيْكُمْ {وَاَلله سَمِيع} لِأَقْوَالِ عِبَاده

=

إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله فلا يهتك سترهم ولا ينزل الهوان بهم، والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم".

قال ابن كثير:" {الْفَاسِقِينَ} أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة "فُوَيسقة" لخروجها من جُحرها للإفساد، ويقال: "فسقت الرطبة": إذا خرجت من أكمامها".

{عليم} بأفعالهم.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩).

{وَمِنْ الْأَعْرَاب مَنْ يُؤْمِن بِاَللهِ وَالْيَوْم الْآخِر} كَجُهَيْنَة وَمُزَيْنَةَ {وَيَتَّخِذ مَا يُنْفِق} فِي سَبِيل الله {قربات} تقربه {عند الله و} وسيلة إلى {صلوات} دَعَوَات {الرَّسُول} لَهُ {أَلَا إِنَّهَا} أَيْ نَفَقَتهمْ {قُرْبَة} بِضَمِّ الرَّاء وَسُكُونهَا {لَهُمْ} عِنْده {سَيُدْخِلُهُمْ الله فِي رَحْمَته} جَنَّته {إِنَّ الله غَفُور} لِأَهْلِ طَاعَته {رَحِيم} بِهِمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} [التوبة: ٩٧]، أي:" الأعراب سكان البادية أشد كفرًا ونفاقًا من أهل الحاضرة، وذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم وبُعدهم عن العلم والعلماء، ومجالس الوعظ والذكر".

(تنبيه): هذه الآية تتحدث عن الأعراب وليس عن العرب، وفرق بين اللفظين، فالعرب هم الجنس المعروف الذي ينقسم إلى حضر وبدو، والحضر هم ساكنو المدن والقرى، أما البدو فهم " الأعراب " سكان البادية، وهؤلاء هم الذين تخبر عنهم الآيات الكريمات.

قال ابن كثير:" أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد".

قال الزمخشري:" «الأعراب»، أهل البدو أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة".

وفي قوله تعالى: {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} [التوبة: ٩٧]، وجهان:

=

=

أحدهما: أن يكون الكفر والنفاق فيهم أكثر منه في غيرهم لقلة تلاوتهم القرآن وسماعهم السنن.

الثاني: أن الكفر والنفاق فيهم أشد وأغلظ منه في غيرهم لأنهم أجفى طباعًا وأغلظ قلوبًا.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن".

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: ١٠٩] ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قُرشي، أو ثَقَفي أو أنصاري، أو دَوْسِيّ»؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب: لما في طباع الأعراب من الجفاء".

عن عائشة قالت: «قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكنا والله ما نقبِّل. فقال رسول الله ﷺ: "وَأَمْلكُ أن كان الله نزع منكم الرحمة؟". وقال ابن نمير: "من قلبك الرحمة"».

قوله تعالى: {وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ} [التوبة: ٩٧]، أي:" فهم لذلك أحق بأن لا يعلموا حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام".

قال ابن كثير:" أي: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله".

قال الطبري:" يقول: وأخلق أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله".

قال الزمخشري:" وأحق بجهل حدود الدن وما أنزل الله من الشرائع والأحكام.

=

=

ومنه قوله ﷺ: «إن الجفاء والقسوة في الفدادين» ".

قال الماوردي:" ومعنى {أجدر}، أي: أقرب، مأخوذ من الجدار الذي يكون بين مسكني المتجاورين".

قال الزجاج:" المعنى: أجدر بترك العلم، تقول: أنت جدير أن تفعل كذا، وبأن تفعل كذا، كما تقول أنت خليق أن تفعل، أي هذا الفعل ميسر فيك".

قال ابن عاشور: "و (أشد) و (أجدر) اسما تفضيل ولم يذكر معهما ما يدل على مفضل عليه، فيجوز أن يكونا على ظاهرهما فيكون المفضل عليه أهل الحضر، أي كفار ومنافقي المدينة، وهذا هو الذي تواطأ عليه جميع المفسرين".

وفي المراد بحدود الله ما أنزل الله، وجوه:

أحدها: فروض العبادات المشروعة.

الثاني: الوعد والوعيد في مخالفة الرسول ﷺ والتخلف عن الجهاد.

والثالث: يعني: سنن ما أنزل الله على رسوله في كتابه، يقول: هم أقل فهما بالسنن من غيرهم. قاله مقاتل.

وروي عن قتادة قوله: " {وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله}، قال: هم أقل علمًا بالسُّنن".

- قال أبو حيان: "وإنما كانوا أشد كفرا ونفاقا لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب، فقد نشأوا كما شاءوا، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء، ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله، فكانوا أطلق لسانا بالكفر من منافقي المدينة".

- وقال الرازي:... والسبب فيه وجوه:

الأول: أن أهل البدو يشبهون الوحوش.

والثاني: استيلاء الهواء الحار اليابس عليهم، وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم.

=

=

والثالث: أنهم ما كانوا تحت سياسة سائس، ولا تأديب مؤدب، ولا ضبط ضابط فنشؤا كما شاؤوا، ومن كان كذلك خرج على أشد الجهات فسادا.

والرابع: أن من أصبح وأمسى مشاهدا لوعظ رسول الله ﷺ، وبياناته الشافية، وتأديباته الكاملة، كيف يكون مساويا لمن لم يؤاثر هذا الخير، ولم يسمع خبره.

وقال الخازن: والسبب في كون الأعراب أشد كفرا ونفاقا بعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ.

- وقال السعدي: يقول تعالى (الأعراب) وهم سكان البادية والبراري (أشد كفرا ونفاقا) من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة: منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى (وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم -بسبب هذا العلم- تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية.

وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة، كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال، وأشح فيها.

- قال ابن كثير: ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي، لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى)، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ، فرد عليه أضعافها حتى رضي قال (لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي) لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة

=

=

والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقا من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.

عن إبراهيم قال: "جلس أعرابي إلى زيد بن صَوْحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوَنْد، فقال: والله إنّ حديثك ليعجبني، وإن يدك لَتُرِيبُني! فقال زيد: وما يُريبك من يدي؟ إنها الشمال! فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمينَ يقطعون أم الشمالَ؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله: {الأعرابُ أشدُّ كفرًا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزلَ الله على رسوله} ".

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٩٧]، أي:" والله عليم بحال هؤلاء جميعًا، حكيم في تدبيره لأمور عباده".

قال ابن كثير:" أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، {حَكِيمٌ} فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته".

قال الطبري:" يقول: {والله عليم}، بمن يعلم حدودَ ما أنزل على رسوله، والمنافق من خلقه، والكافرِ منهم، لا يخفى عليه منهم أحد {حكيم}، في تدبيره إياهم، وفي حلمه عن عقابهم، مع علمه بسرائرهم وخِداعهم أولياءَه".

قال الزمخشري:" {والله عليم} يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر، {حكيم} فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ومخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه".

قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا} [التوبة: ٩٨]، أي:" ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء، من يعد ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به، غرامة وخسرانا، لأنه لا ينفقه احتسابا فلا يرجو له ثوابا، ولا يكاد يؤديها إلا كرها".

قال السدي:" فيعد ما ينفق في سبيل الله غرامة يغرمها".

=

=

قال مقاتل:" لا يحتسبها: كأن نفقته غرم يغرمها".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن الأعراب من يَعُدُّ نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده {مغرما}، يعني: غرمًا لزمه، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع به عن نفسه عقابًا".

قال ابن كثير:" أخبر تعالى أن منهم {مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ} أي: في سبيل الله {مَغْرَمًا} أي: غرامة وخسارة".

وفي قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا} [التوبة: ٩٨]، وجهان:

أحدهما: ما يدفع من الصدقات.

الثاني: ما ينفق في الجهاد مع الرسول ﷺ مغرمًا.

والمغرم التزام ما لا يلزم، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان: ٦٥] أي: لازمًا، ومنه قوله تعالى: {فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ} [الطور: ٤٠]، ومنه قول الشاعر:

فَمَا لَكَ مَسْلُوبَ العَزَاءِ كَأَنَّمَا تَرَى هَجْرَ لَيْلَى مَغْرَمًا أَنْتَ غارِمُهُ

قال الزمخشري:" {مغرما}، غرامة وخسرانا. و «الغرامة»: ما ينفقه الرجل وليس يلزمه، لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله ﷻ وابتغاء المثوبة عنده... قيل: هم أعراب أسد وغطفان وتميم".

قوله تعالى: {وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [التوبة: ٩٨]، أي:" وينتظر بكم الحوادث والآفات".

قال السدي:" ويتربص بمحمد ﷺ الهلاك".

عن محمد بن إسحاق: {ويتربص بكم الدوائر}، أي: من صدقة، أو نفقة في سبيل الله، {عليهم دائرة السوء}".

قال مقاتل:" يعني: يتربص بمحمد الموت، يقول: يموت فنستريح منه ولا نعطيه

=

=

أموالنا".

قال الزجاج:" أي: الموت والقتل".

قال الطبري:" يقول: وينتظرون بكم الدوائر، أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروهٍ ومجيء محبوب، وغلبة عدوٍّ لكم".

قال ابن كثير:" أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات".

قال الزمخشري:" دوائر الزمان: دوله وعقبه، لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة".

قال ابن عطية: " و(الدوائر) المصائب التي لا مخلص للإنسان منها فهي تحيط به كما تحيط الدائرة، وقد يحتمل أن تشتق من دور الزمان، والمعنى ينتظر بكم ما تأتي به الأيام وتدور به".

قال القرطبي: "قوله تعالى (ويتربص بكم الدوائر) التربص الانتظار؛ وقد تقدم، والدوائر جمع دائرة، وهي الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية، أي يجمعون إلى الجهل بالإنفاق سوء الدخلة وخبث القلب".

قال السعدي: "أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم فعليهم دائرة السوء، وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبى الحسنة".

وفي قوله تعالى: {وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [التوبة: ٩٨]، وجهان:

أحدهما: في إعلان الكفر والعصيان.

والثاني: في انتهاز الفرصة بالانتقام.

قال ابن زيد:" هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياءً اتِّقاءَ أن يُغْزَوْا أو يُحارَبوا أو يقاتلوا، ويرون نفقتهم مغرمًا. ألا تراه يقول: {ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء}".

=

=

قوله تعالى: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} [التوبة: ٩٨]، أي:" ولكن السوء دائر عليهم لا بالمسلمين".

قال الطبري:" يقول: جعل الله دائرة السوء عليهم، ونزول المكروه بهم لا عليكم أيها المؤمنون، ولا بكم".

قال ابن كثير:" أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم".

قال الزمخشري:" {عليهم دائرة السوء}، دعاء معترض، دعى عليهم بنحو ما دعوا به، كقوله ﷻ: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِم} [المائدة: ٦٤]".

قرأ ابن كثير وَأَبُو عَمْرو: {دَائِرَة السوء} بِضَم السِّين وكذلك في سورة الْفَتْح: {دَائِرَةُ السَّوْءِ} [الفتح: ٦]، وَقَرَأَ نَافِع وَعَاصِم وَابْن عَامر وَحَمْزَة والكسائى: {دَائِرَة السوء} بِفَتْح السِّين فيهمَا، وَلم يخْتَلف فى غَيرهمَا، وروي الصوفى عَن روح عَن مُحَمَّد بن صَالح عَن شبْل عَن ابْن كثير {دَائِرَة السوء} بِفَتْح السِّين وَكَذَلِكَ فى الْفَتْح، قَالَ وَقَرَأَ ابْن مُحَيْصن {السوء} بِضَم السِّين.

قال الزمخشري:" وقرئ «السوء» بالضم وهو العذاب، كما قيل له: سيئة. و «السوء» بالفتح، وهو ذم للدائرة، كقولك: رجل سوء، في نقيض قولك: رجل صدق، لأن من دارت عليه ذام لها".

قوله تعالى: {وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ٩٨]، أي:" والله سميع لما يقولون عليم بنياتهم".

قال مقاتل:" {سميع} لمقالتهم، {عليم} بها".

قال الطبري:" " {والله سميع}، لدعاء الداعين، {عليم} بتدبيرهم، وما هو بهم نازلٌ من عقاب الله، وما هم إليه صائرون من أليم عقابه".

قال ابن كثير:" أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان".

=

=

قال الزمخشري: " {والله سميع}، لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة، {عليم} بما يضمرون".

قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة: ٩٩]، أي:" ومن الأعراب مَن يؤمن بالله ويقرُّ بربوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه وصفاته وبالبعث بعد الموت، والثواب والعقاب".

قال مجاهد:" هم بنو مقرن من مزينة".

عن عكرمة والحسن في قول الله في براءة: " {الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم} : قد استثنى، فقال: {ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول}، إلى قوله: {غفور رحيم}".

قال ابن عاشور: هؤلاء هم المؤمنون من الأعراب وفاهم الله حقهم من الثناء عليهم، وهم أضداد الفريقين الآخرين المذكورين في قوله (الأعراب أشد كفرا ونفاقا) وقوله (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما).

قوله تعالى: {وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ} [التوبة: ٩٩]، أي:" ويحتسب ما ينفق من نفقة في جهاد المشركين قاصدًا بها رضا الله ومحبته، ويجعلها وسيلة إلى دعاء الرسول ﷺ له".

قال الطبري: يعني:" ويبتغي بنفقة ما ينفق، مع طلب قربته من الله، دعاءَ الرسول واستغفارَه له".

قال ابن كثير:" هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم".

وفي قوله تعالى: {وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ} [التوبة: ٩٩]، وجهان:

أحدهما: أنها تقربة من طاعة الله ورضاه.

=

=

الثاني: أن ثوابها مذخور لهم عند الله تعالى فصارت قربات عند الله.

وفي قوله تعالى: {وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ} [التوبة: ٩٩]، وجهان:

أحدهما: أنه استغفاره لهم، قاله ابن عباس، ومقاتل، ويحيى بن سلام.

الثاني: دعاؤه لهم، قاله قتادة، وابن قتيبة، والتستري، والزجاج.

عن قتادة: " {وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ} : دعاء الرسول ﷺ".

قال ابن قتيبة:" {وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ} [التوبة: ٩٩] يعني: دعاءه. وقال الأعشى يذكر الخمر والخمّار:

وقابلها الرّيح في دنّها وصلّى على دنّها وارتسم

أي: دعا لها بالسلامة من الفساد والتغيّر.

و «الصّلاة» من الله: الرحمة والمغفرة. قال الله تعالى: {إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} [الأحزاب: ٥٦]. وقال: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ} [الأحزاب: ٤٣]، وقال: {أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} [البقرة: ١٥٧] أي: مغفرة، وقال النبي، ﷺ: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»، يريد: ارحمهم واغفر لهم".

قال الخليل:" وصلوات الرسول للمسلمين: دعاؤه لهم وذكرهم. وصلوات الله على أنبيائه والصالحين من خلقه: حسن ثنائه عليهم وحسن ذكره لهم. وقيل: مغفرته لهم. وصلاة الناس على الميت: الدعاء. وصلاة الملائكة: الاستغفار".

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} [التوبة: ٩٩]، أي:" ألا إن هذه الأعمال تقربهم إلى الله تعالى".

قال ابن عباس في قوله: {أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ}، يريد نور لهم ومكرمة عند الله".

قال ابن كثير:" أي: ألا إن ذلك حاصل لهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ألا إنّ صلوات الرسول قربة لهم من الله، وقد

=

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠).

{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَار} وَهُمْ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا أَوْ جَمِيع

=

يحتمل أن يكون معناه: ألا إنّ نفقته التي ينفقها كذلك، قربةٌ لهم عند الله".

وفي قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} [التوبة: ٩٩]، وجهان:

أحدهما: أن يكون راجعًا إلى إيمانهم ونفقتهم أنها قربة لهم.

الثاني: إلى صلوات الرسول أنها قربة لهم.

قوله تعالى: {سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ} [التوبة: ٩٩]، أي:" سيدخلهم الله في جنته".

قال الطبري:" يقول: سيدخلهم الله فيمن رحمه فأدخله برحمته الجنة".

قال ابن عباس:" يريد: في جنته".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٩٩]، أي:" إن الله غفور لما فعلوا من السيئات، رحيم بهم".

قال الطبري:" {إن الله غفورٌ}، لما اجترموا، {رحيم} بهم مع توبتهم وإصلاحهم أن يعذبهم".

عن عكرمة والحسن في قول الله في براءة: " {الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم}، قد استثنى فقال: {ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول}، إلى قوله: {غفور رحيم}".

الصَّحَابَة {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ} إلَى يَوْم الْقِيَامَة {بِإِحْسَانٍ} فِي الْعَمَل {رَضِيَ الله عَنْهُمْ} بِطَاعَتِهِ {وَرَضُوا عَنْهُ} بِثَوَابِهِ {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّات تَجْرِي تَحْتهَا الْأَنْهَار} وَفِي قِرَاءَة بزيادة من {خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم}(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} [التوبة: ١٠٠]، أي:" والذين سبقوا الناس أولا إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هجروا قومهم وعشيرتهم وانتقلوا إلى دار الإسلام، والأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه الكفار".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والذين سبقوا الناس أولا إلى الإيمان بالله ورسوله {من المهاجرين} : الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم، {والأنصار} : الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله".

واختلف في المعنيين في قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} [التوبة: ١٠٠]، على خمسة اقوال:

أحدها: أنهم الذين صلّوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، قاله أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، وابن سيرين ،والحسن، وقتادة، والشعبي-في إحدى الروايات.

الثاني: أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، قاله الشعبي، وابن سيرين- في إحدى الروايات.

الثالث: أنهم أهل بدر، قاله عطاء.

الرابع: أنهم السابقون بالموت والشهادة من المهاجرين والأنصار سبقوا إلى ثواب الله تعالى وحسن جزائه.

والخامس: أن السابقين الأولين من المهاجرين هم الذين آمنوا بمكة قبل هجرة =

=

رسول الله ﷺ عنهم، والسابقون الأولون من الأنصار هم الذين آمنوا برسول الله ورسوله قبل هجرته إليهم. أفاده الماوردي.

قرأ عمر بن الخطاب، والحسن، وقتادة، وعيسى الكوفي، وسلام، وسعيد بن أبي سعيد، وطلحة، ويعقوب: «والأنصارُ»: برفع «الراء» عطفا على {والسابقون}، فيكون «الأنصار» جميعهم مندرجين في هذا اللفظ. وعلى قراءة الجمهور وهي الجر، يكونون قسمين: سابق أول، وغير أول.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ} [التوبة: ١٠٠]، أي:" والذين اتبعوهم بإحسان في الاعتقاد والأقوال والأعمال طلبًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى".

قال الطبري:" يقول: والذين سَلَكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلبَ رضا الله".

عن قتادة قوله: " {والذين اتبعوهم بإحسان}، قال: التابعون".

وروي عن عبد الرحمن في قوله: " {والذين اتبعوهم بإحسان}، من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة".

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ} [التوبة: ١٠٠]، وجهان:

أحدهما: من الإيمان.

الثاني: من الأفعال الحسنة.

عن ابن عباس: "أتاه رجل فذكر بعض أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم كأنه يتنقص بعضهم، فقال ابن عباس: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان}، أما أنت فلم تتبعهم بإحسان".

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "كان الناس على ثلاث منازل: المهاجرون الأولون، والذين اتبعوهم بإحسان...، والذين جاؤ من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، فأحسن ما نكون أن نكون بهذه المنزلة".

=

=

عن محمد بن كعب قال: مرّ عمر برجل وهو يقرأ هذه الآية: {والسابقون الأولـون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان}، قال: من أقرأك هذه الآية؟ قال: أقرأنيها أبيّ بن كعب. قال: لا تفارقْني حتى أذهب بك إليه! فأتاه فقال: أنت أقرأت هذا هذه الآية؟ قال: نعم! قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟! قال: [نعم!]. لقد كنتُ أرانا رُفِعنا رَفْعَةً لا يبلُغها أحدٌ بعدنا! فقال أبيّ: تصديق ذلك في أول الآية التي في أول الجمعة وأوسط الحشر، وآخر الأنفال. أما أول الجمعة: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [سورة الجمعة: ٣]، وأوسط الحشر: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ} [سورة الحشر: ١٠]، وأما آخر الأنفال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} [سورة الأنفال: ٧٥]".

وعن ابن عامر الأنصاري: "أن عمر بن الخطاب قرأ: «وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارُ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ»، فرفع «الأنصار» ولم يلحق الواو في {الذين}، فقال له زيد بن ثابت {والذين اتبعوهم بإحسان}، فقال عمر: «الذين اتبعوهم بإحسان»، فقال زيد: أمير المؤمنين أعلم! فقال عمر: ائتوني بأبيّ بن كعب. فأتاه، فسأله عن ذلك، فقال أبي: {والذين اتبعوهم بإحسان}، فقال عمر: إذًا نتابع أبيًّا".

وقد ذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرأ: " «الأنْصَارُ»، بالرفع، عطفًا بهم على {السابقين}".

قوله تعالى: {رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ} [التوبة: ١٠٠]، أي:"أولئك الذين رضي الله عنهم لطاعتهم الله ورسوله".

وفي قوله تعالى: {رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ} [التوبة: ١٠٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها: رضي الله عنهم بالإيمان، ورضوا عنه بالثواب، قاله ابن بحر.

=

=

الثاني: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم في العبادة. ورضوا عنه بالجزاء، حكاه الماوردي عن علي بن عيسى.
الثالث: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم بطاعة الرسول ﷺ، ورضوا عنه بالقبول.
قال الطبري:" معنى الكلام: رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه، وأجابوا نبيّه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه ورضي عنه السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه، وإيمانهم به وبنبيه عليه السلام".
قوله تعالى: {وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة: ١٠٠]، أي:" ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم وإيمانهم".
عن أنس: "قال رسول الله ﷺ:ثم يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى- فيقول: سلوني أعطكم، قال: فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري وأنالكم كرامتي فسلوني أعطكم قال: فيسألونه الرضا، قال: فيشهدهم أنه قد رضي عنهم".
روي عن أبي صخر حميد بن زياد، أنه قال: "قلت يوما لمحمد ابن كعب القرظي: ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما كان بينهم، وإنما أريد الفتن، فقال لي: إن الله -عَزَّ وَجَلَّ- قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ[وأوجب لهم الجنة، في كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له: وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة؟ قال: سبحان الله! ألا تقرأ قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} إلى آخرها، فأوجب الله لجميع أصحاب النبي ﷺالجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطًا لم يشرطه عليهم، قلت: وما ذلك الشرط؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان، يقول: فاقتدوا بأعمالهم الحسنة ولا تقتدوا بهم في غير ذلك، قال أبو صخر: فوالله لكأني لم أقرأها قط، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب".
قوله تعالى: {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة: ١٠٠]، أي:" وأعدَّ

=

=

لهم جنات تجري تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [التوبة: ١٠٠]، أي:" مقيمين فيها من غير انتهاء".

قال الطبري:" لابثين فيها {أبدًا}، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها".

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠]، أي:" ذلك هو الفلاح العظيم".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم".

عن سعيد بن جبير قوله: " {ذلك الفوز العظيم}، يعني: ذلك الثواب، الفوز العظيم".

قال أبو حيان:" ولما بين تعالى الصائل الأعراب المؤمنين المتصدقين، وما أعد لهم من النعيم، بين حال هؤلاء السابقين وما أعد لهم، وشتان ما بين الإعدادين والثناءين، هناك قال: {أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} [التوبة:٩٩] وهنا {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ} [التوبة:١٠٠]، وهناك: {سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ} [التوبة:٩٩]، وهنا {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي} [التبوة:١٠٠]، وهناك ختم: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم} [التوبة:٩٩]، وهنا {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم} [التوبة:١٠٠]".

(منبهة): لقد تيقظ السلف الصالح رضوان الله عليهم لخطورة الطعن في الصحابة وسبهم، وحذروا من الطاعنين ومقاصدهم؛ وذلك لعلمهم بما قد يؤدي إليه ذلك السب من لوازم باطلة تناقض أصول الدين، فقال بعضهم كلمات قليلة، لكنها جامعة.

قال الإمام مالك كما في الصارم المسلول (ص٥٨٠) عن هؤلاء - الذين يسبون

=

=

الصحابة: إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي ﷺ، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه؛ حتى يقال رجل سوء، ولو كان رجلا صالحا لكان أصحابه صالحين ا. هـ

وقال الإمام أحمد كما في البداية والنهاية (٨/ ١٤٢): إذا رأيت رجلا يذكر أحدا من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام ا. هـ

وقال أبو زرعة الرازي كما في الكفاية (ص ٩٧): إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحاب رسول الله ﷺ وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة ا. هـ

وقال أبو نعيم في تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة (ص ٣٤٤): فلا يتتبع هفوات أصحاب رسول الله ﷺ وزللهم ويحفظ عليهم ما يكون منهم في حال الغضب والموجدة إلا مفتون القلب في دينه ا. هـ

ويقول أيضا في نفس المصدر السابق (ص ٣٧٦): لا يبسط لسانه فيهم إلا من سوء طويته في النبي ﷺ وصحابته والإسلام والمسلمين ا. هـ

وتحذير العلماء هنا عام يشمل جميع الصحابة، وتأمل قول إمام أهل السنة: (يذكر أحدا من الصحابة بسوء). وقول أبي زرعة: (ينتقص أحدا) فحذروا ممن ينتقص مجرد انتقاص أو ذكر بسوء. وذلك دون الشتم أو التكفير. ثم في واحد منهم وليس جميعهم، فماذا يقال فيمن سب أغلبهم؟!

وإليك أخي القارئ إيضاح لبعض لوازم السب:

أولا: يترتب على القول بكفر وارتداد معظم الصحابة أو فسقهم إلا نفرا يسيرا الشك في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وذلك لأن الطعن في النقلة طعن في

=

=

المنقول، إذ كيف نثق بكتاب نقله إلينا الفسقة والمرتدون - والعياذ بالله - ولذلك صرح بعض أهل الضلال والبدع ممن يسب الصحابة بتحريف الصحابة للقرآن، والبعض أخفى ذلك. وكذلك الأمر بالنسبة للأحاديث النبوية. فإذا اتهم الصحابة رضوان الله عليهم في عدالتهم، صارت الأسانيد مرسلة مقطوعة لا حجة فيها، ومع ذلك يزعم بعض هؤلاء الإيمان بالقرآن. فنقول لهم: يلزم من الإيمان به الإيمان بما فيه، وقد علمت أن الذي فيه أنهم خير الأمم، وأن الله لا يخزيهم، وأنه رضي عنهم. إلخ، فمن لم يصدق ذلك فيهم، فهو مكذب لما في القرآن ناقض لدعواه.

ثانيا: هذا القول يقتضي أن هذه الأمة - والعياذ بالله - شر أمة أخرجت للناس، وسابقي هذه الأمة شرارها، وخيرها القرن الأول كان عامتهم كفارا أو فساقا وإنهم شر القرون. كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

ثالثا: يلزم من هذا القول أحد أمرين: إما نسبة الجهل إلى الله تعالى عما يصفون، أو العبث في هذه النصوص التي أثنى فيها على الصحابة، فإن كان الله ﷻ - تعالى عن قولهم - غير عالم بأنهم سيكفرون ومع ذلك أثنى عليهم ووعدهم الحسنى فهو جهل، والجهل عليه تعالى محال. وإن كان الله ﷻ عالما بأنهم سيكفرون فيكون وعده لهم بالحسنى ورضاه عنهم عبث. والعبث في حقه تعالى محال، ويتبع ذلك الطعن في حكمته ﷻ، حيث اختارهم واصطفاهم لصحبة نبيه عليه الصلاة والسلام، فجاهدوا معه وآزروه ونصروه واتخذهم أصهارا له، حيث زوج ابنته ذا النورين عثمان رضي الله عنه، وتزوج ابنتي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فكيف يختار لنبيه أنصارا وأصهارا مع علمه بأنهم سيكفرون؟!

رابعا: لقد بذل رسول الله ﷺ جهودا خارقة في تربية الصحابة على مدى ثلاثة وعشرين عاما، حتى تكون بفضل الله ﷻ المجتمع المثالي في خلقه وتضحياته

=

=

وزهده وورعه، فكان ﷺ أعظم مرب في التاريخ.

ولكن على العكس من ذلك، فإن جماعة تدعي الانتماء إلى الإسلام ونبي الإسلام، تقدم لهذا المجتمع صورة معاكسة، تهدم المجهودات التي قام بها النبي ﷺ في مجال التربية والتوجيه، وتثبت له إخفاقا لم يواجهه أي مصلح أو مرب، خبير مخلص لم يكن مأمورا من الله، كما كان الشأن مع رسول الله ﷺ.

إن الإمامية ترى أن المجهودات الجبارة التي بذلها محمد ﷺ -لم تنتج إلا ثلاثة أو أربعة- وفقا لبعض الروايات ظلوا متمسكين بالإسلام إلى ما بعد وفاته ﷺ أما غيرهم فقد قطعوا صلتهم بالإسلام - والعياذ بالله - فور وفاته ﷺ وأثبتوا أن صحبة النبي ﷺ وتربيته أخفقت ولم يعد لها أي تأثير.

وهذا الزعم يؤدي إلى اليأس من إصلاح البشرية، وعدم الثقة في المنهج الإسلامي وقدرته على التربية وتهذيب الأخلاق، وإلى الشك في نبوة محمد ﷺ، وذلك أن الدين الذي لم يستطع أن يقدم للعالم عددا وجيها من نماذج عملية ناجحة بناءة، ومجتمعا مثاليا في أيام الداعي وحامل رسالته الأول، فكيف يستطيع أتباعه ذلك بعد مضي وقت طويل على عهد النبوة؟! وإذا كان المؤمنون بهذه الدعوة لم يستطيعوا البقاء على الجادة القومية، ولم يعودوا أوفياء لنبيهم ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فلم يبق على الصراط المستقيم الذي ترك عليه النبي ﷺ أتباعه إلا أربعة فقط، فكيف نسلم أن هذا الدين يصلح لتزكية النفوس وبناء الأخلاق؟ وأنه يستطيع أن ينقذ الإنسان من الهمجية والشقاء، ويرفعه إلى قمة الإنسانية؟ بل ربما يقال لو أن النبي ﷺ كان صادقا في نبوته لكانت تعاليمه ذات تأثير، ووجد هناك من آمن به من صميم القلب، ووجد من بين العدد الهائل ممن آمنوا به بعض المئات الذين ثبتوا على الإيمان، فإن كان أصحابه - سوى بضعة رجال منهم منافقين ومرتدين - فيما زعموا - فمن دام بالإسلام؟ ومن انتفع بالرسول ﷺ؟

=

=

وكيف يكون رحمة للعالمين؟! انظر كتاب اعتقاد أهل السنة في الصحابة.
لذلك يجب عدم الخوض فيما شجر بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.
لذا فإن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم لما يسببه الخوض في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين وذلك من أعظم الذنوب وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويترضى عنهم ويترحم عليهم ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم وأن الذي حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد والجميع مثابون في حالتي الصواب والخطأ غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ في اجتهاده وأن القاتل والمقتول من الصحابة في الجنة، ولم يجوز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم.
وقبل أن أذكر طائفة من أقوال أهل السنة التي تبين موقفهم فيما شجر بين الصحابة أذكر بعض النصوص التي فيها الإشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هي:
١ - قال تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) [الحجرات: ٩]. ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال لأنهم إخوة وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيمانا ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال لأنه كان عن

=

=

اجتهاد.

٢ - روى البخاري (٧١٢١)، ومسلم (١٥٧) عن أبي هريرة ﵁ قال: قال: رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة). فالمراد بالفئتين كما في الفتح الباري (١٢/ ٣٠٣) جماعة علي وجماعة معاوية، والمراد بالدعوة الإسلام على الراجح وقيل المراد اعتقاد كل منهما الحق.

٣ - وروى مسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق) والفرقة المشار إليها في الحديث هي ما كان من الاختلاف بين علي ومعاوية ﵄ وقد وصف ﷺ الطائفتين معا بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق، قال ابن كثير في البداية والنهاية) (٧/ ٢٧٩): فهذا الحديث من دلائل النبوة إذ قد وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام، من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن عليا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهدا، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن على هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» وسيأتي بيان كيفية قتال علي ﵁ للخوارج، وصفة المخدج الذي أخبر عنه عليه السلام فوجد كما أخبر ففرح بذلك علي ﵁ وسجد للشكر ا. هـ

٤ - وروى البخاري (٣٦٢٩) بإسناده إلى أبي بكرة قال: بينا النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ: (ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من

=

=

المسلمين). ففي هذا الحديث شهادة من النبي ﷺ بإسلام الطائفتين أهل العراق وأهل الشام والحديث فيه رد واضح على الخوارج الذين كفروا عليا ومن معه ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام ولذا كان يقول سفيان بن عيينة كما في السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ١٧٣)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٢٣٣) (قوله: فئتين من المسلمين يعجبنا جدا). قال البيهقي في الاعتقاد (ص ١٩٨): وإنما أعجبهم لأن النبي ﷺ سماهما جميعا مسلمين وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن علي بعد وفاة علي في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان ا. هـ فهذه الثلاثة الأحاديث المتقدم ذكرها كلها فيها الإشارة إلى أهل العراق الذين كانوا مع علي وإلى أهل الشام الذين كانوا مع معاوية بن أبي سفيان وقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم من أمته، كما في حديث مسلم (١٠٦٤) عن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (يكون في أمتي فرقتان؛ فيخرج من بينهما مارقة، يلي قتلهم أولاهم بالحق).

كما وصفهم بأنهم جميعا متعلقون بالحق لم يخرجوا عنه كما شهد لهم ﷺ بأنهم مستمرون على الإيمان ولم يخرجوا عنه بسبب القتال الذي حصل بينهم وقد دخلوا تحت عموم قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) [الحجرات: ٩] وقد قدمنا أن مدلول الآية ينتظمهم رضي الله عنهم أجمعين فلم يكفروا ولم يفسقوا بقتالهم بل هم مجتهدون متأولون وقد بين الحكم في قتالهم ذلك علي رضي الله عنه فقد شهد للفريقين بالحسنى فقد روى ابن جرير الطبري في تاريخه (٤/ ٤٩٦): (أن عليا لما وصل البصرة خطب الناس فقام إليه أبو سلامة الدالاني فقال: أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله – عز وجل – بذلك قال: نعم قال: فترى لك حجة بتأخيرك ذلك؟ قال: نعم إن الشيء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه وأعمه نفعا قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غدا؟ قال:

=

=

إني لأرجو ألا يقتل أحد نقى قلبه الله إلا أدخله الله الجنة).

وروى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن علي - المعروف بابن الحنفية - قال: قال علي: (إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير من الذين قال الله - عز وجل -: (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) [الحجر:٤٧]) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١١٣)، والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٩٥) وهو أثر حسن.

كما شهد رضي الله عنه بالحسنى للقتلى من الفريقين في موقعة صفين:

فقد روى ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٣٠٣) بإسناده إلى يزيد بن الأصم قال: (سئل علي عن قتلى يوم صفين فقال: قتلانا وقتلاهم في الجنة).

وشهادة علي رضي الله عنه للقتلى من الفريقين بالجنة شهادة حق وصدق لأن الباري - جل وعلا - أخبر بأنه وعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ووعده - سبحانه - حق وصدق لا خلف فيه.

قال تعالى: (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) [الحديد:١٠] فالخطاب في هذه الآية الكريمة موجه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والوعد فيها بالجنة لجميعهم رضي الله عنهم فكل من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنية صادقة ولو ساعة واستمر على الإيمان حتى مات فإنه من أهل الجنة لا يدخل النار لتعذيب إلا أن الذين أسلموا من بعد الفتح وقاتلوا لا يلحقون من أسلم وقاتل قبل الفتح في المرتبة وعلو الدرجة وكلا وعد الله الجنة ورضي عنهم ومن كمال ورع علي رضي الله عنه أنه لم ينسب أحدا إلى الشرك أو إلى النفاق ممن قاتله من أهل القبلة بل كان يقول رضي الله عنه (هم إخواننا بغوا علينا) ذلك هو معتقد علي رضي الله عنه في قتلى الصحابة رضي الله عنهم في موقعتي الجمل وصفين فقد شهد للقاتل والمقتول منهم بالجنة لأنهم لم يقصدوا بقتالهم إلا الحق والاجتهاد ولم يكونوا مقاتلين لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لدافع الحقد

=

=

حاشاهم من كل ذلك وقد ثبت كذلك أن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ترحمت على من قاتلها يوم الجمل أو قتل معها من صحابة رسول الله ﷺ.

فقد ذكر ابن الأثير في الكامل (٣/ ٢٥٧ - ٢٥٨): أنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما كانت بالبصرة بعد وقعة الجمل سألت يومئذ عمن قتل من الناس معها ومنهم عليها والناس عندها فكلما نعي واحد من الجميع قالت: يرحمه الله فقيل لها: كيف ذلك؟ قالت: كذلك قال رسول الله ﷺ: (فلان في الجنة، وفلان في الجنة). وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلان في الجنة، وفلان في الجنة تعني بذلك من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وسماه مثل طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ولقد تقدم معنا أن عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تصرف فيما خلفه القتلى في يوم الجمل تصرفا يدل على أن تلك الحرب لم تكن بين مسلمين وغير مسلمين وإنما هي حرب بين فريقين من المسلمين يرى كل فريق منهما أن الحق في جانبه حيث جمع كل مخلفات موقعة الجمل وبعث بها إلى مسجد البصرة وقال: (من عرف شيئا فليأخذه إلا سلاحا كان في الخزائن عليه سمة السلطان).

وصلى على جميع القتلى من الفريقين ودفن كثيرا منهم في قبر كبير كل عمله هذا دل على إيمانه أنهم جميعا كانوا يقاتلون اجتهادا لا عنادا ولا شهوة، ولا شفاء خصومة كانت بينهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أجمعين ومما ينبغي أن يعلم أن شهادة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالجنة للقتلى من الفريقين كما تقدم لا يدخل فيها من مرق عن الحق في إثارة الفتنة الأولى على عثمان كما لا يعد من إحدى الطائفتين اللتين وصفتا بأنهما متعلقتان بالحق وإن قاتل معها والتحق بها لأن الذين تلوثت أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغي الظالم على أمير المؤمنين عثمان - كائنا من كانوا - استحقوا إقامة الحد الشرعي عليهم سواء استطاع ولي الأمر أن يقيم عليهم هذا الحد أو لم يستطع وفي حالة عدم استطاعته، فإن مواصلتهم تسعير نار الحرب بين صالحي المسلمين كلما أحسوا منهم بالعزم على الإصلاح والتآخي كما فعلوا في وقعة

=

=

الجمل وبعدها يعد إصرارا منهم على الاستمرار في الإجرام ما داموا على ذلك، فإذا قال أهل السنة والجماعة: إن الطائفتين كانتا على الحق فإنما يريدون أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا في الطائفتين ومن سار معهم على سنته ﷺ من التابعين.

فالواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم مسلك الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة وهو الإمساك عما حصل بينهم رضي الله عنهم ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم.

قال الإمام الآجري في كتاب الشريعة (٥/ ٢٤٨٥): ذكر الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ ورحمة الله تعالى عليهم أجمعين قال محمد بن الحسين رحمه الله: ينبغي لمن تدبر ما رسمناه من فضائل أصحاب رسول الله ﷺ وفضائل أهل بيته رضي الله عنهم أجمعين أن يحبهم ويترحم عليهم ويستغفر لهم، ويتوسل إلى الله الكريم بهم (أي بحبهم) ويشكر الله العظيم إذ وفقه لهذا، ولا يذكر ما شجر بينهم ولا ينقر عنه ولا يبحث، فإن عارضنا جاهل مفتون قد خطئ به عن طريق الرشاد فقال: لم قاتل فلان لفلان ولم قتل فلان لفلان وفلان؟. قيل له: ما بنا وبك إلى ذكر هذا حاجة تنفعنا ولا اضطررنا إلى علمها. فإن قال: ولم؟ قيل له: لأنها فتن شاهدها الصحابة رضي الله عنهم فكانوا فيها على حسب ما أراهم العلم بها وكانوا أعلم بتأويلها من غيرهم، وكانوا أهدى سبيلا ممن جاء بعدهم لأنهم أهل الجنة، عليهم نزل القرآن وشاهدوا الرسول ﷺ وجاهدوا معه وشهد لهم الله عز وجل بالرضوان والمغفرة والأجر العظيم، وشهد لهم الرسول ﷺ أنهم خير قرن. فكانوا بالله عز وجل أعرف وبرسوله ﷺ وبالقرآن وبالسنة ومنهم يؤخذ العلم وفي قولهم نعيش، وبأحكامهم نحكم وبأدبهم نتأدب ولهم نتبع وبهذا أمرنا. فإن قال: وإيش الذي يضرنا من معرفتنا لما جرى بينهم والبحث عنه؟. قيل له: ما لا شك فيه وذلك أن

=

=

عقول القوم كانت أكبر من عقولنا، وعقولنا أنقص بكثير ولا نأمن أن نبحث عما شجر بينهم فنزل عن طريق الحق ونتخلف عما أمرنا فيهم. فإن قال: وبم أمرنا فيهم؟.

قيل: أمرنا بالاستغفار لهم والترحم عليهم والمحبة لهم والاتباع لهم، دل على ذلك الكتاب والسنة وقول أئمة المسلمين، وما بنا حاجة إلى ذكر ما جرى بينهم، قد صحبوا الرسول ﷺ وصاهرهم وصاهروه، فبالصحبة يغفر الله الكريم لهم، وقد ضمن الله ﷻ في كتابه أن لا يخزي منهم واحدا وقد ذكر لنا الله تعالى في كتابه أن وصفهم في التوراة والإنجيل، فوصفهم بأجمل الوصف ونعتهم بأحسن النعت، وأخبرنا مولانا الكريم أنه قد تاب عليهم، وإذا تاب عليهم لم يعذب واحدا منهم أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون. فإن قال قائل: إنما مرادي من ذلك لأن أكون عالما بما جرى بينهم فأكون لم يذهب علي ما كانوا فيه لأني أحب ذلك ولا أجهله. قيل له: أنت طالب فتنة لأنك تبحث عما يضرك ولا ينفعك ولو اشتغلت بإصلاح ما لله ﷻ عليك فيما تعبدك به من أداء فرائضه واجتناب محارمه كان أولى بك. وقيل: ولا سيما في زماننا هذا مع قبح ما قد ظهر فيه من الأهواء الضالة. وقيل له: اشتغالك بمطعمك وملبسك من أين هو؟ أولى بك، وتكسبك لدرهمك من أين هو؟ وفيما تنفقه؟ أولى بك. وقيل: لا يأمن أن يكون بتنقيرك وبحثك عما شجر بين القوم إلى أن يميل قلبك فتهوى ما لا يصلح لك أن تهواه ويلعب بك الشيطان فتسب وتبغض من أمرك الله بمحبته والاستغفار له وباتباعه فتزل عن طريق الحق وتسلك طريق الباطل. فإن قال: فاذكر لنا من الكتاب والسنة وعمن سلف من علماء المسلمين ما يدل على ما قلت لترد نفوسنا عما تهواه من البحث عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم.

=

=

قيل له: قد تقدم ذكرنا لما ذكرته مما فيه بلاغ وحجة لمن عقل، ونعيد بعض ما ذكرناه ليتيقظ به المؤمن المسترشد إلى طريق الحق: قال الله ﷻ: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار). ثم وعدهم بعد ذلك المغفرة والأجر العظيم، وقال الله ﷻ: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) وقال ﷻ: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رَضِيَ اللهُ عَنْهُم) إلى آخر الآية، وقال ﷻ: (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) الآية، وقال ﷻ: (كنتم خير أمة) الآية. وقال ﷻ (لقد رضي الله عن المؤمنين) إلى آخر الآية، ثم إن الله ﷻ أثنى على من جاء بعد الصحابة فاستغفر للصحابة وسأل مولاه الكريم أن لا يجعل في قلبه غلا لهم، فأثنى الله ﷻ عليه بأحسن ما يكون من الثناء؛ فقال ﷻ: (والذين جاءوا من بعدهم) إلى قوله: (رءوف رحيم). وقال النبي ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». وقال ﷺ: «إن الله ﷻ اختار أصحابي على جميع العالمين إلا النبيين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليا، فجعلهم خير أصحابي وفي أصحابي كلهم خير واختار أمتي على سائر الأمم». وقال ﷺ: «إن مثل أصحابي في أمتي كالملح في الطعام لا يصلح الطعام إلا بالملح». روي هذا عن الحسن، عن أنس، عن النبي ﷺ. قال: فكان الحسن إذا حدث بهذا يقول: قد ذهب ملحنا فكيف نصلح؟.

وقال ابن مسعود: إن الله ﷻ نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب

=

=

محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ يقاتلون على دينه قال محمد بن الحسين رحمه الله: يقال لمن سمع هذا من الله ﷻ ومن رسول الله ﷺ: إن كنت عبدا موفقا للخير اتعظت بما وعظك الله ﷻ به، وإن كنت متبعا لهواك خشيت عليك أن تكون ممن قال الله ﷻ (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وكنت ممن قال الله ﷻ (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون). ويقال له: من جاء إلى أصحاب رسول الله ﷺ حتى يطعن في بعضهم ويهوى بعضهم ويذم بعضا ويمدح بعضا فهذا رجل طالب فتنة، وفي الفتنة وقع؛ لأنه واجب عليه محبة الجميع والاستغفار للجميع رضي الله عنهم ونفعنا بحبهم، ونحن نزيدك في البيان ليسلم قلبك للجميع وتدع البحث والتنقير عما شجر بينهم ا. هـ

وكتب أهل السنة مملوءة ببيان عقيدتهم الصافية النقية في حق أولئك الصفوة المختارة وقد حددوا موقفهم من تلك الحرب التي وقعت بينهم في أقوالهم الحسنة التي منها.

١ – سئل عمر بن عبد العزيز كما في مناقب الشافعي (ص ١٣٦). عن القتال الذي بين الصحابة فقال: (تلك دماء طهر الله يدي منها أفلا أطهر منها لساني مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها).

قال البيهقي كما في البداية والنهاية (٧/ ٣٠٣) معلقا على قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: (هذا حسن جميل لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب).

والمسلم مطلوب منه أن يتحرز من الوقوع في الخطأ، والحكم على بعض الصحابة بما لا يكون مصيبا فيه.

٢ – قال عامر بن شراحيل الشعبي كما في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢) في

=

المقتتلين من الصحابة: (هم أهل الجنة لقي بعضهم بعضا فلم يفر أحد من أحد).
٣ - سئل الحسن البصري كما في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢) عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: (قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا).
ومعنى قول الحسن هذا كما قال القرطبي: (أن الصحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا وما علينا إلا أن نتبعهم فيما اجتمعوا عليه، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله - عز وجل - إذ كانوا غير متهمين في الدين).
٤ - سئل جعفر بن محمد الصادق كما في الإنصاف للباقلاني (ص: ٦٩) عما وقع بين الصحابة فأجاب بقوله: (أقول ما قال الله: علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى [طه: ٥٢]).
٥ - قال الإمام أحمد كما في مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ١٦٤) بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية قال: (ما أقول فيهم إلا الحسنى).
٦ - وقال أبو بكر المروذي كما في مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٢٦): سمعت أبا عبد الله وذكر له أصحاب رسول الله فقال: (رحمهم الله أجمعين ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري والمغيرة كلهم وصفهم الله تعالى في كتابه فقال: سيماهم في وجوههم من أثر السجود [الفتح: ٢٩]).
٧ - قال إبراهيم بن آزر الفقيه كما في في تاريخ بغداد (٦/ ٤٤): حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية؟ فأعرض عنه فقيل له: يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم فأقبل عليه فقال: اقرأ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون [البقرة: ١٤١]).
٨ - وقال أبو الحسن الأشعري في الإبانة عن أصول الديانة (ص٧٨): فأما ما جرى بين علي والزبير وعائشة رضي الله عنهم فإنما كان على تأويل واجتهاد، وعلي الإمام

=

وكلهم من أهل الاجتهاد وقد شهد لهم النبي ﷺ بالجنة والشهادة فدل على أنهم كلهم على حق في اجتهادهم وكذلك ما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان على تأويل واجتهاد، وكل الصحابة أئمة مأمونون غير متهمين في الدين، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم وتعبدنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم والتبري ممن ينقص أحدا منهم رضي الله عن جميعهم.

٩ – وقال ابن أبي زيد القيرواني في الرسالة (ص٩) في صدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم في أصحاب رسول الله ﷺ وما ينبغي أن يذكروا به فقال: (وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس – لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب).

١٠ – وقال أبو نعيم الأصبهاني في الإمامة والرد على الرافضة (ص٣٤٣) مبينا حق الصحابة على المسلمين بعدهم وما يجب عليهم نحوهم: (فالواجب على المسلمين في أصحاب رسول الله ﷺ إظهار ما مدحهم الله تعالى به وشكرهم عليه من جميل أفعالهم وجميل سوابقهم وأن يغضوا عما كان منهم في حال الغضب والإغفال وفرط منهم عند استزلال الشيطان إياهم ونأخذ في ذكرهم بما أخبر الله تعالى به فقال تعالى: والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان [الحشر: ١٠] الآية فإن الهفوة والزلل والغضب والحدة والإفراط لا يخلو منه أحد وهو لهم مغفور ولا يوجب ذلك البراءة منهم ولا العداوة لهم ولكن يحب على السابقة الحميدة ويتولى للمنقبة الشريفة).

١١ – وقال أبو عبد الله بن بطة في الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة (ص ٢٦٨) أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة: (ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر الله لهم وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم وفرض ذلك على لسان

=

=

نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم).

١٢ - قال أبو بكر بن الطيب الباقلاني في الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (ص ٦٧ - ٦٩): ويجب أن يعلم: أن ما جرى بين أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم من المشاجرة نكف عنه ونترحم على الجميع ونثني عليهم ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان ونعتقد أن عليا عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران، وأن الصحابة رضي الله عنهم إن ما صدر منهم كان باجتهاد فلهم الأجر ولا يفسقون ولا يبدعون والدليل عليه قوله تعالى: لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا [الفتح: ١٨] وقوله ﷺ: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) فإذا كان الحاكم في وقتنا له أجران على اجتهاده فما ظنك باجتهاد من رضي الله عنهم ورضوا عنه، ويدل على صحة هذا القول: قوله ﷺ للحسن عليه السلام: (إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) فأثبت العظم لكل واحدة من الطائفتين وحكم لهم بصحة الإسلام وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى: ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين [الحجر: ٤٧]) إلى أن قال: (ويجب الكف عن ذكر ما شجر بينهم والسكوت عنه).

١٣ - وقال أبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١/ ١٢٩). في صدد ذكره لعرض عقيدة السلف وأصحاب الحديث: (ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبا لهم ونقصا فيهم ويرون الترحم على جميعهم والموالاة لكافتهم).

=

=

١٤ - وقال أبو الوليد بن رشد المالكي البيان والتحصيل (١٦/ ٣٦٠ - ٣٦١): (كلهم محمود على ما فعله، القاتل منهم والمقتول في الجنة فهذا الذي يجب على كل مسلم أن يعتقده فيما شجر بينهم لأن الله تعالى قد أثنى عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله فقال عز من قائل: كنتم خير أمة أخرجت للناس [آل عمران: ١١٠] وقال: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] أي: خيارا عدولا وقال رسول الله ﷺ: (عشرة من قريش في الجنة) فسمى فيهم عليا وطلحة والزبير والذي يقول أئمة أهل السنة والحق: إن عليا رضي الله عنه ومن اتبعه كانوا على الصواب والحق، وإن طلحة والزبير كانا على الخطأ إلا أنهما رأيا ذلك باجتهادهما فكان فرضهما ما فعلاه إذ هما من أهل الاجتهاد...) إلى أن قال: (والذي قلناه من أنهم اجتهدوا فأصاب علي وأخطأ طلحة والزبير هو الصحيح الذي يلزم اعتقاده فلعلي أجران لموافقته الحق باجتهاده ولطلحة والزبير أجر لاجتهادهما وبالله التوفيق).

١٥ - وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣٢١ - ٣٢٢): (لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله - عز وجل - وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم وأن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة -كما في الصحيحة (١٢٦) - عن النبي ﷺ (أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض) فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيدا وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيرا في الواجب عليه لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة فوجب حمل أمرهم على ما بيناه... وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيين ولا آثمين بالقتال لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ في طلحة (شهيد) ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار وكذلك من قعد غير مخطئ في

=

=

التأويل بل صواب أراهم الله الاجتهاد وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم وإبطال فضائلهم وجهادهم وعظيم عنائهم في الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُم) اهـ.

١٦ - وقال النووي في شرح مسلم (١٨/ ١١) عند قوله ﷺ عند البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) (إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار) واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ليست بداخلة في هذا الوعيد ومذهب أهل السنة والحق إحسان الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم وتأويل قتالهم وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصية ولا محض الدنيا بل اعتقد كل فريق أنه المحق ومخالفه باغ فوجب عليه قتاله ليرجع إلى أمر الله وكان بعضهم مصيبا وبعضهم مخطئا معذورا في الخطأ لأنه لاجتهاد والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه وكان علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو المحق المصيب في تلك الحروب هذا مذهب أهل السنة وكانت القضايا مشتبهة حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب، ثم تأخروا عن مساعدته منهم).

وقال سبب الحروب التي وقعت بين الصحابة: واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام:

قسم: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته وقتال الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده.

وقسم: عكس هؤلاء ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر فوجب عليهم مساعدته وقتال الباغي عليه.

وقسم ثالث: اشتبهت عليهم القضية وتحيروا فيها ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم لأنه لا يحل

=

=

الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك) وهذا هو التفسير الصحيح لمواقف الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُم في تلك الحروب وهو اللائق بحالهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُم.

١٧ - وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية (ص: ١٧٣) في صدد عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: (ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون).

١٨ - وقال الإمام الذهبي في السير (١٠/ ٩٢): تقرر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُم أجمعين وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا فينبغي طيه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفوا القلوب، وتتوفر على حب الصحابة والترضي عنهم، وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف العري من الهوى، بشرط أن يستغفر لهم كما علمنا الله تعالى حيث يقول: (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا) [الحشر: ١٠] فالقوم لهم سوابق وأعمال مكفرة لما وقع منهم وجهاد محاء وعبادة ممحصة).

١٩ - وقال الحافظ ابن كثير في الباعث الحثيث (ص: ١٨٢): (أما ما شجر بينهم بعده عليه الصلاة والسلام فمنه ما وقع عن غير قصد كيوم الجمل ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين والاجتهاد يخطئ ويصيب ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ومأجور أيضا: وأما المصيب فله أجران اثنان).

٢٠ - وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٤) حاكيا على وجوب المنع من الطعن على

=

=

واحد من الصحابة بسبب ما حصل بينهم ولو عرف المحق منهم حيث قال: (واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا، وأن المصيب يؤجر أجرين).

٢١ - قال الحكمي في معارج القبول (٣/ ١٣٩٨): أجمع أهل السنة والجماعة الذين هم أهل الحل والعقد الذين يعتد بإجماعهم على وجوب السكوت عن الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم بعد قتل عثمان رضي الله عنه والاسترجاع على تلك المصائب التي أصيبت بها هذه الأمة والاستغفار للقتلى من الطرفين والترحم عليهم وحفظ فضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم ونشر مناقبهم، عملا بقول الله عز وجل: والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان [الحشر:١٠] الآية، واعتقاد أن الكل منهم مجتهد إن أصاب فله أجران، أجر على اجتهاده وأجر على إصابته، وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد والخطأ مغفور، ولا تقول إنهم معصومون بل مجتهدون إما مصيبون وإما مخطئون لم يتعمدوا الخطأ في ذلك. وما روي من الأحاديث في مساويهم الكثير منه مكذوب، ومنه ما قد زيد فيه أو نقص منه وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون ا. هـ

٢٢ - وقال العلامة العثيمين في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٢٨٤): فالصحابة رضي الله عنهم وقعت بينهم بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نزاعات، واشتد الأمر بعد مقتل عثمان، فوقع بينهم ما وقع، مما أدى إلى القتال.

وهذه القضايا مشهورة، وقد وقعت بلا شك عن تأويل واجتهاد كل منهم يظن أنه على حق، ولا يمكن أن نقول: إن عائشة والزبير بن العوام قاتلا عليا رضي الله عنهم أجمعين وهم يعتقدون أنهم على باطل، وأن عليا على حق.

=

=

واعتقادهم أنهم على حق لا يستلزم أن يكونوا قد أصابوا الحق.

ولكن إذا كانوا مخطئين، ونحن نعلم أنهم لن يقدموا على هذا الأمر إلا عن اجتهاد، فإنه ثبت عن النبي ﷺ عند البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦) أنه: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر) فنقول: هم مخطئون مجتهدون، فلهم أجر واحد.

فهذا الذي حصل موقفنا نحن منه له جهتان: الجهة الأولى: الحكم على الفاعل.

والجهة الثانية: موقفنا من الفاعل.

أما الحكم على الفاعل، فقد سبق، وأن ما ندين الله به أن ما جرى بينهم، فهو صادر عن اجتهاد، والاجتهاد إذا وقع فيه الخطأ، فصاحبه معذور مغفور له.

وأما موقفنا من الفاعل، فالواجب علينا الإمساك عما شجر بينهم لماذا نتخذ من فعل هؤلاء مجالا للسب والشتم والوقيعة فيهم والبغضاء بيننا، ونحن في فعلنا هذا إما آثمون وإما سالمون ولسنا غانمين أبدا.

فالواجب علينا تجاه هذه الأمور أن نسكت عما جرى بين الصحابة وأن لا نطالع الأخبار أو التاريخ في هذه الأمور، إلا المراجعة للضرورة.

ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم؛ منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص عن وجهه الصريح، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

قسم المؤلف الآثار المروية في مساويهم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما هو كذب محض لم يقع منهم، وهذا يوجد كثيرا فيما يرويه النواصب في آل البيت وما يرويه الروافض في غير آل البيت.

القسم الثاني: شيء له أصل، لكن زيد فيه ونقص وغير عن وجهه.

وهذان القسمان كلاهما يجب رده.

=

=

القسم الثالث: ما هو صحيح، فماذا نقول فيه؟ بينه المؤلف بقوله: والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

والمجتهد إن أصاب، فله أجران، وإن أخطأ، فله أجر واحد، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا حكم الحاكم، فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم، فاجتهد، ثم أخطأ فله أجر) فما جرى بين معاوية وعلى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا صادر عن اجتهاد وتأويل، لكن لا شك أن عليا أقرب إلى الصواب فيه من معاوية، بل قد نكاد نجزم بصوابه، إلا أن معاوية كان مجتهدا.

ويدل على أن عليا أقرب إلى الصواب أن النبي ﷺ قال كما في البخاري (٤٤٧) (ويح عمارا تقتله الفئة الباغية)، فكان الذي قتله أصحاب معاوية، وبهذا عرفنا أنها فئة باغية خارجة على الإمام، لكنهم متأولون، والصواب مع علي إما قطعا وإما ظنا.

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره.

وهناك قسم رابع: وهو ما وقع منهم من سيئات حصلت لا عن اجتهاد ولا عن تأويل: فبينه المؤلف بقوله:

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره.

لا يعتقدون ذلك، لقوله ﷺ: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون) ولكن العصمة في إجماعهم؛ فلا يمكن أن يجمعوا على شيء من كبائر الذنوب وصغائرها فيستحلوها أو يفعلوها.

ولكن الواحد منهم قد يفعل شيئا من الكبائر، كما حصل من مسطح بن أثاثه وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش في قصة الإفك، ولكن هذا الذي حصل

=

=

تطهروا منه بإقامة الحد عليهم.

بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر

يعني: كغيرهم من البشر، لكن يمتازون عن غيرهم بما قال المؤلف رحمه الله: ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر.

هذا من الأسباب التي يمحو الله بها عنهم ما فعلوه من الصغائر أو الكبائر، وهو ما لهم من السوابق والفضائل التي لم يلحقهم فيها أحد، فهم نصروا النبي عليه الصلاة والسلام، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبذلوا رقابهم لإعلاء كلمة الله، فهذه توجب مغفرة ما صدر منهم، ولو كان من أعظم الذنوب، إذا لم يصل إلى الكفر.

ومن ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة عند البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) (حين أرسل إلى قريش يخبرهم عن مسير النبي ﷺ إليهم، حتى أطلع الله نبيه على ذلك، فلم يصلهم الخبر، فاستأذن عمر النبي ﷺ أن يضرب عنق حاطب، فقال النبي ﷺ: إنه شهد بدرا، وما يدريك؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم).

حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ: إنهم خير القرون وإن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا من بعدهم، ثم إن كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتي بحسنات تمحوه. أو غفر له بفضل سابقته.

وذلك في قوله ﷺ عند البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣): (خير الناس قرني)، وفي قوله عند مسلم (٢٥٤٠): (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق

=

=

أحدكم مثل أحد ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) يعني: وإذا تاب منه، ارتفع عنه وباله ومعرته، لقوله تعالى: والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما، - إلى قوله: - إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، ومن تاب من الذنب كمن لا ذنب له، فلا يؤثر عليه، لقوله تعالى: إن الحسنات يذهبن السيئات [هود:١١٤].

لقوله تعالى: في الحديث القدسي في أهل بدر: (اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم).

أو بشفاعة محمد ﷺ الذين هم أحق الناس بشفاعته، يدل على ذلك أحاديث كثيرة منها حديث أنس في الصحيحة (١٤٤٠) عن أم حبيبة مرفوعا (أريت ما تلقى أمتى من بعدى وسفك بعضهم دماء بعض وكان ذلك سابقا من الله كما سبق فى الأمم قبلهم فسألته أن يولينى شفاعة فيهم يوم القيامة ففعل).

أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا، فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور، ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم.

فإن البلاء في الدنيا يكفر الله به السيئات، كما أخبر بذلك النبي ﷺ عند البخاري (٥٦٦٧) ، ومسلم (٢٥٧١) في قوله: (ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها) والأحاديث في هذا مشهورة كثيرة.

فهذه الأسباب التي ذكرها المؤلف ترفع القدح في الصحابة، وهي قسمان:

الأول: خاص بهم، وهو مالهم من السوابق والفضائل.

والثاني: عام، وهي التوبة، والحسنات الماحية، وشفاعة النبي ﷺ، والبلاء.

=

=

القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل جدا نزر أقل القليل، ولهذا قال: مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم.

ولا شك أنه حصل من بعضهم سرقة وشرب خمر وقذف وزنى بإحصان وزنى بغير إحصان، لكن كل هذه الأشياء تكون مغمورة في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، وبعضها أقيم فيه الحدود، فيكون كفارة.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما من الله عليهم به من الفضائل، علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء.

فكل هذه مناقب وفضائل معلومة مشهورة، تغمر كل ما جاء من مساوئ القوم المحققة، فكيف بالمساوئ غير المحققة أو التي كانوا فيها مجتهدين متأولين.

هذا بالإضافة إلى ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من قوله: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعلي هذا تثبت خيرتهم على غيرهم من أتباع الأنبياء بالنص والنظر في أحوالهم.

فإذا نظرت بعلم وبصيرة وإنصاف في محاسن القوم وما أعطاهم الله من الفضائل، علمت يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، فهم خير من الحواريين أصحاب عيسي، خير من النقباء أصحاب موسى، وخير من الذين آمنوا من نوح ومع هود وغيرهم، لا يوجد أحد في أتباع الأنبياء أفضل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، والأمر في هذا ظاهر معلوم، لقوله تعالى: كنتم خير أمة أخرجت للناس [آل عمران:١١٠]، وخيرنا الصحابة، ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الخلق، فأصحابه خير الأصحاب بلا شك، هذا عند أهل السنة والجماعة، أما عند الرافضة، فهم شر الخلق، إلا من استثنوا منهم، لا كان ولا يكون مثلهم وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى.

=

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)

{وَمِمَّنْ حَوْلكُمْ} يَا أَهْل الْمَدِينَة {مِنْ الْأَعْرَاب مُنَافِقُونَ} كَأَسْلَم وَأَشْجَع وَغِفَار {وَمِنْ أَهْل الْمَدِينَة} مُنَافِقُونَ أَيْضًا {مَرَدُوا عَلَى النِّفَاق} لَجُّوا فِيهِ

=

وأما كون الصحابة صفوة قرون الأمة، فلقوله ﷺ: (خير الناس قرني) وفي لفظ: (خير أمتي قرني)، والمراد بقرنه: الصحابة، وبالذين يلونهم: التابعون، وبالذين يلونهم: تابعوا التابعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والاعتبار بالقرون الثلاثة بجمهور أهل القرن، وهم وسطه، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك وجمهور تابعي التابعين في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية. اهـ.

وكان آخر الصحابة موتا أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي سنة مائة من الهجرة، وقيل: مائة وعشر.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: واتفقوا على أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين ا. هـ

فهذه طائفة من كلام أكابر علماء أهل السنة والجماعة تبين منها الموقف الواجب على المسلم أن يقف من الآثار المشتملة على نيل أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين بسبب ما وقع بينهم من شجار وخلاف ومقاتلة خاصة في حرب الجمل بين الخليفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومن معه وبين أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ومن معهم.

واستمروا {لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين} بِالْفَضِيحَةِ أَوْ الْقَتْل فِي الدُّنْيَا وَعَذَاب الْقَبْر {ثُمَّ يُرَدُّونَ} فِي الْآخِرَة {إلَى عَذَاب عَظِيم} هو النار(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ} [التوبة: ١٠١].

يخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون".

عن عكرمة: " {وممن حولكم من الأعراب}، قال: جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار".

قوله تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} [التوبة: ١٠١]، أي:" ومن أهل المدينة منافقون أيضا لجوا في النفاق واستمروا عليه".

قال الطبري: أي:"ومن أهل مدينتكم أيضًا أمثالهم أقوامٌ منافقون، مرَنُوا عليه ودَرِبوا به".

عن محمد بن إسحاق:" {مردوا على النفاق}، أي: لجوا فيه وأبوا".

وفي قوله تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} [التوبة: ١٠١]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أقاموا عليه ولم يتوبوا منه، قاله عبد الرحمن بن زيد.

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:" {ومن أهل المدينة مردوا على النفاق}، قال: أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب آخرون".

الثاني: مردوا عليه أي عتوا فيه، ومنه قوله ﷻ: {وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا} [النساء: ١١٧].

قال الفراء: أي:" مرنوا عليه وجرؤوا عليه كقولك: تمردوا".

قال الطبري:"ومنه: «شيطانٌ مارد، ومَرِيد»، وهو الخبيث العاتي. ومنه قيل: تمرَّد =

=

فلان على ربه، أي: عتَا، ومرنَ على معصيته واعتادها".

الثالث: تجردوا فيه فظاهروا، مأخوذ منه تجرد خد الأمرد لظهوره.

قوله تعالى: {لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} [التوبة: ١٠١]، أي:" لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم".

قال مقاتل:" لا تعرف نفاقهم نحن نعرف نفاقهم".

قال الطبري:" يقول لنبيه محمد ﷺ: لا تعلم، يا محمد، أنت هؤلاء المنافقين الذين وصفتُ لك صفتهم ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة، ولكنا نحن نعلمهم".

عن ابن عباس:" {نحن نعلمهم}، يقول: نعرفهم".

وفي قوله تعالى: {لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} [التوبة: ١٠١]، وجهان:

أحدهما: لا تعلمهم حتى نعلمك بهم.

الثاني: لا تعلم أنت عاقبة أمورهم وإنما نختص نحن بعلمها، وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار.

عن قتادة في قوله: " {وممن حولكم من الأعراب} إلى قوله: {لا تعلمهم نحن نعلمهم}، قال قتادة: فما بال أقوام يتكلفون على الناس؟ يقول: فلان في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، لعمري لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه نبي، قال نبي الله نوح ﷺ {وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وقال نبي الله شعيب ﷺ {بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، وقال الله لنبيه محمد ﷺ {لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُم} ".

قوله تعالى: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} [التوبة: ١٠١]، أي:" سنعذبهم مرتين: بالقتل والسبي والفضيحة في الدنيا، وبعذاب القبر بعد الموت".

=

=

وفي تفسير قوله تعالى: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} [التوبة: ١٠١]، وجوه:

أحدها: أن أحد العذابين الفضيحة في الدنيا والجزع من المسلمين، والآخر عذاب القبر، قاله ابن عباس، وأبو مالك.

قال ابن عباس:" قام رسول الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة، فقال: اخرج يا فلان، فإنك منافق. اخرج، يا فلان، فإنك منافق. فأخرج من المسجد ناسًا منهم، فضحهم. فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد، فاختبأ منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة، وظنّ أن الناس قد انصرفوا، واختبأوا هم من عمر، ظنّوا أنه قد علم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد، فإذا الناس لم يصلُّوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر، يا عمر، فقد فضح الله المنافقين اليوم! فهذا العذاب الأول، حين أخرجهم من المسجد. والعذاب الثاني، عذاب القبر".

عن أبي مالك: " {سنعذبهم مرتين}، قال: كان رسول الله ﷺ يخطب فيذكر المنافقين، فيعذبهم بلسانه، قال: وعذاب القبر".

الثاني: أن أحدهما عذاب الدنيا والآخر عذاب القبر، قاله الحسن، و قتادة، وابن جريج.

قال قتادة:" ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلا من المنافقين، فقال: " ستة منهم تكفيكَهم الدُّبيلة، سِراج من نار جهنم، يأخذ في كتف أحدهم حتى تُفضي إلى صدره، وستة يموتون موتًا. ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رحمه الله، كان إذا مات رجل يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه، وإلا تركه. وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة: أنشُدُك الله، أمنهم أنا؟ قال: لا والله، ولا أومِن منها أحدًا بعدك!".

الثالث: أن أحدهما مصائبَهم في أموالهم وأولادهم، والمرة الأخرى في جهنم. قاله ابن زيد.

=

=

قال ابن زيد:" أما عذابٌ في الدنيا، فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، [سورة التوبة: ٥٥]، بالمصائب فيهم، هي لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر. قال: وعذاب في الآخرة، في النار {ثم يردون إلى عذاب عظيم}، قال: النار".

الرابع: أن إحدى المرتين، الحدود، والأخرى: عذابُ القبر. ذكر ذلك عن ابن عباس من وجه غير مرتضًى.

الخامس: أن احدهما القتل والسِّبَاء، قاله مجاهد-في إحدى الروايات-، وابن قتيبة.

السادس: أن احدهما الجوع، والآخر عذاب القبر. وهو مروي عن مجاهد أيضا.

السابع: أن احدهما الجوع، والآخر القتل. وهو مروي عن مجاهد أيضا.

الثامن: أن احدهما الخوف، والآخر القتل. وهو مروي عن مجاهد في رواية يحيى بن آدم.

التاسع: أن احدهما القتل، والآخر عذاب القبر. قاله الفراء.

العاشر: أن أحدهما الزكاة التي تؤخذ منهم والآخر الجهاد الذي يؤمرون به لأنهم بالنفاق يرون ذلك عذابًا. قال الحسن.

الحادي عشر: أي سنعذبهم بالإنفاق وبالفعل. قاله الزجاج.

الثاني عشر: أن إحدى المرتين: عذابُهم بما يدخل عليهم من الغَيْظِ في أمر الإسلام. قاله ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق:" العذاب الذي وعدَهم مرتين، فيما بلغني، غَمُّهم بما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حِسْبة، ثم عذابهم في القبر إذا صاروا إليه، ثم العذاب العظيم الذي يردُّون إليه، عذابُ الآخرة، والخُلْد فيه".

الثالث عشر: أن العذاب الاول: عند الموت تضرب الملائكة الوجوه والأدبار،

=

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢).

=

والثاني: في القبر منكر ونكير. وهذا قول مقاتل.

قال الإمام الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذِّب هؤلاء الذين مَرَدوا على النفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلا يوصِّل به إلى علم صفة ذينك العذابين وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم. وليس عندنا علم بأيٍّ ذلك من أيٍّ. غير أن في قوله جل ثناؤه: (ثم يردّون إلى عذاب عظيم)، دلالة على أن العذاب في المرَّتين كلتيهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر".

قوله تعالى: {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: ١٠١]، أي:" ثم يُرَدُّون يوم القيامة إلى عذاب عظيم في نار جهنم".

قال الطبري:" يقول: ثم يردُّ هؤلاء المنافقون، بعد تعذيب الله إياهم مرتين، إلى عذاب عظيم، وذلك عذاب جهنم".

قال الزجاج:" أي: يعذبون في الآخرة".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: ١٠١]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه عذاب النار في الآخرة.

الثاني: أنه إقامة الحدود في الدنيا.

الثالث: إنه أخذ الزكاة منهم.

عن الربيع بن أنس:" {ثم يردون إلى عذاب عظيم}، قال: عذاب جهنم". وروي عن قتادة: نحو ذلك.

قال محمد بن إسحاق: "العذاب العظيم الذي يردون إليه: عذاب النار والخلد فيه".

{و} قَوْم {آخَرُونَ} مُبْتَدَأ {اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ} مِنْ التَّخَلُّف نَعْته وَالْخَبَر {خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا} وَهُوَ جِهَادهمْ قَبْل ذَلِكَ أَوْ اعْتِرَافهمْ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ غَيْر ذَلِكَ {وَآخَر سَيِّئًا} وَهُوَ تَخَلُّفهمْ {عَسَى الله أَنْ يَتُوب عَلَيْهِمْ إنَّ الله غَفُور رَحِيم} نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَة وَجَمَاعَة أَوْثَقُوا أَنْفُسهمْ فِي سَوَارِي الْمَسْجِد لَمَّا بَلَغَهُمْ مَا نَزَلَ فِي الْمُتَخَلِّفِينَ وَحَلَفُوا لَا يُحِلّهُمْ إلَّا النَّبِيّ ﷺ فَحَلَّهُمْ لَمَّا نزلت(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا}؛ قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع النبي ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممرّ النبي ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم، فلما رآهم؛ قال: "من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسَّواري؟"، قالوا: هذا أبو لبابة، وأصحابٌ له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم وتعذرهم، فقال النبي ﷺ: "وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يُطلقهم: رغبوا عني، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين"، فلما [أن] بلغهم ذلك: قالوا: ونحن بالله لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله -تعالى- هو الذي يُطلقنا؛ فأنزل الله عز وجل {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} وعسى من الله واجبٌ، أنه هو التواب الرحيم، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعذرهم فجاءوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا فتصدّق بها عنَّا واستغفر لنا، قال: "ما أُمرتُ أن آخُذَ أموالكم"؛ فأنزل الله -تعالى-: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} يقول استغفر لهم: {إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ}؛ فأخذ منهم الصدقة، واستغفر لهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ١٠): ثني المثنى، وابن أبي حاتم في =

=

"تفسيره" (٦/ ١٨٧٢، ١٨٧٥): ثنا أبي، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٢٧١، ٢٧٢) من طريق عثمان بن سعيد الدارمي، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ٩٨) من طريق إسماعيل بن عبد الله أربعتهم عن أبي صالح عبد الله بن صالح ثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وإسناده ضعيف.

وعن عبد الله بن عباس ﵄؛ قوله: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)}، وذلك أن رسول الله ﷺ غزا غزوة تبوك، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه عن النبي ﷺ، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلكة، وقالوا: نكون في الكن والطمأنينة مع النساء، ورسول الله والمؤمنون معه في الجهاد، والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو يطلقنا ويعذرنا، فانطلق أبو لبابة وأوثق نفسه ورجلان معه بسواري المسجد، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم، فرجع رسول الله ﷺ من غزوته وكان طريقه في المسجد، فمر عليهم، فقال: "من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري؟ "؛ فقالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عن رسول الله ﷺ، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم، وقد اعترفوا بذنوبهم، فقال رسول الله ﷺ: "والله لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو يعذرهم، وقد تخلفوا عني، ورغبوا بأنفسهم عن غزو المسلمين وجهادهم"؛ فأنزل الله - برحمته-: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)}، وعسى من الله واجب، فلما نزلت الآية أطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم وتجاوز عنهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ١٠، ١١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"

=

=

(٦/ ١٨٧٢، ١٨٧٣)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "لباب النقول" (ص ١٢٣)، و"الدر المنثور" (٤/ ٢٧٦). وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن أم سلمة؛ قالت: إن توبة أبي لبابة نزلت في بيتي، فسمعت رسول الله ﷺ يضحك في السحر، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: "تيب على أبي لبابة"، فقلت: أؤذنه بذلك؟ فقال: "ما شئت"، فقمت على باب الحجرة، وذلك قبل أن يضرب الحجاب، فقلت: يا أبا لبابة! أبشر؛ فقد تاب الله عليك، فثار الناس ليطلقوه، فقال: حتى يأتي رسول الله ﷺ فيكون هو الذي يطلقني، فلما خرج إلى الصبح أطلقه؛ فنزلت: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ}.

ذكره السيوطي في "اللباب" (ص ١٢٤)، وقال: وأخرج ابن مردويه بسند فيه الواقدي عن أم سلمة. والواقدي متروك.

وعن الضحاك في قوله: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا}؛ نزلت في أبي لبابة وأصحابه تخلفوا عن نبي الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما قفل رسول الله ﷺ من غزوته، وكان قريبًا من المدينة ندموا على تخلفهم عن رسول الله، وقالوا: نكون في الظلال والأطعمة والنساء، ونبي الله في الجهاد واللأواء؟! والله لنوثقن أنفسنا بالسواري ثم لا نطلقها حتى يكون نبي الله يطلقنا ويعذرنا، وأوثقوا أنفسهم بالسواري، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم، فقدم رسول الله ﷺ من غزوته فمرّ في المسجد وكان طريقه، فأبصرهم فسأل عنهم، فقيل له: أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا نبي الله! فصنعوا بأنفسهم ما ترى، وعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم، فقال نبي الله ﷺ: "لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين"؛ فأنزل الله: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ} إلى {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ

=

=

عَلَيْهِمْ} وعسى من الله واجب، فأطلقهم نبي الله وعذرهم.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ١١، ١٢). وسنده ضعيف جدًا.
وعن جابر بن عبد الله؛ قال: كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ستة: أبو لبابة، وأوس بن خذام، وثعلبة بن وديعة، وكعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة، وهلال بن أمية، فجاء أبو لبابة وأوس وثعلبة فربطوا أنفسهم بالسواري، وجاءوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله! خذها، هذا الذي حبسنا عنك، فقال رسول الله ﷺ: "لا أحلهم حتى يكون قتال"؛ فنزل القرآن: {خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا} إلى قوله: {إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} الآية.
أخرجه أبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢/ ٣٦٣ رقم ٩٨٤، ٣/ ٢٦٧ رقم ١٣٦٨)، وأبو الشيخ في "تفسيره"، وابن منده في "المعرفة"؛ كما في "الإصابة" (١/ ٨٣) وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٥٣/ ١٥٠) من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر به.
والحديث قال عنه الحافظ: "إسناده قوي"، وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٧٨): "بسند قوي".
وعن قتادة؛ أنها نزلت في سبعة: أربعة منهم ربطوا أنفسهم في سواري، وهم: أبو لبابة ومرداس وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة.
ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٢٤) ونسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإرساله.
* قوله تعالى: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا} [التوبة: ١٠٢]، أي:" وآخرون من أهل (المدينة) وممن حولها، اعترفوا بذنوبهم وندموا عليها وتابوا منها، خلطوا العمل الصالح -وهو التوبة والندم والاعتراف بالذنب وغير ذلك من الأعمال الصالحة- بآخر سيِّئ -وهو التخلف عن رسول

=

=

الله ﷺ وغيره من الأعمال السيئة".

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيبا وشكا، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال:

(وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أي: أقروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

واختلف في هؤلاء المعنيين في الآية، على أقوال:

أحدها: كانوا ستة، أحدهم أبو لبابة. وهذا قول ابن عباس أيضا.

والثاني: أنها نزلت في عشرة أنفس كانوا تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، منهم أبو لبابة، فربط سبعةٌ منهم أنفسهم إلى السّواري عند مَقْدم النبي ﷺ، توبةً منهم من ذنبهم. وهذا قول ابن عباس.

والثالث: أن الذين ربطوا أنفسهم بالسواري كانوا ثمانية، منهم كرْدَم، ومرداس، وأبو لبابة. وهذا قول ابن زيد.

والرابع: أنهم كانوا سبعة: فأما الذين خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا، فهم: جدُّ بن قيس، وأبو لبابة، وحرام، وأوس، وكلهم من الأنصار. وهذا قول قتادة.

والخامس: أنهم كانوا خمسة: هلال، وأبو لبابة، وكردم، ومرداس، وأبو قيس. وهذا القول مروي عن سعيد.

والسادس: عني بهذه الآية أبو لبابة خاصة، وذنبه الذي اعترف به فتيب عليه فيه، ما كان من أمره في بني قريظة. وهذا قول مجاهد.

والسابع: أنه عني بهذه الآية: الأعراب. وهذا القول مروي عن ابن عباس أيضا.

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك، قولُ من قال: نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ، وتركهم الجهادَ

=

=

معه، والخروجَ لغزو الروم، حين شخص إلى تبوك وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة.

وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب في ذلك، لأن الله جل ثناؤه قال: {وآخرون اعترفوا بذنوبهم}، فأخبر عن اعتراف جماعة بذنوبهم، ولم يكن المعترفُ بذنبه، الموثقُ نفسه بالسارية في حصار قريظة، غير أبي لبابة وحده. فإذ كان ذلك كذلك، وكان الله تبارك وتعالى قد وصف في قوله: {وآخرون اعترفوا بذنوبهم}، بالاعتراف بذنوبهم جماعةً، عُلِم أن الجماعة الذين وصفهم بذلك ليست الواحد، فقد تبين بذلك أن هذه الصفة إذا لم تكن إلا لجماعة، وكان لا جماعةَ فعلت ذلك، فيما نقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل، إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك، صحَّ ما قلنا في ذلك. وقلنا: " كان منهم أبو لبابة"، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك".

وفي قوله تعالى: {خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا} [التوبة: ١٠٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الصالح: غزوهم مع النبيﷺ، والسيء، تخلفهم عن النبيﷺ، قاله السدي.

الثاني: أن السيئ: الذنب، والصالح: التوبة، حكاه الماوردي عن بعض التابعين.

وروي عن الحسن، في قوله: اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا قال: تابوا".

الثالث: ما قاله الحسن: ذنبًا وسوطًا لا ذهبًا فروطًا، ولا ساقطًا سقوطًا.

قال الطبري:"يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيئ: اعترافهم بذنوبهم، وتوبتهم منها، والآخر السيئ: هو تخلفهم عن رسول الله ﷺ، حين خرج غازيًا، وتركهم الجهادَ مع المسلمين".

- **قال الآلوسي**: قوله (وآخرون اعترفوا بذنوبهم...) بيان لحال طائفة من

=

=

المسلمين ضعيفة الهمم في أمر الدين، ولم يكونوا منافقين على الصحيح، وقيل هم طائفة المنافقين إلا أنهم وفقوا للتوبة فتاب الله عليهم.

والمعنى: ويوجد معكم أيها المؤمنون قوم آخرون من صفاتهم أنهم اعترفوا بذنوبهم، أي: أقروا بها ولم ينكروها.

قال الخازن: قال أهل المعاني: الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء ومعناه أنهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهي أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على ما فعلوا.

قال الرازي: في هذا العمل الصالح وجوه:

الأول: العمل الصالح هو الاعتراف بالذنب والندامة عليه والتوبة منه، والسيء هو التخلف عن الغزو.

والثاني: العمل الصالح خروجهم مع الرسول ﷺ إلى سائر الغزوات، والسيء هو تخلفهم عن غزوة تبوك.

- **قال السعدي**: ولا يكون العمل صالحا إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء، بأن يغفر الله لهم.

قال الأحنف بن قيس: "عرضت نفسي على القرآن فلم أجدني بآية أشبه مني بهذه الآية: وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا".

قوله تعالى: {عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ١٠٢]، أي:" عسى الله أن يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم".

قال ابن عباس:" و «عسى» من الله واجب". وروي عن الضحاك والحسن وأبي مالك والسدي نحو ذلك.

=

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣).

{خُذْ مِنْ أَمْوَالهمْ صَدَقَة تُطَهِّرهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} مِنْ ذُنُوبهمْ فَأَخَذَ ثُلُث

=

وعبر سبحانه بعسى للإشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه، حتى لا يتكل الشخص، بل يكون على خوف وحذر.

وقد قالوا إن كلمة عسى متى صدرت عن الله تعالى فهي متحققة الوقوع، لأنها صادرة من كريم، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحدا في شيء لا يعطيه إياه.

- **قال السعدي**: وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة.

والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٠٢]، أي:" إن الله غفور لعباده، رحيم بهم".

وهو تعليل لرجاء قبول توبتهم، إذ معناه، إن الله تعالى كثير المغفرة للتائبين، واسع الرحمة للمحسنين.

- قال القرطبي: والجمهور أن الآية نزلت في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبو لبابة، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقهم ويرضى عنهم، فقال النبي ﷺ: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فأنزل الله هذه الآية؛ فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعذرهم.

قال ابن كثير: وهذه الآية -وإن كانت نزلت في أناس معينين -إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين.

أَمْوَالهِمْ وَتَصَدَّقَ بِهَا {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} أَيْ أُدْعُ لَهُمْ {إنَّ صَلَاتك سكن} رحمة {لهم} وقيل طمأنينة بقبول توبتهم {والله سميع عليم}[1].

(١) قوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: ١٠٣]، أي:" خذ -أيها النبي- من أموال هؤلاء التائبين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا صدقة تطهرهم مِن دنس ذنوبهم، وترفعهم عن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين".

قال مقاتل:" {تطهرهم} من تخلقهم، {وتزكيهم}، يعنى: وتصلحهم بها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، خذ من أموال هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم فتابوا منها {صدقة تطهرهم}، من دنس ذنوبهم {وتزكيهم بها}، يقول: وتنمِّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها، إلى منازل أهل الإخلاص".

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة).

قال المفسرون: " لما تاب الله ﷻ على أبي لبابة وأصحابه قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا، فقال: "ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا" " فنزلت هذه الآية.

وفي هذه الصدقة قولان.

أحدهما: أنها الصدقة التي بذلوها تطوعا، قاله ابن زيد، والجمهور.

والثاني: الزكاة، قاله عكرمة.

- وقال الخازن:... وقال بعضهم إن الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذها من الأغنياء ودفعها إلى الفقراء وهذا قول أكثر الفقهاء واستدلوا بها على إيجاب أخذ الزكاة.

عن عكرمة، في قوله: " {خذ من أموالهم صدقة}، قال: من البقر والإبل والغنم، =

=

وغيره".

عن ابن عباس، قوله: " {وتزكيهم بها}، يعني: بالزكاة: طاعة الله والإخلاص".

عن قتادة قوله: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}، قال: ذكر لنا أنهم سبعة رهط تخلفوا عن غزوة تبوك، أما أربعة: فهم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، وفيهم قيل: {خذ من أموالهم صدقة}، وكانوا وعدوا الله أن يجاهدوا ويتصدقوا".

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم:" هؤلاء ناس من المنافقين، ممن كان تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، اعترفوا بالنفاق وقالوا: يا رسول الله، قد ارتبنا ونافقنا وشككنا، ولكن توبة جديدة وصدقة نخرجها من أموالنا لله، فقال الله- ﷻ- لنبيه ﷺ {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}".

عن الضحاك: "فأنزل الله ﷻ: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}، من ذنوبهم التي أصابوا".

قوله تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} [التوبة: ١٠٣]، أي:" وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم واستغفر لهم منها، إن دعاءك واستغفارك رحمة وطمأنينة لهم".

قال الطبري:" يقول: وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم، واستغفر لهم منها (إن صلاتك سكن لهم)، يقول: إن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم، بأن الله قد عفا عنهم وقبل توبتهم".

وفي قوله تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ١٠٣]،

وجهان:

أحدهما: استغفر لهم: قاله ابن عباس، ومقاتل.

الثاني: ادع لهم، قاله السدي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج.

=

=

في الحدي عند مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال (كان رسول الله ﷺ إذا أتي بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: "اللهم صل على آل أبي أوفى).

وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صل علي وعلى زوجي. فقال: "صلى الله عليك، وعلى زوجك.

وفي قوله تعالى: {إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} [التوبة: ١٠٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: قربة لهم، قاله ابن عباس في رواية الضحاك.

الثاني: رحمة لهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس أيضًا.

الثالث: وقار لهم، قاله قتادة.

الرابع: تثبت لهم، قاله ابن قتيبة.

الخامس: تثبيت وسكون ورجاء، قاله وأبو عبيدة، وأنشد قول الأعشى:

تقول بنتي وقد قرّبت مرتحلا — يا ربّ جنّب أبى الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضى — نوما فإن لجنب المرء مضطجعا

وقال الزجاج:" أي: يسكنون بها".

والسادس: أمن لهم، وهو مروي عن قتادة أيضا، ومنه قول الشاعر:

يَا جَارَةَ الحَيِّ كُنتِ لي سَكَنًا — إذْ لَيْسَ بعضُ الجِيرَانِ بِالسَّكَنِ

والسابع: أي: سكن لقلوبهم وطمأنينة لهم. وهذا قول مقاتل.

وفي الصلاة عليهم والدعاء لهم عند أخذ الصدقة منهم ستة أوجه:

أحدها: يجب على الآخذ الدعاء للمعطي اعتبارًا بظاهر الأمر.

الثاني: لا يجب ولكن يستحب لأن جزاءها على الله تعالى لا على الآخذ.

والثالث: إن كانت تطوعًا وجب على الآخذ الدعاء، وإن كانت فرضًا استحب ولم

=

=

يجب.

والرابع: إن كان آخذها الوالي استحب له الدعاء ولم يجب عليه، وإن كان آخذها الفقير وجب عليه الدعاء له، لأن الحق في دفعها إلى الوالي معيّن، وإلى الفقير غير معيّن.

والخامس: إن كان آخذها الوالي وجب، وإن كان الفقير استحب ولم يجب. لأنه دفعها إلى الوالي إظهار طاعة فقوبل عليها بالشكر وليس كذلك الفقير.

والسادس: إن سأل الدافع الدعاء وجب، وإن لم يسأل استحب ولم يجب.

وروى عبد الله بن أبي أوفى: "كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل على آل فلان، فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى" وفي رواية: "إذا أتى الرجل النبي ﷺ بصدقته قال: اللهم صل عليه".

قوله تعالى: {وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ١٠٣]، أي:" والله سميع لكل دعاء وقول، عليم بأحوال العباد ونياتهم، وسيجازي كلَّ عامل بعمله".

قال مقاتل:" {سميع}، لقولهم: «خذ أموالنا فتصدق بها»، {عليم} بما قالوا".

قال الطبري:" يقول: والله سميع لدعائك إذا دعوت لهم، ولغير ذلك من كلام خلقه {عليم}، بما تطلب بهم بدعائك ربّك لهم، وبغير ذلك من أمور عباده".

* مسألة: في الآية أمر الله الإمام بجباية الأموال من مواردها، وإنفاقها على مواردها المشروعة، ليكتفي الناس، ويسد بعضهم حاجة بعض؛ فإن السلطان يهاب فتدفع الأموال إليه رغبة أو رهبة، طوعا أو كرها، ثم إن كان الإمام عادلا، فهو أبصر بمواضع الحاجة والفقر والعوز، وهو أعلم بمواضع الثغور؛ لأن الناس تكاتبه وتشتكي إليه، فيحيط بأحوال الناس والبلدان ولو تباعدت ما لا يحيط الغني بذلك، وأي خلل أو تقصير في جباية الأموال من مواضعها وإنفاقها على مستحقيها، يكون في ذلك ظلم في عيش الناس، ويظهر الظلم في الأموال في

=

=

جهتين:

الجهة الأولى: الظلم في جباية الأموال؛ وذلك بعدم أخذها كما أمر الله؛ فيتم تعطيل مواردها أو بعضها، فالله أمر بجباية الزكاة من الأغنياء من أموالهم وزروعهم وثمارهم، ومواشيهم وعروضهم، ويأخذ الجزية والخراج من الكفار، ومن مواردها غنائم الكفار عند قتالهم لإعلاء كلمة الله، فبمقدار الخلل في تعطيل موارد المال في الإسلام، يكون خلل في بيت المال؛ كجباية السلطان لزكاة لعض الأغنياء دون بعض، أو تعطيل الجهاد والجزية والخراج.

الجهة الثانية: الظلم في صرفها؛ فإن الله أمر بصرف الأموال في مصارفها؛ كل مال بحسبه، فقد قسم الله في كتابه الغنيمة والزكاة، وبين النبي ﷺ مصرف سلب الكافر وخراج الأرض والجزية وإقطاع الأرض، وحدوده وضوابطه، وبين أحق الناس بالصدقة، وأفضلها وأعظمها نفعا وأجرا.

* حبس الصدقة عن مستحقبها، وأخذ غير أهلها لها:

وقد جاء في الشريعة تحريم حبس الصدقة عن أهلها، ووجوب صرفها ما وجد مستحقوها، فإن الأصل أن الفقر والفاقة قد توجد وتطرأ، ولكن لا تبقى في الناس إلا بسبب مال محبوس عن أهله؛ منعه غني، أو حبسه سلطان، وقد حث النبي ﷺ على قسمة الصدقة والتعجيل يها إلى أهلها؛ ففي البخاري؛ من حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه؛ قال: صلى بنا النبي ﷺ العصر، فأسرع، ثم دخل البيت، فلم يلبث أن خرج، فقلت أو قيل له، فقال: (كنت خلفت في البيت تبرا من الصدقة، فكرهت أن أبيته، فقسمته).

والزكاة إن حبست عن أهلها في مال، أهلكته؛ لأن للزكاة بركة على مال منفقها، وشؤما على مال حابسها؛ فعن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تخالط الصدقة مالا إلا أهلكته)؛ رواه البيهقي وغيره؛ من حديث هشام، عن أبيه، عنها، قال

=

=

الشافعي: يعني - والله أعلم - أن خيانة الصدقة قد تتلف المال المخلوط بالخيانة من الصدقة.

وقد حرم الله تعرض غير أهل الزكاة لها بطلبها والانتفاع بها؛ كما حرم سؤالها من دون أهلها؛ فإن الزكاة قد تؤخذ من مواردها ويخرجها الغني أو السلطان أو نائبه طالبا أهلها، فيعترضها من يطلبها من غير أهلها، فينحرف طريقها ومسارها إلى غير مقصودها، فكما حرم الله على قابض الزكاة أن يصرفها لغير أهلها، فقد حرم على غير أهلها أن يطلبوها ويأخذوها؛ فقد روى أحمد وأهل السنن؛ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي)، وفي "المسند" و"السنن" أيضا، من حديث عبد الله بن مسعود؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (من سأل وله ما يغنيه، جاءت يوم القيامة خموش، أو خدوش، أو كدوح في وجهه)، فقال: يا رسول الله، وما الغنى؟ قال: (خمسون درهما، أو قيمتها من الذهب)، وقد أعله يحيى بن آدم وغيره.

* إذا أخذ الإمام الزكاة أو الصدقة من الغني بقوة وقهر وغلبة، فقد اختلف العلماء في إجزائها عن زكاته، وهل يجب عليه أن يخرج عوضا عنها إن تاب؟ على قولين، وهما وجهان في مذهب أحمد:

الأول: تجزيه باعتبار أن الإمام نائب عن المسلمين في أخذ الحقوق وإعطائها أهلها، ونية الإمام تجزئ عن نية الغني.

الثاني: أنها لا تجزئ عن زكاته المفروضة، ولا تقبل صدقة نافلة، ورجحه ابن تيمية؛ لأن النبي كان يأخذها منهم بإعطائهم إياها، ثم بين عدم قبوله لها، وبين العلة في عدم القبول بأنهم أعطوها وهم كارهون، فالعبادة التي تخرج بإكراه لا طواعية وانقيادا: لا تقبل، كمن يصلي مكرها خوف الضرب أو الحبس، لا تقبل منه، ولو تاب في الوقت، وجبت عليه الإعادة.

=

=

وقوله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة} اختلف في المراد بالصدقة المأخوذة: هل هي التطوع أو الزكاة المفروضة؟ على قولين للسلف، والأظهر: أنه في صدقة التطوع؛ لأن الآية نزلت فيمن تخلف عن غزوة تبوك، فجاؤوا معتذرين عن تخلفهم، وطرحوا مالهم بين يدي النبي ﷺ لأخذه؛ رجاء أن يغفر الله لهم ويعفو عنهم.

ولا خلاف أنه يدخل في الأموال التي يجب أخذ زكاتها: الحرث، والماشية، والنقدان.

* زكاة عروض التجارة: وأما العروض المملوكة، فعلى نوعين:

النوع الأول: عروض مملوكة غير معروضة للتجارة؛ كالبيت المسكون، والبستان المنتفع مه، والدابة المركوبة من فرس أو جمل، أو سيارة أو طائرة، ومثل ذلك أناث البيوت ولو غلا ثمنه، والمقتنيات من أوان وملابس وفرش مستعملة؛ فتلك لا زكاة فيها، ولم يكن النبي ﷺ ولا أصحابه ولا التابعون يسألون عن قنية الناس وما ينتفعون به، ولم يثبت عن أحد منهم؛ أنه أخرج زكاتها ولا أخذت منه؛ وذلك أنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة)؛ رواه الشيخان.

وبهذا كان يعمل الصحابة، وقد صح عن ابن عمر؛ قال: "ليس في العرض زكاة إلا أن يراد به التجارة"؛ رواه عنه نافع؛ أخرجه الشافعي في "الأم".

وقد سئل عطاء عن الرجل يشتري المتاع فيمكث السنين: يزكيه؟ قال: لا.

وعليه نص طاوس وسفيان وجماعة.

وأما ما روي عن ابن سيرين؛ قال: "في المتاع يقوم ثم تؤدى زكاته".

فقد رواه أبو هلال محمد بن سليم، عن ابن سيرين؛ وهو ليس بالقوي؛ كما قال النسائي، وإن صح فمراده المتاع الذي يشترى ليباع، لا لينتفع منه بنفسه، والسلف

=

=

يعبرون عن العروض المشتراة التي توضع في الدور لزمن بالمتاع؛ لأنها ليست معروضة للناس، فالعروض: إما للتجارة، أو للمتاع، فما كان غالبا في البيوت، فهو للمتاع ولو كان قد قصد صاحبه بيعه بعد زمن، فيحبسه ينتظر به الغلاء، وهذه المسألة مما اختلف فيه السلف على قولين:

ذهب قوم: إلى أن المتاع الذي يشتريه صاحبه ويدخره ينتظر به الغلاء: أنه يزكيه؛ وهذا ظاهر قول ابن سيرين السابق، وبه قال النخعي والثوري.

وذهب قوم: إلى أنه لا يزكيه؛ وهو قول طاوس، ونسب إلى الشعبي وعطاء وعمرو بن دينار، وفي النسبة نظر، وبه قال المالكية، فيرون أنه يزكى عند بيعه مرة؛ خلافا لجمهور الفقهاء الذبن يرون أن محتكر السلعة للتجارة كالمدير لها؛ يزكيها كل عام؛ لأنه يتربص ربحا، ويملك القدرة على بيعها متى شاء، ولكنه يريد بيعها بثمن أعلى وأغلى، وهو في حقيقته يترقب السوق، ويعرف أسعاره كل عام، ويتحين الأصلح له منها، كما يتحين عارض السلعة للناس الثمن الذي يريده، والفرق بينهما أن المحتكر لم يعرض سلعته بعينها، ولكن يرقب أمثالها في السوق، فإن كان سعرها جيدا أخرجها، وأما المدير للسلعة، فيعرضها بعينها، وكلاهما يريد البيع ويتحين سعرا يناسبه.

واستدل بأثر عام على عدم وجوب الزكاة في العروض المحتكرة، غير المدارة؛ وهو ما رواه ابن جريج، عن عطاء؛ قال: "لا زكاة في عرض لا يدار، إلا الذهب والفضة".

فلا يظهر أنه يقصد المال المحتكر الذي ينتظر به صاحبه الغلاء؛ فهذا مدار لكن دورانه بعيد، والتجار منهم من يدير المال في اليوم، ومنهم في الأسبوع، ومنهم في الشهر والحول، وأكثر من ذلك، حسب ما يربحون، وإنما قصد عطاء العرض الذي يشترى ولا يراد به إدارته للتجارة؛ فلا زكاة فيه؛ وهذا القول ليس في شيوخ

=

=

عطاء ولا في أقرانه، ولا يحفظ هذا من وجه صريح صحيح إلا عن طاوس؛ كما رواه عنه ابنه، وقد أنكره عبد الرزاق عليه، فقال: "اسم لا أحب أن أقوله: ينتظر به الغلاء".

ثم إن مدة احتكار السلع تختلف بحسب حاجة الناس إليها؛ فمنها: ما يحتكر شهرا، ومنها: ما يحتكر فصلا؛ ينتظر فيه صيفا أو شتاء، أو سلما أو حربا، ومنها: ما يحتكر سنة وسنتين وثلاثا، وهذه الأزمنة لا تجعل السلعة غير مدارة في عرفهم، ومن تأمل الأخبار المروية عن عطاء يجد أنه يسأل عن العرض الذي لا يدار؛ يعنون به المتاع وما يقتنى ويستمتع به؛ كما قال ابن جريج: قلت لعطاء: طعام أمسكه أريد أكله، فيحول عليه الحول؟ قال: ليس عليك فيه صدقة، لعمري إنا لنفعل ذلك؛ نبتاع الطعام وما نزكيه، فإن كنت تريد بيعه فزكه إذا بعته.

وبنحو هذا ومعناه يقول السلف؛ كما روى ابن جريج؛ قال: قال لي عبد الكريم في الحرث: "إذا أعطيت زكاته أول مرة، فحال عليه الحول عندك، فلا تزكه؛ حسبك الأولى".

وبنحوه نقله ابن جريج، عن عمرو بن دينار.

وكلامهم وكلام طاوس في الثمار والحبوب، وهم ينتفعون منها ويبيعون ما بقي، ولا يدرى عادة مقدار ما يراد بيعه منه وما يستنفقونه بالأكل منه، وهذا لا يسحب على عروض التجارة الخالصة محتكرة أو مدارة.

وقد بين ابن عبد البر الخطأ في فهم قول عطاء، فقال: "وأما ما ذكره عن عطاء وعمرو بن دينار، فقد أخطأ عليهما، وليس ذلك بمعروف عنهما".

النوع الثاني: العروض التجارية، وهي التي تعد للبيع، وعامة العلماء على أن فيها زكاة، خلافا لداود الظاهري، والآية عامة في الإنفاق ووجوب أخذه، ولا يؤمر بأخذ غير المفروض أو ما بذله صاحبه، وقد قال تعالى: {أنفقوا مما رزقناكم}

=

=

[البقرة: ٢٥٤]، وقد روى حجاج، عن ابن جريج قوله: {ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم}[البقرة: ٢٥٤]؛ قال "من الزكاة والتطوع".

ووجوب إخراج الزكاة من عروض التجارة هو قول الأئمة الأربعة، وعمل الخلفاء الراشدين؛ كعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو قول ابن عباس وابن عمر، ولا خلاف بين الصحابة في وجوبه، وقد رواه عن عمر جماعة لا يختلفون عنه في وجوب ذلك؛ كأنس بن مالك، وزياد بن حدير، وعبد الرحمن بن عبد القاري، والحسن البصري.

وقد روى نافع، عن ابن عمر؛ قال: "كان فيما كان من مال في رقيق أو في دواب أو بز يدار لتجارة: الزكاة كل عام"؛ رواه أبو عبيد وعبد الرزاق.

وبهذا قال التابعون قاطبة، كالفقهاء السبعة في المدينة، والزهري، وهو قول عطاء ومجاهد وعمرو بن دينار، ولم يخالفهم أحد من المكيين وغيرهم من فقهاء التابعين من بقية البلدان؛ صح عن الشعبي والحسن وسعيد بن جبير والنخعي وحماد والثوري من العراق، ومن الشام مكحول والأوزاعي، ومن اليمن طاوس، ولا مخالف لهم في بلدانهم.

وكان عمر بن عبد العزيز يأمر بأخذ عروض التجارة، كما كتب إلى زريق بن حيان - وكان على جواز مصر -: "أن انظر من مر بك من المسلمين، فخذ مما ظهر من أموالهم مما يديرون من التجارات"؛ رواه مالك.

وقد روى أبو داود وغيره؛ من حديث سمرة مرفوعا: "أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرج الصدقة من الذي نعد للبيع".

ونقل ابن المنذر إجماع العلماء على زكاة عروض التجارة؛ خلافا للظاهرية الذبن يجعلون النصوص إنما هي فيما خصه الدليل، ولا يأخذون بإطلاقات الآيات، وربما احترزوا من القول بالإطلاق؛ خوفا من وجوب الزكاة في المتاع والدور

=

=

والمراكب وطعام البيت؛ لكونها من الأرزاق والأموال، ولكن هذا النوع من الأموال لم يقل أحد بوجوب الزكاة فيه، ولا ذكر ذلك الصحابة ولا من بعدهم، إلا ما يتعلق بحلي المرأة، ومن أوجب الزكاة فيه لا يجعله متاعا، بل نقدا.

ويروى عن ابن عباس القول بعدم زكاة عروض التجارة، ولا يصح عنه، بل هو منكر، وسائر أصحابه على خلاف ذلك، ولو ثبت عنه ذلك، لأسند، ولعمل به الواحد من أصحابه.

والنظر دال على وجوب إخراج زكاة عروض التجارة؛ فإن أثمن أموال الناس وأغلاها: ما يتاجرون به، فأكثر التجار والأغنياء يملكون عروض التجارة أكثر من النقدين، وترك زكاة ذلك مخالفة لمقصد الشريعة في زكاة الأموال، وهضم لحق الفقراء، وبخس لهم، ولو ترك القول بزكاة عروض التجارة، لكان بابا للخروج من فرض الزكاة؛ يدخل منه كل طامع أو صاحب هوى، والنفس شحيحة بمالها.

* عروض التجارة التي ينتفع بها مع عرضها: وأما المال الذي يعرضه صاحبه للتجارة وهو ينتفع به؛ كالبيت الذي يسكنه يعرضه للبيع وهو فيه، وكالمركبة التي تقضي حاجته يعرضها وهو ينتفع بها؛ فهذا محل خلاف عند الفقهاء في وجوب زكاته، والأظهر أن ذلك على حالتين:

الحالة الأولى: أن يكون قصده من عرضه للبيع التجارة، فيبيعه ليشتري سلعة أخرى، ويبيعه ويضارب بقيمته؛ ففي ذلك زكاة عروض التجارة.

والحالة الثانية" ألا يكون قصده التجارة؛ وإنما أن يبدل متاعا بمتاع؛ كمن يعرض فرسه المركوب، وبيته المسكون، وقميصه الملبوس منه للبيع، ويريد أن يبدله بغيره، فحال الحول عليه وهو يعرضه وهو منتفع به، فليس في ذلك زكاة؛ لأنه لم يعرضه تجارة، وإنما كان متاعا وسيصيره متاعا، وانتفاعه منه موجب لسقوط الزكاة فيه؛ شريطة ألا يكون انتفاعه مه اتفاعا عارضا.

=

=

وأما عروض البيع التي لا ينتفع بها، ولا يراد ببيعها إدارتها تجارة؛ بل شراء متاع بثمنها، كمن يعرض دارا أو مركبا لا ينتفع بها ليشتري أخرى ينتفع بها، ففيها زكاة؛ لأنه يعرضها لبيعها ولا ينتفع بها، وعرضه للبيع في نفسه تجارة يلتمس منه ربحا ولو كان ثمنها يؤول بعد ذلك إلى متاع، ولو أسقطت الزكاة عن عروض التجارة لهذه العلة؛ لسقطت عن كثير من العروض التجارية؛ لأن أكثر الناس يتاجرون ليستمتعوا بأثمان تجارتهم في العاجل والآجل، وفتح باب إسقاط الزكاة في البيع الأول للمعروض يفتح الباب لما بعده؛ لأنه لا دليل على وضع حد معين، وأوله كمنتهاه، والله أعلم.

وبهيمة الأنعام والزروع والحبوب إن كانت عروضا للبيع، ففيها زكاة عروض التجارة، لا زكاة الحبوب والثمار وبهيمة الأنعام، وتقوم فيمتها كما تقوم عروض التجارة، ثم تخرج زكاتها من كل أربعين درهما درهم، وقد كان السلف يعملون بهذا؛ كعطاء وعمرو بن دينار والزهري ويونس والشعبي والنخعي والثوري.

* وزكاة عروض التجارة تكون كل عام؛ وهذا الذي عليه عامة السلف، وصح هذا عن ابن عمر وغيره، سواء أربح في تجارته أم لم يربح؛ وبهذا قال جمهور العلماء، وقد ذهب مالك في رواية: إلى أنه إن حال الحول على تجارته، ولم ينض عليه منها شيء، فليس عليه زكاة، وبهذا قال ابن القاسم، وقد جعلوا حكم السلعة البائرة والخاسرة كحكم السلعة المحتكرة؛ لا تجب عليه الزكاة حتى يبيع وينض له من النقد ما يبلغ النصاب.

ونض المال يعنون به أنه صار عينا بعد أن كان متاعا، ويراد من ذلك أنه علامة على أن السلعة ليست بائرة، والبائرة في حكم المحتكرة حتى تتحرك وتتحول من عرض إلى عين؛ كدرهم ودينار.

ولمالك قول يوافق جمهور الفقهاء في عدم اشتراط البيع والربح في عروض

=

=

التجارة إذا كان باختيار مالكها؛ وهو الأصح في القياس، والموافق للأثر والتعليل، وقد روى نافع، عن ابن عمر، أنه كان يقول: "في كل مال يدار في عبيد أو دواب أو طعام الزكاة كل عام".

وأما عروض التجارة المجمدة التي لا يستطيع مالكها التصرف فيها؛ لضياع وثائقها أو وضع سلطان يده عليها، فليس فيها زكاة، حتى يملك التصرف فيها؛ فتلك ليست من المال المدار، ولا تجري على قول من أخرج المحتكر من المدار.

ومن بارت سلعته أو نزلت قيمتها، فزكاتها بقيمتها التي لو عرضها لوجد من يشتريها، ولو كان ذلك في ربع قيمتها؛ لأن زكاة العروض تقييمها عند الحول، ولا اعتبار بقيمتها عند شرائها، والعروض التي لا تجد مشتريا لها - لأن الناس زهدوا فيها مهما كان ثمنها قليلا - فهذه لا قيمة لها؛ وعلى هذا لا زكاة فيها، والله أعلم.

* قوله تعالى: {وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم}، فيه استحباب الدعاء للمتصدق في نفسه وولده، وبالبركة في ماله؛ وقد قال أهل الظاهر بالوجوب، وليس بصحيح، بل هو مستحب، ولم يقل أحد بوجوبه من السلف والأئمة.

وإنما أمر الله نبيه بالدعاء لهم؛ لعظم أثر دعوة النبي ﷺ، وهي مخصوصة بالقبول، ولفضل الدعاء عامة؛ فإنه يورث سكنا وطمأنينة، يجدهما المدعو له في نفسه، فيتذكر الله فيخلص، ويتذكر ثوابة فينتظره ويرجوه، ولا يتعلق قلبه بما فات من ماله.

وأصل الحكم للنبي ﷺ ومن قام مقامه، ومع أن أخذ النبي أعظم من أخذ غيره، وإعطاءه أعظم من إعطاء غيره، وصلاته أعظم من صلاة غيره؛ فإن الأخذ والدعاء من الجميع مشروع، والدعاء عام لكل قابض للزكاة من دافعيها، وكما أن الأخذ في قوله: {خذ من أموالهم صدقة} عام لكل ذي أمر؛ فإن قوله تعالى، {وصل

=

=

عليهم} عام كذلك لكل قابض.

وقد يختص النبي ﷺ بتوجيه الخطاب إليه، ولا يعني تخصيص الحكم به؛ وذلك لجملة من العلل والأحكام:

منها: أن الخطاب يتجه إلى الولاة أعظم من غيرهم؛ وذلك لأنهم أولى من يقوم بهذا الأمر، فتوجه إليهم لبيان أنهم الأحق بالامتثال، وهذا كثير؛ ومن ذلك قوله تعالى: {ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} [التوبة: ٧٣]؛ لأن أمور الجهاد تتجه في أصلها إلى الحاكم، وهي منه أعظم وأولى من غيره؛ سواء كان ذلك في الكافرين أو المنافقين، فله هيبة، ومنه رغبة، لا تكون لغيره، ومن ذلك قوله تعالى: {ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن} [الطلاق: ١].

ومنها: أن الأمر الذي يتم الخطاب لأجله عظيم، فيتوجه الأمر للأعلى؛ حتى لا يظن أحد خروجه منه، فلا أعظم ولا أشرف مقاما في البشر من النبي ﷺ، فإذا توجه الخطاب إليه، كان توجهه إلى غيره أولى؛ من حاكم وسلطان، وخاص وعام، وذكر وأنثى.

ومنها: أن الأمر مختص بالنبي ﷺ، وهذا خلاف الأصل، وهو قليل نادر، ولا بد من دليل يقوم عليه.

وقد يكون الخطاب متوجها إلى النبي ﷺ، ولكن المراد به غيره؛ كما في قوله تعالى: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك} [يونس: ٩٤]، فالشك لا ينسب إلى النبي ﷺ.

وقد زعم مانعو الزكاة أن هذه الآية: {خذ من أموالهم صدقة} خاصة بالنبي ﷺ؛ شحا وطمعا في نفوسهم، حملهم على هذا التأويل، فقاتلهم أبو بكر الصديق والصحابة معه، فقال: "والله، لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم على منعه"؛ رواه الشيخان.

=

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤).

{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَل التَّوْبَة عن عباده ويأخذ} يقبل {الصَّدَقَات وَأَنَّ الله هُوَ التَّوَّاب} عَلَى عِبَاده بقبول توبتهم {الرحيم} بهم وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ وَالْقَصْد بِهِ هُوَ تَهْيِيجهمْ إلَى التوبة والصدقة[1].

=

وقد بين أبو بكر والصحابة لهم سوء زعمهم، وبطلان فهمهم، بالحجة والدليل، ثم قاتلوهم على ذلك لما أصروا على منعها، وفي ذلك أن الضلالة ولو كانت بينة ظاهرة، فالواجب بيانها لأهلها، وإقامة الحجة عليهم؛ فقد يكون فيهم من هو جاهل أو مأمور وهو كاره، فإن تبين له، عاد إلى الحق والرشد.

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ} [التوبة: ١٠٤]، أي:" ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد وغيرهم أن الله وحده هو الذي يقبل توبة عباده، ويأخذ الصدقات ويثيب عليها".

قال القرطبي:" قيل: قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس، لا يكلمون ولا يجالسون، فما لهم الآن؟ وما هذه الخاصة التي خصوا بها دوننا، فنزلت:" ألم يعلموا" فالضمير في" يعلموا" عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين. قال معناه ابن زيد".

وقد جاءت [عن] بمعنى [من] في هذه الآية، وهو قول أبي يعلى، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، وابن هشام، والزركشي، وغيرهم.

قال الزمخشري: (يقال: قبلت منه الشيء، وقبلته عنه، فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه، ومعنى قبلته عنه: عزلته عنه وأبنته عنه).

والشاهد على هذا الاستعمال قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا

=

=

عَمِلُوا} [الأحقاف:١٦] بدليل قوله تعالى: {فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ} [المائدة:٢٧]، وقوله تعالى: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا} [البقرة:١٢٧].

والأصل في معنى [عن] هو المجاوزة، ومع هذا المعنى، فهناك معان أخرى كثيرة، تستفاد من خصوصية كل سياق ترد فيه، دون أن يخرج هذا الحرف عن دلالته الأصلية.

فإن قيل: فما سبب استعمال [عن] مكان [من]؟.

فالجواب: أن في استعمال [عن] في هذا الموضع تضمين الآية معنى العفو والصفح والتجاوز.

أشار إلى هذا السمرقندي بقوله: (قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} [الشورى:٢٥] حتى يتجاوز عما عملوا قبل التوبة).

كما أن في استعمال [عن] إشارة إلى تجاوز المذنب لحدوده، فهو بحاجة إلى استحضار هذا المعنى ليستوفي شروط التوبة فيحصل له القبول.

وقال أبو حيان: ({عَنْ عِبَادِهِ} أي: يزيد الرجوع عن المعاصي).

وبتتبع قَبِل وتَقَبَّل في القرآن نجد أنهما تعديا بـ[من] إلا في ثلاثة مواضع كلها في سياق التوبة والتجاوز عن السيئات:

أحدها: آية التوبة التي معنا، وثانيها: قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥)} [الشورى:٢٥]، وثالثها: قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} [الأحقاف:١٦].

فكان من حِكَم اختيارها إفادة معنى زائد لا يوجد عند استعمال [من] في موضعها، فقد أفادت معنى [من] وزادت عليها محو الذنوب وصرفها عنهم فضلًا منه ورحمة، وكأن الله ميز الأعمال الصالحة وعزلها عن الأعمال السيئة، فقبل الطيب منها وتجاوز عن السيىء.

=

=

قال الطبري:" وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره، أخبر به المؤمنين به: أن قبول توبة من تاب من المنافقين، وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها، ليسا إلى نبيّ الله ﷺ وأن نبيَّ الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسواري من المتخلفين عن الغزو معه، وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عنهم حين أذن له في ذلك، إنما فعل ذلك من أجل أن ذلك لم يكن إليه ﷺ، وأن ذلك إلى الله تعالى ذكره دون محمد، وأن محمدًا إنما يفعل ما يفعل من تركٍ وإطلاقٍ وأخذِ صدقةٍ وغير ذلك من أفعاله بأمر الله. فقال جل ثناؤه: ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد مع المؤمنين، الموثقو أنفسهم بالسواري، القائلون: "لا نُطلق أنفسنا حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقنا"، السَّائلو رسولِ الله ﷺ أخذَ صدقة أموالهم، أنَّ ذلك ليس إلى محمد، وأن ذلك إلى الله، وأن الله هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده أو يردُّها، ويأخذ صدقة من تصدَّق منهم أو يردُّها عليه دون محمد، فيوجِّهوا توبتهم وصدقتهم إلى الله، ويقصدوا بذلك قصدَ وجهه دون محمد وغيره، ويخلصوا التوبة له، ويريدوه بصدقتهم".

قال الزمخشري:" قرئ «ألم يعلموا» بالياء والتاء، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يراد المتوب عليهم، يعنى: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم أن الله هو يقبل التوبة إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو للتخصيص والتأكيد، وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين.

وقيل: معنى التخصيص في هو: أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها، فاقصدوه بها ووجهوها إليه".

قال قتادة:" ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: "والذي نفس محمد بيده، لا يتصدق رجلٌ بصدقة فتقع في يد السائل، حتى تقع في يد الله!".

=

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥).

{وَقُلْ} لَهُمْ أَوْ لِلنَّاسِ {اعْمَلُوا} مَا شِئْتُمْ {فَسَيَرَى الله عَمَلكُمْ وَرَسُوله وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ} بِالْبَعْثِ {إِلَى عَالِم الْغَيْب وَالشَّهَادَة} أَيْ الله {فَيُنَبِّئُكُمْ

=

قال عبد الله بن مسعود:" ما من عبدٍ تصدق بصدقة إلا وقعت في يد الله، فيكون هو الذي يضعُها في يد السائل. وتلا هذه الآية: {هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات}".

عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ: إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربِّيها لأحدكم كما يربِّي أحدكم مُهْرَه، حتى إن اللقمة لتصيرُ مثل أُحُدٍ. وتصديق ذلك في كتاب الله: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات}، و {يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}، [سورة البقرة: ٢٧٦]".

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١٠٤]، أي:" وأن الله هو التواب لعباده إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا أنابوا إلى رضاه".

قال الطبري: أي:" ويعلموا أن الله هو التواب الرحيم؟ يقول: المراجع لعبيده إلى العفو عنه إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا هم أنابوا إلى رضاه من عقابه".

عن ابن عباس: " {وأن الله هو التواب الرحيم}، يعني: إن استقاموا".

قال قتادة:" قوله: {رحيما}، بعباده". وفي رواية: "بهم بعد التوب".

قال سعيد بن جبير:" قوله: {رحيما} بهم بعد التوب". وفي لفظ:" يعني: رحيما بالمؤمنين".

روي عن أبي زرعة، قال: "إن أول شيء كتب: أنا التواب أتوب على من تاب".

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} فَيُجَازِيكُمْ بِهِ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥]، أي:" وقل -أيها النبي- لهؤلاء المتخلِّفين عن الجهاد: اعملوا لله بما يرضيه من طاعته، وأداء فرائضه، واجتناب المعاصي، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وسيتبين أمركم".

قال مجاهد:" هذا وعيد".

يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول، وعلى المؤمنين.

وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)، وقال تعالى (يوم تبلى السرائر)، وقال تعالى (وحصل ما في الصدور). وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا.

عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال (لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {وقل}، يا محمد، لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك {اعملوا} لله بما يرضيه، من طاعته، وأداء فرائضه فسيرى الله إن عملتم عملكم، ويراه رسوله والمؤمنون، في الدنيا".

قال الزمخشري: أي:" وقل لهؤلاء التائبين {اعملوا} فإن عملكم لا يخفى- خيرا كان أو شرا- على الله وعباده، كما رأيتم وتبين لكم. والثاني: أن يراد غير التائبين ترغيبا لهم في التوبة، فقد روى أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم؟ فنزلت... وقوله {فسيرى الله}، وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة".

=

=

قال الواحدي:" يريد: إن الله تعالى يطلع المؤمنين على ما في قلوب إخوانهم من الخير والشر؛ إن كان خيرًا أوقع في قلوبهم لهم المحبة، وإن كان شرًا أوقع في قلوبهم لهم البغضة".

قال القرطبي:" قوله تعالى: {وقل اعملوا} خطاب للجميع. {فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون}، أي: بإطلاعه إياهم على أعمالكم. وفي الخبر: «لو أن رجلا عمل في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائنا ما كان» ".

قال الصابوني:" {اعملوا} صيغة أمر متضمنة للوعيد، أي: اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين".

قوله تعالى: {وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [التوبة: ١٠٥]، أي:" وسترجعون يوم القيامة إلى مَن يعلم سركم وجهركم".

قال الطبري:" {وستردون} يوم القيامة، إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم، فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها".

قوله تعالى: {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥]، أي:" فيخبركم بما كنتم تعملون".

قال الحسن: "الشهادة: ما قد رأيتم من خلقه، والغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قال الطبري:" يقول: فيخبركم بما كنتم تعملون، وما منه خالصًا، وما منه رياءً، وما منه طاعةً، وما منه لله معصية، فيجازيكم على ذلك كله جزاءكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته".

قال أهل العلم:"وفي هذا تهديد ووعيد لمن استمر على باطله وطغيانه".

قال السعدي: يقول تعالى (وقل) لهؤلاء المنافقين (اعملوا) ما ترون من الأعمال،

=

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦).

{وآخرون} من المتخلفين {مرجون} بِالْهَمْزِ وَتَرْكه مُؤَخَّرُونَ عَنْ التَّوْبَة {لِأَمْرِ الله} فِيهِمْ بِمَا يَشَاء {إمَّا يُعَذِّبهُمْ} بِأَنْ يُمِيتهُمْ بِلَا تَوْبَة {وَإِمَّا يَتُوب عَلَيْهِمْ وَاَللَّه عَلِيم} بِخَلْقِهِ {حَكِيم} فِي صُنْعه بِهِمْ وَهُمْ الثَّلَاثَة الْآتُونَ بَعْد مَرَارَة بْن الرَّبِيع وَكَعْب بْن مَالِك وَهِلَال بْن أُمَيَّة تَخَلَّفُوا كَسَلًا وَمَيْلًا إلَى الدَّعَة لَا نِفَاقًا وَلَمْ يَعْتَذِرُوا إلَى النَّبِيّ ﷺ كَغَيْرِهِمْ فَوَقَفَ أَمْرهمْ خَمْسِينَ لَيْلَة وَهَجَرَهُمْ النَّاس حَتَّى نَزَلَتْ توبتهم بعد[1].

=

واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك، سيخفى. (فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، (وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

(١) ذكر سبب النزول.

عن محمد بن كعب القرظي: أن أبا لبابة أشار إلى بني قريظة بأصبعه أنه الذبح، فقال: خنت الله ورسوله؛ فنزلت: {لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ} [الأنفال: ٢٧]؛ ونزلت: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ} فكان ممن تاب الله عليه.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٨٤) ونسبه لأبي الشيخ. وسنده ضعيف.

* قوله تعالى: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ} [التوبة: ١٠٦]، أي:" ومن هؤلاء المتخلفين عنكم -أيها المؤمنون- في غزوة (تبوك) آخرون مؤخرون؛ ليقضي الله فيهم ما هو قاض".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المتخلفين عنكم حين شخصتم

=

=

لعدوّكم، أيها المؤمنون، آخرون،: مُرْجئون لأمر الله وَقضائه".

قـال أبـو عبيـدة:" {مُرْجَـوْنَ لِأَمْـرِ اللهِ}، أي: مـؤخرون، يقـال: أرجأتـك، أي أخرتك".

قال ابن قتيبة:" أي: مؤخرون على أمره".

قال مقاتل:" يعني موقوفون للتوبة عن أمر الله مرارة بن ربيعة من بني زيد، وهـلال بن أمية من الأنصار من أهل قباء من بني واقب، وكعب بن مالـك الـشاعر مـن بنـي سلمة كلهم من الأنصار من أهل قباء، لم يفعلوا كفعل أبي لبابة لـم يـذكروا بالتوبـة ولا بالعقوبة".

قال الفراء:" هم ثلاثة نفر مسمون، تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع قال: {ما عذركم}؟ قـالوا: لا عـذر لنـا إلا الخطيئة، فكـانوا موقـوفين حتـى نزلـت توبتهم في قوله: {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنـصار} [التوبـة:١١٧]، وقوله: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} [:التوبة:١١٨] وهـم كعب بن مالك، وهـلال بن أمية، ومرارة".

عن مجاهد: " {وآخرون مرجون لأمر الله}، قال: هلال بن أمية، ومرارة بن ربعيّ، وكعب بن مالك، من الأوس والخزرج".

عن قتادة قوله: " {وآخرون مرجون لأمر الله}، قال: كنا نُحدَّث أنهم الثلاثة الـذين خُلّفوا: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، رهط من الأنصار".

عن ابن إسحاق: " {وآخرون مرجـون لأمـر الله إمـا يعـذبهم وإمـا يتـوب علـيهم}، وهـم الثلاثة الذين خلفـوا، وأرجـأ رسـول الله ﷺ أمـرهم، حتـى أتـتهم تـوبتهم مـن الله".

عن الضحاك: قوله " {وآخرون مرجون لأمـر الله}، هـم الثلاثـة الـذين خلفـوا عـن التوبة يريد: غير أبي لبابة وأصحابه ولـم ينزل الله عذرهم، فـضاقت علـيهم الأرض

=

=

بما رحبت. وكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: " هلكوا"، حين لم ينزل الله فيهم ما أنزل في أبي لبابة وأصحابه، وتقول فرقة أخرى: " عسى الله أن يعفو عنهم!"، وكانوا مرجئين لأمر الله. ثم أنزل الله رحمته ومغفرته فقال: {لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ} الآية، وأنزل: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}، الآية".

عن ابن عباس:"لما نزلت هذه الآية يعني قوله: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها} أخذ رسول الله ﷺ من أموالهم يعني من أموال أبي لبابة وصاحبيه فتصدَّق بها عنهم، وبقي الثلاثة الذين خالفوا أبا لبابة، ولم يوثقوا، ولم يذكروا بشيء، ولم ينزل عذرهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت. وهم الذين قال الله: {وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم}. فجعل الناس يقولون: هلكوا! إذ لم ينزل لهم عذر، وجعل آخرون يقولون: عسى الله أن يغفرَ لهم! فصاروا مرجئين لأمر الله، حتى نزلت: {لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ}، الذين خرجوا معه إلى الشام {مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}، ثم قال: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}، يعني المرجئين لأمر الله، نزلت عليهم التوبة، فعُمُّوا بها، فقال: {حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ}، إلى قوله: {إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}".

قال ابن كثير: قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكا ونفاقا، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة

=

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

=

المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت [وضاقت عليهم أنفسهم).كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

قوله تعالى: {إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ١٠٦]، أي:" إما يعذبهم الله، وإما يعفو عنهم".

قال الطبري:" يعني: إما أن يحجزهم الله عن التوبة بخذلانه، فيعذبهم بذنوبهم التي ماتوا عليها في الآخرة، وإما يوفقهم للتوبة فيتوبوا من ذنوبهم، فيغفر لهم".

فهم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه.

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٠٦]، أي:" والله عليم بمن يستحق العقوبة أو العفو، حكيم في كل أقواله وأفعاله يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك".

قال الطبري:" يقول: والله ذو علم بأمرهم وما هم صائرون إليه من التوبة والمقام على الذنب {حكيم}، في تدبيرهم وتدبير من سواهم من خلقه، لا يدخل حكمه خَلَلٌ".

عن محمد بن إسحاق، قوله: " {عليم}، أي: عليم بما تخفون"، "قوله: {حكيم}، في عذره وحجته إلى عباده".

لَكَاذِبُونَ (١٠٧).

{و} مِنْهُمْ {الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا} وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ {ضِرَارًا} مُضَارَّة لِأَهْلِ مَسْجِد قُبَاءَ {وَكُفْرًا} لِأَنَّهُمْ بَنَوْهُ بِأَمْرِ أَبِي عَامِرِ الرَّاهِب لِيَكُونَ مَعْقِلًا لَهُ يَقْدُم فِيهِ مَنْ يَأْتِي مِنْ عِنْده وَكَانَ ذَهَبَ لِيَأْتِيَ بِجُنُودٍ مِنْ قَيْصَر لِقِتَالِ النَّبِيّ ﷺ {وَتَفْرِيقًا بَيْن الْمُؤْمِنِينَ} الَّذِينَ يُصَلُّونَ بِقُبَاءَ بِصَلَاةِ بَعْضهمْ فِي مَسْجِدهمْ {وَإِرْصَادًا} تَرَقُّبًا {لِمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُوله مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل بِنَائِهِ وَهُوَ أَبُو عَامِر الْمَذْكُور {وَلَيَحْلِفُنَّ إنْ} مَا {أَرَدْنَا} بِبِنَائِهِ {إلَّا} الْفِعْلَة {الْحُسْنَى} مِنْ الرِّفْق بِالْمِسْكِينِ فِي الْمَطَر وَالْحَرّ وَالتَّوْسِعَة عَلَى الْمُسْلِمِينَ {وَالله يَشْهَد إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} فِي ذَلِكَ وَكَانُوا سَأَلُوا النَّبِيّ ﷺ أَنْ يُصَلِّي فِيهِ فَنَزَلَ.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨).

{لَا تَقُمْ} تُصَلِّ {فِيهِ أَبَدًا} فَأَرْسَلَ جَمَاعَة هَدَمُوهُ وَحَرَّقُوهُ وَجَعَلُوا مَكَانه كُنَاسَة تُلْقَى فِيهَا الْجِيَف {لَمَسْجِد أُسِّسَ} بُنِيَتْ قَوَاعِده {عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّل يَوْم} وُضِعَ يَوْم حَلَلْت بِدَارِ الْهِجْرَة وَهُوَ مَسْجِد قُبَاءَ كَمَا فِي الْبُخَارِيّ {أَحَقّ} مِنْهُ {أَنْ} أَيْ بِأَنْ {تَقُوم} تُصَلِّي {فِيهِ فِيهِ رِجَال} هُمْ الْأَنْصَار {يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَالله يُحِبّ الْمُطَّهِّرِينَ} أَيْ يُثِيبهُمْ فِيهِ إدْغَام التَّاء فِي الْأَصْل فِي الطَّاء رَوَى بن خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحه عَنْ عُوَيْمِر بْن سَاعِدَة أَنَّهُ ﷺ أَتَاهُمْ فِي مَسْجِد قُبَاءَ فَقَالَ إنَّ الله تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الثَّنَاء فِي الطُّهُور فِي قِصَّة مَسْجِدكُمْ فَمَا هَذَا الطُّهُور الَّذِي تَطَّهَّرُونَ بِهِ قَالُوا وَالله يَا رَسُول الله مَا نَعْلَم شَيْئًا إلَّا أَنَّهُ كَانَ لَنَا جِيرَان مِنْ الْيَهُود وَكَانُوا يَغْسِلُونَ أَدْبَارهمْ مِنْ الْغَائِط فَغَسَلْنَا كَمَا غَسَلُوا وَفِي حَدِيث رَوَاهُ الْبَزَّار فَقَالُوا نَتْبَع الْحِجَارَة بِالْمَاءِ فَقَالَ هُوَ ذَاكَ فَعَلَيْكُمُوهُ.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩).

{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانه عَلَى تَقْوَى} مَخَافَة {مِنْ الله وَ} رَجَاء {رِضْوَان} مِنْهُ {خَيْر أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانه عَلَى شَفَا} طَرَف {جُرُف} بِضَمِّ الرَّاء وَسُكُونهَا جَانِب {هَار} مُشْرِف عَلَى السُّقُوط {فَانْهَارَ بِهِ} سَقَطَ مَعَ بَانِيه {فِي نَار جَهَنَّم} خَيْر تَمْثِيل لِلْبِنَاءِ عَلَى ضِدّ التَّقْوَى بِمَا يُؤَوَّل إلَيْهِ وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ أَيْ الْأَوَّل خَيْر وَهُوَ مِثَال مَسْجِد قُبَاءَ وَالثَّانِي مثال مسجد الضرار {والله لا يهدي القوم الظالمين}.

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠).

{لَا يَزَال بُنْيَانُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَة} شَكًّا {فِي قُلُوبهمْ إلَّا أَنْ تَقَطَّعَ} تَنْفَصِل {قُلُوبهمْ} بِأَنْ يَمُوتُوا {وَالله عَلِيم} بِخَلْقِهِ {حَكِيم} فِي صنعه بهم[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضَِاللَّهُ عَنْهُمَا؛ قوله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا}: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح؛ فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم فأخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعوا لنا بالبركة؛ فأنزل الله فيه: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} إلى قوله: {وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ١٨، ١٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" =

=

(١٦/ ١٨٧٨، ١٨٧٩)، وابن المنذر في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٤/ ٢٨٤)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٢٦٢، ٢٦٣)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٢/ ١٠٢) من طرق عن عبد الله بن صالح ثني معاوية بن صالح ثني علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به. وإسناده ضعيف.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء، خرج رجال من الأنصار؛ منهم بخدج جد عبد الله بن حنيف، ووديعة بن حزام، ومجمع بن جارية الأنصاري، فبنوا مسجد النفاق، فقال رسول الله ﷺ لبخدج: "ويلك ما أردتَ إلى ما أرى؟"، قال: يا رسول الله! والله ما أردت إلا الحسنى، وهو كاذب، فصدقه رسول الله ﷺ، وأراد أن يعذره؛ فأنزل الله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ}؛ يعني: رجلا منهم، يقال له: أبو عامر، وكان محاربًا لرسول الله ﷺ وكان قد انطلق إلى هرقل، وكانوا يرصدونه إذا قدم أن يصلي فيه، وكان قد خرج من المدينة محاربًا لله ولرسوله: {وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ١٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٧٩)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ١٠١، ١٠٢)، و"لباب النقول" (ص ١٢٥)، و"الدر المنثور" (٤/ ٢٨٥) من طريق العوفي عنه. وإسناده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن أبي رهم؛ كلثوم بن الحصين الغفاري، وكان ممن بايع تحت الشجرة، قال: أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان -بينه وبين المدينة ساعة من نهار- وكان بنى مسجد الضرار، فأتوه، وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله! إنا بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: "إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا -إن شاء الله-

=

=

أتيناكم فصلينا لكم فيه"، فلما نزل بذي أوان، أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي، فقال: "انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه واحرقاه"، فخرجا مسرعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك، فدخل إلى أهله وأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدان، وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، ونزل فيهم: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧)} الآية.

أخرجه ابن إسحاق في "السيرة" - ومن طريقه ابن مردويه؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ١٠١)، و"اللباب" (ص ١٢٤): ذكر ابن شهاب الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي أبي رهم الغفاري أنه سمع أبا رهم. وهو ضعيف؛ ابن إسحاق مدلس ولم يصرح بالتحديث، وابن أخي أبي رهم؛ قال في "التقريب" (٢/ ٥٣٤): "مقبول".

وأخرج الطبري في "جامع البيان" (١١/ ١٧، ١٨) بسنده عن ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة؛ قالوا: أقبل رسول الله ﷺ؛ يعني: من تبوك حتى نزل بذي أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: "إني على جناح سفر وحال شغل"، أو كما قال رسول الله ﷺ، "ولو قدمنا أتيناكم -إن شاء الله- فصلينا لكم فيه"، فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني

=

=

العجلان، فقال: "انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه"، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} إلى آخر القصة وكان الذين بنوه اثني عشر رجلًا: خذام بن خالد بن عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وهو إلى بني أمية بن زيد، ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف، وجارية بن عامر وابناه مجمع بن جارية وزيد بن جارية ونبتل بن الحارث وهم من بني ضبيعة، وبخدج وهو إلى بني ضبيعة وبجاد بن عثمان وهو من بني ضبيعة، ووديعة بن ثابت وهو إلى بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر. وهذا -أيضًا- ضعيف؛ لإرساله، وتدليس ابن إسحاق.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم فقال مالك لعاصم: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار، ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرقوه وهدموه، وخرج أهله فتفرقوا عنه؛ فأنزل الله في شأن المسجد: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} إلى قوله: {عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٨٥) ونسبه لابن إسحاق وابن مردويه.

وعن سعد بن أبي وقاص؛ قال: إن المنافقين عرضوا بمسجد يبنونه يضاهون به مسجد قباء، وهو قريب منه لأبي عامر الراهب يرصدونه إذا قدم ليكون إمامهم فيه، فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا بنينا مسجدًا فصلِّ فيه حتى

=

=

نتخذه مصلى، فأخذ ثوبه ليقوم معه؛ فنزلت هذه الآية: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٧٦) من طريق داود بن الزبرقان عن صخر بن جويرية عن عائشة بنت سعد عن أبيها. وهذا إسناد ضعيف جدًا، داود بن الزبرقان متروك الحديث؛ كما في "التقريب" (١/ ٢٣١).

وعن سعيد بن جبير؛ قال: ذكر أن بني عمرو بن عوف ابتنوا مسجدًا، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فيصلي في مسجدهم، فأتاهم فصلى فيه، فلما رأوا ذلك إخوتهم بنو غنم بن عوف حسدوهم، فقالوا: نبني نحن أيضًا مسجدًا؛ كما بنى إخواننا، فنرسل إلى رسول الله ﷺ فيصلي فيه، ولعل أبا عامر أن يمر بنا فيصلي فيه، فبنوا مسجدًا فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فيصلي في مسجدهم؛ كما صلى في مسجد إخوتهم، فلما جاء الرسول قام ليأتيهم أو هم ليأتيهم؛ فأنزل الله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا} إلى قوله: {لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ} إلى آخر الآية.

أخرجه الطحاوي في "مشكل الآثار" (١٢/ ١٧٣، ١٧٤ رقم ٤٧٣٩) من طريق عارم ثنا حماد بن زيد عن أيوب عن سعيد به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ١٩) من طريق حماد به مختصرًا جدًا.

وأخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٨٧)، والطبري في "جامع البيان" (١١/ ١٩) من طريق معمر عن أيوب عن سعيد بن جبير؛ قال: هم حي يقال لهم: بنو غنم. وهذا -أيضًا- مرسل صحيح.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ قال: "نزلت هذه الآية في أهل قباء: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}؛ قال: كانوا يستنجون بالماء؛ فنزلت فيهم هذه الآية".

أخرجه أبو داود (٤٤)، والترمذي (٣١٠٠)، وابن ماجة (٣٥٧)، والبيهقي في الكبرى (٥١٣) وللحديث شواهد عن بعض الصحابة، ولكن كل أسانيده ضعيفة

=

=

لذا ضعف الحديث بعض العلماء، وقواه بعضهم فصححه ابن العربي في العارضة (٦/ ١٩١)، وحسنه الزيلعي في نصب الراية (١/ ٢١٨)، وقال الشيخ ناصر في الإرواء (٤٥): هذا سند ضعيف وله علتان: الأولى: ضعف يونس بن الحارث، والثانية: جهالة براهيم بن أبي ميمونة ثم قال الشيخ: وإن كان الحديث ضعيفا بهذا السند فهو صحيح باعتبار شواهده، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (١/ ٣٣): حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف يونس بن الحارث وجهالة إبراهيم ابن أبي ميمونة. وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (١/ ٣٣):حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف يونس بن الحارث وجهالة إبراهيم ابن أبي ميمونة.

وعن عويم بن ساعدة الأنصاري: أنه حدثه: أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء، فقال: "إن الله تبارك وتعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟"، قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئًا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا.

أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٢)، وابن خزيمة (٨٣)، والطبراني في الكبير (١٧/ رقم ٣٤٨)، والطبري (١٧٢٣١)، والحاكم (١/ ١٥٥) والحديث صححه ابن خزيمة، والحاكم، ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢١٢): فيه شرحبيل بن سعد، ضعفه مالك، وابن معين، وأبو زرعة، وثقه ابن حبان وصححه بمجموع طرقه وشواهده العلامة الألباني في الإرواء (١/ ٨٥) وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٤/ ٢٣٥): حديث حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف، أبو أويس- وهو عبد الله بن عبد الله المدني- قد تكلم فيه الأئمة من جهة حفظه، وشرحبيل: هو ابن سعد أبو سعد الخطمي، ضعيف، وقال ابن حجر في "تهذيب التهذيب" ٢/ ١٥٨: وفي سماعه من عويم بن ساعدة نظر، لأن عويما

=

=

مات في حياة رسول الله ﷺ، ويقال: في خلافة عمر رضي الله عنه.

وعن أبي أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنهم: أن هذه الآية لما نزلت: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}؛ قال رسول الله ﷺ: "يا معشر الأنصار! إن الله قد أثنى عليكم خيرًا في الطهر، فما طهوركم هذا؟"، قالوا: يا رسول الله! نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة، فقال رسول الله ﷺ: "فهل مع ذلك غيرُهُ؟"، قالوا: لا، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء، قال: "فهو ذلك فعليكموه".

أخرجه ابن ماجه (٣٥٥) وابن الجارود (٤٠)، والدارقطنى (١/ ٦٢) والحاكم (١/ ٢٥٧)، والبيهقى (١/ ١٠٥)، والضياء (٢٢٣١) والحديث قال عنه الدارقطني: فيه عتبة بن أبى حكيم ليس بقوى، وقال مغلطاي في شرح ابن ماجة (١/ ١٧٣): هذا حديث معلل بأشياء، وضعفه ابن التركماني في الجوهر النقي، وقال البوصيرى (١/ ٥٣): هذا إسناد ضعيف عتبة بن أبي حكيم ضعيف، وطلحة لم يدرك أبا أيوب، وقال الحاكم: هذا حديث كبير صحيح في كتاب الطهارة، وأقره الذهبي، وقال النووي في الخلاصة (١/ ١٦٤): رواه البيهقي بإسناد جيد، وله شواهد، وقال الزيلعي في نصب الراية (١/ ٢١٩): إسناده حسن، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (١٠٣١): ضعيف بهذا اللفظ، وصححه لغيره في المشكاة (٣٦٩)، وصحيح ابن ماجة، وقال الحويني في غوث المكدود (١/ ٤٧، رقم ٤٠): إسناده ضعيف، وهو حديث حسن، يعني لشواهده.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}؛ قال: لما نزلت هذه الآية بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة، فقال: "ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به"، فقالوا: يا نبي الله! ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل دبره أو قال مقعدته؛ فقال النبي ﷺ: "ففي هذا".

=

=

أخرجه الطبراني في "الكبير" (١١/ ٥٦ رقم ١١٠٦٥)، والحاكم في "المستدرك" (١/ ١٨٧، ١٨٨)، والبيهقي في "المعرفة" (١/ ٢٠٢ رقم ١٤٤)، و"السنن الصغير" (١/ ٣٦ رقم ٥٤) من طريق ابن إسحاق عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: (فذكره). وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: ابن إسحاق؛ مدلس، وقد عنعن.

الثانية: الأعمش؛ مدلس، وقد عنعن، قال يعقوب بن شيبة في "مسنده": "ليس يصح للأعمش سماع من مجاهد إلا أحاديث يسيرة، قلت لعلي بن المديني: كم سمع الأعمش من مجاهد؟ قال: لا يثبت منها إلا ما قال سمعت، هي نحو من عشرة، وإنما أحاديث مجاهد عنده عن أبي يحيى القتات"؛ كما في "التهذيب" (٤/ ٢٢٥).

وقال أحمد بن حنبل في أحاديث (الأعمش عن مجاهد): قال أبو بكر بن عياش عنه حدثنيه ليث -وهو ابن أبي سليم- عن مجاهد".

فقد تبين أن الأعمش إذا لم يصرح بالتحديث عن مجاهد؛ فروايته عنه ضعيفة؛ لأنه رواه عن أبي يحيى القتات أو ليث بن أبي سليم عنه وكلاهما ضعيف.

ومن هنا تعلم ما في كلام الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي!. ومسلم لم يخرج لابن إسحاق في "الأصول".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٨٩) وزاد نسبته لأبي الشيخ وابن مردويه.

وأخرجه البزار في "مسنده"؛ كما في "التلخيص الحبير" (١/ ١١٢): ثنا عبد الله بن شبيب ثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز وجدت في كتاب أبي عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس في ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}؛ فسألهم رسول الله ﷺ؟ فقالوا:

=

=

إنا نتبع الحجارة الماء.

وهذا إسناد ضعيف جدًا، وفي متنه نكارة.

قال الحافظ: "ومحمد بن عبد العزيز ضعفه أبو حاتم؛ فقال: ليس له ولا لأخويه عمران وعبد الله حديث مستقيم، وعبد الله بن شبيب ضعيف أيضًا".

وعن عبد الله بن سلام؛ قال: لما قدم رسول الله ﷺ علينا -يعني: قباء- قال: "إن الله ﷻ قد أثنى عليكم في الطهور خيرًا، أفلا تخبروني؟"، قال: يعني: قوله: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} قال: فقالوا: يا رسول الله! إنا نجده مكتوبًا علينا في التوراة: الاستنجاء بالماء.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١/ ١٥٣)، وأحمد (٦/ ٦)، ويعقوب بن سفيان في "المعرفة والتأريخ" (١/ ٣٠٧، ٣٠٨)، والطبري في "جامع البيان" (١١/ ٢٢، ٢٣، ٢٤)، وابن قانع في "معجم الصحابة" (٣/ ٢٢ رقم ٩٦٥)، والبخاري في "التاريخ الكبير" (١/ ١٨ رقم ٩)، والبغوي في "معجم الصحابة"؛ كما في "الإصابة" (٦/ ٢٢)، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (١/ ١٧٦ رقم ٦٥٩) من طريق مالك بن مغول عن سيار أبي الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد به. وهذا إسناد ضعيف؛ لأجل شهر، وفيه كلام معروف، ووقع فيه اضطراب ترى تفصيله في "الإصابة" (٦/ ٢٢). ومن هذا الاضطراب: ما أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (ص ٣٨١، ٣٨٢ - قطعة من ج ١٣)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (١/ ١٧٧ رقم ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢) من طريق سلمة بن رجاء وزيد ويحيى ابنا أبي أنيسة ثلاثتهم عن مالك بن مغول عن سيار أبي الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه به.

فزادوا في السند: (عن أبيه)، وقد رواه جماعة عند من ذكرنا فلم يقولوا: (عن أبيه).

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٨٩) وزاد نسبته لابن مردويه. لكن

=

=

يشهد له في الجملة ما سبق وما سيأتي.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ لأهل قباء: "ما هذا الطهور الذي خصصتم به في هذه الآية: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} ؟"، قالوا: يا رسول الله ما منا أحد يخرج من الغائط إلّا غسل مقعدته.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٨/ ١٢١، ١٢٢ رقم ٧٥٥٥)، و"المعجم الأوسط" (٣/ ٢٣١ رقم ٣٠٠٧): ثنا إسحاق بن إبراهيم الدبري عن عبد الرزاق، وهذا في "مصنفه"؛ كما في "الدر المنثور" (٤/ ٢٩٠) عن يحيى بن العلاء عن ليث عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة به.

وهذا إسناد ضعيف جدًا، بل موضوع؛ فيه علل: الأولى: يحيى بن العلاء البجلي الرازي؛ متروك، بل كذبه الإمام أحمد. والثانية: ليث بن أبي سليم؛ ضعيف. والثالثة: شهر بن حوشب؛ صدوق كثير الأوهام والإرسال. وضعفه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١/ ٢١٣) بشهر فقط؛ فقال: "وفيه شهر أيضًا". لكن يشهد له ما سبق وما سيأتي.

وعن الشعبي؛ قال: لما نزلت هذه الآية؛ قال رسول الله ﷺ: "يا أهل قباء! ما هذا الثناء الذي أثنى الله عليكم"، قالوا: ما منا أحد إلا وهو يستنجي بالماء من الخلاء، فنزلت: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} .

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١/ ١٥٣)، والطبري في "جامع البيان" (١١/ ٢٣) من طريق ابن أبي ليلى عنه به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: ابن أبي ليلى؛ صدوق سيئ الحفظ جدًا. لكنه يشهد له ما سبق.

وعن جعفر عن أبيه؛ قال: إن هذه الآيات نزلت في أهل قباء.

أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ١٥٤). وهذا مرسل صحيح الإسناد، لكن يشهد له ما

=

=

سبق وما سيأتي.

وعن عطاء؛ قال: أحدث قوم الوضوء بالماء من أهل قباء؛ فأنزلت فيهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٢٤) من طريق طلحة بن عمرو عنه. وهو مرسل حسن الإسناد.

وعن الحسن؛ قال: لما نزلت هذه الآية: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} ؛ قال رسول الله ﷺ: "ما هذا الذي ذكركم الله به في أمر الطهور، فأثنى به عليكم"، قالوا: نغسل أثر الغائط والبول.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٢٣)، والبلاذري في "فتوح البلدان" (١/ ٢، ٣) من طريق ابن المبارك ويزيد بن هارون كلاهما عن هشام بن حسان عن الحسن به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: رواية هشام بن حسان عن الحسن فيها مقال.

لكن يشهد له ما مضى وما سيأتي.

وعن خزيمة بن ثابت؛ قال: كان رجال منا إذا خرجوا من الغائط يغسلون أثر الغائط؛ فنزلت فيهم هذه الآية: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} .

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٢٣) من طريق شرحبيل بن سعد قال: سمعت خزيمة.

وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف شرحبيل.

وعن أبي أيوب الأنصاري؛ قال: قالوا: يا رسول الله ﷺ: مَنْ هؤلاء الذين قال الله ﷻ: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} ؟ قال: "كانوا يستنجون بالماء، وكانوا لا ينامون الليل كله".

أخرجه ابن أبي شيبة في "مسنده" (١/ ٣٣ رقم ١٢) -ومن طريقه الطبراني في "المعجم الكبير" (٤/ ١٧٩ رقم ٤٠٧٠)، والحاكم (١/ ١٨٨) -، وابن أبي

=

=

حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٨٣) عن عبد الرحيم بن سليمان عن واصل بن السائب عن عطاء بن أبي رباح عن أبي سورة عن عمه أبي أيوب به. والحديث سكت عنه الحاكم وكذا الذهبي. وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١/ ٢١٣): "وفيه واصل بن السائب وهو ضعيف". وقال ابن حجر: "أبو سورة ضعيف".

وقال البوصيري في "إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ٨٧): "هذا إسناد ضعيف؛ لضعف التابعي أبي سورة؛ قال يحيى بن معين: "ضعيف"، وقال البخاري: "منكر الحديث، يروي عن أبي أيوب مناكير لا يتابع عليها"، وقال الساجي: "منكر الحديث"، وقال الترمذي: "ضعيف في الحديث"، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وقال الدارقطني: "مجهول"". ا. هـ.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٩٠) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

وبعد ذكر هذه الشواهد؛ فإن الواقف عليها يجزم بصحة الحديث، بذكر لفظ الاستنجاء مطلقًا غير مقيد بالخروج من الغائط ولا بذكر الحجارة؛ ولذا صححه العلامة الألباني رحمه الله في "الإرواء" (١/ ٨٤ رقم ٤٥).

وعن يحيى بن سهل الأنصاري عن أبيه: أن هذه الآية نزلت في أهل قباء، كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٩١) ونسبه لعمر بن شبة في "أخبار المدينة".

وعن مجمع بن جارية عن النبي ﷺ: "أن هذه الآية نزلت في أهل قباء: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} وكانوا يغسلون أدبارهم بالماء".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٢٩١) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ}

=

=

[التوبة: ١٠٧]، أي:" والمنافقون الذين بنوا مسجدًا؛ مضارة للمؤمنين وكفرًا بالله وتفريقًا بين المؤمنين ليصلي فيه بعضهم ويترك مسجد (قباء) الذي يصلي فيه المسلمون يختلف المسلمون ويتفرقوا بسبب ذلك".

قال الطبري: يعني:" والذين ابتنوا مسجدًا ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ، وكفرًا بالله لمحادّتهم بذلك رسولَ الله ﷺ، ويفرِّقوا به المؤمنين، ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ، وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا".

فمن المنافقين جماعة بالغوا في الإجرام، حتى ابتنوا مجمعا يدبرون فيه الشر، وسموه " مسجدا " مضارة للمؤمنين، وقد اشتهر باسم " مسجد الضرار.

- قال الواحدي: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعامة أهل التفسير - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم -: الذين اتخذوا مسجدا ضرارا كانوا اثني عشر رجلا من المنافقين بنوا مسجدا يضارون به مسجد قباء

(وكفرا) أي: نصرة للكفر الذي يخفونه.

عن قتادة قوله: " {والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا}، الآية، عمد ناسٌ من أهل النفاق، فابتنوا مسجدًا بقباء، ليضاهوا به مسجد رسول الله ﷺ، ثم بعثوا إلى رسول الله ليصلِّي فيه. ذكر لنا أنه دعا بقميصه ليأتيهم، حتى أطلعه الله على ذلك".

عن ليث: "أن شقيقًا لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلُّوا بعدُ! فقال: لا أحب أن أصلي فيه، فإنه بُني على ضرار، وكل مسجد بُنِيَ ضرارًا أو رياءً أو سمعة، فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني على ضرار".

قوله تعالى: {وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ} [التوبة: ١٠٧]، أي:" وانتظارا لمن حارب الله ورسوله من قبل -وهو أبو عامر الراهب الفاسق- ليكون

=

=

مكانًا للكيد للمسلمين".

قال الطبري:" يقول: وإعدادًا له، لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله، وكفر بهما، وقاتل رسول الله {من قبل}، يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد. وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزَّب الأحزاب يعني: حزّب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ فلما خذله الله، لحق بالروم يطلب النَّصْر من ملكهم على نبي الله، وكتب إلى أهل مسجد الضِّرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه، فيما ذكر عنه، ليصلي فيه، فيما يزعم، إذا رجع إليهم. ففعلوا ذلك".

قال ابن عباس: " {وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل}، قال: أبو عامر الراهب، انطلق إلى قيصر، فقالوا: " إذا جاء يصلي فيه"، كانوا يرون أنه سيظهر على محمد ﷺ".

عن مجاهد: " {والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا}، قال المنافقون {لمن حارب الله ورسوله}، لأبي عامر الراهب".

قال قتادة:" وأما قوله: {وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله}، فإنه كان رجلا يقال له: " أبو عامر"، فرّ من المسلمين فلحق بالمشركين، فقتلوه بإسلامه. قال: إذا جاء صلى فيه، فأنزل الله: {لا تقم فيه أبدًا لمسجد أسس على التقوى}، الآية".

عن عائشة قالت:" {وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله}، أبو عامر الراهب انطلق إلى الشأم، فقال الذين بنوا مسجد الضرار: إنما بنيناه ليصلي فيه أبو عامر".

وفي محاربة الله تعالى ورسوله وجهان:

أحدهما: مخالفتهما.

الثاني: عداوتهما.

قال الماوردي:"والمراد بهذا الخطاب أبو عامر الراهب والد حنظلة بن الراهب كان قد حزّب على رسول الله ﷺ، ثم خاف فهرب إلى الروم وتنصر واستنجد

=

=

هرقل على رسول الله ﷺ. فبنوا هذا المسجد له حتى إذا عاد من هرقل صلى فيه، وكانوا يعتقدون أنه إذا صلى فيه نُصِر، وكانوا ابتدأوا بنيانه ورسول الله ﷺ خارج إلى تبوك، فسألوه أن يصلي لهم فيه فقال: «أَنَا عَلَى سَفَرٍ وَلَو قَدِمْنَا إِن شَآءَ اللهُ أَتَينَاكُم وَصَلَّينَا لَكُم فِيهِ». فلما قدم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد، وقالوا قد فرغنا منه، فأتاه خبر المسجد وأنزل الله تعالى فيه ما أنزل".

قال الشوكاني: فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة:

الأول: الضرار لغيرهم، وهو المضارة.

الثاني: الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

الثالث: التفريق بين المؤمنين؛ لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء، فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى.

الرابع: الإرصاد لمن حارب الله ورسوله، أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله.

قوله تعالى: {وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى} [التوبة: ١٠٧]، أي:" وليحلفنَّ هؤلاء المنافقون أنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخير والرفق بالمسلمين والتوسعة على الضعفاء العاجزين عن السير إلى مسجد (قباء)".

قال السدي:" فحلفوا ما أرادوا به إلا الخير".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وليحلفن بانوه: " إن أردنا إلا الحسنى"، ببنائناه، إلا الرفق بالمسلمين، والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المصير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه، وتلك هي الفعلة الحسنة".

وفي قوله تعالى: {وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى} [التوبة: ١٠٧]، ثلاثة وجوه:

=

=

أحدها: طاعة الله تعالى.

والثاني: الجنة.

والثالث: فعل التي هي أحسن، من إقامة الدين والجماعة والصلاة، وهي يمين تحرُّج.

قوله تعالى: {وَاللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة: ١٠٧]، أي:" والله يشهد إنهم لكاذبون فيما يحلفون عليه. وقد هُدِم المسجد وأُحرِق".

قال مقاتل:" فيما يحلفون".

قال الطبري: أي:" في حلفهم ذلك، وقيلهم: " ما بنيناه إلا ونحن نريد الحسنى!"، ولكنهم بنوه يريدون ببنائه السُّوآى، ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ، وكفرًا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لأبي عامر الفاسق".

وقوله تعالى: {وَاللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة: ١٠٧]، يحتمل وجهين:

أحدهما: والله يعلم إنهم لكاذبون في قولهم خائنون في إيمانهم.

والثاني: والله يعلمك أنهم لكاذبون خائنون. فصار إعلامه له كالشهادة منه عليهم.

* للمنافقين مسالك وطرق في حرب الإسلام والإضرار به، وإضعافه وتشويه أهله، وجامع طرقهم في ذلك طريقان:

الطريق الأول: محاربته بالممنوع، وهذا الطريق يسلكونه في حال قوتهم وأمنهم، فيتخذون وسائل ظاهرة المحادة للإسلام من خارجه؛ بإعانة الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بالمال واللسان وغير ذلك؛ كما يفعل منافقو المدينة مع يهودها، حينما ينصرونهم ويعزرونهم ويثبتونهم ويعدونهم بالمؤاخاة واتحاد المصير معهم.

الطريق الثاني: محاربته بالمشروع، وهذا الطريق يسلكونه في حال ضعفهم وخوفهم، فيتخذون وسائل مشروعة يحسن الناس الظن بها، ويقبلون عليها؛ ليدخلوا من خلالها ما يريدون من خبث وشر، وهذا يكون باستعمال وسائل

=

=

الإسلام؛ كبناء المساجد وطباعة الكتب واستعمال أدلة التشريع المشتبهة لتسهيل مرور ما يريدون من الشر باسم الإسلام؛ فإذا وجدوا دليلا مشتبها يعضد شرهم، تمسكوا به وأذاعوه وأشاعوه؛ ليتترسوا به، وإذا وجدوا دليلا صريحا محكما يعارض هواهم، كشحوا بوجوههم عنه.

وتعظيم المتشابهات اختبار لموقف المنافقين منها؛ قال تعالى: {فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله} [آل عمران: ٧].

ومن هذا الطريق بنوا مسجد الضرار؛ لما عجزوا عن حرب الإسلام من خارجه، بدؤوا به من داخله، مع ما في بناء المساجد من إنفاق مال وجهد، إلا أنهم بذلوا ذلك لجملة من المقاصد الظاهرة والخفية:

منهاة شق صف جماعة المسلمين حول النبي ﷺ في مسجده ومجلسه، وتدليسهم أنهم لم يجمعوا الناس حولهم إلا لأجل عبادة الله، لا لأجل الدنيا، وإنما غايتهم تعطيل ما يدعو إليه رسول الله ﷺ؛ وهذا ما لا يدركه أهل الغفلة والغرارة من المؤمنين.

ومنها: أنهم يريدون الانفراد بالمؤمنين، فيجلسون إليهم، ويحدثون بما يريدون من الهوى والفتنة، ولا يسمعهم أحد كالنبي ﷺ وخيار الصحابة وكبارهم؛ لأنهم لن يتخلفوا عن الصلاة في مسجد النبي ﷺ، وقد كان للمنافقين وجاهة وظهور أول الأمر، يقومون ويتحدثون ويسمع لهم قبل انكشاف أمرهم؛ كما كانا لعبد الله بن أبي مقام في مسجد النبي ﷺ يخطب فيه يوم الجمعة قبل غزوة أحد، ويذكر الناس ويحثهم على الاقتداء برسول الله ﷺ واتباعه.

ومنها: أنهم يريدون أن تكون لهم يد عليا على الإسلام وأهله، فيثق الناس بهم، ويقومون بقيادتهم في مصالحهم الأخرى، وإذا قالوا، سمع لهم، يطمعون في العلو على الإسلام والهيمنة عليه بواسطة تشييد صروحه.

=

=

وهذا إذا كان في مساجد ظاهرة وهي بيوت الله، فكيف مكرهم بما هو دون ذلك من خدمة العلم ونشر الخير وتشييد وسائل الإعلام وغير ذلك، مما هوأكثر خفاء وأشد لبسا على المسلمين.

قوله تعالى: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} [التوبة: ١٠٨]، أي:" لا تقم -أيها النبي- للصلاة في ذلك المسجد أبدًا، فلا تصل لأنه لم يبن إلا ليكون معقلا لأهل النفاق".

قال مقاتل:" يعني: في مسجد المنافقين، إلى الصلاة {أبدا}، فكان النبي ﷺ لا يصلي فيه ولا يمر عليه ويأخذ غير ذلك الطريق وكان قبل ذلك يصلي فيه".

قال القرطبي: قوله تعالى لا تقم فيه أبدا يعنى مسجد الضرار. لا تقم فيه للصلاة، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام. يقال: فلان يقوم الليل أي: يصلى، ومنه الحديث الصحيح: «من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه».

قوله تعالى: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} [التوبة: ١٠٨]، أي:" فإن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم -وهو مسجد (قباء) - أولى أن تقوم فيه للصلاة".

وفي هذا المسجد ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، قاله أبو سعيد الخدري، وزيد بن ثابت، وابن عمر.

وروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: "مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال لي: قال أبي: أتيت رسول الله ﷺ، فدخلت عليه في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أيُّ مسجدٍ الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًّا من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: هو مسجدكم هذا! فقلت: هكذا سمعت أباك يذكره".

الثاني: أنه مسجد قباء، وهو أول مسجد بني في الإسلام، قاله ابن عباس، وعروة بن

=

=

الزبير، وسعيد بن جبير، وابن بريدة، وقتادة، والضحاك، وعطية، وابن زيد، وهو اختيار الزجاج.

الثالث: أنه كل مسجد بني في المدينة أسس على التقوى، قاله محمد بن كعب.

قال الطبري: والصواب قول من قال: "هو مسجد الرسول ﷺ، لصحة الخبَر بذلك عن رسول الله".

قال ابن كثير: قد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جبير، وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى.

قال أهل العلم:" وإذا كان مسجد (قباء) قد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله، ﷺ، كذلك بطريق الأولى والأحرى".

قوله تعالى: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} [التوبة: ١٠٨]، أي:" ففي هذا المسجد رجال يحبون أن يتطهروا بالماء من النجاسات والأقذار، كما يتطهرون بالتورع والاستغفار من الذنوب والمعاصي".

قال السعدي: "أي: من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث".

وقد جاء عند أبي داود: عن أبي هريرة، - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال (نزلت هذه الآية في أهل قباء: فيه رجال يحبون أن يتطهروا، قال: كانوا يستنجون بالماء،

=

=

فنزلت فيهم الآية) أخرجه أبو داود (٤٤)، والترمذي (٣١٠٠)، وابن ماجة (٣٥٧)، والبيهقي في الكبرى (٥١٣) وللحديث شواهد عن بعض الصحابة، ولكن كل أسانيده ضعيفة لذا ضعف الحديث بعض العلماء، وقواه بعضهم فصححه ابن العربي في العارضة (٦/ ١٩١)، وحسنه الزيلعي في نصب الراية (١/ ٢١٨)، وقال الشيخ ناصر في الإرواء (٤٥): هذا سند ضعيف وله علتان: الأولى: ضعف يونس بن الحارث، والثانية: جهالة براهيم بن أبي ميمونة ثم قال الشيخ: وإن كان الحديث ضعيقا بهذا السند فهو صحيح باعتبار شواهده، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (١/ ٣٣): حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف يونس بن الحارث وجهالة إبراهيم ابن أبي ميمونة. وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (١/ ٣٣):حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف يونس بن الحارث وجهالة إبراهيم ابن أبي ميمونة. وله شاهد من حديث أبي أيوب وجابر وأنس عند ابن ماجه (٣٥٥). وآخر من حديث عويم بن ساعدة الأنصاري عند أحمد (١٥٤٨٥). وثالث من حديث محمد بن عبد الله بن سلام عنده أيضا (٢٣٨٣٣). ورابع من حديث ابن عباس عند الطبراني (١١٠٦٥)، والحاكم ١/ ١٨٧ - ١٨٨.

وخامس من حديث أبي أمامة عند الطبراني (٧٥٥٥). وفي أسانيدها جميعا ضعف، لكن يتقوى بها الحديث.

قوله تعالى: {وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة: ١٠٨]، أي:" والله يحب الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث".

عن أبي أيوب الأنصاري قال: "قيل: يا رسول الله من الذين ذكر الله فيهم: {رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين}؟ قال: كانوا يستنجون بالماء".

=

=

عن عطاء في قوله: " {يحب المطهرين}، قال: المتطهرين بالماء".

عن أبي المنهال قال: "كنت عند أبي العالية فتوضأ أو توضأت، فقلت: إن الله يحب المتطهرين فقال: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المتطهرون من الذنوب".

وروي عن مجاهد قال: "من فعله فليس من المتطهرين، يعني: من أتى امرأته في دبرها".

وروي عن الأعمش في قوله: " {والله يحب المطهرين}، قال: التوبة من الذنب، والمتطهر من الشرك".

* مسألة تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في الإستنجاء.

* أفتوا بجواز بول الإنسان في الحمام مع أهمية التحفظ من رشاش البول وأنه يشرع له صب الماء بعده إن كان يريد أن يتوضأ بذلك المكان.

* وأفتوا بأن الأحسن أن يكون مكان الاغتسال غير مكان قضاء الحاجة لكن لو اغتسل في مكان قضاء الحاجة مع تحفظه من النجاسة صح غسله ولا حرج عليه.

* وأفتوا بجواز استخدام الحمامات الإفرنجية مع تأكيدهم على العناية بالتحفظ من النجاسات والقيام بما أوجب الله بعده من الاستنجاء أو الاستجمار.

* وأفتوا بأفضلية الجمع بين الاستجمار واستعمال الماء بعده وإن اقتصر على أحدهما فهو كافٍ * واشترطوا في الاستجمار أن يكون بطاهرٍ منقٍ ولو ورقا مع استيفاء ثلاث مسحات وحصول الإنقاء. فإن لم ينق بالثلاث زاد حتى ينقي والأفضل قطعه على وتر.

* وأفتوا بجواز البول واقفًا مع أمن انكشاف العورة إلا أن السنة هي أن يكون قاعدًا.

* وقرروا غفر الله لهم بأنه لا منافاة بين حديث " أتى سباطة قوم فبال واقفًا " وبين

=

=

حديث عائشة " من حدثكم أنه كان يبول واقفًا فلا تصدقوه " لاحتمال أن يكون النبي ﷺ فعل ذلك لكونه في موضع لا يتمكن فيه من الجلوس أو فعله يبين للناس أن البول قائما ليس بحرام وذلك لا ينافي أن الأصل في ما ذكرته عائشة رضي الله عنها من بوله قاعدا وأنه سنة لا واجب يحرم خلافه.

* وأفتوا بأن نتر الذكر ليس من آداب الخلاء بل هو عادة سيئة ينبغي تركها ولأنه لا نص يصح فيه ولأنه يتسبب في الإصابة بمرض سلس البول.

* وأفتوا بكراهة ذكر اسم الله تعالى في الحمامات.

* وأفتوا بأن التشهد حال صب الماء على البدن في غسل الجنابة ليس بمشروع.

* وأفتوا بأن السنة لمن خرج من بيت الخلاء أن يقول: غفرانك.

* وأفتوا بأنه السنة للداخل أن يقول: بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث ز

* وأفتوا بكراهة دخول الخلاء بشيء فيه ذكر اسم الله تعالى إلا مع قيام الحاجة * وأفتوا رفع الله نزلهم في الفردوس الأعلى بحرمة دخول الخلاء بالمصحف * وأما شريط القرآن وكذا كتب العلم فأفتوا بأن الدخول بها إلى الخلاء مكروه ، إلا إذا قامت الحاجة لذلك.

* وأفتوا بحرمة استقبال القبلة واستدبارها في البنيان فقط وأما في القضاء فإن ذلك جائز وكذلك إذا كان بينه وبين القبلة حاجز قريب يستره.

* وأوصوا رحمهم الله تعالى لأصحاب البنيان الجديد أن لا يستقبل بمراحيض بيته القبلة خروجا من الخلاف.

* وأفتوا بأن تقديم الاستنجاء على الوضوء بعد قضاء الحاجة شرط في صحة الوضوء.

* وأفتوا بكراهة الاستنجاء من مجرد خروج الريح وجعلوا ذلك من الغلو.

* وأفتوا بأن الاستنجاء ليس من لوازم الوضوء بل لا يستنجي إلا من بال أو تغوط

=

=

قبل الوضوء فقط.

* وأفتوا بوجوب الاستنجاء من كل ما يخرج من الذكر بولا كان أو مذيًا أو وديًا.

* وأفتوا بأن مجرد التوهم بخروج الريح أو القطرة ليس بناقض حتى يتيقن من ذلك ولينبغي للإنسان أن يعرض عن الشكوك حتى لا يصاب بالوسوسة.

* وأفتوا بجواز الاستنجاء بالأوراق التي ليست بمحترمة وبالمناديل ونحوها مما ينقي المحل ويزيل عين النجاسة.

** مسألة تلخيص باب الإستنجاء من الشرح الممتع للعلامة العثيمين.

قوله: (الاستنجاء): استفعال من النجو، وهو في اللغة: القطع، يقال: نجوت الشجرة؛ أي: قطعتها.

هو اصطلاحًا: إزالة الخارج من السبيلين بماء أو حجر ونحوه، وفي ذلك قطع لهذا النجس، وهذا وجهُ تعلُّق الاشتقاق بالمعنى الاصطلاحي؛ [ص ١٠٣].

قوله: (يُسْتَحَبُّ عِنْدَ دُخولِ الخلاءِ): اختلف العلماء هل المستحب مرادف للمسنون، أو المستحب ما ثبت بتعليل، والمسنون ما ثبت بدليل؟

فقال بعضهم: الشَّيء الذي لم يثبت بدليل، لا يُقال فيه: يُسَنُّ، لأنك إِذا قلت: «يُسَنُّ»، فقد أثبتَّ سُنَّة بدون دليل، أما إِذا ثبت بتعليل ونظر واجتهاد، فيُقال فيه: «يُسْتَحب»؛ لأن الاستحباب ليس كالسُّنَّة بالنسبة لإِضافته إلى رسول الله ﷺ، ولا شَكَّ أن هذا القول أقرب إلى الصِّحة؛ [ص ١٠٣ - ١٠٤].

قوله: (قَوْلُ: بِسمِ الله، أعوذُ بالله من الخُبْثِ والخَبَائِثِ): قوله: «قول بسم الله»: هذا سُنَّةٌ.

قوله: «أعوذ بالله من الخُبث والخبائث»، وهذا سُنَّةٌ لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الصَّحيحين» أن الرَّسول ﷺ كان إِذا دخل الخلاء قال: «اللهم إني أعوذ بك من الخُبُثِ والخَبَائث».

=

=

الخُبْثُ بسكون الباء وضمِّها: - فعلى رواية التَّسكين - الشَّرُّ، والخبائث: النفوس الشِّرِّيرة - وعلى رواية الضمِّ - جمع خبيث، والمراد به ذُكران الشَّياطين، والخبائث جمع خبيثة، والمراد إِناث الشَّياطين.

والتسكين أعمُّ، ولهذا كان هو أكثر روايات الشُّيوخ؛ كما قاله الخطابي رحمه الله.

فائدةُ البسملة: أنها سَتْرٌ.

وفائدة هذه الاستعاذة: الالتجاء إِلى الله ﷻ من الخُبث والخبائث؛ لأن هذا المكان خبيث، والخبيث مأوى الخبثاء، فهو مأوى الشَّياطين، فصار من المناسب إِذا أراد دخول الخلاء أن يقول: أعوذ بالله من الخُبث والخبائث؛ حتى لا يصيبه الخُبث وهو الشَّرُّ، ولا الخبائث وهي النُّفوس الشِّرِّيرة.

والخلاء: أصله المكان الخالي، ومناسبته هنا ظاهرة؛ لأنَّ هذا المكان لا يجلس فيه إلا واحد؛ [ص ١٠٤ - ١٠٥].

قوله: (وعِنْدَ الخُرُوجِ منه: غُفْرانك، الحَمْدُ لله الذي أَذْهَبَ عَنِّي الأذى وَعَافَاني):

قوله: «وعند الخَروجِ منه: غُفْرانك»؛ أي: يُسَنُّ أن يقول بعد الخروج منه: غفرانك، للحديث الصَّحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ كان إِذا خرج من الغائط قال: «غُفْرانك»، والعندية هنا بعديَّة؛ أي: يقول ذلك بعد خروجه، فإن كان في البرِّ فعند مفارقته مكان جُلوسه.

وقوله: «غُفْرَانك»، غُفْرَان: مصدر غَفَر يَغْفِرُ غَفْرًا، وغُفْرَانًا، كشَكَرَ يَشْكُر شُكْرًا وشُكْرَانًا، فقوله غُفْرَانك: مصدر منصوب بفعل محذوف تقديره: أسألك غفرانك.

والمغفرة هي سَتْر الذَّنب والتَّجاوز عنه؛ لأنَّها مأخوذة من المِغْفَرِ، وفي المغفر سَتْر ووقاية، وليس سَتْرًا فقط، فمعنى: اغفر لي؛ أي: استُرْ ذنوبي، وتجاوز عَنِّي حتى أَسَلَمَ من عقوبتها، ومن الفضيحة بها.

=

=

ومناسبة قوله: «غُفْرَانك» هنا: قيل: إن المناسبة أن الإنسان لما تخفَّف من أذيَّة الجسم، تذكَّر أذيَّةَ الإثم، فدعا الله أن يخفِّف عنه أذيَّة الإثم كما مَنَّ عليه بتخفيف أذيَّة الجسم، وهذا معنى مناسب من باب تذكُّر الشيء بالشيء، وهو الصحيح.

قوله: «الحمد لله الذي أذْهب عَنِّي الأذى وعَافَاني»، قوله: «الأذى»؛ أي: ما يؤذيني من البول والغائط، وعافاني؛ أي: من انحباسهما المؤدِّي إلى المرض أو الهلاك؛ [ص ١٠٤ - ١٠٧].

قوله: (وتقديم رجله اليسرى دخولًا، واليمنى خروجًا، عكس مسجد، ونعل):

أي: يستحب، وهذه مسألة قياسيَّة، فاليمنى تُقَدَّم عند دخول المسجد كما جاءت السُّنَّة بذلك، واليسرى عند الخروج منه، وهذا عكس المسجد، [ص ١٠٨].

قوله: (واعتمادُه على رجْلِه اليُسْرَى وبُعْدُه في فضاءٍ، واستتارُهُ):

يعني يستحب أن يعتمد على رجله اليسرى عند قضاء الحاجة...

ولو قال قائل: ما دامت المسألة ليست فيها سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ، فإن كون الإنسان يبقى على طبيعته معتمدًا على الرجلين كلتيهما هو الأولى والأيسر.

قوله: «وبُعْدُه في فَضَاء»، الضَّمير يعود إلى «قاضي الحاجة»، والمراد بُعْدُهُ حتى لا يُرى جسمُه، يبعد في الفضاء حتى يستترَ؛ لحديث المغيرة بن شُعبة في «الصَّحيحين»، قال: «فانطلق حتى تَوَارى عَنِّي فقضى حاجته»، وأيضًا: فيه من المروءة والأدب ما هو ظاهر.

قوله: «واستتارُه»، يعني: يُستحب استتارُه، والمراد استتارُ بدنه كُلِّه، وهذا أفضل؛ لما تقدَّم من حديث المغيرة بن شُعبة، وأما استتارُه بالنسبة للعورة، فهو أمر واجب؛ [ص ١٠٩ - ١١٠].

قوله: (وارتيادُهُ لبولِهِ مكانًا رخْوًا، ومَسْحُهُ بيده اليُسْرَى إذا فَرَغَ من بولِهِ، من أَصْلِ

=

ذَكَرِهِ إلى رأسِهِ ثلاثًا، ونَتْرُه ثلاثًا):

ارتياد؛ أي: طلب، و «لبوله» يعني: دون غائطه، و «رخوًا»: مثلث الرَّاء، ومعناه: المكان اللَّيِّن الذي لا يُخشى منه رَشاشُ البول؛ فإن كان في أرض ليس حولَه شيءٌ رخْوٌ، قالوا: يُدني ذَكَرَه من الأرض؛ حتى لا يحصُل الرَّشاش، وهذا صحيح، وكُلُّ هذا إبعاد عن الوسواس والشُّكوك التي يُلقيها الشَّيطان في نفس الإنسان.

قوله: «ومَسْحُه بيده اليُسرى... »؛ أي: يُستحبُّ أن يمسح إذا فرغَ من البول من أصل الذَّكر - وهو عند حلقة الدُّبُر - إلى رأسه ثلاث مرات؛ لأجل أن يخرج ما تَبَقَّى في القناة من البول.

وهذا قول ضعيف جدًّا؛ لأنه لم يصحَّ عن النبيِّ ﷺ، ولضرره بمجاري البول، فربما تتمزَّقُ بهذا المسح، ولا سيَّما إذا أُضيف إليه النَّتْرُ فإنه يُحدث الإدرار، ولهذا قال شيخ الإسلام: «الذَّكَرُ كالضَّرع، إن حلبته دَرَّ، وإن تركته قَرَّ»، وعلى هذا فلا يُستحبُّ المسحُ، بل إذا انتهى البول يغسل رأسَ الذَّكر فقط.

قوله: «ونَتْرُه ثلاثًا»، النَّتْرُ معناه: أن يحرِّك الإنسان ذَكَره من الدَّاخل لا بيده لحديث: «إذا بَالَ أحدُكُم فَلْيَنْتُرْ ذَكَره ثلاثًا»، لكنَّ الحديث ضعيف لا يُعتمد عليه، والنَّتْرُ من باب التنطع المنهيِّ عنه، ولهذا قال شيخ الإسلام: «النَّترُ بدعة وليس سُنَّة، ولا ينبغي للإنسان أن يَنْتُرَ ذَكَرَه».

صحيح أن بعض الناس قد يبتلى إذا لم يمشِ خطوات ويتحرك بخروج شيء بعد الاستنجاء، فهذا له حكم خاص، فيمكن أن نقول له: إذا انتهى البول وكان من عادته أن ما بقي من البول لا يخرج إلا بحركة، ومشي، فلا حرج أن تمشي بشرط أن يكون عنده علم ويقين بأنه يخرج منه شي، أما مجرد الوهم فلا يكون عبرة به، وهذا كعلاج لهذا الشخص، ولا يجعل هذا أمرًا عامًّا لكل أحد؛ [ص ١١٠ - ١١٢].

=

=

قوله: (وتَحوُّلُه من موضعه؛ ليستَنْجي في غيره إِن خافَ تلوُّثًا): يعني: انتقاله من موضع قضاء الحاجة ليستنجي بالماء إِن خاف تلوُّثًا؛ كأن يخشى من أن يضربَ الماء على الخارج النَّجس، فيُقال: الأفضل أن تنتقلَ درءًا لهذه المفسدة، وأيضًا: مثل هذه الأمور قد تُحدث وسوسة.

أما إذا لم يخَفْ، كما يوجد في المراحيض الآن، فإِنَّه لا ينتقل؛ [ص ١١٢ - ١١٣].

قوله: (ويُكْرَهُ دُخولُهُ بشيء فيه ذِكْرُ الله تعالى): الضمير في قوله: «دُخولُه» يعود إلى «قاضي الحاجة»، ويُحتمل أن يعود إلى «الخلاء»، والمُراد بذكر الله هنا «اسم الله» لا الذِّكر المعروف؛ لأنهم استدلُّوا بحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ كان إِذا دخل الخلاء وضع خَاتَمه؛ لأنه كان منقوشًا فيه: «محمَّدٌ رسولُ الله»، وهذه ليست من الذِّكر المعروف، فيقتضي أن كُلَّ ما فيه اسمُ الله يُكرَه دُخولُ الخلاء به.

والحديث معلول، وفيه مقال كثير، ومن صحَّح الحديث أو حسَّنه، قال بالكراهة، ومن قال: إِنه لا يصحُّ قال بعدم الكراهة، لكن الأفضل أن لا يدخُلَ.

واستثنى بعض العلماء «المُصْحَفَ»، فقال: يحرم أن يدخلَ به الخَلاء سواءٌ كان ظاهرًا أم خفيًّا (٢)؛ لأن «المُصْحَفَ» فيه أشرف الكلام، ودخول الخلاء فيه نوع من الإهانة؛ [ص ١١٣ - ١١٤].

قوله: (إلا لحاجة): ذا مستثنى من المكروه، يعني إذا احتاج إلى ذلك...

وعلى كُلِّ حالٍ ينبغي للإِنسان في «المُصْحَفِ»، خاصَّة أن يحاول عدم الدُّخول به، حتى وإن كان في مجتمع عامٍّ من النَّاس، فيعطيه أحدًا يمسكه حتى يخرج؛ [ص ١١٤].

قوله: (ورَفْعُ ثَوْبِهِ قَبلَ دُنُوِّهِ مِن الأرض): ي: يكره لقاضي الحاجة أن يرفع ثوبه

=

=

قبل أن يدنو من الأرض، وهذا له حالان:

الأولى: أن يكون حوله من ينظره، فرفع ثوبه هنا قبل دُنوه من الأرض محرم؛ لأنه كشف للعورة لمن ينظر إليها، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، فقال: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل).

الثانية: كشفه وهو خال ليس عنده أحد، فهل يكره أم لا؟ ذا ينبني على جواز كشف العورة والإنسان خال.

وفيه ثلاثة أقوال للعلماء:

الأول: الجواز.

الثاني: الكراهة.

الثلث: التحريم، وهو المذهب.

البول قائمًا جائز، ولا سيما إذا كان لحاجة، ولكن بشرطين:

الأول: أن يأمن التلويث.

الثاني: أن يأمن الناظر.

وقد ثبت في (الصحيحين) من حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى سباطة قوم فبال قائمًا.

قال بعض العلماء: فعل ذلك لبيان الجواز، وقال آخرون: فعله للحاجة؛ [ص ١١٥ - ١١٦].

قوله: (كَلاَمُهُ فِيهِ):

يعني: يُكره كلامُ قاضي الحاجة في الخلاء، والدَّليل: أن رجلًا مرَّ بالنبيِّ ﷺ وهو يبول؛ فسلَّم عليه فلم يردَّ عليه السَّلام.

قالوا: ولو كان الكلام جائزًا لردَّ عليه السَّلام؛ لأن ردَّ السَّلام واجب وتأجيلَ الردِّ لا يستلزم القول بالتَّحريم.

=

=

أما إذا كان قاضِيًا الحاجة اثنين، ينظر أحدهما إلى عورة الآخر ويتحدثان، فهو حرام بلا شك.

وأما إذا لم ينظر أحدهما إلى عورة الآخر؛ فأقل أحواله أن يكون مكروهًا.

فالحاصل: أنه لا ينبغي أن يتكلم حال قضاء الحاجة، إلا لحاجة كما قال الفقهاء رحمهم الله، كأن يرشد أحدًا، أو كلمه أحد لا بد أن يرد عليه، أو كان له حاجة في شخص وخاف أن ينصرف، أو طلب ماء ليستنجي، فلا بأس؛ [ص ١١٧ - ١١٩].

قوله: (وبَوْلُهُ في شَقٍّ، ونحوِهِ):

يعني: يُكرَهُ بولُه في شَقٍّ، والشَّقُّ: هو الفتحةُ في الأرض، وهو الجُحر للهوامِّ والدَّواب،

قوله: «ونحْوِه»، مثَّلَ بعضهم بفم البَالوعة وهي مجتمع الماء غير النَّظيف، وسُمِّيت بهذا الاسم؛ لأنها تبتلع الماءَ، والكراهة تزول بالحاجة، كأن لم يجدْ إلا هذا المكان المتشقق؛ [ص ١١٩].

قوله: (ومَسُّ فَرْجِهِ بِيَمِينِه):

يعني: يُكْرَهُ لقاضي الحاجة مسُّ فرجه بيمينه، وهذا يشمل كلا الفَرْجَين؛ لأن «فرج» مفردٌ مضافٌ والمفردُ المضاف يَعمُّ، والفَرْجُ يُطلق على القُبُل والدُّبُر، فيُكره أن يمسَّ فرجه بيمينه لحديث أبي قتادة: «لا يُمْسِكَنَّ أحدُكُم ذَكَرَهُ بيمينه وهو يبول، ولا يَتَمَسَّحْ من الخلاء بيمينه، ولا يَتَنَفَّسْ في الإناء».

والأحوط أن يتجنَّب مسَّهُ مطلقًا، ولكن الجزم بالكراهة إنَّما هو في حال البول للحديث، وفي غير حال البول محلُّ احتمال، فإذا لم يكن هناك داعٍ ففي اليد اليُسرى غنيةٌ عن اليد اليمنى،

وتعليل الكراهة: أنه من باب إكرام اليمين؛ [ص ١٢١ - ١٢٢].

=

=

قوله: (واستنجاؤُهُ، واستجمارُهُ بها):

يعني: يُكرَهَ استنجاؤه واستجماره بيمينه.

والفرق بينهما: أن الاستنجاء بالماء، والاستجمار بالحجر ونحوه، لقول النبيِّ ﷺ: «لا يتمسَّح من الخلاء بيمينه»، وأما التعليل فهو إكرام اليمين؛ [ص ١٢٢].

قوله: (واستقبَالُ النَّيِّرَيْن، ويحْرُمُ استقبالُ القبلةِ، واستدبارُها، في غير بُنْيَان):

قوله: «واستقبال النَّيِّرين»، يعني يُكْرَهُ استقبالُ الشَّمس والقمر حال قضاء الحاجة، فالصحيح: عدمُ الكراهة لعدم الدَّليل الصَّحيح، بل لثبوت الدَّليل الدَّالِّ على الجواز.

قوله: «ويحرُمُ استقبالُ القبلة واستدبارُها»، لحديث أبي أيُّوب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تستقبلوا القبلة ببولٍ ولا غائط، ولا تستدبروها، ولكن شَرِّقوا، أو غَرِّبوا»، قال أبو أيُّوب: فقدمنا الشَّام فوجدنا مراحيض قد بُنيت نحو الكعبة، فننحرف عنها، ونستغفر الله.

وقوله ﷺ: «لا تستقبلوا ولا تستدبروا»، نَهيٌ، والأصلُ في النهي التَّحريم، والحديث يفيد أن الانحرافَ اليسير لا يكفي؛ لأنه قال: «ولكن شرِّقوا أو غرِّبوا»، وهذا يقتضي الانحراف التَّام.

قوله: «في غير بُنْيَان»، هذا استثناءٌ، يعني: إذا كان في بنيان، فيجوز الاستقبال والاستدبار؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «رَقِيتُ يومًا على بيت أختي حفصة، فرأيت النبيَّ ﷺ قاعدًا لحاجته مستقبلَ الشَّام مستدبر الكعبة»، وهذا المشهور من المذهب، بل قالوا رحمهم الله: يكفي الحائل وإن لم يكن بُنيانًا، كما لو اتَّجه إلى كَوْمَةٍ من رمل أقامها وكان وراءها، أو إلى شجرة ما أشبه ذلك؛ والراجح أنه يجوز في البنيان استدبار القبلة دون استقبالها؛ لأن النهي عن الاستقبال محفوظ ليس فيه تفضيل ولا تخصيص، والنهي عن الاستدبار رخص بما إذا كان في البنيان، لفعل

=

=

النبي ﷺ، وأيضًا الاستدبار أهون من الاستقبال، ولهذا جاء والله أعلم التخفيف فيه فيما إذا كان الإنسان في البنيان والأفضل ألا يستدبرها إن أمكن؛ [ص ١٢٣ - ١٢٦].

قوله: (ولُبْثُه فَوقَ حاجته، وبولُه في طريقٍ، وظِلٍّ نافعٍ، وتحت شجرةٍ عليها ثَمرةٌ):

قوله: «ولُبْثُه فوق حاجته»؛ أي: يحرم، ويجب عليه أن يخرج من حين انتهائه، وتحريمُ اللُّبث مبنيٌّ على التَّعليل، ولا دليلَ فيه عن النبيِّ ﷺ، ولهذا قال أحمد في رواية عنه: «إنه يُكره ولا يحرم».

قوله: «وبولُه في طريق»؛ أي: يحرم، والغائط من باب أَوْلَى؛ لما رواه مسلمٌ أن النبيَّ ﷺ قال: «اتقوا اللعانَيْن»، قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلَّى في طريق النَّاس، أو في ظلِّهم»، وفي سنن أبي داود رحمه الله تعالى: «اتقوا الملاعن الثلاث: البرَاز في الموارد، وقارعة الطَّريق، والظل»، والعِلَّة: أن البول في الطَّريق أذيَّة للمارَّة، وإيذاء المؤمنين محرَّمٌ.

قوله: «وظِلٍّ نافع»؛ أي: يَحْرُمُ أن يبولَ أو يتغوَّط في ظلٍّ نافع، وليس كُلُّ ظل يحرم فيه ذلك، بل الظلُّ الذي يستظِلُّ به النَّاسُ، فلو بال أو تغوَّط في مكان لا يُجلسُ فيه؛ فلا يُقال بالتَّحريم، والدَّليل قوله ﷺ: «أو في ظِلِّهم»، يعني: الظِّلَّ الذي هو محلُّ جلوسهم، وانتفاعهم بذلك.

وقال بعض أهل العلم: مثلُه مَشْمَسُ النَّاس في أيام الشِّتاء، يعني: الذي يجلسون فيه للتَّدفئة، وهذا قياس صحيح جَليٌّ.

قوله: «وتحت شجرةٍ عليها ثَمرةٌ»، يعني يحرم البولُ والتغوُّط تحت شجرة عليها ثمرة، وأفادنا رحمه الله بقوله: «تحت» أنه لا بُدَّ أن يكون قريبًا منها، وليس بعيدًا.

وقوله: «ثمرة» أطلق المؤلِّف رحمه الله الثمرة، ولكن يجب أن تُقيَّد فيُقال: ثمرة مقصودة، أو ثمرة محترمة، والمقصودةُ هي التي يقصدها النَّاس، ولو كانت غير

=

=

مطعومة، فلا يجوز التبوُّل تحتها أو التغوُّط، والمحترمة كثمرة النَّخل، ولو كانت في مكان لا يقصده أحدٌ، فلا يبول ولا يتغوَّط تحتها ما دامت مثمرة؛ لأن التَّمر طعام محترم، وكذلك غيرها من الأشجار التي تكون ثمرتها محترمة لكونها طعامًا؛ فإنه لا يجوز التبوُّل والتغوُّط تحتها.

وهناك أشياء لا يجوز البول فيها ولا التغوُّط غير ما ذكره المؤلِّف؛ كالمساجد، وكذلك المدارس، فكل مجتمعات الناس لأمر ديني أو دنيوي لا يجوز للإنسان أن يتبول فيها أو يتغوط.

وأما المُسْتَحَمُّ الذي يستحِمُّ النَّاسُ فيه فلا يجوز التغوُّط فيه؛ لأنَّه لا يذهب، أما البول فجائز، لأنه يذهب، مع أنَّ الأَوْلَى عدمه؛ [ص ١٢٦ - ١٢٩].

قوله: (ويَسْتَجْمر، ثمَّ يَسْتَنْجِي بالماء. ويُجْزِئُهُ الاستجمارُ):

قوله: «ويستجمر ثُمَّ يَسْتَنْجِي بالماء..."، الاستجمارُ: يكون بحجر وما ينوب منابه، والاستنجاء يكون بالماء.

وقوله: «يستجمرُ ثم يستنجي» هذا هو الأفضل، وليس على سبيل الوجوب، ولهذا قال: «ويجزئه الاستجمارُ».

والإنسان إذا قضى حاجته لا يخلو من ثلاث حالات:

الأولى: أنْ يستنجيَ بالماء وحده، وهو جائز على الرَّاجح، وإن وُجِدَ فيه خلافٌ قديم من بعض السَّلف، والصحيح: الجواز وقد انعقد الإجماع بعد ذلك على الجواز.

الثانية: أن يستنجي بالأحجار وحدها.

الثالثة: أن يستنجي بالحجر ثم الماء.

وهذا لا أعلمه ثابتًا عن النبي ﷺ، لكن من حيث المعنى لا شك أنه أكمل تطهيرًا؛

=

=

[ص ١٢٩ - ١٣١].

قوله: (إن لم يَعْدُ الخارجُ موضعَ العادة. ويُشترطُ للاستجمارِ بأحجارٍ ونحوِها أن يكون طاهرًا، مُنْقِيًا، غيرَ عَظْمٍ وَرَوْثٍ):

قوله: «إن لم يَعْدُ الخارجُ موضعَ العادةِ»، اشترط المؤلِّفُ للاستجمار شروطًا: الشَّرط الأول أشار إليه بقوله: «إن لم يَعْدُ الخارجُ موضعَ العادةِ»؛ أي: الذي جرت العادة بأن البول ينتشر إليه من رأس الذَّكَر، وبأن الغائط ينتشر إليه من داخل الفَخِذين، فإن تعدَّى موضع العادة فلا يجزئ إلا الماء، وليس هناك دليلٌ على هذا الشَّرط، بل تعليل، وهو أن الاقتصار على الأحجار ونحوِها في إزالة البول أو الغائط خرج عن نظائره؛ فيجب أن يُقتصر فيه على ما جرت العادة به، فما زاد عن العادة فالأصل أن يُزال بالماء.

وظاهر كلام المؤلِّفِ أن الذي لم يتعدَّ موضع العادة يُجزئ فيه الاستجمار، والمتعدِّي لا بُدَّ فيه من الماء.

قوله: «ويُشترَطُ للاستجمار بأحجارٍ ونحوها»، الأحجار جمع حجر.

«ونحوها» مثل: المَدَرَ، وهو: الطِّين اليابس المتجمِّد، والتُّراب، والخِرَق، والورق، وما أشبه ذلك كالخشب.

قوله: «أن يكون طاهرًا»، يعني: لا نجسًا، ولا متنجِّسًا، والفرق: أن النَّجِسَ: نجس بعينه، والمتنجِّس: نجس بغيره، طرَأت عليه النَّجاسة، وهذا هو الشَّرط الثَّاني.

قوله: «مُنْقِيًا»، يعني يحصُل به الإنقاء، فإن كان غير مُنْقٍ لم يجزئ، وهذا هو الشَّرط الثَّالث.

لأن المقصود بالاستجمار الإنقاء، والذي لا يُنقي: إما لا يُنقي لملاسته، كأن يكون أملسَ جدًّا، أو لرطوبته، كحجر رَطْب، أو مَدَر رطب، أو كان المحلُّ قد

=

=

نَشِفَ؛ لأنَّ الحجر قد يكون صالحًا للإنقاء لكنَّ المحلَّ غير صالح للإِنقاء.

قوله: «غيرَ عظمٍ وروثٍ»، هذا شرط عدمي وهو الشَّرط الرَّابع، لأنَّ كلمة «غير» تدلُّ على النَّفي؛ [ص ١٣١ - ١٣٤].

قوله: (وطعامٍ، ومُحْترمٍ، ومتَّصلٍ بحيوان):

يعني طعام بني آدم، وطعام بهائمهم، فلا يصحُّ الاستنجاء بهما، والدَّليل: أن الرَّسول ﷺ نهى أن يُستنجَى بالعظم والرَّوث؛ لأنَّهما طعام الجِنِّ، ودوابهم، والإِنس أفضل، فيكون النهي عن الاستجمار بطعامهم وطعام بهائمهم من باب أوْلى.

كما أن فيه محذورًا آخر، وهو الكفر بالنِّعمة؛ به.

وظاهر كلام المؤلِّف: ولو كان فَضْلَةَ طعام ككِسْرَةِ الخُبز.

قوله: «ومحترم»، المحترم ما له حُرمة؛ أي: تعظيم في الشَّرع؛ مثل: كُتب العلم الشَّرعي، والدَّليل قوله تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢].

والتَّقوى واجبة، فمن أجل ذلك لا يجوز أن يَستجمرَ الإنسان بشيءٍ محترم.

وظاهر كلام المؤلِّف: ولو كان مكتوبًا بغير العربية ما دام أنَّ موضوعه موضوعٌ محترمٌ.

قوله: «ومتَّصلٍ بحيوان»، يعني: المتَّصل بالحيوان لا يجوز الاستجمار به؛ لأن للحيوان حُرمةً؛ مثل: أن يستجمر بذيل بقرة، أو أُذُن سخْلة، وإِذا كان علفُها يُنهى عن الاستجمار به، فكيف بالاستجمارِ بها نفسها؟! فإِن قِيل: يلزمُ على هذا التَّعليل ألا يجوز الاستنجاءُ بالماء؛ لأنَّ اليد سوفَ تُباشر النَّجاسة؟

فالجواب: أن هذا قد قال به بعض السَّلف، وقال: إن الاستنجاء بالماء من غير أن يتقدَّمه أحجارٌ لا يجوز ولا يجزئ؛ لأنك تلوِّث يدك بالنَّجاسة.

=

=

وهذا قولٌ ضعيفٌ جدًّا، وتردُّه السُّنَّة الصَّحيحةُ الصَّريحةُ أنَّه ﷺ كان يقتصرُ على الاستنجاء.

أما مباشرة اليد النَّجاسة، فإن هذه المباشرة ليست للتَّلوُّث بالخَبَثِ، بل لإزالته والتَّخلص منه، ومباشرةُ الممنوع للتَّخلص منه ليست محظورةً، بل مطلوبةً؛ [ص ١٣٥ - ١٣٦].

قوله: (ويُشترط ثلاثُ مسحات، مُنْقِيَةٍ فأكثر ولو بحَجَرٍ ذي شُعبٍ):

قوله: «ويُشترط ثلاثُ مسحات»، هذا هو الشَّرط الخامس من شروط الاستجمار، وهو أن يمسح محل الخارج ثلاث مرَّات.

قوله: «مُنْقِيَة»، هذا هو الشَّرط السَّادس، والإنقاء هو أن يرجعَ الحجرُ يابسًا غير مبلول، أو يبقى أثرٌ لا يزيله إلا الماء.

قوله: «فأكثر»، يعني: أن يمسحَ ثلاثَ مسحات، فإن لم تُنْقِ الثَّلاث زاد عليها.

قوله: «ولو بحَجَر ذي شُعبٍ»، «لو»: إشارة خلاف؛ لأن بعض العلماء قال: لا بُدَّ من ثلاثة أحجار؛ مقتصرًا في ذلك على الظَّاهر من الحديث، ولا شَكَّ أن هذا أكمل في الطَّهارة، لكن من نظر إلى المعنى قال: إن الحجَر ذا الشُّعبِ كالأحجار الثَّلاثة إذا لم تكن شُعَبُه متداخلة بحيث إذا مسحنا بشُعْبَةٍ اتَّصل التَّلويث بالشُّعْبَة الأخرى، وهذا هو الرَّاجح في ذلك؛ لأن العِلَّةَ معلومةٌ، فإذا كان الحَجَر ذا شُعَبٍ واستجمر بكُلِّ جهة منه، صَحَّ؛ [ص ١٣٦ - ١٣٨].

قوله: (ويُسَنُّ قطعُهُ على وِتْرٍ):

يعني: قطع الاستجمار، والمُراد: عددُه، فإذا أنْقَى بأربعٍ زاد خامسة، وإذا أنقى بستٍّ زاد سابعة، وهكذا؛ [ص ١٣٨].

قوله: (ويجبُ الاستنجاءُ لكُلِّ خَارِجٍ إلا الرِّيحَ):

=

=

بيانُ حكم الاستنجاء، وما يجب له الاستنجاء، فقال: «ويجب»، وهل المرادُ هنا تطهير المحلِّ بالماء أو بما هو أعمُّ من ذلك؟

الجواب: أَنه عامٌّ، يعني أن تطهيرَه بالماء أو بالأحجار واجب.

وقوله: «لكُلِّ خَارجٍ»؛ أي من السَّبيلين، ويُستثنى من ذلك الرِّيحُ؛ لأنها لا تُحدِثُ أثرًا فهي هواءٌ فقط، وقال بعض العلماء: إن الرِّيحَ نجسةٌ فيجب غَسْلُ المحلِّ منها.

والصحيحُ: أنَّها طاهرةٌ؛ لأنها ليس لها جِرْمٌ.

ويُستثنى من ذلك أيضًا المنيُّ؛ وهو خارجٌ من السَّبيل فهو داخل في عموم قوله: «لكُلِّ خَارجٍ»، لكنَّه طاهرٌ، والطَّاهر لا يجب الاستنجاء له.

ويُستثنى أيضًا غيرُ المُلَوِّثِ ليُبُوسَتِه، فإذا خرج شيءٌ لا يُلوِّثُ ليُبُوسَتِه، فلا يُستَنْجى له؛ لأن المقصودَ من الاستنجاء الطَّهارةُ، وهنا لا حاجة إلى ذلك.

فإن خرجَ شيءٌ نادرٌ كالحصاة، فهل يجب له الاستنجاء؟

الجواب: إنْ لوَّثت وجب الاستنجاءُ؛ لدخولها في عموم كلام المؤلِّف، وإذا لم تلوِّث لم يجبْ لعدم الحاجة إليه؛ [ص ١٣٩ - ١٤١].

قوله: (ولا يصحُّ قبلَه وُضُوءٌ، ولا تَيَمُّمٌ):

يعني: يشترط لصحة الوضوء والتيمم تقدُّم الاستنجاء أو الاستجمار.

عن الإمام أحمد في هذه المسألة روايتان:

الأولى: أنه يصح الوضوء والتيمم قبل الاستنجاء.

الثانية: أنه لا يصح وهي المذهب.

والرواية الأولى اختارها الموفق وابن أخيه شارح المقنع والمجد، وهذه المسألة إذا كان الإنسان في حال السعة، فإننا نأمره أولًا بالاستنجاء ثم بالوضوء، وذلك

=

=

لفعل النبي ﷺ، وأما إذا نسي أو كان جاهلًا، فإنه لا يجسر الإنسان على إبطال صلاته أو أمره بإعادة الوضوء والصلاة، والراجح عند أهل العلم أن مجرد الفعل لا يقتضي الوجوب إلا إذا كان بيانًا لمجمل من القول يدل على الوجوب بناءً على النص المبين، أما مجرد الفعل، فالصحيح أنه دال على الاستحباب؛ [ص ١٤١ - ١٤٣]. انتهى.

قوله تعالى: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة: ١٠٩]، أي:" لا يستوي مَن أَسَّس بنيانه على تقوى الله وطاعته ومرضاته، ومن أَسَّس بنيانه على طرف حفرة متداعية للسقوط، فبنى مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المسلمين".

قال الطبري:" أيُّ هؤلاء الذين بنوا المساجد خير، أيها الناس، عندكم: الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على اتقاء الله، بطاعتهم في بنائه، وأداء فرائضه ورضًى من الله لبنائهم ما بنوه من ذلك، وفعلهم ما فعلوه خيرٌ، أم الذين ابتدأوا بناءَ مسجدهم على على حرف جُرُف متهوِّر".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل".

قال زيد بن أسلم:" {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ}: هذا مسجد قباء، {خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ}، قال: هذا مسجد الضرار".

و «الجرف»، من الركايا، ما لم يُبْنَ له جُولٌ، و «هار»، يعني: متهوِّر".

ويحتمل المقصود بضرب هذا المثل وجهين:

أحدهما: أنه لم يبق بناؤهم الذي أسس على غير طاعة الله حتى سقط كما يسقط ما بني على حرف الوادي.

=

=

الثاني: أنه لم يخف ما أسرُّوه من بنائه حتى ظهر كما يظهر فساد ما بنى على حرف الوادي بالسقوط.

قال الزجاج:" وهذا مثل، المعنى أن بناء هذا المسجد الذي بني ضرارا وكفرا كبناء

على جرف جهنم يتهور بأهله فيها".

قوله تعالى: {فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة: ١٠٩]، أي:" فأدَّى به ذلك إلى السقوط في نار جهنم".

قال الطبري: اي:" فانتثر الجرف الهاري ببنائه في نار جهنم".

قال ابن كثير:" فإنما بنى هؤلاء بنيانهم {عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ} أي: طرف حَفِيرة مثاله {فِي نَارِ جَهَنَّمَ}".

عن الضحاك قوله: " {فانهار به}، يقول: فخرَّ به".

وفي قوله تعالى: {فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة: ١٠٩]، وجهان:

أحدهما: أنهم ببنيانهم له سقطوا في نار جهنم.

الثاني: أن بقعة المسجد مع بنائها وبُناتها سقطت في نار جهنم، قاله قتادة، والسدي.

قال ابن عباس:" يعني: قواعده في نار جهنم".

قال قتادة: "ذكر لنا أنه تحفَّرت بقعة منها، فرُؤي منها الدخان".

وقال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بني ضرارًا يخرج منه الدخان على عهد النبي ﷺ".

عن أصبغ بن الفرج قال: "وذكر سفيان بن عيينة: أنه لا يزال منه دخان يفور لقوله فانهار به في نار جهنم ويقال: إنه بقعة من نار جهنم".

قال ابن جريج: "بنو عمرو بن عوف. استأذنوا النبي ﷺ في بنيانه، فأذن لهم، ففرغوا منه يوم الجمعة، فصلوا فيه الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد. قال: وانهار

=

=

يوم الاثنين. قال: وكان قد استنظرهم ثلاثًا، السبت والأحد والاثنين، {فانهار به في نار جهنم}، مسجد المنافقين، انهار فلم يتناهَ دون أن وقع في النار، قال ابن جريج: ذكر لنا أن رجالا حفروا فيه، فأبصروا الدخان يخرج منه".

عن خلف بن ياسين الكوفي قال: "حججت مع أبي في ذلك الزمان – يعني: زمان بني أمية – فمررنا بالمدينة، فرأيت مسجد القبلتين –يعني مسجد الرسول –وفيه قبلة بيت المقدس، فلما كان زمان أبي جعفر، قالوا: يدخل الجاهل فلا يعرف القبلة! فهذا البناءُ الذي ترون، جرى على يَدِ عبد الصمد بن علي. ورأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله في القرآن، وفيه حجر يخرج منه الدخان، وهو اليوم مَزْبَلة".

قوله تعالى: {وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٠٩]، أي:" والله لا يهدي القوم الظالمين المتجاوزين حدوده".

قال الطبري:" يقول: والله لا يوفق للرشاد في أفعاله، من كان بانيًا بناءه في غير حقه وموضعه، ومن كان منافقًا مخالفًا بفعله أمرَ الله وأمرَ رسوله".

قال ابن كثير:" أي: لا يصلح عمل المفسدين".

قال ابن إسحاق:" أي: لا يهديهم في الحجة عند الخصومة، بما هم عليه من الضلالة".

قال ابن إسحاق:" {الظالمين}: أي: المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم الطاعة وقلوبهم مصرة على المعصية".

عن أبي العالية قوله: الظالمين يعني: من أبا أن يقول لا إله إلا الله". وروي عن عكرمة وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

قوله تعالى: {لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ}

=

=

[التوبة: ١١٠]، أي:" لا يزال بنيان المنافقين الذي بنوه مضارَّة لمسجد (قباء) شكًا ونفاقًا ماكثًا في قلوبهم، إلى أن تتقطع قلوبهم بقتلهم أو موتهم، أو بندمهم غاية الندم، وتوبتهم إلى ربهم، وخوفهم منه غاية الخوف".

قال الطبري:" لا يزال بنيان هؤلاء الذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا، شكًّا ونفاقًا في قلوبهم، يحسبون أنهم كانوا في بنائه مُحْسنين، إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا".

قال المراغي:" أي: لا يزال بنيانهم سبب ريبة وشك فى الدين، لأنهم يظهرون فيه حال قيامه ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين، وحين أمر ﷺ بتخريبه وهدمه ثقل ذلك عليهم وعظم خوفهم وارتابوا فى أمرهم: أيتركون على حالهم أم يؤمر بهم فيقتلون وتنهب أموالهم، إلى أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين فى البناء، فلما أمر بتخريبه أصبحوا شاكين فى أمره، ولأى سبب كان ذلك".

وفي قوله تعالى: {رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ} [التوبة: ١١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه شك في قلوبهم، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، وإبراهيم، والضحاك، وسعيد بن أبي عروبة، ومنه قول النابغة الذبياني:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وَهْوَ طَائِعُ؟

الثاني: كفر في قلوبهم. وهذا قول السدي.

عن السُّدِّيّ -من طريق سفيان-: " {ريبة في قلوبهم}، قال: كفر. قلت: أكفر مجمّع بن جارية؟ قال: لا ولكنها حَزَازة".

الثالث: معناه: راضين بما صنعوا، كما حُبِّب العجل في قلوب أصحاب موسى. وهذا قول ابن زيد.

الرابع: أن تكون الريبة ما أضمروه من الإضرار برسول الله ﷺ والمؤمنين. ذكره

=

=

الماوردي.

الخامس: أن معنى «ريبة في قلوبهم»: حزازة في قلوبهم، قاله السدي.

السادس: معناها: ندامة في قلوبهم بما صنعوا. قاله حمزة، وابن سائب الكلبي.

عن حمزة -من طريق جرير- في قول الله: " {لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم}، قال: نَدامةً بما صنعوا".

قال محمد بن السائب الكلبي: "حسرة وندامة؛ لأنّهم ندِموا على بنائه".

السابع: أن المعنى: غيظًا في قلوبهم. قاله حبيب بن أبي ثابت.

الثامن: أن المعنى: غطاء على قلوبهم، حكاه الماوردي عن حبيب بن أبي ثابت.

التاسع: أن تكون «الريبة»: الخوف من رسول الله ﷺ ومن المؤمنين. ذكره الماوردي.

قال السعدي: {ريبة في قلوبهم} " أي: شكا، وريبا ماكثا في قلوبهم".

قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} [التوبة: ١١٠]، أي:" إلى أن تتقطع قلوبهم بقتلهم أو موتهم، أو بندمهم غاية الندم، وتوبتهم إلى ربهم، وخوفهم منه غاية الخوف".

قال السعدي:" بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلى ريبهم، ونفاقا إلى نفاقهم".

قال أبو عبيدة:"إلا هاهنا غاية".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} [التوبة: ١١٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها: إلا أن يموتوا، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، حبيب بن أبي ثابت، والسدي، وابن زيد، ومقاتل.

الثاني: إلا أن يتوبوا، قاله سفيان.

=

=

قال الزجاج:" وقال بعضهم: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم".

الثالث: إلا أن تقطع قلوبهم في قبورهم، قاله عكرمة.

وذكر أن الحسن كان يقرأ: «إِلَى أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ»، بمعنى: حتى تتقطع قلوبهم}.

وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرأُونها: {وَلَوْ تَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ}.

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١١٠]، أي:" والله عليم بما عليه هؤلاء المنافقون من الشك وما قصدوا في بنائهم، حكيم في تدبير أمور خلقه".

قال الطبري: أي: " {عَلِيمٌ} بما عليه هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار، من شكهم في دينهم، وما قصدوا في بنائهموه وأرادوه، وما إليه صائرٌ أمرهم في الآخرة، وفي الحياة ما عاشوا، وبغير ذلك من أمرهم وأمر غيرهم، {حكيم} في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه".

قال السعدي:" {والله عليم} بجميع الأشياء، ظاهرها، وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنوه، {حكيم} لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فلله الحمد".

قال محمد بن إسحاق: " {عليم}، أي: عليم بما يخفون".

عن أبي العالية:" {حكيم}، قال: حكيم في أمره".

عن محمد بن جعفر بن الزبير، قوله: " {حكيم}، قال: الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

* مسألة: لا يجوز بناء مسجد مجاور لمسجد الحي؛ ما دام الناس يسمعون الأذان من فوق سطح المسجد بلا مكبرات في زمن سكون الرياح، وبلا ضجيج الأسواق والطرقات؛ فإن هذا يفرق جماعة الناس، ويعطل بعض المقاصد من جمعهم؛ فمن المقاصد تعارفهم، وأداء الحقوق بينهم؛ من صلاح حال، وأمر بمعروف

=

=

ونهي عن منكر، ودفع للبغضاء فيما بينهم؛ فإن الجيران لو أهل الرحم إن تعددت مساجدهم تهاجروا؛ كل بمسجده، ولو جمعهم مسجد واحد، تعارفوا وتقاربت نفوسهم برؤية بعضهم بعضا، وتغافل بعضهم عن زلة بعض، وقد كان بعض السلف يسمي تعدد المساجد في المكان المتقارب والحي الواحد بدعة، ويروى أن أنس بن مالك لما دخل البصرة جعل كلما خطا خطوتين رأى مسجدا، فقال: ما هذه البدعة؟ ! كلما كثرت المساجد قل المصلون، أشهد لقد كانت القبيلة بأسرها ليس فيها إلا مسجد واحد، وكان أهل القبيلة يتناوبون المسجد الواحد في الحي من الأحياء.

وأما إن تباعدت أطراف الحي والبلد حتى لا يسمع الناس الأذان لو نودي من فوق سطحه بلا مكبر زمن هدوء وبلا صخب؛ فلا حرج من بناء مساجد؛ كما بنى النبي ﷺ مساجد في المدينة لأهلها؛ كمسجد قباء ومسجد بني زريق وغيرهما، وقد قيد النبي ﷺ حضور الجماعة بسماع النداء؛ كما قال ﷺ لمن التمس رخصة بتركها: (هل تسمع النداء بالصلاة؟)، قال: نعم، قال: (فأجب)، ومن سمع النداء من جهتين وتقارب منه مسجدان، لم يفقده الجميع؛ لأن كل واحد يظنه في الآخر، فلا يعرف المؤمنون من المنافقين، ولا يتمايز الصالحون، وتضعف الشهادة للناس بالإيمان وتزكيتهم بالخير.

وإذا كثر الناس وتزاحموا في المسجد حتى لا يطيقهم، فالأولى أن يوسعوه أو يبدلوه بمكان أوسع منه، ولا يبنوا مسجدا قريبا منه فتتعدد المساجد في المكان المتقارب؛ كما نص على هذا أحمد بن حنبل وغيره.

وإذا تعذر ذلك؛ كما يكون في العواصم المزدحمة، والمدن الكبيرة بالناس، والأبنية المرتفعة الشاهقة التي يتعذر معها جمعهم في مسجد الحي؛ فبعض الأبنية الشاهقة اليوم من يسكنها مع صغر أرضها آلاف الناس، ولو كانوا على الأرض،

=

=

لكانوا حيا كاملا أو قرية كاملة، وإذا كانت الحالة تلك، فلا حرج مي تعدد المساجد في المكان المتقارب؛ لاجتماع مفسدتين؛ فيجوز ارتكاب أدناهما:

المفسدة الأولى: تركهم للصلاة جماعة وهجرهم للمساجد؛ لعدم وجود أماكن لهم فيها، ولا يجدون بدا من سكنى بيوتهم تلك.

والمفسدة الثانية: تعدد المساجد في الحي والمكان المتقارب.

والمفسدة الأولى أعظم؛ لأن العذر بتعدد المساجد ظاهر، والفتنة في مثله في الدين أقل من الفتنة من وقوعها في حي قليل العدد كثير المساجد، وقال صالح بن أحمد بن حنبل لأبيه: كم يستحب أن يكون بين المسجدين إذا أرادوا أن يبنوا إلى جانبه مسجدا؟ قال: لا يبنى مسجد يراد له الضرر لمسجد إلى جانبه؛ فإن كثر الناس حتى يضيق عليهم، فلا بأس؛ يبنى وإن قرب ذلك منه.

قوله تعالى: {لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه} أخذ منه بعض الفقهاء استحباب الصلاة في المسجد القديم عند تعدد المساجد في البلد أو الحي؛ فقد ذكر الله علة التفضيل للمسجد أنه أريد به وجه الله، ثم أنه بني قديما، وهذا يدل على فضل الأقدم على الأحدث؛ لأن الغالب أن أول المساجد يبنى في البلد لا يراد منه إلا الصلاة وعبادة الله، بخلاف المساحد اللاحقة له، فقد يقع في نفوس عامريها المنافسة والجاه، وربما قصد الضرار والتفريق، فإن أول الأعمال أصدقها.

* أولى المساجد بالصلاة عند كثرتها: إذا تعددت المساجد في البلد أو الحي الواحد، فقد اختلف في أيها أولى بالصلاة فيها:

فمنهم: من قال بتفضيل الأقدم؛ لظاهر الآية، وقد قال ثابت البناني: "كنت أقبل مع أنس بن مالك من الزاوية، فإذا مر بمسجد، قال: أمحدث هذا؟ فإن قلت: نعم، مضى، وإن قلت: عتيق، صلى"؛ رواه أبو نعيم الفضل بن دكين في كتابه الصلاة.

=

=

وبهذا كان يعمل غير واحد من السلف؛ كما روى ابن أبي شيبة، عن عوف، قال: "قدم عامل لمعاوية، وكان بعثه على الصدقات، فنزل منزلا، فإذا هو بمسجدين، قال: أيهما أقدم؟ فأخبر به، فأتى الذي هو أقدمهما".

وبه كان يعمل أبو وائل، ومجاهد؛ رواه عنهما ليث؛ أخرجه ابن أبي شيبة.

ومنهم: من قال بتفضيل المسجد الأكثر جماعة على المسجد الأقدم؛ وذلك لقوله ﷺ: (إن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله تعالى)؛ رواه أحمد وأصحاب "السنن".

والأظهر: أنه إن كان في البلد أو الحي الكبير مساجد متعددة: مسجد الحي القريب الذي يصلي فبه جيران الرجل، ومسجد قديم، ومسجد أكثر جماعة، فإن مسجد الحي والجيران أولى بالتقديم؛ لأنه يتحقق مقاصد عظيمة غير مقاصد الجماعة؛ كالإحسان إلى أهل الحي وتعاهدهم، وقضاء حاجتهم، وصلتهم، وإجابة دعوتهم؛ فهذا عمل عظيم قصدته الشريعة بالتفضيل بذاته، وإذا قصد الرجل مسجدا قديما لا يصلي فيه أهل حيه وجيرانه، فاته ذلك الفضل.

وأما عمل أنس بن مالك، فكان مارا ببلد ليس بلده، وفي حي ليس حيه، وهذا حكم خاص لمن كان كحاله، وانتفت عنه تلك المقاصد، فمن كان حاله كحال أنس، فحكمه كحكمه، وقد روى منصور، عن الحسن: "أنه سئل عن الرجل يدع مسجد قومه ويأتي غيره، قال: فقال الحسن: كانوا يحبون أن يكثر الرجل قومه بنفسه".

وإذا تقارب في الحي مسجدان عن يمين وشمال، فالأفضل الصلاة في الأقدم منهما؛ لاستواء المقاصد فيهما وتميز أحدهما بفضل.

وإذا تقارب في الحي مسجدان: قديم قليل الجماعة، وحديث كثير الجماعة،

=

=

وكلاهما يتساويان في بقية المقاصد، فمذهب الحنابلة: أن القديم أولى، والأظهر: أن المصلي يقصد الأخشع لقلبه؛ لأن الصلاة في مسجد حديث مع خشوع أولى من الصلاة في مسجد قديم يساويه في القرب بلا خشوع؛ لأن الخشوع قلب الصلاة ولبها.

ولا يجوز لأحد أن يترك جماعة المسلمين ويفارق المساجد بحجة الخشوع في صلاته منفردا، ولو كان ذلك صحيحا، فيجب عليه شهود الجماعة مع اجتهاد في الخشوع، ولو فاته الخشوع وتعذر عليه، فهو مأجور بشهود الجماعة، غير آثم بفوات خشوع لا يستطيعه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

(منبهة): قال الله تعالى: (لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) [التوبة: ١٠٨].

وفي الحديث عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري فقلت له: "كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: «دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله: أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفا من حصباء، فضرب به الأرض ثم قال: هو مسجدكم هذا، لمسجد المدينة». قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره" أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الحج، حديث (١٣٩٨).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) [التوبة: ١٠٨] قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية فيهم». أخرجه أبو داود (٤٤)، والترمذي (٣١٠٠)، وابن ماجة (٣٥٧)، والبيهقي في الكبرى (٥١٣) وللحديث شواهد عن

=

=

بعض الصحابة، ولكن كل أسانيده ضعيفة لذا ضعف الحديث بعض العلماء، فقال عنه النووي في المجموع (٢/ ٩٩) إسناده ضعيف، وكذا قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٣)، والحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (١/ ١١٢)، وقواه بعضهم فصححه ابن العربي في العارضة (٦/ ١٩١)، وحسنه الزيلعي في نصب الراية (١/ ٢١٨)، وقال الشيخ ناصر في الإرواء (٤٥): هذا سند ضعيف وله علتان: الأولى: ضعف يونس بن الحارث، والثانية: جهالة براهيم بن أبي ميمونة ثم قال الشيخ: وإن كان الحديث ضعيقا بهذا السند فهو صحيح باعتبار شواهده، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (١/ ٣٣): حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف يونس بن الحارث وجهالة إبراهيم ابن أبي ميمونة. وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (١/ ٣٣):حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف يونس بن الحارث وجهالة إبراهيم ابن أبي ميمونة.

* ظاهر حديث أبي سعيد الخدري أن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، الذي هو في جوف المدينة، وأما سبب نزول الآية فظاهره أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، وهذا يوهم الاختلاف والتناقض بين الحديثين.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الحديثين:

للعلماء في دفع التعارض بين الحديثين مسلكان:

الأول: مسلك الجمع بينهما:

حيث ذهب جمع من العلماء إلى نفي التعارض بين الحديثين؛ وجمعوا بينهما بأن كلا من المسجدين قد أسس على التقوى، إلا أن المسجد النبوي أحق بهذا الوصف من مسجد قباء، لحديث أبي سعيد، وأما مراد الآية فهو مسجد قباء دون المسجد النبوي، كما دل عليه سبب نزول الآية.

=

=

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قوله تعالى: (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) [التوبة: ١٠٨] مسجده ﷺ هو الأحق بهذا الوصف، وقد ثبت في الصحيح أنه سئل عن المسجد المؤسس على التقوى فقال: «هو مسجدي هذا» يريد أنه أكمل في هذا الوصف من مسجد قباء، ومسجد قباء أيضا أسس على التقوى، وبسببه نزلت الآية، ولهذا قال فيه: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) [التوبة: ١٠٨] فأراد النبي ﷺ أن لا يظن ظان أن ذاك هو الذي أسس على التقوى دون مسجده، فذكر أن مسجده أحق بأن يكون هو المؤسس على التقوى فقوله: (لمسجد أسس على التقوى) [التوبة: ١٠٨] يتناول مسجده ومسجد قباء، ويتناول كل مسجد أسس على التقوى. اهـ

وقال الحافظ ابن كثير: «المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد قباء، لما دل عليه السياق، والأحاديث الواردة في الثناء على تطهير أهله مشيرة إليه، وما ثبت في صحيح مسلم من أنه مسجد رسول الله ﷺ لا ينافي ما تقدم؛ لأنه إذا كان مسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد الرسول ﷺ أولى بذلك وأحرى، وأثبت في الفضل منه وأقوى». اهـ

وقال: لما سئل رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى أشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، ولا تنافي؛ فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم. اهـ

وقال الحافظ ابن حجر: «والحق أن كلا منهما أسس على التقوى». اهـ

وقال الطاهر بن عاشور: «ووجه الجمع عندي أن يكون المراد بقوله تعالى: (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم) [التوبة: ١٠٨] المسجد الذي هذه صفته، لا مسجدا واحدا معينا، فيكون هذا الوصف كليا انحصر في فردين: المسجد النبوي، ومسجد قباء، فأيهما صلى فيه رسول الله ﷺ في الوقت الذي

=

=
دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار كان ذلك أحق وأجدر، فيحصل النجاء من حظ الشيطان في الامتناع من الصلاة في مسجدهم، ومن مطاعنهم أيضا، ويحصل الجمع بين الحديثين الصحيحين، وقد كان قيام الرسول في المسجد النبوي هو دأبه». اهـ

وقد اختار هذا الجمع:

ابن عبد البر، والداوودي، والسهيلي، وابن القيم، والسمهودي ، والقاسمي، والألباني.

وللنحاس، وأبي العباس القرطبي، رأي آخر في الجمع:

حيث ذهبا إلى أن أول الآية وهو قوله تعالى: (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) يعود على مسجد النبي ﷺ، لحديث أبي سعيد، وأما آخر الآية، وهو قوله: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) فهو في مسجد قباء، كما يدل عليه سبب النزول.

غير أن النحاس لم يجزم بذلك حيث جوز أن تكون الآية كلها في المسجد النبوي. قال النحاس: «الهاء في قوله: (أحق أن تقوم فيه) يعود على مسجد النبي ﷺ، والهاء في قوله: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) يعود على مسجد قباء، ويجوز أن تكون تعود على مسجد النبي ﷺ". اهـ

وقال أبو العباس القرطبي: «ويلزم من تعيين النبي ﷺ مسجده أن يكون هو المراد بقوله تعالى: (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) [التوبة: ١٠٨]، وأن يكون الضمير في قوله: (فيه رجال) عائد على المسجد الذي أسس على التقوى؛ لأنه لم يتقدمه ظاهر غيره يعود عليه، وليس الأمر كذلك، بدليل ما رواه أبو داود من طريق صحيحة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، أن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب
=

=

المطهرين) قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية فيهم». فعلى هذا يكون الضمير في: (فيه رجال) غير عائد على المسجد المذكور قبله، بل على مسجد قباء، الذي دلت عليه الحال والمشاهدة عندهم، وأما عندنا فلولا هذا الحديث لحملناه على الأول. وعلى هذا يتعين على القارئ أن يقف على «فيه» من قوله: (أحق أن تقوم فيه) ويبتدئ: (فيه رجال) ليحصل به التنبيه على ما ذكرناه، والله تعالى أعلم». اهـ

واعترض على هذا القول: بأن فيه تفكيكا للضمائر، والأصل أن تكون الضمائر متناسقة وعائدة على مذكور واحد.

أدلة هذا المذهب:

استدل القائلون بأن مراد الآية هو مسجد قباء بأدلة، منها:

الأول: أن قوله تعالى: (من أول يوم) يقتضي أنه مسجد قباء؛ لأن تأسيسه كان في أول يوم حل النبي ﷺ بدار الهجرة، وأما مسجد النبي ﷺ فلم ينشأ إلا بعد ذلك.

الدليل الثاني: أن قوله في بقية الآية: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) يؤكد كون المراد مسجد قباء، وقد صح في سبب نزول الآية أنها نزلت في أهل قباء؛ فتعين حمل الآية جميعها على أنها واردة في مسجد قباء.

وأجابوا عن حديث أبي سعيد والذي فيه تعيين مسجد النبي ﷺ فقالوا:

وأما حديث أبي سعيد: فليس هو في معرض بيان وتعيين ما في الآية؛ بل هو في بيان الأحق بهذا الوصف، يدل عليه قوله في رواية أخرى هي من تمام الحديث: «وفي ذلك خير كثير». يريد مسجد قباء.

قالوا: والسر في إجابته ﷺ عن ذلك إنما هو لدفع ما توهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء دون المسجد النبوي، والتنويه بمزية هذا على ذاك.

=

=

الإيرادات والاعتراضات على هذا المذهب وأدلته:

الإيراد الأول: إذا كان كل واحد من المسجدين قد أسس على التقوى، فما المزية التي أوجبت تعيينه ﷺ مسجد المدينة دون مسجد قباء؟

وأجيب: بأن بناء مسجد قباء لم يكن بأمر جزم من الله تعالى لنبيه ﷺ، بل ندب إليه، أو كان رأيا رآه، بخلاف مسجد المدينة؛ فإنه أمر بذلك، وجزم عليه، فأشبه امتثال الواجب، فكان بذلك الاسم أحق.

ويحتمل أن تكون المزية لما اتفق من طول إقامته ﷺ بمسجد المدينة، بخلاف مسجد قباء فما أقام به إلا أياما قلائل.

الاعتراض الثاني: أن قوله تعالى: (من أول يوم) لا يفيد أنه مسجد قباء؛ لأن المعنى: أنه أسس على التقوى من أول مبتدأ تأسيسه، أي أنه لم يشرع فيه، ولا وضع حجر على حجر منه، إلا على اعتقاد التقوى.

قال الآلوسي: «ومعنى تأسيسه على التقوى من أول يوم: أن تأسيسه على ذلك كان مبتدأ من أول يوم من أيام وجوده، لا حادثا بعده، ولا يمكن أن يراد من أول الأيام مطلقا». اهـ

الاعتراض الثالث: أن القول بأن كلا منهما قد أسس على التقوى يوحي بنوع استدراك على حديث النبي ﷺ، فإنه حينما سئل أي المسجدين أسس على التقوى؟ أجاب: بأنه مسجده، ولم يقل كلا المسجدين قد أسسا على التقوى، بل أشار إلى أن مسجد قباء فيه خير كثير، فكيف يقال بعد ذلك أن كلا منهما قد أسسا على التقوى؟!

المسلك الثاني: الترجيح بين الأحاديث:

حيث ذهب آخرون إلى تضعيف الأحاديث الواردة في سبب نزول الآية، التي فيها أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، وأن الآية لا يصح فيها إلا

=

=

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال ابن العربي: فإن قيل: إن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم». يدل على أن ضمير المتطهرين هو ضمير مسجد قباء.

قلنا: هذا حديث لم يصح، والصحيح هو حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء. وقال آخر: هو مسجد رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: هو مسجدي هذا. اهـ

وقال الشوكاني: ولا يخفاك أن النبي ﷺ قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى، وجزم بأنه مسجده ﷺ، كما قدمنا من الأحاديث الصحيحة، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا غيرهم، ولا يصح لإيراده في مقابلة ما قد صح عن النبي ﷺ، ولا فائدة في إيراد ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء؛ فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى، على أن ما ورد في فضائل مسجده ﷺ أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة تعم. اهـ

وقال الآلوسي بعد أن ذكر المذهب الأول: «ولا يخفى بعد هذا الجمع، فإن ظاهر الحديث الذي أخرجه الجماعة عن أبي سعيد الخدري بمراحل عنه، ولهذا اختار بعض المحققين القول الثاني....، وأما ما رواه الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: «من أن قوله جل وعلا: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) نزلت في أهل قباء وكانوا يستنجون بالماء». فهو لا يعارض نص رسول الله ﷺ.

=

=

وأما ما رواه ابن ماجه عن أبي أيوب وجابر وأنس من أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار إن الله تعالى قد أثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهوركم هذا؟ قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة. قال: فهل مع ذلك غيره؟ قالوا: لا، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجي بالماء. قال ﷺ: هو ذاك فعليكموه». فلا يدل على اختصاص أهل قباء، ولا ينافي الحمل على أهل مسجده ﷺ».

قال: «والجمع فيما أرى بين الأخبار والأقوال متعذر، وليس عندي أحسن من التنقير عن حال تلك الروايات صحة وضعفا، فمتى ظهر قوة إحداهما على الأخرى عول على الأقوى، وظاهر كلام البعض يشعر بأن الأقوى رواية ما يدل على أن المراد مسجد الرسول ﷺ». اهـ

وممن ذهب إلى ترجيح حديث أبي سعيد:

الطحاوي، والقاضي عياض، والنووي، وابن عطية، وأبو عبد الله القرطبي، والحافظ العراقي، والعيني، والسندي، والملا علي القاري.

أدلة هذا المذهب:

استدل القائلون بأن مراد الآية هو مسجد النبي ﷺ دون مسجد قباء بأدلة منها:

الأول: حديث أبي سعيد - رضي الله عنه -، وهو نص صحيح صريح في المسألة.

الدليل الثاني: أن المسجد النبوي أحق بالوصف بالتأسيس على التقوى من أول يوم، من مسجد قباء، لما ورد من أحاديث كثيرة في فضله.

الدليل الثالث: أن التعبير بالقيام عن الصلاة في قوله: (أحق أن تقوم فيه) يستدعي المداومة، ويعضده توكيد النهي بقوله: (أبدا) [التوبة: ١٠٨]، ومداومة الرسول ﷺ لم توجد إلا في مسجده الشريف ﷺ.

الدليل الرابع: أن القول بأنه مسجد النبي ﷺ قد صح عن جمع لا يحصون من

=

=

الصحابة ومن بعدهم، وهذا يؤكد أن المراد به مسجد النبي ﷺ دون مسجد قباء.
وأجاب أصحاب هذا المذهب عن سبب نزول الآية:
بأن بعض طرق الحديث فيها ضعف، وبعضها ليس فيه تعيين مسجد قباء، وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، وإذ الأمر كذلك فإن هذه الأحاديث الواردة في سبب نزول الآية لا تقاوم الأحاديث الصحيحة الصريحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ.
و الذي يظهر صوابه - والله تعالى أعلم - أن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، دون مسجد قباء، وهذا ما دل عليه حديث أبي سعيد - رضي الله عنه - الصحيح الصريح، وأما ما ورد في سبب نزول الآية؛ فإنه عند التحقيق لا يظهر أنه يخالف حديث أبي سعيد؛ ذلك أن سبب النزول لم يصح فيه أن الآية نزلت في مسجد قباء، بل الصحيح أنها نزلت في رجال من الأنصار، وقد قمت بتقصي طرق سبب نزول الآية ووجدت أنها كلها لا تخلوا من ضعف، غير أن الطرق التي فيها التصريح بذكر مسجد قباء ضعيفة جدا، وقد استشكل جمع من العلماء هذه المسألة بسبب ذلك، لذا فإن القول المختار في سبب نزول الآية أنها نزلت في رجال من الأنصار كانوا في مسجد رسول الله ﷺ، وليسوا في مسجد قباء، والله تعالى أعلم.
أدلة هذا الاختيار:
١ - أن الحديث الذي ورد فيه التصريح بأنه مسجد النبي ﷺ هو أقوى في الثبوت من أحاديث سبب نزول الآية، التي فيها أنها نزلت في مسجد قباء، حيث روي حديث مسجد النبي ﷺ في صحيح مسلم، وأما أحاديث سبب نزول الآية؛ فإن جميعها رويت من طرق لا تخلو من ضعف.
٢ - أن الأحاديث الواردة في سبب نزول الآية، التي فيها التصريح بذكر مسجد
=

=

قباء، رويت عن ستة من الصحابة - كما تقدم في تخريج سبب النزول - إلا أن هذه الأحاديث لا يصح الاحتجاج بها؛ لأن أسانيدها لا تخلو من راو كذاب، أو ضعيف جدا.

٣ - أن النص الصريح الصحيح المرفوع للنبي ﷺ مقدم على سبب النزول، وذلك عند التعارض.

٤ - أن قوله تعالى: (من أول يوم) ليس المراد به: من أول أيام قدوم النبي ﷺ لدار الهجرة، بل المراد من أول أيام تأسيس المسجد، والمعنى أنه أسس أول ما أسس على التقوى، لا على الضرار والكفر، يدل على هذا المعنى أن هذه الآية وردت في مقابل الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون (١٠٧)) [التوبة: ١٠٧] فمسجد الضرار أسس أول ما أسس على الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين، لذلك أمر الله تعالى نبيه - ﷺ - بإحراقه وهدمه؛ لأن بناءه لم يكن على أساس من التقوى والرضوان، وأما المسجد النبوي فأسس أول ما أسس على تقوى من الله ورضوان، ويؤيد هذا المعنى أيضا قوله في الآية التي بعدها: (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) [التوبة: ١٠٩] فهذه الآية صريحة بأن المراد من أول أيام تأسيس المسجد، وأنه أسس أول ما أسس على التقوى.

٥ - ومما يؤكد أن المراد مسجد النبي ﷺ قوله في الآية: (أحق أن تقوم فيه) حيث أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالقيام فيه، ومعلوم أن النبي ﷺ لم يدم القيام بمسجد قباء، وإنما كان يزوره ويصلي فيه في الأسبوع مرة واحدة، والذي كان يداوم على الصلاة فيه هو مسجده الذي في جوف المدينة، وما كان للنبي ﷺ أن

=

=

يخالف أمر ربه تبارك وتعالى فيترك مسجد قباء، وقد أمر بالقيام فيه، وإنما أمر بالقيام في مسجده ﷺ، والذي هو مراد الآية.

الإيرادات والاعتراضات على هذا الاختيار:

الإيراد الأول: أنه قد صح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن المراد بالآية مسجد قباء، وهذا يدل على أن لسبب النزول أصلا صحيحا.

والجواب: أنه قد صح أيضا عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، أن المراد بالآية مسجد النبي ﷺ، وليس قول بعض الصحابة بحجة على بعض إلا إذا اتفقوا، وليس في الآية اتفاق، فلم يبق إلا اعتبار الحديث.

الإيراد الثاني: أنه روي عن ستة من الصحابة أن الآية نزلت في أهل قباء، وهي وإن كانت ضعيفة إلا إنه يشد بعضها بعضا؛ لأن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن للقصة أصلا.

والجواب: أن القول بتقوية الحديث بكثرة طرقه ليس على إطلاقه، وقد نبه على ذلك غير واحد من علماء الحديث المحققين، منهم الحافظ أبو عمرو بن الصلاح، حيث قال: «لعل الباحث الفهم يقول: إنا نجد أحاديث محكوما بضعفها، مع كونها قد رويت بأسانيد كثيرة من وجوه عديدة....، فهلا جعلتم ذلك وأمثاله من نوع الحسن؛ لأن بعض ذلك عضد بعضا، كما قلتم في نوع الحسن على ما سبق آنفا؟

وجواب ذلك: أنه ليس كل ضعف في الحديث يزول بمجيئه من وجوه، بل ذلك يتفاوت، فمنه ما يزيله ذلك بأن يكون ضعفه ناشئا من ضعف حفظ راويه، ولم يختل فيه ضبطه له....، ومن ذلك ضعف لا يزول بنحو ذلك لقوة الضعف، وتقاعد هذا الجابر عن جبره ومقاومته، وذلك كالضعيف الذي ينشأ من كون الراوي متهما بالكذب، أو كون الحديث شاذا، وهذه جملة تفاصيلها تدرك

=

إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١).

{إِنَّ الله اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسهمْ وَأَمْوَالهمْ} بِأَنْ يَبْذُلُوهَا فِي طَاعَته كَالْجِهَادِ {بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّة يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} جُمْلَة اسْتِئْنَاف بَيَان لِلشِّرَاءِ وَفِي قِرَاءَة بِتَقْدِيمِ الْمَبْنِيّ لِلْمَفْعُولِ أَيْ فَيُقْتَل بَعْضهمْ وَيُقَاتِل الْبَاقِي

=

بالمباشرة والبحث، فاعلم ذلك فإنه من النفائس العزيزة». اهـ

الإيراد الثالث: أن الأحاديث التي فيها أن الآية نزلت في رجال من الأنصار هي أيضا ضعيفة، فكيف اعتمدتموها وطرحتم بقية الأحاديث التي فيها ذكر مسجد قباء؟

والجواب: أن هذه الأحاديث أقوى إسنادا من بقية الأحاديث التي فيها ذكر مسجد قباء، وقد صححها بعض العلماء كما تقدم في تخريج الحديث، ورواتها مختلف في توثيقهم، ولكن لما رويت من عدة طرق صح اعتبارها.

الإيراد الرابع: أن القول بأن الآية نزلت في رجال من الأنصار -كانوا إذا خرجوا من الغائط يغسلون أثر الغائط فنزلت فيهم هذه الآية - يلزم منه أنها نزلت في أهل قباء؛ لأنهم هم الذين كانوا يفعلون ذلك.

والجواب: أن الأنصار كانوا في مسجد رسول الله ﷺ وفي مسجد قباء، ومسجده ﷺ كان معمورا بالمهاجرين والأنصار، ومن سواهم من الصحابة، وليس هناك ما يدل على أن أولئك الرجال كانوا في مسجد قباء خاصة، إلا ما ورد في سبب نزول الآية، وقد تقدم أن ذلك لا يصح، والله تعالى أعلم. ا.هـ من كتاب الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة.

{وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا} مَصْدَرَانِ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا الْمَحْذُوف {فِي التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَالْقُرْآن وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ الله} أَيْ لَا أَحَد أَوْفَى مِنْهُ {فَاسْتَبْشِرُوا} فِيهِ الْتِفَات عَنْ الْغَيْبَة {بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ} الْبَيْع {هُوَ الْفَوْز الْعَظِيم} الْمُنِيل غَايَة الْمَطْلُوب[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: "أشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم"، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟ قال: "الجنة"، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل؛ فنزلت: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٢٧): ثنا الحارث بن أبي أسامة ثنا عبد العزيز ثنا أبو معشر عنه به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل: الأولى: عبد العزيز هذا؛ متروك، وكذبه ابن معين وغيره؛ كما في "التقريب". والثانية: أبو معشر: نجيح السندي؛ ضعيف أسن واختلط.

والثالثة: الإرسال.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ} الآية، فكبر الناس في المسجد، فأقبل رجل من الأنصار ثانيًا طرفي ردائه على عاتقه، فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ قال: "نعم"، فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٨٦)، وابن مردويه، من طريق أبي شيبة عن عطاء الخراساني عن جابر (فذكره). وهذا إسناد ضعيف؛ عطاء الخراساني؛ صدوق يهم كثيرًا ويرسل ويدلس، ولم يصح سماعه من أحد من
=

=

الصحابة.

* قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة: ١١١]، أي:" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم في مقابل ذلك الجنة، وما أعد الله فيها من النعيم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله ابتاعَ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة".

قال ابن عاشور: والمراد بالمؤمنين في الأظهر أن يكون مؤمني هذه الأمة.

وهو المناسب لقوله بعد (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به).

ويكون معنى قوله (وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل) ما جاء في التوراة والإنجيل من وصف أصحاب الرسول الذي يختم الرسالة.

وهو ما أشار إليه قوله تعالى (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم إلى قوله ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل إلى قوله (ليغيظ بهم الكفار).

ويجوز أن يكون جميع المؤمنين بالرسل عليهم الصلاة والسلام وهو أنسب لقوله (في التوراة والإنجيل)، وحينئذ فالمراد الذين أمروا منهم بالجهاد ومن أمروا بالصبر على اتباع الدين من أتباع دين المسيحية على وجهها الحق فإنهم صبروا على القتل والتعذيب.

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له".

قال السعدي:" يخبر تعالى خبرا صدقا، ويعد وعدا حقا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه {اشترى} بنفسه الكريمة {من المؤمنين أنفسهم وأموالهم} فهي المثمن والسلعة المبيعة، {بأن لهم الجنة} التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ

=

=

الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات. وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه".

قال أبو الليث السمرقندي:" معناه: إنه طلب من المؤمنين أن يفدوا أنفسهم وأموالهم، ويخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، ليثيبهم الجنة. وذكر الشراء على وجه المثل، لأن الأموال والأنفس كلها لله تعالى، وهي عند أهلها عارية، ولكنه أراد به التحريض والترغيب في الجهاد. وهذا كقوله: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا} [البقرة: ٢٤٥]".

قال الماتريدي:" يحتمل قوله: {اشترى}، أي: استام؛ لأن قوله: {اشترى} خبر، ولكن يحتمل الاستيام، أي: استام أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم لله؛ ليجعل لهم الجنة، ثم بين فقال: {يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون}".

عن الحسن في قوله: " {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}، قال: هم الذين وفوا ببيعتهم".

عن مبارك بن فضالة قال: "سمعت الحسن يقول: اسمعوا رحمكم الله بيعة بايع الله لكل مؤمن، قال الحسن: لا والله ما على ظهر الأرض مؤمن إلا قد دخل في هذه البيعة {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}، الآية".

عن سهيل عن كثيرعن الحسن:" أنه كان إذا تلا هذه الآية: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}، قال: بايعهم والله فأغلى لهم".

عن قتادة قوله: " {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم}، الآية. قال: الغزو غزوان: فغزو يطاع الله فيه وينهى فيه عن الفساد، ويحسن فيه مشاركة الشريك فهذا من خير الغزو، وغزو آخر يعصى الله فيه، ويظهر فيه الفساد، وينكل فيه عن العدو ويساء فيه صحابة الصاحب، فهذا من شر الغزو".

=

=

قال التستري:" يعني: اشتراها من شهوات الدنيا وما يوجب الاشتغال عن ذكره، حتى تكون نفسه وماله خالصة له، فمن لم يبع من الله حياته الفانية وشهواته الزائلة، كيف يعيش مع الله تعالى؟ وكيف يحيا حياة طيبة؟ ثم قال: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بما لا خير فيه، وعوضهم ما فيه الخير كله، مع أن ما في الكونين فهو ملكه، وهذا من غاية لطفه وكرمه بعباده المؤمنين. وقد حكي عن مالك بن دينار أنه مر بقصر يعمر، فسأل الأجراء عن أجرتهم، فأجابه كل واحد منهم بما كانت أجرته، ولم يجبه واحد، فقال: ما أجرتك؟ فقال: لا أجر لي. فقال: ولم ذلك؟ قال: لأني عبد صاحب القصر. فقال مالك: إلهي ما أسخاك، الخلق كلهم عبيدك، كلفتهم العمل ووعدتهم الأجر".

قوله تعالى: {يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [التوبة: ١١١]، أي:" إنهم يقاتلون فى سبيل الحق والعدل التي توصل إلى مرضاة الله تعالى ببذل أنفسهم وأموالهم فيكونون إما قاتلين لأعدائه الصادين عن سبيله، وإما مقتولين شهداء فى هذه السبيل".

قال الماتريدي:" أي: يقتلون العدو، ويقتلهم العدو".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: [يقاتلون] في طاعة الله تعالى مع العدو، يقتلون العدو ويقتلهم العدو".

قال السعدي:" يخبر تعالى خبرا صدقا، ويعد وعدا حقا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه {اشترى} بنفسه الكريمة {من المؤمنين أنفسهم وأموالهم} فهي المثمن والسلعة المبيعة، {بأن لهم الجنة} التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات. وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه".

=

=

قال المراغي:" ولا فرق بين القاتل والمقتول فى الفضل والمثوبة عند الله، فكل منهما كان فى سبيله ولم يكن رغبة فى سفك الدماء، ولا حبا للأموال ولا توسلا إلى ظلم العباد كما يفعل الذين يقاتلون لأغراض الدنيا من الملوك والأمراء".

عن سعيد بن جبير في قول الله:" {يقاتلون}، يعني: أن يقاتلوا المشركين، في سبيل الله يعني: في طاعة الله، {فيقتلون}، يعني: العدو {ويقتلون} يعني: المؤمنين".

قرأ حمزة والكسائي «فيقتلون» بالرفع، «ويقتلون» بالنصب، على معنى التقديم والتأخير، وقرأ الباقون «يقتلون» بالنصب «ويقتلون»، بالرفع.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية) متفق عليه.

وعبد الله بن أبى أوفى. قال: قال رسول الله ﷺ (يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) متفق عليه.

والمعنى:... والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله، ومشي المجاهدين في سبيل الله، فاحضروا فيه بصدق واثبتوا.

وقال ﷺ (إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف) قال العلماء: معناه: إن الجهاد وحضور معركة القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها.

قال القرطبي: قوله (... الجنة تحت ظلال السيوف) هذا الكلام من النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة مع جزالة اللفظ وعذوبته وحسن استعارته، وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ المقبولة الوجيزة بحيث يعجز الفصحاء اللسن البلغاء عن إيراد مثله، وأن يأتوا بنظيره وشكله، فإنه استفيد منه مع وجازته الحض على الجهاد والإخبار بالثواب عليه.

=

=

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم) رواه الترمذي.

قوله تعالى: {وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} [التوبة: ١١١]، أي:" وعدًا عليه حقًا كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين".

قال السعدي: "التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق".

قال الطبري:" يقول: وعدهم الجنة جل ثناؤه، وعدًا عليه حقًّا أن يوفِّي لهم به، في كتبه المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وَفَوا بما عاهدوا الله، فقاتلوا في سبيله ونصرةِ دينه أعداءَه، فقَتَلوا وقُتِلوا".

قال أبو الليث:" يعني: واجبا لهم ذلك، بأن يفي لهم ما وعد، وبين لهم ذلك في التوراة والإنجيل والقرآن.

قال المراغي:" أي: وعدهم وعدا أوجبه على نفسه وجعله حقا وأثبته فى التوراة والإنجيل، وضياعه منهما فى النسخ التي بين يدى أهل الكتاب لا يضير فى ذلك لأنه قد ضاع منهما كثير وحرف بعضهما لفظا ومعنى، ويكفى إثبات القرآن لذلك وهو المهيمن عليهما".

عن سعيد بن جبير في قوله: " {وعدا عليه حقا}، يعني: ينجز ما وعدهم من الجنة في التوراة والإنجيل والقرآن".

عن مبارك، قال: "سمعت الحسن، يقول في قوله: {وعدا عليه حقا}، قال الحسن: أين؟ قال: رفي التوراة والإنجيل والقرآن}".

قوله تعالى: {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} [التوبة: ١١١]، أي:" ولا أحد أوفى بعهده

=

=

من الله لمن وفَّى بما عاهد الله عليه".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: ومن أحسن وفاءً بما ضمن وشرط من الله".

قال المراغي:" أي: لا أحد أوفى بعهده وأصدق فى إنجاز وعده من الله، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إمضاءه من شأنه".

قال السمعاني:" معناه: أن ثواب الجنة وعد حق".

عن سعيد بن جبير قوله: " {ومن أوفى بعهده من الله}، فليس أحد أوفى بعهده من الله".

قوله تعالى: {فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ} [التوبة: ١١١]، أي:" فأظهروا السرور-أيها المؤمنون- ببيعكم الذي بايعتم الله به، وبما وعدكم به من الجنة والرضوان".

قال الطبري:" يقول ذلك للمؤمنين: فاستبشروا، أيها المؤمنون، الذين صَدَقوا الله فيما عاهدوا، ببيعكم أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم به".

قال ابن كثير:" أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم".

قال المراغي:" أي: فإذا كان الأمر على هذه الحال فأظهروا السرور على ما فزتم به من الجنة".

عن سعيد بن جبير:" {فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به} الرب تبارك وتعالى بإقراركم بالعهد الذي ذكره في الآية".

قوله تعالى: {وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]، أي:" وذلك البيع هو الفلاح العظيم".

قال المراغي:" أي: وذلك الفوز الذي لا فوز أعظم منه، وما يتقدمه من النصر

=

=

والسيادة والملك لا يعد فوزا إلا بكونه وسيلة لإقامة الحق والعدل".

فهو الفوز الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

قال بعض العلماء:: فيه تحريض على القتال، وإعلام لهم بأنهم رابحون في هذه الصفقة.

والاستبشار: الشعور بفرح البشرى، شعورا تنبسط له أسارير الوجه.

أي: إذا كان الأمر كذلك فافرحوا ببيعكم الذي بايعتم به غاية الفرح، وارضوا به نهاية الرضى، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه.

قال بعض العلماء: ولا ترى ترغيبا في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية لأنه أبرزه في صورة عقد عقده رب العزة، وثمنه مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضا لإعلاء كلمته، ونصر دينه، وجعله مسجلا في الكتب السماوية، وناهيك به من صك. وجعل وعده حقا، ولا أحد أوفى من وعده فنسيئته أقوى من نقد غيره، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم.

عن سعيد في قوله ﷻ: " {وذلك}، يعني: الذي ذكر من الثواب في الجنة للقاتل والمقتول هو الفوز العظيم".

قال السعدي:" لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم

=

التَّـائِبُونَ الْعَابِـدُونَ الْحَامِـدُونَ الـسَّائِحُونَ الرَّاكِعُـونَ الـسَّاجِدُونَ الْآمِـرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢).

{التَّائِبُونَ} رُفِعَ عَلَى الْمَدْح بِتَقْدِيرِ مُبْتَدَأ مِنْ الشِّرْك وَالنِّفَاق {الْعَابِدُونَ} الْمُخْلِصُونَ الْعِبَادَة لِلَّهِ {الْحَامِدُونَ} لَهُ عَلَى كُلّ حَال {السَّائِحُونَ} الصَّائِمُونَ {الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ} أَيْ الْمُصَلُّونَ {الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنْكَر وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ الله} لِأَحْكَامِهِ بِالْعَمَلِ بِهَا {وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ} بِالْجَنَّةِ[1].

=

المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق".

عن المعرور بن سويد قال: "خرجنا مع عمر في حجة حجها فقرأ هذه الآية: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}، إلى آخر الآية فجعل لهم الصفقتين جميعا".

وعن الضحاك بن مزاحم، "وسأله رجل عن قوله: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم}، الآية، قال الرجل: ألا أحمل على المشركين فأقاتل حتى أقتل؟ قال: ويلك! أين الشرط؟ {التائبون العابدون}".

(١) قوله تعالى: {التَّـائِبُونَ الْعَابِـدُونَ الْحَامِـدُونَ الـسَّائِحُونَ الرَّاكِعُـونَ الـسَّاجِدُونَ

=

=

الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)} [التوبة: ١١٢]

ومن صفات هؤلاء المؤمنين الذين لهم البشارة بدخول الجنة أنهم التائبون الراجعون عما كرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه، الذين أخلصوا العبادة لله وحده وجدوا في طاعته، الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير أو شر، الصائمون، الراكعون في صلاتهم، الساجدون فيها، الذين يأمرون الناس بكل ما أمر الله ورسوله به، وينهونهم عن كل ما نهى الله عنه ورسوله، المؤدون فرائض الله المنتهون إلى أمره ونهيه، القائمون على طاعته، الواقفون عند حدوده. وبشِّر -أيها النبي- هؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الصفات برضوان الله وجنته.

قال أبو حيان: "وهذه أوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إلى التحلي بها عباده، وليكونوا على أوفى درجات الكمال، وآية أن الله اشترى مستقلة بنفسها، لم يشترط فيها شيء سوى الإيمان، فيندرج فيها كل مؤمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وإن لم تكن فيه هذه الصفات".

قوله تعالى: {التَّائِبُونَ} [التوبة: ١١٢]، أي:" ومن صفات هؤلاء المؤمنين الذين لهم البشارة بدخول الجنة أنهم التائبون الراجعون عما كرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه".

قال الزجاج:" التائبون الذين تابوا من الكفر".

قال ابن كثير:" هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: {التَّائِبُونَ}، من الذنوب كلها، التاركون للفواحش".

قال الماوردي:" يعني من الذنوب، ويحتمل أن يراد بهم الراجعون إلى الله تعالى في فعل ما أمر واجتناب ما حظر لأنها صفة مبالغة في المدح، والتائب هو الراجع،

=

=

والراجع إلى الطاعة أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين".
عن الحسن:" {التائبون}، قال: تابوا من الشرك وبروءا من النفاق".
عن الضحاك في قوله: " {التائبون}، قال: من الذنوب والشرك".
قال الزجاج:" وقوله: (التائبون...}، يصلح أن يكون رفعه على وجوه:
أحدها: المدح، كأنه قال: هؤلاء التائبون، أو هم التائبون.
[والثاني]:ويجوز أن يكون على البدل، المعنى: يقاتل التائبون، وهذا مذهب أهل اللغة.
[والثالث]: قال. أبو إسحاق: والذي عندي والله أعلم أن قوله: التائبون العابدون رفع بالابتداء، وخبره مضمر، المعنى: التائبون العابدون إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا، أي: من لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد، لأن بعض المسلمين يجزى عن بعض في الجهاد. فمن كانت هذه صفته فله الجنة أيضا".
قال التستري:" ليس شيء في الدنيا من الحقوق أوجب على الخلق من التوبة، فهي واجبة في كل لمحة ولحظة، ولا عقوبة عليهم أشد من فقد علم التوبة. فقيل: ما التوبة؟ فقال: أن لا تنسى ذنبك، وقال: أول ما يؤمر به المبتدئ التحويل من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة، وهي التوبة ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت، ولا يصح له الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة، ولا تصح له الخلوة إلا بأكل الحلال، ولا يصح له أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى، ولا يصح له أداء الحق إلا بحفظ الجوارح والقلب، ولا يصح له ما وصفنا حتى يستعين بالله ﷻ على جميعه. فقيل: ما علامة صدق التوبة؟ قال علامتها أن يدع ما له سوى ما ليس له. وسئل سهل عن الرجل يتوب ويقلع عن ذلك الذنب، ثم يخطر ذلك بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة ذلك الذنب السيئ كيف الحيلة فيه؟ فقال: وجدان الحلاوة من الطبع لا يتحول، فيصير المحبوب مكروها ولكن

=

=

يقهر عزم القلب فيرجع في ذلك إلى الله ﷻ، ويرفع إليه شكواه، ويلزم نفسه وقلبه الإنكار ولا يفارقه، فإنه إن غفل عن الإنكار طرفة عين تخوفت عليه أن لا يسلم منه. قال: دعوا القال والقيل كله في هذا الزمان، عليكم بثلاث: توبوا إلى الله ﷻ مما تعرفوه بينكم وبينه، وأدوا مظالم العباد التي قبلكم، فإذا أصبحتم فلا تحدثوا أنفسكم بالمساء، وإذا أمسيتم فلا تحدثوا أنفسكم بالصباح، لأن الأحداث قد كثرت، والخطر عظيم، فاتقوا الله، وألزموا أنفسكم التوبة".

(مسألة): يظن بعض الناس أن التوبة لا تكون إلا من العصاة ومرتكبي الذنوب والخطايا، وهذا ظن في غير محله؛ فإن التوبة تكون - أيضًا - ممن ترك الحسنات ولم يستزد من الطاعات، وقد نص بعض أهل العلم على أن العبد إذا ترك فعل المستحبات رغبة عنها فقد باشر أمرًا مكروهًا.

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عمن لا يواظب على السنن الرواتب، فأجاب: «من أصر على تركها، دل ذلك على قلة دينه، وردت شهادته في مذهب أحمد والشافعي، وغيرهما» مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٢٧).

وصدق رحمه الله فيما قال؛ فإنك تجد من يقل من فعل السنن أقرب ما يكون إلى مواقعة المحرمات؛ بخلاف من حافظ على السنن والطاعات المستحبات فإنها تكون حاجزًا بينه وبين مواقعة المحرمات، فينبغي على المسلم أن يتوب من ترك الحسنات أو التقصير فيها أو التغلغل عنها ويُقبل على الحسنات ويكثر منها كلما تيسرت له ووجد أسبابها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة التوبة (ص٢٤): «وليست التوبة من فعل السيئات فقط، كما يظن كثيرٌ من الجُهَّال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم؛ بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها؛ فأكثر الخلق يتركون كثيرًا مما أمرهم الله به

=

=

من أقوال القلوب وأعمالها، وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أُمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع، وإما مغضوبًا عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته. ا.هـ

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يدعوه في كل صلاة بقوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٦ - ٧]».اهـ

بل إن الأمر أبعد من ذلك وهي منزلة لا يبلغها إلا الخلص من المؤمنين، وهي توبة المرء من تقصيره في الحسنات بعد أن يعملها وخوفه أن لا يكون قد أتى بها على الوجه المطلوب، ولذا صح عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنها لما قرأت قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [المؤمنون: ٦٠]، قالت: أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ فقال ﷺ: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه».

«وهذا منهم من باب الإشفاق والاحتياط؛ أنهم خائفون وجلون ألا يتقبل منهم؛ لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط الإعطاء».

ولذا قال الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة».

* حكم توبة العاجز عن المعصية.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٤٦): ومما يبنى على هذا مسألة معروفة - بين أهل السنة وأكثر العلماء وبين بعض القدرية - وهي " توبة العاجز عن الفعل " كتوبة المجبوب عن الزنا وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة ونحوه من العجز؛ فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم وخالف في ذلك بعض القدرية؛ بناء على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل؛ بل يعاقب على تركه وليس كذلك؛ بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب

=

=

كما بينا، وبينا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه كالتائب القادر عليها سواء فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل كإصرار العاجز عن كمال الفعل ا.هـ

قوله تعالى: {الْعَابِدُونَ} [التوبة: ١١٢]، أي:" الذين أخلصوا العبادة لله وحده وجدوا في طاعته فهم المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين".

قال الزجاج:" الذين عبدوا الله وحده".

قال الطبري:" هم الذين ذلُّوا خشيةً لله وتواضعًا له، فجدُّوا في خدمته".

قال ابن كثير:" أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخَصّ الأقوال الحمد".

وفي قوله تعالى: {الْعَابِدُونَ} [التوبة: ١١٢]، وجوه:

أحدها: العابدون بتوحيد الله تعالى، قاله سعيد بن جبير.

والثاني: العابدون بطول الصلاة، قاله الحسن.

والثالث: هم الذين يقيمون الصلاة. قاله ابن عباس.

والرابع: الذين عبدوا الله على أحايينهم كلها، في السراء والضراء. قاله الحسن أيضا.

وروي عن الحسن: " {العابدون}، قال: العابدون لربهم".

والخامس: العابدون لله ﷻ، قاله الضحاك.

والسادس: العابدون: قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم. قاله قتادة.

- يكون العبد محققا للعبودية بأمرين:

الأول: متابعة الرسول ﷺ.

=

=

الثاني: الإخلاص لله تبارك وتعالى.

- كلما كان العبد أذل لله وأعظم افتقارا إليه وخضوعا له: كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله.

- قال ابن تيمية: أعظم ما يكون العبد قدرا وحرمة عند الخلق: إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه. كما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به شيئا.

والرسول ﷺ قال (إنما أنا عبد)، وقد وصفه الله في وصف العبودية في أعلى المنازل:

فقال تعالى في الإسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا م...).

وقال تعالى في مقام التحدي (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله).

وقال تعالى في مقام الدعوة (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا).

وكان ﷺ أعبد الناس لربه وأخشاهم له.

ووصف الله بذلك أكمل خلقه وأحبهم إليه وهم رسله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب).

وقال تعالى (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب).

وقال تعالى عن المسيح (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه).

وقال عنه وعن الملائكة (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون).

=

=

وقال أيضا عن الملائكة (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون).

والعبادة هي الغاية المحبوبة لله تعالى والمرضية له التي خلق الخلق لها، كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، وبها أرسل جميع الرسل كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

قوله تعالى: {الْحَامِدُونَ} [التوبة: ١١٢]، أي:" الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير أو شر".

قال الطبري:" إنهم الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير وشر".

قال ابن كثير:" أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال".

وفي قوله تعالى: {الْحَامِدُونَ} [التوبة: ١١٢]، وجهان:

أحدهما: الحامدون لله تعالى على أحايينهم كلها، في السرّاء والضرّاء. قاله الحسن، وقتادة.

عن الحسن: "أنه سئل عن هذه الآية: {الحامدون}، قال: مثلها، يعني: يحمدون على أحايينهم كلها في السراء والضراء".

والثاني: الحامدون لله تعالى على دين الإسلام، قاله الحسن.

قوله تعالى: {السَّائِحُونَ} [التوبة: ١١٢]، أي:" السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم".

قال ابن كثير:" ومن أفضل الأعمال الصيامُ، وهو ترك الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: {السَّائِحُونَ} كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: {سَائِحَاتٍ} [التحريم: ٥] أي: صائمات".

وفي قوله تعالى: {السَّائِحُونَ} [التوبة: ١١٢]، أقوال:

=

=
أحدها: المجاهدون. وهو ما روى أبو داود وابن ابي حاتم من حديث أبي أمامة:" أن رجلا قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة. فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»".

وقال ابن مبارك عن عُمارة بن غَزِيَّة: "أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله، والتكبير على كل شرف»".

والثاني: الصائمون، وهو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عباس، والحسن، وأبي عبد الرحمن السلمي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبي الحسن، وأبي عياض (، وعطاء ،

والضحاك، وقتادة، ووهب بن منبه، والربيع بن أنس، وأبي عمرو العبدي، وابن قتيبة، والزجاج.

قال ابن كثير:" فهذه أصح الأقوال وأشهرها".

وقال ابن سلام البغدادي:" {السائحون}، الصائمون بلغة هذيل".

قال الزجاج:" وقوله: {السائحون} في قول أهل اللغة والتفسير جميعا: الصائمون، ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض، وقد قيل: إنهم الذين يديمون الصيام، وقول الحسن في هذا أبين".

عن أبي هريرة قال: "قال لي رسول الله ﷺ: {السائحون}، هم الصائمون".

أخرجه الطبري (١٢/ ١١)، والعقيلي في الضعفاء (١/ ٣١٧)، وابن عدى في الكامل (٢/ ٢٢٠ ترجمة ٤٠٤ حكيم بن خذام الأزدى)، والدارقطنى فى العلل (٨/ ٢٠٦، رقم ١٥١٦)، والحاكم (٢/ ٣٦٥، رقم ٣٢٨٨)، والديلمى (٢/ ٣٤٨، رقم ٣٥٧٥) والحديث ضعفه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢٠) ورجح فيه الوقف، وكذا العلامة الألباني في الضعيفة (٣٧٢٩).

وروي عن ابن أبي الهذيل قال: "سمعت من سأل أبا عمرو العبدي عن
=

=

«السائحين»: قال: الذين يديمون الصيام من المؤمنين والرهبان".
وروي عن أبي عمرو العبدي قال: " {السائحون}: الصائمون الذين يديمون الصيام".
قال ابن قتيبة:" وأصل السائح: الذاهب في الأرض. ومنه يقال: ماء سائح وسيح: إذا جرى وذهب. والسائح في الأرض ممتنع من الشهوات. فشبه الصائم به. لإمساكه في صومه عن المطعم والمشرب والنكاح".
الثالث: أن السياحة: قيام الليل وصيام النهار. روي عن إسحاق بن سويد عن أبي فاختة مولى جعدة بن هبيرة "أن عثمان بن مظعون أراد أن ينظر أيستطيع السياحة؟ قال: وكانوا يعدون السياحة قيام الليل وصيام النهار، قال إسحاق: فصادفت يحيى بن عمر بن خراساني فإذا هو يحدث القوم هذا الحديث لم يدع منه حرفا".
والرابع: المهاجرون، قاله عبد الرحمن بن زيد.
قال ابن زيد:" هم المهاجرون، ليس في أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة وكان سياحتهم الهجرة حين هاجروا إلى المدينة، ليس في أمة محمد ﷺ وترهب".
والخامس: هم طلبة العِلم، قاله عكرمة.
قال ابن كثير:" وليس المراد من «السياحة» ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتَن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: "يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَم يَتْبَع بها شَعفَ الجبال، ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن» ".
قال الرازي: قال عامة المفسرين هم الصائمون.
- وقال الشوكاني: قيل: هم الصائمون، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ومنه قوله تعالى (عابدات سائحات) وإنما قيل للصائم سائح؛ لأنه يترك اللذات، كما يتركها
=

=

السائح في الأرض.

- وفسرت السياحة، الرحلة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام.

- والسياحة في اللغة أصلها: الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء.

قوله تعالى: {الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ} [التوبة: ١١٢]، أي:" الراكعون في صلاتهم، الساجدون فيها".

قال الزجاج:" الذين أدوا ما افترض الله عليهم في الركوع والسجود".

قال الطبري:" يعني: المصلين، الراكعين في صلاتهم، الساجدين فيها".

عن سعيد بن جبير: " {الراكعون}، يعني: في الصلوات".

أخرج الطبري عن الحسن: " {الراكعون الساجدون}، قال: الصلاة المفروضة".

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن:" {الساجدون}، في الصلوات المفروضة".

عن قتادة:" {الساجدون}، قال: ذكر لنا أن أقرب ما يكون العبد إلى الله في سجوده".

قوله تعالى: {الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة: ١١٢]، أي:" الذين يأمرون الناس بكل ما أمر الله ورسوله به، وينهونهم عن كل ما نهى الله عنه ورسوله".

قال الطبري:" يعني أنهم يأمرون الناس بالحق في أديانهم، واتباع الرشد والهدى، والعمل وينهونهم عن المنكر، وذلك نهيهم الناسَ عن كل فعل وقول نهى الله عباده عنه".

قال ابن كثير:" وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركُه".

عن الحسن في قوله: " {الآمرون بالمعروف}، قال: أمَا إنهم لم يأمروا الناس حتى

=

=

كانوا من أهلها {والناهون عن المنكر}، قال: أمَا إنهم لم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه".

عن أبي العالية، قال: كل ما ذكر في القرآن " الأمر بالمعروف"، و " النهي عن المنكر"، فالأمر بالمعروف، دعاءٌ من الشرك إلى الإسلام والنهي عن المنكر، نهيٌ عن عبادة الأوثان والشياطين".

وفي قوله تعالى: {الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} [التوبة: ١١٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله». قاله الحسن، وسعيد بن جبير.

الثاني: بالإسلام.

قال الزجاج:" الآمرون بالإيمان بالله".

والثالث: الآمرون بجميع المعروف. قاله الزجاج أيضا.

وروي عن الحسن، "أنه سئل عن هذه الآية: {الآمرون بالمعروف}، قال: لم يأمروا بالمعروف حتى كانوا من أهله".

وفي قوله تعالى: {وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة: ١١٢]، ثلاثة وجوه:

أحدهما: عن الشرك، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، والزجاج.

الثاني: أنهم الذين لم ينهوا عنه حتى انتهوا قبل ذلك عنه، قاله الحسن.

والثالث: معناه: الناهون عن جميع المنكر. قاله الزجاج.

وروي عن الحسين: "أنه سئل عن هذه الآية والناهون عن المنكر قال: لم ينهوا الناس عن المنكر حتى انتهوا عنه".

قوله تعالى: {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ} [التوبة: ١١٢]، أي:" المحافظون على فرائض الله، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام".

قال ابن كثير:" وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علما وعملا".

وفي قوله تعالى: {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ} [التوبة: ١١٢]، ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: القائمون على طاعة الله. قاله ابن عباس.

وروي عن الحسن:" {والحافظون لحدود الله}، قال: القائمون على أمر الله".

وقال الزجاج:"القائمون بأمر الله تعالى".

والثاني: الحافظون لفرائض الله تعالى من حلاله وحرامه، قاله قتادة.

وروي عن الحسن:" {والحافظون لحدود الله}، قال: لفرائض الله".

والثالث: الحافظون لشرط الله في الجهاد، قاله مقاتل بن حيان.

قال مقاتل بن حيان:" يعني: الحافظين لشرط الله في الجهاد، فمن وفى بهذا الشرط، وفى الله له بالجنة".

وروي عن ابن عباس:" {والحافظون لحدود الله}، يعني: القائمين على طاعة الله. وهو شرطٌ اشترطه على أهل الجهاد، إذا وَفَوا الله بشرطه، وفى لهم بشرطهم".

قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١١٢]، أي:" وبشِّر -أيها النبي- هؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الصفات برضوان الله وجنته".

قال الطبري:"يعني: وبشّر المصدِّقين بما وعدهم الله إذا هم وفَّوا الله بعهده، أنه مُوفٍّ لهم بما وعدهم من إدخالهم الجنة".

قال ابن كثير:" قال: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}، لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به".

وفي قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١١٢]، وجوه:

أحدها: يعني المصدقين بما وعد الله تعالى في هذه الآيات. قاله سعيد بن جبير.

والثاني: يعني: القائمين على طاعة الله. قاله ابن عباس.

والثالث: يعني: وبشر الذين لم يهز من الفقراء. وهذا مروي عن الحسن أيضا.

والرابع: يعني: وبشر العاملين بما ندب الله إليه في هذه الآيات، ذكره الماوردي وقال: وهذا أشبه بقول الحسن".

=

=

قال الطبري:" وقال بعضهم: معنى ذلك: وبشر من فعل هذه الأفعال يعني قوله: {التائبون العابدون}، إلى آخر الآية وإن لم يغزوا... عن الحسن: «{وبشر المؤمنين}، قال: الذين لم يغزوا» ".

وفي هذا السياق روي عن الحسن: " {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم}، حتى ختم الآية، قال الذين وفوا ببيعتهم {التائبون العابدون الحامدون}، حتى ختم الآية، فقال: هذا عملهم وسيرهم في الرخاء، ثم لقوا العدوّ فصدَقوا ما عاهدوا الله عليه".

وفيه أيضا وروي عن الحسن:" {وبشر المؤمنين}: الذين أيضا لا يجاهدون".

(لطيفة) قال الصفدي في أعيان العصر وأعوان النصر (٤/ ٦٤٠): ونقلت من كلامه -أي ابن الزملكاني- تعليقًا على قوله تعالى: " التائبون العابدون " الآية: فإن قيل: كيف ترك العطف في جميع الصفات وعطف " النهي عن المنكر " على " الأمر بالمعروف " بالواو؟ قلت: للمفسرين والعلماء في الجواب عن هذا السؤال أقول، فمنها قولهم لأنها الصفة الثامنة، فهي واو الثمانية، وهذا في غاية السخافة، منها أن هذا من التفنن في الكلام، وهو جواب إقناعي، ومنها أن المراد التنبيه على أن الموصوفين بالصفات المتقدمة هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهذا بعيد في الإعراب ومقصود الكلام، ومنها أن هاتين الصفتين متعلقتان بالغير فاحتاجت إلى مزية، وهو كالأجوبة التي قبله.

قال: وعندي في هذا وجه حسن، وهو أن الصفات تارة تنسق بحرف العطف وتارة تذكر بغيره، لكل مقام معنى يناسبه، فإذا كان المقام مقام تعداد صفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد حسن إسقاط حرف العطف، فإن أريد الجمع بين الصفتين أو التنبيه على تغايرهما عطف بالحرف أيضًا، وفي القرآن أمثلة تبين ذلك، قال الله تعالى: " عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن " الآية، فأتى بالواو بين

=

=

الوصفين لأن المقصود بالصفات الأول ذكرها مجتمعة، والواو قد توهم التنويع، فحذف، وأما الأبكار فلا يكن ثيبات والثيبات لا يكن أبكارا، فأتي بالواو لتضاد النوعين، وقال تعالى: " حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول"، فأتى بالواو في الوصفين الأولين، وحذفهما في الوصفين الآخرين، لأن غفران الذنب قبل التوبة، وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الواحد لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب، فبين الله تعالى بعطف أحدهما على الآخر أنهما مفهومان متغايران ووصفان مختلفان يجب أن يعطى كل واحد حكمه، وذلك مع العطف أبين وأرجح وأوضح، وأما شديد العقاب، وذو الطول فهما كالمتضادين، فإن شدة العقاب تقتضي اتصال الضرر، والاتصاف بالطول يقتضي اتصال النفع، فحذف ليعرف أنهما مجتمعان في ذاته المقدسة موصوفًا بهما على الاجتماع. فهو في حال اتصافه بشديد العقاب ذو الطول، فحسن ترك العطف لهذا المعنى. وفي هذه الآية التي نحن فيها يتضح معنى العطف وتركه مما ذكرناه، لأن كل صفة مما لم ينسق بالواو مغايرة للأخرى، والغرض أنهما في اجتماعهما كالوصف الواحد لموصوف واحد، فلم يحتج إلى عطف، فلما ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما متلازمان أو كالمتلازمين مستمدان من مادة واحدة كغفران الذنب وقبول التوب، حسن العطف ليبين أن كل واحد معتد به على حدة، فإنه بذاته لا يكفي منه ما يحصل في ضمن الآخر، بل لا بد من أن يظهر أمره بالمعروف بصريح الأمر، ونهيه عن المنكر بصريح النهي، فاحتاج إلى العطف، وأيضًا فلما كان الأمر والنهي ضدين أحدهما طلب الاتحاد والآخر طلب الإعدام كالنوعين المتغايرين في قوله تعالى: " ثيبات وأبكارًا " فحسن العطف بالواو، فهذا ما ظهر من الجواب. والله أعلم.

قلت -أي الصفدي-: وكنت أنا في زمن الصبا والإشغال قد جمعت في هذه الواو

=

=
كراسة وفيها فوائد.
(فائدة): قوله تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)} التوبة: ١١٢، في هذه الآية رد على طائفتين، ضلتا في هذا الباب، وبيان ذلك فيما يلي:
أولًا: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.
ردت هذه الآية الكريمة على أهل التفريط من المرجئة، وأهل الفجور الذين يرون ترك العبادات الظاهرة، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ظنًّا منهم أنَّ ذلك من باب ترك الفتنة، ومعلومٌ ما في هذا المذهب من الفتنة والفساد، فجاء الأمر بذلك عند قوله - ﷻ -: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ}.
وقد نبه شيخ الإسلام - رحمه الله - على أن كثيرًا من المرجئة لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة كما يجب، أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه، وما عرفوه منه قد لا يبينونه للناس بل يكتمونه، ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة، ولا يذمون أهل البدع ويعاقبونهم، بل لعلهم يذمون الكلام في السنة وأصول الدين ذمًّا مطلقا، لا يفرقون بين ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، وما يقوله أهل البدع والفرقة، أو يقرِّون الجميع على مذاهبهم المختلفة، وهذه طريقة منحرفة، خارجة عن الكتاب والسنة.
وخلاصة الأمر أن المرجئة قصروا في النهي عن المنكر، وفي الأمر بكثير من المعروف (٢).
ثانيًا: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.
الغُلاة وهم طرف الخوارج: الذين يرون أن قتال أئمة الجور ومن والاهم من باب
=

=

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم فعلوا الظلم أو ما ظنوه ظلمًا، وهذا عندهم كفرٌ مُخرج من الملة، وقصدوا بذلك طاعة الله ورسوله ﷺ فغلطوا.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الحكام، وولاة الأمور، من المسائل الهامة، والتي إذا أساء الناس فهمها، ترتب على ذلك فتن عظيمة، ومفاسد كبيرة في البلاد والعباد، من أجل هذا ردت هذه الآية على أصحاب الغلو، عند قوله تعالى: {الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ}؛ لأن من الحفظ لحدود الله ألا يزال المنكر بما هو أنكر منه، ولهذا حُرم الخروج على ولاة الأمور بالسيف، لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذنوب (٢)؛ لأن ذلك يؤول إلى الفتن التي تؤدي إلى سفك دماء المسلمين وهذا أعظم من فعل المنكر الذي قصد إزالته، والقرآن الكريم والسنة الصحيحة، هما المورد العذب لمعرفة الطريقة المثلى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ابن مفلح الحنبلي – رحمه الله –: " ولا ينكر أحد على سلطانه إلا وعظًا له، وتخويفًا، أو تحذيرًا من العاقبة في الدنيا والآخرة، فإنه يجب، ويحرم بغير ذلك".

قال أبو قلابة – رحمه الله –:

" ما ابتدع رجل بدعة إلا استحل السيف"، هذا هو أصل الخروج، ثم يأتي بعد ذلك إيجاد الأعذار، إما بأن استحلالهم هذا كان أمرًا بالمعروف أو نهيًا عن المنكر، أو غير ذلك {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)} الأنعام: ٤٣.

ثالثًا: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان هو اعتقادهم: أنه لا يجتمع في العبد إيمان وكفر، ومنشأ الغلط هذا انبنى عليه عند الوعيدية: جعل الإيمان من المخالفين حقيقة مركبة من اعتقاد وقول وعمل، يلزم بزوال البعض زوال جميع هذه الحقيقة؛ إذ لو فُرض وقوع النقص في هذه الحقيقة مع بقائها، وعدم زوالها

=

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣).

وَنَزَلَ فِي اسْتِغْفَاره ﷺ لعمه أبي طالب واستغفار بَعْض الصَّحَابَة لِأَبَوَيْهِ

=

لانبنى على ذلك أن يجتمع في الشخص إيمان وكفر، وتوحيد وشرك، وهذا خلاف الضرورة العقلية بزعمهم، لذلك خرجوا على الحكام بالسيف، خشية أن ينقص إيمانهم بتركهم النهي عن المنكر، بعد أن رأوا أن الحاكم أخل بإيمانه، على الأصل الذي اعتمدوه.

أما المرجئة فقد أراحت نفسها بأن أخرجت العمل من مسمى الإيمان، حتى لا يجتمع في العبد إيمان وكفر، لذلك لم تعتبر الأعمال الظاهرة من الإيمان، ومن هنا فرطت في عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابعا: أثر اجتماع الرد على البدع المتقابلة في موطن واحد.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمراتبه وأحواله وأحكامه اختلف فيه الناس، فالمرجئة أهل طريقة التفريط: أدخالوا الأعمال الظاهرة في الإيمان فعطّلوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخوارج أهل طريقة الغلو: رأوا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معناه الخروج على الحكام وسفك الدماء.

وكلا الفرقتين انحرفتا عن الحق، والصواب المحض مع أهل السنة، فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة لا على ما توجبه أهواؤهم وعقولهم (٢)؛ لأن من قواعد أهل السنة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون واجبًا إذا غلب على الظن الانتفاع، كما قال الله: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩)} الأعلى: ٩.

من أجل هذا كانت هذه الآية الكريمة دالة على منهج أهل السنة والجماعة، رادةً على أهل البدع المتقابلة.

الْمُشْرِكَيْنِ {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أولي قربى} ذوي قرابة {مِنْ بَعْد مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَاب الْجَحِيم} النَّار بِأَنْ مَاتُوا عَلَى الْكُفْر.

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤).

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَار إِبْرَاهِيم لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَة وَعَدَهَا إِيَّاهُ} بِقَوْلِهِ سَأَسْتَغْفِرُ لَك رَبِّي رَجَاء أَنْ يُسْلِم {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوّ لِلَّهِ} بِمَوْتِهِ عَلَى الْكُفْر {تَبَرَّأَ مِنْهُ} وَتَرَكَ الِاسْتِغْفَار لَهُ {إِنَّ إِبْرَاهِيم لَأَوَّاه} كَثِير التَّضَرُّع وَالدُّعَاء {حَلِيم} صَبُور عَلَى الْأَذَى[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن سعيد بن المسيب عن أبيه؛ أنه أخبره: أنه لمّا حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: يا عم! قل: لا إله إلا الله كلمةً أشهد (وفي رواية: أحاجّ) لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: "أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك"؛ فأنزل الله -تعالى- فيه: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)}، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦].

=

=

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣/ ٢٢٢ رقم ١٣٦٠، ٧/ ١٩٣ رقم ٣٨٨٤، ٨/ ٣٤١ رقم ٤٦٧٥، ٨/ ٥٠٦ رقم ٤٧٧٢، ١١/ ٥٦٦ رقم ٦٦٨١)، ومسلم في "صحيحه" (١/ ٥٤ رقم ٢٤) من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه به.

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: سمعت رجلًا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: لا تستغفر لأبويك وهما مشركان، فقال: أليس قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك؟ فذكرته للنبي ﷺ؛ فنزلت: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)} أخرجه الطيالسي (١٣١)، وأحمد (١/ ٩٩، ١٣٠، ١٣١)، والترمذي (٣١٠١)، وأبو يعلى (٣٣٥)، والنسائي (٤/ ٩١)، والطبري في تفسيره (١١/ ٣٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٩٣)، والبزار (٨٩٣، ٨٩٤)، والطحاوي في المشكل (٦/ ٢٧٩)، والحاكم (٢/ ٣٣٥)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٤١)، والضياء في المختارة (٥٨٥) وغيرهم والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وصححه الضياء، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الخليل، وقيل: ابن الخليل - فله رواية في السنن، روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في الثقات.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فلما أنزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله -تعالى-: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ} الآية؛ يعني: استغفر له ما كان حيًا، فلما مات أمسك عن الاستغفار.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٣٣)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (٦/ ٢٨٢ رقم ٢٤٨٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٩٣)، وابن المنذر وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٤/ ٣٠٠) من طرق عن عبد الله بن صالح ثني معاوية بن صالح ثني علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وإسناده ضعيف.

وعن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ خرج يومًا، فخرجنا معه حتى انتهينا إلى المقابر، فأمرنا، فجلسنا، ثم تخَطَّى القبور حتى انتهى إلى قبور منها، فجلس إليه، فناجاه طويلًا، ثم رجع رسول الله ﷺ باكيًا، فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ، ثم أقبل علينا، فتلقاه عمر -رضوان الله عليه- وقال: ما الذي أبكاك يا رسول الله؛ فقد أبكيتنا وأفزعتنا؟ فأخذ بيد عمر، ثم أقبل علينا، فقال: "أفزعكم بكائي"؟ قلنا: نعم، فقال: "إن القبر الذي رأيتموني أُناجي قبر آمنة بنت وهب، وإني سألت ربي الاستغفار لها، فلم يأذن لي؛ فنزل عليّ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} فأخذني ما يأخذ الولد للوالد من الرقة، فذلك الذي أبكاني، ألا وإني كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها؛ فإنها تزهد في الدنيا وترغب في الآخرة".

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٩٣، ١٨٩٤)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (٦/ ٢٨٥، ٢٨٦ رقم ٢٤٨٧)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٣٦)، وابن حبان في "صحيحه" (٣/ ٢٦١ رقم ٩٨١ - إحسان)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٧٨)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (١/ ١٨٩، ١٩٠) كلهم من طريق عبد الله بن وهب، نا ابن جريج عن أيوب بن هانئ عن مسروق الأجدع عن ابن مسعود به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: أيوب بن هانئ ضعيف، لم يرو عنه إلا ابن جريج، وضعفه ابن معين، وقال ابن عدي: "وأيوب بن هانئ لا أعرفه ..."، وقال الدارقطني: "يعتبر به"، ووثقه ابن حبان، وقال أبو حاتم: "صالح"، وفي "التقريب": "صدوق فيه لين".

=

=

الثانية: ابن جريج مدلس وقد عنعن.

قال الدارقطني: "يتجنب تدليسه؛ فإنه وحش التدليس، لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح؛ مثل: إبراهيم بن أبي يحيى وموسى بن عبيدة وغيرهما"؛ كما في "سؤالات الحاكم" (رقم ٢٦٥).

وقال ابن كثير في "البداية والنهاية" (٢/ ٢٦٠): "غريب ولم يخرجوه".

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه"، وتعقبه الذهبي بقوله: "أيوب بن هانئ ضعفه ابن معين".

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: لما مات أبو طالب؛ قال رسول الله ﷺ: "رحمك الله، وغفر لك يا عم، ولا أزال استغفر لك حتى ينهاني الله عز وجل"؛ فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون؛ فأنزل الله -تعالى-: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)}.

أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٣٥) من طريق أبي حمة اليماني ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن جابر به. وهذا إسناد ظاهره الصحة؛ لكن أصحاب سفيان بن عيينة أرسلوه.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال لنا أبو علي الحافظ على إثره: لا أعلم أحد وصل هذا الحديث عن سفيان غير أبي حمة وهو ثقة، وقد أرسله أصحاب ابن عيينة"، وقال الذهبي: "صحيح، أرسله أصحاب ابن عيينة به".

فتبين أن أصحاب ابن عيينة أرسلوه، وأن الذي تفرد برفعه هو أبو حمة اليماني، وفي "اللسان" (٧/ ٣٧): "ربما أخطا وأغرب". ولعل هذا من أخطائه وغرائبه - والله أعلم-.

=

=

فقد أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (١/ ١٢٣، ١٢٤): نا سفيان بن عيينة عن عمرو به مرسلًا، وابن سعد أوثق من أبي حمة.

وعن عمرو بن دينار: أن النبي ﷺ قال: "استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك؛ فلا أزال أستغفر لأبي طالب حتى ينهاني عنه ربي"، فقال أصحابه: لنستغفرن لآبائنا كما استغفر النبي ﷺ لعمه؛ فأنزل الله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} إلى قوله: {تَبَرَّأَ مِنْهُ}.

أخرجه الطبري في "تفسيره" (١١/ ٣١) من طريق أبي حذيفة ثنا شبل عن عمرو به. وهذا إسناد ضعيف؛ لإرساله، وضعف أبي حذيفة.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ...} الآية؛ قال: إن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأبيه، فنهاه الله عن ذلك، قال: "فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه"؛ فنزلت: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ} الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٣١). إسناده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣٠٢): "هذا الأثر ضعيف معلول، فإن عطية ضعيف، وهو مخالف لرواية على بن أبى طلحة عن ابن عباس السابقة، وتلك أصح وعلي ثقة جليل".

وعن علي؛ قال: أخبرت رسول الله ﷺ بموت أبي طالب، فبكى فقال: "اذهب فغسله وكفنه وواره، غفر الله له ورحمه"، ففعلت وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أيامًا ولا يخرج من بيته، حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (١/ ١٢٣) -ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٧٠/ ٢٤٩) -: ثنا محمد بن عمر بن واقد ثني معاوية بن عبد الله

=

=

بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده عن علي. الواقدي شيخ ابن سعد متروك، وفي السند من لم نعرفه.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن يستندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أمه، فناجى ربه طويلًا، ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه، وبكى هؤلاء لبكائه، وقالوا: ما بكى نبي الله ﷺ بهذا المكان إلا وقد أحدث في أمته شيئًا لا تطيقه، فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم، فقال: "ما يبكيكم؟"، قالوا: يا نبي الله! بكينا لبكائك، قلنا: لعله أحدث في أمتك شيئًا لا تطيقه، قال: "لا، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أمي فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي أمي فبكيت، ثم جاء بي جبريل عليه السلام فقال: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه فرحمتها وهي أمي، ودعوت ربي أن يرفع عن أمتي أربعًا فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيعًا وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع عنهم اثنتين: القتل والهرج"، وإنما عدل إلى قبر أمه؛ لأنها كانت مدفونة تحت كذا وكذا، وكان عسفان لهم.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٢٩٦، ٢٩٧ رقم ١٢٠٤٩): ثنا محمد بن علي المروزي ثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن المنيب ثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: عبد الله بن كيسان؛ قال البخاري: "منكر، ليس من أهل الحديث"، وضعفه أبو حاتم الرازي، وقال الدارقطني والنسائي: "ليس بالقوي".

=

=

وقال ابن عدي: "ولعبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس أحاديث غير محفوظة"، ولخصه الحافظ: "صدوق يخطئ كثيرًا".

الثانية: إسحاق بن عبد الله بن كيسان؛ قال في "الميزان" (١/ ١٩٤): "ليّنه أبو أحمد الحاكم"، وقال الصدر الياسوفي؛ كما في "اللسان" (١/ ٣٦٦): "ضعفه شديد".

الثالثة: عبد العزيز بن المنيب؛ لم نجد له ترجمة.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١/ ١١٧): "وفيه أبو الدرداء وعبد الغفار بن المنيب عن إسحاق بن عبد الله عن أبيه عن عكرمة، ومن عدا عكرمة لم أعرفهم ولم أرَ من ذكرهم!".

وقال ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٤٠٨): "وهذا حديث غريب وسياق عجيب".

وعن معمر؛ قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: "يا عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله"، فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك"؛ فنزلت: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}؛ ونزلت: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦].

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٣٠) بسند صحيح إليه؛ لكنه معضل، والحديث صحيح على كل حال بشاهده من حديث المسيب بن حزن، وقد تقدم.

وعن قتادة؛ قوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} الآية، ذكر لنا أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله! إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال

=

=

النبي ﷺ: "بلى والله، لأستغفرن لأبي؛ كما استغفر إبراهيم لأبيه"، قال: فأنزل الله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} حتى بلغ: {الْجَحِيمِ} ثم عذر الله إبراهيم عليه السلام فقال: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}، قال: وذكر لنا أن نبي الله قال: "أوحي إليّ كلمات، قد دخلن في أذني ووقرن في قلبي: أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركًا، ومن أعطى فضل ماله؛ فهو خير له، ومن أمسك؛ فهو شر له، ولا يلوم الله على كفاف".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٣١، ٣٢): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عطية العوفي: لما قدم رسول الله ﷺ مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها حتى نزلت: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} إلى قوله: {تَبَرَّأَ مِنْهُ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٣١). وهو مرسل ضعيف الإسناد.

وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: لما مرض أبو طالب أتاه النبي ﷺ فقال المسلمون: هذا محمد ﷺ يستغفر لعمه، وقد استغفر إبراهيم لأبيه؛ فاستغفروا لقراباتهم من المشركين؛ فأنزل الله -تعالى-: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}؛ ثم أنزل الله -تعالى-: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ}، قال: كان يرجوه في حياته، {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥) من طريق موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: موسى بن عبيدة؛ ضعيف.

=

=

وعن بريدة؛ قال: كنت مع النبي ﷺ إذ وقف على عسفان، فنظر يمينًا وشمالًا، فأبصر قبر أمه آمنة، فورد الماء فتوضأ ثم صلى ركعتين ودعا، فلم يفجأنا إلا وقد علا بكاؤه، فعلا بكاؤنا لبكائه، ثم انصرف إلينا فقال: "ما الذي أبكاكم؟"، قالوا: بكيت فبكينا يا رسول الله، قال: "وما ظننتم؟"، قالوا: ظننا أن العذاب نازل علينا بما نعمل، قال: "لم يكن من ذلك شيء"، قالوا: فظننا أن أمتك كلفت من الأعمال ما لا يطيقون فرحمتها، قال: "لم يكن من ذلك شيء؛ ولكن مررت بقبر أمي آمنة فصليت ركعتين، فاستأذنت ربي أن استغفر لها فنهيت، فبكيت، ثم عدت فصليت ركعتين، فاستأذنت ربي أن استغفر لها؛ فزجرت زجرًا، فعلا بكائي"، ثم دعا براحلته فركبها، فما سار إلى هنية حتى قامت الناقة لثقل الوحي؛ فأنزل الله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ...} الآيتين.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣٠٣) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة: ١١٣]، أي:" ما كان ينبغي للنبي محمد ﷺ والذين آمنوا أن يدعوا بالمغفرة للمشركين".

لما بين الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيدا، وصرح بأن ذلك متحتم، ولو كانوا أولي قربى، وأن القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما كان ينبغي للنبي محمدٍ ﷺ والذين آمنوا به أن يدعوا بالمغفرة للمشركين".

قال النسفي:" أي: ماصح له الاستغفار في حكم الله وحكمته".

قوله تعالى: {وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} [التوبة: ١١٣]، أي:" ولو كان المشركون ذوي قرابة لهم".

=

=

قال الطبري:" ولو كان المشركون الذين يستغفرون لهم ذوي قرابة لهم".

قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]، أي:" من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر".

قال الزجاج:" أي: من بعد ما تبين لهم أنهم ماتوا كافرين".

قال النسفي: أي: "من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك".

قال الطبري:" يقول: من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم من أهل النار، لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله".

عن أبي مالك قوله: " {الجحيم}، قال: ما عظم من النار".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ} [التوبة: ١١٤]، أي:" وما كان استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه المشرك، إلا عن موعدة وعدها إياه".

قال الطبري:" فإن قالوا: فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك؟ فلم يكن استغفارُ إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إياه".

قال النسفي: " أي: وعد أبوه إياه أن يسلم أو هو وعد أباه أن يستغفر وهو قوله لأستغفر لك دليله قراءة الحسن [وَعَدَهَا أَبَاهُ] ومعنى استغفاره: سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم أو سؤاله إعطاء الإسلام الذي به يغفر له".

عن أبي الخليل، قال سمعت عليا، يقول: "أنزل الله عذر إبراهيم فقال: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه}".

عن ابن عباس قال: "ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله، لم يستغفر له".

قوله تعالى: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} [التوبة: ١١٤]، أي:" فلما تبيَّن

=

=

لإبراهيم أن أباه عدو لله ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير، وأنه سيموت كافرًا، تركه وترك الاستغفار له، وتبرأ منه".

قال الطبري:" فلما تبين له وعلم أنه لله عدوٌّ، خلاه وتركه، وترك الاستغفار له، وآثر الله وأمرَه عليه، فتبرأ منه حين تبين له أمره".

قال النسفي: " {فلما تبين} من جهة الوحى {له} لابراهيم {أَنَّهُ} أن أباه {عَدُوٌّ لِلَّهِ} بأن يموت كافرًا وانقطع رجاؤه عنه {تَبَرَّأَ مِنْهُ} وقطع استغفاره".

عن ابن المسيب عن أبيه:" {فلما تبين له أنه عدو لله}، قال: لما مات وهو كافر".

وروي عن مجاهد والحسن، "أنهما قالا: لما مات".

قال قتادة:"ثم عذر الله نبيه إبراهيم فقال: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله} لما مات على شركه {تبرأ منه}". وفي رواية أخرى قال قتادة:" تبين له حين مات، وعلم أن التوبة قد انقطعت منه".

قال ابن عباس:" كان إبراهيم ﷺ يستغفر لأبيه فلما مات لم يستغفر له".

وروي عن الحكم بن عتيبة قال: "تبرأ منه حين مات ولم يؤمن".

قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤]، أي:" إن إبراهيم عليه السلام عظيم التضرع لله، كثير الصفح عما يصدر مِن قومه من الزلات".

عن عبد الله بن شداد قال: "قال رجل: يا رسول الله، ما «الأواه؟» قال: الخاشع، المتضرع الدعاء، قال: إن إبراهيم لأواه حليم" أخرجه الطبري في "تفسيره" (١١/ ٥١) وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٠٠٦٢) من طرق عن عبد الحميد بن بهرام الفزاري قال: ثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد به، ومع أرساله في إسناده ضعف.

عن شعبة عن أبي يونس الباهلي:"سمعت رجلا كان بمكة أصله رومي يحده عن أبي ذر، قال: كان رجل يطوف بالبيت ويقول في دعائه: أوه أوه، فقال رسول الله

=

=
ﷺ: أنه لأواه، قال أبو ذر فخرجت ليلة فإذا رسول الله ﷺ معه المصباح يدفن ذلك الرجل".

قال ابن كثير:" هذا حديث غريب رواه ابن جرير ومشاه".

وروي عن يحيى بن الجزار "أن أبا العبيدين سأل عبد الله عن «الأواه»؟ فقال: الرحيم". وروي عن أبي ميسرة. والحسن ومجاهد وقتادة مثل ذلك.

وروي عن ابن عباس قال: " «الأواه»: الموقن".

عن مجاهد وعكرمة قالا:" «الأواه»: الموقن بلسان الحبشة".

وروي عن مجاهد قال:" فقيه موقن".

وروي عن ابن عباس قوله: " {إن إبراهيم لأواه}، يعني: التواب".

وعن مجاهد قال: " «الأواب»: المنيب".

وروي عن أبي أيوب قال: " «الأواه»: الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها".

وعن مجاهد في قول آخر: " «الأواه»: الحفيظ، الرجل يذنب الذنب سرا ثم يتوب منه سرا".

وروي عن أبي الدرداء قال: "لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه".

وعن الشعبي قوله:" «اواه»: المسبح".

وروي عن الحسين في قوله: " {إن إبراهيم لأواه حليم}، قال: الحليم: الرحيم".

(منبهة) قال الله تعالى: (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم (١١٤)) [التوبة: ١١٤].

وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: "يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد (١)؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت
=

=

الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر؛ فإذا هو بذيخ (٢) ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، حديث (٣٣٥٠)، وفي كتاب التفسير، حديث (٤٧٦٩).

* ظاهر الآية الكريمة انقطاع رجاء إبراهيم الخليل عليه السلام من إيمان أبيه، وجزمه بأنه لا يغفر له، ولذلك تبرأ منه وترك الاستغفار له، وهذا التبرؤ ظاهر الآية أنه كائن من إبراهيم في الدنيا، وأما الحديث فظاهره أنه عليه الصلاة والسلام يطلب الاستغفار لأبيه يوم القيامة، ولا ييأس من نجاته إلا بعد المسخ، فإذا مسخ يئس منه وتبرأ، وهذا المعنى يوهم معارضة الآية.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث:

للعلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث مسلكان:

الأول: مسلك الجمع بينهما:

وقد اختلف أصحاب هذا المسلك في الجمع على مذاهب:

الأول: أن إبراهيم الخليل عليه السلام تبرأ من أبيه لما مات مشركا، فترك الاستغفار له، لكن لما رآه يوم القيامة أدركته الرأفة والرقة فسأل فيه، فلما رآه مسخ يئس منه حينئذ فتبرأ منه تبرؤا أبديا.

وهذا رأي الحافظ ابن حجر.

المذهب الثاني: أن إبراهيم لم يتيقن موت أبيه على الكفر، بجواز أن يكون آمن في نفسه ولم يطلع إبراهيم على ذلك، ويكون تبرؤه منه حينئذ بعد الحال التي وقعت في هذا الحديث.

ذكر هذا المذهب الحافظ ابن حجر.

المذهب الثالث: أن الحديث ليس فيه دلالة على وقوع الاستغفار من إبراهيم لأبيه وطلب الشفاعة له، وقوله عليه السلام: "يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني

=

=

يوم يبعثون" أراد به عليه الصلاة والسلام محض الاستفسار عن حقيقة الحال، فإنه اختلج في صدره الشريف أن هذه الحال الواقعة على أبيه خزي له، وأن خزي الأب خزي الابن، فيؤدي ذلك إلى خلف الوعد المشار إليه بقوله: "يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون".

ذكر هذا المذهب الآلوسي وتعقبه بأن الحديث ظاهر في الشفاعة، وهي استغفار، وأيد ذلك بما رواه الحاكم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: "يلقى رجل أباه يوم القيامة فيقول: يا أبت، أي ابن كنت لك؟ فيقول: خير ابن. فيقول: هل أنت مطيعي اليوم؟ فيقول: نعم. فيقول: خذ بأزرتي، فيأخذ بأزرته ثم ينطلق حتى يأتي الله تعالى وهو يفصل بين الخلق، فيقول: يا عبدي أدخل من أي أبواب الجنة شئت. فيقول: أي رب وأبي معي، فإنك وعدتني أن لا تخزيني، قال: فيمسخ أباه ضبعا فيهوي في النار فيأخذ بأنفه فيقول سبحانه: يا عبدي هذا أبوك، فيقول: لا وعزتك".

قال الآلوسي: يفهم من ذلك أن الرجل في حديث الحاكم هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وطلبه المغفرة لأبيه فيه وإدخاله الجنة أظهر منهما في حديث البخاري.

المذهب الرابع: أن تبين إبراهيم وتبرؤه من أبيه يكون يوم القيامة، ذلك أن إبراهيم يستغفر لأبيه يوم القيامة ويطلب له الجنة ظنا منه أنه وفى بوعده الذي كان منه في الدنيا، حيث وعده بالإيمان؛ فإذا مسخ أبوه ذيخا علم أنه لم يف بذلك الوعد، فحينئذ يتبرأ منه.

ذكر هذا المذهب الآلوسي ومال إليه، إلا أنه أورد عليه أن ظاهر الآية والمأثور عن السلف في معناها.

لا يساعد عليه.

المذهب الخامس: أن مراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام من تلك المحاورة التي

=

=

تصدر منه في ذلك الموقف إظهار العذر فيه لأبيه وغيره على أتم وجه، لا طلب المغفرة حقيقة.

وهذا المذهب هو الذي ارتضاه الآلوسي بعد حكايته للمذاهب السابقة.

المسلك الثاني: مسلك الترجيح:

حيث ذهب الإسماعيلي إلى تضعيف الحديث، فقال بعد أن أخرجه: "هذا خبر في صحته نظر؛ من جهة أن إبراهيم علم أن الله لا يخلف الميعاد، فكيف يجعل ما صار لأبيه خزيا؟ مع علمه بذلك". اهـ

والذي يظهر صوابه ـ والله تعالى أعلم ـ أن تبرؤ إبراهيم من أبيه كائن يوم القيامة، ذلك أن إبراهيم يطلب لأبيه الشفاعة يوم القيامة ظنا منه أن ذلك نافعه، فإذا قال الله له: إني حرمت الجنة على الكافرين، ومسخ أبوه ذيخا علم أن ذلك غير نافعه، وأنه عدو لله، فيتبرأ منه في الحال.

وهذا الاختيار ليس فيه ما يخالف الظاهر من سياق الآية؛ إذ ليس في الآية ما يدل على أن هذا التبرؤ كائن في الدنيا، والآية وإن روي في تفسيرها عن ابن عباس أن ذلك كائن في الدنيا إلا أن الدليل قد دل على خلافه، وسأذكر من الأدلة ما يؤيد كون ذلك في الآخرة:

لقد حكى القرآن الكريم في غير ما موضع قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، وبين تعالى في عدة مواضع أن إبراهيم دعا لأبيه واستغفر له، وهذا الاستغفار وقع بعد مفارقته لأبيه واعتزاله له، وهو بعد تلك المفارقة لا يدري ما حال أبيه، وهذا واضح من سياق الآيات الواردة في سورة مريم؛ حيث قال تعالى ـ بعد حكايته للمحاورة التي جرت بينهما ـ: (قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا (٤٧) وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا (٤٨) فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب

=

=

وكلا جعلنا نبيا (٤٩)) [مريم: ٤٧ - ٤٩].

فقوله: (؟ ؟ ؟) وعد من إبراهيم بالاستغفار لأبيه، وقد وفى بذلك الوعد حينما هاجر إلى مكة، فإنه دعا لأبيه هناك، وهذا الدعاء والاستغفار وقع منه بعد أن وهبه الله تعالى إسماعيل وإسحاق، والذي كان بعد اعتزاله لأبيه، حيث قال سبحانه: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام (٣٥) رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم (٣٦) ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٣٧) ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء (٣٨) الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء (٣٩) رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء (٤٠) ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب (٤١)) [إبراهيم: ٣٥ - ٤١]، وهذه الآيات واضحة الدلالة في تأخر استغفار إبراهيم لأبيه، وأنه كان بعد اعتزاله له.

وظاهر سياق الآيات في سورة إبراهيم أن دعاء إبراهيم لأبيه كان في آخر حياة إبراهيم، لقوله في الآيات: (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق)، ثم إنه بعد هذا الثناء دعا لأبيه فقال: (ربنا اغفر لي ولوالدي)، فدل على أن دعاءه لأبيه وقع في آخر حياته عليه السلام.

وفي قوله تعالى في سورة الممتحنة: (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك

=

وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥).

{وَمَا كَانَ الله لِيُضِلّ قَوْمًا بَعْد إِذْ هَدَاهُمْ} لِلْإِسْلَامِ {حَتَّى يُبَيِّن لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} مِنْ الْعَمَل فَلَا يَتَّقُوهُ فَيَسْتَحِقُّوا الْإِضْلَال {إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْء عَلِيم} وَمِنْهُ مُسْتَحِقّ الْإِضْلَال والهداية[1].

=

المصير (٤)) [الممتحنة: ٤]، دلالة واضحة على أن استغفار إبراهيم كان بعد وفاة أبيه، لأنه لو كان في حياته لم يمنع منه؛ لأنه يجوز الاستغفار ـ بمعنى طلب الإيمان ـ لأحياء المشركين.

ولم يأت في شيء من تلك الآيات التي تحكي لنا قصة إبراهيم أن الله تعالى نهاه عن الاستغفار لأبيه، ولم يأت في تلك الآيات أيضا أن إبراهيم رجع لأبيه بعد اعتزاله له، بل الظاهر أنه لم يلق أباه بعد تلك المحاورة.

وبهذا يتبين أن إبراهيم الخليل عليه السلام لم يتبرأ من أبيه في حياته، بل لم يزل مستغفرا له في حياته وبعد مماته، ولن ينكشف له أنه عدو لله إلا في الآخرة حينما يلقاه فيطلب له الشفاعة فيعلمه الله تعالى بأن الجنة حرام على الكافرين، ويمسخ أباه ذيخا؛ فيعلم حينئذ أنه عدو لله ويتبرأ منه، والله تعالى أعلم. انظر كتاب الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ}؛ قال: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى، قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قومًا بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون، قال: حتى ينهاهم قبل ذلك.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣٠٨) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} [التوبة: ١١٥]، أي:" وما كان الله ليضلَّ قومًا بعد أن مَنَّ عليهم بالهداية والتوفيق حتى يبيِّن لهم ما يتقونه به، وما يحتاجون إليه في أصول الدين وفروعه".

والمعنى: أي: وما كان من شأن الله – تعالى – في لطفه وعدله.. أن يصف قوما بالضلال عن طريق الحق «بعد إذ هداهم» إلى الإسلام، لمجرد قول أو عمل صدر عنهم عن طريق الخطأ في الاجتهاد.

– وإنما يصفهم بذلك بعد أن يبين لهم ما يجب اتقاؤه من الأقوال والأفعال، فلا يطيعون أمره، ولا يستجيبون لتوجيهه سبحانه.

قال مقاتل والكلبي:" وذلك أن الله أنزل فرائض فعمل بها المؤمنون ثم نزل بعد ما نسخ به الأمر الأول فحولهم إليه، وقد غاب أناس لم يبلغهم ذلك فيعملوا بالناسخ بعد النسخ وذكروا ذلك للنبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله، كنا عندك والخمر حلال والقبلة إلى بيت المقدس ثم غبنا عنك فحولت القبلة ولم نشعر بها فصلينا إليها بعد التحويل والتحريم. وقالوا: ما ترى يا رسول الله. فأنزل الله– ﷻ– {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}".

وقال السمعاني:" أن قوما كانوا أتوا النبي فأسلموا، ولم تكن الخمر حرمت ولا القبلة صرفت، فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك، ثم حرمت الخمر (و) صرفت القبلة ولم يكن لهم علم بذلك، فلما قدموا بعد ذلك للمدينة وجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت، فقالوا للنبي: قد كنت على دين ونحن على (غيره) فنحن ضلال؟ فأنزل الله {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}".

والثاني: "أن الآية في الاستغفار للمشركين؛ فإن جماعة من الصحابة كانوا

=

=

استغفروا لآبائهم ولم يعلموا أن ذلك لا يجوز، فلما أنزل النهي عنه خافوا على أنفسهم خوفا شديدا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية".
قال صاحب الكشاف: "يعنى سبحانه أن ما أمر باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيرها مما نهى عنه وبين أنه محظور، لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ضلالا، إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب. وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر، ولا ببيع الصاع بصاعين قبل التحريم".

قال الشوكاني:" لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار، فأنزل الله سبحانه: {وما كان الله ليضل قوما...}".
قال الشوكاني:" أي: أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، ولا يسميهم ضلالا بعد أن هداهم إلى الإسلام، والقيام بشرائعه ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرم، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به، ومعنى: {حتى يبين لهم ما يتقون}: حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما كان الله ليقضي عليكم، في استغفاركم لموتاكم المشركين، بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدَّم إليكم بالنهي عنه، فتتركوا الانتهاء عنه. فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهيّ، فأما من لم يؤمر ولم ينه، فغير كائنٍ مطيعًا أو عاصيًا فيما لم يؤمَرْ به ولم ينه عنه".

=

=

عن سعيد: {مَا يَتَّقُونَ}، "ما يتقون قال: ما يأتونه، وما ينتهون عنه".

قال مجاهد:" يبين الله للمؤمنين في أن لا يستغفروا للمشركين في بيانه في طاعته وفي معصيته، فافعلوا أو ذروا".

وعن مجاهد في رواية أخرى:" {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}، قال: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة وفي بيانه طاعته وفي معصيته عامة، ما فعلوا أو تركوا".

وقال الضحاك: "ما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون".

قال الزمخشري:" يعنى: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ضلالا، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب. وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم. وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه. وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها: وهي أن المهدى للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التوبة: ١١٥]، أي:" إن الله بكل شيء عليم، فقد علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبيَّن لكم ما به تنتفعون، وأقام الحجة عليكم بإبلاغكم رسالته".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بما خالط أنفسكم عند نهي الله إياكم من الاستغفار لموتاكم المشركين، من الجزع على ما سلف منكم".

قال الشوكاني:" {عليم}، مما يحل لعباده ويحرم عليهم، ومن سائر الأشياء التي خلقها".

=

إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦).

{إن الله له ملك السماوات وَالْأَرْض يُحْيِي وَيُمِيت وَمَا لَكُمْ} أَيّهَا النَّاس {مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {مِنْ وَلِيّ} يَحْفَظكُمْ مِنْهُ {وَلَا نَصِير} يَمْنَعكُمْ عَنْ ضَرَره[1].

=

قال الصابوني:" أي: عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية، ومن يستحق الإضلال".

وقال مقاتل: يعني:" من أمرهم بنسخ ما يشاء من القرآن فيجعله منسوخا ويقر ما يشاء فلا ينسخه".

(١) قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [التوبة: ١١٦]، أي:" إن الله مالك السموات والأرض وما فيهن لا شريك له في الخلق والتدبير والعبادة والتشريع".

والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد:

أولا: الرضا بقضاء الله، وأن الله لو قضى عليك مرضا فلا تعترض، ولو قضى عليك فقرا فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون).

ويدل لذلك أيضا ما بينه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي، فأرسل يقرأ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب).

ثانيا: الرضا بشرعه وقبوله والقيام به، لأنك ملكه.

=

=

ثالثا: أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكا لنا بل هو ملك لله، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار، كما قال تعالى (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير).

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون..) رواه مسلم.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله، أيها الناس له سلطان السماوات والأرض وملكهما، وكل من دونه من الملوك فعبيده ومماليكه".

عن حكيم بن حزام، قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: "هل تسمعون ما أسمع؟ قالوا ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم".

قال كعب: "ما من موضع خرمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام".

عن ابن عباس:" قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قوله تعالى: {يُحْيِي وَيُمِيتُ} [التوبة: ١١٦]، أي:" يحيي مَن يشاء ويميت مَن يشاء".

قال محمد بن إسحاق: {يحيي ويميت}، أي: يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء، من ذلك بآجالهم بقدرته".

قال الطبري: أي:"بيده حياتهم وموتهم، يحيي من يشاء منهم، ويميت من يشاء

=

=

منهم، فلا تجزعوا، أيها المؤمنون، من قتال من كفر بي من الملوك، ملوك الروم كانوا أو ملوك فارس والحبشة، أو غيرهم، واغزوهم وجاهدوهم في طاعتي، فإني المعزُّ من أشاء منهم ومنكم، والمذلُّ من أشاء. وهذا حضٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين على قتال كلّ من كفر به من المماليك، وإغراءٌ منه لهم بحربهم".

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [التوبة: ١١٦]، أي:" وما لكم مِن أحد غير الله يتولى أموركم، ولا نصير ينصركم على عدوكم".

قال الطبري: " يقول: وما لكم من أحد هو لكم حليفٌ من دون الله يظاهركم عليه، إن أنتم خالفتم أمرَ الله فعاقبكم على خلافكم أمرَه، يستنقذكم من عقابه {ولا نصير}، ينصركم منه إن أراد بكم سوءًا. يقول: فبالله فثقوا، وإياه فارهبوا، وجاهدوا في سبيله من كفر به، فإنه قد اشترى منكم أنفسكم وأموالكم بأن لكم الجنة، تقاتلون في سبيله فتَقْتُلُون وتُقْتَلُون".

قال البيضاوي:" لما منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأسا، بين لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا بشراشرهم إليه ويتبرؤوا مما عداه حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه".

قال القاسمي: هذه الآية" تقوية لما تقدم من التبرؤ منهم، وإرشاد للمؤمنين بأن يتكلوا على ربهم، ولا يرهبوا من أولئك، فإنه إذا كان ناصرهم فلا يضرهم كيدهم، وتنبيه على لزوم امتثال أمره، والانقياد لحكمه، والتوجه إليه وحده، إذ لا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى".

قال الشيخ ابن عثيمين: اعلم أن الولي والنصير إذا اجتمعا صار الولي فيما ينفع، والنصير من يدافع عنك ممن يعتدي عليك، وأما إذا أفرد أحدهما شمل الآخر، فإذا قيل: ولي بدون نصير، فالمراد به من يجلب لك الخير ويدفع عنك الشر.

لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧).

{لَقَدْ تَابَ الله} أَيْ أَدَامَ تَوْبَته {عَلَى النَّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَار الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَة الْعُسْرَة} أَيْ وَقْتهَا وَهِيَ حَالهمْ فِي غَزْوَة تَبُوك كَانَ الرَّجُلَانِ يَقْتَسِمَانِ تَمْرَة وَالْعَشَرَة يَعْتَقِبُونَ الْبَعِير الْوَاحِد وَاشْتَدَّ الْحَرّ حَتَّى شَرِبُوا الْفَرْث {مِنْ بَعْد مَا كَادَ يَزِيغ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء تَمِيل {قُلُوب فَرِيق مِنْهُمْ} عَنْ اتِّبَاعه إِلَى التَّخَلُّف لِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ الشِّدَّة {ثُمَّ تاب عليهم} بالثبات {إنه بهم رءوف رحيم}(١).

---

(١) قوله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [التوبة: ١١٧]، أي:" لقد وفَّق الله نبيه محمدا ﷺ إلى الإنابة إليه وطاعته، وتاب الله على المهاجرين الذين هجروا ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وتاب على أنصار رسول الله ﷺ الذين خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة (تبوك) في حرٍّ شديد، وضيق من الزاد والظَّهْر".

وللعلماء أقوال في المراد بالتوبة التي تابها الله على النبي ﷺ وعلى المهاجرين والأنصار:

فمنهم من يرى أن المراد بها قبول توبتهم، وغفران ذنوبهم، والتجاوز عن زلاتهم التي حدثت منهم في تلك الغزوة أو في غيرها، وإلى هذا المعنى أشار القرطبي بقوله:

قال ابن عباس: كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل أنه أذن للمنافقين في القعود، بدليل قوله سبحانه قبل ذلك (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وكانت توبته على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه؛ أي: إلى التخلف عن الخروج =

=

معه إلى غزوة تبوك.

ومنهم من يرى أن المقصود بذكر التوبة هنا التنويه بفضلها، والحض على تجديدها، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال: «تاب الله على النبي» كقوله: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» وكقوله: «واستغفر لذنبك». وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرين والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح.

ومنهم من يرى أن المراد بالتوبة هنا: دوامها لا أصلها، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله: لقد تاب الله على النبي.. » أي: أدام توبته على النبي والمهاجرين والأنصار. وهذا جواب عما يقال: من أن النبي معصوم من الذنب، وأن المهاجرين والأنصار لم يفعلوا ذنبا في هذه القضية، بل اتبعوه من غير تلعثم، قلنا: المراد بالتوبة في حق الجميع دوامها لا أصلها.

ومنهم من يرى أن ذكر النبي هنا إنما هو من باب التشريف، والمراد قبول توبة المهاجرين والأنصار فيما صدر عن بعضهم من زلات، وقد وضح هذا المعنى الإمام الآلوسي فقال: قال أصحاب المعاني: المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار، إلا أنه جيء في ذلك بالنبي ﷺ تشريفا لهم، وتعظيما لقدرهم، وهذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله (فأن لله خمسه وللرسول..) الآية أي: عفا سبحانه عن زلات صدرت منهم يوم أحد ويوم حنين.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته، نبيّه محمدًا ﷺ، والمهاجرين ديارَهم وعشيرتَهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله الذين اتبعوا رَسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء".

=

=

عن مجاهد: " {ساعة العسرة}، قال: غزوة تبوك، قال: "العسرة"، أصابهم جَهْدٌ شديد، حتى إن الرجلين ليشقَّان التمرة بينهما، وأنهم ليمصُّون التمرة الواحدة، ويشربون عليها الماء".

عن عبد الله بن محمد بن عقيل: " {في ساعة العسرة}، قال: خرجوا في غزوةٍ، الرجلان والثلاثة على بعير. وخرجوا في حرٍّ شديد، وأصابهم يومئذ عطش شديد، فجعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها، ويشربون ماءه، وكان ذلك عسرة من الماء، وعسرة من الظهر، وعسرة من النفقة".

عن قتادة قوله: " {لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوا في ساعة العسرة}، الآية، الذين اتبعوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قِبَل الشأم في لهَبَانِ الحرّ على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهدٌ شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقّان التمرة بينهما، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم، يمصُّها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصُّها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوهم".

عن عبد الله بن عباس: "أنه قيل لعمر بن الخطاب رحمة الله عليه في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمسُ الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فَرْثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيرًا، فادع لنا! قال: تحب ذلك؟ قال: نعم! فرفع يديه، فلم يَرْجِعهما حتى قالت السماء، فأظلّت، ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها، جاوزت العسكر".

وفي هذه التوبة من الله على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار وجهان محتملان:

=

=

أحدهما: استنقاذهم من شدة العسر.

والثاني: أنها خلاصهم من نكاية العدوّ. وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه وهو الرجوع إلى الحالة الأولى.

قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ} [التوبة: ١١٧]، أي:" من بعد ما كاد يَميل قلوب بعضهم عن الحق، فيميلون إلى الدَّعة والسكون".

قال الطبري:" يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدّة في سفره وغزوه".

وفي قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ} [التوبة: ١١٧]، وجهان:

أحدهما: تتلف بالجهد والشدة.

الثاني: تعدِل عن الحق في المتابعة والنصرة، قاله ابن عباس.

وقال ابن عباس:" يريد: يميل بعض من كان فيها إلى التخلف والعصيان".

قوله تعالى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ١١٧]، أي:" وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا".

قال مقاتل:" يعني: تجاوز عنهم".

قال الطبري:" يقول: ثم رزقهم جلّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم".

وهذه التوبة غير الأولى، وفيها قولان:

أحدهما: أن التوبة الأولى في الذهاب، والتوبة الثانية في الرجوع.

والقول الثاني: أن الأولى في السفر، والثانية بعد العودة إلى المدينة.

فإن قيل بالأول، أن التوبة الثانية في الرجوع، احتملت وجهين:

أحدهما: أنها الإذن لهم بالرجوع إلى المدينة.

الثاني: أنها بالمعونة لهم في إمطار السماء عليهم حتى حيوا، وتكون التوبة على

=

=

هذين الوجهين عامة.

وإن قيل إن التوبة الثانية بعد عودهم إلى المدينة احتملت وجهين:

أحدهما: أنها العفو عنهم من ممالأة من تخلف عن الخروج معهم.

الثاني: غفران ما همَّ به فريق منهم من العدول عن الحق، وتكون التوبة على هذين الوجهين خاصة.

قوله تعالى: {إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١١٧]، أي:" إنه بهم رؤوف رحيم".

قال الطبري:" يقول: إن ربكم بالذين خالط قلوبَهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدة والمشقة رءوف بهم، {رحيم} أن يهلكهم، فينزع منهم الإيمان بعد ما قد أبلَوْا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء".

قال مقاتل:" يعني: يرق لهم حين تاب عليهم، يعني أبا لبابة وأصحابه".

ومن رأفته ورحمته أن من عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

- والرؤوف: اسم من أسماء الله تعالى.

والرأفة أعلى معاني الرحمة.

وقال الخطابي: الرؤوف هو الرحيم العاطف برأفته على عباده.

وقال بعضهم: الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها.

قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه.

فمن رأفته سبحانه وتعالى بنا، أنه خوفنا من عقوبته وعذابه، ونهانا عن معصيته، قبل أن يلقاه العبد يوم القيامة ليستعد للقائه، ويتجنب سخطه وغضبه (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد).

ومن رأفته أنه أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه، لينقذ الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والهداية (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات

=

=

ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم).
ومن رأفته أنه يقبل توبة التائبين، ولا يرد عن بابه العاصين المنيبين، مهما كثرت سيئاتهم، وتعاظمت خطيئاتهم (ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم).
ومن رأفته: تسخيره لما في السماوات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته، وخلقه الأنعام ليركب على ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة، هو ومتاعه وزاده (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم).
(فائدة): قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥١٧): قوله تعالى: {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم} [التوبة: ١١٧] [التوبة: ١١٧]، هذا من أعظم ما يعرف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات بعد أن قضوا نحبهم، وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي ﷺ يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة، فسبحان من لا يسع عباده غير عفوه ومغفرته وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله فعذب أهل سماواته وأرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم، وإن رحمهم فرحمته خير لهم من أعمالهم، ولا ينجي أحدا منهم عمله.
وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين في أول الآية وآخرها، فإنه تاب عليهم
=

=

أولا بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانيا بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها، وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه وله وفي يديه، يعطيه من يشاء إحسانا وفضلا، ويحرمه من يشاء حكمة وعدلا.

وقال رحمه الله في مدارج السالكين (١/ ٣١٩): وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا إذنا وتوفيقا وإلهاما، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيا، قبولا وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم - وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم} [التوبة: ١١٧ - ١١٨] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها، قال الله تعالى {والذين اهتدوا زادهم هدى} [محمد: ١٧] فهداهم أولا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانيا، وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه الأول والآخر، فهو المعد، وهو الممد، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «وأعوذ بك منك،» والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة

=

=

الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

والتوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده، موصلا إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل} [الأنعام: ١٥٣] وبقوله: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض} [الشورى: ٥٢] وبقوله: {وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد} [الحج: ٢٤].

ونهايتها الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلا إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب، وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى {ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا} [الفرقان: ٧١] قال البغوي وغيره: يتوب إلى الله متابا يعود إليه بعد الموت، متابا حسنا يفضل على غيره فالتوبة الأولى - وهي قوله: ومن تاب - رجوع عن الشرك، والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر، والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصا، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه، ورجع إليه، والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا - على أحد التأويلين - قوله تعالى {ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته} [المائدة: ٦٧] أي اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم على فعلها، ثم إذا قوي العزم

=

وَعَلَـى الثَّلَاثَـةِ الَّـذِينَ خُلِّفُـوا حَتَّـى إِذَا ضَـاقَتْ عَلَـيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَـا رَحُبَـتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُـمَّ تَـابَ عَلَـيْهِمْ لِيَتُوبُـوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨).

{وَ} تَـابَ {عَلَـى الثَّلَاثَـة الَّـذِينَ خُلِّفُـوا} عَـنْ التَّوْبَـة عَلَـيْهِمْ بِقَرِينَـةِ {حَتَّـى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْض بِمَا رَحُبَتْ} أَيْ مَـعَ رَحْبهَـا أَيْ سِعَتهَا فَـلَا يَجِدُونَ مَكَانًـا يَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ {وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسهمْ} قُلُـوبهمْ لِلْغَـمِّ وَالْوَحْـشَة بِتَـأْخِيرِ تَـوْبَتهمْ فَلَا يَسَعهَا سُرُور وَلَا أُنْس {وَظَنُّوا} أَيْقَنُوا {أَنْ} مُخَفَّفَة {لَا مَلْجَأ مِنْ الله إِلَّا إليه ثم تاب عليهم} وفقهم للتوبة {ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم}[1].

=

وصار جازما وجد به فعل التوبة، فالتوبـة الأولـى بـالعزم والقصد لفعلهـا، والثانيـة بنفس إيقاع التوبة وإيجادها، والمعنى: فمن تاب إلى الله قصدا ونية وعزما، فتوبتـه إلى الله عملا وفعلا، وهـذا نظير قولـه ﷺ «فمـن كانـت هجرتـه إلـى الله ورسـوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتـه إلـى دنيـا يـصيبها، أو امـرأة يتزوجهـا، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بـن كعـب: وكـان قائـد كعـب مـن بنيـه حـين عَمِـيَ، [وكـان أعلـم قومـه وأوعاهم لأحاديث أصحاب رسول الله].

قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عـن رسـول الله في غـزوة تبوك.

قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غـزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتـب [الله] أحـدًا تخلـف عنهـا، إنمـا خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريـدون عيـر قـريش حتـى جمـع الله بيـنهم وبـين

=

=

عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، (وفي رواية: وإن كانت بدر أكثر ذكرًا في الناس منها).

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، [فكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة]؛ فغزاها رسول الله ﷺ حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوًا كثيرًا، فجلّا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أُهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريد بذلك الديوان- (وفي رواية: وغزا رسول الله ﷺ بناس كثير يزيدون عن عشرة آلاف لا يجمعهم ديوان حافظ).

قال كعب: فَقَلَّ رجل يريد أن يتغيب [إلا] يظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله ﷻ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، [فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم]، ثم غدوت [بعد أن فصلوا لأتجهز]؛ فرجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم؛ فيا ليتني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت (وفي رواية: فكنت) إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ[فطفت فيهم] يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا

=

=

رجلًا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكًا، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: "ما فعل كعب بن مالك؟"، قال رجل من بني سَلِمَةَ: يا رسول الله! حبسه برداه، والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول الله ﷺ، [فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مُبَيِّضًا يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا خيثمة"؛ فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون].

فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ توجه قافلًا من تبوك حضرني بثي (وفي رواية: همي) فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غدًا؟ وأستعين على ذلك [بـ] كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا [فيه كذب]؛ فأجمعت صدقه، وصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المُخلّفون؛ فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلًا؛ فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فلما سلمت [عليه] تبسم تبسم المغضب ثم قال: "تعال"؛ فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: "ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟"، قال: قلت: [بلى] يا رسول الله! إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جَدَلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، لَيوشكنَّ الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله [وفي رواية: عفو الله]، [لا] والله ما كان لي [من] عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

=

=

قال رسول الله ﷺ: "أما هذا؛ فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك"؛ فقمت.
وثار رجال من بني سَلِمَةَ فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون [وفي رواية: المتخلفون]، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.
قال: فوالله؛ ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي.
قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي.
قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي.
قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه.
قال: فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض؛ فما هي بالأرض التي أعرف؛ فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي؛ فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا؛ فكنت أشب القوم وأجلدهم؛ فكنت أخرج فأشهد الصلاة [مع المسلمين]، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فَأُسَلِّمُ عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة؛ فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام [عليّ] أم لا؟ ثم أُصلِّي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ (وفي رواية: أقبل إلي)، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين (وفي رواية: الناس)؛ مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام. فقلت له: يا أبا قتادة! أَنشُدُكَ بالله هل تعلمنَّ أني أحب الله ورسوله؟

=

=

قال: فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم؛ ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من نبط (وفي رواية: أنباط) أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غَسَّانَ، وكنت كاتبًا فقرأته، فإذا فيه: أما بعد؛ فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالْحَقْ بنا نواسك.

قال: فقلت حين قرأتها: وهذه -أيضًا- من البلاء؛ فَتَيَامَمتُ بها التنور؛ فسجرتها بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي، إذا رسول رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أُطَلِّقُهَا أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها؛ فلا تقربنها.

قال: فأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي اِلحقي بأهلك؛ فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأة هلال بن أُمية رسول الله ﷺ؛ فقالت له: يا رسول الله! إن هلال بن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: "لا، ولكن لا يقربنك"، فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا.

قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله ﷻ منّا، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ

=

=

الأرض بما رحبت؛ سمعت صوت صارخ أوفى على سَلعٍ يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر، قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج. قال: فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر؛ فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض رجل إليّ فرسًا وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني فنزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، ووالله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أَتَأَمَّمُ رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد؛ فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس؛ فقام طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سَلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال: وهو يبرق وجهه من السرور، ويقول: "أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أُمك".

قال: فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: "لا بل من عند الله". وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، قال: فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك"، قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، قال: وقلت: يا رسول الله! إن الله -تعالى- إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فوالله ما علمت أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني

=

=

لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، قال: فأنزل الله ﷻ: {لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ} حتى بلغ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)} قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلامي بأعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، وقال الله: {سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)}.

قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله ﷻ: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} وليس الذي ذكر الله مما خلفنا، تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه. أخرجه البخاري (٨/ ١١٣ رقم ٤٤١٨، ص ٣٤١، ٣٤٢ رقم ٤٦٧٦، ص ٣٤٢، ٣٤٣ رقم ٤٦٧٧، ٤٦٧٨)، ومسلم في (٤/ ٢١٢٠ - ٢١٢٨ رقم ٢٧٦٩).

وعن الحسن؛ قال: لما غزا رسول الله ﷺ تبوك تخلف كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، قال: أما أحدهم؛ فكان له حائط حين زها قد فشت فيه الحمرة والصفرة، فقال: غزوت وغزوت وغزوت مع النبي ﷺ، فلو أقمت العام في هذا الحائط فأصبت منه، فلما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه دخل حائطه،

=

=

فقال: ما خلفني رسول الله ﷺ وما استبق المؤمنون في الجهاد في سبيل الله إلا ضن بك أيها الحائط، اللهمّ إني أشهدك أني تصدقت به في سبيلك. وأما الآخر؛ فكان قد تفرق عنه من أهله ناس واجتمعوا له، فقال: غزوت مع رسول الله ﷺ وغزوت، فلو أني أقمت العام في أهلي، فلما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه؛ قال: ما خلفني عن رسول الله ﷺ وما استبق إليه المجاهدون في سبيل الله إلا ضَنّ بكم أيها الأهل، اللهمّ إن لك عليّ أن لا أرجع إلى أهلي ومالي حتى أعلم ما تقضي فيّ. وأما الآخر؛ فقال: اللهم إن لك عليّ أن ألحق بالقوم حتى أدركهم أو أنقطع، فجعل يتتبع الدمع والحزونة حتى لحق بالقوم؛ فأنزل الله: {لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ} إلى قوله: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ}. قال الحسن: يا سبحان الله! والله ما أكلوا مالًا حرامًا، ولا أصابوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا في الأرض، غير أنهم أبطأوا عن شيء من الخير: الجهاد في سبيل الله، وقد -والله- جاهدوا وجاهدوا وجاهدوا، فبلغ منهم ما سمعتم فهكذا يبلغ الذنب من المؤمن.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٩٠٤) من طريق موسى بن إسماعيل التبوذكي حدثنا مبارك بن فضالة؛ قال: سمعت الحسن (وذكره). وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [التوبة: ١١٨]، أي:" وكذلك تاب الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا من الأنصار".

قال الطبري: أي:" ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفهم الله عن التوبة، فأرجأهم عمَّن تاب عليه ممن تخلف عن رسول الله ﷺ".

قال الفراء:" وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة".

عن جابر في قوله: " {وعلى الثلاثة الذين خلفوا}، قال: كعب بن مالك، وهلال

=

=

بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار".

عن عكرمة وعامر: " {وعلى الثلاثة الذين خلفوا}، قال: أرْجئوا، في أوسط «براءة»".

عن مجاهد: " {الثلاثة الذين خلفوا}، قال: الذين أرجئوا في أوسط "براءة"، قوله: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ} [سورة التوبة: ١٠٦] هلال بن أمية، ومرارة بن رِبْعيّ، وكعب بن مالك".

عن سعيد قال: " {الثلاثة الذين خلفوا}، كعب بن مالك وكان شاعرا، ومرارة بن الربيع، وهلال ابن أمية، وكلهم أنصاريّ".

قال الضحاك:" كلهم من الأنصار: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك".

عن قتادة قوله: " {وعلى الثلاثة الذين خلفوا}، إلى قوله: {ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم}، كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، تخلفوا في غزوة تبوك. ذكر لنا أن كعب بن مالك أوثق نفسه إلى سارية، فقال: لا أطلقها - أو لا أطلق نفسي - حتى يُطلقني رسول الله ﷺ! فقال رسول الله: والله لا أطلقه حتى يطلقه ربُّه إن شاء! وأما الآخر فكان تخلف على حائط له كان أدرك، فجعله صدقة في سبيل الله، وقال: والله لا أطعمه! وأما الآخر فركب المفاوز يتبع رسول الله، ترفعه أرض وتَضَعه أخرى، وقدماه تَشَلْشَلان دمًا".

عن عمر بن كثير بن أفلح قال: "قال كعب بن مالك: ما كنت في غَزاة أيسر للظهر والنفقة مني في تلك الغَزاة! قال كعب بن مالك: لما خرج رسول الله ﷺ قلت: "أتجهز غدًا ثم ألحقه"، فأخذت في جَهازي، فأمسيت ولم أفرغ. فلما كان اليوم الثالث، أخذت في جهازي، فأمسيت ولم أفرغ، فقلت: هيهات! سار الناس ثلاثًا! فأقمت. فلما قدم رسول الله ﷺ، جعل الناس يعتذرون إليه، فجئت حتى قمت

=

=

بين يديه، فقلت: ما كنت في غَزاة أيسر للظهر والنفقة مني في هذه الغزاة! فأعرض عني رسول الله ﷺ، فأمر الناس أن ألا يكلمونا، وأمِرَتْ نساؤنا أن يتحوَّلن عنَّا. قال: فتسوَّرت حائطا ذات يوم، فإذا أنا بجابر بن عبد الله، فقلت: أيْ جابر! نشدتك بالله، هل علمتَني غششت الله ورسوله يومًا قطُّ؟ فسكت عني فجعل لا يكلمني. فبينا أنا ذات يوم، إذ سمعت رجلا على الثنيَّة يقول: كعب! كعب! حتى دنا مني، فقال: بشِّروا كعبًا".

وفي قوله تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [التوبة: ١١٨]، وجهان:

أحدهما: خلفوا عن التوبة وأخرت عليهم حين تاب عليهم، أي على الثلاثة الذين لم يربطوا أنفسهم مع أبي لبابة، قاله الضحاك، وأبو مالك، وقتادة، وعكرمة.

قال الضحاك:" يعني: خلفوا عن التوبة، لم يتب عليهم حتى تاب الله على أبي لبابة وأصحاب".

قال قتادة:" أي: عن التوبة حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم عن قتادة: إنه كعب بن مالك وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، نفر من الأنصار، قال قتادة: والله ما سفكوا دما، ولا أكلوا مالا، ولا أنكروا معرفة، ولكنهم تخلفوا عن غزوة رسول الله ﷺ بتبوك، فتابوا أحسن التوبة، وفزعوا أحسن الفزع، أما أحدهم فأوثق نفسه إلى سارية فقال: والله لا أطلقها حتى يطلقني رسول الله، وأما الآخر: فعمد إلى حائطه الذي تخلف عليه وهو مونع فجعله صدقة، وأما الآخر: فركت المفاوز والوقع حتى لحق نبي الله ﷺ ورجلاه تسيلان دما".

الثاني: خلفوا عن بعث رسول الله ﷺ، قاله عكرمة بن خالد المخزومي.

عن أبي عمرو، عن عكرمة بن خالد المخزومي:" أنه كان يقرؤها (وعلى الثلاثة الذين خلفوا)، نصب، أي: بعد محمد ﷺ وأصحابه".

=

=

قال الشوكاني: "أي وتاب على الثلاثة الذين خلفوا: أي أخروا، ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم. قال ابن جرير: معنى خلفوا: تركوا، يقال: خلفت فلانا فارقته".

قال القرطبي: وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم، واعتذر أقوام فقبل عذرهم، وأخر النبي ﷺ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن.

وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاري وغيرهما.

واللفظ لمسلم قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه؛ فبذلك قال الله ﷻ.

وقال الرازي: هذا معطوف على الآية الأولى، والتقدير: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا، والفائدة في هذا العطف أنا بينا أن من ضم ذكر توبته إلى توبة النبي – عليه السلام –، كان ذلك دليلا على تعظيمه وإجلاله، وهذا العطف يوجب أن يكون قبول توبة النبي – عليه السلام – وتوبة المهاجرين والأنصار في حكم واحد، وذلك يوجب إعلاء شأنهم وكونهم مستحقين لذلك.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} [التوبة: ١١٨]، أي:" حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسَعَتها غمًّا وندمًا بسبب تخلفهم".

قال الطبري:" يقول: بسعتها، غمًّا وندمًا على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ".

قال الماوردي:" لأن المسلمين امتنعوا من كلامهم".

قال الشوكاني: معناه: أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل

=

=

أحد، لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم.

وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديبا لهم؛ لينزجروا عن المعاصي.

قوله تعالى: {وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ} [التوبة: ١١٨]، أي:" وضاقت عليهم أنفسهم لِمَا أصابهم من الهم".

فضاقت عليهم أنفسهم التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

قال الطبري: أي:" بما نالهم من الوَجْد والكرْب بذلك".

قوله تعالى: {وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ} [التوبة: ١١٨].

أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

قال ابن عطية: وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يطلبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين، إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر.

وفي هذا يقتضي أن الرجل العالم والمقتدي به أقل عذرا في السقوط من سواه، وكتب الأوزاعي رحمه الله إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة: واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا عظما ولا طاعته إلا وجوبا ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكارا والسلام.

قال مقاتل:" يعني: وأيقنوا ألا حرز من الله إلا إليه".

=

=

قال الطبري:" يقول: وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجأون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء، بتخلفهم خِلافَ رسول الله ﷺ، ينجيهم من كربه، ولا مما يحذرون من عذاب الله، إلا الله".

قال الماوردي:" أي: تيقنوا أن لا ملجأ يلجؤون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه".

عن مجاهد، قال: "ما كان من ظن في القرآن فهو يقين".

قوله تعالى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا} [التوبة: ١١٨]، أي:" ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها".

قال مقاتل:" يعني: تجاوز عنهم لكي يتوبوا".

قال الطبري:" ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم، لينيبوا إليه، ويرجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه".

قال ابن عباس: "فبدأ التوبة من الله ليتوبوا". وروي عن الضحاك مثله.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١١٨].

أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، (الرحيم) وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

قال الطبري:" يقول: إن الله هو الوهّاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفقُ من أحبَّ توفيقه منهم لما يرضيه عنه، {الرحيم} بهم، أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبةَ والإنابةَ ولا يتوب عليه".

عن ابن عباس: " {إن الله هو التواب الرحيم}، يعني: إن استقاموا". وروي عن الضحاك مثله.

(فائدة): ذكر ما في قصة كعب بن مالك من فوائد:

=

=

منها: أن الإنسان لا ينبغي له أن يتأخر عن فعل الخير، بل يتقدم ولا يتأخر، وفي الحديث قال ﷺ (لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله).

قال ابن القيم: إن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها والعجز في تأخيرها والتسويف بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما ثبتت والله سبحانه يعاقب من فتح له بابا من الخير فلم ينتهزه بأن يحول دعاه حال بينه وبين قلبه وإرادته فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك. قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) وقد صرح الله سبحانه بهذا في قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم). وقال (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم) وهو كثير في القرآن. (زاد المعاد).

وقال رحمه الله: حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك.

فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأسا ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك.

قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته.

فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك.

قال تعالى (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع

=

=

الخالفين).

فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة. (بدائع الفوائد).

ومنها: خطورة التسويف، وأنه يفسد على العبد أمر دينه ودنياه.

قال بعض العلماء: سوف أحد جنود إبليس.

وقال ابن الجوزي: إياك والتسويف فإنه أعظم جنود إبليس.

وقال الغزالي: إن التسويف يسبب أربعة أشياء: ترك الطاعة والكسل فيها، وترك التوبة وتأخيرها، والحرص على الدنيا والاشتغال بها، وقسوة القلب ونسيان الآخرة.

وقال الحسن: إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غدا لك فكن في غد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم.

- الحديث دليل على استحباب تبشير المسلم بما يسره.

قال تعالى (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين).

وقال تعالى (وبشروه بغلام عليم).

وقال معاذ للرسول (أفلا أبشر الناس؟) متفق عليه.

- الحديث دليل على استحباب سجود الشكر لقوله (فخررت ساجدا).

قال النووي: فيه دليل للشافعي وموافقيه في استحباب سجود الشكر بكل نعمة ظاهرة حصلت أو نعمة ظاهرة اندفعت.

ومما يدل على الاستحباب:

أ-حديث أبي بكرة - رضي الله عنه - (أن النبي ﷺ كان إذا جاءه أمر يسره خر ساجدا لله) رواه أبو داود.

ب- وعن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - قال (سجد النبي ﷺ فأطال السجود ، ثم رفع رأسه وقال: إن جبريل آتاني ، فبشرني ، فسجدت لله شكرا) رواه أحمد.

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله} بِتَرْكِ مَعَاصِيه {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين} فِي الْإِيمَان وَالْعُهُود بِأَنْ تَلْزَمُوا الصدق[1].

=

ج- وعن البراء بن عازب -رضي الله عنهما- (أن النبي ﷺ بعث عليا إلى اليمن - فذكر الحديث - قال: فكتب علي - رضي الله عنه - بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجدا) رواه البيهقي.

وقد روي عن أبي بكر أنه سجد لما جاءه خبر فتح اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب. رواه عبد الرزاق

وروي أن أمير المؤمنين عمر، سجد لما جاءه خبر بعض الفتوحات في عهده.

وسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حين وجد ذا الثدية مع قتلى الخوارج بعد وقعت النهروان بينه وبينهم، لأنه عرف أنه على الحق، لأن النبي ﷺ أخبر عن الخوارج أنهم شر الناس، وأن سيماهم: أن منهم رجلا ليس له ذراع، وعلى رأس عضده مثل ملحة الثدي.

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ} [التوبة: ١١٩]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه في كل ما تفعلون وتتركون".

قال مقاتل:" يعني: صدقوا بتوحيد الله- عز وجل- اتقوا الله ولا تعصوه في الهجرة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين، معرِّفَهم سبيل النجاة من عقابه، والخلاصِ من أليم عذابه: {يا أيها الذين آمنوا}، بالله ورسوله، {اتقوا الله} وراقبوه بأداء فرائضه، وتجنب حدوده".

قال محمد بن إسحاق: {واتقوا الله}، أي: أطيعوا الله".

وذكر أهل العلم في هذه الآية قولين:

=

=

أحدهما: أنها في أهل الكتاب، وتأويلها: يا أيها الذين آمنوا من اليهود بموسى، ومن النصارى بعيسى اتقوا الله في إيمانكم بمحمد ﷺ فآمنوا به، وكونوا مع الصادقين يعني مع النبي ﷺ وأصحابه في جهاد المشركين، قاله مقاتل بن حيان.

الثاني: أنها في المسلمين: وتأويلها: يا أيها الذين آمنوا من المسلمين اتقوا الله.

قال سعيد بن جبير:" يعني: الموحدين يحذرهم".

وفي المراد بهذه التقوى وجهان:

أحدهما: اتقوا الله من الكذب، قاله ابن مسعود.

عن عبيدة بن عبد الله بن مسعود، قال: " قال ابن مسعود: إن الكذب لا يحلُّ منه جدٌّ ولا هزلٌ، اقرءوا إن شئتم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ}، قال: وكذلك هي قراءة ابن مسعود: {من الصادقين}، فهل ترون في الكذب رُخْصَة؟".

قال الزجاج:" وقد رويت عن بعضهم «من الصادقين»، والمعنى واحد، ويجوز أن يكون ممن يصدق ولا يكذب في قول ولا فعل".

والثاني: اتقوا الله في طاعة رسوله إذا أمركم بجهاد عدوِّه.

عن نافع: " {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله}، قال: في الثلاثة الذين خلفوا... {اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}".

قال الطبري:" أنّ رسوم المصاحف كلّها مجمعة على: {وكونوا مع الصادقين}، وهي القراءة التي لا أستجيز لأحدٍ القراءةَ بخلافها، وتأويل عبد الله، رحمة الله عليه، في ذلك على قراءته، تأويلٌ صحيح، غير أن القراءة بخلافها".

قوله تعالى: {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩]، أي:" وكونوا مع الصادقين في أَيمانهم وعهودهم، وفي كل شأن من شؤونهم".

قال مقاتل:" في إيمانهم".

=

=

قال الطبري: أي:" {وكونوا}، في الدنيا، من أهل ولاية الله وطاعته، تكونوا في الآخرة، {مع الصادقين} في الجنة. يعني: مع من صَدَق اللهَ الإيمانَ به، فحقَّق قوله بفعله، ولم يكن من أهل النفاق فيه، الذين يكذِّب قيلَهم فعلُهم، وإنما معنى الكلام: وكونوا مع الصادقين في الآخرة باتقاء الله في الدنيا، كما قال جل ثناؤه: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين} [سورة النساء: ٦٩]".

وفي قوله تعالى: {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩]، أقوال:

أحدها: مع أبي بكر وعمر، وأصحابهما-رحمة الله عليهم-. قاله الضحاك.

وروي عن سعيد بن جبير:"مع أبي بكر وعمر-رحمة الله عليهما-".

الثاني: مع الثلاثة الذين خُلفوا حين صدقوا النبي ﷺ عن تأخرهم ولم يكذبوا، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة، وهلال بن أمية. قاله السدي.

والثالث: مع من صدق في قوله ونيته وعمله وسره وعلانيته، قاله قتادة.

والرابع: مع المهاجرين لأنهم لم يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ. ذكره مقاتل بن حيان، وحكاه الماوردي عن ابن جريج.

والخامس: أنهم النبي ﷺ وأصحابه. قاله نافع.

والسادس: مع الزاهدين في الدنيا، والذين يكفون عن اهل الملة. قاله الحسن.

والسابع: أن الصادقين هم الذين ذكرهم تعالى في قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات: ١٥]. وهذا قول مقاتل.

قال الزجاج:" على نسق الكلام يدل على أنهم أمروا بأن يكونوا مع النبي ﷺ في الشده والرخاء، ويجوز - والله أعلم - على هذا قوله: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: ٢٣]".

=

=

قال الطبري:"والصحيح من التأويل في ذلك، هو التأويل الذي ذكرناه عن نافع، والضحاك ".

قال القرطبي: قوله تعالى (وكونوا مع الصادقين) هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين.

قال مطرف: سمعت مالك بن أنس يقول: قلما كان رجل صادقا لا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

- قال أبو حيان: هذا خطاب للمؤمنين، أمروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن ربقة النفاق.

- الصدق يكون:

في الأقوال: ومعناه: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

وفي الأعمال: ومعناه: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

وفي الأحوال: ومعناه: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص.

عن ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، عن النبي ﷺ، قال: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها.

قال ابن القيم: الصادق مطلوبه رضى ربه، وتنفيذ أوامره، وتتبع محابه، فهو متقلب فيها، يسير معها أينما توجهت ركائبها، ويستقل معها أينما استقلت مضاربها، فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع المنافع.

=

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠).

{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَة وَمَنْ حَوْلهمْ مِنْ الْأَعْرَاب أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُول الله} إذَا غَزَا {وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسه} بِأَنْ يَصُونُوهَا عَمَّا رَضِيَهُ لِنَفْسِهِ مِنْ الشَّدَائِد وَهُوَ نَهْي بِلَفْظِ الْخَبَر {ذَلِكَ} أَيْ النَّهْي عَنْ التَّخَلُّف {بِأَنَّهُمْ} بِسَبَبِ أَنَّهُمْ {لَا يُصِيبهُمْ ظَمَأ} عَطَش {وَلَا نَصَب} تَعَب {وَلَا مَخْمَصَة} جُوع {فِي سَبِيل الله وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا} مَصْدَر بمعنى وطأ {يَغِيظ} يُغْضِب {الْكُفَّار وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوّ} لِلَّهِ {نَيْلًا} قَتْلًا أَوْ أَسْرًا أَوْ نَهْبًا {إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَل صَالِح} لِيُجَازَوْا عَلَيْهِ {إنَّ الله لَا يُضِيع أَجْر الْمُحْسِنِينَ} أَيْ أَجْرهمْ بَلْ يُثِيبهُمْ.

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١).

=

قال ابن تيمية: الصديقية: كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر ظاهرا وباطنا.

قال ابن القيم: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.

قال ابن القيم رحمه الله: إن الصادق لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضا محبوبه، ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه وتدنيه منه ، لا لعلة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها.

{وَلَا يُنْفِقُونَ} فِيهِ {نَفَقَة صَغِيرَة} وَلَوْ تَمْرَة {وَلَا كَبِيرَة وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا} بِالسَّيْرِ {إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ} بِهِ عَمَل صَالِح {لِيَجْزِيَهُمْ الله أَحْسَن مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أَيْ جَزَاءَهُمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ} [التوبة: ١٢٠]، أي:"ما كان ينبغي لأهل مدينة رسول الله ﷺ ومَن حولهم من سكان البادية أن يتخلَّفوا في أهلهم ودورهم عن رسول الله ﷺ".

قال الشوكاني:... زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ، وتحريم التخلف عنه: أي ما صح وما استقام لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب التخلف.

قال الشوكاني: وإنما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا، فلم ينفروا، بخلاف غيرهم من العرب، فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ.

قال مقاتل:" ثم ذكر المؤمنين الذين لم يتخلفوا عن غزاة تبوك فقال: {ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله} عن غزاة تبوك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لم يكن لأهل المدينة، مدينة رسول الله ﷺ {ومن حولهم من الأعراب}، سُكّان البوادي، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهم من أهل الإيمان به، أن يتخلفوا في أهاليهم ولا دارٍ لهم".

قوله تعالى: {وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ} [التوبة: ١٢٠]، أي:" ولا يرضوا لأنفسهم بالراحة والرسول ﷺ في تعب ومشقة".

قال الطبري: أي:" ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صحبته في سفره والجهاد معه، ومعاونته على ما يعانيه في غزوه ذلك".

عن قتادة: "يعني قوله: {ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه}، قال: إذا بعث الجيوش =

=

والسرايا فليس لهم أن يعروا نبي الله ﷺ، وإذا غزا نبي الله ﷺ بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بأمره".

قال الزمخشري: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وان يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه، علما بأنها اعز نفس على الله واكرمها عليه، لا ان يضنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ، وتهييج لمتابعته – عليه السلام –.

– **قال الشوكاني**: أي: وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيشحون بها ويصونونها، ولا يشحون بنفس رسول الله، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، يقال: رغبت عن كذا: أي ترفعت عنه، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق. ويبذلوا أنفسهم دون نفسه؛ وفي هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيده إيراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم، والتقريع الشديد، والتهييج لهم، والإزراء عليهم

– قال ابن عاشور: وفيه تعريض بالذين تخلفوا من أهل المدينة ومن الأعراب.

وذلك يدل على إيجاب النفير عليهم إذا خرج النبي ﷺ للغزو.

وقال قتادة وجماعة: هذا الحكم خاص بخروج النبي ﷺ دون غيره من الخلفاء والأمراء فهو محكم غير منسوخ.

وبذلك جزم ابن بطال من المالكية.

قال زيد بن أسلم وجابر بن زيد: كان هذا حكما عاما في قلة الإسلام واحتياجه إلى كثرة الغزاة ثم نسخ لما قوي الإسلام بقوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) فصار وجوب الجهاد على الكفاية.

وقال ابن عطية: هذا حكم من استنفرهم الإمام بالتعيين لأنه لو جاز لهؤلاء التخلف لتعطل الخروج. واختاره فخر الدين.

عن عمرو بن مالك، عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قال: "لما نزلت هذه الآية:

=

=

{ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه}، قال رسول الله ﷺ: والذي بعثني بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها".

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} [التوبة: ١٢٠]، أي:"ذلك بأنهم لا يصيبهم في سفرهم وجهادهم عطش ولا تعب ولا مجاعة في سبيل الله، ولا يطؤون أرضًا يُغضِبُ الكفارَ وطؤهم إياها، ولا يصيبون مِن عدو الله وعدوهم قتلا أو هزيمةً إلا كُتِب لهم بذلك كله ثواب عمل صالح".

قال الطبري:" يقول: إنه لم يكن لهم هذا من أجل أنهم، وبسبب أنهم {لا يصيبهم}، في سفرهم إذا كانوا معه {ظمأ} وهو العطش {ولا نصب}، يقول: ولا تعب، {ولا مخمصة في سبيل الله}، يعني: ولا مجاعة في إقامة دين الله ونصرته، وهدْم مَنَار الكفر، {ولا يطئون موطئًا}، يعني: أرضًا، يقول: ولا يطأون أرضًا {يغيظ الكفار}، وطؤهم إياها، {ولا ينالون من عدوّ نيلا}، يقول: ولا يصيبون من عدوّ الله وعَدُوّهم شيئًا في أموالهم وأنفسهم وأولادهم، إلا كتب الله لهم بذلك كله، ثوابَ عمل صالح قد ارتضاه".

قال مقاتل:" {ظمأ}، يعني: عطشا، {ولا نصب}، يعني: ولا مشقة في أجسادهم، {ولا مخمصة}، يعني: الجوع والشدة في سبيل الله".

قال الزجاج:" المخمصة: المجاعة، فأعلم الله أنه يجازيهم على جميع ذلك، وأنه يكتب لهم عملا صالحا".

ابن عباس في قوله: " {ولا مخمصة}، قال: مجاعة". وروي عن قتادة والسدي: مثل ذلك.

=

=

قال أسباط:" الظمأ: العطش".

قال السدي:" النصب: العناء".

وروي عن رجاء ابن حيوة، ومكحول: "أنهما يكرهان التلثيم من الغبار في سبيل الله".

عن علي ﷺ:"أن رسول الله ﷺ أراد أن يغزو فدعاني فعزم علي إلا تخلفت قبل أن أتكلم فبكيت، فقال: ما يبكيك يا علي؟ قلت: يبكيني خصال غير واحدة تقول قريش: ما أسرع ما تخلف عن ابن عمه وخذله! وتبكيني خصلة أخرى: كنت أتعرض للجهاد في سبيل الله لأن الله ﷻ قال: {ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار}، الآية وكنت أريد أن أتعرض للأجر من الله".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة: ١٢٠]، أي:" إن الله لا يضيع أجر المحسنين الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه، وحق خلقه".

قال الطبري:" يقول: إن الله لا يدع محسنًا من خلقه أحسن في عمله فأطاعه فيما أمره، وانتهى عما نهاه عنه، أن يجازيه على إحسانه، ويثيبه على صالح عمله. فلذلك كتبَ لمن فعل ذلك من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ما ذكر في هذه الآية، الثوابَ على كلّ ما فعل، فلم يضيِّع له أجرَ فعله ذلك".

وقد اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية، على قولين:

أحدهما: أنها محكمة، وإنما كان ذلك لرسول الله ﷺ خاصة، لم يكن لأحدٍ أن يتخلف إذا غزا خِلافَه فيقعد عنه، إلا من كان ذا عُذْرٍ. فأما غيره من الأئمة والولاة، فإن لمن شاء من المؤمنين أن يتخلَّف خلافه، إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة. وهذا قول قتادة، والأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، والفزاري، والسبيعي، وابن جابر، وسعيد بن عبد العزيز.

=

=

قال الوليد بن مسلم:" سمعت الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، والفزاري، والسبيعي، وابن جابر، وسعيد بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية: {ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله}، إلى آخر الآية، إنها لأوّل هذه الأمة وآخرها من المجاهدين في سبيل الله".

والثاني: أنها نزلت وفي أهل الإسلام قلة، فلما كثروا نسخها الله، وأباح التخلف لمن شاء، فقال: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) [سورة التوبة: ١٢٢]. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:" هذا حين كان الإسلام قليلا، فلما كثر الإسلام بعدُ قال: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة}، إلى آخر الآية". وفي رواية:" هذا حين كان الإسلام قليلا لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله ﷺ فلما كثر الإسلام وفشا، قال الله- ﷻ: وما كان المؤمنون لينفروا كافة".

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي، أن الله عنى بها الذين وصفهم بقوله: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ}، [سورة التوبة: ٩٠]. ثم قال جل ثناؤه: {ما كان لأهل المدينة}، الذين تخلفوا عن رسول الله، ولا لمن حولهم من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد معه، أن يتخلفوا خِلافَه ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه. وذلك أن رسول الله ﷺ كان ندب في غزوته تلك كلَّ من أطاق النهوض معه إلى الشخوص، إلا من أذن له، أو أمره بالمقام بعده. فلم يكن لمن قدر على الشخوص التخلُّف. فعدّد جل ثناؤه من تخلف منهم، فأظهر نفاقَ من كان تخلُّفه منهم نفاقًا، وعذر من كان تخلفه لعُذْرٍ، وتاب على من كان تخلُّفه تفريطًا من غير شك ولا ارتياب في أمر الله، إذ تاب من خطأ ما كان منه من الفعل. فأما التخلف عنه في حال استغنائه، فلم يكن محظورًا، إذا لم يكن عن كراهةٍ منه ﷺ ذلك. وكذلك حكم المسلمين اليوم إزاء إمامهم. فليس بفرضٍ على جميعهم النهوضُ

=

معه، إلا في حال حاجته إليهم، لما لا بُدَّ للإسلام وأهله من حضورهم واجتماعهم واستنهاضه إياهم، فيلزمهم حينئذ طاعته، وإذا كان ذلك معنى الآية، لم تكن إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخةً للأخرى، إذ لم تكن إحداهما نافيةً حكم الأخرى من كل وجوهه، ولا جاء خبر يوجِّه الحجة بأن إحداهما ناسخة للأخرى".

قوله تعالى: {وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ} [التوبة: ١٢١]، أي:" ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة في سبيل الله، ولا يقطعون واديًا في سيرهم مع رسول الله ﷺ في جهاده، إلا كُتِب لهم أجر عملهم".

قال أبو الليث السمرقندي:" ثم قال تعالى: {ولا ينفقون نفقة}، يعني: في الجهاد، {صغيرة ولا كبيرة}، يعني: قليلا ولا كثيرا. {ولا يقطعون واديا} من الأودية مقبلين إلى العدو أو مدبرين، {إلا كتب لهم}، يعني: كتب لهم ثواب".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله {نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً} أي: قليلا ولا كثيرا {وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا} أي: في السير إلى الأعداء {إِلا كُتِبَ لَهُمْ} ولم يقل ها هنا "به" لأن هذه أفعال صادرة عنهم".

قال ابن عطية: "قدم الصغيرة للاهتمام أي إذا كتبت الصغيرة فالكبيرة أحرى، و" الوادي " ما بين جبلين كان فيه ماء أو لم يكن، وجمعه أودية".

وقال الآلوسي: "وذكر الكبيرة بعد الصغيرة وان علم من الثواب على الأولى الثواب على الثانية لأن المقصود التعميم لا خصوص المذكور إذ المعنى ولا ينفقون شيئا ما فلا يتوهم أن الظاهر العكس".

قال قتادة: "ما ازداد القوم من أهليهم في سبيل الله بعدا، إلا ازدادوا من الله قربا".

قوله تعالى: {لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٢١]، أي:" ليجزيهم الله أحسن ما يُجْزَون به على أعمالهم الصالحة".

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢).

وَلَمَّا وُبِّخُوا عَلَى التَّخَلُّف وَأَرْسَلَ النَّبِيّ ﷺ سَرِيَّة نَفَرُوا جَمِيعًا فَنَزَلَ {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا} إلَى الْغَزْو {كَافَّة فَلَوْلَا} فَهَلَّا {نَفَرَ مِنْ كُلّ فِرْقَة} قَبِيلَة {مِنْهُمْ طَائِفَة} جَمَاعَة وَمَكَثَ الْبَاقُونَ {لِيَتَفَقَّهُوا} أَيْ الْمَاكِثُونَ {فِي الدِّين

=

قال أبو الليث السمرقندي:" يقول: ليجزيهم بأعمالهم، ويقال يجزيهم أحسن من أعمالهم، لأنه يعطي بحسنة واحدة عشرة، إلى سبعمائة، إلى ما لا يدرك حسابه، ويقال: ليجزيهم بأحسن أعمالهم وتصير سائر أعمالهم فضلا".

قال ابن كثير:" وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، كما قال عبد الله بن الإمام أحمد:... عن عبد الرحمن بن خَبَّاب السلمي قال: "خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرْقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا - يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: ما على عثمان ما عمل بعد هذا».

وقال عبد الله -أيضا-:.... عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جَهَّز النبي ﷺ جيش العسرة قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضَرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم». يرددها مرارا ".

وَلِيُنْذِرُوا قَوْمهمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ} مِنْ الْغَزْو بِتَعْلِيمِهِمْ مَا تَعَلَّمُوهُ مِنْ الْأَحْكَام {لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} عِقَاب الله بِامْتِثَالِ أَمْره ونهيه قال بن عَبَّاس فَهَذِهِ مَخْصُوصَة بِالسَّرَايَا وَالَّتِي قَبْلهَا بِالنَّهْيِ عَنْ تَخَلُّف وَاحِد فِيمَا إذَا خَرَجَ النَّبِيّ ﷺ(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة؛ قال: لما نزلت: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)}. قال المنافقون: هلك أهل البدو الذين تخلفوا عن محمد ﷺ ولم يغزوا معه وقد كان ناس خرجوا إلى البدو وإلي قومهم يفقهونهم؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً}؛ ونزلت: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)} [الشورى: ١٦].

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٥٠) من طريق الحميدي عن سفيان بن عيينة ثنا سليمان الأحول عن عكرمة قال: (فذكره). وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير؛ قال: كان المؤمنون لحرصهم على الجهاد إذا بعث رسول الله ﷺ سرية خرجوا فيها، وتركوا النبي ﷺ بالمدينة في رقة من الناس؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} أمروا إذا بعث النبي ﷺ سرية أن تخرج طائفة وتقيم طائفة، فيحفظ المقيمون على الذين خرجوا ما أنزل الله من القرآن وما يسن من السنن، فإذا رجع إخوانهم أخبروهم بذلك وعلموهم، وإذا خرج رسول الله ﷺ لم يتخلف عنه أحد إلا بإذن أو عذر.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٩١٠) من طريق وهب بن جرير عن أبيه =

=

عنه به.

وسنده ضعيف، لإرساله.

وعن مجاهد في قوله: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} الآية، قال: ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفًا ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال لهم الناس: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجًا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله -تعالى-: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} خرج بعض وقعد بعض يبتغون الخير {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} وليسمعوا ما في الناس وما أنزل بعدهم {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ} قال: الناس كلهم إذا رجعوا إليهم {لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ٤٨، ٤٩، ٤٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٩١٠، ١٩١١) من طريقين عن ابن أبي نجيح عنه. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* قوله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [التوبة: ١٢٢]، أي:" وما كان ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا لقتال عدوِّهم بحيث تخلو منهم البلاد".

قال ابن كثير:" هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} [التوبة: ٤١]، وقال: {مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ} [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية، وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم

=

=

بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفير المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء".

قال ابن عباس:" يعني: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا، ويتركوا رسول الله ﷺ في المدينة وحده".

وعن ابن عباس أيضا، قوله: " {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا}، وقوله: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}، فنسخ هؤلاء الآيات: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً}، يقول: لتنفر طائفة، ولتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ".

وعن ابن عباس قوله: " {كافة}، يقول: جميعا". قال ابن أبي حاتم:"وروي عن أبي العالية والربيع بن أنس وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان: نحو ذلك".

عن أبي مالك: "وكل ما في القرآن {فلولا}، فهو «فهلا»، إلا حرفين: في يونس: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَت}، والآخر: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُم} ".

وفي قوله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [التوبة: ١٢٢]، وجهان:

أحدهما: وما كان عليهم أن ينفروا جميعًا لأن فرضه صار على الكفاية وهذا ناسخ لقوله تعالى {انفِرُو خِفَافًا وَثِقَالًا}. قاله ابن عباس.

الثاني: معناه: وما كان للمؤمنين إذا بعث رسول الله ﷺ سَرية أن يخرجوا جميعًا فيها ويتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة حتى يقيم معه بعضهم، قاله عبد الله بن عبيد الله بن عمير.

قوله تعالى: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} [التوبة: ١٢٢]، أي:" فهلا خرج من كل فرقة جماعة تحصل بهم الكفاية والمقصود؛ وذلك ليتفقه القاعدون عن القتال فيعلموا ما تجدد من الأحكام في دين الله وما

=

=

أنزل على رسوله".

عن ابن عباس قوله: " {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة}، يعني: عصبة السرايا ولا يتسروا إلا بإذنه".

وعن ابن عباس أيضا: قوله: " {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين}، يعني: السرايا، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن، تعلمه القاعدون مع النبي ﷺ قال: إن الله قد أنزل على نبيكم بعدكم قرآنا، وقد تعلمنا سرايا آخرين فذلك قوله تعالى: ليتفقهوا في الدين يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، ويعلموا السرايا إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون".

وقال ابن عباس:" كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدونه من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله ﷺ: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا بما نقوله لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم؟ قال: فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم على الصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: من أسلم فهو منا، وينذرونهم، حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه".

وفي قوله تعالى: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} [التوبة: ١٢٢]، وجهان:

أحدهما: لتتفقه الطائفة الباقية إما مع رسول الله ﷺ في جهاده، وإما مهاجرة إليه في إقامته، قاله الحسن.

قال الحسن:" ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصر، وينذروا قومهم".

الثاني: أن الماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو لعلهم يحذرون. قاله ابن عباس.

وفي قوله تعالى: {طَائِفَةٌ} [التوبة: ١٢٢]، وجهان:

=

=

أحدهما: أنها عصبة. قاله ابن عباس.

والثاني: رجل. قاله مجاهد.

وفي قوله تعالى:(لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) [التوبة: ١٢٢]، وجهان من التفسير:

أحدهما: ليتفقهوا في أحكام الدين ومعالم الشرع ويتحملوا عنه ما يقع به البلاغ وينذروا به قومهم إذا رجعوا إليهم.

الثاني: ليتفقهوا فيما يشاهدونه من نصر الله لرسوله وتأييده لدينه وتصديق وعده ومشاهدة معجزاته ليقوى إيمانهم ويخبروا به قومهم.

قال ابن القيم: وقد اختلف في الآية:

فقيل: المعنى ان المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين فيكون النفير على هذا نفير تعلم والطائفة تقال على الواحد فما زاد.

وقالت طائفة أخرى: المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد، وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام.

وعلى هذا فيكون قوله (ليتفقهوا ولينذروا) للفرقة التي نفرت منها طائفة.

وهذا قول الأكثرين.

وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد.

قال الله تعالى (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم).

وقال تعالى (إلا تنفروا يعذبكم...).

وقال النبي ﷺ (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا). (تفسير ابن القيم).

قوله تعالى: {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢]،

=

=

أي:" وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إِذا رجعوا إِليهم من الغزو، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه".

عن ابن عباس قوله: " {ولينذروا قومهم}، ينذرون إخوانهم"، " {إذا رجعوا إليهم}، قال: من الغزو"، " {لعلهم يحذرون} ما نزل من بعدهم من قضاء الله وكتابه، وحدوده".

وفي قوله تعالى: {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ} [التوبة:١٢٢]، وجهان:

احدهما: معناه: ينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام، وينذرونهم النار، ويبشرونهم الجنة، يعني: يعلموه السرايا. قاله ابن عبس.

والثاني: أن معنى: {ولينذروا قومهم}، أي: الناس كلهم. قاله مجاهد.

(فائدة): العلم الشرعي ثلاثة أقسام.

القسم الأول: العلوم التي تعلمها فرض عين هي ما لا يسع الإنسان جهله من الفرائض كالشهادتين، والصلاة، وأركان الإسلام وما لا تتم إلا به، والمحرمات التي نص عليها الكتاب، أو السنة، أو أجمعت الأمة على تحريمه.

القسم الثاني: العلوم التي تعلمها فرض كفاية هي ما لا بد للناس منها في إقامة دينهم من العلوم الشرعية، كحفظ القرآن والأحاديث، وعلومهما والأصول، والفقه، واللغة والتصريف، ومعرفة رواة الحديث، والإجماع، والخلاف، وكذلك العلوم التي يُحتاج إليها في قوام أمر الدنيا كالطب، والحساب، والصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدنيا كالخياطة، والفلاحة ونحوهما.

وحجتهم فيه قوله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ} [التوبة:١٢٢]، فألزم النفير في ذلك البعض دون الكل ثم ينصرفون فيعلمون غيرهم.

قال الزمخشري: ({وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ

=

=

طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ} [التوبة:١٢٢] اللام لتأكيد النفي، ومعناه: أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح، ولا ممكن، وفيه: أنه لو صح وأمكن، ولم يؤد إلى مفسدة لوجب التفقه على الكافة).

وقال القرطبي: (هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة، والنبي ﷺ مقيم لا ينفر، فيتركوه وحده، فلو لا نفر بعدما علموا أن النفير لا يسع جميعهم من كل فرقة منهم طائفة وتبقى بقيتها مع النبي ﷺ ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموهم، وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان).

القسم الثالث: العلوم التي تعلمها على الاستحباب، كالتبحر في أصول الأدلة والإمعان فيما وراء القدر الذي يحصل به فرض الكفاية.

هذه أقسام العلم الشرعي، ومن العلوم الخارجة عنه ما هو محرم كتعلم السحر، ومنه ما هو مكروه كأشعار الغزل، ومنه ما هو مباح كالأشعار التي ليس فيها ما يعين على خير ولا شر، وبهذا فقد حوى العلم جميع الأحكام التكليفية على حسب نوع العلم. والله أعلم.

مسألة: في الآية: فضل العلم، ووجوب حفظه وتفريغ طائفة له تقوم بتحصيله ومن ثم تبليغه، لقوله: {ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم}.

ويجب على إمام المسلمين عدم إخلاء بلدان الإسلام من علماء يقومون بحفظ دين أهلها وفتياهم عند حاجتهم، والإصلاح بينهم عند خلافهم ونزاعهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ويجب عليه بعث النذر والدعاة والعلماء إلى البلدان؛ لإقامة حجة الله عليهم، وقال بعض السلف: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: {انفروا خفافا وثقالا} [التوبة: ٤١]؛ كما روي عن ابن عباس ومحمد بن

=

=

كعب وعطاء الخراساني.

ويجب على الإنسان ألا يسكن بلدا لا يجد فبها عالما يرفع جهله في الدين، والناس يحرصون على البلدان التي تصح فيها أبدانهم ويجدون فيها دواءهم عند مرضهم، ولا يسكنون الأراضي المقفرة والفيافي البعيدة التي لا يجدون فبها قواما لبدن ولا علاجا لسقم، فكذلك أمر الدين والعلم، وقد روى ابن أبي حاتم في "مناقب الشافعي"؛ أنه قال: "لا تسكن بلدا ليس فيه عالم يفتيك عن دينك، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك".

وفي الآية: دليل على أن داخل الأمة يحمى بالعلم، وخارجها يحمى بالجهاد، وأن العلماء حماة الأمة من داخلها، وأن المجاهدين حماة للأمة من خارجها، وإذا صلحت حالهما وتآلفت كلمتهما، صلح حال الأمة وقويت شوكتها، وإذا تنافر حماة الأمة: علماؤها ومجاهدوها، تمزقت وتسلل عدوها من خلالها.

وحفظ العلم فرض كفاية، وفي تسمية طلبه نفيرا في قوله: {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة} دليل على تشبيهه بنفير الجهاد، فالمتفرغ للعلم وتحصيله وتبليغه نافر كنفير المجاهد في سبيل الله، والعالم يجاهد بقلمه ولسانه، والمجاهد يجاهد بسيفه وسنانه، وإذا قاما بما أمرهما الله حق قيام، قامت الأمة وانتصرت وسادت، وبمقدار خلل النافرين فيها: العالم والمجاهد، يكون ضعف نصر الله وكفايته لها، فإذا زل العالم وحاد لسانه، وزل المجاهد وحاد سنانه، اضطرب أمر الأمة وتسلط عليها عدوها، وحيدة قلم العالم ولسانه: بكتمان الحق وتلبيسه على الناس بالباطل، وحيدة سنان المجاهد: بحرفه إلى المؤمنين، وسفكه دمهم، وعدم التورع عن حرماتهم.

ولا تتمكن الأمة وتحمى ثغورها إلا بلسان وسنان؛ لسان علم، وسنان سداد.

* وقد اختلف العلماء من السلف والخلف في التفاضل بين نفير العالم ونفير

=

=

المجاهد، وبين مداد العالم ودم الشهيد، وجاء في ذلك أحاديث مرفوعة؛ من حديث أبي الدرداء، وعبد الله بن عمرو، وابن عمر، وعقبة بن عامر، وابن عباس، في تفضيل مداد العالم على دم الشهيد، لا يثبت منها شيء، والأظهر: أن لكل مقاما في الإسلام عظيما، ومقام كل واحد بما يؤديه من أمر الله عليه، فالعالم لا يفضل على الشهيد لمجرد علمه، حتى يقوم به، والمجاهد لا يفضل على العالم لمجرد قيامه وحميته، حتى ليسد ثغرا ويحمي حرمة، والأحاديث في فضل دم الشهيد أكثر وأظهر، ولكن من نظر إلى حال الأنبياء وجد أنهم جميعا علماء، وليس كلهم شهداء، والعالم إذا قام بأمر الله، كان أثره عظيما في يومه ومن يخلفه من بعده، والشهيد عظيم أثره على نفسه وأهل زمنه، ومداد العالم أبقى في الناس؛ كمداد السلف الذين نصروا الدين وأحيوا السنة؛ كمالك وأحمد والشافعي والبخاري ومسلم، ومدادهم اليوم شاهد على عظمته وفضله وبقائه في الأمة، والمجاهد أحوج إلى العلم من العالم إلى الجهاد، والعالم بلا جهاد: ينفع، والمجاهد بلا علم: يضر.

ومداد العالم منشور يقرأ في الدنيا، ودم الشهيد مطوي ينشر في الآخرة، وأصدقهم في الدنيا أكثرهم توفيقا في الآخرة.

والعلم في ذاته أفضل من الجهاد في ذاته، وقد يفضل المجاهد العالم لمقامه وصدقه، وبمقدار ما حفظ وسد ووكل إليه من ثغر ورباط، والعالم والمجاهد إن قصر كل واحد منهما في أداء أمانته وجعل قصده غير الله، جمعهما الله جميعا في النار، وكان دخولهما واحدا، لعظم مقامهما في الدنيا، ويعظم المقام يكون عظم الخيانة؛ ففي مسلم؛ من حديث أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال:

=

=

جريء، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه ثم ألقي في النار).

* مسألة: تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في طلب العلم.

* أوجب أصحاب الفضيلة أن يبلغ الإنسان ما عنده من العلم للمحتاجين قل أو كثر.

* وذكروا أنه يحرم القول في الشرع بلا علم.

* وذكروا بأن الداعية ينبغي له أن يبدأ بالتوحيد تقريرا واستدلالًا ثم بأصول العبادات وما يحتاج إليه من المعاملات وليكن ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة.

* وذكروا بأن كل علم دنيوي تحتاجه الأمة وتتوقف عليه حياتها كالطب والزراعة والصناعة ونحوها داخل في العلوم التي يرفع أصحابها يوم القيامة درجات إذا تحقق الإخلاص وأحسن النية في طلبه.

* وأفتى أصحاب الفضيلة بأن طلب العلم الذي يتوقف عليه صحة الإيمان وأداء الفرائض لا يشترط فيه إذن الوالدين وما كان من العلوم فرض كفاية فلابد فيه من الإذن.

* وأفتوا بوجوب تحصيل العلم الذي تتوقف عليه صحة العقيدة والعبادة.

* وأفتوا بأنه لا يعذر بالجهل من عنده القدرة على تعلم ما يجب عليه من العلم

=

=

وأهمل ذلك.

* وأفتوا بعدم جواز تعلم نظرية دارون والتوالد الذاتي لما في ذلك من الخطر على المسلم في دينه ودنياه.

* وأفتوا بحرمة تعلم العلوم الإسلامية على يد كافر وأما العلوم الدنيوية فلا بأس بتعلمها منه بقدر حاجة الأمة.

* وأفتوا بأن تعلم الطب فرض كفاية.

* وذكروا بأن تعلم العلوم الدنيوية يكون عبادة إذا أخلص دارسها وحسنت فيها نيته.

* وأفتوا بأن حفظ القرآن فرض كفاية وأن حفظه من أفضل القربات إذا عمل به.

* وأفتوا بجواز قراءة القرآن جماعة لتعلم كيفية الأداء وإحكام الترتيل والتلاوة.

* وأفتوا بأن العالم يجب عليه أن يعمل بما ترجح لديه بالدليل الصحيح.

* وأفتوا بأنه يجب على العامي سؤال من يثق بعلمه إذا أشكل عليه شيء وعليه العمل بالفتوى.

* وأفتوا بأن المسئول إذا كان لا يعلم فليقل " لا أعلم " أو " الله أعلم " ولكن لا يقول " الله ورسوله أعلم " لأن النبي ﷺ قد مات ولا يعلم ما يحدث للناس ولكن هذا كان جائزا في حياته فقط وأما بعد وفاته فلا.

* وأفتوا بوجوب متابعة الدليل سواء وافق المذهب الذي أنت عليه أو خالفه.

* وأفتوا بعدم جواز التنقل من مذهب لآخر لمجرد الهوى.

* وذكروا بأن ترك طلب العلم بحجة خشية التقصير في العمل من مخادعة الشيطان.

* وأفتوا بلزوم أخذ العلم عن طريق العلماء العاملين ولا يقتصر فيه على مجرد الكتب والأشرطة.

=

=

* وذكر أصحاب الفضيلة بأن العلماء ليسوا بمعصومين من الخطأ وإن أخطأ الواحد منهم لا ينقص من قدره ما دام قصده الحق وأنه لا تجوز الوقيعة في أعراضهم لكن ينبه على الخطأ مع احترام جناب العلماء ومعرفة قدرهم إلا من كان مبتدعا داعية لبدعته فإنه يحذر منه ومن كتبه لأنه من بيان الحق والنصيحة للخلق.

* وأوصى أصحاب الفضيلة في مواضع كثيرة بالاستماع إلى إذاعة القرآن الكريم.

* وأوصوا كثيرًا بكتاب التوحيد وثلاثة الأصول وكشف الشبهات والقواعد الأربع وفتح المجيد والعقيدة الواسطية وتفسير ابن كثيرة وبلوغ المرام وعمدة الأحكام وبالصحيحين وشرحهما: فتح الباري وشرح النووي.

* وأفتوا بجواز أخذ مقلم القرآن الهدية من أحد المتعلمين عنده ومن غيره.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن كتاب الجواهر في معرفة الكبائر لا يعتبر أصلا يعتمد عليه في معرفة الأحكام ولا في التمييز بين الصغائر والكبائر.

* وأفتوا بأن مختصر الصابوني لتفسير ابن كثير لا يعتبر مرجعا في التفسير لما فيه من المؤاخذات.

* وحذر أصحاب الفضيلة من قراءة كتب المبتدعة كالرافضة.

* وحذروا من كتاب شموس الأنوار وكتاب الرحمة وكتاب أبي معشر الفكي لما فيها من دعوى على الغيب والألفاظ الشرعية.

* وأفتوا بكراهة تعلم اللغة الأجنبية إلا مع قيام الحاجة لتعلمها.

* وأفتوا بحرمة تعلم القوانين الوضعية لتطبيقها مادامت مخالفة للشرع وأما دراستها لكشف عوارها وفضح تناقضها فلا بأس.

* ومنع أصحاب الفضيلة دراسة المنطق والفلسفة إلا لمن عنده من القلم الشرعي ما يميز به بين حقها وباطلها.

=

=

* وأفتوا بحرمة السفر لديار الكفار لمجرد الدراسة بها إلا فيما لا يتيسر في بلاد المسلمين.

* وأفتوا بعدم جواز السكن مع العائلات الكافرة لما في ذلك من الفتنة.

* وأفتوا بعدم جواز إيراد الشبهة وتقييدها إلا مقرونة بما يبطلها من الكتاب والسنة وكلام أهل العلم.

* وأفتوا بأنه لا يجوز للوالد أن يلحق أولاده بمدارس غير أسلامية خشية الفتنة وفساد العقيدة.

* وأجاز أصحاب الفضيلة التحاق المرأة بالمدارس المخصصة لهن مع مراعاة ضوابط الشرع في الحجاب ونحوه.

* وأفتوا بأنه لا يجوز للرجل تدريس المرأة مباشرة.

* وأفتوا بأنه لا تحوز الدراسة المختلطة بين الرجال والنساء.

* وأفتوا بجواز قبول أولاد النصارى في مدارس دار الإسلام ليتعلموا الإسلام بشرط من الفتنة.

* وأفتوا بحرمة عمل المرأة في مكان يوجب عليها الاختلاط بالرجال.

* وأفتوا بجواز حضور الندوات الطبية بشرط عدم الاختلاط.

* وأوجب أصحاب الفضيلة ترك الوظيفة أو المدرسة التي فيها اختلاط.

* وأفتوا بحرمة تعلم تصوير ذوات الأرواح.

* وأفتوا بحرمة تدريس الموسيقى وبحرمة تعلمها.

* وأفتوا بأنه لا يجوز استخدام المعازف ولا غيرها من آلات اللهو لا في الأناشيد الإسلامية ولا في غيرها ولا في التعليم ولا في غيره.

* وأفتوا بحرمة الشعر إذا كان مشتملا على الكذب أو الشرك أو المجون، وبجوازه إذا كان في دعوة للخير ونصر للحق ونحو ذلك.

=

=

* وأفتوا بحرمة كتابة القصص الكاذبة، وأن في القصص الثابتة في القرآن والسيرة ما يكفي.

* وحذر أصحاب الفضيلة من التعصب للمذاهب بعد بيان الحق.

* وأفتوا بحرمة الغش في امتحانات الدراسة وأنه من كبائر الذنوب.

ولا فرق بين المواد في هذه المسألة أي دينية.

* وذكروا بأن إملاء المراقبين الإجابات في الامتحان للطلاب من الخيانة والغش.

* وأفتوا بأنه لا يجوز للطالب إذا كلف ببحث من قبل المدرسة أو الجامعة ونحوها أن يكلف رجلًا آخر يبحثه عنه بأجرة أو بغير أجرة بل هذا من الغش والكذب والتزوير.

* وأفتوا بعدم جواز تنجيح الطلاب مع عدم استحقاقهم بحجة عدم تعقيدهم من المادة.

* وأفتوا بأن ضرب الدفوف للإعلام بوقت ومكان الدروس من البدع الممقوته.

* وأفتوا بأن السنة أن تكتب (ﷺ) هكذا وأما (ص) أو (صلعم) فإنه مخالف للسنة.

* وأفتوا بجواز تسجيل العلم في المسجلات الحديثة.

* وأفتوا بعدم جواز تخصيص يوم السبت أو الأحد أو كلاهما بالعطلة لما في ذلك من مشابهة أهل الكتاب.

(فصل)

* وذكر أصحاب الفضيلة أن على الداعية التسلح بالعلم النافع والعمل الصالح وأن يكون صابرًا على ما يناله في سبيل دعوته وأن يكون ذا رفق وحلم وأناة وأن يبدأ بالأهم فالمهم.

* وذكروا بأن للمرأة مجال للدعوة في بيتها لأسرتها من زوج ومحارم رجالًا

=

=

ونساءً وكذلك خارج بيتها للنساء إذا أمنت الفتنة.

* وأفتوا بجواز إعطاء النصراني الكتب المشتملة على آيات القرآن.

* وذكروا بأنه لا فرق بين المسجي العربي وغير العربي.

* وأفتوا بحرمة إقامة علاقة الود والمحبة والإخاء بين المسلم والكافر.

* وأفتوا بجواز إجابة دعوة الكافر الكتابي لتأليفه للإسلام.

* وأفنوا بجواز دخول أهل العلم للكنائس لدعوة أهلها إلى الإسلام أما لأجل الفرجة فقط فلا ينبغي.

* وأفتوا بجواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن الدعوة إلى توحيد الأديان دعوة خبيثة ما كرة شاملة وإلغاء الفوارق بين الإسلام والكفر وكسر حاجز النفرة بين المسلمين والكفار.

* وأفتوا بأنه لا يجوز للمسلم أن يدعو البتة إلى هذه الدعوة الخبيثة والفكرة الآثم.

* وأفتوا بحرمة طباعة التوراة والإنجيل منفردين فكيف مع القرآن الكريم في غلاف واحد فالداعي إلى ذلك في ضلال بعيد.

* وأفتوا بعدم جواز الاستجابة لبناء مسجد وكنيسة ومعبد في سور واحد لما في ذلك من الاعتراف بدين أهل الشرك.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن التنصر في العالم الإسلام يتم عبر قنوات منها: إرسال البعثات التنصيرية إلى بلدان العالم الإسلامي، ومنها: عبر التطبيب، ومنها: التنصير عن طريق التعليم ومنها: التنصير عن طريق الإعلام، وذكر أصحاب الفضيلة بعد ذلك أن المسلم ينبغي له مواجهة هذا السيل الهادر وذلك بتأصيل العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، وبث الوعي الديني الصحيح في طبقات الأمة، والتأكيد على المنافذ التي يستخدمها المنصرون لنتاجهم التنصيري،

=

=

وتبصير الناس وتوعيتهم بمخاطر التنصير والاهتمام بالجوانب الأساسية في الحياة كالجانب الطبي والتعليم والإعلام، والقدوم من السفر إلى بلاد الكفار إلا بالشروط الشرعية. وتنشيط التكافل الاجتماعي ليقوم الغني بالفقير والقادر بالعاجز.

* وأفتوا بعدم جواز سؤال أكثر من عالم من باب إتباع الهوى في الأخذ بالأسهل.

* وذكروا بأن عبد الله الهرري الحبشي رجل سوء من رؤوس البدعة والضلال في هذا العصر والواجب على المسلمين في كل مكان الحذر والتحذير من هذا الرجل وفرقته الأحباش.

** مسألة: فوائد من مصنفات العلامة ابن عثيمين في طلب العلم.

العلم خير ما أعطي الإنسان بعد الإسلام: قال الشيخ رحمه الله: لا شك أن العلم أشرف ما يلقاه الإنسان بعد الإسلام، فهو خير من المال، وخير من الأولاد، وخير من الأزواج، وخير من الدنيا كلها، وانظر إلى العلماء الذين نور علمهم بين أيدينا اليوم... صاروا يدرسون الناس وهو في قبورهم، وهذه فضيلة عظيمة للعلم، فما أعطي الإنسان بعد الإسلام خيرًا من العلم... فيجب على طالب العلم أن يشكر الله تعالى على نعمته عليه، حيث خصه بالعلم الذي حرمه كثيرًا من الناس.

تعلم العلم وتعليمه من ذكر الله: قال الله ﷻ: {يا أيها الذين آمنوا إذا نودِي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} [الجمعة:٩].

قال الشيخ رحمه الله: قوله: إلى ذكر الله [يُفيد أن الخطبة من ذكر الله تعالى، ونستفيد من هذا فائدة مهمة، وهي أن العلم تعليمه وتعلمه من ذكر الله تعالى، لأن الخطبة ما هي إلا تعليم للعلم، وتعلم له. من طلب العلم لنصرة هذا الدين فسيجد انشراحًا في صدره: قال الشيخ رحمه الله: لو شعرنا أننا نطلب العلم ونحن

=

=

مجاهدون في سبيل الله، لصارت صدورنا أشد انشراحًا... أنا أقول: طالب العلم يجب أن يقصد بطلب العلم نصرة هذا الدين، وحماية هذا الدين من أعدائه، وبهذا ينشرح صدره. الإخلاص في طلب العلم الشرعي: قال الشيخ رحمه الله: نصيحتي لكل إنسان دخل في جامعة يطلب فيها العلم الشرعي وما يسانده من العلوم أن يخلص لله تعالي في طلب العلم، بأن ينوى بذلك رفع الجهل عن نفسه، وعن غيره من المسلمين بأن ينوي بذلك حفظ شريعة الله وحمايتها من أعدائها، وأن يذود عنها بقدر المستطاع بمقاله وقلمه، حتى يؤدي ما يجب عليه، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: العلم لا يعدله شيء لمن صلُحت نيته.. قالوا: وكيف ذلك يا أبا عبدالله؟ قال: ينو بذلك رفع الجهل عن نفسه وعن غيره، وقال رحمه الله: "تذاكُرُ بعض ليلةٍ أحبُّ إلي من إحيائها" وهذا يدل على فضيلة طلب العلم، لكن بشرط الإخلاص. طلب العلم على العالم المعروف بسلامة العقيدة، والمنهج، والمقصد: قال الشيخ رحمه الله: اختر العالم المعروف بسلامة العقيدة، هذه واحدة. والمعروف بسلامه مقصده يعني أنه لا يقصد الرياء والفخر والعلو على الناس. ثالثاُ: سلامة المنهج، لأن بعض العلماء عقيدته سليمة، وبعض العلماء إرادته سليمة أيضًا، ولا يُريد العلو ولا الاستكبار، لكن منهجه رديء، فيتكلم في عيوب غيره، ولا يتكلم في عيوب نفسه. فأقول... الذي يُريدُ أن يطلب العلم: اختر من يُعرف بسلامة العقيدة وحُسن القصد وسلامة المنهج، فهذا لا بُدَّ منه، وإذا اخترت مثل هذا العالم فإنه يُرجى لك النجاح.

الحذر من الأخذ عن أهل البدع: قال رحمه الله: أهل البدع عفاريت يأتون بأساليب إذا قرأها الإنسانُ قال ما شاء الله هذا كلام طيب، وهذا كلام حسن فيغترُّ بها... ولا شك أن أهل الباطل في كتبهم يُزخرفون القول ويُزينونه بالعبارات حتى يظن القارئُ أنه حق فيلتبس عليه الأمر. وقال رحمه الله: الأخذ عن أهل البدع

=

=

يسأل عنها بعض الطلبة وهي أخذ العلم عن عالم معروف ببدعة من البدع لكنه متقن لفنٍّ من الفنون كالنحو أو الفرائض، فما الحكم؟ الجواب: أن الأخذ عن هؤلاء يُخشى منه أمران: الأول أن هؤلاء المبتدعة عندهم ذكاء وفطنة، وغالبهم عندهم بيان، فيُخشى أن يستجرُّوا هؤلاء إلى بدعتهم، ولو على الأقل بالأمثلة - إذا كانوا يدرسون في النحو مثلًا-الثاني: أنه إذا تردد إليهم الإنسان الموثوق، اغتر الناس بذلك، فظنوا أنهم على حق... فلهذا يجد الحذر بقدر الإمكان، والعلم الذي عندهم -بحمد الله- قد يكون عند غيرهم من أهل السنة. التعلم الجاد: قال الشيخ رحمه الله: قال البخاري رحمه الله: (وإنما العلم بالتعلم) أي: ما العلم إلا بالتعلم، فليس العلم يأتي هكذا هدية للإنسان كأنه طبق طعام، بل هو بالتعلُّم، وأيضًا بالتعلم الجاد لا بالتعلم المتقطع، ولا بالتعلم المتماوت، ويُقال: اجعل كلك للعلم يأتك بعضه وإن جعلت بعضك للعلم فاتك العلم كله فلا بد من التفرغ التام للعلم والاجتهاد التام والمذاكرة والمناقشة، لأن المذاكرة تحفظ العلم والمناقشة تفتح فهم الإنسان حتى يستطيع أن يعرف الأدلة ويستنتج الأحكام منها ويعرف كيف بتخلص من الأشياء المتشابهة والمتعارضة وهذا أمر مُجرب. أبرك العلم ما يحصل في المساجد على المشايخ: قال الشيخ رحمه الله: العلم لا يقتصر طلبه في الحضور إلى الكليات ودراسة موادها، بل إن من أبرك العلم تحصيلًا وتأثيرًا في النفس وفي العمل والمنهج هو ما يحصل في المساجد، فما أبرك علم المساجد لأن المساجد فيها خير وبركة، ولذلك أنا أقول لكم عن نفسي: إن العلم الحقيقي الذي أدركته هو العلم الذي قرأته على المشايخ، وإن كنت استفدت من الجامعة في فنون أخرى، لكن العلم الراسخ المبارك هو ما يدركه الإنسان عند المشايخ... ولذلك أنا أحثُّ الطلاب على ألا يقتصروا على مواد الجامعة إذا كان لديهم وقت وقدرة. أهمية الحفظ لطالب العلم: قال الشيخ

=

=

رحمه الله: قد أراد بعض الناس أن يمكروا بنا، فقالوا لنا: " إن الحفظ لا فائدة فيه، وأن المعنى هو الأصل، ولكن الحمد الله أنه أنقذنا من هذه الفكرة، وحفظنا ما شاء الله أن نحفظ من متون النحو وأصول الفقه والتوحيد، وعلى هذا فلا يستهان بالحفظ، فالحفظ هو الأصل، ولعل أحدًا منكم الآن يذكر عبارات قرأها من قبل مدة طويلة، فالحفظ مهم لطالب العلم، حتى وإن كان فيه صعوبة، وقال رحمه الله: الطريقة المثلى لحفظ القرآن الكريم أن تحفظه وأنت صغير السن... ففي حفظ القرآن حال الصغر فائدتان: الفائدة الأولى: سهولة الحفظ. الفائدة الثانية: رسوخ المحفوظ في القلب بحيث لا ينساه. الوقت المناسب لحفظ القرآن الكريم: قال الشيخ رحمه الله: أما الوقت فأحسن ما يكون في أول النهار إذا صليت الفجر أن تقرأ القرآن لتحفظه. الوقت المناسب للمراجعة: قال الشيخ رحمه الله: أحسن ما رأيت في العلم أن الإنسان إذا حفظ شيئًا اليوم يقرؤه مبكرًا في صباح اليوم التالي، فإن هذا مما يعين كثيرًا على حفظ ما حفظه في اليوم، وهذا شيء فعلته فكان مما يعين على الحفظ الجيد. الاعتناء بتفسير القرآن الكريم قال رحمه الله: هنا مسألة: وهي أني أريد أن أنبه طالب العلم أنه يجب عليه أن يعتني بالتفسير فكثير من طلاب العلم يعتني بالعقيدة وهذا طيب، وكثير منهم يعتني بالفقه وهذا طيب وكثير منهم يعتني بالحديث وهذا طيب أيضًا ولكن فيما أرى-والعلم عند الله-قليل من يعتني بالتفسير وهذا من العجائب، فالقرآن الكريم مملوء من كل خير، أحيانًا تحاول أن تطلع على كلام الفقهاء في حكم مسألة من المسائل وتحاول فلا تجدها وإذا هي موجودة في القرآن والله ﷻ يقول: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكُل شيءٍ} [النحل:٨٩] ولهذا القرآن فيه كنوز عظيمة، حتى إن الإنسان يقف أحيانًا يتأمل ما وجه ارتباط هذا بهذا، أو ما وجه كون هذه الكلمة مرفوعة أو منصوبة أو ما أشبه ذلك، فعليك بالتفسير، لكن لو قرأ طالب العلم في

=

=
التفسير دون أن يسبق له شيء من علوم الآلة كعلوم اللغة بفروعها قد لا يدرك شيئًا. طريق العلم يشمل الطريق الحسي، والطريق المعنوي: قال الشيخ رحمه الله: قوله ﷺ: («من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا») يشمل الطريق الحسِّيَّ، كأن يتردد الإنسان من بيته إلى مكان العلم، والطريق المعنوي، وذلك بالتفكر والتَّدبر، وقراءة الكتب، والمُباحثة مع أهل العلم والإخوان، كل هذا طريق يُوصل إلى العلم. أسباب الفتور عن طلب العلم: قال الشيخ رحمه الله: أسباب الفتور في طلب العلم أو غيره من فعل الطاعات أولًا: ضعفُ الهمَّة والعزيمة، وإلا فالإنسان ينبغي كلما ازداد في طلب العلم أن يزداد نشاطًا، لأنه يجد زيادةً في معلوماته، فيفرحُ كما بفرح التاجر إذا ربح في سلعة فتجده ينشط... ذلك طالب العلم ما دام جادًا في طلبه الصادق، فإنه كلما اكتسب مسألة ازداد رغبةً في العلم، أما الإنسان الذي لا يطلب العلم إلا ليقضي وقته فقط، فهذا يلحقه الفتور والكسل. ثانيًا: إن الشيطان يُيئِّسُ طالب العلم، يقول: المدى بعيد! ولا يمكن أن تُدرك ما أدرك العلماءُ، فيكسل ويدعُ الطلب، وهذا غلط. ثالثًا: مصاحبةُ الأشقياء، فإن الصحبة لها تأثير على الإنسان... حتى إنها تؤثر على الإنسان لا في ترك طلب العلم بل حتى في العبادة. رابعًا: التلهي عنه بالمغريات، وإضاعة الوقت، مرة يخرجُ، (يتمشى)، وبعض الناس يكون مفتونًا بمشاهدة ألعاب الكرة، وما أشبه ذلك. خامسًا: إن الإنسان لا يُشعرُ نفسه بأنه حال طلبه العلم كالمجاهد في سبيل الله، بل أبلغ، يعني: إن طلب العلم من حيث هو أفضل من الجهاد في سبيل الله، لا شك في هذا، لأن طالب العلم يحفظ الشريعة ويُعلمُها الناس، والمجاهدُ غايةُ ما فيه أنه يصدُّ واحدًا من الكفار عن التأثير في الدين الإسلامي، لكن هذا ينفع الأمة كلها. هذا ما حضرنا الآن من أسباب الفُتور في طلب العلم، فعليك أيها الطالب أن تكون ذا همةٍ عاليةٍ، وأن تترقب المستقبل وأنك بإخلاصك النية لله قد تكون إمامًا في
=

=

الإسلام أسباب زيادة العلم: قال الشيخ رحمه الله: العلمُ يزدادُ بأسباب: السَّببُ الأولُ: بذل العلم والتعليم، فتعليم العلم من أسباب الزيادة السبب الثاني: المُراجعةُ للكتب، يُراجع الإنسانُ الكُتُب المُؤلفة في العلم ويُطالعها. السبب الثالث: العملُ بما علم، فإن الإنسان إذا عمِل بما علِم زاده الله علمًا، قال الله تبارك وتعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم} [محمد:١٧] وقال تعالى: {ويزيد الله الذين اهتدوا هُدى} [مريم:٧٦] وقال تعالى:) {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون} [التوبة:١٢٤ - ١٢٥] السبب الرابع: البحث مع الزملاء، ومع الأساتذة، ومع كل من تستفيدوا منه في البحث معه فإن البحث يُزيدُ العلم. السبب الخامسالمواظبة والمثابرة على العلم دراسة وتحصيلًا ولهذا قال النبي ﷺ: «تعاهدوا القرآن فو الذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفلتًا من الإبل في عُقُلها» ولا تظنُّ أن العلم ينالُ براحة الجسم، فالعلم لا ينال إلا بالتعب: التعب الفكري والبدني، وأما يريده بعض الناس من أنه ينال العلم بلا تعب، فهذا خطأ في التفكير، وخطأ في التقدير أيضًا، يقول بعض العلماء: أعطِ العلمَ كُلك تُدرك بعضه، وأعطه بعضك يفوتك كُلُّه، فلا بد من المثابرة على العلم حتى يبقى ويزداد. أسباب اختلاف الناس في الفهم: قال الشيخ رحمه الله: الناس يختلفون اختلافًا كثيرًا في الفهم من وجوه متعددة: أولًا: بالإيمان، فإنه كلما قوي إيمان الشخص قوي فهمُه في شريعة الله تعالى، سواء من الكتاب أو السنة، لأن الإيمان نور يقذفه الله تعالى في القلب، فيُبصرُ به ما لا يُبصرُهُ غيره. ثانيًا: بالعمل الصالح، فإن الإنسان يزدادُ بالعمل الصالح فهمًا في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ، قال الله تبارك وتعالى: {ويزيد الله الذين اهتدوا هُدى} [مريم:٧٦] وقال تعالى: {والذين اهتدوا زادهم

=

=

هدى وآتاهم تقواهم} [محمد:١٧] ثالثًا: كثرة القراءة والتَّدبُّر في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ، لقول الله تعالى: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أُولوا الألباب} [ص:٢٩] وقال تعالى: {وهذا كتاب أنزلناه مُبارك} [الأنعام:٩٢] وقال الله تعالى: {ولقد يسرنا القرآن للذكر} [القمر:١٧] فمتى كثرت مُمارسةُ الإنسان لقراءة القرآن والأحاديث النبوية، وتدبره لما فيهما من المعاني ازداد فهمًا. رابعًا: الفهم الغريزيّ، الذي يمُنُّ الله تعالى به على من يشاء من عباده فإن الناس يختلفون في الفهم الغريزي اختلافًا كثيرًا، خامسًا: قلة الشواغر، فإن الذهن آلة إذا أشغلتها بشيء انشغلت به عن الشيء الآخر، ولهذا لا ينبغي لطالب العلم أن يشتغل بالأشياء الجانبية التي لا تُعينه على علمه، لأن هذه مع تضمنها إضاعة الوقت هي أيضًا تُدمرُ الذِّهن وتُشتِّته، وتجعله يتكلم بما ليس فيه فائدة، بل بما فيه مضرة. عدم الانشغال عن طلب العلم بتتبع الأخبار والأحداث: قال رحمه الله: هناك فقه... ظهر أخيرًا وهو الفقه بالواقع الذي علق عليه بعض الناس وقالوا: من لم يكن فقهيًا بالواقع فليس بعالم، ونسوا أن النبي ﷺ قال: («من يُرد الله به خيرًا يُفقه في الدين») ثم غفلوا عن حقيقةٍ واقعةٍ وهي: الاشتغال بفقه الواقع يشغل صاحبه عن فقه الدين، بل رُبما يشغله عن التعبد الصحيح، وهو عبادة الله وحده... والحقيقة ان إشغال الشباب بتفقه الواقع صدّ لهم عن الفقه في دين الله، لأن القلب وعاء إذا امتلاء بشيءٍ امتنع عن الآخر، فلا يمكن أن يمتلئ بهذا وهذا، فإشغال الإنسان بالفقه في الدين وتحقيق العبادة والتوحيد والإخلاص خير له من البحث عن الواقع، وماذا عن فلان؟ وماذا عن فلان؟ وربما يتلقون فقه الواقع من روايات ضعيفة أو موضوعة في وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، أو يبنون فقه واقع على تقديرات وتخمينات يقدرها الإنسان... وصاحب فقه الواقع يعلل بتعليلات قد تكون بعيدة من الواقع، أو ينظر إلى أشياء خطط لها الأعداء من

=

=

قبل على واقع معين، تغير هذا الواقع وزال بالكلية، فأصبحت هذه الخطط لا شيء. قال الشيخ رحمه في الله: أما من يُريدك بدلًا من أن تركز على طلب العلم تتتبع الإذاعات وماذا حدث في العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه، فهذا غير صحيح، ولا شك أن الإنسان يهتم بأمور المسلمين، لكن ليس معناه أنه ينشغل بها عما هو أهم، وهو تضيع لوقته، لأنه في الحقيقة هذه المشاكل الآن ليس باستطاعتنا حلُّها... وعندي أن طلب العلم في قمة ما يقوم من الأشياء بعد أركان الإسلام، لأن الناس الآن عندهم ضلال... فلا بد أن يكون هناك أناس يتخصصون في العلم ويرتقون فيه ويُعرفون بين الناس حتى يهتدي بهم الناس. الرجوع إلى الكتاب والسنة عند طلب حكم مسألة من المسائل: قال الشيخ رحمه الله: والعجيب أني أحيانًا وهذا عن نفسي أطلب حُكم مسألةٍ من المسائل، فيما عندي من كتب الفقهاء، وفيما أعرفه من السنة، ولا أجدها، ثم أتأمل في آية من القرآن توحي بحكم هذه المسألة، فإذا تأملت وجدت الحكم في القرآن، فيطمئن الإنسان إلى القرآن {تبيانًا لكُل شيءٍ} وهداية لكل حائر. وقال: نحن جربنا بأنفسنا فأحيانًا تمر بنا المسألة نطلبها فيما عندنا من كتب أهل العلم فلا نجد لها حكمًا، ثم إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة ورسوله ﷺ، وجدناه قريبة يتناولها اللفظ بعمومه، أم بمفهومه، أو بإشارته، أو بلازمة، أو غير ذلك من أنواع الدلالة المعروفة. أهمية معرفة الأصول والقواعد والضوابط: قال الشيخ رحمه الله: لا بد من معرفة الأصول والقواعد، ومن لم يعرف الأصول حرم الوصول، وكثير من طلبة العلم تجده يحفظ مسائل كثيرة، لكن ليس عنده أصل، لو تأتيه مسألة واحدة شاذة عما كان يحفظه ما استطاع أن يعرف لها حلًا، لكن إذا عرف الضوابط والأصول استطاع أن يحكم على كل مسألة جزئية من مسائله، ولهذا فأنا أحثُّ إخواني على معرفة الأصول والضوابط والقواعد لما فيها من الفائدة العظيمة،

=

=

وهذا شيء جربناه، وشاهدناه مع غيرنا على أن الأصول هي المهم الخير في كلام السابقين: قال رحمه الله: من خلال طلبي للعلم وجدت كل الخير في كلام من سلف ولهذا تجد العلماء السابقين يتكلم أحدهم بنحو سطرين أو ثلاثة فتحصل منها على خير كثير. نصيحة بقراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم رحمهما الله قال الشيخ رحمه الله: أنا أنصح إخواني طلبة العلم بقراءة كتب شيخ الإسلام رحمه الله وابن القيم... وقد أوصى بهما شيخنا رحمه الله عبدالرحمن بن سعدي لأنه رحمه الله انتفع بكتب الشيخين انتفاعًا كبيرًا، ونحن انتفعنا بهما والحمد لله، فنشير على كل طالب علم أن يقرأهما وينتفع بهما. عدم الاستعجال والإفتاء بقول أكثر أهل العلم بخلافه: قال الشيخ رحمه الله: إذا كان أكثر الناس على قول مثلًا، وأنت ترى أن خلافه هو الأصح، فلا تستعجل، لأن كون أكثر الأمة بخلاف ما فهمت، هذا يدلُّ على أن وراء فهمك شيئًا، لهذا كلما قوي الخلاف في مسألة من المسائل، أو كان أكثر أهل العلم عليه، فلا تعدل عنه إلا بعد التريث الشديد. وقال رحمه الله: الإنسان إذا توهَّم حكمًا دلَّ عليه الكتاب والسنة والجمهور على خلافه فإن الواجب عليه أن يتأني وألا يُقدم على الفتوى به أو العمل به، لأن مخالفة جمهور العلماء لها قيمتها ووزنها، كيف يكون جمهور العلماء على هذا وأنت تفهم شيئًا آخر؟! تأنَّ في الموضوع، ولهذا نجد الذين يتسرعون الآن إلى الأقوال الشاذة يكثرُ منهم الخطأُ. وصية نافعة من عامي للشيخ ووصية الشيخ بها: قال الشيخ رحمه الله: لقد أوصاني رجل من عامة الناس، قال لي: يا بُني احرص على نشر العلم حتى في المجالس كمجالس القهوة أو الغذاء أو ما أشبه ذلك، ولا تترك مجلسًا واحدًا إلا وأهديت إلى الجالسين ولو مسألة واحدة، أوصاني بذلك وأنا أُوصيكم بذلك لأنها وصية نافعة. عدم ربط الحق بالرجال: قال سائل للشيخ: فضيلة الشيخ أستأذنكم في قصيدة أتلوها: يا أمتي إن

=

=

هـذا الليـل يعقبـه فجـرُ وأنـواره في الأرض تنتـشرُ والخيـر مُرتقـب، والفـتح منتظـر والحقُّ رغم جهود الشرِّ مُنتصرُ وبصُحبة بارك الباري مسيرتها نقيةٍ ما بها شـوب و كدرُ ما دام فينا ابن صالح شيخ صـحوتنا بمثله يُرتجى التأييـدُ والظفرُ قال الـشيخ رحمه الله: أنا لا أوافق على هذا البيت، لأني لا أُريـدُ أن يـربط الحـقُّ بالأشـخاص، كل شـخص يـأتي ويـذهب، فـإذا ربطنـا الحـقَّ بالأشـخاص، فمعنـاه أن الإنـسان إذا مات، فقد ييأس الناس من بعده، فأقول: إذا كـان يمكنـك أن تبـديل البيـت الأخيـر بقـول: " مـادام كتـاب الله وسـنة رسـوله " فهـذا طيـب، وأنـا أنـصحكم ألا تجعلـوا الحقَّ مربوطًا بالرجـال. حـبس الـنفس عـلى طلـب العلـم: قـال الـشيخ رحمـه الله: العلم يحتاج إلى تعب... الذي يريد أن يـستريح لا يقـول: إنـه طالـب علـم، فـلا بـد لطالب العلم أن يكون طالب علم على سبيل الحقيقة، وسيجد أثر ذلك فيما بعـد، سيجد النتيجة والتحصيل، وهو قد يـشق عليـه في أول الأمـر أن يحـبس نفسه عـلى العلم، لكن إذا اعتاد حبس نفسه على العلم صار ذلك سجية لـه وطبيعـة لـه، حتـى إنه إذا فقد ذلك الحبس انحبس، وجرِّب تَجِد، فأنا قـد جربـت وغيـري قـد جـرب، فإذا حبست نفسك على العلم فإنك تفقد ذلك الحبس لو تـأخرت عنـه... فـالله الله عـلى الحـرص عـلى طلـب العلـم... الـذي يريـد العلـم لا بُـدَّ أن يُكـبَّ عليـه وأن يجتهـد، وهـو وأن أتعـب جسمه الآن سيجد الراحـة فيمـا بعـد. مراجعـة المـسائل للوصول إلـى الحـق لا لنـصر القـول: قـال الـشيخ رحمـه الله: ينبغـي لطالـب العلـم عندما يبحث عن مسألةٍ أن يبحـث عنهـا، لأجـل أن يـصل إلـى الحـق، لا لأجـل أن ينصر قوله – ونـسأل الله العافيـة– بمعنـى: افـرض أنـك اختلفـت أنـت وزميلـك في مسألةٍ، وأردت أن تحقق ما قلت، فأنت عندما تُراجع وتبحـث لا تجعـل رائـدك أن تنتصر لنفسك، فإنك ربما تحرم الوصول إلى الحق، لكـن اجعـل رائـدك الوصـول إلى الحق، عسى أن يكون معك فتحمد الله تعـالى أن يـسَّر لـك الوصـول إليـه، وأن

=

=

جعل بيان الحقّ على يدك، أو يكون مع خصمك فتحمد الله تعالى أن الله تعالى يسّر لك الرجوع عن الباطل، وهيّأ لك الوصول إلى الحق، فأنت على كل تقدير في نعمة... وهذه مسألة صعبة جدًا على النفوس، أن يراجع الإنسان في مثل هذه الأمور لأجل الوصول إلى الحق، فإن كثيرًا من الناس يُراجع لأجلِ أن ينصر قوله. وقال رحمه الله: ما ألذَّ رجوع الإنسان إلى الحق، حتى إن الإنسان إذا رجع إلى الحق وإن كان خلاف ما يقوله أولًا يجد في هذا لذَّةً عظيمة، وكأنه لم يرجع عن قوله الأول، لأن الله ﷻ فتح على قلبه حيث آمن بالحق أول ما جاء به، لكن بعض الناس يحاول ويُجادل لقوله الذي قاله أولًا حتى لا يهزم في نظره، والحقيقة أنه مهزوم في نظره إذا أصرَّ على الانتصار لقوله، لا للحق، لكن لو أذعن للحق وانقاد لكان هو الذي انتصر على نفسه أولًا، ثم يُنصر، لأن الحق معه، حيث وافق الحق، وقال رحمه الله: لا تظن أنك مهزوم إذا رجعت عن قولك بمقتضى دليل الكتاب والسنة، بل إنك منصور وعزيز، لأن الله نصرك على نفسك، ومتى روضت نفسك على هذا سهل عليك الرجوع إلى الحق. ثمرة العلم التطبيق العملي له: قال الشيخ رحمه الله: أوصيكم بالعمل بالعلم، فإن لم تعملوا فأنتم نسخ كالكتب في الجدران، ومع ذلك الكتب في الجدران سالمة، أما أنتم فغير سالمين، اعملوا، تربوا بالعلم في عبادة الله، وفي معاملة عبادة الله، وفي معاملة أنفسكم، هذه نصيحة أرجو ألا تغيب عن بالكم فإنها إن شاء الله مفيدة وقال رحمه الله: ليس من شرط التعليم أن تأخذ كتابًا وتشرحه للناس، بل إن الإجابة على السؤال هي تعليم في الواقع. وقال: فإننا نعلم كُلُّنا أنَّ المقصود من العلم هو العمل، فالعلم وسيلة والعمل ثمرة، وإذا لم ينتفع الإنسان بعلمه، فالجاهل خير منه، وكثير من المسائل العِلمية يفهمها كثير من الطلبة، لكنهم لا يُنفِّذونها، سواء كانت في العبادات، أم في المعاملات مع الخلق، وهذا لا شك أنه نقص وسبب للنقص -أي لنقص العلم-

=

=

فإن الإنسان إذا عمل بعلمه انتفع وازداد علمه ومن عَمِلَ بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم وقال رحمه الله: نحن ينقصنا في علمنا أننا لا نطبق ما علمناه على سلوكنا، وأكثر ما عندنا أننا نعرف الحكم الشرعي، أما أن نطبق فهذا قليل، نسأل الله أن يعاملنا بعفوه، وفائدة العلم هو التطبيق العملي، بحيث يظهر أثر العلم على صفحات وجه الإنسان، وسلوكه وأخلاقه وعبادته ووقاره وخشيته وغير ذلك، وهذا هو المهم. عدم التعجل في التصنيف والتأليف: قال الشيخ: التصنيف... ينبغي للإنسان أن يتأمل وألا يتعجل، لأن بعض الطلبة منذ يعرف مسألة من المسائل يأتي بالمحبرة والقلم ويبدأ يكتب، وكم من كتابةٍ ظهرت ثم ندم المُخرج على إخراجها، وتمنى أنه لم يكن أخرجها لينظر فيها مرةً أُخرى. من جملة الفقه في الدين نشر العلم: قال الشيخ رحمه الله: قوله ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يفقه في الدين» فيه بشارة لمن فقهه الله في دينه أن الله قد أراد به خيرًا. ويُؤخذ من مفهومه: أن من لم يُفقهه الله في الدين لم يُرد به خير، فالفقه في الدين دليل على أن الله أراد بالإنسان خيرًا، وليس الفقه في الدين هو علم الأحكام الشرعية العلمية كالطهارة والصلاة، بل هو عام، حتى العقائد يُعتبر العلم بها فقهًا، ولهذا سمى العلماء رحمهم الله علم التوحيد: الفقه الأكبر. واعلم أن من جملة الفقه في الدين: أن ينشر الإنسان علمه، فإن الفقه ليس مُجرد الفهم، بل إن الفهم قد لا يكون فقهًا ولا يُراد بهذا الحديث، ولكن الفقه أن يكون عند الإنسان تعمُّق في دين الله ﷻ ومعرفة بما يجب عليه، وقيام بالعمل به الاستنباط وما يُنمِّيه: قال الشيخ رحمه الله: الناس يختلفون في استنباط الأحكام من الأدلة، وكلما تعمَّق الإنسان في الاستنباط ازداد فائدة، ومن أكثر ما مرَّ عليَّ من الذين يستنبطون الأحكام من الأدلة ابن القيم رحمه الله، فإن له مجالًا واسعًا، ويظهر ذلك تمامًا من كتابه " زاد المعاد في هدى خير العباد " وكذلك شيخنا عبدالرحمن السعدي رحمه الله له قوة في استنباط

=

=

الأحكام، ويظهر ذلك تمامًا في كلامه على آية الوضوء في سورة المائدة، فقد استنبط منها أحكامًا كثيرةً. لكن ما هي الوسائل التي تُنمِّي عند الإنسان ملَكة الاستنباط؟ الجواب: التكرار والتدبر، لأن الذكاء غريزي ومكتسب، فأما الغريزي فالله تعالى يهبه من يشاء، وأما المكتسب فهو ما يحصل بفعل الإنسان وممارسته من العلوم ما جهله خير من العلم به: قال الشيخ رحمه الله: قال بعض السلف: "الجهل بالكلام علم" لأن علم الكلام أدى بأصحابه إلى مهالك، حتى أن فطاحل علمائهم يتمنون وهم في سياق الموت أنهم ماتوا على دين العجائز، وإن كان جهلًا ولكنه أسلم من علمٍ يؤدي بهم – والله أعلم – إلى الشكِّ والحيرة. وقال رحمه الله: أخسُّ العلوم ما يصُدُّ عن سبيل الله وعن طريق السلف الصالح مثل: علم الفلسفة، علم الكلام، وما أشبههما، إلا إذا تعلمه الإنسان من أجل أن يرُدَّ به على أهله، فهنا قد يكون تعلمه واجبًا، لأن ما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب. التطفيف في مسائل العلم: قال الشيخ رحمه الله: كل من كان ينقص حق غيره ويُطالب بحقه كاملًا فهو من المطففين، حتى في مسائل العلم، فلو أن شخصًا أراد أن يقارن بين قولين، وصار ينصر قوله، ويأتي بالترجيحات الكثيرة، ولكنه يهضم قول غيره، ولا يعرضه كما يقول قول نفسه، فهو من المطففين. وقال رحمه الله: من الحيف والجور أن يتكلم الإنسان في شخص كعالم أو تاجر أو أي إنسان، ثم يذكر مساوئه التي قد يكون معذورًا فيها، ولا يذكر محاسنه، فهذا ليس من العدل، أو يأتي إلى عالم من العلماء أخطأ في مسألة قد يكون معذورًا فيها، ثم ينشر هذه المسألة التي أخطأ فيها، وينسى محاسن هذا العالم الذي نفع العباد بكثير علمه، هذا لا شك أنه تطفيف وجور وظلم، إذا كنت تريد أن تقوم الشخص، فلا بد أن تذكر محاسنه ومساوئه. النصوص لا يمكن أن تتعارض أبدًا: قال الشيخ رحمه الله: إذا وردت آيات مُتعارضة وأحاديث مُتعارضة فلا توردها على أنفسكم على

=

=

أنها متعارضة أوردوها على أنفسكم على أنكم تطلبون الجمع بينها لتُوفقوا للجمع، أما إذا أوردتم هذه على أنها مُتعارضة بقيت محل إشكال... أوردوها على أنكم تريدون الجمع بينها لا أن بعضها مُعارض لبعض حتى تهدوا إلى الصراط المستقيم لأن فرقًا بين الإيراد وبين الرد، إيراد المتشابه على المحكم معناه أنه يطلب التعارض، لكن ردُّ المتشابه إلى المُحكم هذا معناه أنه حاول الجمع دون أن يتصور التعارض. [ينظر لمزيد من الفائدة: تفسير سورة الفاتحة: ص:١٠٩ - تفسير سورة العنكبوت: ص:٤٢٣، شرح الكافية الشافية:٢/ ٥٣٤ - شرح العقيدة الواسطية:١/ ١٠٦، شرح فتح البرية بتلخيص الحموية:٢٤٩، التعليق على صحيح البخاري:١٦/ ٧١٤] معرفة اللغات الأجنبية لبيان الشريعة: قال الشيخ رحمه الله: إذا احتجنا إلى معرفة اللغات الأجنبية لبيان الشريعة كان ذلك مما يثاب عليه، لأن من صفات النبي ﷺ أنه يبين للناس بأي وسيلة، وعلى هذا فمن تعلم اللغة غير العربية من أجل الدعوة إلى الله كان مثابًا على ذلك، لأنه وسيلة لتبيين الشريعة ونشرها. لو قال قائل: ما توجيهكم لطالب العلم وهل يقتطع من وقته جزءًا لتعلم اللغات غير العربية؟ الجواب: هذا إذا كان الإنسان داعية يعرف من نفسه أنه ذو دعوة قوية، وعنده بيان وإقناع، فلا بأس، أما أي إنسان يقول: ربما أكون، فهذا لا يشتغل بهذه اللغات عما هم أهم، لكنني مع ذلك أنا أتمنى أني أعرف اللغة الإنجليزية لكن فات الأوان. النصيحة للعلماء: قال الشيخ رحمه الله: العلماء... النصيحة لهم من أوجب الواجبات، وهي داخلة في النصيحة لكتاب الله ﷻ، ورسول الله ﷺ، فمن النصيحة للعالم: أولًا: أن يحمل الإنسان ما أخطأ فيه على حسن النية بقدر الإمكان، لأن العالم لا بدَّ أن يخطئ، إلا أن يشاء الله، وكل إنسان مُعرَّض للخطأ، فتحمل خطأه على أحسن المحامل متى وجدت لذلك مساغًا. ثانيًا: أن تناقشه فيما ترى أنه أخطأ فيه، لكن قد تكون المناقشة

=

علنية، وقد تكون سرية، فيتبع الأصلح في ذلك، فإن أشكل عليك فعليك بالسرية، فهي في الغالب أنفع وأجدى. ثالثًا: أن تسأل الله له التوفيق للصواب، لأن العلماء إذا ضلوا أضلوا، فينبغي أن تسأل الله دائمًا لعلماء المسلمين أن يوفقوا للصواب، لأن هذا من الأمور المهمة. رابعًا: إذا أخطأ العالم وكل عالم معرَّض للخطأ، فالنصيحة حقيقة للعالم ولدين الله ﷻ، أن تقصد العالم، وتخاطبه مخاطبة الأخ لأخيه، إن كان مساويًا لك، أو مخاطبة الابن لأبيه إن كان أعلى منك، وتناقشه بأدب واحترام وهدوء، فيما كان مخطئًا فيه في ظنك... فتناقشه بهدوء حتى يتبين له الحق، ويرجع. خامسًا: ألا تنشر أخطاءهم بين الناس، مع العلم بأنه قد يكون هم الذين على الصواب... فو الله من أنصح النصح للعالم أنه إذا أخطأ أن تذهب إليه وتوجهه. سادسًا: نشر ما يبثونه من العلم بشريعة الله، وهذا مساعدة للعلماء. [ينظر كذلك: شرح رياض الصالحين:١/ ١٩٥، دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين: ١١/ ٥٠٢] التحرّز من نقل الإجماع: قال الشيخ رحمه الله: كثير من الناس يدَّعون الإجماع في مسائل فيها الخلاف، ولو رجعنا إلى كتاب ابن القيم رحمه الله " الصواعق المرسلة " فقد ذكر مسائل عديدة تزيد على العشرين، كلُّها نُقِلَ فيها الإجماع، والخلاف فيها ثابت، ولهذا يجب على الإنسان أن يتحَّرز ولا ينقل الإجماع، وإذا كان واسع المدارك وقد راجع أقوال الناس يقول: لم أعلم مُنازعًا أو مُخالفًا في ذلك، وأمّا الإجماع فصعب. عند بحث مسألة لا تنشغل بغيرها: قال الشيخ رحمه الله: وهذه قاعدة ينبغي للإنسان أن يبني عليها عمله، إذا كنت تريد أن تطالع مسألة، فلا تشتغل بغيرها، لأنه يُذهب عنك الوقت، ويشوش الفكر، بل استمر فيها.

*** مسألة فوائد من مصنفات العلامة صالح آل الشيخ في طلب العلم.

قال الشيخ: حقيقة العلم هو العلم بكتاب الله ﷻ، وبسنة رسوله ﷺ، إذ لا أرفع في

=

الكلام ولا أعظم قدرًا من كلام ربنا ﷻ، ولا أعظم ولا أرفع بعده من كلام نبينا ﷺ، فالموفق والمبارك من علِم وعلَّم، واجتهد في ذلك. [محاضرات التفسير:١٠٥] بركة العلم: قال الشيخ: من أعظم أسباب البركة في العلم أن تكون نيتك صالحة فيه،... والنية الصالحة في العلم أن تنوى أن ترفع الجهل عن نفسك، ثم تنوى رفع الجهل عن عيرك، فمن استقام له هذان الأمران، أو الأول منهما، فهو على نية صالحة في العلم، فيرجى له القبول، وهذا القصد وهذه النية ينفعانك كثيرًا إذا استحضرتهما في العلم. [شرح كتاب الطهارة من بلوغ المرام:٩ - ١٠] الإنسان يشرف بالعلم: قال الشيخ: إذا نظرت إلى كتب التراجم _ التي هي قريبة من بين يديك اليوم _ وجدت أن أممًا من أهل العلم سبقوا، وبذلوا في العلم نفيس أوقاتهم، وكانت الصعوبات لديهم عظيمة، ومع ذلك أقبلوا على العلم، لِم؟ لأنهم يعلمون أن الإنسان إنما يشرف بالعلم، وأن المسلم إذا لم يكن حاويًا للعلم بين جنبات صدره، فإنه ليس بشيء، فبقدر العلم الذي تحويه تكون منزلتك، فبالعلم ترفع، وبعدم العلم تخفض، قال الله ﷻ: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة:١١] [محاضرات سياسية واجتماعية:٢٦٩] البعد عن الملذات في بعض الأحيان: قال الشيخ: ينبغي على طالب العلم، وعلى الرجل الصالح، والعبد الصالح، وكذلك المرأة الصالحة، أن يعود نفسه على البعد عن الملذات في بعض الأحيان.. ونحن اليوم _ كما ترون _ فاضت علينا الأمور، بحيث إن الناس يتنافسون فيما يريحهم، وينبغي على المرء بين الحين والآخر أن يذكر نفسه بما فيه تقشف، وما فيه معالجة لبعض الأمور العسيرة عليه بعض الشيء، مما فيه ترك الملذات أو ترك استعمال الأشياء، تذكرًا لنعمة الله ﷻ عليك، إما في الثياب، أو المسكن، أو في الفراش، ونحو ذلك، فيتذكر العبد النعمة، ويتذكر حال المصطفى ﷺ. [شرح كتاب الطهارة من بلوغ المرام:٥٤] عدم

=

=

الاستعجال في الاعتراض على أهل العلم: قال الشيخ: ينبغي على طالب العلم عمومًا فيما يسمع، أو يقرأ أن لا يبادر بالاعتراض على أهل العلم الراسخين فيه فيما يوردون أو يقررون، أو يقبلون من الروايات، بل يجب عليه أن يتمهل، وأن يطالع، وأن لا يعجل بالإنكار، لأن الله ﷻ يقول: ({وفوق كُل ذي علمٍ عليم}) [يوسف:٧٦] فطالب العلم قد تشكل عليه المسألة، وقد يستغرب صنيع بعض أهل العلم، فلا ينبغي له أن يستعجل وينتقد أو ينكر، أو نحو ذلك، بل يتأنى، ويتأنى حتى يستبين له وجه كلام أهل العلم، خاصة إذا كانوا من أئمة السُّنة، والراسخين في العلم المقتدى بهم،... وهذا حسن في أن طالب العلم يكون دائمًا متأنيًا غير عجل في مسائل العلم، أو في انتقاد أهل العلم أو نخو ذلك، فيكون متأنيًا، لأن مع المستعجل الزلل. [تفسير المفصل، من سورة " ق" إلى سورة الحديد:٢٤١] كشف الإشكال في بعض المسائل قد يحتاج إلى وقت طويل: قال الشيخ: تارة يعرض إشكال في أي مسألة، والإشكال جيد أن يكون عند طالب العلم، لأن معرفة الإشكال علم، وكشف الإشكال علم آخر،... وإذا أُشكل، فلا يلزم أن يكشف عنه الساعة، أو في يوم، أو في يومين، أو في شهر، أو في سنة، فقد بقيت بعض المسائل عند طائفة من أهل العلم سنين عددًا، ولم تكشف لهم حتى استبان لهم، وأذكر في موضع قال الحافظ ابن حجر فيه: وبقيت هذه في نفسي ثلاثين سنة حتى أزال الله الإشكال [تفسير المفصل:٢٤٢] تحري الحق لا يكون سببًا في الفرقة، ووقوع البغضاء والشحناء: قال الشيخ: يحرص طالب العلم على تحري الحق... ولا يجعل تحريه للحق سببًا في فرقة العباد، ولا سببًا في وقوع البغضاء والشحناء بينهم، بل يتودد في ذلك كثيرًا، ولا يجادل مجادلة الذي يريد الانتصار والقوة، بل يتكلم في ذلك بسكينة وهدوء، وما أجمل قول الإمام مالك رحمه الله في نحو هذا لما قيل له: الرجل تكون عنده السنة أيجادل عنها؟... قال:

=

=

" لا، يخبر بالسنة، فإن قبلت منه وإلا سكت." لأن الشيطان يأتي، فيجعل الإنسان ينتصر لنفسه لا للسنة، وهذا مسلك شائك في النفوس، وينافي الإخلاص، وينافي ما يجب. لهذا يُعود طالب العلم نفسه على الحلم والصبر وعلى أن لا ينتصر لنفسه في المسائل العلمية، حتى لو جاء المقابل، وطعن فيه وفي علمه، وطعن في طريقته في الإيراد لا يتأثر بهذا، ويجعل الكلام على العلم، لأنه مُبلغ للعلم، وليس منتصرًا لنفسه، والمنتصر لنفسه يحرم نفسه انتصار الله ﷻ له [شرح العقيدة الطحاوية:٢/ ٤٧١، ٤٧٤] تزكية من لا يعلم حاله: قال الشيخ: لا يجوز أن يزكى المرء من لا يعلم حاله، وهذا مع الأسف انتشر في هذا الزمن حتى بين طلبة العلم، فيزكي المرء الآخر، وهو لا يعلم حاله بناءً على ظاهر أمره يسميها تزكية، ربما كتب له في هذا، وربما أتى، وأثنى عليه وإذا دقق الأمر إذ هو لا يعرفه معرفة جيدة. [تفسير المفصل:٢٠٦] الدعاء للمتعلمين بالرحمة يجعل قلب المتعلم قابلًا للعلم: قال الشيخ: قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: " اعلم رحمك الله " دعاء للمتعلم بالرحمة، لأن مبنى التعلم بين العالم والمتعلم هو التراحم. وقوله: " اعلم ارشدك الله لطاعته " دعا للمتعلم بقوله " أرشدك الله " وهذا الذي ينبغي على المعلمين، أن يكونوا متلطفين بالمتعلمين، لأن التلطف والتعامل معهم بأحسن ما يجد المعلم يجعل قلب المتعلم قابلًا للعلم متفتحًا له، مقبلًا عليه. [شرح ثلاثة الأصول:١٣ - ٤٥] أهل العلم والبعد عن الدنيا: قال الشيخ: أهل العلم إذا سلموا من الدنيا، وسلموا من الهوى، سلموا من الرغب في المناصب، الرغب في الشهرة، الرغب في الانتصار للنفس، بارك الله ﷻ لهم وفيهم، ورزقهم القبول، أما إذا كان الهم الانتصار للنفس، فهنا يبدأ النزول في حق من كان كذلك. [محاضرات في التراجم:٢٨١] المبتدع ما يتحمل عنه: سأل طالبٌ الشيخَ عن الأخذ عن شيخ عنده بِدَعٌ؟ فأجابه: ما يصح، المبتدع ما تتحمل عنه، ولا كرامة

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّار} أَيْ الْأَقْرَب فَالْأَقْرَب مِنْهُمْ {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَة} شِدَّة أَيْ أَغْلِظُوا عَلَيْهِمْ {وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ

=

لستَ بحاجةٍ إليه، تجد غيرَه، ثم مسائل الإسناد والإجازات في القرآن أو في السنة، في الحديث فيها نوعُ تلذُّذٍ، وفيها نوع ممن يعتني بها نوع تكاثر، وليست كلها عن حاجة شرعية، فتجلس معه وتأخذ منه، ثم يقع في قلبك محبتُه، وما من معلم يُفيدك إلا وسيقع في قلبك محبتُه، تُعرِّض نفسك للخطر، إذا ما وجدت من يُعلمك الواجب إلا هو، فهذا أمرٌ آخرُ. [لقاءات وجلسات:١/ ٨٦] التواصل مع العلم: لا بد في طلب العلم من التدرج فيه على أصوله، وعلى منهجية واضحة، ولا بد أن نأخذ العلم على أنه ليس فيه شيء سهل، بل كلّه ثقيل من حيث فهمه، وتثبيته، واستمراره مع طالب العلم، فهو ثقيل لا بد له من مواصلة ومتابعة، فالعلم يُنسى إذا ترك، وإذا تواصل معه طالب العلم فإنه يبقى. [شرح الأربعين النووية:٩] إذا تحول النقاش إلى جدال فخيرهما الذي يصمت: قال الشيخ: ينبغي لطالب العلم ألا يشتغل بالمجادلة التي لا يقصد منها الوصول إلى الحق، فإذا تناقشت مع أحد، حتى ولو كان من طلبة العلم، أو إخوانك أو من زملائك، فلا تفتح سبيلًا للشيطان، لا بأس أن يكون النقاش لبيان حكم مسألة وبيان الحق فيها، أما إذا تحول النقاش إلى مجادلة، فخيرهما الذي يصمت، لأنها انصرفت عن بيان الحق، وصار هذا ينتصر لرأيه، وهذا ينتصر لرأيه بقصد المغالبة [شرح أصول الإيمان:٤١٦].

الْمُتَّقِينَ} بِالْعَوْنِ وَالنَّصْر[١].

---

(١) في هذه الآية: دليل على ترتيب الأعداء في القتال، وأن الأحق بالقتال الأدنى منهم؛ لأن الأصل أن الأدنى أقرب إلى إلحاق الضرر بالمسلمين أكثر من الأبعد، ولأن الكفر الأدنى أولى بالرفع والإصلاح من الكفر الأبعد، وقد يكون الكفر الأقرب في ضعف فيوادع، ويقاتل الكفر الأبعد فإن النبي ﷺ لم يجل ويتختلص من جميع اليهود قبل قتاله قريشا بمكة وغيرهم من مشركي جزبرة العرب، فقد صالح يهود خيبر على خراج أرضهم، وقاتل الأبعدين بعد ذلك، فبقيت يهود خيبر في الحجاز وقد دانت كثير من العرب للنبي ﷺ حتى أجلاهم عمر؛ لأن شوكة الأبعد أقوى، وخطرهم على الإسلام أعظم.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [التوبة: ١٢٣]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد:

الأولى: العناية والاهتمام به والتنبيه.

الثانية: الإغراء، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان، كما تقول يا ابن الأجود جد.

الثالثة: أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصا في الإيمان. (ابن عثيمين).

والمعنى:: يا أيها الذين آمنوا بقلوبهم وانقادوا وعملوا بجوارحهم.

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به. (الشنقيطي).

=

=

عن الزهري قال: "إذا قال الله: يا أيها الذين آمنوا إفعلوا، فالنبي ﷺ منهم".
عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا أيها المساكين»".
وقال جعفر الصّادق –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–:" لذة «يا» في النداء أزال تعب العبادة والعناء".
قوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} [التوبة: ١٢٣]، أي:" ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إلى دار الإسلام من الكفار".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: " يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، قاتلوا من وليكم من الكفار دون من بَعُد منهم. يقول لهم: ابدأوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارًا، دون الأبعد فالأبعد".
* أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب.
- قال الرازي: اعلم أنه نقل عن الحسن أنه قال: هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافة، ثم إنها صارت منسوخة بقوله (قاتلوا المشركين كافة) وأما المحققون فإنهم أنكروا هذا النسخ وقالوا: إنه تعالى لما أمر بقتال المشركين كافة أرشدهم في ذلك الباب إلى الطريق الأصوب الأصلح، وهو أن يبتدؤا من الأقرب فالأقرب، منتقلا إلى الأبعد فالأبعد.
ألا ترى أن أمر الدعوة وقع على هذا الترتيب قال تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) وأمر الغزوات وقع على هذا الترتيب لأنه - عليه السلام - حارب قومه، ثم انتقل منهم إلى غزو سائر العرب ثم انتقل منهم إلى غزو الشام، والصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم - لما فرغوا من أمر الشأم دخلوا العراق.

=

=

- قال القرطبي: في الآية أنه سبحانه عرفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدو؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بالعرب، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام.

- قال الرازي: وإنما قلنا: إن الابتداء بالغزو من المواضع القريبة أولى لوجوه:

الأول: أن مقابلة الكل دفعة واحدة متعذرة، ولما تساوى الكل في وجوب القتال لما فيهم من الكفر والمحاربة وامتنع الجمع، وجب الترجيح، والقرب مرجح ظاهر كما في الدعوة، وكما في سائر المهمات، ألا ترى أن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الابتداء بالحاضر أولى من الذهاب إلى البلاد البعيدة لهذا المهم، فوجب الابتداء بالأقرب.

والثاني: أن الابتداء بالأقرب أولى لأن النفقات فيه أقل، والحاجة إلى الدواب والآلات والأدوات أقل.

الثالث: أن الفرقة المجاهدة إذا تجاوزوا من الأقرب إلى الأبعد فقد عرضوا الذراري للفتنة.

الرابع: أن المجاورين لدار الإسلام إما أن يكونوا أقوياء أو ضعفاء، فإن كانوا أقوياء كان تعرضهم لدار الإسلام أشد وأكثر من تعرض الكفار المتباعدين، والشر الأقوى الأكثر أولى بالدفع، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاء المسلمين عليهم أسهل، وحصول عز الإسلام لسبب انكسارهم أقرب وأيسر، فكان الابتداء بهم أولى.

الخامس: أن وقوف الإنسان على حال من يقرب منه أسهل من وقوفه على حال من يبعد منه، وإذا كان كذلك كان اقتدار المسلمين على مقاتلة الأقربين أسهل لعلمهم بكيفية أحوالهم وبمقادير أسلحتهم وعدد عساكرهم.

السادس: أن دار الإسلام واسعة، فإذا اشتغل أهل كل بلد بقتال من يقرب منهم

=

=

من الكفار كانت المؤنة أسهل، وحصول المقصود أيسر.

- وقال الجصاص: خص الأمر بالقتال للذين يلونهم من الكفار، وقال في أول السورة (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقال في موضع آخر (وقاتلوا المشركين كافة) فأوجب قتال جميع الكفار، ولكنه خص بالذكر الذين يلوننا من الكفار؛ إذ كان معلوما أنه لا يمكننا قتال جميع الكفار في وقت واحد وأن الممكن منه هو قتال طائفة فكان من قرب منهم، أولى بالقتال ممن بعد؛ لأن الاشتغال بقتال من بعد منهم مع ترك قتال من قرب لا يؤمن معه هجم من قرب على ذراري المسلمين ونسائهم وبلادهم إذا خلت من المجاهدين، فلذلك أمر بقتال من قرب قبل قتال من بعد، وأيضا لا يصح تكليف قتال.

الأبعد؛ إذ لا حد للأبعد يبتدأ منه القتال كما للأقرب.

وأيضا فغير ممكن الوصول إلى قتال الأبعد إلا بعد قتال من قرب وقهرهم وإذلالهم فهذه الوجوه كلها تقتضي تخصيص الأمر بقتال الأقرب.

وفي قوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} [التوبة: ١٢٣]، اربعة أقوال:

أحدها: أنهم الروم قاله ابن عمر.

الثاني: أنهم الديلم، قاله الحسن.

الثالث: أنهم العرب، قاله ابن زيد.

الرابع: أنه على العموم في قتال الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى، وهذا معنى قول قتادة.

قال قتادة:" يريد المشركين الذين حول المدينة، أحب أن يقاتل كل قوم من يليهم إلا أنه قال: على مكان يخاف فيه على المسلمين".

قال الطبري:" وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ، الروم، لأنهم كانوا سكان الشأم يومئذ، والشأم كانت أقرب إلى المدينة من العراق. فأما بعد أن فتح

=

=

الله على المؤمنين البلاد، فإن الفرض على أهل كل ناحية، قتالُ من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم، ما لم يضطرّ إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي بلاد الإسلام، فإن اضطروا إليهم، لزمهم عونهم ونصرهم، لأن المسلمين يدٌ على من سواهم ولصحة كون ذلك كذلك، تأوّل كلُّ من تأوّل هذه الآية، أنّ معناها إيجاب الفرض على أهل كل ناحية قتالَ من وليهم من الأعداء".

قوله تعالى: {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة: ١٢٣]، أي:" وليجد الكفار فيكم غِلْظة وشدة".

قال الطبري:" معناه: وليجد هؤلاء الكفار الذين تقاتلونهم (فيكم)، أي: منكم شدةً عليهم".

أمر تعالى المؤمنين بالغلظة على الكفار والشدة عليهم كما قال تعالى: (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وذلك ليكون ذلك أهيب وأوقع للفزع في قلوبهم.

- فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقا لأخيه المؤمن، غليظا على عدوه الكافر.

كما قال تعالى (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين).

وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم).

وقال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم).

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال (أنا الضحوك القتال) يعني: أنه ضحوك في وجه وليه.

عن ابن عباس:" {وليجدوا فيكم غلظة}، قال: شدة". وروي عن مجاهد مثله وقال الحسن: صبرا منكم على الجهاد".

=

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّـذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤).

{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَة} مِنْ الْقُرْآن {فَمِنْهُمْ} أَيْ الْمُنَافِقِينَ {مَنْ يَقُول} لِأَصْحَابِهِ اسْتِهْزَاء {أَيّكُمْ زادته هذه إيمانا} تصديقا قال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيمَانًا} لِتَصْدِيقِهِمْ بِهَا {وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} يَفْرَحُونَ بِهَا.

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥).

{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبهمْ مَرَض} ضَعْف اعْتِقَاد {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسهمْ}

=

وقال الضحاك: عنفا".

قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ١٢٣]، أي:" واعلموا أن الله مع المتقين بتأييده ونصره".

قال الطبري: أي:" وأيقنوا، عند قتالكم إياهم، أن الله معكم، وهو ناصركم عليهم، فإن اتقيتم الله وخفتموه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، فإن الله ناصر من اتقاه ومعينه".

عن الضحاك:" {الْمُتَّقِينَ}، قال: "الذين يتقون الشرك.

عن السدي: " {المتقين}، قال: هم المؤمنون".

- قال ابن كثير: أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

- **قال السعدي**: أي: ليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا تقوى الله، يعنكم وينصركم على عدوكم.

كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ لكفرهم بها {وماتوا وهم كافرون}(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [التوبة: ١٢٤]، أي:" وإذا ما أنزل الله سورة من سور القرآن على رسوله، فمِن هؤلاء المنافقين من يقول: -إنكارًا واستهزاءً- أيُّكم زادته هذه السورة تصديقًا بالله وآياته؟".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه محمد ﷺ، فمن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم الله في هذه السورة من يقول: أيها الناس، أيكم زادته هذه السورة إيمانًا؟".

قال ابن عطية: يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم، ويحتمل أن يكون لقوم من قراباتهم من المؤمنين يستنيمون إليهم وثقون بسترهم عليهم ويطعمون في ردهم إلى النفاق.

- قال أبو السعود (وإذا ما أنزلت سورة) من سور القرآن (فمنهم) أي من المنافقين (من يقول) لإخوانه ليثبتهم على النفاق أو لعوام المؤمنين وضعفتهم ليصدهم عن الإيمان.

قال ابن عباس:" كان إذا نزلت سورة آمنوا بها، فزادهم الله إيمانًا وتصديقًا، وكانوا يستبشرون".

وفي قولهم ذلك عند نزول السورة وجهان:

أحدهما: أنه قول بعضهم لبعض على وجه الإنكار، قاله الحسن.

الثاني: أنهم يقولون ذلك لضعفاء المسلمين على وجه الاستهزاء.

قال ابن عطية: قصدهم الاستخفاف والتحقير لشأن السورة كما تقول أي غريب في هذا، أو أي دليل.

- قال ابن عاشور: خطاب بعضهم لبعض على سبيل التهكم بالمؤمنين وبالقرآن، =

=

لأن بعض آيات القرآن مصرحة بأن القرآن يزيد المؤمنين إيمانا قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا).
قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤]، أي:" فأما الذين آمنوا بالله ورسوله فزادهم نزول السورة إيمانًا بالعلم بها وتدبرها واعتقادها والعمل بها، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين".
قال الطبري:" يقول: تصديقًا بالله وبآياته. يقول الله: {فأما الذين آمنوا}، من الذين قيل لهم ذلك {فزادتهم}، السورة التي أنزلت {إيمانا}، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين".
وفي قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤]، وجهان:
أحدهما: فزادتهم خشيةً. قاله الربيع بن أنس.
والثاني: فزادتهم السورة إيمانًا لأنهم قبل نزولها لم يكونوا مؤمنين بها، قاله الطبري.
قال الزجاج:" وأضاف الإيمان إلى السُّورةِ لأنه يزيد بسببها".
عن مجاهد:" {فزادتهم إيمانا}، قال: الإيمان يزيد وينقص".
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قراءة القرآن على الوجه المأمور به: تورث القلب الإيمان العظيم، وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء.
(وهم يستبشرون) يعني أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيئا بعد شيء لأنهم كلما نزل ازدادوا إيمانا وذلك يوجب مزيد الثواب في الآخرة كما تحصل الزيادة في الإيمان بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة في الكفر وهو قوله سبحانه (وأما الذين في قلوبهم مرض).
أي: يبشر بعضهم بعضا بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها،
=

=

وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة: ١٢٥]، أي:" وأما الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله، فإن نزول السورة يزيدهم نفاقًا وشكًا إلى ما هم عليه من قبلُ من النفاق والشك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وأما الذين في قلوبهم مرض}، نفاق وشك في دين الله، فإن السورة التي أنزلت {زادتهم رجسًا إلى رجسهم}، وذلك أنهم شكوا في أنها من عند الله، فلم يؤمنوا بها ولم يصدّقوا، فكان ذلك زيادة شكٍّ حادثةٍ في تنزيل الله، لزمهم الإيمان به عليهم، بل ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة نَتْنٍ من أفعالهم، إلى ما سلف منهم نظيره من النتن والنفاق. وذلك معنى قوله: {فزادتهم رجسا إلى رجسهم}".

قال ابن كثير:" أي: زادتهم شكا إلى شكهم، وريبا إلى ريبهم، كما قال تعالى: {وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا".

قال الخازن: قوله سبحانه (وأما الذين في قلوبهم مرض) أي شك ونفاق سمي الشك في الدين مرضا لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج كالمرض في البدن إذا حصل يحتاج إلى العلاج

(فزادتهم رجسا إلى رجسهم) أي: مرضا إلى مرضهم، وشكا إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى

=

=

بهم إلى الهلاك.
كما قال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا).
وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد).
وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.
عن ابن عباس قوله: " {وأما الذين في قلوبهم مرض}، قال: المرض: النفاق".
وروي عن طاووس في قوله: " {وأما الذين في قلوبهم مرض}، قال: كان ذلك في بعض أمور النساء".
وفي قوله تعالى: {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة: ١٢٥]، وجوه:
أحدها: إثمًا إلى إثمهم، يعني: نفاقا مع نفاقهم الذي هم عليه قبل ذلك. قاله مقاتل.
الثاني: شكًا إلى شكِّهم، قاله السدي، والكلبي.
الثالث: كفرًا إلى كفرهم، قاله قطرب، وابن قتيبة، والزجاج.
قال ابن قتيبة:" قد يسمّى الكفر والنفاق: رجسا، لأنّه نتن. قال الله تعالى: فَزادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ [التوبة: ١٢٥]، أي: كفرا إلى كفرهم، أو نفاقا إلى نفاقهم".
قال الزجاج:" أي: زادتهم كفرا إلى كفرهم، لأنهم كلما كفروا بسورة ازداد كفرهم".
قوله تعالى: {وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ١٢٥]، أي:" وهلك هؤلاء وهم جاحدون بالله وآياته".
قال الطبري:" يعني: هؤلاء المنافقين أنهم هلكوا، وهم كافرون بالله وآياته".

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦).

{أَوَلَا يَرَوْنَ} بِالْيَاءِ أَيْ الْمُنَافِقُونَ وَالتَّاء أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ {أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ} يُبْتَلَوْنَ {فِي كُلّ عَام مَرَّة أَوْ مَرَّتَيْنِ} بِالْقَحْطِ وَالْأَمْرَاض {ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ} مِنْ نِفَاقهمْ {وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ} يَتَّعِظُونَ(١).

---

(١) قوله تعالى: {أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} [التوبة: ١٢٦]، أي:" أو لا يرى المنافقون أن الله يبتليهم بالقحط والشدة، وبإظهار ما يبطنون من النفاق مرة أو مرتين في كل عام؟".

وهذا توبيخ لهم على قسوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وغفلتهم عما يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ.

أي: أبلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء، أنهم صاروا لا يعتبرون ولا يتعظون بما حاق من فتن واختبارات وابتلاءات، تنزل بهم في كل عام مرة أو مرتين؟

ومن هذه الفتن والامتحانات: كشف مكرهم عن طريق اطلاع رسول الله ﷺ على ما يضمرونه من سوء، وما يقولونه من منكر، وما يفعلونه من أفعال خبيثة، وحلول المصائب والأمراض بهم، ومشاهدتهم لانتصار المؤمنين وخذلان الكافرين.

قال الطبري:" أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنَّ الله يختبرهم في كل عام مرة أو مرتين، بمعنى أنه يختبرهم في بعض الأعوام مرة، وفي بعضها مرتين".

واختلف أهل التفسير في معنى «الفتنة» التي ذكر الله في هذا الموضع، على أقوال:

أحدها: يبتلون، قاله ابن عباس، والحسن، مجاهد، وقتادة.

الثاني: يضلون، قاله عبد الرحمن بن زيد.

=

=

الثالث: يختبرون، قاله أبو جعفر الطبري.

والرابع: قال مقاتل:" وذلك أنهم كانوا إذا خلوا تكلموا فيما لا يحل لهم وإذا أتوا النبي ﷺ أخبرهم بما تكلموا به في الخلاء فيعلمون أنه نبي رسول ثم يأتيهم الشيطان فيحدثهم أن محمدا إنما أخبركم بما قلتم لأنه بلغه عنكم فيشكون فيه فذلك قوله: {يفتنون في كل عام مرة أو مرتين} فيعرفون أنه نبي، وينكرون أخرى".

وفي الذي يفتنون به أقوال:

أحدها: أنه الجوع والقحط، قاله مجاهد.

الثاني: أنه الغزو والجهاد في سبيل الله، قاله الحسن، وقتادة.

الثالث: ما يلقونه من الأكاذيب على رسول الله ﷺ وأصحابه، فيفتتن بذلك الذين في قلوبهم مرض، قاله حذيفة بن اليمان.

وروي عن حذيفة:" كان لهم في كل عام كذبة أو كذبتان".

الرابع: يختبرون أنه ينزل عليهم العذاب والمكروه. حكاه الزجاج.

والخامس: أنه ما يظهره الله تعالى من هتك أستارهم وسوء نياتهم، حكاه علي بن عيسى.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله عجَّب عبادَه المؤمنين من هؤلاء المنافقين، ووبَّخ المنافقين في أنفسهم بقلّة تذكرهم، وسوء تنبههم لمواعظ الله التي يعظهم بها. وجائزٌ أن تكون تلك المواعظُ الشدائدَ التي ينزلها بهم من الجوع والقحط، وجائزٌ أن تكون ما يريهم من نُصرة رسوله على أهل الكفر به، ويرزقه من إظهار كلمته على كلمتهم، وجائزٌ أن تكون ما يظهر للمسلمين من نفاقهم وخبث سرائرهم، بركونهم إلى ما يسمعون من أراجيف المشركين برسول الله ﷺ وأصحابه ولا خبر يوجب صحةَ بعض ذلك دون بعض،

=

=

من الوجه الذي يجب التسليم له. ولا قول في ذلك أولى بالصواب من التسليم لظاهر قول الله وهو: أو لا يرون أنهم يختبرون في كل عام مرة أو مرتين، بما يكون زاجرًا لهم، ثم لا ينزجرون ولا يتعظون؟".

قَرَأَ حَمْزَة وَحده «أَولا ترَوْنَ» بِالتَّاءِ، وَقَرَأَ الْباقون بِالْيَاءِ.

وهي في قراءة ابن مسعود «أَوَ لاَ تَرَى أَنَّهُم يُفْتَنُونَ» خطابًا لرسول الله ﷺ.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ} [التوبة: ١٢٦].

أي: ثم بعد كل هذه الفتن النازلة بهم، لا يتوبون من نفاقهم «ولا هم يذكرون» ويتعظون، بل يصرون على مسالكهم الخبيثة، وأعمالهم القبيحة، مع أن من شأن الفتن والمصائب والمحن، أنها تحمل على الاعتبار والاتعاظ، والرجوع عن طريق الشر إلى طريق الخير.

قال الطبري:" يقول: ثم هم مع البلاء الذي يحلّ بهم من الله، والاختبار الذي يعرض لهم، لا ينيبون من نفاقهم، ولا يتوبون من كفرهم".

- قال ابن كثير: يقول تعالى: أولا يرى هؤلاء المنافقون (أنهم يفتنون) أي: يختبرون (في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم.

وقال السعدي: قال تعالى -موبخا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق- (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين) بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة: ١٢٦]، أي:" ولا يتذكرون بما يعاينون من آيات الله".

قال الطبري:" ولا هم يتذكرون بما يرون من حجج الله ويعاينون من آياته، فيتعظوا بها، ولكنهم مصرُّون على نفاقهم؟".

=

=

قال مقاتل:" فيما أخبرهم النبي ﷺ بما تكلموا به فيعرفوا ولا يعتبروا".

- قال ابن عاشور: والغرض من هذا الإنكار هو الاستدلال على ما تقدم من ازدياد كفر المنافقين وتمكنه كلما نزلت سورة من القرآن بإيراد دليل واضح ينزل منزلة المحسوس المرئي حتى يتوجه الإنكار على من لا يراه.

والفتنة: اختلال نظام الحالة المعتادة للناس واضطراب أمرهم، مثل الأمراض المنتشرة، والتقاتل، واستمرار الخوف.

- قال البقاعي: (ثم لا يتوبون) وذلك موجب للتوبة للعلم بأن من علم سرائرهم - التي هم مجتهدون في إخفائها - عالم بكل شيء قادر على كل مقدور، فهو جدير بأن تمتثل أوامره وتخشى زواجره.

- قوله تعالى (يفتنون في كل عام) بالمرض في كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوبون من ذلك النفاق ولا يتعظون بذلك المرض، كما يتعظ بذلك المؤمن إذا مرض، فإنه عند ذلك يتذكر ذنوبه وموقفه بين يدي الله، فيزيده ذلك إيمانا وخوفا من الله، فيصير ذلك سببا لاستحقاقه لمزيد الرحمة والرضوان من عند الله.

وقيل: بالقحط والجوع.

الثالث: قال قتادة: يفتنون بالغزو والجهاد فإنه تعالى أمر بالغزو والجهاد فهم إن تخلفوا وقعوا في ألسنة الناس باللعن والخزي والذكر القبيح، وإن ذهبوا إلى الغزو مع كونهم كافرين كانوا قد عرضوا أنفسهم للقتل وأموالهم للنهب من غير فائدة.

- وقال ابن عطية: والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي بكشف الله تعالى أسرارهم وإفشائه عقائدهم، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤيته وترك التوبة.

- **قال الآلوسي**: والمراد من المرة والمرتين - على ما صرح به بعضهم - مجرد التكثير، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور.

=

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧).

{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَة} فِيهَا ذِكْرهمْ وَقَرَأَهَا النَّبِيّ ﷺ {نَظَرَ بَعْضهمْ إِلَى بَعْض} يُرِيدُونَ الْهَرَب يَقُولُونَ {هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَد} إذَا قُمْتُمْ فَإِنْ لَمْ يَرَهُمْ أَحَد قَامُوا وَإِلَّا ثَبَتُوا {ثُمَّ انْصَرَفُوا} عَلَى كُفْرهمْ {صَرَفَ الله قُلُوبهمْ} عَنْ الْهُدَى {بِأَنَّهُمْ قَوْم لَا يَفْقَهُونَ} الْحَقّ لِعَدَمِ تَدَبُّرهمْ[1].

=

- وقوله (ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) بيان لرسوخهم في الجهل والجحود.

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا} [التوبة: ١٢٧]، أي:"وإذا أنزلت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف، فإنا لا نصبر على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا".

تصور السورة الكريمة تصويرا معجزا، مشهدهم عند ما تنزل السورة القرآنية على الرسول ﷺ وهم حاضرون في مجلسه فتقول: وإذا ما أنزلت سورة أو آيات منها، على الرسول ﷺ وهم موجودون في مجلسه نظر بعضهم إلى بعض في ريبة ومكر، وتغامزوا بعيونهم وجوارحهم في لؤم وخسة ثم تساءلوا: هل يراكم من أحد، أي: هل يراكم من أحد من المسلمين إذا ما قمتم من هذا المجلس، قبل أن يتلو الرسول ﷺ هذه السورة أو الآيات التي قد تفضحكم وتكشف عما أسررتموه فيما بينكم.

ثم انصرفوا من مجلس الرسول ﷺ متسللين في حذر حتى لا يراهم أحد من المسلمين.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وإذا ما أنزلت سورة}، من القرآن، فيها عيبُ

=

=

هؤلاء المنافقين الذين وصفَ جل ثناؤه صفتهم في هذه السورة، وهم عند رسول الله ﷺ، {نظر بعضهم إلى بعض}، فتناظروا، {هل يراكم من أحد} إن تكلمتم أو تناجيتم بمعايب القوم يخبرهم به، ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ، ولم يستمعوا قراءة السورة التي فيها معايبهم".

قال الزجاج:" يقولون ذلك إيماء لأنهم منافقون لا يظهرون ذلك: {هل يراكم من أحد}، يقولون ذلك استسرارا وتحذرا من أن يعلم بهم الله - ﷻ - وهو أعلم، {ثم انصرفوا}، أي: يفعلون ذلك وينصرفون، فجائز أن يكون ينصرفون عن المكان الذي استحقوا فيه، وجائز أن يكون ينصرفون عن العمل بشيء مما يستمعون".

قال ابن ابي زمنين:" يعني: المنافقين {هل يراكم من أحد} من المسلمين؛ يقوله بعضهم لبعض {ثم انصرفوا} قال الحسن: يعني: عزموا على الكفر".

قال مكي بن ابي طالب:" المعنى: وإذا ما أنزل الله ﷻ، سورة، وهم جلوس عند النبي عليه السلام، فكان فيها إظهار سرهم {نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ}، هل رآكم أحد إذ قلتم وتناجيتم، ثم قاموا فانصروا ولم يسمعوا قراءته، وقيل: المعنى: إذا ما أُنزلت سورة فيها أسرارهم، {نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ}، أحد إن قمتم، فإن قالوا: نعم، قاموا ولم يسمعوا القرآن".

قال البغوي:" {وإذا ما أنزلت سورة} فيها عيب المنافقين وتوبيخهم، {نظر بعضهم إلى بعض} يريدون الهرب يقول بعضهم لبعض إشارة، {هل يراكم من أحد} أي: أحد من المؤمنين، إن قمتم، فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد، وإن علموا أن أحدا يراهم أقاموا وثبتوا، {ثم انصرفوا} عن الإيمان بها. وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها".

قال السمعاني: قوله:" {ثم انصرفوا} فيه معنيان:

=

=

أحدهما: انصرفوا عن مواضعهم.

والآخر: انصرفوا عن الإيمان، أي: لم يؤمنوا ولم يقبلوا".

قال الزمخشري:" {نظر بعضهم إلى بعض}، تغامزوا بالعيون إنكارا للوحى وسخرية به قائلين: {هل يراكم من أحد} من المسلمين لننصرف، فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم. أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لو إذا يقولون: هل يراكم من أحد. وقيل: معناه: إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين".

عن ابن عباس قوله: " {وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض}، الآية، قال: هم المنافقون".

قال ابن زيد في قوله:" {وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد}، ممن سمع خبركم، رآكم أحدٌ أخبره؟ إذا نزل شيء يخبر عن كلامهم. قال: وهم المنافقون. قال: وقرأ: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا}، حتى بلغ: {نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد} أخبره بهذا؟ أكان معكم أحد؟ سمع كلامكم أحد يخبره بهذا؟".

قوله تعالى: {صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة: ١٢٧]، أي:" صرف الله قلوبهم عن الإيمان؛ بسبب أنهم لا يفهمون ولا يتدبرون".

قال الزجاج:" أي: أضلهم الله مجازاة على فعلهم".

قال الطبري:" صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوبَ هؤلاء المنافقين {ذلك بأنهم قوم لا يفقهون}، يقول: فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، استكبارًا، ونفاقا".

قال ابن ابي زمنين:" {صرف الله قلوبهم} هذا دعاء، {بأنهم قوم لا يفقهون} لا

=

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨).

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُول مِنْ أَنْفُسكُمْ} أَيْ مِنْكُمْ مُحَمَّد ﷺ {عَزِيز} شَدِيد {عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} أَيْ عَنَتكُمْ أَيْ مَشَقَّتكُمْ وَلِقَاؤُكُمْ الْمَكْرُوه {حَرِيص عَلَيْكُمْ} أَنْ تَهْتَدُوا {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوف} شَدِيد الرَّحْمَة {رَحِيم} يُرِيد لَهُمْ الْخَيْر[1].

=

يرجعون إلى الإيمان".

قال مكي بن ابي طالب:" {صَرَفَ الله قُلُوبَهُم}، أي: عن الخير والتوفيق، {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ}، أي: لا يفقهون عن الله، ﷻ، مواعظة، استنكارًا ونفاقًا".

قال الزمخشري:" {صرف الله قلوبهم}، دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بأنهم بسبب أنهم قوم لا يفقهون لا يتدبرون حتى يفقهوا".

روي عن ابن عباس قال: «لا تقولوا: "انصرفنا من الصلاة"، فإن قومًا انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا: "قد قضينا الصلاة»".

(١) قوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [التوبة: ١٢٨]، أي:" لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول من قومكم".

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم، عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم).

وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم).

وجمهور المفسرين على أن الخطاب في قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) للعرب: فهو كقوله (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم).

=

=

أي: لقد جاءكم - يا معشر العرب - رسول كريم «من أنفسكم» أي: جنسكم، ومن نسبكم، فهو عربي مثلكم، فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ترغيب العرب في الإيمان بالنبي ﷺ وفي طاعته وتأييده، فإن شرفهم قد تم بشرفه، وعزهم بعزه، وفخرهم بفخره، وهم في الوقت نفسه قد شهدوا له في صباه بالصدق والأمانة والعفاف وطهارة النسب، والأخلاق الحميدة.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للعرب: {لقد جاءكم}، أيها القوم، رسول الله إليكم {من أنفسكم}، تعرفونه، لا من غيركم، فتتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم".

وقال مقاتل:" {لقد جاءكم}، يا أهل مكة، {رسول من أنفسكم}، تعرفونه ولا تنكرونه".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: محمدا ﷺ {من أنفسكم}، يعني: من جميع العرب، لأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولرسول الله ﷺ فيها قرابة. وهذا من المجاز والاستعارة، لأن النبي ﷺ كان فيهم ولم يجئ من موضع آخر، ولكن معناه: ظهر فيكم رسول الله ﷺ ويقال: هذا الخطاب لجميع الناس: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم}، يعني: آدميا مثلكم".

قال الزجاج:"أي: هو بشر مثلكم. أي: فهو أوكد للحجة عليكم، لأنكم تفهمون عمن هو مثلكم، وجائز أن يكون عنى به إنه عربي كما أنكم عرب، فأنتم تخبرونه وقد وقفتم على مذهبه".

قال قتادة:" جعله الله من أنفسهم، فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة".

قال القرطبي: قوله «من أنفسكم» يقتضي مدحا لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم

=

=

العرب وخالصها، وفي صحيح مسلم عن وائلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قرش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم» وعنه ﷺ أنه قال: «إني من نكاح ولست من سفاح».

قال ابن عطية: مخاطبة للعرب في قول الجمهور وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام، وقال الزجاج: هي مخاطبة لجميع العالم، والمعنى لقد جاءكم رسول من البشر والأول أصوب.

وقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [التوبة: ١٢٨]، فيه قراءتان:

إحداهما: «من أنفسكم»، بفتح «الفاء» وهي قراء شاذة، ويحتمل تأويلها ثلاثة أوجه:

أحدها: من أكثركم طاعة لله تعالى.

الثاني: من أفضلكم خلقًا.

الثالث: من أشرفكم نسبًا.

قال البغوي:" قرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن "من أنفسكم" بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم".

قال الزمخشري:" وقرئ: «من أنفسكم»، أى: من أشرفكم وأفضلكم. وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ وفاطمة وعائشة رضى الله عنهما".

وقال أبو الليث السمرقندي:" قرأ بعضهم: «من أنفِسكم»، بنصب «الفاء»، يعني: من أشرفكم وأعزكم، وهي قراءة شاذة".

والقراءة الثانية: «من أنفسكم»، بضم «الفاء»، وفي تفسيرها أربعة أوجه:

أحدها: يعني: من المؤمنين لم يصبه شيء من شرك في ولادته، قاله محمد بن

=

=

علي.

الثاني: يعني: من نكاح لم يصبه من ولادة الجاهلية، قاله جعفر بن محمد.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح».

وفي روياة أخرى: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شئ».

الثالث: ممن تعرفونه بينكم، وهذا معنى قول قتادة.

الرابع: يعني من جميع العرب، لأنه لم يبق بطن من بطون العرب إلا قد ولدوه، حكاه الماوردي عن الكلبي.

قال الزمخشري: " {من أنفسكم}، من جنسكم ومن نسبكم عربى قرشي مثلكم".

قوله تعالى: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [التوبة: ١٢٨]، أي:" يشق عليه ما تلقون من المكروه والعنت".

أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال (بعثت بالحنيفية السمحة).

وفي الصحيح (إن هذا الدين يسر) وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه.

قال الطبري:" أي: عزيز عليه عنتكم، وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى".

قال الزجاج:" أي: عزيز عليه عنتكم، والعنت لقاء الشدة".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: شديد عليه ما أثمتم وعصيتم".

قال البغوي:" {ما عنتم} قيل {ما} صلة أي: عنتكم، وهو دخول المشقة

=

=

والمضرة عليكم".

قال الزمخشري: " ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله عزيز عليه {ما عنتم}، أي: شديد عليه شاق- لكونه بعضا منكم- عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب".

عن ابن عباس قوله: " {عزيز عليه}، قال: شديد عليه". " {ما عنتم}، قال: ما شق عليكم".

وفي قوله تعالى: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [التوبة: ١٢٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: ما ضللتم. قاله ابن عباس.

وروي عن أبي روق قوله: " {حريص عليكم}، أن يؤمن كفاركم".

وقال القتيبي: "ما أعنتكم وضركم".

والثاني: معناه: عزيز عليه عَنت مؤمنكم. قاله قتادة.

وروي عن قتادة أيضا:" حريص على ضالهم أن يهديه".

والثالث: معناه: يعزّ عليه ما أثمتم في دينكم. قاله مقاتل.

والرابع: معناه: ما أتممتم. حكاه البغوي عن الضحاك والكلبي.

والراجح-والله أعلم- هو "قولُ ابن عباس، وذلك أن الله عمَّ بالخبر عن نبيّ الله أنه عزيز عليه ما عنتَ قومَه، ولم يخصص أهل الإيمان به. فكان ﷺ [كما جاء الخبرُ من] الله به، عزيزٌ عليه عَنَتُ جمعهم، فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يوصف ﷺ بأنه كان عزيزًا عليه عنتُ جميعهم، وهو يقتل كفارَهم، ويسبي ذراريَّهم، ويسلبهم أموالهم؟

قيل: إن إسلامهم، لو كانوا أسلموا، كان أحبَّ إليه من إقامتهم على كفرهم وتكذيبهم إياه، حتى يستحقوا ذلك من الله. وإنما وصفه الله جل ثناؤه بأنه عزيزٌ عليه عنتهم، لأنه كان عزيزًا عليه أن يأتوا ما يُعنتهم، وذلك أن يضلُّوا فيستوجبوا

=

=

العنت من الله بالقتل والسبي".

قوله تعالى: {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} [التوبة: ١٢٨]، أي:" حريص على إيمانكم وصلاح شأنكم".

قال الطبري:" يقول: حريص على هُدَى ضُلالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق".

قال الزجاج:" أي: حريص على إيمانكم".

قال البغوي:" أي: على إيمانكم وصلاحكم".

قال الزمخشري: أي:" حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به".

قال مقاتل:" {حريص عليكم}، بالرشد والهدى".

قال الكلبي:" يعني: على إيمانكم".

قال قتادة:" حريص على ضالهم أن يهديه الله". وفي رواية أخرى:" حريص على من لم يسلم أن يسلم".

عن أبي ذر قال. تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما.

قال: وقال ﷺ: ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم.

قوله تعالى: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]، أي:" وهو بالمؤمنين كثير الرأفة والرحمة".

قال الطبري:" أي: رفيق {رحيم}".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: رفيق بجميع المؤمنين، {رحيم} بهم".

قال البغوي:" قيل: {رؤوف} بالمطيعين، {رحيم} بالمذنبين".

قال الزمخشري: أي:" بالمؤمنين منكم ومن غيركم {رؤف رحيم}".

قال مقاتل:" يعني: يرق لهم، {رحيم بهم}، يعني: حين يودهم... «الرأفة» يعني:

=

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩).

{فَإِنْ تَوَلَّوْا} عَنْ الْإِيمَان بِك {فَقُلْ حَسْبِي} كَافِي {الله لَا إلَه إلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْت} بِهِ وَثِقْت لَا بِغَيْرِهِ {وَهُوَ رَبّ الْعَرْش} الْكُرْسِيّ {الْعَظِيم} خَصَّهُ

=

الرقة والرحمة، يعني: مودة بعضكم لبعض، كقوله: {رُحَمَاءُ بَيْنَهُم}، يعني: متوادين".

قال السمعاني:" وقد أعطاه الله تعالى في هذه الآيه اسمين من أسمائه، وهو في نهاية الكرامه".

قال الزمخشري:" قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ في قوله: {رؤف رحيم}".

عن أبي روق في قوله: " {بالمؤمنين}، كلهم رؤف رحيم".

عن سعيد بن أبي عروبة:" {بالمؤمنين رؤف رحيم}، قال: رؤف: رقيق".

عن عكرمة قال: "قال رسول الله ﷺ: جاء جبريل فقال لي: يا محمد إن ربك يقرئك السلام وهذا ملك الجبال قد أرسله إليك وأمره ألا يفعل شيئا إلا بأمرك فقال له ملك الجبال: إن الله أمرني ألا أفعل شيئا إلا بأمرك، إن شئت دمدمت عليهم الجبال، وإن شئت رميتهم بالحصباء وإن شئت خسفت بهم الأرض، قال: يا ملك الجبال، فإني آتي بهم بهم، لعلهم أن تخرج ذرية يقولوا: لا إله إلا الله، فقال ملك الجبال: أنت كما سماك ربك رؤف رحيم".

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: لي أسماء، أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذين يحشر النساء على قدمي، وأنا العاقب: الذي ليس بعده أحد وقد سماه الله رؤفا رحيما".

بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَعْظَم الْمَخْلُوقَات وَرَوَى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرَك عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب قَالَ آخِر آيَة نَزَلَتْ {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُول} إلى آخر السورة[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ} [التوبة: ١٢٩]، أي: فإن أعرض المشركون والمنافقون عن الإيمان بك -أيها الرسول- فقل لهم: حسبي الله، يكفيني جميع ما أهمَّني".

انتقل سبحانه من خطاب المؤمنين إلى خطابه ﷺ فقال:

(فإن تولوا) أي: فإن أعرضوا عن الإيمان بك، وتركوا طاعتك، فلا تبتئس ولا تيأس، بل قل:

(فقل حسبي الله) أي: هو كافيني ونصيري.

(لا إله إلا هو) أي: لا إله بحق إلا الله.

فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبدا لربه، ممتثلا أوامره مجتنبا نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقا ناقصا مدبرا فقيرا من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئا من أنواع العبادة.

- في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر.

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فإن تولى، يا محمد، هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك، فأدبروا عنك ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله، وما دعوتهم إليه من النور والهدى، {فقل حسبي الله}، يكفيني ربي".

=

=

قال مقاتل:" فإن تولوا عنك، يعني: فإن لم يتبعوك على الإيمان -يا محمد- {فقل حسبي الله..}".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: إن أعرضوا عنك ولم يؤمنوا بك، فقل حسبي الله يعني قل: كفاني الله وفوضت أمري إلى الله ووثقت به".

قال البغوي:" {فإن تولوا}، إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك الحرب".

قال الزمخشري:" {فإن تولوا}، فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوض إليه، فهو كافيك معرتهم، ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم".

قال الزجاج: {فَقُلْ حَسْبِيَ} "أي: الذي يكفيني الله".

عن ابن عباس: " {فإن تولوا فقل حسبي الله}، يعني: الكفار، تولوا عن النبي ﷺ، وهذه في المؤمنين".

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [التوبة: ١٢٩]، أي: لا معبود بحق إلا هو".

قال الطبري: أي:" لا معبود سواه".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: لا ناصر ولا رازق ولا معين إلا هو".

عن ابن عباس: " {لا إله إلا الله}، قال: توحيد".

عن محمد بن إسحاق:" {لا إله إلا الله}، أي: ليس معه غيره شريكا في أمره".

قوله تعالى: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} [التوبة: ١٢٩]، أي: عليه اعتمدت، وإليه فَوَّضْتُ جميع أموري، فإنه ناصري ومعيني".

قال الطبري: أي:" وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه وإلى نصره استندت، فإنه ناصري ومعيني على من خالفني وتولى عني منكم ومن غيركم من الناس".

قال مقاتل:" يعني: به واثق".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: به أثق".

قال محمد بن إسحاق: "وعلى الله لا على الناس فليتوكل المؤمنون".

=

=

والتوكل لا ينافي فعل الأسباب.

قال تعالى (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) مع أنه تعالى لو أراد أسقطه لها بدون هز منها.

ومن أوضح الأدلة قول يعقوب (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون).

(يا بني لا تدخلوا من باب واحد) محافظة عليهم من العين ثم قال (وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون).

فقد أخذ بالسبب والحيطة، وصرح بان الاعتماد على الله وحده.

قال ابن القيم أيضا: فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

التحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

قال شيخ الإسلام: وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، قال تعالى (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق).

وقال: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

وقال بعض العارفين: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

وقال ابن القيم - رحمه الله -ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورا بإزالته لأزاله.

قوله تعالى: {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة: ١٢٩]، أي: وهو رب العرش

=

=

العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: خالق السرير العظيم، الذي هو أعظم من السموات والأرض".

قال الطبري: أي:"الذي يملك كلَّ ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده، وإنما عنى بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم، الخبرَ عن جميع ما دونه أنهم عبيده، وفي ملكه وسلطانه، لأن " العرش العظيم"، إنما يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه " ذو العرش " دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم دون غيره، وأن من دونه في سلطانه وملكه، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه".

قال ابن عباس:" إنما سمي العرش عرشا لارتفاعه".

وعن ابن عباس أيضا، قال: "العرش لا يقدر أحد قدره".

إسماعيل بن أبي خالد قال: "سمعت سعدا الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء".

عن كعب قال: "إن السموات في العرش كالقنديل معلق بين السماء والأرض".

عن مجاهد قال: "السماوات والأرض عند العرش إلا كحلقة في أرض فلاة".

عن وهب بن منبه قال: "إن الله خلق العرش من نوره، وذكر الحديث".

عمر بن النصري قال:" في كتاب ما تنبأ عليه هارون النبي ﷺ أن بحرنا هذا خليج من نبطس، ونبطس وراءه، وهو محيط بالأرض، فالأرض وما فيها من البحار عند نبطس كعين على سيف البحر، وخلف نبطس عين محيط بالأرض فنبطس وما دونه عنده كعين على سيف البحر، وخلف نبطس الأصم محيط بالأرض فنبطس وما دونه عنده كعين على سيف البحر، وخلف الأصم المظلم محيط بالأرض فالأصم وما دونه عنده كعين على سيف البحر، وخلف المظلم جبل من الماس محيط بالأرض، فالمظلم وما دونه عنده كعين على سيف البحر، وخلف الماس الباكي وهو ماء عذب، محيط بالأرض أمر الله نصفه أن يكون تحت العرش فأراد

=

=

أن يستجمع فزجره فهو باك يستغفر الله، فالماس وما دونه عنده كعين على سيف البحر والعرش خلف ذلك محيط بالأرض، فالباكي وما دونه عنده كعين على سيف البحر".

أخرج الطبري عن أبيّ بن كعب قال: "آخر آية نزلت من القرآن: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم}، إلى آخر الآية".

عن عبيد بن عمير قال: "كان عمر رحمة الله عليه لا يُثْبت آيةً في المصحف حتى يَشْهَدَ رجلان، فجاء رجل من الأنصار بهاتين الآيتين: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه}، فقال عمر: لا أسألك عليهما بيّنةً أبدًا، كذا كان رسول الله ﷺ!".

عن أبي صالح الحنفي قال: "قال رسول الله ﷺ: إن الله رحيم يحبّ كل رحيم، يضع رحمته على كل رحيم. قالوا: يا رسول الله، إنا لنرحم أنفسنا وأموالنا قال: وأراه قال: وأزواجنا؟ قال: ليس كذلك، ولكن كونوا كما قال الله: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم}. أراهُ قرأ هذه الآية كلها".

روي عن أبي بن كعب قال: "آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان {لقد جاءكم رسول من أنفسكم} إلى آخر السورة. وقال: هما أحدث الآيات بالله عهدا".

واخرج ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب:"أنهم جمعوا القرآن، فلما انتهوا إلى هذه الآية ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم فظنوا آخر ما نزل من القرآن، فقال لهم أبي بن كعب: إن النبي ﷺ أقرأني بعد هذا آيتين: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم}، إلى قوله: {لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم}، قال: فهذا آخر ما نزل من القرآن فختم الأمر بما فتح به، بلا إله إلا الله، يقول الله ﷻ: {وما أرسلنا من

=

=

قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}".

وقرأ بعضهم: «العظيم» بالرفع، فجعل «العظيم» من نعت «الله» تعالى، وقراءة العامة «العظيمِ» بالخفض، ويكون «العظيم» نعتا للعرش.

(فائدة): قال ابن الأثير: "توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان: أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكل فلان فلانا: إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجزا عن القيام بأمر نفسه".

ويقال: "وكلت الأمر إليه وكلا: من باب وعد، ووكولا: فوضته إليه واكتفيت به ... وتوكل على الله: اعتمد عليه ووثق به، واتكل عليه في أمره كذلك".

وقال الرازي: "والتوكل: إظهار العجز والاعتماد على غيرك والاسم التكلان".

فمعناه في اللغة: (الاعتماد والتفويض).

وفي الشرع: قال ابن جرير الطبري رحمه الله: "الصواب في حد التوكل الثقة بالله تعالى والاعتماد في الأمور عليه، وتفويض كل ذلك إليه بعد استفراغ الوسع في السعي فيما بالعبد الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه على ما أمر به من السعي".

وقال ابن رجب رحمه الله: "هو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه".

وعرفه ابن رجب أيضا بقوله: "التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين كما قال الإمام أحمد واستدل عليه بقول إبراهيم عليه السلام لما عرض له جبرائيل في الهواء وقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا".

وقال الحسن رحمه الله تعالى: "توكل العبد على ربه: أن يعلم أن الله هو ثقته".

وقال ابن القيم رحمه الله: "التوكل عمل القلب وعبوديته اعتمادا على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضا إليه ورضاه بما يقضيه لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره

=

لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها".

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: "هو إسناد العبد أمره إلى الله وحده لا شريك له في جميع أموره الدينية والدنيوية".

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: "صدق الاعتماد على الله ﷻ، في جلب المنافع ودفع المضار مع فعل الأسباب التي أمر الله بها".

* أحكام وفوائد:

١ - صلة التوكل بالعبادة والإيمان: قال الله سبحانه وتعالى: {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين} يقول ابن القيم: "فجعل التوكل شرطا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، وفي الآية الأخرى: {ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} فجعل دليل صحة الإسلام التوكل. وقال تعالى: {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ذكر اسم الإيمان ها هنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل وإذا كان التوكل ضعيفا فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد. والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان وبين التوكل والإسلام وبين التوكل والتقوى وبين التوكل والهداية ... فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل".

وقال الإمام أحمد رحمه الله: "التوكل: عمل القلب".

قال ابن القيم رحمه الله: "ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات..".

=

فالتوكل من أعمال القلوب: كالمحبة والإنابة والخوف والرجاء.. ونحو ذلك.
قال السعدي رحمه الله: "التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان. وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه ويتم توحيده، والعبد يضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه".
وقال ابن قاسم رحمه الله: "وهو عبادة من أجل العبادات، بل هو أجل أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد".
٢ - حقيقة التوكل: قال ابن رجب رحمه الله: "وحقيقة التوكل تفويض الأمور إلى من هي بيده. فمن توكل على الله في هدايته، وحراسته، ورزقه وغير ذلك من مصالح دينه ودنياه تولى الله مصالحه كلها، وهذا حقيقة الوثوق بالله، وبرحمته، كما في هذا الدعاء "ولا أثق إلا برحمتك" فمن وثق برحمته، فقد حقق التوكل به في توفيقه وتسديده".
قال ابن القيم: "وقد تقدم أن كثيرا من الناس يفسر التوكل بالثقة، ويجعله حقيقتها، ومنهم من يفسره بالتفويض، ومنهم من يفسره بالتسليم، فعلمت أن مقام التوكل يجمع ذلك كله".
وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، أنه النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده، في فعل الأسباب النافعة. فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله وتعلق به وكل إليه وخاب أمله" (٣).

=

=

٣ - أقسام التوكل على الله: قال ابن القيم رحمه الله: "التوكل على الله نوعان:
أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.
الثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.
وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية ومن توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه، فأعظم التوكل عليه: التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل".
٤ - أقسام التوكل على غير الله: قال حاتم الأصم سمعت شقيق البلخي يقول: "لكل واحد مقام؛ فمتوكل على ماله، ومتوكل على نفسه، ومتوكل على لسانه، ومتوكل على سيفه، ومتوكل على سلطنته، ومتوكل على الله ﷻ. فأما المتوكل على الله ﷻ؛ فقد وجد الاسترواح، نوه الله به ورفع قدره، وقال: {وتوكل على الحي الذي لا يموت} [الفرقان: ٥٨] وأما من كان مستروحا إلى غيره يوشك أن ينقطع به فيشقى".
قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله، غير ناظر إلى الله؛ كان فيه نوع توكل على ذلك السبب، وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك. قال تعالى: {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق} [الحج: ٣١]".
يقول الشيخ سليمان بن عبد الله: "لكن التوكل على غير الله قسمان:
أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كالذين يتوكلون على

=

=

الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة فهذا شرك أكبر فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة العادية كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك فهذا نوع شرك خفي.

والوكالة الجائزة هي توكل الإنسان في فعل مقدور عليه. لكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وكله. بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكله فيه كما قرره شيخ الإسلام".

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "التوكل على الغير فيما يتصرف فيه المتوكل بحيث ينيب غيره في أمر تجوز فيه النيابة فهذا لا بأس به بدلالة الكتاب والسنة والإجماع، فقد قال يعقوب لبنيه {يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه} [يوسف: ٨٧] ووكل النبي ﷺ على الصدقة عمالا وحفاظا، ووكل في إثبات الحدود وإقامتها، ووكل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هديه في حجة الوداع أن يتصدق بجلودها وجلالها، وأن ينحر ما بقي من المئة بعد أن نحر ﷺ بيده ثلاثا وستين. وأما الإجماع على جواز ذلك فمعلوم من حيث الجملة".

وقال رحمه الله: "ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغي للإنسان أن لا يعلق نفسه بالسبب بل يعلقها بالله، فالموظف الذي يتعلق قلبه بمرتبه تعلقا كاملا مع الغفلة عن المسبب وهو الله فهذا نوع من الشرك أما إذا اعتقد أن المرتب سبب والمسبب هو الله سبحانه وتعالى فهذا لا ينافي التوكل، والرسول ﷺ كان يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب وهو الله عز وجل".

٥ - مسألة: حكم قول توكلت على الله ثم عليك: سئل الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن قول: "متوكل على الله ثم عليك يا فلان؟ ": فأجاب: "شرك. يقول موكلك ولا يقول موكل الله ثم موكلك على هذا الشيء، هذه عامية، وليست في

=

=

محلها".

وقال محقق الفتاوى الشيخ محمد بن قاسم رحمه الله: "والفرق بين هذا وبين أعوذ بالله ثم بك أنه تجوز الاستعاذة بالمخلوق مفردا فيما يقدر عليه، بخلاف التوكل فإنه كله عبادة، كما لا يجوز أسجد لله ثم لك يا فلان، أو أعبد الله، ثم أعبدك يا فلان".

وسئل الشيخ محمد بن إبراهيم عن قول بعض العامة توكلت عليك يا فلان في كذا؟ قال: "هذا شرك أما التوكيل فيجوز لأنه استنابة".

٦ - كيف يستكمل العبد مقام التوكل وتثبت قدمه فيه: التوكل على الله حال مركب من عدة درجات لا تتم حقيقته إلا بها وهي:

الأولى: معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته، واليقين بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

قال ابن القيم: "وهذه المعرفة أول درجات يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل، ونقل عن شيخ الإسلام قوله: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل وجلاله، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات".

الثانية: إثبات الأسباب ورعايتها والأخذ بها.

الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل.

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده؛ بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل.

=

=

الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه وطمأنينته به والثقة بتدبيره، كما قال بعض العارفين: "المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه"، ولذلك قال ابن القيم: "التوكل معنى يلتئم من أصلين: الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة {إياك نعبد وإياك نستعين (٥)} [الفاتحة: ٥]".

الخامسة: حسن الظن بالله ﷻ.

قال ابن القيم: "والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه؛ إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه والله أعلم".

وفي الحديث القدسي قال الله ﷻ: "أنا عند ظن عبدي بي" وقال ﷺ قبل وفاته بثلاث: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى".

السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعته.

السابعة: التفويض: قال الله تعالى: {فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)} [غافر: ٤٤] قال ابن القيم رحمه الله: "وهو روح التوكل ولبه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبا واختيارا، لا كرها واضطرارا".

الثامنة: الرضا: قال ابن القيم رحمه الله: "وهي ثمرة التوكل، ومن فسره بها، فإنما فسره بأجل ثمراته وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله. وذكر شيخ الإسلام: "أن الرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه"، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية، أو معنى هذا".

ثم قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- بعد ذكر هذه الدرجات الثمان: "فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل وتثبت قدمه فيه".

=

=

٧ - علاقة الأسباب بالتوكل: كان من هدي النبي ﷺ وأصحابه اتخاذ الأسباب وكانوا أكمل الخلق توكلا بل إن رسول الله ﷺ لبس الدروع يوم أحد، واستأجر دليلا مشركا على دين قومه، ليدله على الطريق يوم الهجرة، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه.

ويذكر أنه قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد فجيء بهم إلى عمر رضي الله عنه فسألهم فقالوا: نحن المتوكلون على الله. فقال: لستم المتوكلين بل أنتم المتواكلون.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، أفتح مصحفي فأقرأه حتى أمسي؟ قال الحسن: "اقرأه بالغداة واقرأه بالعشي، وكن سائر نهارك في صنعتك وما يصلحكم".

وسأل الإمام أحمد رجل فقال: أيخرج إلى مكة متوكلا لا يحمل معه شيئا؟ قال: "لا يعجبني، فمن أين يأكل قال: يتوكل فيعطيه الناس. قال: وإذا لم يعطوه. أليس يستشرف لهم حتى يعطوه؟ لا يعجبني هذا. لم يبلغني أن أحدا أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين فعل هذا، ولكن يعمل ويطلب ويتحرى".

وكان الإمام أحمد يأمر بالسوق، ويقول: "ما أحسن الاستغناء عن الناس".

وسئل عن قوم لا يعملون ويقولون نحن متوكلون فقال: "هؤلاء مبتدعة".

قال عبد الله التستري: "من قال: إن التوكل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله ﷺ، لأن الله ﷻ يقول: {فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا} [الأنفال: ٦٩] فالغنيمة اكتساب".

وقد أخبر الله في كتابه عن مريم عليها السلام: {وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا (٢٥)} [مريم: ٢٥].

وهذا دليل على أن الله ﷻ يأمر باتخاذ الأسباب، كما دل على ذلك قوله:

=

=

{وهزي} وفي ذلك يقول بعضهم:

ألم تر أن الله قال لمريم ... فهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها ... جنته ولكن كل شيء له سبب

يقول ابن الجوزي: "وقد تشبث القاعدون عن التكسب بتعللات قبيحة منها أنهم قالوا: لا بد أن يصل إلينا رزقنا وهذا في غاية القبح فإن الإنسان لو ترك الطاعة وقال: لا أقدر بطاعتي أن أغير ما قضى الله علي فإن كنت من أهل الجنة فأنا إلى الجنة أو من أهل النار فأنا من أهل النار. قلنا له: هذا يرد الأوامر كلها ... ومعلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر".

ويقول أيضا رحمه الله: "فقد كان آدم عليه السلام حراثا، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطا، وإبراهيم ولوط زراعين، وصالح تاجرا، وكان سليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدروع، ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة صلى الله عليهم أجمعين".

والإنسان مع أخذه بالأسباب وإثباتها لا يعتمد عليها بل ينظر إلى مسببها وهو الله سبحانه وتعالى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "ولهذا قال طائفة من العلماء: "الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، نما التوكل المأمور به: ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع".

وقال ابن القيم رحمه الله: "وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد؛ فالالتفات إلى الأسباب ضربان:

أحدهما: شرك، والآخر عبودية وتوحيد؛ فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، يعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود، فهو معرض عن المسبب لها، ويجعل نظره

=

=

والتفاته مقصورا عليها.

وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها، وأداء لحق العبودية فيها، وإنزالها منازلها؛ فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذا لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب.

وأما محوها أن تكون أسبابا؛ فقدح في العقل والحس والفطرة، فإن أعرض عنها بالكلية؛ كان قدحا في الشرع وإبطالا له.

وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب، واعتقاد أن الأمر بيده، فإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه.

فالموحد المتوكل؛ لا يلتفت إليها؛ بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها؛ بل يكون قائما بها ملتفتا إليها ناظرا إلى مسببها سبحانه ومجريها ... فإذا جمعت بين هذا التوحيد، وبين إثبات الأسباب؛ استقام قلبك على السير إلى الله ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم، وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وبالله التوفيق".

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله أمر بتعاطي الأسباب، مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، كما قال الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم} [النساء: ٧١]، وقال: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل} [الأنفال: ٦٠]. وقال تعالى: {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله} [الجمعة: ١٠].

وقال سهل التستري: من طعن في الحركة -يعني في السعي والكسب- فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته، فمن عمل على حاله، فلا يتركن سنته. ثم إن الأعمال التي يعملها

=

=

العبد ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات التي أمر الله عباده بها، وجعلها سببا للنجاة من النار، ودخول الجنة، فهذا لا بد من فعله مع التوكل على الله فيه، والاستعانة به عليه.. فمن قصر في شيء مما وجب عليه من ذلك استحق العقوبة في الدنيا والآخرة شرعا وقدرا.

الثاني: ما أجرى الله العادة به في الدنيا، وأمر عباده بتعاطيه كالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش، والاستظلال من الحر والتدفي من البرد ونحو ذلك، فهذا أيضا واجب على المرء تعاطي أسبابه، ومن قصر فيه حتى تضرر بتركه مع القدرة على استعماله، فهو مفرط يستحق العقوبة، لكن الله سبحانه وتعالى قد يقوي بعض عباده من ذلك على ما لا يقوي عليه غيره، فإذا عمل بمقتضى قوته التي اختص بها عن غيره فلا حرج عليه، ولهذا كان النبي ﷺ يواصل صيامه وينهى عن ذلك أصحابه.

الثالث: ما أجرى الله العادة به في الدنيا في الأعم الأغلب، وقد يخرق العادة في ذلك لمن شاء من عباده وهو على أنواع:

منها: ما يخرقه كثيرا ويغني عنه كثيرا من خلقه، كالأدوية بالنسبة إلى كثير من البلدان وسكان البوادي ونحوها.

وقد اختلف العلماء هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تركه لمن حقق التوكل على الله؟ فيه قولان مشهوران.

وظاهر كلام أحمد أن التوكل لمن قوي عليه أفضل؛ لما صح عن النبي ﷺ أنه قال: "يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب" ثم قال: "هم الذين لا يتطيرون، ولا يسترقون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون".

ومنها ما يخرقه القليل من العامة، كحصول الرزق لمن ترك السعي في طلبه فمن رزقه الله صدق يقين، وتوكل، وعلم من الله أن يخرق له العوائد ولا يحوجه إلى

=

=

الأسباب المعتادة في طلب الرزق ونحوه، جاز له ترك الأسباب ولم ينكر عليه ذلك. وحديث عمر هذا الذي نتكلم عليه يدل على ذلك، ويدل على أن الناس إنما يؤتون من قلة تحقيق التوكل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم، ومساكنتهم لها، فلذلك يتعبون أنفسهم في الأسباب، ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد ولا يأتيهم إلا ما قدر لهم، فلو حققوا التوكل على الله بقلوبهم لساق إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوع من الطلب والسعي لكنه سعي يسير".

٨ - مسألة مهمة في علاقة التداوي والاكتواء والاسترقاء بالتوكل: قد جاء عند أحمد والنسائي مرفوعا: "من استرقى أو اكتوى فقد برئ من التوكل". والمقصود من هذا الحديث التوكل المستحب، لأن طلب الرقية جائز.

وسوف يقتصر كلامنا هنا على الاسترقاء فقط، أما الاكتواء التداوي فقد سبق الكلام عنهما في بابي (التداوي) و (الكي).

والاسترقاء -طلب الرقية- قد قال كثير من العلماء أنه يقدح في تمام التوكل، منهم الإمام أحمد والخطابي والقاضي عياض والنووي وابن تيمية وابن القيم رحمهم الله وهو القول الراجح الذي يدل عليه حديث "السبعون ألفا".

قال ابن رجب: "وظاهر كلام أحمد أن التوكل لمن قوي عليه أفضل؛ لما صح عن النبي ﷺ أنه قال: "يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب" ثم قال: "هم الذين لا يتطيرون، ولا يسترقون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون".

وقال القاضي عياض رحمه الله وغيره: "الحديث يدل على أن للسبعين الألف مزية عن غيرهم وفضيلة تفردوا بها".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "المسترقي يسأل غيره ويرجو نفعه وتمام التوكل ينافي ذلك، والمراد وصف السبعين ألفا بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم

=

=

أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون من شيء".

وقال ابن القيم رحمه الله: "والنبي ﷺ لا يجعل ترك الإحسان المأذون فيه سببا للسبق إلى الجنان وهذا بخلاف ترك الاسترقاء، فإنه توكل على الله ورغبة عن سؤال غيره ورضاء بما قضاه، وهذا شيء وهذا شيء".

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: "اعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلا، كما يظنه الجهلة؛ فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، لا انفكاك لأحد عنه، حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، كما قال تعالى: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} [الطلاق: ٣] أي كافيه.

إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة -مع حاجتهم إليها- توكلا على الله، كالاسترقاء والاكتواء، فتركهم له ليس لكونه سببا لكن لكونه مكروها، لا سيما والمريض يتشبث بما يظنه سببا لشفائه بخيط العنكبوت، أما نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعا".

وقال الشيخ ابن قاسم رحمه الله: "وإنما المراد وصف السبعين ألفا بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم".

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: "ومن أخص ما يدل على تحقيق التوحيد كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شئونه ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله وحاله بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه وجميع أحواله كلها مقصودا بها وجه الله متبعا فيها رسول الله".

وبين الشيخ ابن عثيمين رحمه الله أن من يطلب من يرقيه فقد فاته الكمال.

=

=

وقال الشيخ صالح الفوزان: "لأن طلب الرقية من الناس سؤال للمخلوقين، والسؤال للمخلوق فيه ذلة، فهم يستغنون عن الناس ويعتمدون على الله سبحانه وتعالى، وهذا من تمام التوحيد أن الإنسان لا يسأل الناس ... وسؤال المال يجوز للحاجة إذا كان الإنسان مضطرا، فإنه يجوز أن يسأل الناس حتى ترتفع ضرورته، أما السؤال الإنسان الناس وهو غني فهذا حرام". انتهى من معجم التوحيد.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: وهى أول آية من متشابه هذه السورة -: "ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم " وفيما بعد: "ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفرو رحيم " فاستوت الآيتان فى إعلامه تعالى نبيه والمؤمنين أنه يتوب على من يشاء وفى ختم الآيتين بصفتين من صفاته سبحانه ثم اختلفت الصفتان فقيل فى الأولى "عليم حكيم " وفى الثانية "غفور رحيم "؟

ووجه ذلك والله أعلم أن الآية الأولى أعقب بها ما تقدمها متصلا بها من الآى فى كفار مكة وفعلهم مع رسول الله ﷺ وأصحابه من التضييق والاحراج وبدئهم بالقتال يوم بدر ونقضهم العهد فى قصة خزاعة فى صلح الحديبة وهذا كله مبسوط فى كتب السير والتفسير فأمر الله تعالى بقتالهم وخزيهم والنصر عليهم وشفاء صدور من آمن من خزاعة وغيرهم ممن آذوه قال تعالى: "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صور قوم مؤمنين " ثم قال تعالى: "ويتوب الله على ما يشاء " كأبى سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبى جهل إلى من أسلم منهم بعد ما صدر من اجتهادهم فى الاذاية والصد عن سبيل الله ثم قال "والله عليم حكيم " أى بما فى القتال وفى طى ما جرى من ذلك كله بتقديره السابق أولا إذ لا تترحك ذرة إلا بإذنه وتقدم علمه أولا وما فى ذلك من الحكمة وختم أفعالهم السيئة بالأوبئة والرجوع إليه سبحانه بسابق سعادة لمن شاهدها له منهم

=

=

فهـــــذا وجـــــه الـــــنظم والتناســـب فيـــــه واضـــــح.
وأما الآية الثانية فسببها - والله أعلم - ما جرى يوم حنين من تولى الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئا ولم يثبت مع رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم أحد إذ لم يبرح عليه السلام من مكانه فلم يثبت معه إلا القليل من العدد القليل فنادى العباس رضى الله عنه بآل الانصالر فاستجاب ناس وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ومكن نبيه والمسلمين أعدائهم والقصة معروفة فختمت هذه الآى بقوله تعالى: "والله غفور رحيم " تأنيسا لمن فر من المسلمين فى ذلك اليوم وبشارة لهم بتوبة الله عليهم وإن ما وقع منهم من الفرار مغفور لهم رحمة من الله سبحانه فجاء كل هذا على ما يناسب ولا يلائم خلافه والله أعلـــم.
الآية الثانية قوله تعالى: " والله لا يهدى القوم الظالمين " وورد بعد هذا بآيات "والله لايهدى القوم الفاسقين " وبعد الحزب الأول من هذه السورة: "والله لا يهدى القوم الكافرين " وفى ذكر المنافقين من هذه السورة: "والله لا يهدى القوم الفاسقين " للسائل أن يسأل عن وجه افتراق أوصاف المذكورين فى هذه الآى بـــالظلم والفـــسق والكفـــر؟ وهـــل ذلـــك لـــداع مـــن المعنـــى؟
والجواب أن كل وصف منها إنما جرى على ما تقدمه لداع مناسب من المعنى أما الآية الأولى فإن قبلها قوله تعالى: " أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله " وهؤلاء المقول لهم: "أجعلتم " إنما هم كفار قريش ممن ظلم نفسه بالتقصير فى النظر وظن أن عمله من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كاف مخلص عند الله وأن المؤمن بالله واليوم الآخر المجاهد فى سبيل الله ليس بأفضل حالا وعملا منه فرد الله مقالهم وقيل لهم: "لا ستوون عند الله " ومن ظن ذلك كما ظننتم فظالم لنفسه
=

=

من حيث قصر فى نظره مع تنبيهه على النظر فى وجه مابه خلاصه: "والله لايهدى القوم الظالمين " وهم الذين سبق فى علم الله أنهم لا يؤمنون بظلمهم أنفسهم". وأما الآية الثانية فكف ومنع للمؤمنين عن ارتكاب ماليس من شأنهم ألا ترى أن قبلها: "يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء " فنهوا عن موالاة من ذكر من آباءهم وإخوانهم إذا كانوا مؤثرين للكفر مستحبيه على الإيمان ثم قيل لهم: "ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون " ثم أعقب بقوله: "قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم " أى إن آثرتم ما ذكر وكان أحب إليكم "من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره " أى أنكم إذا أنصفتم بهذا فقد خرجتم عن دينكم وفارقتم إيمانكم ولحقتم بمن كفر بعد إيمانه "والله لا يهدى القوم الفاسقين " والفاسق الخارج.

وأما الآية الثالثة فقبلها قوله تعالى: " إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا"، ثم ذكر مرتكبهم فيه وتزيين ذلك لهم ولما قدر لهم من تماديهم فى كفرهم فقال: "زين لهم سزء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين " فوسموا أولا بالكفر فقيل: "يضل به الذين كفروا " إذ لم يكن تقدم لهم إيمان ثم خرجوا عنه بل كانت حالهم التمادى على كفرهم الذى لم يتقدمه إيمان ولما ذكر بعض ما حملهم عليه كفرهم وأنه من سوء أعمالهم ومما زينه الشيطان لهم قال تعالى: "ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين " الآيات فوصفوا بالتظاهر بالاسلام ثم خرجوا عنه بشنيع كفرهم وقبيح مرتكباتهم ووصفهم تعالى بأنهم "يلمزون المطوعين من المؤمنين " ومن لا يجد إلا جهده إلى قوله: "ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله " ثم قال: "والله لا يهدى القوم الفاسقين " فلخروجهم ومفارقتهم ما قد كانوا تظاهروا به من الإسلام وصفوا

=

=

بالفسق الذى هو الخروج والمفارقة من قولهم فسق الرطبة إذا خرجت من قشرها قال تعالى: "إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه " فقد وضح فى كل آية من هذه أن ما انجر فيها من وسم من أريد بها وجرى ذكره قبلها يقتضى ورود ذلك الوصف على ما ورد عليه وأنه لا يلائم كل آية منها إلا ما أعقبت به والله أعلم.

الآية الثالثة قوله تعالى: " يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون " وفى سورة الصف: "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون " ومعنى الآيتين فى السورتين واحد وقد زادت آية براءة على آية الصف عشرة أحرف صورا فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عنه والله أعلم: أن زيادة آية براءة مقابل بها ما ورد من الطول فى المحكى فى هذه السورة من قول الطائفتين من اليهود والنصارى قال تعالى حاكيا عنهم: "وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله " فوقع فى المحكى هنا طول اقتضى ما بنى جوابا عليه ليتناسب.

وأما آية الصف فمقابل بها قول عيسى عليه السلام لما قال لهم: "يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد " ثم قال تعالى: "فلما جاءهم البينات قالوا هذا سحر مبين " وإنما الجواب على المحكى من قولهم خاصة وهو قولهم: "هذا سحر مبين " وليس هذا فى الطول وعدة الكلم المحكى فى سورة براءة ألا ترى أن الواقع فى سورة براءة ست كلمات وفى الصف ثلاث كلمات ثم إن الواقع فى سورة براءة مقال طائفتين منهم اليهود والنصارى مفصحا به والواقع فى الصف مقالة طائفة واحدة وهذا مراعى فقد وضح ورود كل من الآيتين مناسبا لما اتصل به وعلى ما يجب فى السورتين والله أعلم بما أراد.

الآية الرابعة: قوله تعالى: " والله يعلم إنهم لكاذبون " وفيما بعد من هذه السورة:

=

=

"والله يشهد إنهم لكاذبون " وكذا فى سورتى الحشر والنافقين فورد فى الأولى: "يعلم " وفى البواقى "يشهد " مع أن المقصود فى الأربع آيات واحد وهو أنه سبحانه عليم بما يخفونه أو يظهرونه من أعمالهم فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب والله أعلم: أن الاستطاعة وعدمها حكم لا يطلع عليه فى الغالب بل ينفرد كل بحاله فى ذلك إلا أن يعلم ذلك بقرينة فقول المنافقين فى إخبار الله تعالى عنهم: "لو استطعنا لخرجنا معكم " غير مشاهد من ظاهرهم فقد كان يمكن صدقهم أو صدق بعضهم لولا أنه سبحانه أعلم نبيه ﷺ بحالهم وما يكون من اعتذارهم قبل أن يقع منهم وبتقاسعهم عن الخروج فقال تعالى: "لو كان عرضا قريبا قاصدا لأتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم " فأعلم تعالى بما يكون منهم قبل أن يكون وذلك غيب وأعلم بوجه تقاسعهم وتثبطهم ثم أعلم بكذبهم فقال: "والله يعلم إنهم لكاذبون " فحصل العلم بحالهم بإخباره تعالى ثم تكاثرت الشواهد عنهم.
فلما كان حال الاستطاعة على ما ذكرنا من الخفاء حتى لا يطلع عليها ناسب ذلك التعريف عن اطلاعه تعالى على ما أخفوه من حالهم بالعلم فقال سبحانه: "والله يعلم إنهم لكاذبون "ولا يناسب غيره.
أما الآية الثانية فهى فى أهل مسجد الضرار وأمرهم مما قد كانوا تواطئوا عليه ولم يخف حال بعضهم عن بعض وذلك بخلاف حال الاستطاعة وما يمكن فيها من الخفاء فكان هذا مما يرجع إلى حكم الظهور والشهادة فكان ورود قوله تعالى هنا: "والله يشهد " أنسب وكذا الحكم فى آية الحشر لبنائها على قوله تعالى: " ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم " إلى آخر الآية وكل هذا قول مشاهد معلوم مدرك بحاسة السمع وما

=

=

وعدوا به إخوانهم من نصرتهم والخروج معهم أن خرجوا كل ذلك مما كنا يشاهد لو وقع وليس شئ من ذلك كالاستطاعة فى خفائها وغيابها فناسب هذا قوله تعالى: " والله يشهد إنهم لكاذبون " الوارد فى سورة المنافقين لأن قولهم: "نشهد إنك لرسول الله " قول مدرك بالسمع مع أن هذه الآية قولهم نشهد فطابق هذا وناسبه قوله: "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون " وجاء كل من هذه الآى على ما يجب ويناسب والله أعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: " وما منعهم أن تقبل منهم نفاقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون " وفيما بعد من هذه السورة: "ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين " وبعد هذه الآية: "ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون " للسائل أن يسأل عن زيادة الباء فى قوله "وبرسوله " ولم تزد فى الآيتين بعد والظاهر من بعد ما يسأل فيه لأنها مقاصد مختلفة؟

والجواب: أنك إذا قلت مثلا المانع من تقريب زيد نفاقه فإنك لم تزد على أن أخبرت عن علة منع تقريب زيد شيئا فإذا قلت أن المانع من تقريب زيد نفاقه فقد زدت على الاخبار بالمانع من تقريب زيد أنه نفاقه وإن قلت إنما المانع من تقريب زيد نفاقه فقد حصرت المانع من التقريب فى النفاق وأكدت ذلك تأكيدا أكثر من الحاصل بإن ولذا اتفق الأصوليون على قوم المفهوم الحاصل من قوله ﷺ: "إنما الولاء لمن أعتق " ولم يتفقوا فى المفهوم الحاصل من قوله عليه الصلاة والسلام: "فى سائمة الغنم بالزكاة " وذلك بسبب ما تقتضيه إنما من معنى الحصر وقد جرده بعضهم عن المفهومات وجعله دليلا برأسه لقوته وأبى أن يجعل هذا من دليل الخطاب وفى معنى قوله: "إنما الولاء لمن أعتق " وفى قوم قولك: "ما الولاء إلا

=

لمن أعتق " فإن معناه حصر الولاء فى المعتق وأنه لا ولاء لغيره ومن هذا قوله تعالى: " إنما يخشى الله من عباده العلماء " أى ما يخشاه تعالى حق الخشية إلا العلماء وقال تعالى: "إن هو إلا وحى يوحى " فنزه سبحانه نطق نبيه عن أن يكون غير وحى وليس قولك فى الكلام: هو وحى فى قوة قولك: إنه وحى يوحى لما زدت من التأكيد بإن ولا قولك: إنه يوحى فى قوة الاخبار القرآنى من قوله تعالى: " إن هو إلا وحى يوحى " لما بين قبل.

فإذا وضح هذا فقوله تعالى: " وما منعهم أن تقبل منهم نفاقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله " وقد ورد على أبلغ وجوه التأكيد وحصل حصر المانع من القبول فى كفرهم وأنه لو لم يكن الكفر لكان القبول فناسب هذا التأكيد الذى بلغ به الغاية زيادة الباء فى قوله "وبرسوله " لإعطائها معنى التأكيد وإحرازها إياه. ولما لم يكن هذا التأكيد الحصرى واقعا فى الآيتين بعد وإنما وكد فيها بأن قال تعالى: "ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله " وقال تعالى: "إنهم كفروا بالله ورسوله " فلم يبلغ بهذا الاخبار مع تأكيده وقوته مبلغ الأول لم تلحقه الباء وجاء كل على ما يجب والله أعلم بما أراد.

الآية السادسة من سورة براءة قوله تعالى فى المنافقين: "ولا ينفقون إلا وهم كارهون فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم فى الحياة الدنيا " وقال فيما بعد: "ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا " فحملت الآية الأولى على ما قبلها بالفاء والصانية بالواو وزيدت لا النافية فى الأولى وسقطت من الثانية وقيل فى الأولى "ليعذبهم " وفى الثانية "أن يعذبهم " وقال فى الأولى "فى الحياة الدنيا " واكتفى بالوصف فى الثانية فقيل "فى الدنيا " فتلك أربع سؤالات.

=

والجواب عن الأول: أنه لما وصف تعالى أقوال المنافقين فى كفرهم وشتى مرتكباتهم وقرر ما هم عليه فى آيات إلى قوله: " وما منعهم أن تقبل منهم نفاقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون " فلما عرف بأحوالهم قال لنبيه عليه السلام: "فلا تعجبك أموالهم " وكان الكلام فى قوم أن لو قيل: إذا عرفت أحوالهم فلا تغتر بما لديهم فتظن أن ما مكناهم فيه ومنحناهم إياه من مال وولد إحسان عجلناه لهم "أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون"، "وإنما نملى لهم ليزدادوا إثما " فالكلام فى قوة الشرط والجزاء فكان موضع الفاء. أما قوله فى الآية الأخرى: "ولا تعجبك أموالهم وأولادهم " فمنسوق على قوله: "ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ولا تعجبك أموالهم وأولادهم " وكل هذا نهى له ﷺ أن يفعله وليس كالأولى فى أن ذكر مرتكباتهم ما بنى نهيه عليه السلام عليه فيتصور فيه معنى شرط وجزاء فلا مخل للفاء هنا ولا هو موضعها.

والجواب عن الثانى: أن الآية الأولى مقصود فيها من التأكيد ما لم يقصد فى الثانية لما قيل له عليه السلام: " وما منعهم أن تقبل منهم نفاقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله " وذكر له من قبح مرتكباتهم أشنعها أكد نهيه عليه السلام عن أن يلتفت إليهم تنزيها لقدره العلى عن الصغو إلى ما حاصله إملاء ولأهله فى الحقيقة استدراج وعناء فدخلت لا النافية تأكيدا يناسب هذا القصد ولما لم يكن فى الآية الأخرى اشتراط وجزاء يقتضى التأكيد فلم تخل لا فجاء كل على ما يجب ويناسب.

والجواب عن السؤال الثالث: أن قوله فى الآية الأولى: "إنما يريد الله ليعذبهم " بلام كى مناسب لما فى الآية من التأكيد إذ لا تقتضى تراخيا فناسب هذا ما ذكر من

=

=

التأكيد أما قوله فى الآية الثانية: "إنما يريد الله أنيعذبهم " فيقتضى أن التأكيد لما لم يبلغ فى هذه الثانية مبلغ الأولى بما تقدم فيها أشعرت أن بما فيها من التراخى فأن هذه ليست من التأكيد فى نمط الأولى وهذا رعى مناسبة لفظية إذ الاخبار بحالهم واحـــــد فى الآيتـــــين مـــــن غيـــــر فـــــرق.

فإن قيل فإن لام كى فى قوله تعالى: " ليعذبهم " تقدر بعدها أن على قول الجمهور فقد تساوت الآيتان قلت ليس المعنى مع تقديرها هو المعنى مع ظهورها بل لظهورها حكم لا يكون فى تقديرها وقد نص سيبويه رحمه الله على ذلك فى باب الجواب بالفاء من كتابه أنه كلام العرب فتبين أن قوله تعالى: " ليعذبهم " ليس كقولـــه: "أن يعـــذبهم " فيمـــا يعطيـــه ظهـــور أن مـــن التراخـــى والله أعلـــم.

والجواب عن السؤال الرابع: أن قوله "فى الحياة الدنيا " فى الآية الأولى بالجمع بين الصفة والموصوف مناسب أيضا وملائم أوضح ملاءمة للتأكيد الجارى فيها، أما الآية الأخرى فلا تأكيد فيها فناسب ذلك الاكتفاء بقوله: "فى الدنيا " وجاء الكـــــل علـــــى مـــــا يجـــــب ويناســـــب.

الآية السابعة من سورة براءة قوله سبحانه وتعالى: "وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون " وقال بعدها: "إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون " فيهما سؤالان: قوله فى الأولى "وطبع على قلوبهم " ببناء الفعل للمفعول مكتفى به، وفى الثانية "وطبع الله " ببناء الفعل على الأصل؟ والثانى قوله فى الأولى "فهم لا يفقهون " وفى الثانية "فهم لا يعلمـــــــــــــــــون".

والجواب عن الأول: أن مطلع الآية قبلها قوله تعالى: " وإذا أنزلت سورة " على

=

=

بناء الفعل للمفعول فجاء قوله "وطبع على قلوبهم " على ذلك ونوسب بختام هذه الآية بداءة ما قبلها وأما الثانية فلم يقع قبلها فعل بنى للمفعول وقد ذكر الفاعل فيها فجرى الكلام على ما يجب فقيل "وطبع الله على قلوبهم".

والجواب عن الثانى: أن قوله "وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله " لما اجتمع ذكر إنزال السورة والاشارة إلى ذكر المراد بها بقوله: "أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله " استدعى ذلك نظر من بلغه هذا المنزل واعتباره وتفهم المقصود به إلى الكمال ليقع الامتثال على وجهه فلما تراموا إلى الخلود إلى الراحة وترك الجهاد الذى تحملت الآية الأمر به ناسب ذلك أن ينفى عنه الفهم والتدبر فقيل: "وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون " والتفقه التفكر والاعتبار ولما لم يقع فى الآية بعد ذكر تديره وتفهمه لقرب المعنى المراد منه وذلك قوله: "إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء " صرف النفى إلى الحاصل على التفهم وهو العلم فقيل: "وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون".

الآية الثامنة من هذه السورة قوله تعالى: " قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون " وقال بعد هذا: "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة... "الآية فيها أربع سؤالات: الأول: قوله فى الأولى "وسيرى الله عملكم " بواو النسق ولم يرد فيها "والمؤمنون " وقال فيها "ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة " وقال فى الثانية "فسيرى الله " بفاء التعقيب وفيها "والمؤمنون " ولم يقل فى الأولى "والمؤمنون " وقال "وستردون " بالواو وفى الأولى "ثم تردون".

فاختلفت الآيتان فى ثلاثة مواضع فيسأل عنها وهل كان يصح وقوع الأولى فى موضع الثانية؟ والثانية فى موضع الأولى؟ وكل منهما على ما بنى؟ فهذه أربعة

=

=

أسئلة.

والجواب عنها على الجملة أن الآية الأولى فى المنافقين لم يخالطهم سواهم والثانية فى طائفة من المؤمنين كان فيهم تقصير ولهم إيمان فأنسوا وقوى رجاؤهم قال الطبرى: "هى فيمن تاب من المخلفين " قلت ويشهد لهذا ما اتصل بالآية مما قبلها والواقع قبل الأولى من قوله: "قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم " أى لستم صادقين فى اعتذاركم ثم قال: "قد نبأنا الله من أخباركم " أى قد أطلعنا على نفاقكم وسوء سرائركم ثم قال: "وسيرى الله عملكم ورسوله " وهذا تهديد عطف على مثله وقصد تعريفهم بالمجموع مما استوجبوا به المقت ولم يعطف بالفاء إذ ليس ما تعطيه من المعنى مقصودا هناا ولم يقل هنا والمؤمنون إذ النفاق عمل يخفيه المنافق فلا يطلع عليه إلا الله سبحانه وقد يطلع عليه رسوله ومن شاء من عباده وإنما كانوا يتظاهرون بخلاف ما يبطنون ثم قال "ثم تردون " فعطف ردهم إلى الله بثم المعطية مع مهلة الزمان هنا تفاوتا فى التهديد والوعيد ولم تكن الواو لتعطى هذا المعنى وتحرزه وقد بينت المواضع الثلاثة التى خالفت فيها هذه الآية الآية التى بعدها.

وأما الثانية فهى فى المتخلفين عن غزوة تبوك قال الطبرى: "فيمن تاب منهم " كما تقدم وقد وقع قبلها قوله تعالى: " وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم " ثم قال: "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم " فأمره سبحانه بأخذ زكواتهم وأخبره أنها تطير لهم وتزكية وأمره أن يدعوا لهم بقوله: "وصل عليهم " ثم زادهم تأنيسا بقوله: "ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات".

فإن قيل إنك قد عضدت هذا المأخذ فى هذه الآية لما اتصل بها من قوله: "خذ من أموالهم " وهذه الآية مطلقة يراد بها جميع من امر بالزكاة وهم المؤمنون ولم

=

=

تختص بأهل تبوك ولا غيرهم قات إنما دليلى فى اتصال بالآية عقبها المتكلم فيها وفى اتصالها بها بل تحصل الشهادة ويعتضد المراد ويلتئم النظم لأن من كان مقصودا بالآية الثانية وهى قوله: "قل اعملوا " على ما تمهد من جملة المؤمنين المخاطبين بالزكاة فالمعنى ومقتضى النظم وجلالة التركيب وتناسب السياق تحصل الشهادة فنقول قال تعالى: "وقل اعملوا " والمراد بالدأب على أعمال البر ما سلف من تقصيرهم ونظير هذا ما وقع عقب قوله تعالى: " قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله... "الآية ثم قال تعالى: "وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب " فليس قوله: "وقل اعملوا " وإن كان قد يبدو منه تهديد كالواقع فى الآية قبل إنما هو فى الحقيقة أمر بالعمل المرجو محوه لما سلف من تقصير وتهذيد لمن لم يتب.

وقوله: "فسيرى الله عملكم " جواب للأمر من قوله: "اعملوا " فالفاء فاء جواب وكأن قد قيل تأنيسا لهم: اعملوا فلن يضيع عملكم، وقيل هنا "والمؤمنون " لأن الاعمال الاسلامية يشاهدها المسلمون بعضهم من بعض كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك من الأعمال فيرى المسلمون ما تظوهر به من هذه الأعمال ويشهدون لما وراءها مما يرجع إلى قبيل الإيمان من الاعتقادات القلبية وما يرجع اليها قال عليه السلام: "إذا رأيتم الرجل يشهد المسجد فاشهدوا له بالايمان " وقال تعالى: "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله... "الآية فلهذا قيل فى هذه الآية "والمؤمنون " ولم يقل ذلك فى أعملا المنافقين لأنها مما لا يتظاهرون بها للمؤمنين وهذا مما يعضد قول الطبرى: أن هذه الآية فى التائبين من المتخلفين " لأن أعمال المنافقين قل ما يتظاهرون بها للمؤمنين إنما يبدونها إخواهم قال تعالى: "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم".

=

=

وقال تعالى: "وإذا جاؤوك قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به " وقال تعالى: "يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك " فإنما يشاهده المؤمنون ويرو ما يتظاهر به من الأعمال وفى هذا يشاركون نبيهم عليه السلام فى رويته فتلك أعمال المسلمين لا أعمال المنافقين فقوله: "فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " على هذه الصفة من التشريك بينهم وبين نبيهم عليه السلام فى رؤيته إنما هى أعمال الطاعة فهى التى تشاهد ويشاهد التفوت فيها بين المحافظ والمقصر ألا ترى قوله تعالى فى الآية الأولى: "قد نبأنا الله من أخباركم " فإنما نبأهم سبحانه وتعالى بما لم يشاهدوه ولا رأوه من مضمرات المنافقين ولما كان وصول المؤمنين إلى تعرف ذلك باخبار الله تعالى من غير رؤية من المؤمنين لذلك ما قال تعالى: "وسيرى الله عملكم ورسوله " ولم يقل هنا "والمؤمنون " لأنهم لم يحصل لهم شئ من أخبار المنافقين إلا بإنباء الله تعالى لا بإدراك رؤيته. أما الآية الثانية فقيل فيها "المؤمنون " لأن الواقع من هؤلاء - والله أعلم - أعمال مرئية كما قدمنا فشهد هذا السياق - والله أعلم - أن الآية الأولى فى المنافقين المستمرين على نفاقهم وان الثانية فى التائبين بعد على أعمال محمودة تشاهد وترى هذا حاصل قول الطبرى وان قلنا بما قال أبو محمد بن عطية ورغم أنه الظاهر من أن الماد بقوله "وقل اعملوا... "الآية المعتدون الذين لم يتوبوا المتوعدون المعنيون بقوله: "ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم " فيعارضنا اتصالها بما اتصلت به وأما على قول الطبرى فلا اشكال وهة أظهر، والله أعلم بما أراد.

وقد استمر كلام من وقفنا على كلامه من المفسرين على عبور الموضع دون نزول للاعتبار وهو من المواضع التى يجب أن يتعرض لها وقد جرى فيها كلام الزمخشرى على مقتضى قول الطبرى من غير تعرض لذلك وهو ظاهر والله أعلم.

=

=

الآية التاسعة: قوله تعالى: "إن إبراهيم لأواه حليم " وفى سورة هود: "إن إبراهيم لحليم أواه منيب " فتقدم فى الأولى الوصف بأواه على حليم وتأخر فى الثانية وتقدم فيها وصفه بحليم.
ووجه ذلك والله أعلم ان الأواه الكثير التأوه وفى كتاب ابن عطية أن التأوه التفجع فالمراد بالآية أن إبراهيم عليه السلام مع غلظة أبيه وقساوته حتى قال له "لئن لم تنته لأرجمنك " وابراهيم عليه السلام مع ذلك يتأوه تأسفا وتحسرا على اباية أبيه عن إجابته واتباعه مع تلطف إبراهيم عليه السلام فى قوله دعاء لأبيه إلى الإيمان فى إخبار الله تعالى عنه: "يأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا " إلى قوله: "يأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا " فكان عليه السلام لفرط ترحمه ورأفته وحلمه يتعطف على أبيه ويستغفر له ولم يزل على ذلك إلى أن قطع من حاله وتبين له أنه عدو الله فتبرأ منه فإخبر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بما كان من أبيه إبراهيم فى ذلك ليقتدى به ويهتدى بهديه فقال تعالى: "ما كان لنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم " وأعلمه تعالى بعذر إبراهيم فى استغفاره وان ذلك كان عن موعدة تقدمت منه لأبيه فتقدم وصف إبراهيم عليه السلام فى هذه الآية بأنه أواه وذلك مناسب لما بيناه أما آية هود فمنزلة على ما ذكر سبحانه من مجادلته فى قوم لوط جريا على ما وصفه سبحانه به من الحلم فكان تقديم وصفه هنا بالحلك أنسب وأجرى على ما بنى عليه فوضح ورود كلا الموضعين على ما يجب ويناسب ولا يمكن عكس الوارد والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (١/ ٢٢٦-٢٣٦).

سورة يونس[1]

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على أقوال:
أحدها: أنها مكِّيّة. وهذا قول ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، والحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر، وعليه جمهور المفسرين.
قال الفيروزآبادي:" اعلم أنّ هذه السّورة مكِّيّة، بالاتِّفاق".
والثاني: أنها مكية إلا قوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٤٠]. نزلت بالمدينة في اليهود. وهذا قول الكلبي.
والثالث: أن كلها مكية غير آيتين وهما: قوله- تعالى-: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس: ٩٤]، وقوله: {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [يونس: ٩٥]، فإنهما مدنيتان. وهذا قول مقاتل.
والرابع: أنها مكية إلا ثلاث آيات، وهي: (٩٤ و ٩٥ و ٩٦). وهذا القول منسوب إلى ابن عباس.
والخامس: أنها مكية، إلا الآيات: (٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦) فمدنية، به قال الزمخشري.
والسادس: أنه نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة. حكاه القرطبي عن آخرين.
قال السيوطي:" المشهور أنها مكية وعن ابن عباس روايتان فتقدم في الآثار السابقة عنها أنها مكية وأخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عنه ومن طريق ابن جريج عن عطاء عنه ومن طريق خصيف عن مجاهد عن ابن الزبير، وأخرج من طريق عثمان =

=

بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس أنها مدنية، ويؤيد المشهور ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: «لما بعث الله محمدا رسولا أنكرت العرب ذلك، ومن أنكر منهم قالوا: الله أعظم من ان يكون رسوله بشرا [مثل محمد]، فأنزل الله: {أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم}» ".

* عدد آياتها مائة وعشر آيات عند الشاميِّين، وتسع عند الباقين. وعدد كلماتها أَلف وأَربعمائة وتسع وتسعون كلمة. وحروفها سبعة آلاف وخمس وستون.

والآيات المختلَف فيها أَربعة: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدين} {وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور} و {مِنَ الشَّاكِرِيْنَ}.

ومجموع فواصلها (ملْن) على الَّلام منها آية واحدة {وَمَآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} وكلُّ آية على الميم قبل الميم ياء.

* تسمى «سورة يونس»: سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة: «سورة يونس»، ووجه تسميتها بسورة «يونس»، لأنها انفردت بذكر قصة قوم يونس-عليه السلام- إذ أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب، فعفا الله عنهم لما آمنوا، وذلك في قوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)} [يونس: ٩٨].

قال الصاوي:" سميت [السورة] بذلك لذكر اسمه فيها وقصته، وقد جرت عادة الله بتسمية السورة ببعض أجزائها".

وقد وردت تسميتها بسورة «يونس» في كلام بعض الصحابة والتابعين.

وتسمى «سورة السابعة»: سمّاها السيوطي في كتاب التحبير في علم التفسير: «السابعة»، وعلّل تسميتها بقوله:" لانها سابعة السبع الطوال".

والحق أن السورة انفردت باسم سورة «يونس» ولا يعرف لها سام غيره، ولم نجد

=

=

في كتب التفسير والسنة -فيما وقفنا عليه- من يسميها بغير اسمها المشهور.

* مقصود السّورة: إثبات النبوّة، وبيان فساد اعتقاد الكفار فى حقِّ النَّبىّ ﷺ والقرآن، وذكر جزائهم على ذلك فى الدّار الآخرة، وتقدير منازل الشَّمس والقمر لمصالح الخَلْق، وذمّ القانعين بالدّنيا الفانية عن النَّعيم الباقى، ومَدْح أَهل الإِيمان فى طلب الجنان؛ واستعجال الكفَّار بالعذاب، وامتحان الحَقِّ تعالى خلقَه باستخلافهم فى الأَرض، وذكر (عدم تعقّل) الكفار كلام الله، ونسبته إِلى الافتراءِ والاختلاف، والإِشارة إِلى إبطال الأَصنام وعُبّادها، وبيان المِنَّة على العِباد بالنَّجاة من الهلاك فى البَرِّ والبَحْر، وتمثيل الدّنيا بنزول المطر، وظهور أَلوان النبات والأَزهار، ودعوة الخَلْق إِلى دار السّلام، وبيان ذُلِّ الكفَّار فى القيامة، ومشاهدة الخَلْق فى العُقْبَى ما قدّموه من طاعة ومعصية، وبيان أَنَّ الحقّ واحد، وما سواه باطل، وإِثبات البَعْث والقيامة بالبرهان، والحجّة الواضحة، وبيان فائدة نزول القرآن، والأَمر بإِظهار السّرور والفرح بالصّلاة والقرآن، وتمييز أَهل الولاية من أَهل الجنَايَة، وتسلية النَّبىّ ﷺ بذكر شئ من قِصّة موسى، وواقعة بنى إِسرائيل مع قوم فرعون، وذكر طَمْس أَموال القِبطيّين، ونجاة الإِسرائيليين من البحر، وهلاك أَعدائهم من الفِرعونيّين، ونجاة قوم يونس بإِخلاص الإِيمان فى قوت اليَأْس، وتأْكيد نبوّة النبىّ ﷺ، وأَمره بالصّبر على جفاءِ المشركين وأَذاهم، فى قوله: {حتى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين}.

* المتشابهات: قوله: {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ [جَمِيعًا]} وفى هود {إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ} لأَنَّ ما فى هذه السّورة خطاب للمؤمنين والكافرين جميعًا؛ يدلّ عليه قوله: {لِيَجْزِيَ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات بالقسط والذين كَفَرُوا} الآية. وكذلك ما فى المائدة {مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا}؛ لأَنَّه خطاب للمؤمنين والكافرين بدليل قوله: {فِيْهِ تَخْتَلِفُوْنَ} وما فى هود خطاب للكفَّار؛ يدلّ عليه قوله: {وَإِن تَوَلَّوْا فإِني أَخَافُ

=

=
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.
قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر﴾ بالألف واللام؛ لأنه إشارة إلى ما تقدّم من الشرّ في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر﴾ فإنَّ الضرّ والشَّرّ واحد. وجاءَ الضرّ في هذه السّورة بالألف واللام، وبالإضافة وبالتنوين.
قوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بالواو؛ لأنَّه معطوف على قوله: ﴿ظَلَمُوا﴾ من قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وفي غيرها بالفاءِ للتَّعقيب.
قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ بالفاءِ؛ لموافقة ما قبلها. وقد سبق في الأنعام. قوله: ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ سبق في الأعراف.
قوله: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي غيرها: ﴿فِيمَا هُمْ فِيهِ﴾ بزيادة (هم) لأنَّ هنا تقدّم (فاختلفوا)، فاكْتُفِي به عن إعادة الضمير؛ وفي الآية ﴿بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض﴾ بزياة (لا) وتكرار (في) لأنَّ تكرار (لا) مع النفي كثير حسن، فلمّا كرّر (لا) كرّر (في) تحسينًا للفظ. ومثله في سبأ في موضعين، والملائكة.
قوله ﴿فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ﴾ بالألف؛ لأنه وقع في مقابلة ﴿أَنْجَيْنَا﴾.
قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ وفي هود: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ لأن ما في هذه السّورة تقديره: بسورة مثل سورة يونس. فالمضاف محذوف في السّورتين، وما في هود إشارة إلى ما تقدّمها: من أوّل الفاتحة إلى سورة هود، وهو عَشْر سُور.
قوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ هنا، وكذلك في هود، وفي البقرة ﴿شُهَدَآءَكُمْ﴾؛ لأنَّه لمّا زاد في هود ﴿وَادْعُوا﴾ زاد في المدعوّين. ولهذا قال في سبحان: ﴿قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن﴾ لأنَّه مقترن بقوله: ﴿بِمِثْلِ هاذا القرآن﴾ والمراد به كله.
قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بلفظ الجمع وبعده: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ بلفظ المفرد؛ لأنَّ المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النَّبيّ ﷺ، بخلاف النَّظر
=

=

(وكان) فى المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظُ المعنى، ووحّد (ينظر) حملًا على اللفظ إذ لم يكثر كثرتهم.

قوله: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يلبثوا} فى هذه الآية فحسب؛ لأَنَّ قبله قوله: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيْعًا} وقوله: {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيْعًا} يدلاَّن على ذلك فاكتُفى به.

قوله: {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً} فى هذه السّورة فقط؛ لأَنَّ التقدير فيها: لكلِّ أُمّة أَجل، فلا يستأخرون إِذا جاءَ أَجلهم. فكان هذا فيمن قُتل ببدر والمعنى: لم يستأخروا.

قوله: {أَلا إِنَّ للهِ مَا فِي السماوات والأرض} ذكر بلفظ ما لأَن معنى ما هاهنا المال، فذكر بلفظ ما دون مَنْ ولم يكرِّر ما اكتفاءً بقوله قبله {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأرض}.

قوله: {أَلا إِنَّ للهِ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض} ذكر بلفظ (مَنْ) وكُرّرَ؛ لأَنَّ هذه الآية نزلت فى قوم آذَوْا رسول الله ﷺ، فنزل فيهم {وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} فاقتضى لفظ مَنْ وكُرِّر؛ لأَنَّ المراد: من فى الأَرض هاهنا لكونهم فيها؛ لكن قدّم ذكر (مَن فى السّماوات) تعظيمًا ثمّ عطف (من فى الأَرض) على ذلك.

قوله: {مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض} ذكر بلفظ (ما) فكرّر؛ لأَنَّ بعض الكفَّار قالوا: اتَّخذ الله ولدًا، فقال سبحانه: له ما فى السّماوات وما فى الأرض، أَى اتخاذُ الولد إِنما يكون لدفع أَذًى، أَو جَذْب منفعة، والله مالك ما فى السّماوات وما فى الأَرض. (وكان) الموضع (موضع [ما وموضع] التكرار؛ للتَّأْكيد والتَّخصيص.

قوله: {ولاكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ}. ومثله فى النَّمل. وفى البقرة ويوسف والمؤمن: {ولاكن أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}. لأَنَّ فى هذه السّورة تقدم {ولاكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ} فوافق قوله: {ولاكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} وكذلك فى النَّمل تقدم {بَلْ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ} فوافقه. وفى غيرهما جاءَ بلفظ التصريح. وفيها

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١).

{الر} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ(٢). {تِلْكَ} أَيْ هَذِهِ الْآيَات {آيَات الْكِتَاب}

=

أَيضًا قوله: {فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء} فقدّم الأَرض؛ لكون المخاطبين فيها. ومثله فى آل عمران، وإِبراهيم، وطه، والعنكبوت. وفيها {إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} بناءً على قوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُوْنَ إِلَيْكَ} ومثله فى الرّوم: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} فحسْبُ.

قوله: {قَالُوا اتخذ الله وَلَدًا} بغير واو؛ لأَنَّه اكتفى بالعائد عن الواو والعاطف. ومثله فى البقرة على قراءَة ابن عامر: {قَالُوا اتخد الله وَلَدًا}.

قوله: {فَنَجَّيْنَاهُ} سبق. ومثله فى الأَنبياءِ والشعراءِ.

قوله: {كَذَّبُوْا} سبق.

وقوله: {وَنَطْبَعُ عَلَى} قد سبق.

قوله: {مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ} هنا فحسب بالجمع. وفى غيرها (وملإِيه) لأَنَّ الضَّمير فى هذه السّورة يعود إِلى الذرّية. وقيل: يعود إِلى القوم. وفى غيرها يعود إِلى فرعون.

قوله: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين}، وفى النَّمل: {مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ}؛ لأَنَّ قبله فى هذه السورة {نُنْجِ الْمُؤْمِنِيْنَ} فوافقه، وفى النَّمل أَيضًا وافق ما قبله، وهو قوله: {فَهُمْ مُسْلِمُوْنَ} وقد تقدّم فى يونس {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين} بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٣٨ - ٢٤٥).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

الْقُرْآن وَالْإِضَافَة بِمَعْنَى مِنْ {الْحَكِيم} الْمُحْكِم[1].

(١) قوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [يونس: ١]، أي:" هذه آيات الكتاب المحكم الذي أحكمه الله وبيَّنه لعباده".

وصف الله كتابه بأنه (حكيم) في عدة آيات: كقوله تعالى (يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)، وقوله تعالى (الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ).

- والحكيم بمعنى محكِم، أو بمعنى مُحكَم، أو بمعنى حاكم، كلها تحتمل.

فالقرآن حاكم: لأنه يجب الرجوع إليه.

قال تعالى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ).

وبمعنى محكِم: لأنه متقن للأشياء.

وبمعنى محكَم: لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه، فليس فيه تناقض ولا تعارض (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا).

وأيضًا هو مشتمل على الحكمة.

وإذا كان حكيمًا فإننا نعلم أنه:

أولًا: حكيم في ترتيبه.

ثانيًا: حكيم في أحكامه، فأحكامه كلها عدل، موافقة للفطرة وللعقل الصريح.

ثالثًا: حكيم في أسلوبه.

ينتقل من أسلوب إلى آخر، من ترغيب إلى ترهيب، وغير ذلك من الحكمة. (تفسير سورة يس للعثيمين)

- وقد ذكر السعدي شيئًا من إحكام آيات القرآن الحكيم فقال:

من إحكامها: أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها، وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف.

=

=

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها، نبي من الأنبياء.

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرا ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته فائدته، والنهي عن الشيء، مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض، ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبرا، وأعمل فيها العقل تفكرا، انبهر عقله، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزما لا يمترى فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن -مع أنه حكيم- يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه اللّه تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

قال الزجاج:" أي: الآيات التي جرى ذكرها هي آيات الكتاب الحكيم".

قال القرطبي:" أي: تلك التي جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم".

قال الطبري:" تلك آيات الكتاب المحكم، الذي أحكمه الله وبينه لعباده، كما قال جل ثناؤه: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [سورة هود: ١]".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: هذه آيات الكتاب الذي أنزل عليك يا محمد، ويقال: تلك الآيات التي وعدتك يوم الميثاق أن أوحينا إليك الكتاب. الحكيم".

=

=

قال أبو عبيدة:" مجاز «آيات» مجاز أعلام الكتاب وعجائبه، و «آياته» أيضا: فواصله، والعرب يخاطبون بلفظ الغائب وهم يعنون الشاهد، وفى آية أخرى: {الم ذَلِكَ الْكِتابُ} [البقرة:١ - ٢] مجازه: هذا القرآن، قال عنترة:

شطّت مزار العاشقين فأصبحت عسرا علىّ طلابك ابنة مخرم"

عن السدي، عن أبي مالك، قوله: " {تلك}، يعني: هذه".

قال الماوردي:" يعني بقوله: {تِلْكَ ءَايَاتُ}، أي: هذه آيات، كما قال الأعشى:

تلك خَيْلِي مِنْهُ وتلكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلاَدُهَا كالزَّبِيبِ"

قال الطبري: الصواب " تأويل من تأوّله: «هذه آيات القرآن»، ووجّه معنى {تلك} إلى معنى «هذه»".

وفي قوله تعالى: {الكِتَابِ الْحِكِيمِ} [يونس: ١]،ها هنا أربعة أقوال:

أحدها: التوراة والإنجيل، قاله مجاهد.

الثاني: الزبور، قاله مطر في رواية ابن الحسين بن واقد.

الثالث: التوراة والزبور. قاله الحسن.

والرابع: اسم من أسماء القرآن. لأنه لم يجيء للْتوراة والإنجيل قبلُ ذكرٌ ولا تلاوةٌ بعدُ، فيوجه إليه الخبر قاله الطبري.

وقال مقاتل:" الكتاب يعني: القرآن".

قال أبو عبيدة:" مجازها: هذه آيات الكتاب الحكيم، أي القرآن، قال الشاعر:

ما فهم من الكتاب أم آي القرآن"

قال القرطبي:" المراد «القرآن»، وهو أولى بالصواب، لأنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر، ولأن «الحكيم» من نعت القرآن. دليله قوله تعالى: {الر كتاب أحكمت آياته} [هود: ١]".

والخامس: الكتب التي خلت قبل القرآن. قاله قتادة.

=

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢).

{أَكَانَ لِلنَّاسِ} أَيْ أَهْل مَكَّة اسْتِفْهَام إنْكَار وَالْجَار وَالْمَجْرُور حَال مِنْ قَوْله {عَجَبًا} بِالنَّصْبِ خَبَر كَانَ وَبِالرَّفْعِ اسْمهَا وَالْخَبَر وَهُوَ اسْمهَا عَلَى الْأُولَى {أَنْ

=

قال ابن كثير:" وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه".

وفي قوله: {الحَكِيمِ} [يونس: ١]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه بمعنى المحكم، لا كذب فيه ولا اختلاف، قاله مقاتل، وأبو عبيدة، والطبري، ومنه قول عمرو بن معد يكرب:

أَمِنْ ريحانة الدَّاعي السَّميع يُؤْرِقُني وأَصْحابي هَجوع

قال أبو عبيدة:" والحكيم: مجازه المحكم المبيّن الموضّح، والعرب قد نضع «فعيل» فى معنى «مفعل»".

الثاني: أنه كالناطق بالحكمة، ذكره علي بن عيسى.

والثالث: يعني: الحاكم على الكتب كلها. حكاه ابو الليث السمرقندي.

والرابع: أن:" «الحكيم» بمعنى الحاكم، أي: إنه حاكم بالحلال والحرام، وحاكم بين الناس بالحق، فعيل بمعنى فاعل. دليله قوله: {وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: ٢١٣]". قاله القرطبي.

وقال الكلبي: "يعني: أحكم بحلاله وحرامه".

والخامس: أن " «الحكيم» بمعنى: المحكوم فيه، أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر، وبالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه، فهو فعيل بمعنى المفعول". حكاه القرطبي عن الحسن وغيره.

أَوْحَيْنَا} أَيْ إِيحَاؤُنَا {إِلَى رَجُل مِنْهُمْ} مُحَمَّد ﷺ {أَنْ} مُفَسِّرَة {أَنْذِرْ} خَوِّفْ {النَّاس} الْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ {وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ} أَيْ بِأَنَّ {لَهُمْ قَدَم} سَلَف {صِدْق عِنْد رَبّهمْ} أَيْ أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوهُ مِنْ الْأَعْمَال {قَالَ الْكَافِرُونَ إن هذا} القرآن المشتمل على ذلك {لسحر مُبِين} بَيِّن وَفِي قِرَاءَة لَسَاحِر وَالْمُشَار إلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما بعث الله محمدًا ﷺ رسولًا أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمد؛ فأنزل الله -تعالى-: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ}، وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا} [يوسف: ١٠٩]. أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٩٢٢) من طريق أبي كريب ثنا عثمان بن سعيد ثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الضحاك لم يلق ابن عباس؛ فهو منقطع.

الثانية: بشر هذا؛ ضعيف؛ كما في "التقريب" (١/ ١٠٠)، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣٤٠) وزاد نسبته لأبي الشيخ وابن مردويه.

* قوله تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} [يونس: ٢].

ومعنى الآية: أكان عجبًا لأهل مكة إيحاؤنا إلى رجل منهم هو " محمد ﷺ ؟ والهمزة للإنكار؛ أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة، أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله.

- كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: (أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا).

وقال هود وصالح لقومهما (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ). =

=

وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ).
- وقد بَيَّنَ تعالى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ عَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ.
قَالَ فِي عَجَبِ قَوْمِ نَبِيِّنَا ﷺ مِنْ ذَلِكَ (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) وَقَالَ (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ).
وَقَالَ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ).
وَقَالَ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ).
وَقَالَ (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ).
وَصَرَّحَ بِأَنَّ هَذَا الْعَجَبَ مِنْ إِرْسَالِ بَشَرٍ مَانِعٍ لِلنَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا).
وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ: أَنَّ اللهَ مَا أَرْسَلَ لِبَنِي آدَمَ إِلَّا رُسُلًا مِنَ الْبَشَرِ، وَهُمْ رِجَالٌ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَتَزَوَّجُونَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ ؛ كَقَوْلِهِ هُنَا (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).
وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى، وَقَوْلِهِ: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ).
قال الطبري:": يقول تعالى ذكره: أكان عجبًا للناس إيحاؤنا القرآن على رجل منهم بإنذارهم عقابَ الله على معاصيه، كأنهم لم يعلموا أنَّ الله قد أوحى من قبله إلى مثله من البشر، فتعجَّبوا من وحينا إليه".
قال الزجاج:" يعنى: بـ {الناس} -ههنا-: أهل مكة، ويروى أنهم قالوا: العجب أن اللهَ لم يجد رسولًا يرسله إلى الناس إلا يتيمَ أبي طالب، وجائز - والله أعلم -
=

=

أنهم عجبوا من أن النبي ﷺ أنذرهم وبَشَّر الذين آمنوا، والإِنذار والبِشَارَةُ مُتّصِلَان بالبعث والنشور، فَعجِبوا أن أعلَمَهُمْ أنهم يبعثون ويجازَوْنَ بالحسنة والسيئةِ".

قال القرطبي: لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكًا لفروا من مقاربته وما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب والاتقاء له ما يكفهم من كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

قال ابن جريج: "عجبت قريش أن بُعث رجل منهم. قال: ومثل ذلك: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} [سورة الأعراف: ٦٥]، {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا} ، [سورة الأعراف: ٧٣]، قال الله: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ} [سورة الأعراف: ٦٩]".

قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا} [يونس: ٢]، أي:" وأنْ بَشّرِ المؤمنين".

قال ابن أبي حاتم:" محمود بن آدم المروذي فيما كتب إلي قال: سمعت النضر بن سهل يقول: تفسير (المؤمن): إنه آمن من عذاب الله".

عن قتادة قال: "المؤمنون هم العجاجون بالليل والنهار، والله ما زالوا يقولون: ربنا، ربنا حتى استجيب لهم".

قوله تعالى: {أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [يونس: ٢]، أي:" بأنَّ لهم سابقةً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال".

عن ابن عباس، قوله:" {وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم} ، قال: تحقق لهم الشهادة في الذكر الأول".

عن مجاهد في قوله: " {قدم صدق عند ربهم} : قال: سلف صدق". وروي عن قتادة مثله.

=

=

عن مجاهد، في قول الله:" {قدم صدق}، قال: خيره".

عن مجاهد، " {أن لهم قدم صدق عند ربهم}، قال: صلاتهم وتسبيحهم".

عن الربيع بن أنس في قوله: " {وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم}، قال: ثواب صدق عند ربهم".

عن مقاتل بن حيان في قوله: " {أن لهم قدم صدق عند ربهم}، قال: محمد شفيع صدق".

عن الحسن، في قوله: " {قدم صدق عند ربهم}، قال: شفيع لهم يوم القيامة".

عن الحسن في قوله: " {قدم صدق عند ربهم}، مصيبتهم في نبيهم ﷺ".

عن السدي:" {أن لهم قدم صدق عند ربهم}، قال: يقدمون عليه عند ربهم".

قال البيضاوي: "عمم الإنذار إذ قلما من أحد ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به حقيقة... {قدم صدق عند ربهم}: سابقة ومنزلة رفيعة سميت «قدما»، لأن السبق بها كما سميت «النعمة» يدا، لأنها تعطى باليد، وإضافتها إلى «الصدق»، لتحققها والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية".

قوله تعالى: {قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} [يونس: ٢]، أي:" فلما أتاهم رسول الله ﷺ بوحي الله وتلاه عليهم، قال المنكرون: إنَّ محمدًا ساحر، وما جاء به سحر ظاهر البطلان".

قال الزجاج:" وإنما قالوا (لسحر مبين)، لَمَّا أنذرهم بالبعث والنشور".

قال البيضاوي:"وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أمورا خارقة للعادة معجزة إياهم عن المعارضة".

عن ابن عباس، قوله: " {قال الكافرون إن هذا لساحر مبين}، لزادهم ذلك تكذيبا".

=

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣).

إِنَّ رَبّكُمْ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض فِي سِتَّة أَيَّام} مِنْ أَيَّام الدُّنْيَا أَيْ فِي قَدْرهَا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَمْس وَلَا قَمَر وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُنَّ فِي لَمْحَة وَالْعُدُول عَنْهُ لِتَعْلِيمِ خَلْقه التَّثَبُّت {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش} اسْتِوَاء يَلِيق بِهِ {يُدَبِّر الْأَمْر} بَيْن الْخَلَائِق {مَا مِنْ} صِلَة {شَفِيع} يَشْفَع لِأَحَدٍ {إلَّا مِنْ بَعْد إذْنه} رَدّ لِقَوْلِهِمْ إنَّ الْأَصْنَام تَشْفَع لَهُمْ {ذَلِكُمْ} الْخَالِق الْمُدَبِّر {الله رَبّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} وَحِّدُوهُ {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} بِإِدْغَامِ التَّاء فِي الْأَصْل فِي الذَّال[1].

=

عن مجاهد، قوله: " {قال الكافرون إن هذا لساحر مبين}، فنظروا إليه فلم يصدقوا به".

قرأ ابن كثير والكوفيون: «لساحر» على أن الإشارة إلى الرسول ﷺ، وقرئ: «ما هذا إلا سحر مبين».

(١) قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [يونس: ٣]، أي:" إن ربكم الله الذي أوجد السموات والأرض في ستة أيام، أوجدهما من العدم على وجه الإحكام والإتقان".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن ربكم الذي له عبادة كل شيء، ولا تنبغي العبادة إلا له، هو الذي خلق السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهير".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خَلَق السموات والأرض

=

=

في ستة أيام – قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون".

عن ابن عباس: " {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، قال: يوم مقداره ألف سنة".

عن محمد بن إسحاق، قال: "ابتدع السماوات والأرض، ولم يكونا بقدرته لم يستعن على ذلك بأحد من خلقه، ولم يشركه في شيء من أمره، فسلطانه قاهر قوله النافذ الذي يقول به لما أراه أن يقول له: كن فيكون، ففرغ من خلق السماوات والأرض في ستة أيام".

عن وهب بن منبه، قال:" قال عزير يا رب أمرت الماء فجمد في وسط الهواء فجعلت منه سبعا وسميته السماوات ثم أمرت الماء ينفتق من التراب وأمرت التراب أن يميز من الماء فكان كذلك، فسميت جميع ذلك الأرضين وجميع البحار".

– قال ابن كثير: يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة – وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.

– الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

– ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.

– قوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) أي: الذي أوجدها على تقدير محكم، لأن الأصل أن الخلق لغة هو التقدير.

والله يحمد على ذلك كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ).

=

=

- وإنما ذكر السموات والأرض ، لأنهما من أعظم المخلوقات.

- وخلقهما بالحق.

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي: وليس عبثًا ، فإن الله منزه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة ، فالحق ضد الباطل ، فالله خلقهما لحكم باهرة ، لم يخلقهما باطلًا ولا عبثًا ولا لعبًا.

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جل وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا).

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات

=

=

والأرض وما بينهما إلا خلقًا متلبسًا بالحق.

ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض ، تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علمًا ، كما قال تعالى (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملًا ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيئ فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثًا ، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللهُ) أي: تنزه وتعاظم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

- قوله تعالى (السماوات) فيه دليل على أن السموات سبع ، وهذا منصوص عليه في القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ).

وأما الأرض فهي سبع أيضًا لظاهر القرآن وصريح السنة ، قال تعالى (اللهُ الَّذِي

=

=

خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وأما السنة فقوله ﷺ (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) متفق عليه.

– قال ابن عطية: وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء.

– وقال القرطبي: قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.

– وقال ابن كثير: والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة –وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.

– وقد اختلف في مقدار هذه الأيام: فقيل: كأيامنا هذه، لأن الله أطلقها، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه. وقيل: كل يوم مقدار خمسين ألف سنة. وقيل: المراد باليوم لحظة. والراجح الأول.

– فإن قيل: أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

فمن المقرر عند أهل الإيمان الراسخ والتوحيد الكامل أن المولى جل وعلا قادر على كل شيء، وقدرته سبحانه ليس لها حدود، فله سبحانه مطلق القدرة وكمال الإرادة، ومنتهى الأمر والقضاء، وإذا أراد شيئًا كان كما أراد وفي الوقت الذي يريد، وبالكيفية التي أرادها سبحانه وتعالى.

وقد تواترت النصوص القطعية من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ على تقرير هذا الأمر وبيانه بيانًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض.

قال تعالى (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون).

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (يبين بذلك تعالى كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدر أمرًا وأراد كونه فإنما يقول له كن _ أي: مرة واحدة _ فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن

=

=

يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (... قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (هو الذي يحي ويميت فإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر).

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره هذه الآية (٤/ ٢٦١): (وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال: (وما أمرنا إلا واحدة) أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى توكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما يقول له كن قولة فيكون) أ. هـ.

- وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين:

الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها.

الحكمة الثانية: أن الله علم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه.

- هذه الأيام أربعة منها للأرض، ويومان للماء، كما فصل ذلك في سورة فصلت: (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ).

- قال الإمام القرطبي: وذكر هذه المدة - أي ستة أيام - ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد:

أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.

ولتظهر قدرته للملائكة شيئًا بعد شيء....

=

=

وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلًا، وبيّن بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلًا....

- وقال ابن الجوزي: فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمرًا تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).

والرابع: أنه علّم عباده التثبت، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق) ا. هـ

- وقال القاضي أبو السعود (... وفي خلق الأشياء مدرجًا مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور).

قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس: ٣]، أي:" ثم استوى -أي علا وارتفع- على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته".

قال الطبري:" ثم استوى على عرشه".

عن أبي العالية في قوله: " {ثم استوى}، يقول: ارتفع". وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله.

عن قتادة، في قول الله:" {ثم استوى على العرش}، قال: يوم السابع".

عن الحكم بن أبان قال: "سمعت عكرمة يقول إن الله بدء خلق السماوات

=

=

والأرض وما بينهما يوم الأحد، ثم استوى على العرش يوم الجمعة في ثلاث ساعات، فخلق في ناحية منها الشموس كي يرغب الناس إلى ربهم في الدعاء والمسألة، وخلق في ناحية النتن الذي يسقط على ابن آدم إذا مات لكي يقبر".

عن ابن عباس:"وإنما سمي العرش عرشا لارتفاعه".

عن إسماعيل بن أبي خالد قال:"سمعت سعدا الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء".

عن وهب بن منبه قال:"إن الله خلق العرش من نور".

قال الإمام ابن كثير:" وأما قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري -: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى".

وقال سفيان بن عيينة: "كل شيئ وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره، لا كيف ولا مثل".

وقال أبو بكر المروذي: "سألت أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تردها

=

=

الجهمية في الصفات والرؤية، والإسراء، وقصة العرش، فصححه أبو عبد الله وقال: تلقتها العلماء بالقبول، تمر الأخبار كما جاءت".

وقال محمد بن الحسن الشيباني ـ صاحب أبي حنيفة ـ:"اتفق الفقهاء كلهم من الشرق إلى الغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب ﷻ، من غير تفسير ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئًا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فإنهم لم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة لأنه وصفه بصفة لا شيئ".

وقال عباد بن العوام: "قدم علينا شريك بن عبد الله، فقلنا: إن قومًا ينكرون هذه الأحاديث: " إن الله ينزل إلى سماء الدنيا " والرؤية وما أشبه هذه الأحاديث فقال: إنما جاء بهذه الأحاديث من جاء بالسنن في الصلاة، والزكاة، والحج، وإنما عرفنا الله بهذه الأحاديث".

قوله تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [يونس: ٣]، أي:" يدبر أمور خلقه، لا يضادُّه في قضائه أحد".

قال الطبري: أي: " مدبرًا للأمور، وقاضيًا في خلقه ما أحبّ، لا يضادُّه في قضائه أحدٌ، ولا يتعقب تدبيره مُتَعَقِّبٌ، ولا يدخل أموره خلل".

قال ابن كثير:" أي: يدبر أمر الخلائق، {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ} [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلّظه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦]. {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]".

=

=

عن مجاهد قوله: " {يدبر الأمر}، قال: " يقضيه وحدَه". وفي رواية: يقبضه وحده".

قوله تعالى: {مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} [يونس: ٣]، أي:" ولا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له بالشفاعة".

قال الطبري:" يقول: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة في أحد، إلا من بعد أن يأذن في الشفاعة".

عن سعيد بن جبير، قال: "من يتكلم عنده إلا بإذنه".

قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} [يونس: ٣]، أي:" فاعبدوا الله ربكم المتصف بهذه الصفات، وأخلصوا له العبادة".

قال الطبري:" يقول جل جلاله: هذا الذي هذه صفته، سيِّدكم ومولاكم، لا من لا يسمع ولا يبصر ولا يدبِّر ولا يقضي من الآلهة والأوثان، فاعبدوا ربكم الذي هذه صفته، وأخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهية والربوبية، بالذلة منكم له، دون أوثانكم وسائر ما تشركون معه في العبادة".

عن ابن عباس قال: " «اعبدوا»، أي: وحدوا".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [يونس: ٣]، أي:" أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج؟".

قال الطبري:" يقول: أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج، فتنيبون إلى الإذعان بتوحيدِ ربكم وإفراده بالعبادة، وتخلعون الأنداد وتبرؤون منها؟".

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله: " {تذكرون}، قال: أهل الذكر هم أهل القرآن".

عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة" أنه قال حين نزلت هذه الآية: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا

=

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤).

{إِلَيْهِ} تَعَالَى {مَرْجِعكُمْ جَمِيعًا وَعْد الله حَقًّا} مَصْدَرَانِ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا الْمُقَدَّر {إِنَّهُ} بِالْكَسْرِ اسْتِئْنَافًا وَالْفَتْح عَلَى تَقْدِير اللَّام {يَبْدَأ الْخَلْق} أَيْ بَدَأَهُ بِالْإِنْشَاءِ {ثُمَّ يُعِيدهُ} بِالْبَعْثِ {لِيَجْزِيَ} يُثِيب {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَاب مِنْ حَمِيم} مَاء بَالِغ نِهَايَة الْحَرَارَة {وَعَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم {بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} أَيْ بِسَبَبِ كُفْرهمْ[1].

=

أنهم من العرب، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا. من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية".

(١) قوله تعالى: {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا} [يونس: ٤]، أي:" إلى ربكم مرجعكم أيها الناس يوم القيامة جميعًا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إلى ربكم الذي صفته ما وصَفَ جل ثناؤه في الآية قبل هذه، معادُكم، أيها الناس، يوم القيامة جميعًا".

عن الضحاك، قوله: " {إليه مرجعكم جميعا}، قال: البر والفاجر".

قوله تعالى: {وَعْدَ اللهِ حَقًّا} [يونس: ٤]، أي:" وهذا وعد الله الحق".

قال الطبري:" معناه: يعدكم الله أن يحييكم بعد مماتكم وعدًا حقًّا".

قال الصابوني: أي:" وعدًا من الله لا يتبدّل، وفيه ردٌّ على منكري البعث حيث قالوا {مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر} [الجاثية: ٢٤]".

قوله تعالى: {إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [يونس: ٤]، أي:" هو الذي يبدأ إيجاد الخلق ثم يعيده بعد الموت، فيوجده حيًا كهيئته الأولى".

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن ربكم يبدأ إنشاء الخلق وإحداثه وإيجاده، ثم يعيده فيوجده حيًّا كهيئته يوم ابتدأه، بعد فنائه وبَلائِه".

أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد، قوله: " {يبدؤا الخلق ثم يعيده} : يحييه ثم يميته ثم يحييه".

وأخرج أبو جعفر الطبري عن مجاهد:" {يبدأ الخلق ثم يعيده} ، قال: يحييه، ثم يميته، ثم يبدؤه، ثم يحييه".

قال البيضاوي:" والآية كالتعليل لقوله تعالى: {إليه مرجعكم جميعا} ، فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ: «إنه يبدؤا» بالفتح، أي: «لأنه»، ويجوز أن يكون منصوبا أو مرفوعا بما نصب {وعد الله} أو بما نصب {حقا} ".

قوله تعالى: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ} [يونس: ٤]، أي:" ليجزي مَن صَدَّق الله ورسوله، وعمل الأعمال الحسنة أحسن الجزاء بالعدل".

عن زيد بن أسلم الذين: " {آمنوا وعملوا الصالحات} ، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

عن ابن عباس، "قوله: {بالقسط} ، قال: بالعدل". وروي عن السدي ومجاهد وقتادة بمثل ذلك.

وعن ابن عباس -أيضا- قال: "الأعمال الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا} [يونس: ٤]، أي:" والذين جحدوا بالله وكذبوا رسله".

قوله تعالى: {لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ} [يونس: ٤]، أي:" لهم في جهنم شرابٌ من حميم، بالغ النهاية في الحرارة".

=

=

عن إبراهيم وأبي رزين، " {حميم}، قالا: ما يسيل من صديدهم".

- قال الشنقيطي: وَالْحَمِيمُ: الْمَاءُ الْحَارُّ، وَذَكَرَ أَوْصَافَ هَذَا الْحَمِيمِ فِي آيَاتٍ أُخَرَ.

كَقَوْلِهِ (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) وَقَوْلِهِ (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) وَقَوْلِهِ (يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ)، وَقَوْلِهِ (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ)، وَقَوْلِهِ (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ).

وذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُمْ يُسْقَوْنَ مَعَ الْحَمِيمِ الْغَسَّاقَ، كَقَوْلِهِ (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ)، وَقَوْلِهِ (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا)، وَالْغَسَّاقُ: صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ - أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا

قوله تعالى: {وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٤]، أي:" ولهم عذاب موجع بسبب كفرهم وإشراكهم".

عن ابن عباس في قوله: " {عذاب أليم}، قال: نكال موجع".

وعن ابن عباس -ايضا- في قوله ﷻ: " {عذاب أليم}، قال: أليم: كل شيء موجع".

قال أبو العالية:" الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط) رواه مسلم.

=

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥).

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْس ضِيَاء} ذَات ضِيَاء أَيْ نُور {وَالْقَمَر نُورًا وَقَدَّرَهُ} مِنْ حَيْثُ سَيْرَهُ {مَنَازِل} ثَمَانِيَة وَعِشْرِينَ مَنْزِلًا فِي ثَمَان وَعِشْرِينَ لَيْلَة مِنْ كُلّ شَهْر وَيَسْتَتِر لَيْلَتَيْنِ إنْ كَانَ الشَّهْر ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَوْ لَيْلَة إنْ كَانَ تِسْعَة وَعِشْرِينَ يَوْمًا {لِتَعْلَمُوا} بِذَلِكَ {عَدَد السِّنِينَ وَالْحِسَاب مَا خَلَقَ الله ذَلِكَ} الْمَذْكُور {إلَّا بِالْحَقِّ} لَا عَبَثًا تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ {يُفَصِّل} بِالْيَاءِ وَالنُّون يُبَيِّن {الْآيَات لِقَوْمٍ يعلمون} يتدبرون[1].

=

وعن سمرة أنه سمع نبي الله ﷺ يقول (إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه إلى حجزته ومنهم من تأخذه إلى عنقه).

وعن النعمان بن بشير. قال: قال ﷺ (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه).

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال (أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه).

(١) قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً} [يونس: ٥].

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل.

– فاللّه تعالى وحده هو الذي جعل لكم الشمس ذات ضياء، وجعل لكم القمر ذا نور، لكي تنتفعوا بهما في مختلف شئونكم.

=

=

قال الجمل: وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما إذا تساويا لم يعرف الليل من النهار، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر.

ومما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله تعالى (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجًا).

وقوله تعالى (تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيها سِراجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا).

قال الطبري: أي:" هو الذي أضاء الشمسَ".

قال الصابوني:" الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية، أي: هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهّاج".

قال أبو السعود:" تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحمكته بآثار صنعه في النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من إبداع السموات والأرض والاستواء على العرش وغير ذلك، وبيان لبعض أفراد التدبير الذي أشير إليه إشارة إجمالية وإرشاد إلى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوي الردى أولى وأحرى".

قوله تعالى: {وَالْقَمَرَ نُورًا} [يونس: ٥]، أي:" وجعل القمر منيرًا بالليل".

قال الطبري: أي: هو الذي "أنار القمر".

قال الصابوني:" الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية، أي: هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهّاج".

قال أبو السعود:" «الضياء» أقوى من «النور»، وقيل: ما بالذات ضوء وما بالعرض نور، ففيه إشعار بأن نوره مستفاد من الشمس".

عن السدي قوله: " {جعل الشمس ضياء والقمر نورا}، فلم يجعل كهيئة القمر

=

=

لكي يعرف الليل من النهار وهو قوله: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}: في اختلافهما".

قوله تعالى: {وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ} [يونس: ٥]، أي:" قدَّر سير القمر في منازل، فأول ما يبدو صغيرًا، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر".

كما قال تعالى (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).

وقال تعالى (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ).

قال الطبري:" يقول: قضاه فسوّاه منازلَ، لا يجاوزها ولا يقصر دُونها، على حالٍ واحدةٍ أبدًا".

قال أبو السعود:" {وقدره} أي قدر له وهيأ، {منازل} أو قدر مسيره في منازل أو قدره ذا منازل على تضمين التقدير معنى التصيير وتخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره ومعاينة منازله وتعلق أحكام الشريعة به وكونه عمدة في تواريخ العرب، وقد جعل الضمير لكل منهما وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس ثم يستسر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة وهى الشرطان والبطين والثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزباني الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت".

=

=

قوله تعالى: {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس: ٥]، أي:" لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام".

قال الطبري:" يقول: وقدّر ذلك منازل {لتعلموا}، -أنتم أيها الناس- {عدد السنين}، دخول ما يدخل منها، أو انقضاءَ ما يستقبل منها، وحسابها، يقول: وحساب أوقات السنين، وعدد أيامها، وحساب ساعات أيامها".

قال ابن عباس: "يقول: لو جعلت شمسين شمسًا بالنهار وشمسًا بالليل ليس فيها ظلمة ولا ليل لم تعلموا عدد السنين والحساب".

قال الكلبي: "يعني: حساب المشهور والسنين والأيام والساعات".

قوله تعالى: {مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ} [يونس: ٥]، أي:" ما خلق تعالى ذلك عبثًا بل لحكمة عظيمة، وفائدة جليلة".

قال الواحدي:" يعني: ما تقدم ذكره من الشمس والقمر ومنازله".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: لم يخلق الله الشمس والقمر ومنازلهما إلا بالحق. يقول الحق تعالى ذكره: خلقت ذلك كله بحقٍّ وحدي، بغير عون ولا شريك".

عن ابن عباس: {بِالْحَقِّ}، قال: "يريد بالعدل؛ لأنه هو الحق، وكل ما جاء من عنده هو الحق".

قوله تعالى: {يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [يونس: ٥]، أي:" يبيّن الآيات الكونيّة ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله، ويتدبرون حكمته".

قال الطبري:" يقول: يبين الحجج والأدلة {لقوم يعلمون}، إذا تدبروها، حقيقةَ وحدانية الله وصحةَ ما يدعوهم إليه محمد ﷺ، من خلع الأنداد، والبراءة من الأوثان".

قال الواحدي:" {نُفَصِّلُ الْآيَاتِ}، أي: نبينها {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، أي: يتدلون

=

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦).

{إِنَّ فِي اخْتِلَاف اللَّيْل وَالنَّهَار} بِالذَّهَابِ وَالْمَجِيء وَالزِّيَادَة وَالنُّقْصَان {وَمَا خَلَقَ الله فِي السَّمَاوَات} مِنْ مَلَائِكَة وَشَمْس وَقَمَر وَنُجُوم وَغَيْر ذَلِكَ {و} فِي {الْأَرْض} مِنْ حَيَوَان وَجِبَال وَبِحَار وَأَنْهَار وَأَشْجَار وَغَيْرهَا {لَآيَات} دَلَالَات عَلَى قُدْرَته تعالى {لقوم يتقون} هـ فَيُؤْمِنُونَ خَصَّهُمْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِهَا[1].

=

بالأمارات والبراهين على قدرة الله، ولهذا خص العلماء؛ لأنهم المستدلون دون الجُهّال الذين لا يبلغون هذه المنزلة".

عن السدي قوله: " {يفصل الآيات}، أما «نفصل»: نبين".

(١) قوله تعالى: {إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [يونس: ٦].

هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ).

وهذا البرهان ذكره الله تعالى في عدة مواضع:

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

وقال تعالى (وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ).

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَدًا إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَدًا إلى يَوْمٍ

=

القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون).

قال الطبري" يقول تعالى ذكره، منبِّهًا عبادَه على موضع الدّلالة على ربوبيته، وأنه خالق كلِّ ما دونه: إن في اعتقاب الليل النهارَ، واعتقاب النهار الليلَ،. إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا".

قال الزحيلي:" أي: في تعاقبهما، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئا، وفي طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس، ومالهما من نظام دقيق، وما فيهما من برودة وحرارة، وكون الليل لباسا وسكنا والنهار معاشا".

قوله تعالى: {وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ٦]، أي:" وما خلق الله في السموات والأرض من عجائب الخلق من أنواع الانس والجن والحيوان والنبات والنجوم وغير ذلك من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى، وما فيهما من إبداع ونظام".

كما قال (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ).

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون).

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ).

قال الطبري: أي:" وفيما خلق الله في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وفي الأرض من عجائب الخلق الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شيء".

قال الزحيلي:" وإن ما خلق الله في السموات والأرض من أحوال الجماد والنبات والحيوان، وأحوال الرعود والبروق والسحب والأمطار، وأحوال البحار من مد

=

=

وجزر، وأحوال المعادن من خواص وتركيب ونحو ذلك".

قوله تعالى: {لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [يونس: ٦]، أي:" لأدلة وحججًا واضحة لقوم يخشون عقاب الله وسخطه وعذابه".

قال الطبري: " يقول: لأدلة وحججًا وأعلامًا واضحةً= (لقوم يتقون) الله، فيخافون وعيده ويخشون عقابه على إخلاص العبادة لربهم".

قال القاسمي: "عظيمة كثيرة، فالتنكير للتفخيم كَمًّا وكيفًا".

وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة.

وخص سبحانه المتقين بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بنتائج التدبر في هذه الدلائل.

قال ابن القيم: الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة.

فالنوع الأول كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ...) وقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) وهو كثير في القرآن.

والثاني كقوله (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) وقوله (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) وقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ).

قال السعدي: وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة.

قال الزحيلي:" إن في ذلك كله لآيات ودلائل دالة على وجود الله ووحدانيته

=

=

وقدرته وحكمته، وعظمته، وكمال علمه، لقوم يتقون مخالفة سنن الله في التكوين، وسننه في التشريع، فسنة الكون الحفاظعلى الصحة، من خالفها مرض، وسنة الحياة الاستقامة، من أفسدها وخالفها، أساء لنفسه، وكل من لم يتق عقاب الله وسخطه وعذابه بارتكاب المعاصي ومخالفة السنن، عوقب على ذلك في الدنيا والآخرة".

عن الضحاك، قوله: " {يتقون}، قال: يتقون النار بالصلوات الخمس".

قال ابن عباس: "يريد اتقَوُا الله، ولم يشركوا به شيئًا".

قال القرطبي:" {لقوم يتقون}، أي: الشرك، فأما من أشرك ولم يستدل فليست الآية له آية".

قال الواحدي:" يعني: لقوم يؤمنون باللهِ فيعلمون ويقرون، وذلك أن من كفر ولم يستدل بما ذكر في هذه الآيات فليست له دلالة فيما خلق الله في السموات والأرض".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {إن في ذلك لآية}، قال:" هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

فإن قال قائل: "أوَ لا دلالة فيما خلق الله في السموات والأرض على صانعه، إلا لمن اتقى الله؟

قيل: في ذلك الدلالة الواضحةُ على صانعه لكل من صحَّت فطرته، وبرئ من العاهات قلبه. ولم يقصد بذلك الخبرَ عن أن فيه الدلالة لمن كان قد أشعرَ نفسه تقوى الله وإنما معناه: إن في ذلك لآيات لمن اتَّقى عقاب الله، فلم يحمله هواه على خلاف ما وضحَ له من الحق، لأن ذلك يدلُّ كل ذي فطرة صحيحة على أن له

=

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧).

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} بِالْبَعْثِ {وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} بَدَل الْآخِرَة لِإِنْكَارِهِمْ لَهَا {وَاطْمَأَنُّوا بِهَا} سَكَنُوا إلَيْهَا {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتنَا} دَلَائِل وَحْدَانِيّتنَا {غَافِلُونَ} تَارِكُونَ النَّظَر فِيهَا.

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨).

{أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّار بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} مِنْ الشرك والمعاصي[1].

=

مدبِّرًا يستحقّ عليه الإذعان له بالعبودة، دون ما سواه من الآلهة والأنداد".

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} [يونس: ٧]، أي:" إن الذين لا يطمعون في لقائنا في الآخرة للحساب، وما يتلوه من الجزاء على الأعمال لإنكارهم البعث".

قال ابن عباس، والكلبي: "لا يخافون البعث".

قال مقاتل:" يعني: لا يخشون {لقاءنا}، يعني: البعث والحساب".

قال الثعلبي:" يعني: لا يخافون عقابنا، ولا يرجون ثوابنا، والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الذين لا يخافون لقاءَنا يوم القيامة، فهم لذلك مكذِّبون بالثواب والعقاب، متنافسون في زين الدنيا وزخارفها.. والعرب تقول: "فلان لا يرجو فلانًا": إذا كان لا يخافه".

قال الواحدي:" المعنى: أنهم لا يخافون ذلك؛ لأنهم لا يؤمنون بها فلا يوجلون منها كما يوجل المؤمنون المصدقون بها المعنيون بقوله: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا} [النازعات: ٤٥] ٤٥]، وبقوله: {وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء:
=

=

٤٩]، ويكون الرجاء هاهنا الخوف، كما قال تعالى: {لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [نوح:١٣]".

والصواب في تفسير قوله تعالى(لِقَاءَنَا)، وكذا (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وكذا قوله تعالى (مُلاقُوا رَبِّهِمْ) أن العبد سيلقى ربه يوم القيامة، ويقف بين يديه، ويوفيه جزاء عمله، وقد جاء في الصحيحين البخاري (٣٥٩٥)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم قول الرسول ﷺ له (... فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله -قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد- ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولن له ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك فيقول بلى فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم...) فهذا قول المعصوم ﷺ، وهو بخلاف قول أهل البدع النافون للقاء الله عبده، لشبه وقعت لهم من علم الكلام المذموم، مثل شبه المكان والجهة والجسم وغير ذلك من باطلهم، وهم يتبعون أهواءهم، وزعموا أنهم يتبعون عقولهم، والعقول قاصرة لا تغني من الحق شيئًا، وإنما الواجب اتباع كتاب الله وما أرشد إليه رسول الله ﷺ.

قال القرطبي:" {يرجون}: يخافون، ومنه قول الشاعر:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ

وقيل: {يرجون}: يطمعون، ومنه قول الآخر:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

=

=

ف"الرجاء" يكون بمعنى "الخوف" و"الطمع"، أي: لا يخافون عقابا ولا يرجون ثوابا. وجعل لقاء العذاب والثواب لقاء لله تفخيما لهما. وقيل: يجري اللقاء على ظاهره، وهو الرؤية، أي لا يطمعون في رؤيتنا. وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد، كقوله تعالى: {ما لكم لا ترجون لله وقارا} [نوح: ١٣]. وقال بعضهم: بل يقع بمعناه في كل موضع دل عليه المعنى".

قوله تعالى: {وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس: ٧]، أي:" ورضوا بالحياة الدنيا عوضًا عن الآخرة فاطمأنوا لها، وارتضوها بدلًا من الآخرة الباقية، رضاء جعلهم لا يفكرون إلا في التشبع من زينتها ومتعها".

قال الواحدي:" أي بدلًا من الآخرة، كما قال: {أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ} [التوبة: ٣٨]".

قال مقاتل:" فعملوا لها".

قال القرطبي:" أي: رضوا بها عوضا من الآخرة فعملوا لها".

قال الطبري: أي:" راضُون بها عوضًا من الآخرة".

قال ابن القيم: "وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا وأطمأن بها وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه".

قوله تعالى: {وَاطْمَأَنُّوا بِهَا} [يونس: ٧].

أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

قال الطبري: أي:" مطمئنين إليها ساكنين".

=

=

قال الواحدي:" فهؤلاء فرحهم يكون للدنيا، وغمهم لها، ورضاهم وسخطهم لها".

قال القرطبي:" أي: فرحوا بها وسكنوا إليها، واصل: اطمأن طأمن طمأنينة، فقدمت ميمه وزيدت نون وألف وصل، ذكره الغزنوي".

قال ابن عباس والمفسرون: "أي: ركنوا إليها؛ لأنهم لا يؤمنون بشيء من الثواب والعقاب".

عن مجاهد:" {واطمأنوا بها}، مثل قوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا} ".

عن الحسن في قوله: " {إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها}، فقال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} [يونس: ٧]، أي:" والذين هم عن آياتنا الكونية والشرعية غافلون، لا يعتبرون فيها ولا يتفكرون".

قال الطبري: أي:" والذين هم عن آيات الله – وهي أدلته على وحدانيته، وحججه على عباده، في إخلاص العبادة له – معرضون عنها لاهون، لا يتأملونها تأمُّل ناصح لنفسه، فيعلموا بها حقيقة ما دلَّتهم عليه، ويعرفوا بها بُطُول ما هم عليه مقيمون".

قال القرطبي:" أي: عن أدلتنا {غافلون}، لا يعتبرون ولا يتفكرون".

قال مقاتل:" يعنى: ما أخبر فى أول هذه السورة {غافلون}، يعني ما ذكر من صنيعه في هؤلاء الآيات لمعرضون فلا يؤمنون".

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: " {عن آيتنا}: محمد ﷺ والقرآن، {غافلون}: معرضون تاركون مكذبون".

وقال ابن عباس: "يريد ما أنزلت من حلالي وحرامي وفرضت من شرائعي".

=

=

عن عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم، في قوله تعالى: " {والذين هم عن آياتنا غافلون}، قال: هؤلاء هم أهل الكفر ثم قال: أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون".

عن قتادة، قوله: " {إن الذين لا يرجون لقاءنا}، إلى قوله: {عن آياتنا غافلون}، قال: إذا أتيت رأيته صاحب دنيا، لها يفرح، ولها يحزن ولها يرضى ولها يسخط".

القرآن

قوله تعالى: {أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ} [يونس: ٨]، أي:" أولئك مقرُّهم نار جهنم في الآخرة".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: هؤلاء الذين هذه صفتهم مصيرهم إلى نار جهنم في الآخرة".

قال القرطبي:" أي: مثواهم ومقامهم".

قوله تعالى: {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يونس: ٨]، أي:" جزاء بما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا".

قال الطبري: أي:" في الدنيا من الآثام والأجْرام، ويجْترحون من السيئات".

قال القرطبي:" أي: من الكفر والتكذيب".

قال البيضاوي: أي:" بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي".

- فأنت ترى أن اللّه تعالى قد وصف هؤلاء الأشقياء بأربع صفات ذميمة:

وصفهم - أولًا - بعدم الرجاء في لقاء اللّه تعالى بأن صاروا لا يطمعون في ثواب، ولا يخافون من عقاب، لإنكار الدار الآخرة.

ووصفهم - ثانيًا - بأنهم رضوا بالحياة الدنيا، بأن أصبح همهم محصورًا فيها، وفي لذائذها وشهواتها.

ووصفهم - ثالثًا - بأنهم اطمأنوا بهذه الحياة، اطمئنان الشخص إلى الشيء الذي

=

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩).

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات يَهْدِيهِمْ} يُرْشِدهُمْ {رَبّهمْ بِإِيمَانِهِمْ} بِهِ بِأَنْ يَجْعَل لَهُمْ نُورًا يهتدون به يوم القيامة {تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم}.

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠).

{دَعْوَاهُمْ فِيهَا} طَلَبهمْ يَشْتَهُونَهُ فِي الْجَنَّة أَنْ يَقُولُوا {سُبْحَانك اللَّهُمَّ} أَيْ يَا الله فَإِذَا مَا طَلَبُوهُ وَجَدُوهُ بَيْن أَيْدِيهمْ {وَتَحِيَّتهمْ} فِيمَا بَيْنهمْ {فِيهَا سَلَام وَآخِر دَعْوَاهُمْ أَنْ} مُفَسِّرَة {الحمد لله رب العالمين} وَنَزَلَ لَمَّا اسْتَعْجَلَ الْمُشْرِكُونَ الْعَذَاب[1].

=

لا ملاذ له سواه، فإذا كان السعداء يطمئنون إلى ذكر اللّه، فإن هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير، وصارت لا تطمئن إلا إلى زينة الحياة الدنيا.

ووصفهم - رابعًا - بالغفلة عن آيات اللّه التي توقظ القلب، وتهدى العقل، ونحفز النفس إلى التفكير والتدبير.

وبالجملة فهذه الصفات الأربع تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأشقياء قد آثروا دنياهم على أخراهم، واستحبوا الضلالة على الهدى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [يونس: ٩]، أي:" إن الذين صدَّقوا الله، ورسوله وعملوا بشرعه".

فهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما

=

=

أمروا، به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم.

فهم جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا الله ورسوله" " {وعملوا الصالحات}، التي أمرهم الله ﷻ بها، والتي نَدَبهم إليها".

روي عاصم بن عمر، عن زيد بن أسلم:" {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

عن ابن عباس: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

(تنبيه): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨): ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد فيما أخبر والانقياد له فيما أمر كما أن الإقرار بالله هو الاعتراف به والعبادة له فالنفاق يقع كثيرا في حق الرسول وهو أكثر ما ذكره الله في القرآن من نفاق المنافقين في حياته والكفر هو عدم الإيمان سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض؛ فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر ا. هـ

وقال رحمه الله أيضا في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٨): مثال ذلك أن " المرجئة " لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله أخذوا يتكلمون في مسمى " الإيمان " و " الإسلام " وغيرهما بطرق ابتدعوها مثل أن يقولوا: " الإيمان في اللغة " هو التصديق والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها فيكون مراده بالإيمان التصديق؛ ثم قالوا: والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فالأعمال ليست من الإيمان ثم عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق قوله: {وما

=

أنت بمؤمن لنا} أي بمصدق لنا. فيقال لهم: " اسم الإيمان " قد تكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ وهو أصل الدين وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ ويفرق بين السعداء والأشقياء ومن يوالي ومن يعادي والدين كله تابع لهذا؛ وكل مسلم محتاج إلى معرفة ذلك؛ أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله. ووكله إلى هاتين المقدمتين؟. ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الإيمان هو التصديق أنه من القرآن. ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي ﷺ أعظم من تواتر لفظ الكلمة فإن الإيمان يحتاج إلى معرفة جميع الأمة فينقلونه بخلاف كلمة من سورة. فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنيا على مثل هذه المقدمات ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم وسلكوا السبل وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات فهذا كلام عام مطلق. ثم يقال: " هاتان المقدمتان " كلاهما ممنوعة فمن الذي قال: إن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق؟ وهب أن المعنى يصح إذا استعمل في هذا الموضع فلم قلت: إنه يوجب الترادف؟ ولو قلت: ما أنت بمسلم لنا ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى لكن لم قلت: إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن؟ وإذا قال الله: {وأقيموا الصلاة}. ولو قال القائل: أتموا الصلاة ولازموا الصلاة التزموا الصلاة افعلوا الصلاة كان المعنى صحيحا. لكن لا يدل هذا على معنى: أقيموا. فكون اللفظ يرادف اللفظ؛ يراد دلالته على ذلك. ثم يقال: ليس هو مرادفا له وذلك من وجوه: (أحدها: أن يقال للمخبر إذا صدقته: صدقه ولا يقال: آمنه وآمن به. بل يقال: آمن له كما قال: {فآمن له لوط} وقال: {فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه} وقال فرعون: {آمنتم له قبل أن آذن لكم} وقالوا لنوح: {أنؤمن لك واتبعك الأرذلون} وقال تعالى: {قل أذن خير لكم

=

يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين} . فقالوا: {أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} وقال: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون} . فإن قيل: فقد يقال: ما أنت بمصدق لنا. قيل: اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه إذا ضعف عمله إما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مصدرا أو باجتماعهما فيقال: فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ثم إذا ذكر باسم الفاعل قيل: هو عابد لربه متق لربه خائف لربه وكذلك تقول: فلان يرهب الله ثم تقول: هو راهب لربه وإذا ذكرت الفعل وأخرته تقويه باللام كقوله: {وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون} وقد قال: {فإياي فارهبون} فعداه بنفسه وهناك ذكر اللام فإن هنا قوله: {فإياي} أتم من قوله: فلي. وقوله هنالك {لربهم} أتم من قوله: ربهم فإن الضمير المنفصل المنصوب أكمل من ضمير الجر بالياء وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده؛ ومن هذا قوله: {إن كنتم للرؤيا تعبرون} ويقال: عبرت رؤياه وكذلك قوله: {وإنهم لنا لغائظون} وإنما يقال: غظته لا يقال: غظت له ومثله كثير فيقول القائل: ما أنت بمصدق لنا أدخل فيه اللام لكونه اسم فاعل وإلا فإنما يقال: صدقته لا يقال: صدقت له ولو ذكروا الفعل لقالوا: ما صدقتنا وهذا بخلاف لفظ الإيمان فإنه تعدى إلى الضمير باللام دائما؛ لا يقال: آمنته قط وإنما يقال: آمنت له كما يقال: أقررت له فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقا. (الثاني: أنه ليس مرادفا للفظ التصديق في المعنى فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت كما يقال: كذبت. فمن قال: السماء فوقنا قيل له: صدق كما يقال: كذب وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة؛ كقوله: طلعت الشمس وغربت أنه يقال: آمناه كما يقال: صدقناه ولهذا؛ المحدثون والشهود ونحوهم؛ يقال: صدقناهم؛ وما يقال آمنا لهم؛ فإن الإيمان مشتق من الأمن. فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه

=

=

المخبر كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر؛ ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في هذا النوع؛ والاثنان إذا اشتركا في معرفة الشيء يقال: صدق أحدهما صاحبه ولا يقال: آمن له لأنه لم يكن غائبا عنه ائتمنه عليه ولهذا قال: {فآمن له لوط} {أنؤمن لبشرين مثلنا}. {آمنتم له}. {يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين} فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه وهو مأمون عنده على ذلك فاللفظ متضمن مع التصديق ومعنى الائتمان والأمانة؛ كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ولهذا قالوا: {وما أنت بمؤمن لنا} أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك. فلو صدقوا لم يأمن لهم. (الثالث: أن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت أو كذبت ويقال: صدقناه أو كذبناه ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه؛ ولا يقال أنت مؤمن له أو مكذب له؛ بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر. يقال: هو مؤمن أو كافر والكفر لا يختص بالتكذيب؛ بل لو قال: أنا أعلم إنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم؛ فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط بل إذا كان الكفر يكون تكذيبا ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعا بلا تكذيب؛ فلا بد أن يكون الإيمان تصديقا مع موافقة وموالاة وانقياد لا يكفي مجرد التصديق؛ فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر فيجب أن يكون كل مؤمن مسلما منقادا للأمر وهذا هو العمل فإن قيل: فالرسول ﷺ فسر الإيمان بما يؤمن به. قيل: فالرسول ذكر ما يؤمن به لم يذكر ما يؤمن له وهو نفسه يجب أن يؤمن به ويؤمن له فالإيمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا به وليس كل غيب آمنا به علينا أن نطيعه وأما ما يجب من الإيمان

=

=

له فهو الذي يوجب طاعته والرسول يجب الإيمان به وله فينبغي أن يعرف هذا وأيضا فإن طاعته طاعة لله وطاعة الله من تمام الإيمان به.. إلى آخر كلامه رحمه الله.

وقال العلامة العثيمين في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٢٢٩): أكثر أهل العلم يقولون: إن الإيمان في اللغة: التصديق، ولكن في هذا نظر! لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة؛ فإنها تتعدى بتعديها، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه، والإيمان لا يتعدى بنفسه؛ فنقول مثلا: صدقته، ولا تقول آمنته! بل تقول: آمنت به، أو آمنت له، فلا يمكن أن نفسر فعلا لازما لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به بنفسه، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطي معنى كلمة (آمنت) فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت) ولهذا؛ لو فسر (الإيمان) بـ (الإقرار) لكان أجود؛ فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق، فتقول أقر به، كما تقول: آمن به، وأقر له كما تقول: آمن له.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ٣٩٧): الإيمان في اللغة هو التصديق الجازم الذي يتبعه عمل يأمن معه المؤمن الغائلة أو العقوبة إلى آخره. وقولنا التصديق الذي معه عمل هذا تحصيل حاصل؛ لأنه إذا كان الشيء يلزم منه العمل فإنه لا يطلق لفظ مصدقا في اللغة على من صدق حتى يعمل، مثاله: أتى شخص وقال لآخر سيارتك الآن تسرق، فقال له الآخر: جزاك الله خيرا، قال: لك فيها أموال ولك فيها أشياء وهي الآن تسرق، قال الآخر: جزاك الله خيرا وجلس ولم يتحرك، فهل يعتبر في اللغة مصدقا؟ إذا كان قد صدق الخبر فإنه لابد أن يتبعه بعمل يدل على صدقه؛ لأن الناس لا يفرطون بأموالهم ولا يفرطون بما فيه قوام حياتهم، فإذا مكث وقال أنا مصدق، وهو ما ذهب، ما أتبعه عمل، فلا يسمى مصدقا في اللغة، ليس في الشرع -فقط-، لا يسمى مصدقا في اللغة -أيضا- ودل

=

=

على هذا الأصل قول الله ﷻ في قصة إبراهيم الخليل مع ابنه إسماعيل في سورة الصافات قال {قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين} [الصافات:١٠٢ - ١٠٣]، لاحظ العمل {فلما} و {لما} انتبه لكلمة {لما}، {فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدقت الرؤيا} [الصافات:١٠٣ - ١٠٥]، رؤيا الأنبياء حق، إذا رآها النبي صدق بأنها وحي من الله ﷻ لكن متى صار مصدقا بالرؤيا؟ لما امتثل دلالتها {فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدقت الرؤيا} وهذا تصديق لغوي وهو أيضا تصديق شرعي، إذا فالإيمان في العرف لو أرجعناه إلى التصديق فإن حقيقة التصديق أن يكون معه عمل، فلا يسمى مصدقا من ليس يعمل أصلا فيما صدق به. ا.هـ

قوله تعالى: {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} [يونس: ٩]، أي:" يدلهم ربهم إلى طريق الجنة ويوفقهم إلى العمل الموصل إليه؛ بسبب إيمانهم".

قال الطبري:" يقول: يرشدهم ربهم بإيمانهم به إلى الجنة... وقال آخرون: معنى ذلك: بإيمانهم، يهديهم ربهم لدينه. يقول: بتصديقهم هَدَاهم".

عن مجاهد، قوله: " {يهديهم ربهم بإيمانهم}: يكون لهم نورا يمشون به".

قال السعدي: "فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم".

قوله تعالى: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس: ٩]، أي:" ثم يثيبهم بدخول الجنة وإحلال رضوانه عليهم، تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم".

=

=

عـن أبـي مالـك قولـه: " {تجـري مـن تحـتهم الأنهـار}، يعنـي: تحـت منـازلهم وأرضهم".

عن زيد بن الحباب، قـال: "سـمعت أبـا عبـد الملـك... قـال: قـال رسـول الله ﷺ: نعيم أهل الجنة برضوان الله عنهم أفضل من نعيمهم بها في الجنان".

قال الزمخشري:" فإن قلت: فلقد دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق بـه العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمـان مقيـد، وهـو الإيمـان المقـرون بالعمل الصالح. والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فـصاحبه لا توفيـق لـه ولا نور.

قلت: الأمر كذلك. ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعا فيها بين الإيمـان والعمـل، كأنه قال: إن الـذين جمعـوا بـين الإيمـان والعمـل الـصالح، ثـم قـال: بإيمـانهم، أى بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح، وهو بين واضح لا شبهة فيه".

قال السعدي: أضـافها الله إلـى النعـيم، لاشـتمالها علـى النعيم التـام، نعـيم القلـب بالفرح والسرور، والبهجـة والحبـور، ورؤيـة الـرحمن وسـماع كلامـه، والاغتبـاط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسـماع الأصـوات المطربـات، والنغمـات المـشجيات، والمنـاظر المفرحـات. ونعـيم البـدن بـأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، ممـا لا تعلمـه النفـوس، ولا خطـر ببـال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

قولـه تعـالى: {دَعْـوَاهُمْ فِيهَـا سُـبْحَانَكَ اللَّهُـمَّ} [يـونس: ١٠]، أي:" دعـاؤهم في الجنة التسبيح «سبحانك اللهم»".

قـال الزمخـشري:" {دعـواهم} دعـاؤهم، لأن «اللهـم» نـداء لله ومعنـاه: اللهـم إنـا نسبحك، كقول القانت في دعـاء القنـوت: اللهـم إيـاك نعبـد ولـك نـصلى ونـسجد. ويجوز أن يراد بالدعاء: العبادة {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [مـريم: ٤٨]

=

=

على معنى: أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة، إنما يلهمونه فينطقون به تلذذا بلا كلفة، كقوله تعالى: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً} [الأنفال: ٣٥]".

عن الربيع ابن أنس قال: "أهل الجنة إذا اشتهوا شيئا قالوا: سبحانك اللهم وبحمدك فإذا هو عندهم فذلك قوله: {دعواهم فيها سبحانك اللهم}".

عن قتادة، قوله: " {دعواهم فيها سبحانك اللهم}، يقول: ذلك قولهم فيها، {وتحيتهم فيها سلام}".

عن سفيان في قول الله ﷻ:" {دعواهم فيها سبحانك اللهم}، قال: إذا أراد الرجل من أهل الجنة أن يدعوا قال: سبحانك اللهم فيأتيه الذي دعا به".

عن مقاتل بن حيان، قال: "إن أهل الجنة إذا دعوا بالطعام قالوا: سبحانك اللهم، قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحفة من ذهب، فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن أكلهن".

وفي معنى: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ»، وجهان:

أحدهما: أن «سبحان الله»: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه. قاله الحسن.

والثاني: أن «سبحان الله»: اسم يعظم الله به ونجانا به من السوء. قاله ميمون بن عثمان.

قوله تعالى: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [يونس: ١٠]، أي:" وتحية الله وملائكته لهم، وتحية بعضهم بعضًا في الجنة: «سلام»".

قال الزمخشري:" معنى {وتحيتهم فيها سلام}، أن بعضهم يحيى بعضا بالسلام. وقيل: هي تحية الملائكة إياهم، إضافة للمصدر إلى المفعول. وقيل: تحية الله لهم".

قوله تعالى: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]، أي:"

=

=

وآخـر دعـائهم قـولهم: «الحمـد لله رب العـالمين» أي: الـشكر والثنـاء لله خـالق المخلوقات ومربِّيها بنعمه".

قال الزمخشري: أي:" وخاتمة دعائهم الـذي هـو التسبيح أن يقولـوا: {الحمـد لله رب العالمين}".

روي عن ابن أبي المذيل:" «الحمد لله» أوله وآخره".

عن الفضل الرقاشي:" فقال: {تحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمـد لله رب العـالمين}، قـال: فيتجلـى لهـم فيخـرون لـه سـجدا ويقولـون: سـبحانك اللهـم وتحيتهم بالسلام فإذا انصرف عنهم قالوا الحمد لله رب العالمين".

قال ابن كثير: هذا فيـه دلالـة علـى أن الله تعـالى هـو المحمـود أبـدًا، المعبـود علـى طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ) إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنــه المحمــود في الأول وفي الآخــر، في الحيــاة الــدنيا وفي الآخــرة، في جميــع الأحوال.

- والله يحمد على كـل شيء، ومـن ذلـك: أنـه سـبحانه وتعـالى يحمـد علـى نـصر الرسل وإهلاك الكافرين، فإن بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه ، وإهانته لأعدائه ، وصدق ما جاءت به المرسلون.

قال تعالى (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

- قال بعض العلماء إن هذه الكلمة (الحمد لله) كلمة كل شاكر ويدل لذلك:

قول أهل الجنة (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن).

وبقول نوح عليه السلام (الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين).

وبقول أهل الجنة أيضًا (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنـا لنهتـدي لـو لا أن هـدانا

=

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١).

{وَلَوْ يُعَجِّل الله لِلنَّاسِ الشَّرّ اسْتِعْجَالهمْ} أَيْ كَاسْتِعْجَالِهِمْ {بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ} بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَلِلْفَاعِلِ {إِلَيْهِمْ أَجَلهمْ} بِالرَّفْعِ وَالنَّصْب بِأَنْ يُهْلِكهُمْ وَلَكِنْ

=

الله).

وبقول إبراهيم عليه السلام (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق).

وبقول داود وسليمان عليهما السلام (الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين).

وفي قوله تعالى: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]، وجوه:

أحدها: أن «الحمد لله» كلمة الشكر، فإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبدي. قاله ابن عباس.

والثاني: أن «الحمد لله»: ثناء الله. قاله كعب.

والثالث: أن «الحمد»: رداء الرحمن، قاله الضحاك.

وفي قوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]، وجوه:

أحدها: أن «العالمين»: ألف أمة، فستمائة في البحر وأربعمائة في البر. رواه مغيث بن شمس عن تبيع.

والثاني: أن «رب العالمين»: ما وصف من خلقه. قاله قتادة.

والثالث: أن «رب العالمين»: الجن والإنس، وهذا قول ابن عباس.

قال ابن ابي حاتم:" وروي عن علي بإسناد لا يعتمد عليه مثله، وروي عن مجاهد مثله".

يُمْهِلهُـمْ {فَنَـذَر نَتْـرُك الَّـذِينَ لَا يَرْجُـونَ لِقَاءَنَـا فِي طُغْيَـانهمْ يَعْمَهُـونَ} يَتَـرَدَّدُونَ مُتَحَيِّرِينَ[1].

(١)قوله تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُـمْ} [يونس: ١١]، أي:" ولو يعجِّل الله للناس إجابة دعـائهم في الـشر كاستعجاله لهـم في الخير بالإجابة لهلكوا وعُجِّل لهم الموت".

قال الطبري: "المعنى لو يعجل الله إجابة دعـاء النـاس في الـشر، وفيما عليهم فيه مضرة، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به لقضي إليهم أجلهم".

قال الزمخشري:" أصله: ولو يعجل الله للنـاس الـشر تعجيلـه لهـم الخير، فوضـع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير، إشعارا بـسرعة إجابتـه لهـم وإسـعافه بطلبتهم، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهـم، والمراد أهـل مكـة. وقـولهم: {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ} [الأنفال: ٣٢]، يعنى: ولـو عجلنـا لهـم الـشر الذي دعـوا بـه كما نعجل لهـم الخير ونجيبهم إليه لقضي إليهم أجلهـم لأميتـوا وأهلكوا".

قال البيضاوي: أي:" ولـو يـسرعه إليـهم. {استعجالهم بـالخير}، وضـع موضـع تعجيله لهم بالخير إشعارا بـسرعة إجابتـه لهـم في الخيـر حتـى كـأن استعجالهم بـه تعجيل لهم، أو بأن المراد شر استعجلوه كقولهم: فأمطر علينا حجارة مـن الـسماء وتقـدير الكـلام: ولـو يعجـل الله للنـاس الـشر تعجيلـه للخيـر حـين اسـتعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير، فحذف منه ما حذف لدلالة البـاقي عليـه. {لقضي إليهم أجلهم}، لأميتوا وأهلكوا".

عـن مجاهـد قولـه: " {ولـو يعجـل الله للنـاس الـشر اسـتعجالهم بـالخير}، قـول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيـه والعنـه"، قولـه " {لقضي إليهم أجلهم}: لأهلك من دعا عليه ولأماته".

=

=

عن قتادة:" {ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير}، قال: هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له".

عن سعيد في قوله: " {ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير}، قال: هو الرجل يدعو على نفسه: اللهم اخزه اللهم افعل به كذا وكذا، فلو عجل الله لهم ذلك، كما يعجل الله لهم: اللهم ارزقني لقضي إليهم الأجل".

والمراد بالناس هنا – عند عدد من المفسرين –: المشركون الذي وصفهم اللّه تعالى قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها.

ولقد حكى القرآن في كثير من آياته، أن المشركين قد استعجلوا الرسول ﷺ في نزول العذاب.

قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ، وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ).

وقال تعالى (وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ).

والمعنى: ولو يعجل اللّه تعالى لهؤلاء المشركين العقوبة التي طلبوها، تعجيلًا مثل استعجالهم الحصول على الخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أي: لأميتوا وأهلكوا جميعًا، ولكن اللّه تعالى الرحيم بخلقه، الحكيم في أفعاله، لا يعجل لهم العقوبة التي طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها فقد يكون من بين هؤلاء المتعجلين للعقوبة من يدخل في الإسلام، ويتبع الرسول ﷺ.

ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم، وأن الآية الكريمة تحكى لونًا من ألوان لطف اللّه بعباده ورحمته بهم.

ومن المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه في تفسيرهم ابن كثير.

=

=

- قال ابن كثير: يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه - لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي: لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك.

- **قال السعدي**: قوله تعالى (لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي: لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا، أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم.

- قال الماوردي: قوله ﷻ (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) فيه وجهان:

أحدهما: ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة، قاله ابن إسحاق.

الثاني: معناه أن الرجل إذا غضب على نفسه أو ماله أو ولده فيدعو بالشر فيقول: لا بارك الله فيه وأهلكه الله، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب منه الخير لقضي إليهم أجلهم أي لهلكوا.

فيكون تأويلًا على الوجه الأول خاصًا في الكافر، وعلى الوجه الثاني عامًا في المسلم والكافر.

- قال القرطبي: فالآية نزلت ذامّة لخُلق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير

=

=

فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحيانًا سوء الخلق على الدعاء في الشر؛ فلو عجّل لهم لهلكوا.

وقرأ ابن عامر ويعقوب «لقضى» على البناء للفاعل، وهو الله تعالى، وقرئ «لقضينا».

قوله تعالى: {فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [يونس: ١١]، أي:" فنترك الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالبعث والنشور في تمرُّدهم وعتوِّهم، يترددون حائرين".

قال البيضاوي: أي:" فنذرهم إمهالا لهم واستدراجا".

عن قتادة:" {الذين لا يرجون لقاءنا}، مشركي أهل مكة".

عن ابن عباس: {فِي طُغْيَانِهِمْ}، قال:" في كفرهم يترددون". وروي عن ابن مسعود وقتادة والربيع وابن زيد مثل ذلك.

عن أبي العالية: " {في طغيانهم}، يعني: في ضلالهم".

قال ابن زيد:" طغيانهم، كفرهم وضلالتهم".

و"الطُّغيان": أصله مجاوزة الحد، من قولك: طَغَى فلان يطغَى طُغيانًا، إذا تجاوز في الأمر حده فبغى، ومنه قوله الله: {كَلا إِنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق: ٦، ٧]، أي يتجاوز حدّه، وقوله في فرعون: {إِنَّهُ طَغَى} [طه: ٢٤] أي أسرف في الدعوى حيث قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، ومنه قول أمية بن أبي الصَّلْت:

وَدَعَا اللهَ دَعْوَةً لاتَ هَنَّا بَعْدَ طُغْيَانِه، فَظَلَّ مُشِيرَا

وفي قوله تعالى: {يَعْمَهُونَ} [يونس: ١١]، وجوه:

أحدها: أي: يترددون، قاله ابن عباس، ومجاهد، والربيع، ومنه قول ابن بري:

مَتى تَعْمَهْ إلى عُثْمانَ تَعْمَه إلى ضَخْم السُّرادِقِ والقِبابِ

=

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢).

{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَان} الْكَافِر {الضُّرّ} الْمَرَض وَالْفَقْر {دَعَانَا لِجَنْبِهِ} أَيْ مُضْطَجِعًا {أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا} أَيْ فِي كُلّ حَال {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرّه مَرَّ} عَلَى كُفْره {كَأَنْ} مُخَفَّفَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ كَأَنَّهُ {لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرّ مَسَّهُ كَذَلِكَ} كَمَا زَيَّنَ لَهُ الدُّعَاء عِنْد الضَّرَر وَالْإِعْرَاض عِنْد الرَّخَاء {زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ}

=

أَي: تُرَدِّدُ النظرَ.

الثاني: معناه يتحيرون، قاله ابن عباس، ومنه قول رؤية بن العجاج:

ومهمه أطرافه في مهمه أعمى الهدى بالجاهلين العمه

الثالث: يعمهون عن رشدهم، فلا يبصرونه، لأن من عمه عن الشيء كمن كمه عنه، قال الأعشى:

أراني قد عمهت وشاب رأسي وهذا اللعب شين للكبير

الرابع: يتمادَوْن. قاله ابن عباس -أيضا-.

قال الثعلبي: {يعمهون}، أي:" يمضون، يترددون في الضلالة متحيرين، يقال: عمه يعمه عمها وعموها، وعمها فهو عمه، وعامه: إذا كان جائرا عن الحق". ثم استشهد بقول رؤبة السابق.

قال الزمخشري:" فإن قلت، فكيف اتصل به قوله فنذر الذين لا يرجون لقاءنا وما معناه؟

قلت: قوله {ولو يعجل الله} متضمن معنى نفى التعجيل، كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم في طغيانهم أى فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم، إلزاما للحجة عليهم".

المشركين {ما كانوا يعملون}[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا} [يونس: ١٢]، أي:" وإذا أصاب الإنسانَ الشدةُ من مرض أو فقر أو نحو ذلك استغاث بنا في كشف ذلك عنه مضطجعًا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا، على حسب الحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضرِّ به".

أي: دعانا في جميع الحالات: مضطجعًا او قاعدًا او قائمًا، لكشف ذلك الضر عنه.

- قال ابن الجوزي: واللام في قوله (لجنبه) بمعنى "على".

- يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء (مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ).

- قال القرطبي: قوله تعالى (دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا) وإنما أراد جميع حالاته؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة.

- وقال الشوكاني: قوله تعالى (أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) وكأنه قال: دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها، وخصّ المذكورة بالذكر؛ لأنها الغالب على الإنسان، وما عداها نادر كالركوع والسجود، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعًا غير قادر على القعود، وقاعدًا غير قادر على القيام، وقائمًا غير قادر على المشي، والأوّل: أولى.

- قال الرازي: فإن قالوا: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟

قلنا: معناه: إن المضرور لا يزال داعيًا لا يفتر عن الدعاء إلى أن يزول عنه الضر، =

=

سواء كان مضطجعًا أو قاعدًا أو قائمًا.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإذا أصاب الإنسان الشدة والجهد، استغاث بنا في كشف ذلك عنه مضطجعًا لجنبه {أو قاعدًا أو قائمًا} بالحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضرّ به".

عن قتادة قال: "إذا مسهم الضر: خلصوا لله الدعاء".

عن ابن جريج، قوله: " {(دعانا لجنبه} ، قال: مضطجعًا".

قال الزمخشري:" فإن قلت: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟ قلت معناه أن المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها- إن كان منبطحا عاجز النهض متخاذل النوء أو كان قاعدا لا يقدر على القيام، أو كان قائما لا يطيق المشي والمضطرب- إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة بتمامها. ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالا وهو صاحب الفراش. ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود. ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء، لأن الإنسان للجنس".

قوله تعالى: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ} [يونس: ١٢]، أي:" فلما كشفنا عنه الشدة التي أصابته استمرَّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الشدة والبلاء، وترك الشكر لربه الذي فرَّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء".

قال الطبري:" يقول: فلما فرّجنا عنه الجهد الذي أصابه، استمرَّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وترك الشكر لربه الذي فرّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء حين استعاذ به، وعاد للشرك ودَعوى الآلهةِ والأوثانِ أربابًا معه".

=

=

- قال القرطبي: قوله تعالى (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ) أي: استمر على كفره ولم يشكر ولم يتّعظ.

قلت: وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصي؛ فالآية تعمّ الكافر وغيره.

- **قال الشوكاني**: وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر، بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنهم بالدعاء وقلبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم. فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضرّ، ودفع ما أصابهم من المكروه. وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر، كما يشعر به لفظ الناس، ولفظ الإنسان، اللهم أوزعنا شكر نعمك، وأذكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء، حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه، ولا نقدر على غيره، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ).

- قال الرازي: المقصود من هذه الآية، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعًا أو قائمًا أو قاعدًا مجتهدًا في ذلك الدعاء طالبًا من الله تعالى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة والمنحة، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، وذلك يدل على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيهًا على أن هذه الطريقة مذمومة، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابرًا عند نزول البلاء شاكرًا عند الفوز بالنعماء، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة

=

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣).

وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُون} الْأُمَم {مِنْ قَبْلكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {لَمَّا ظَلَمُوا} بِالشِّرْكِ {و} قَدْ {جَاءَتْهُمْ رُسُلهمْ بِالْبَيِّنَاتِ} الدَّالَّات عَلَى صِدْقهمْ {وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} عَطْف عَلَى ظَلَمُوا {كَذَلِكَ} كَمَا أَهْلَكْنَا أُولَئِكَ {نَجْزِي الْقَوْم الْمُجْرِمِينَ} الْكَافِرِينَ[١].

=

والرفاهية حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحن.

(كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: كما زين لذلك الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء كذلك زين للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام، ما كانوا يعملونه من الإعراض عن الهدى، ومتابعة الشهوات.

- قال ابن كثير: فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى (إلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وكقول رسول الله ﷺ (عجبا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له"، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن).

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [يونس: ١٣]، أي:" ولقد أهلكنا الأمم التي كذَّبت رسل الله من قبلكم -أيها المشركون بربهم- لمَّا أشركوا".

قال الطبري يقول تعالى ذكره: ولقد أهلكنا الأمم التي كذبت رسل الله من قبلكم أيها المشركون بربهم لما أشركوا وخالفوا أمر الله ونهيه".

قال القرطبي:" يعني: الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكناهم. {لما ظلموا}،

=

=

أي: كفروا وأشركوا".

- **قال الآلوسي**: قوله تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ) مثل قوم نوح. وعاد، وثمود، وهو جمع قرن بفتح القاف أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران كأن أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم، وقيل: القرن أربعون سنة وقيل: ثمانون وقيل مائة وقيل هو مطلق الزمان، والمراد هنا المعنى الأول وكذا في قوله ﷺ: " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " وقوله: إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم...

- قال ابن عطية: هذه الآية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم، أي كما فعل هؤلاء فعلكم فكذلك يفعل بكم ما فعل بهم.

- وقال ابن عاشور: وهذه الآية تهديد وموعظة بما حل بأمثالهم.

قال ابن زيد:" ما عذب قوم نوح حتى ما كان في الأرض سهل ولا جبل إلا وله عامر يعمره وحائز يحوزه".

عن زيد بن أسلم:"أن أهل السهل كان قد ضاق بهم وأهل الجبل حتى ما يقدروا أهل السهل أن يرتقوا إلى الجبل ولا أهل الجبل أن ينزلوا إلى أهل السهل في زمان نوح، قال حشوا".

والقرن: الأمة تأتي بعد الأمة، واختلف في مدته على أقوال:

عن محمد بن القاسم الطائي، "أن عبد الله بن بسر قال: قلت يا رسول الله كم القرن؟ قال: مائة سنة". وروي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن نحو ذلك.

عن زرارة بن أوفى قال: "القرن عشرون ومائة سنة، بعث النبي ﷺ في قرن كان آخرهم يزيد بن معاوية".

عن جعفر بن عليّ بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: "خلفت بالمدينة عمي ممن يفتي على أن القرن سبعون سنة". وكان عمه عبيد الله بن أبي رافع كاتب عليّ رضي الله عنه".

=

=

قال قتادة:" القرن: سبعون سنة".

وقال الحسن:" القرن: ستون سنة".

وقال إبراهيم:" القرن: أربعون سنة".

وقال مالك بن دينار: "سألت الحسن، عن القرن، فقال: عشرون سنة".

والجمهور على أن القرن مائة سنة، وأكثر المحققين على أنه غير مقدر بزمن معين لا يقع فيه زيادة ولا نقصان، بل المراد أهل كل عصر، فإذا انقضى أكثرهم قيل: قد انقضى القرن، قال تعالى: {ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن} [الأنعام: ٦].

قال ابن الأثير: "أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان من أعمارهم وأحوالهم، وسميت الروم ذات القرون لتوارثهم الملك قرنا بعد قرن".

قوله تعالى: {وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [يونس: ١٣]، أي:" وجاءتهم رسلهم من عند الله بالمعجزات الواضحات والحجج التي تبين صدق مَن جاء بها".

قال القرطبي:" أي: بالمعجزات الواضحات والبراهين النيرات".

قال الطبري:" وجاءتهم رسلهم بالآيات البينات أنها حق، {بِالْبَيِّنَاتِ}: وهي الآيات والحجج التي تُبين عن صِدْق من جاء بها".

عن مقاتل بن حيان، قوله: " {بالبينات}، يعني: بالبينات ما أنزل الله من الحلال والحرام".

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} [يونس: ١٣]، أي:" فلم تكن هذه الأمم التي أهلكناها لتصدق رسلها وتنقاد لها، فاستحقوا الهلاك".

قال الطبري:" يقول: فلم تكن هذه الأمم التي أهلكناها ليؤمنوا برسلهم ويصدِّقوهم إلى ما دعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له".

قال القرطبي:" أي: أهلكنا هم لعلمنا أنهم لا يؤمنون. يخوف كفار مكة عذاب

=

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤).

{ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {خَلَائِف} جَمْع خَلِيفَة {فِي الْأَرْض مِنْ بَعْدهمْ لِنَنْظُر كَيْفَ تَعْمَلُونَ} فِيهَا وَهَلْ تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ فَتُصَدِّقُوا رُسُلنَا[1].

=

الأمم الماضية، أي نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمدا ﷺ، ولكن نمهلهم لعلمنا بأن فيهم من يؤمن، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن. وهذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان. وقيل: معنى {ما كانوا ليؤمنوا}، أي: جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم، ويدل على هذا أنه قال: {كذلك نجزي القوم المجرمين}".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [يونس: ١٣]، أي:" ومثل ذلك الإهلاك نجزي كل مجرم متجاوز حدود الله".

عن أبي مالك، قوله: " {كذلك}، يعني: هكذا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كما أهلكنا هذه القرون من قبلكم، أيها المشركون، بظلمهم أنفسَهم، وتكذيبهم رسلهم، وردِّهم نصيحتَهم، كذلك أفعل بكم فأهلككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رسولكم محمدًا ﷺ، وظلمكم أنفسكم بشرككم بربكم، إن أنتم لم تُنيبوا وتتوبوا إلى الله من شرككم فإن من ثواب الكافر بي على كفره عندي، أن أهلكه بسَخَطي في الدنيا، وأوردُه النار في الآخرة".

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ} [يونس: ١٤]، أي:" ثم جعلناكم -أيها الناس- خَلَفًا في الأرض من بعد القرون المُهْلَكة".

قال القرطبي:" أي جعلنا كم سكانا في الأرض، {من بعدهم}، أي: من بعد القرون المهلكة".

قال البغوي:" أي: خلفاء، {في الأرض من بعدهم} أي: من بعد القرون التي أهلكناهم".

=

=

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "قال عمر يقول الله تعالى: {ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون}، قال: فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل؟".

قوله تعالى: {لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس: ١٤]، أي:" لننظر كيف تعملون: أخيرًا أم شرًا، فنجازيكم بذلك حسب عملكم".

قال القرطبي:" {لننظر} نصب بلام كي، وقد تقدم نظائره وأمثاله، أي: ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب، ولم يزل يعلمه غيبا، وقيل: يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل. وقيل: النظر راجع إلى «الرسل»، أي: لينظر رسلنا وأولياؤنا كيف أعمالكم. و {كيف} نصب بقوله: {تعملون}: لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله".

قال البغوي:" وهو أعلم بهم. وروينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إن هذه الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون» ".

عن قتادة، في قول الله: " {ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون}، ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا ما جعلنا خلائف الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا فأدوا الله خير أعمالكم بالليل والنهار والسر والعلانية".

- قال الرازي: الخطاب للذين بعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناهم، لننظر كيف تعملون، خيرًا أو شرًا، فنعاملكم على حسب عملكم.

- وقال في التسهيل: معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة والغرض ان الله تعالى عالم بأعمالهم من قبل ذلك، ولكن يختبرهم ليتبين في

=

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥).

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتنَا} الْقُرْآن {بَيِّنَات} ظَاهِرَات حَال {قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} لَا يَخَافُونَ الْبَعْث {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْر هَذَا} لَيْسَ فِيهِ عَيْب آلِهَتنَا {أَوْ بَدِّلْهُ} مِنْ تِلْقَاء نَفْسك {قُلْ} لَهُمْ {مَا يَكُون} يَنْبَغِي {لِي أَنْ أُبَدِّلهُ مِنْ تِلْقَاء} قِبَل {نَفْسِي إِنْ} مَا {أَتَّبِع إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَاف إِنْ عَصَيْت رَبِّي} بِتَبْدِيلِهِ {عَذَاب يَوْم عَظِيم} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة.

قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦).

{قُلْ لَوْ شَاءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ} أَعْلَمَكُمْ {بِهِ} وَلَا نَافِيَة عَطْف عَلَى مَا قَبْله وَفِي قِرَاءَة بِلَامِ جَوَاب لَوْ أَيْ لَأُعْلِمكُمْ بِهِ عَلَى لِسَان غَيْرِي {فَقَدْ لَبِثْت} مَكَثْت {فِيكُمْ عُمْرًا} سِنِينًا أَرْبَعِينَ {مِنْ قَبْله} لَا أُحَدِّثكُمْ بِشَيْءٍ {أَفَلَا

=

الوجود، ما علمه تعالى أزلا.

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيم).

وقال تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً).

وقال تعالى (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).

تَعْقِلُونَ} أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَبْلِي(١).

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} [يونس: ١٥].
أي: وإذا قُرِئَ على مُشرِكي قُريشٍ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال الذين يكَذِّبونَ بالبَعثِ، ولا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمعونَ في ثَوابِنا: أحضِرْ - يا محمَّدُ- قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نَكْرَهُ مِن التَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، وعَيبِ آلهَتِنا، وذِكرِ البَعثِ والنُّشورِ، أو غيِّرْ هذا القُرآنَ بنَفسِك على الوَجهِ الذي نُحِب.
قال الطبري: يقول: " وإذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتاب الله الذي أنزلناه إليك، يا محمد {بينات}، واضحات، على الحق دالات".
قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} [يونس: ١٥]، أي:" قال الذين لا يخافون الحساب، ولا يرجون الثواب، ولا يؤمنون بيوم البعث والنشور".
قال الطبري:" يقول: قال الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالمعاد إلينا، ولا يصدقون بالبعث، لك".
قال ابن عباس، والكلبي: "يعني: الذين لا يخافون البعث".
قوله تعالى: {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ} [يونس: ١٥]، أي:" ائت بقرآن غير هذا، أو بدِّل هذا القرآن: بأن تجعل الحلال حرامًا، والحرام حلالا والوعد وعيدًا، والوعيد وعدًا، وأن تُسْقط ما فيه مِن عيب آلهتنا وتسفيه أحلامنا".
قال الطبري:" {ائت بقرآن غير هذا} أو غيّره".
قال الزجاج:" أي: إيت بقرآنٍ لَيس فيه ذكرُ البعْث والنُشُور وليس فيه عَيْبُ آلِهَتِنَا..أو {بَدِّلْهُ}، أي: أو بدل منه ذكر البعث والنشور".
قال الواحدي:" أي: بقرآن ليس فيه عيب آلهتنا وذكر البعث والنشور {أَوْ بَدِّلْهُ} أي: تكلم به من ذات نفسك فبدل منه ما نكرهه".
قال أهل العلم:" الفرق بين الإتيان بقرآن غيره وبين تبديله أن الإتيان بغيره قد =

=

يكون معه فأما تبديله فلا يكون إلا برفعه ووضع آخر في مكانه أو في شيء منه، وهذا تعنت وتحكم منهم وإيهام أن الأمر موقوف على ما يرضون به، وليس يرضون بهذا فيريدون غيره".

- قال الماوردي: وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم سألوه الوعد وعيدًا، والوعيد وعدًا، والحلال حرامًا، والحرام حلالًا، قاله ابن جرير الطبري.

الثاني: أنهم سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، قاله ابن عيسى.

الثالث: أنه سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور، قاله الزجاج.

- وقال الجصاص: وَكَانَ سُؤَالُهُمْ لِذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالتَّحَكُّمِ؛ إذْ لَمْ يَجِدُوا سَبَبًا آخَرَ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ مَوْقُوفًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ وَتَحَكُّمِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ عَالِمِينَ بِالْمَصَالِحِ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يَأْتِيَ بِغَيْرِهِ، أَوْ يُبَدِّلَهُ بِقَوْلِهِمْ لَقَالُوا فِي الثَّانِي مِثْلَهُ فِي الْأَوَّلِ وَفِي الثَّالِثِ مِثْلَهُ فِي الثَّانِي فَكَانَ يَصِيرُ دَلَائِلُ اللهِ تَعَالَى تَابِعَةً لِمَقَاصِد السُّفَهَاءِ، وَقَدْ قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يُقْنِعُهُمْ ذَلِكَ مَعَ عَجْزِهِمْ فَالثَّانِي وَالثَّالِثُ مِثْلُهُ.

- قال ابن الجوزي: والفرق بين تبديله والإتيان بغيره، أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيانُ بغيره قد يجوز أن يكون معه.

قوله تعالى: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي} [يونس: ١٥]، أي:" قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغيرّ أو أبدّل شيئًا من قبل نفسي".

قال الكلبي: "ما ينبغي لي أن أغيره من قبل نفسي، ولم أومر به".

قال الزجاج: أي:" إِنَّ الَّذِي أَتَيْتُ به مِنْ عِنْدِ اللهِ لا مِنْ عِنْدِي فأبدله".

قال الطبري:" {قل} لهم، يا محمد {ما يكون لي أن أبدله} من عندي، والتبديل

=

=

الذي سألوه، فيما ذكر، أن يحول آية الوعيد آية وعد، وآية الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما، فأمر الله نبيه ﷺ أن يخبرهم أن ذلك ليس إليه، وأن ذلك إلى من لا يرد حكمه، ولا يتعقب قضاؤه، وإنما هو رسول مبلغ ومأمور متبع".

قال أهل العلم:" معناه ليس لي أن أتلقاه بالتبديل، كما ليس لي أن أتلقاه بالرد. ومعنى التلقاء: جهة مقابلة الشيء، وقد يجعل ظرفًا، فيقال: هو تلقاءه، كما يقال هو حذاءه وإزاءه وقبالته".

قوله تعالى: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [يونس: ١٥]، أي:" وإنما أتبع في كل ما آمركم به وأنهاكم عنه ما ينزله عليَّ ربي ويأمرني به".

قال الطبري:" يقول: قل لهم: ما أتبع في كل ما آمركم به أيها القوم، وأنهاكم عنه، إلا ما ينزله إلي ربي، ويأمرني به".

قال ابن عباس: "يريد ما أخبركم إلا ما أخبرني الله به".

قوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يونس: ١٥]، أي:" إني أخشى من الله -إن خالفت أمره- عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة".

قال الطبري:" يقول: إني أخشى من الله إن خالفت أمره، وغيرت أحكام كتابه، وبدلت وحيه، فعصيته بذلك، عذاب يوم عظيم هوله، وذلك: يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى".

عن مقاتل بن حيان، قوله: {عذاب (يوم) عظيم}، يعني: عذابا".

عن ابن عباس: " {عذاب}، يقول: نكال".

قوله تعالى: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ} [يونس: ١٦]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم، ولا أعلمكم الله به، فاعلموا أنه الحق من الله".

=

=

قال البغوي:" يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن علي. {ولا أدراكم به} أي: ولا أعلمكم الله".

عن قتادة قال: "ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ: {لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به}".

وفي قوله تعالى: {وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ} [يونس: ١٦]، وجوه:

أحدها: معناه: ولا أعلمكم به. قاله ابن عباس.

والثاني: ولا أشعركم به. قاله قتادة.

والثالث: يعني: ولا أنذركم به. قاله شهر بن حوشب.

قرأ البزي عن ابن كثير: «ولأدراكم به»، بالقصر به على الإيجاب، يريد: ولا علمكم به من غير قراءتي عليكم. وقرأ ابن عباس: «ولا أنذرتكم به»، من الإنذار.

قوله تعالى: {فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ} [يونس: ١٦]، أي:" فإنكم تعلمون أنني مكثت فيكم زمنًا طويلا من قبل أن يوحيه إليَّ ربي، ومن قبل أن أتلوه عليكم".

قال البغوي: أي:" حينا وهو أربعون سنة، {من قبله} من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء".

قال الصابوني:" أي: فقد مكثتُ بين أظهركم زمنا طويلًا، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوه عليكم".

عن السدي، قوله: " {لبثت فيكم عمرا من قبله}، قال: لم أتلوا عليكم، ولم أذكره {أفلا تعقلون}؟".

عن قتادة، قوله: " {فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون}، قال: لبث أربعين سنة ضالا ورأى رؤيا النبوة سنتين وأوحي إليه عشر سنين بمكة وعشر سنين بالمدينة وتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنة ﷺ".

=

=

قال الفخر:" أن القوم إنما التمسوا منه ذلك الالتماس، لأجل أنهم اتهموه بأنه هو الذي يأتي بهذا الكتاب من عند نفسه، على سبيل الاختلاق والافتعال، لا على سبيل كونه وحيا من عند الله فلهذا المعنى احتج النبي عليه الصلاة والسلام على فساد هذا الوهم بما ذكره الله تعالى في هذه الآية وتقريره أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتابا ولا تلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء، وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحي والإلهام من الله تعالى، فقوله: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به حكم منه عليه الصلاة والسلام بأن هذا القرآن وحي من عند الله تعالى، لا من اختلافي ولا من افتعالي، قوله: {فقد لبثت فيكم عمرا من قبله}، إشارة إلى الدليل الذي قررناه".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يونس: ١٦]، أي:" أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر؟".

قال البغوي: أي:" أنه ليس من قبلي، ولبث النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. وروى أنس: أنه أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ستين سنة. والأول أشهر وأظهر".

قال الفخر:" يعني: أن مثل هذا الكتاب العظيم إذا جاء على يد من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابا ولم يمارس مجادلة، يعلم بالضرورة أنه لا يكون إلا على

=

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

{فَمَنْ} أَيْ لَا أَحَد {أَظْلَم مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا} بِنِسْبَةِ الشَّرِيك إِلَيْهِ {أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} الْقُرْآن {إِنَّهُ} أَيْ الشَّأْن {لَا يُفْلِح} يُسْعِد {الْمُجْرِمُونَ} الْمُشْرِكُونَ[١].

=

سبيل الوحي والتنزيل وإنكار العلوم الضرورية يقدح في صحة العقل، فلهذا السبب قال: {أفلا تعقلون}".

(١) ذكر سبب النزول.

و عن عكرمة؛ قال: قال النضر -وهو من بني عبد الدار-: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى؛ فأنزل الله -تعالى-: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٩٣٥) من طريق حفص بن عمر العدني ثنا الحكم بن أبان عن عكرمة به. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} [يونس: ١٧].

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما (مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) وتَقَوّل على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظُلما من هذا.

ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال

=

=

هذه المقالة صادقا أو كاذبًا، فلا بد أن الله يَنصب عليه من الأدلة على برِّه أو فُجُوره ما وأظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لعنة الله لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حنْدس الظلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفعاله يَستدّل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العَنْسي.

قال عبد الله بن سلام (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام).

ولما قَدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له من رفع هذه السماء؟ قال: "الله". قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: "الله". قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: "الله". قال: فبالذي رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسَطَح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: "اللهم نعم" ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص.

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه.

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذَوي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين الذين

=

نسبوك فيما جئتهم به من عند ربّك إلى الكذب: أيُّ خلق أشدُّ تعدّيًا، وأوضع لقيله في غير موضعه، ممن اختلق على الله كذبًا، وافترى عليه باطلا {أو كذب} بحججه ورسله وآيات كتابه؟.

قال السعدي: أي: " فلو كنت متقولا لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكني جئتكم بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم".

قال المراغي:" أي: إن شر أنواع الظلم والإجرام في البشر شيئان:

افتراء الكذب على الله، وذلك بما اقترحتموه على الإتيان بقرآن غيره.

التكذيب بآيات الله بما اجترحتموه من السيئات.

وقد نعيت عليكم الثاني منهما، فكيف أرضى لنفسي الأول وهو شر منه، وإن أهم أغراض رسالتي الإصلاح، ولأجله أحتمل المشاق، وأقبل فى سبيله كل إرهاق، فلا فائدة لي في هذا الإجرام".

قال ابن عباس: يريد: "أني لم أفتر على الله ولم أكذب عليه، وأنتم فعلتم ذلك حيث زعمتم أن معه شريكا وعبدتم الأوثان وكذبتم نبيه ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: ١٧]، أي:" إنه لا ينجح مَن كذَّب أنبياء الله ورسله، ولا ينالون الفلاح".

قال الطبري:" يقول: إنه لا ينجح الذين اجترموا الكفر في الدنيا يوم القيامة، إذا لقوا ربّهم، ولا ينالون الفلاح؟.

قال المراغي:" أي: إنه لا يفوز الذين اجترموا الكفر في الدنيا إذا لقوا ربهم ولا ينالون الفلاح".

قال السعدي: أي: " ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح، ما دمتم كذلك".

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨).

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {مَا لَا يَضُرّهُمْ} إنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ {وَلَا يَنْفَعهُمْ} إنْ عَبَدُوهُ وَهُوَ الْأَصْنَام {وَيَقُولُونَ} عَنْهَا {هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْد الله قُلْ} لَهُمْ {أَتُنَبِّئُونَ الله} تُخْبِرُونَهُ {بِمَا لَا يَعْلَم فِي السَّمَاوَات وَلَا فِي الْأَرْض} اسْتِفْهَام إنْكَار إذْ لَوْ كَانَ لَهُ شَرِيك لِعِلْمِهِ إذْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء {سُبْحَانه} تَنْزِيهًا لَهُ {وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} هـ معه[1].

=

(١) قوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} [يونس: ١٨].
أي: ويَعبُدُ المُشرِكونَ مِن دُونِ الله آلهةً مِن الأصنامِ وغَيرِها، لا تَضُرُّهم إن تركوا عِبادتَها، ولا تنفعُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ عَبَدوها، لأنها جمادات لا قدرة لها على ذلك.
- والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع: بطلان عبادتها، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع، وأن يكون مثيبًا على الطاعة ومعاقبًا على المعصية.
كما قال تعالى (ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُون).
وقال تعالى (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم).
وقال سُبحانه (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا
=

=

بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِين).

هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله، ووصف المدعو من دون الله بأربع أوصاف:

الأولى: عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة.

الثانية: أنهم غافلون عن دعائهم، إما لأنهم أموات، أو جماد لا إحساس لهم، أو حي مشغول، أو ملك لا علم له بمن دعاه الثالثة: أنهم يكونون أعداءً لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة: أنهم يبرؤون من عبادتهم وينكرونها.

قال البيضاوي رحمه الله: هذا إنكار أن يكون أحدٌ أضل من المشركين، حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم، فضلًا أن يعلم سرائرهم، ويراعي مصالحهم.

وقال تعالى (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ).

والقطمير: هو اللفافة التي تكون على نواة التمر، فنفى الله عنهم مِلكَ شيء حقير، وهو القطمير، فأنّى لهم مُلك ما فوقه، والله تعالى له الملك كله.

ففي هذه الآيات يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه ـ من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها ـ مما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي:

الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على الاستجابة.

فمتى لم توجد هذه الشروط تامّة بطلت دعوته، فكيف إذا عدمت بالكلية.

فنفى عنهم الملك بقوله (ما يملكون من قطمير) [القطمير: اللفافة التي تكون على

=

=

نواة التمر].

أي لا يملكون من السموات والأرض شيئًا، ولا بمقدار هذا القطمير.

ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) يعني الآلهة التي تدعونها لا يسمعون دعاءكم لأنهم أموات، أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له، أو جماد.

ولأنه قد يقول المشرك: هذا في الأصنام، أما الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون.

فنفى سبحانه ذلك بقوله (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أي: لا يقدرون على ما تطلبونه منكم

وقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) قال ابن كثير: يتبرؤون منكم.

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُون).

- بين الله تعالى في هذه الآية صفات هؤلاء المعبودين من دون الله، وهي أربعة:

١. أنهم لا يخلقون شيئًا.

٢. أنهم مخلوقون مربوبون.

٣. أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا.

٤. أنهم لا ينصرون أنفسهم.

وقال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ).

- يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين على وجه التحدي: اطلبوا من آلهتكم التي زعمتم أنها تنفعكم وتكشف الضر عنكم، فإنهم لا يقدرون على ذلك.

=

=

لأنه لا بد من توفر أربعة شروط في المدعو حتى يقدر على إجابة من دعاه، وهم:
الشرط الأول: الملك.

وقد نفاه الله بقوله (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا الأرض).

الشرط الثاني: إذا لم يكن مالكًا فيكون شريكًا للمالك.

وقد نفاه الله بقوله (ومالهم فيهما من شرك).

الشرط الثالث: إذا لم يكن مالكًا ولا شريكًا للمالك، فيكون عونًا ووزيرًا.

وقد نفاه الله بقوله (وماله منهم من ظهير).

الشرط الرابع: إذا لم يكن مالكًا ولا شريكًا ولا عونًا، فيكون شفيعًا.

وقد نفى الله الشفاعة عنده إلا بإذنه.

فبنفي هذه الأمور بطلت دعوة غير الله، إذ ليس عند غيره من النفع والضر ما يوجب قصده بشيء من العبادة.

كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون. ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياتًا ولا نشورًا).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ويعبُد هؤلاء المشركون الذين وصفت لك، يا محمد صفتهم، من دون الله الذي لا يضرهم شيئًا ولا ينفعهم، في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك هو الآلهة والأصنام التي كانوا يعبدونها".

عن مجاهد قال: "الأوثان".

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ} [يونس: ١٨]، أي:" ويقولون: إنما نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله".

والشفعاء: جمع شفيع، وهو من يشفع لغيره في دفع ضرر أو جلب نفع.

أي: أنهم يدينون بالعبادة لأصنام لا تضرهم إن تركوا عبادتها، ولا تنفعهم إن عبدوها، فإذا ما طلب منهم أن يجعلوا عبادتهم للّه وحده قالوا: إننا نعبد هذه

=

=

الأصنام لتكون شفيعة لنا عند اللّه في دنيانا، بأن نتوسل إليه بها في إصلاح معاشنا، وفي آخرتنا إن كان هناك ثواب وعقاب يوم القيامة.

قال الطبري:" يعني: أنهم كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله".

قال السعدي:" أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم".

عن عكرمة قال: "قال النضر بن الحارث، إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى قال فأنزل الله: {ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله}".

قوله تعالى: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [يونس: ١٨]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: أتخبرون الله تعالى بشيء لا يعلمه مِن أمر هؤلاء الشفعاء في السموات أو في الأرض؟ فإنه لو كان فيهما شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم".

قال الطبري:" قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وآله: {قل} لهم: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ وذلك أن الآلهة لا تشفع لهم عند الله في السموات ولا في الأرض. وكان المشركون يزعمون أنها تشفع لهم عند الله. فقال الله لنبيه صلى الله عليه وآله: قل لهم: أتخبرون الله أن ما لا يشفع في السموات ولا في الأرض يشفع لكم فيهما؟ وذلك باطلٌ لا تعلم حقيقته وصحته، بل يعلم الله أن ذلك خلاف ما تقولون، وأنها لا تشفع لأحد، ولا تنفع ولا تضر".

قال السعدي:" أي: الله تعالى هو العالم، الذي أحاط علما بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه، أفأنتم-يا معشر المشركين- تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟ أفتخبرونه بأمر خفي عليه، وعلمتوه؟ أأنتم أعلم أم الله؟ فهل يوجد قول أبطل من هذا القول، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟ فليكتف العاقل بمجرد

=

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩).

{وَمَا كَانَ النَّاس إلَّا أُمَّة وَاحِدَة} عَلَى دِين وَاحِد وَهُوَ الْإِسْلَام مِنْ لَدُنْ آدَم إلَى نُوح وَقِيلَ مِنْ عَهْد إبْرَاهِيم إلَى عَمْرو بْن لُحَيّ {فَاخْتَلَفُوا} بِأَنْ ثَبَتَ بَعْض وَكَفَرَ بَعْض {وَلَوْلَا كَلِمَة سَبَقَتْ مِنْ رَبّك} بِتَأْخِيرِ الْجَزَاء إلَى يَوْم الْقِيَامَة {لَقُضِيَ بَيْنهمْ} أَيْ النَّاس فِي الدُّنْيَا {فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} مِنْ الدِّين بِتَعْذِيبِ

=

تصور هذا القول، فإنه يجزم بفساده وبطلانه".

عن السدي: " {قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض}: أن له شريكا أم بظاهر من القول تقولونه أم تجدونه في القرآن أن له شريكا".

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس: ١٨]، أي:" فالله تعالى منزَّه عما يفعله هؤلاء المشركون من إشراكهم في عبادته ما لا يضر ولا ينفع".

قال الطبري:" يقول: تنزيهًا لله وعلوًّا عما يفعله هؤلاء المشركون، من إشراكهم في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، وافترائهم عليه الكذب".

قال السعدي:" أي: تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه، فإنه باطل عقلا وشرعا وفطرة. {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}".

عن السدي: {وتعالى عما يشركون}، يقول: عما أشرك المشركون".

عن مجاهد: {وتعالى عما يشركون}، قال: هو الانكفاف انكف نفسه يقول: عظم نفسه وأنكفته الملائكة وما سبح له".

عن أبي مالك: " {وتعالى عما يشركون}، قال: هذه لقوم محمد ﷺ".

الْكَافِرِينَ[١].

(١) قوله تعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} [يونس: ١٩]، أي:" كان الناس على دين واحد وهو الإسلام، ثم اختلفوا بعد ذلك، فكفر بعضهم، وثبت بعضهم على الحق".

المراد بالناس: الجنس البشرى كله في جملته، فإنهم كانوا أمة واحدة. ثم كثروا وتفرقوا وصاروا شعوبا وقبائل.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالناس هنا: العرب خاصة، فإنهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم، إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحى الذي ابتدع لهم عبادة الأصنام.

قال ابن الجوزي: شرحنا هذا في سورة [البقرة: ٢١٣] وأحسن الأقوال أنهم كانوا على دين واحد موحِّدين، فاختلفوا وعبدوا الأصنام، فكان أول من بعث إليهم نوح - عليه السلام -.

قال تعالى في سورة البقرة (كان النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ).

قوله (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي: كان الناس على الإيمان والفطرة، وهذا بين آدم ونوح.

- فالمراد بالناس هنا: الذين هم بين آدم ونوح، فسار هؤلاء على التوحيد من عهد آدم إلى أن انتشر الشرك في عهد نوح، وهذا قول أكثر المحققين.

قال ابن عباس: كان بين نوح وآدم عشرون قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

- قال ابن الجوزي: قوله تعالى (كان الناس أمةً واحدةً) في المراد ب «الناس» هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: جميع بني آدم، وهو قول الجمهور.

=

=

قال ابن عاشور: والناس: اسم جمع للبشر، وتعريفه للاستغراق.

والأمة: الجماعة العظيمة التي لها حال واحد في شيء مَّا.

والمراد هنا أمة واحدة في الدين.

والسياق يدل على أن المراد أنها واحدة في الدين الحق وهو التوحيد لأن الحق هو الذي يمكن اتفاق البشر عليه لأنه ناشئ عن سلامة الاعتقاد من الضلال والتحْريف، والإنسان لما أنشئ أنشئ على فطرة كاملة بعيدة عن التكلف.

قال الطبري:" وما كان الناس إلا أهل دين واحد وملة واحدة فاختلفوا في دينهم، فافترقت بهم السبل في ذلك".

قال البغوي:" أي: على الإسلام... {فاختلفوا} وتفرقوا إلى مؤمن وكافر".

قال السعدي:" متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه".

قال الزمخشري:" {وما كان الناس إلا أمة واحدة}، حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم، وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل. وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا".

عن مجاهد:" {كان الناس أمة} قال: آدم". وروي عن الثوري نحو ذلك.

وعن مجاهد-أيضا- قوله: " {وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا}، حين قتل أحد ابني آدم أخاه".

عن أبي بن كعب في قول الله: " {فاختلفوا}.

ما بين ضال ومهتد، فبعث اللّه إليهم رسله، ليبشروا المهتدين بجزيل الثواب، ولينذروا الضالين بسوء العقاب.

عن قتادة: " {فاختلفوا} فيه قال: ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق ثم اختلفوا بعد ذلك فبعث الله نوحا وكان أول

=

=

رسول أرسله الله إلى أهل الأرض وبعث عند الاختلاف من الناس وترك الحق، فبعث الله رسله وأنزل كتابه ليحتج به على خلقه".

قوله تعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: ١٩]، أي:" ولولا كلمة سبقت من الله بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقُضِيَ بينهم: بأن يُهْلك أهل الباطل منهم، وينجي أهل الحق".

قال الطبري:" يقول: ولولا أنه سبق من الله أنه لا يهلك قوما إلا بعد انقضاء آجالهم، لقضي بينهم بأن يُهلِك أهل الباطل منهم، وينجي أهل الحق.

قال الزمخشري:" {ولولا كلمة سبقت من ربك}، وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة، {لقضي بينهم} عاجلا فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، و {سبق} كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف، وتلك دار ثواب وعقاب".

عن السدي، قوله: " {ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم}، يقول: كان الناس أهل دين واحد، على دين آدم فكفروا فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضي بينهم".

قال البغوي:" بأن جعل لكل أمة أجلا، {لقضي بينهم} بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلا بينهم، {فيما فيه يختلفون}".

وقال الحسن: " {ولولا كلمة سبقت من ربك}، مضت في حكمه أنه: لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة، لقضي بينهم في الدنيا فأدخل المؤمن الجنة والكافر النار، ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة".

وقال الكلبي: "هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا".

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠).

{وَيَقُولُونَ} أَيْ أَهْل مَكَّة {لَوْلَا} هَلَّا {أُنْزِلَ عَلَيْهِ} عَلَى مُحَمَّد ﷺ {آيَة مِنْ رَبّه} كَمَا كَانَ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْ النَّاقَة وَالْعَصَا وَالْيَد {فَقُلْ} لَهُمْ {إِنَّمَا الْغَيْب} ما غاب عن العباد أي أمره {لله} وَمِنْهُ الْآيَات فَلَا يَأْتِي بِهَا إِلَّا هُوَ وَإِنَّمَا عَلَيَّ التَّبْلِيغ {فَانْتَظِرُوا} الْعَذَاب إنْ لَمْ تؤمنوا {إني معكم من المنتظرين}[1].

(١) قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [يونس: ٢٠].

أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: "لولا أنزل على محمد آية من ربه"، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهبا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله.

ولقد حكى القرآن - في آيات أخرى كثيرة - المطالب المتعنتة التي طلبها المشركون من النبي ﷺ والتي تدل على عنادهم وجحودهم.

ومن ذلك قوله تعالى (وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتابًا نَقْرَؤُهُ. قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا).

كما حكى أيضًا سبحانه أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا، لأنهم معاندون جاحدون فقال تعالى إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيم).

وقال سبحانه: (وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتابًا فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ =

=
كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ).
يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيَّر رسول الله - عليه السلام - بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه.
- ومرادهم بالآية التي طلبوها: آية كونية سوى القرآن الكريم، بأن تكون معه ﷺ ناقة كناقة صالح - عليه السلام - أو تكون معه عصا كعصا موسى - عليه السلام - وكأنهم لا يعتبرون القرآن آية كبرى، ومعجزة عظمى على صدقه ﷺ.
ومرادهم بإنزالها عليه: ظهورها على يديه ﷺ حتى يروا ذلك بأعينهم.
ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد والثبت، قال تعالى (وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ الله).
قال الطبري:" ويقول هؤلاء المشركون: هلا أنزل على محمد آيةٌ من ربه، يقول: عَلَمٌ ودليلٌ نعلم به أن محمدًا محق فيما يقول؟".
قال البغوي:" يعني: أهل مكة، {لولا أنزل عليه} أي: على محمد ﷺ {آية من ربه} على ما نقترحه".
قوله تعالى: {فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ} [يونس: ٢٠]، أي:" فقل لهم -أيها الرسول-: لا يعلم الغيب أحد إلا الله، فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل".
قال الطبري:" أي: لا يُعلم أحدٌ يفعل ذلك إلا هو جل ثناؤه، لأنه لا يعلم الغيب- وهو السرُّ والخفيّ من الأمور- إلا الله".
قال البغوي:" يعني: قل إنما سألتموني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لم لم يفعل ذلك ولا يعلمه إلا هو".
=

=

قال الصابوني: أي:" قل لهم أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات إِلا هو وإِنما أنا مبلّغ".

قال الحسن: " الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قوله تعالى: {فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} [يونس: ٢٠]، أي:" فانتظروا – أيها القوم– قضاء الله بيننا وبينكم بتعجيل عقوبته للمبطل منا، ونصرة صاحب الحق، إني منتظر ذلك".

قال الطبري:" فانتظروا أيها القوم، قضاءَ الله بيننا، بتعجيل عقوبته للمبطل منا، وإظهاره المحقَّ عليه، إني معكم ممن ينتظر ذلك. ففعل ذلك جل ثناؤه فقضى بينهم وبينه بأن قتلهم يوم بدرٍ بالسيف.

قال البغوي: أي:" {فانتظروا} نزولها، {إني معكم من المنتظرين}، وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحق على المبطل".

قال السعدي:" أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة".

عن الربيع، في قوله: " {فانتظروا إني معكم من المنتظرين}، قال: خوفهم عذابه وعقوبته ونقمته".

هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا.

ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتثبّتا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد.

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ).

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

=

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١).

{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاس} أَيْ كُفَّار مَكَّة {رَحْمَة} مَطَرًا وَخِصْبًا {مِنْ بَعْد ضَرَّاء} بُؤْس وَجَدْب {مَسَّتْهُمْ إذَا لَهُمْ مَكْر فِي آيَاتنَا} بِالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيب {قُلْ} لَهُمْ {الله أَسْرَع مَكْرًا} مُجَازَاة {إنَّ رُسُلنَا} الْحَفَظَة {يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} بِالتَّاءِ والياء[1].

=

شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ).

- والجملة الكريمة تهديد لهم على تعنتهم وجهلهم، وتهوينهم من شأن القرآن الكريم، مع أنه أصدق معجزة للرسول ﷺ وأعظمها.

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ} [يونس: ٢١].

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك.

قال السعدي:... كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.

- أسند إذاقته الرحمة إلى ضمير الجلالة، وأسند المساس إلى الضراء، رعاية للأدب مع اللّه تعالى، لأنه وإن كان كل شيء من عنده، إلا أن الأدب معه سبحانه يقتضى إسناد الخير إليه والشر إلى غيره كما في قوله تعالى: وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وفي الحديث: «اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك».

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإذا رزقنا المشركين بالله فرجًا بعد كرب، ورخاء بعد شدّة أصابتهم".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ} [يونس: ٢١]، أربعة أوجه:

أحدها: رخاء بعد شدة.

الثاني: عافية بعد سقم.

الثالث: خصبًا بعد جدب، وهذا قول الضحاك.

الرابع: إسلامًا بعد كفر وهو المنافق، وهذا معنى قول الحسن.

عن الحسن:" {وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم} ـ قال: ذاك المنافق".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك".

قوله تعالى: {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} [يونس: ٢١]، أي:" إذا هم يكذّبون، ويستهزئون بآيات الله، فيسعون بالباطل، ليبطلوا به الحق".

كما قال (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ).

- وسمى سبحانه إنكارهم لآياته واستهزاءهم بها مكرًا، لأنهم كانوا كثيرا ما يتجمعون سرا، ليتشاوروا في المؤامرات التي يعرقلون بها سير الدعوة الإسلامية، وفي الشبهات التي يوجهونها إلى النبي ﷺ.

(قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) أي: أشد استدراجًا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه.

فالمكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة.

وفي قوله تعالى: {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} [يونس: ٢١]، ثلاثة وجوه:

=

=

أحدها: أن المكر ها هنا الكفر والجحود، قاله ابن بحر.

الثاني: أنه الاستهزاء والتكذيب، قاله مجاهد.

والثالث: أن المكر -ها هنا- النفاق لأنه يظهر الإيمان ويبطن الكفر. أفاده الماوردي.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء - مطر - أصابهم من الليل ثم قال: "هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب".

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} [يونس: ٢١]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين المستهزئين: الله أسرع مكرًا واستدراجًا وعقوبة لكم".

قال الماوردي:" يعني: أسرع جزاء على المكر".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {قل} لهؤلاء المشركين المستهزئين من حججنا وأدلتنا، يا محمد {الله أسرع مكرًا}، أي: أسرع مِحَالا بكم، واستدراجًا لكم وعقوبةً، منكم، من المكر في آيات الله".

قال ابن كثير:" أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه، ثم يعرضون على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل والنقير والقِطْمير".

قوله تعالى: {إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} [يونس: ٢١].

أي: والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه، ثم يعرضون على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل والنقير والقِطْمير.

=

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢).

{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ} وَفِي قِرَاءَة يَنْشُركُمْ {فِي الْبَرّ وَالْبَحْر حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْك} السُّفُن {وَجَرَيْنَ بِهِمْ} فِيهِ الْتِفَات عَنْ الْخِطَاب {بِرِيحٍ طَيِّبَة} لَيِّنَة {وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيح عَاصِف} شَدِيدَة الْهُبُوب تَكْسِر كُلّ شَيْء {وَجَاءَهُمْ الموج من كل مكان وظنوا أنهم أُحِيطَ بِهِمْ} أَيْ أُهْلِكُوا {دَعَوْا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين} الدُّعَاء {لَئِنْ} لَام قَسَم {أَنْجَيْتنَا مِنْ هَذِهِ} الْأَهْوَال {لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ} الْمُوَحِّدِينَ.

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣).

{فَلَمَّا أَنَجَاهُمْ إذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْض بغير الحق} بالشرك {يأيها النَّاس

=

قال الطبري:" يقول: إن حفظتنا الذين نرسلهم إليكم، أيها الناس، يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا".

عن سفيان، قال: "كل «مكر» في القرآن فهو عمل".

(تنبيه) قول المصنف ({الله أَسْرَع مَكْرًا} أي: مُجَازَاة) هو تأويل لصفة المكر، وقد تقدم القول في صفة المكر والخداع والإسهزاء تحت الآية رقم (١٥) من سورة البقرة.

إِنَّمَا بَغْيكُمْ} ظُلْمكُمْ {عَلَى أَنْفُسكُمْ} لِأَنَّ إِثْمه عَلَيْهَا هُوَ {مَتَاع الْحَيَاة الدُّنْيَا} تُمَتَّعُونَ فِيهَا قَلِيلًا {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعكُمْ} بَعْد الْمَوْت {فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} فَنُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ وَفِي قِرَاءَة بِنَصْبِ مَتَاع أَيْ تَتَمَتَّعُونَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [يونس: ٢٢]، أي:"هو سبحانه الذي يسيركم بقدرته ورحمته في البر والبحر، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير، أو ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرهما مما تستعملونه في سفركم، وكل ذلك من أجل مصلحتكم ومنفعتكم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الله الذي يسيركم، أيها الناس، في البر على الظهر وفي البحر في الفلك".

قال ابن كثير:" أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته".

قال الضحاك:" البر: بادية الأعراب، والبحر، الأمصار والقرى".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا} [يونس: ٢٢]، أي:" حتى إذا كنتم في البحر على ظهور هذه السفن، وجرين بهم بالريح الليِّنة الطرية التي تسيِّر السفن، وفرح الركاب بتلك الريح الطيبة".

قال الطبري:" {حتى إذا كنتم في الفلك}، وهي السفن، وجرت الفلك بالناس {بريح طيبة}، في البحر، وفرح ركبان الفلك بالريح الطيبة التي يسيرون بها".

قال ابن كثير:" {وَفَرِحُوا بِهَا}، أي: بسرعة سيرهم رافقين".

قال ابن زيد:" فعد الحديث عنهم فأول شيء كنتم في الفلك، وجرين بهؤلاء لا يستطيع يقول: جرين بكم وهو يحدث قوما آخرين ثم ذكر هذا لتجمعهم وغيرهم وجرين بهم هؤلاء وغيرهم من الخلق بريح طيبة فقرأ حتى بلغ مخلصين له الدين".

قوله تعالى: {جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ} [يونس: ٢٢]، أي:" وفجأةً جاءتها الريح =

=

الشديدة العاصفة المدمّرة".

قال الطبري:" يقول: جاءت الفلك ريحٌ عاصف، وهي الشديدة".

قال ابن كثير:" فبينما هم كذلك إذ {جَاءَتْهَا}، أي: تلك السفن {رِيحٌ عَاصِفٌ} أي: شديدة".

عن عبد الله بن شداد بن المناد، قال:"الريح من روح الله. فإذا رأيتموها فاسألوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها".

والعرب تقول: " ريح عاصف، وعاصفة"، و "وقد أعصفت الريح، وعَصَفت " و"أعصفت"، في بني أسد، فيما ذكر، قال بعض بني دُبَيْر:

حَتَّى إِذَا أَعْصَفَتْ رِيحٌ مُزَعْزِعَةٌ فِيهَا قِطَارٌ وَرَعْدٌ صَوْتُهُ زَجِلُ.

قوله تعالى: {وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [يونس: ٢٢]، أي:" وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة".

قال الطبري:" وجاء ركبانَ السفينة الموجُ من كل".

قال ابن كثير:" أي: اغتلم البحر عليهم".

قوله تعالى: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ} [يونس: ٢٢]، أي:" وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم".

قال الطبري:" يقول: وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق".

قال ابن كثير:" أي: هلكوا".

عن مجاهد قال: "ما كان من «ظن» في القرآن فهو يقين".

قوله تعالى: {دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [يونس: ٢٢]، أي:" أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون".

قال الطبري:" يقول: أخلصوا الدعاء لله هنالك، دون أوثانهم وآلهتهم، وكان مفزعهم حينئذٍ إلى الله دونها".

=

=

قال ابن كثير:" أي: لا يدعون معه صنما ولا وثنا، بل يفردونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء: ٦٧]".

قال القرطبي:" أي: دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون، وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه، وإن كان كافرا، لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب... وقال بعض المفسرين: إنهم قالوا في دعائهم: «أهيا شراهيا»، أي: يا حي يا قيوم. وهي لغة العجم".

عن قتادة:" {دعوا الله مخلصين له الدين}، قال: إذا مسهم الضر في البحر أخلصوا لله الدعاء".

عن أبي عبيدة في قوله: " {مخلصين له الدين}، قال: هنا شراها، تفسيره: يا حي يا قيوم".

عن سعيد بن جبير:" {مخلصين له الدين}، قال: إذا قلت لا إله إلا الله فقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين".

عن ابن عباس قال: "الإخلاص هكذا، وأشار أبو خالد بإصبعه السبابة".

قال أبو حيان:" معنى «الإخلاص»: إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام ولا غيرها، قال معناه: ابن عباس وابن زيد. وقال الحسن: مخلصين لا إخلاص إيمان، لكن لأجل العلم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله، فيكون ذلك جاريا مجرى الإيمان الاضطراري انتهى. والاعتراف بالله مركوز في طبائع العالم، وهم مجبولون على أنه المتصرف في الأشياء، ولذلك إذا حقت الحقائق رجعوا إليه كلهم مؤمنهم وكافرهم".

قال الالوسي:" وظاهر الآية أنه ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه بل

=

=

تخصيص العبادة به تعالى أيضًا لأنهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين لـه الـدين، وأيًا ما كان فالآية دالة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال.

وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم في بر أو بحر دعوا من لا يضر ولا ينفع ولا يرى ولا يسمع، فمنهم من يدعو الخضر وإلياس، ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة، ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشائخ الأمة، ولا ترى فيهم أحدًا يخص مولاه بتضرعه ودعاه، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال، فبالله تعالى عليك قل لي أي الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلًا، وأي الداعيين أقوم قيلًا، وإلى الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت أمواج الضلالة، وخرقت سفينة الشريعة، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة، وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف، ومالت دون النهي عن المنكر صنوف الحتوف".

قوله تعالى: {لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس: ٢٢]، أي:" لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك، والعاملين بطاعتك ومرضاتك".

قال ابن كثير:" أي: لا نشرك بك أحدا، ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا".

عن ابن عباس قال:" إذا ضل الرجل الطريق دعا الله مخلصا لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين".

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟

قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح".

=

=

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [يونس: ٢٣]، أي:" فلما خلّصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنُّوا في البحر أنهم أحيط بهم، من الجهد الذي كانوا فيه، أخلفوا الله ما وعدُوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزوا فيها إلى غير ما أذن الله لهم فيه، من الكفر به، والعمل بمعاصيه على ظهرها".

عن مجاهد قوله: " {يبغون}، قال: يلعبون".

قال ابن القيم: التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه؛ فأما اعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون، وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ولذلك فزع اليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع اليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة، ولما فزع اليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل، هذه سنة الله في عباده، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يلقى في الكرب العظام الا الشرك ولا ينجى منها الا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها وبالله التوفيق.

- الاخلاص سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب.

كما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فسبب نجاتهم دعوتهم لله تعالى بخالص أعمالهم، فكان كل واحد منهم يقول (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ...).

- وهو سبب يصرف الفتنة عن القلب.

=

=

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (١/ ٦٠): فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله ﷻ.

ويوسف - عليه السلام - ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ).

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١): فإن قوة إخلاص يوسف - عليه السلام - وخشيته من الله ﷻ كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها.

- وهو أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس.

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى: لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له.

- وهو سبب للنجاة من النار.

قال ﷺ (فإن الله حرم على النار يبتغي بذلك وجه الله).

- قال ابن رجب رحمه الله: ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر: أن الكربَ إذا اشتد وعظُمَ وتناهى، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).

قال الفضيل: لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا، لأعطاك مولاك كل ما تريد. (جامع العلوم والحكم).

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس: ٢٣]، أي:" يا أيها الناس إنما وَبالُ بغيكم راجع على أنفسكم".

قال الطبري:" يقول الله: يا أيها الناس، إنما اعتداؤكم الذي تعتدونه على أنفسكم،

=

=

وإياها تظلمون".

قال ابن كثير:" أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يَدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم» ".

عن ابن عباس:" {يا أيها الناس}، أي: الفريقين جميعا الكفار والمنافقين".

عن زيد بن أسلم:"أن النبي ﷺ قال: لا يؤخر الله عقوبة البغي فإن الله قال: إنما بغيكم على أنفسكم".

يونس عن الزهري قال: "بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا تبغ ولا تعن باغيا فإن الله يقول: يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم".

قوله تعالى: {مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس: ٢٣]، أي:" لكم متاع في الحياة الدنيا الزائلة".

قال الطبري:" وهذا الذي أنتم فيه بلاغ تبلغون به في عاجل دنياكم".

قال ابن كثير:" أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة".

قال الصابوني: أي:" تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية".

عن الأعمش: " {متاع الحياة الدنيا}، قال: مثل زاد الراعي".

عن قتادة: " {متاع الحياة الدنيا}، قال: هي متاع متروكة أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ} [يونس: ٢٣]، أي:" ثم إلينا مصيركم ومرجعكم".

عن أبي العالية قال: "يرجعون إليه بعد الحياة".

=

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤).

{إِنَّمَا مَثَل} صِفَة {الْحَيَاة الدُّنْيَا كَمَاءٍ} مَطَر {أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ} بِسَبَبِهِ {نَبَات الْأَرْض} وَاشْتَبَكَ بَعْضه بِبَعْضٍ {مِمَّا يَأْكُل النَّاس} مِنْ الْبُرّ وَالشَّعِير وَغَيْرهمَا {وَالْأَنْعَام} مِنْ الْكَلَأ {حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْض زُخْرُفهَا} بَهْجَتهَا مِنْ النَّبَات {وَازَّيَّنَتْ} بِالزَّهْرِ وَأَصْله تَزَيَّنَتْ أُبْدِلَتْ التَّاء زَايًا وَأُدْغِمَتْ

=

قال الطبري:" يقول: ثم إلينا بعد ذلك معادكم ومصيركم، وذلك بعد الممات".

قال ابن كثير:" أي: مصيركم ومآلكم".

قوله تعالى: {فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس: ٢٣]، أي:" فنخبركم بجميع أعمالكم، ونحاسبكم عليها".

قال الطبري:" يقول: فنخبركم يوم القيامة بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله، ونجازيكم على أعمالكم التي سلفت منكم في الدنيا".

قال ابن كثير:" أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه".

عن الربيع بن أنس قال: "يبعثهم الله من بعد الموت فيبعث أولياءه وأعداءه فينبئهم بأعمالهم".

قال الصابوني:" والآية الكريمة تمثيلٌ لطبيعة الإنسان الجحود، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدة، فإذا نجّاه الله من الضيق، وكشف عنه الكرب، رجع إلى الكفر والعصيان، وتمادى في الشرِّ والطغيان".

فِي الزَّاي {وَظَنَّ أَهْلهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا} مُتَمَكِّنُونَ مِنْ تَحْصِيل ثِمَارهَا {أَتَاهَا أَمْرنَا} قَضَاؤُنَا أَوْ عَذَابنَا {لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا} أَيْ زَرْعهَا {حَصِيدًا} كَالْمَحْصُودِ بِالْمَنَاجِلِ {كَأَنْ} مُخَفَّفَة أَيْ كَأَنَّهَا {لَمْ تَغْنَ} تَكُنْ {بِالْأَمْسِ كذلك نفصل} نبين {الآيات لقوم يتفكرون}(١).

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ} [يونس: ٢٤]، أي:" إنما مثل الحياة الدنيا في فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها، وما تتفاخرون به فيها من زينة وأموال، كمثل مطر أنزلناه من السماء إلى الأرض".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زينتها وأموالها، مع ما قد وُكِّلَ بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت، كمطر أرسلناه من السماء إلى الأرض".

عن ابن عباس قال: "ضرب الله مثلا حسنا، وكل أمثاله حسن، وهو مثل خص به الله المؤمن والكافر فيما أوتيا".

عن شهر بن حوشب:"أن أبا هريرة قال: ما نزل قطر إلا بميزان".

عن عكرمة قال: ينزل الله الماء من السماء السابعة فتسع القطرة منه على السحابة مثل البعير".

- قال ابن الجوزي: هذا مثل ضربه الله للدنيا الفانية.

- **قال السعدي**: هذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

قوله تعالى: {فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ} [يونس: ٢٤]، أي:"فنبتت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض مما يقتات به الناس من =

=

الثمار، وما تأكله الحيوانات من النبات".

قال الطبري:" يقول: فنبت بذلك المطر أنواعٌ من النبات، مختلطٌ بعضها ببعض".

قال عطاء:" أما اختلط به نبات الأرض فاختلط فنبت بالماء من كل لون".

قال ابن عباس:" اختلط فنبت بالماء كل لون مما يأكل الناس، كالحنطة والشعير وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار، وما يأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعي".

عن السدي: قوله {الأنعام}، قال: "والأنعام: الراعية".

قال ابن كثير:" ضرب تبارك و تعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أب وقَضْب وغير ذلك".

قال الزمخشري:" هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعد ما التف ونكائف، وزين الأرض بخضرته ورفيفه «٤» فاختلط به فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ} [يونس: ٢٤]، أي:" حتى إذا ظهر حُسْنُ هذه الأرض وبهاؤها".

قال الطبري:" يعني: ظهر حسنها وبهاؤها وتزينت".

قال ابن كثير:" أي: زينتها الفانية، {وَازَّيَّنَتْ} أي: حَسُنت بما خرج من رُباها من زهور نَضِرة مختلفة الأشكال والألوان".

قال الزمخشري:" جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين.

=

=

وأصل ازينت تزينت، فأدغم".

عن مجاهد قال: "ما كنت أدري ما الزخرف حتى قرأت قراءة عبد الله: «أو يكون لك بيت من ذهب»".

عن قتادة قوله:" {حتى إذا أخذت الأرض زخرفها}، الآية،: أي والله، لئن تشبَّثَ بالدنيا وحَدِب عليها، لتوشك الدنيا أن تلفظه وتقضي منه".

وعن قتادة: -أيضا-:" {وازينت}، قال: أنبتت وحسُنَت".

وأصل " «ازينت»: تزينت، فأدغم، وبالأصل قرأ عبد الله. وقرئ: وأزينت، أى أفعلت، من غير إعلال الفعل كأغيلت أى صارت ذات زينة. وازيانت، بوزن ابياضت".

قوله تعالى: {وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا} [يونس: ٢٤]، أي:" وظنَّ أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها، محصّلون لثمرتها وغلّتها".

قال الطبري:" {وظن} أهل الأرض أنهم قادرون على ما أنبتت".

قال الزمخشري: أي:" متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها، رافعون لغلتها".

قال ابن كثير:" {وَظَنَّ أَهْلُهَا} الذين زرعوها وغرسوها، {أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا} أي: على جَذاذها وحصادها".

عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: "سمعت مروان يقرأ على المنبر هذه الآية: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيُهْلِكَهَا إِلا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا}، قال: قد قرأتها، وليست في المصحف. فقال عباس بن عبد الله بن العباس: هكذا يقرؤها ابن عباس. فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني أبيُّ بن كعب".

قال السيد أحمد محمد شاكر:" وهذا الخبر كما ترى، هالك الإسناد من نواحيه. والقراءة التي فيه إذا صحت من غير هذا الطريق الهالك، فهي قراءة تفسير، كما هو

=

=

معروف، وكما أشرنا إليه مرارًا في أشباهها. ولا يجل لقارئ أنة يقرأ بمثلها على أنها نص التلاوة، لشذوذها، ولمخالفتها رسم المصحف بالزيادة، بغير حجة يجب التسليم لها".

قوله تعالى: {أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا} [يونس: ٢٤]، أي:" جاءها أمرنا وقضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات، والزينة إما ليلا وإما نهارًا".

قال الطبري:" يقول: جاء الأرض قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات - إما ليلا وإما نهارًا-".

قال السمعاني:" أي: عذابنا ليلا أو نهارا".

قال ابن كثير:" فبيناهم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح بادرة".

قال الزمخشري:" وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم".

قال الألوسي:" أي: في ليل أو في نهار، ولعل المراد الإشارة إلى أنه لا فرق في إتيان العذاب بين زمن غفلتهم وزمن يقظتهم إذ لا يمنع منه مانع ولا يدفع عنه دافع".

قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا} [يونس: ٢٤]، أي:" فجعلنا هذه النباتات والأشجار محصودة مقطوعة لا شيء فيها".

قال الطبري:" يقول: فجعلنا ما عليها مقطوعة مقلوعة من أصولها".

قال الألوسي:" أي: فجعلنا نباتها شبيها بما حصد من أصله".

قال ابن كثير:" أي: يبسا بعد [تلك] الخضرة والنضارة". و قال ابن كثير:" فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها".

قال السمعاني:" الحصيد: المحصود، والمعنى ها هنا: هو الاستئصال بالعذاب".

وفي قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا} [يونس: ٢٤]، وجهان:

أحدهما: ذاهبًا.

=

=

الثاني: يابسًا.

قوله تعالى: {كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ} [يونس: ٢٤]، أي:" كأن لم تكن تلك الزروع والنباتات قائمة قبل ذلك على وجه الأرض، فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهَون به من دنياكم وزخارفها فيفنيها الله ويهلكها".

قال ابن كثير:" أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك... وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء في الحديث: يؤتى بأنعم أهل الدنيا، فيُغْمَس في النار غَمْسَة ثم يقال له: هل رأيت خيرًا قط؟ [هل مر بك نعيم قط؟] فيقول: لا. ويؤتى بأشد الناس عذابًا في الدنيا، فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا» ".

قال الطبري:" يقول: كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتةً قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس، وأصله: من: غَنِيَ فلان بمكان كذا، يَغْنَى به، إذا أقام به، كما قال النابغة الذبياني:

غَنِيَتْ بِذَلِكَ إِذْ هُمُ لَكَ جِيرَةٌ … مِنْهَا بِعَطْفِ رِسَالَةٍ وَتَوَدُّد

يقول: فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرُنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها".

عن السدي:" {كأن لم تغن بالأمس}، بزينتها".

قال الزمخشري:" «الأمس» مثل في الوقت القريب، كأنه قيل: كأن لم تغن آنفا".

قال أبو حيان:" وليس «الأمس» عبارة عن مطلق الوقت، ولا هو مرادف كقوله: آنفا، لأن آنفا معناه الساعة، والمعنى: كأن لم يكن لها وجود فيما مضى من الزمان. ولولا أن قائلا قال في غير القرآن كأن لم يكن لها وجود الساعة لم يصح هذا المعنى، لأنه لا وجود لها الساعة، فكيف تشبه وهي لا وجود لها حقيقة بما لا

=

وجود لها حقيقة؟ إنما يشبه ما انتفى وجوده الآن بما قدر انتفاء وجوده في الزمان الماضي، لسرعة انتقاله من حالة الوجود إلى حالة العدم، فكأن حالة الوجود ما سبقت له".

وفي قوله تعالى: {كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ} [يونس: ٢٤]، أربعة أوجه من التفسير:

أحدها: كأن لم تعمر بالأمس، قاله الكلبي.

الثاني: كأن لم تعشْ، قاله قتادة، ومنه قول لبيد:

وَغَنِيتُ سَبْتًا قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ لَوْ كَانَ للنَّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ

عن قتادة-في رواية-: «كأن لم تنعم بالأمس». وفي رواية:" كأن لم تَعِشْ، كأن لم تنعَمْ".

الثالث: كأن لم تقم بالأمس، ومن قولهم غنى فلان بالمكان إذا أقام فيه، حكاه الماوردي عن عليّ بن عيسى.

الرابع: كأن لم تنعم بالأمس، قاله قتادة أيضًا.

روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: "في قراءة أبيّ: «كأن لم تغن بالأمس وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون»".

وقرأ الحسن: كأن لم يغن، بالباء على أن الضمير للمضاف المحذوف، الذي هو الزرع. وعن مروان أنه قرأ على المنبر: «كأن لم تتغن بالأمس»، من قول الأعشى:

وكنت امرأ زمنا بالعراق طويل الثواء طويل التغنى

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤]، أي:" وكما بيَّنا لكم -أيها الناس- مَثَلَ هذه الدنيا وعرَّفناكم بحقيقتها، نبيِّن حججنا وأدلتنا لقوم يتفكرون في آيات الله، ويتدبرون ما ينفعهم في الدنيا والآخرة".

عن السدي:" {كذلك نفصل}، أما {نفصل}: فنبيّن".

قال الطبري:" يقول: كما بيـنَّا لكم أيها الناس، مثل الدنيا وعرّفناكم حكمها

=

وأمرها، كذلك نُبين حججنا وأدلّتنا لمن تفكَّر واعتبر ونظر. وخصَّ به أهل الفكر، لأنهم أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشُّبَه في الصدور".

قال الألوسي:" أي: مثل ذلك التفصيل البديع نُفَصِّلُ الْآياتِ أي القرآنية التي من جملتها هذه الآية الجليلة الشأن المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أي نوضحها ونبينها لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ في معانيها ويقفون على حقائقها، وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون، وجوز أن يراد بالآيات ما ذكر في أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات وبتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكي إيجادا وإعداما فإنها آيات وعلامات يستدل بها المتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالا ومآلا والأول هو الظاهر".

وفي قوله تعالى: {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤]، وجهان:

أحدهما: معناه: يتفكرون في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها. قاله ابن عباس.

وروي عن الصعق التميمي قال: "شهدت الحسن وقرأ هذا الآية: {يتفكرون}، قال: هو والله لمن تفكر فيها يعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء وليعلم أن دار الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء".

وعن قتادة: " {لقوم يتفكرون}، قال: هذا مثل خص به الله فاعقلوا عن الله أمثاله فإن الله يقول: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} ".

والثاني: معناه: لعلهم يطيعون. وهذا قول مجاهد.

قال ابن كثير:" {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}: فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعًا مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وتَفَلّتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ

=

=
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر، والحديد، يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء".

- قال ابن القيم: شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرًا منها فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

- وقال ابن عاشور: شبهت حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطامًا ومصيره حصيدًا.

- وقال السمرقندي:... فكذلك الدنيا والإنسان يجمع المال ويشتري الضياع ويبني البنيان، فيظن أنه قد نال مقصده، فيأتيه الموت فيصير كأنه لم يكن أو رجل ولد له مولود، فإذا بلغ فظن أنه قد نال مقصوده، فيموت ويصير كأنه لم يكن.

- قال ابن عطية: ومعنى الآية التحذير من الاغترار بالدنيا، إذ هي معرضة للتلف وأن يصيبها ما أصاب هذه الأرض المذكورة بموت أو غيره من رزايا الدنيا، وخص " المتفكرين " بالذكر تشريفًا للمنزلة وليقع التسابق إلى هذه الرتبة.

ثانيًا: وقد ذكر الله تعالى في سورة الكهف:

قال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا).

وقال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي
=

الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ).

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) رواه مسلم.

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم.

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال موسى عليه الصلاة والسلام: الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار دارًا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارًا.

وقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى

=

يقتله.

ثالثًا: لطيفة في تشبيه الدنيا بالماء:

لأن الماء لا يستقر في موضع، وكذلك الدنيا.

ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تَفْنى.

ولأن الماء لا يَقْدِر أحدٌ أنْ يدخلَه ولا يَبْتل، كذلك الدنيا لا يَسْلم أحدٌ دَخَلها من فِتنتها وآفتها.

ولأن الماء إذا كان بقَدرٍ كان نافعًا مُنْبتًا، وإذا جاوَزَ المقدار، كان ضارًّا مُهْلِكًا، وكذلك الدنيا: الكَفاف منها ينفع، وفضولُها يَضرُّ.

ولأن الماء مَهْمَا حاولتَ أنْ تمسكه بكفِّك، تفلَّتَ منك، وكذلك الدنيا مَهْمَا حرصتَ عليها وتشبَّثْتَ بها، فلا بد أن تفوتَك.

رابعًا: ذكر فريق من أهل العلم بعض الحِكَم من تشبيه الحياة الدنيا بالزرع:

أحدها: أن عاقبة الاغترار بالدنيا، وما يبذله المرء لأجل تحصيلها، كعاقبة النبات؛ حيث علق صاحبه على جني محصوله أملًا كبيرًا، لكن سرعان ما خاب أمله، لما نزل بمحصوله من الهلاك؛ وهذا الغالب على المتمسك بالدنيا، واللاهث وراء مكاسبها، أن يأتيه الموت من حيث لا يحتسب. وهو معنى قوله تعالى (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون).

ثانيها: أن يكون وجه التشبيه مثل قوله سبحانه (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا) أي: كما صار سعي هذا الزارع هشيمًا تذروه الرياح، بسبب حدوث الآفات المهلكة، فكذلك سعي المغتر بالدنيا، لا جدوى منه ولا فائدة.

ثالثها: أن الزارع لما أتعب جسمه، وكد نفسه، وعلق قلبه؛ أملًا في الانتفاع بزرعه، وطمعًا في جني محصوله؛ فإذا حدث ما أهلك زرعه، وذهب به، حصل له من الشقاء والحسرة الكثير؛ فكذلك حال من أسلم قلبه للدنيا، وأتعب نفسه في

=

وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥).

{وَاَللَّه يَدْعُو إلَى دَار السَّلَام} أَيْ السَّلَامَة وَهِيَ الْجَنَّة بِالدُّعَاءِ إلَى الْإِيمَان {وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء} هِدَايَته {إلَى صِرَاط مُسْتَقِيم} دِين الْإِسْلَام[1].

=

تحصيلها، إذا مات، وفاته كل ما ناله منها، صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا، سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

خامسًا: وقد تضمن هذا المثل القرآني بعض اللطائف:

منها: أن التمتع في هذا الحياة الدنيا، إنما هو لفترة قصيرة محدودة، ثم هو صائر إلى زوال؛ وعلى العاقل أن لا يغتر بما هو زائل وفان، وأن يسعى لتحصيل ما هو دائم وباق.

ومنها: أن انقضاء الدنيا سريع ومفاجئ ويكون من غير سابق إنذار، فإن الإنسان لا يدري، متى ينقضي أجله في هذه الحياة، ومتى يصبح في عداد الموتى، بعد أن كان يشكل رقمًا فوقها؛ وهكذا سنة الحياة، لا تعرف كبيرًا ولا صغيرًا، ولا غنيًا ولا فقيرًا، ولا حاكمًا ولا محكومًا، ولا عالمًا ولا جاهلًا، فالكل في قانون الموت سواء (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)

سادسًا: في قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) بيان لسبب اغترار كثير من الناس بهذه الحياة الدنيا، حتى تصبح الحياة الدنيا - بمغرياتها ولذاتها وشهواتها - همهم الوحيد؛ فشبهها سبحانه الأرض بالعروس التي تُزفُّ إلى زوجها ليلة العرس، بعد أن تكون قد تزينت له أجمل زينة، وتهيأت له أفضل ما يكون التهيؤ؛ وهكذا الدنيا تتزين لأهلها وطالبيها غاية التزين؛ بحيث تكون أشد إغراء لأهلها، وأكثر إغواء لطالبيها، فيتهافتون على النيل من زخرفها، ويتسابقون إلى الأخذ من نعيمها ما أمكنهم.

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن أبي الدرداء؛ قال: قال النبي ﷺ: "ما من يوم طلعت شمسه إلا وكّلَ بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت الشمس إلا وكان بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين: اللهمّ أعط منفقًا خلفًا، وأعطِ ممسكًا تلفًا، وأنزل الله في ذلك قرآنًا في قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم في سورة يونس: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)}؛ وأنزل في قولهما: اللهمّ أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣)} إلى قوله: {لِلْعُسْرَى}.

أخرجه أحمد (٥/ ١٩٧)، والطيالسي (٩٧٩)، وعبد بن حميد (٢٠٧)، وابن حبان (٦٨٦، ٣٣٢٩)، والطبراني في الأوسط (٢٩١٢)، وابن السني في القناعة (٢٢، ٢٣، ٢٤)، وابن حبان (٣٣٢٩)، والحاكم (٢/ ٤٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٦)، والقضاعي (٨١٠)، والبيهقي في الشعب (٣٤١٢)، والبغوي في شرح السنة (٤٠٤٥) وغيرهم عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا مالا تلفا) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٤/ ٦٤٣): وخليد هذا بصري يروي عن أبي ذر وأبي الدرداء روى عنه قتادة وأبو الأشهب ولا أعرف حاله، وصحح إسناده المنذرى فى الترغيب (٢/ ٥٣٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ١٢٢): رجاله رجال الصحيح، وصححه العلامة الألبانى فى الصحيحة (٩٤٧)،

=

=

وصححه الحويني في مجلة التوحيد، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق السمند (٣٦/ ٥٣): سناده حسن من أجل خليد العصري، وهو ابن عبد الله، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين.

* قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ} [يونس: ٢٥]، أي:" والله يدعوكم إلى جناته التي أعدها لأوليائه".

والآية معطوف على محذوف يدل عليه السياق.

والتقدير: الشيطان يدعوكم إلى إيثار متاع الحياة الدنيا وزخرفها، واللّه تعالى يدعو الناس جميعا إلى الإيمان الحق الذي يوصلهم إلى دار كرامته.

والمقصود بدار السلام: الجنة التي أعدها اللّه تعالى لعباده المؤمنين، وسميت بذلك، لأنها الدار التي سلم أهلها من كل ألم وآفة. أو لأن تحيتهم فيها سلام، أو لأن السلام من أسماء اللّه تعالى فأضيفت إليه تعظيما لشأنها، وتشريفا لقدرها، كما يقال للكعبة: بيت اللّه.

سميت بذلك: لأنها الدار التي سلمت من كل آفة وبلية ومكروه وكدر وهم وغم.

قال الزجاج:" «السلام»: هو الله جل وعز - فالله يدعو إلى داره، وداره الجنة".

قال الطبري:" أما «دار السلام»، فهي دار الله التي أعدَّها لأولياته في الآخرة، جزاءً لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذات الله، وهي جنته. و"السلام"، اسم من أسماء الله تعالى".

عن السدي: " {لهم دار السلام عند ربهم} ، الله هو السلام، والدار الجنة» ".

وعن قتادة، في قوله: " {والله يدعو إلى دار السلام} [يونس: ٢٥] قال: الله هو السلام، وداره الجنة".

عن جابر بن زيد- في قوله: " {السلام} ، قال: هو الله، وهو اسم من أسماء الله".

الثاني: لأنها دار السلامة من كل آفة، قاله ابن قتيبة، والزجاج.

=

=

قال ابن قتيبة:" فـ «السلام»: الله؛ وداره: الجنة. يجوز أن يكون سماها "سلاما": لأن الصائر إليها يسلم فيها من كل ما يكون في الدنيا: من مرض ووصب، وموت وهرم؛ وأشباه ذلك. فهي دار السلام".

قال ابن كثير: "لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة عطبها وزوالها، رغَّب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام أي: من الآفات، والنقائص والنكبات".

قال ابن الجوزي: وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال:

أحدها: أن السلام ، هو الله ، وهي داره ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي.

والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع ، قاله الزجاج.

والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم (ادخلوها بسلام) وبعد استقرارهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وقوله (إلا قيلًا سلامًا سلامًا) وعند لقاء الله (سلام قولًا من رب رحيم) وقوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام).

وقال ابن القيم:... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله ، واسمه سبحانه وتعالى السلام ، الذي سلمها وسلم أهلها ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ، والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولًا من رب رحيم).

عن جابر بن عبد الله، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: " خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: إني رأيت في المنام كأنَّ جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا! فقال: اسْمَع سمعتْ أُذنك، واعقل عَقَل قلبك، إنما مَثَلك ومَثَل

=

=

أمتك، كمثل ملك اتخذ دارًا، ثم بنى فيها بيتًا، ثم جعل فيها مأدُبة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيتُ الجنَّة، وأنت يا محمد الرسولُ، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها".

عن أبي الدرداء، قال:" قال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده، ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وتجليتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم".

عن الحسن قال: "ما من ليلة إلا ينادي مناد يا صاحب الخير هلم ويا صاحب الشر أقصر، فقال رجل للحسن: أتجدها في كتاب الله؟ قال: نعم، {والله يدعوا إلى دار السلام}".

قال قتادة:" ذكر لنا أن في التوراة مكتوبا يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر انته".

قوله تعالى: {وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [يونس: ٢٥]، أي:" ويهدي مَن يشاء مِن خَلْقه، فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام".

أي: والله يهدي من يشاء من خلقه إلى صراطه المستقيم وهو دين الإسلام عم بالدعوة أولًا إظهارًا للحجة وخص بالدعوة ثانيًا استغناء عن الخلق وإظهارًا للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين.

قال أبو العالية:" يقول: يهديهم للمخرج من الشبهات والضلالات والفتن".

عن مجاهد، في قوله: " {صراط مستقيم}، قال: الحق".

وفي تفسير «الصراط المستقيم»، أربعة اقوال:

أحدها: أن «الصراط المستقيم: كتاب الله ﷻ». رواه علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ.

=

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦).

{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا} بِالْإِيمَانِ {الْحُسْنَى} الْجَنَّة {وَزِيَادَة} هِيَ النَّظَر إلَيْهِ تَعَالَى كَمَا فِي حَدِيث مُسْلِم {وَلَا يَرْهَق} يَغْشَى {وُجُوههمْ قَتَر} سَوَاد {وَلَا ذلة} كآبة {أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون}(١).

=

والثاني: أن «الصراط: الإسلام». رواه النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول الله ﷺ.

والثالث: أن «الصراط المستقيم: هو النبي ﷺ وصاحباه بعده رضي الله عنهما». قاله أبو العالية. قال الحسن:"صدق أبو العالية ونصح".

والرابع: أن الصراط المستقيم: الحق. وهذا قول مجاهد.

قال ابن الجوزي: واعلم أن الله عمَّ بالدعوة، وخصَّ بالهداية من شاء، لأن الحكم له في خلقه.

قوله تعالى (من يشاء) فيه إثبات المشيئة لله، وليعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، أي: أنه ليست مشيئة الله مجردة هكذا تأتي عفوًا، لا، هي مشيئة مقرونه بالحكمة، والدليل على ذلك، قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله، بيّن أن ذلك مبني عن علم وحكمة.

(١) قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، أي:" للمؤمنين الذين أحسنوا عبادة الله فأطاعوه فيما أمر ونهى، الجنةُ، وزيادة عليها، وهي النظر إلى وجه الله تعالى في الجنة، والمغفرةُ والرضوان".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: للذين أحسنوا عبادَة الله في الدنيا من خلقه، =

=

فأطاعوه فيما أمر ونَهَى، [{الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}]".

عن ابن عباس قوله: " {للذين أحسنوا الحسنى}، يقول: للذين شهدوا أن لا إله إلا الله".

وفي قوله تعالى: {الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، أقوال:

أحدها: أن «الحسنى» الجنة، و «الزيادة» النظر إلى وجه الله تعالى. وهذا قول أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وأبي موسى الأشعري، وعامر بن سعد، وعبدالرحمن بن أبي ليلى.

عن صهيب عن النبي ﷺ قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة - قال - يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار - قال - فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ، ثم تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة).

قال ابن رجب: قوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)، وقد ثبت في "صحيح مسلم " عنِ النَّبيِّ ﷺ تفسيرُ الزِّيادةِ بالنّظرِ إلى وجهِ الله ﷻ في الجنة، وهذا مناسبٌ لجعلِه جزاءً لأهلِ الإحسّانِ؛ لأنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمنُ ربّه في الدُّنيا على وجهِ الحُضورِ والمُراقبةِ، كأنّه يراهُ بقلبِهِ وينظرُ إليه في حال عبادتِهِ، فكانَ جزاءُ ذلك النَّظرَ إلى الله عيانًا في الآخرة، وعكس هذا ما أخبرَ الله تعالى به عَنْ جَزاءِ الكُفَّار في الآخرةِ (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)، وجعلَ ذلك جزاءً لحالهم في الدُّنيا، وهو تراكُم الرَّانِ على قُلوبِهم، حتّى حُجِبَتْ عن معرفتِهِ ومُراقبته في الدُّنيا، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبوا عن رُؤيته في الآخرة.

الثاني: أن «الحسنى» واحدة من الحسنات، و «الزيادة» مضاعفتها إلى عشر أمثالها، قاله ابن عباس، وروي عن الحسن، وعلقمة بن قيس نحو ذلك.

عن قتادة قال: "كان الحسن يقول في هذه الآية: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}،

=

=

قال: «الزيادة»: بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف".

الثالث: أن «الحسنى» حسنة مثل حسنة. و «الزيادة» مغفرة ورضوان، قاله مجاهد.

الرابع: أن «الحسنى» الجزاء في الآخرة و «الزيادة» ما أعطوا في الدنيا، قاله ابن زيد. قال ابن زيد: " «الحسنى»: الجنة، «وزيادة»: ما أعطاهم في الدنيا، لا يحاسبهم به يوم القيامة. وقرءوا: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا}، [سورة العنكبوت: ٢٧]، قال: ما آتاه مما يحب في الدنيا، عجل له أجره فيها".

والخامس: أن «الحسنى» الثواب، و «الزيادة» الدوام، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

السادس: أن «الحسنى» ما يتمنونه، و «الزيادة» ما يشتهونه. أفاده الماوردي.

السابع: أن «الزيادة»: غرفة من لؤلؤة واحدةٍ لها أربعة أبواب. قاله علي بن أبي طالب-كرّم الله وجهه-.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وَعَد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى، أن يجزيهم على طاعتهم إيّاه الجنة، وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غُرفا من لآلئ، وأن يزيدَهم غفرانا ورضوانًا، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته. وعمّ ربنا جل ثناؤه بقوله: {وزيادة}، الزيادات على {الحسنى}، فلم يخصص منها شيئًا دون شيء، وغير مستنكرٍ من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يُعَمَّ، كما عمَّه عز ذكره".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا

=

=

الإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠]، وقوله: {وَزِيَادَةٌ} هي: تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك -أيضا- ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القُصُور والحُور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته".

قوله تعالى: {وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ} [يونس: ٢٦]، أي:" ولا يغشى وجوههم غبار ولا ذلة، كما يلحق أهل النار".

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: " {ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة}، قال: بعد نظرهم إلى ربِّهم".

وفي معنى «يَرْهَقُ»، وجهان:

أحدهما: يعلو.

الثاني: يلحق، ومنه قيل غلام مراهق إذا لحق بالرجال.

وقد ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن معنى قوله تعالى: { ولا يرهق وجوههم} أي يغشى ويدنو، وهذا القول مروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - (، وبه قال أكثر المفسرين؛ كأبي عبيدة معمر بن المثنى، والطبري، والنحاس، والزجاج، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والبيضاوي، وأبو السعود، وابن عاشور.

ويذكر بعض المفسرين معنيين آخرين في معنى { يرهق} أحدهما: أن معنى { يرهق} : يلحق؛ ومنه قيل: غلام مراهق إذا لحق الرجال. وممن ذكر هذا القول: الماوردي في النكت والعيون، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن.

والآخر أن معنى { يرهق} : يعلو. وممن ذكره: القرطبي، والشوكاني.

قال القرطبي: ({ يرهق} يلحق؛ ومنه قيل: غلام مراهق إذا لحق بالرجال، وقيل: يعلو، وقيل: يغشى، والمعنى متقارب).

=

=

وفي معنى «قَتَرٌ»، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه سواد الوجوه، قاله ابن عباس، والسدي.

الثاني: أنه الخزي، قاله مجاهد.

الثالث: أنه الحزن، حكاه الماوردي عن مجاهد.

الرابع: أنه الدخان، ومنه: قتار اللحم وقتار العود، وهو دخانه، قاله عطاء.

قال عطاء: "يريد دخان جهنم".

الخامس: أنه الغبار في محشرهم إلى الله تعالى. قاله الطبري، ومنه قول الفرزدق:

مُتَوَّجٌ بِرِداءِ المُلْكِ يَتْبَعُهُ مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّاياتِ وَالْقَتَرَا

قال ابن كثير: {قَتَرٌ}: " أي: قتام وسواد في عَرَصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القُتْرة والغُبْرة".

وفي قوله تعالى: {وَلَا ذِلَّةٌ} [يونس: ٢٦]، وجهان:

أحدهما: الهوان.

الثاني: الخيبة.

قال ابن كثير:" {وَلا ذِلَّةٌ}، أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن، ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: {فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} أي: نضرة في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته، آمين".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس: ٢٦]، أي:" هؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم أصحاب الجنة ماكثون فيها أبدًا".

قال ابن عباس:" أي: من آمن بما كفرتم وعمل بما نزله من دينه فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له".

قال الطبري:" يقول: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، هم أهل الجنة وسكانها، ومن

=

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧).

=

هو فيها، [و] هم فيها ماكثون أبدًا، لا تبيد، فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين فتتنغَّص عليهم لذَّتُهم".

عن سعيد بن جبير: {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

عن السدي: " {هم خالدون}: خالدا أبدا".

- **قال السعدي**: أي: لا ينالهم مكروه، بوجه من الوجوه، لأن المكروه، إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء فهم كما قال الله عنهم (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيم).

قال الرازي: واعلم أنه تعالى لما شرح ما يحصل لأهل الجنة من السعادات، شرح بعد ذلك الآفات التي صانهم الله بفضله عنها، فقال (وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ) والمعنى: لا يغشاها قتر، وهي غبرة فيها سواد (وَلاَ ذِلَّةٌ) ولا أثر هوان ولا كسوف.

فالصفة الأولى: هي قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ).

والصفة الثانية: هي قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) والغرض من نفي هاتين الصفتين، نفي أسباب الخوف والحزن والذل عنهم، ليعلم أن نعيمهم الذي ذكره الله تعالى خالص غير مشوب بالمكروهات، وإنه لا يجوز عليهم ما إذا حصل غير صفحة الوجه، ويزيل ما فيها من النضارة والطلاقة، ثم بين أنهم خالدون في الجنة لا يخافون الانقطاع.

(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) الملازمون لها.

(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) لا يحولون ولا يزولون، ولا يتغيرون.

{وَالَّذِينَ} عَطْف عَلَى لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أَيْ وَلِلَّذِينَ {كَسَبُوا السَّيِّئَات} عَمِلُوا الشِّرْك {جَزَاء سَيِّئَة بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقهُمْ ذِلَّة مَا لَهُمْ مِنْ الله مِنْ} زَائِدَة {عَاصِم} مَانِع {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ} أُلْبِسَتْ {وُجُوههمْ قِطَعًا} بِفَتْحِ الطَّاء جَمْع قِطْعَة وَإِسْكَانهَا أَيْ جزءا {من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا} [يونس: ٢٧]، أي:" والذين عملوا السيئات في الدنيا فكفروا وعصَوا الله لهم جزاء أعمالهم السيئة التي عملوها بمثلها من عقاب الله في الآخرة".

قال الطبري: يقول:" والذين عملوا السيئات في الدنيا، فعصوا الله فيها، وكفروا به وبرسوله {جزاء سيئة} من عمله السيئ الذي عمله في الدنيا {بمثلها} من عقاب الله في الآخرة".

قال ابن كثير: لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك. (انتهى).

كما قال تعالى (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون).

وقال تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ).

وفي الصحيحين: عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ بنِ عبد المطلب ﵄، عن رَسُول الله ﷺ، فيما يروي عن ربهِ، تباركَ وتعالى، قَالَ (إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَها اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالى عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وَإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعمئةِ ضِعْفٍ إلى أَضعَافٍ كَثيرةٍ، وإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كَتبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلةً، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا =

=

كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً).

- فائدة: قوله ﷺ في حديث ابن عباس السابق (وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) أي: من همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة إذا كان تركها من خشية لله كما في رواية لمسلم (إنما تركها من أجلي أو من جرائي).

ومثل قصة الذي همّ بابنة عمه بسوء فتركها لله، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفرجت الصخرة.

- فإن تركها بسبب عدم القدرة عليها مع الاشتغال بتحصيل أسبابها، فهذا يعاقب كمن عمِل، فتكتب عليه سيئة.

قال الشيخ ابن عثيمين: من همّ بالسيئة وسعى في تحصيلها لكن عجز عنها، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملًا، دليل ذلك، قول النبي ﷺ (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه).

و(السيئات) جمع سيئة، سميت سيئة لأنها تسوء صاحبها في الدنيا وفي الآخرة ، في الدنيا بظهور آثارها عليه من الهمّ والضيق في الصدر والخلق والرزق ، فيفقد من السعادة في الحياة بقدر ما عمل من السوء ، قال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقال تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ). وتسوؤه آجلًا بعد موته لمعاقبته عليها إن لم يتب منها أو يتداركه الله بعفوه.

وربما تسوء غيره بأن يتعدى ضررها إلى الغير مباشرة، أو بأن يكون لها أثرها السيء على البلاد والعباد عامة بمحق البركات وقلة الخيرات، كما قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

=

=

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقال ﷺ (ما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء) رواه ابن ماجه.

- والسيئات في الأصل تطلق على الكبائر والصغائر، قد يراد بها الصغائر إذا قرنت مع الكبائر كما في قوله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا).

قال مقاتل:" يعني: جزاء الشرك جهنم".

قوله تعالى: {وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} [يونس: ٢٧]، أي:" وتغشاهم ذلَّة وهوان".

قال ابن عباس:" تغشاهم ذلة وشدة".

قال مقاتل:" يعني: مذلة في أبدانهم".

قال الطبري:"يقول: وتغشاهم ذلة وهوان، بعقاب الله إياهم".

قال ابن كثير:" أي: تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: {وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ} [إبراهيم: ٤٢ - ٤٤]".

قوله تعالى: {مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ} [يونس: ٢٧]، أي:" وليس لهم مِن عذاب الله مِن مانع يمنعهم إذا عاقبهم".

عن ابن عباس:" {ما لهم من الله من عاصم}: من شافع".

قال مقاتل:" يعني: مانع يمنعهم من العذاب".

قال الطبري:"يقول: ما لهم من الله من مانع يمنعهم، إذا عاقبهم، يحول بينه وبينهم".

=

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا

=

قال ابن كثير:" أي: من مانع ولا واق يقيهم العذاب، كما قال تعالى: {يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلا لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [القيامة: ١٠ - ١٢]".

قوله تعالى: {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا} [يونس: ٢٧]، أي:" كأنما أُلبست وجوههم أجزاء من سواد الليل المظلم".

قال الزجاج:" المعنى: أغْشِيَتْ وجوهُهُم قِطَعًا من الليل في حال ظُلْمته".

قال مقاتل:" يعني: سواد الليل".

قال ابن كثير:" إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وكما قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [عبس: ٣٨ - ٤٢]. الآية".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس: ٢٧]، أي:" هؤلاء هم أهل النار ماكثون فيها أبدًا".

عن أبي مالك، قوله: " {أولئك أصحاب النار}: فهم أصحاب النار يعذبون فيها".

عن ابن عباس، قوله:" {هم فيها خالدون}، أي: خالدا أبدا".

قال مقاتل:" لا يموتون".

بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨).

{و} اُذْكُرْ {يَوْم نَحْشُرهُمْ} أَيْ الْخَلْق {جَمِيعًا ثُمَّ نَقُول لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانكُمْ} نُصِبَ بِأَلْزِمُوا مُقَدَّرًا {أَنْتُمْ} تَأْكِيد لِلضَّمِيرِ الْمُسْتَتِر فِي الْفِعْل الْمُقَدَّر لِيَعْطِف عَلَيْهِ {وَشُرَكَاؤُكُمْ} أَيْ الْأَصْنَام {فَزَيَّلْنَا} مَيَّزْنَا {بَيْنهمْ} وَبَيْن الْمُؤْمِنِينَ كَمَا فِي آيَة {وَامْتَازُوا الْيَوْم أَيّهَا الْمُجْرِمُونَ} {وَقَالَ} لَهُمْ {شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} مَا نَافِيَة وَقَدَّمَ المفعول للمفاصلة.

فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩).

{فَكَفَى بِاَللهِ شَهِيدًا بَيْننَا وَبَيْنكُمْ إِنْ} مُخَفَّفَة أي إنا {كنا عن عبادتكم لغافلين}.

هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠).

{هنالك} أي ذلك اليوم {تبلوا} مِنْ الْبَلْوَى وَفِي قِرَاءَة بِتَاءَيْنِ مِنْ التِّلَاوَة {كُلّ نَفْس مَا أَسْلَفَتْ} قَدَّمَتْ مِنْ الْعَمَل {وَرُدُّوا إِلَى الله مَوْلَاهُمْ الْحَقّ} الثَّابِت الدَّائِم {وَضَلَّ} غَابَ {عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} عَلَيْهِ من الشركاء[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [يونس: ٢٨]، أي:" واذكر -أيها الرسول- يوم نحشر الخلق جميعا للحساب والجزاء".

قال ابن كثير:" أي: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن وبر وفاجر، كما قال: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٤٧]".

قال مجاهد:" الحشر: الموت".

قال ابن عباس:" يحشر كل شيء حتى إن الذباب يحشر".

عن الضحاك، في قوله: " {جميعا}، قال: البر والفاجر".

=

=
قوله تعالى: {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ} [يونس: ٢٨]، أي:"، ثم نقول للذين أشركوا بالله: الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله حتى تنظروا ما يُفْعل بكم".

قال الزجاج:" {مكانكم} منصوب على الأمر، كأنه قيل لهم: انتظروا مكانكم حتى نَفْصِلَ بينكم، والعرب تتوعد فتقول مكانك، وانتَظِرْ، فهي كلمة جرت على الوعيد".

قال ابن كثير:" أي: الزموا أنتم وهم مكانًا معينًا، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [يس: ٥٩]، وقال {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [الروم: ١٤]، وفي الآية الأخرى: {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صِدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء؛ ولهذا قيل: ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس» ".

قال أبو السعود: "قوله تعالى (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا) أي نقول للمشركين من بينهم ولأن توبيخَهم وتهديدَهم على رؤوس الأشهادِ أفظعُ والإخبارُ بحشر الكلِّ في تهويل اليومِ أدخل، وتخصيصُ وصفِ إشراكهم بالذكر في حيز الصلةِ من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخِ والتقريعِ عليه مع ما فيه من الإيذان بكونه معظمَ جناياتِهم وعمدةَ سيئاتِهم".

قال قتادة:" ما لله من شريك في السماء ولا في الأرض".

قوله تعالى: {فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} [يونس: ٢٨]، أي:" فَفَرَّقْنا بين المشركين ومعبوديهم".

من التزييل بمعنى التمييز والتفريق، يقال: زيلت الشيء أزيله إذا نحيته وأبعدته،
=

=

ومنه قوله تعالى: (لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) أي: لو تميزوا وتفرقوا.

قال ابن زيد:" فرقنا بينهم".

كما قال تعالى (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ).

وقال (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ).

وفي الآية الأخرى (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) أي: يصيرون صِدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء، ولهذا قيل: ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: "نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس.

- **قال السعدي**: أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضًا وعداوة.

قوله تعالى: {وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} [يونس: ٢٨]، أي:" وتبرأ مَن عُبِدُوا مِن دون الله ممن كانوا يعبدونهم، وقالوا للمشركين: ما كنتم إيانا تعبدون في الدنيا".

أي: وقال شركاؤهم الذين أشركوهم في العبادة مع اللّه تعالى: إنكم أيها المشركون لم تكونوا لنا عابدين في الدنيا، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم فانقدتم له بدون تدبر أو تعقل.

والمقصود بقولهم هذا؛ التبري من المشركين، وتوبيخهم على أفكارهم الفاسدة.

قال الزجاج:" معناه: ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين".

قال ابن زيد:" فقالوا: بلى قد كنا نعبدكم".

قال ابن كثير:" أنكروا عبادتهم، وتبرءوا منهم، كما قال تعالى: {[كَلا] سَيَكْفُرُونَ

=

=

بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} الآية. [مريم: ٨٢]. وقال: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا} [البقرة: ١٦٦]، وقال {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: ٥، ٦]".

- **قال الشوكاني**: والمعنى: وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه ما كنتم إيانا تعبدون، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم، وشياطينكم الذين أغووكم، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، لكونهم جعلوا لهم نصيبًا من أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية. وقيل: لكونهم شركاؤهم في هذا الخطاب، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفًا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة.

- اختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء.

فقال بعضهم: هم الملائكة.

واستشهدوا بقوله تعالى (يَوْمٍ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ).

ومنهم من قال: بل هي الأصنام، والدليل عليه: أن هذا الخطاب مشتمل على التهديد والوعيد، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين، ثم اختلفوا في أن هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام.

فقال بعضهم: إن الله تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق فيها، فلا جرم قدرت على ذكر هذا الكلام.

وقال آخرون إنه تعالى يخلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى يسمع منها ذلك الكلام، وهو ضعيف، لأن ظاهر قوله: (وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ) يقتضي أن

=

=

يكون فاعل ذلك القول هم الشركاء.

والقول الثالث: إن المراد بهؤلاء الشركاء، كل من عبد من دون الله تعالى، من صنم وشمس وقمر وأنسي وجني وملك.

- **قال الشوكاني**: والمراد بالشركاء هنا: الملائكة. وقيل الشياطين، وقيل الأصنام، وإن الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت. وقيل: المسيح، وعزير، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنًا ما كان.

قال الخازن: قوله (وقال شركاؤهم) يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله وإنما سماهم شركاءهم، لأنهم جعلوا لهم نصيبًا من أموالهم أو لأنه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله: مكانكم فقد صاروا شركاء في هذا الخطاب (ما كنتم إيانا تعبدون) تبرأ المعبودون من العابدين.

فإن قلت: كيف صدر هذا الكلام من الأصنام وهي جماد لا روح فيها ولا عقل لها؟

قلت: يحتمل أن الله تعالى خلق لها في ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام.

- وقال الآلوسي: والمراد بهؤلاء الشركاء قيل: الأصنام فإن أهل مكة إنما كانوا يعبدونها وهم المعنيون بأكثر هذه الآيات، ونسبة القول لها غير بعيد من قدرته سبحانه فينطقها الله الذي أنطق كل شيء في ذلك الموقف فتقول لهم (مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) والمراد من ذلك تبريهم من عبادتهم وأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم الداعية لهم وما أعظم هذا مكان الشفاعة التي كانوا يتوقعونها منهم.

وقيل: المراد بهم الملائكة والمسيح عليهم السلام.

لقوله تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاَء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ) وقوله سبحانه: (وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ

=

=

إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ).

- قال الرازي: قوله تعالى (وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم) إنما أضاف الشركاء إليهم لوجوه:

الأول: أنهم جعلوا نصيبًا من أموالهم لتلك الأصنام، فصيروها شركاء لأنفسهم في تلك الأموال، فلهذا قال تعالى: (وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ).

الثاني: أنه يكفي في الإضافة أدنى تعلق، فلما كان الكفار هم الذين أثبتوا هذه الشركة، لا جرم حسنت إضافة الشركاء إليهم.

الثالث: أنه تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله: (مَكَانَكُمْ) صاروا شركاء في هذا الخطاب.

قوله تعالى: {فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [يونس: ٢٩]، أي:" تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة: حسبنا الله شاهدًا بيننا وبينكم، فهو سبحانه يعلم حالنا وحالكم، ويعلم أننا كنا في غفلة عن عبادتكم لنا، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا رضينا بها".

قال الطبري:" أي: إنها تقول: حسبُنا الله شاهدًا بيننا وبينكم، أيها المشركون، فإنه قد علم أنّا ما علمنا ما تقولون".

قال ابن زيد: "ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نتكلم".

قال مجاهد:" يأتي على الناس يوم القيامة ساعة فيها لن يرى أهل الشرك أهل التوحيد يغفر لهم فيقولون: ربنا ما كنا مشركين فيقول الله تعالى: انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ثم يكون من بعدها ساعة فيها شدة تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدون من دون الله فيقول: هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله فيقولون: نعم هؤلاء الذين كنا نعبد فتقول لهم الآلهة: والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم إنكم تعبدوننا، فيقولون: بلى والله إياكم كنا نعبد قال: فيقول لهم الله: {فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم

=

=

لغافلين}".

قوله تعالى: {إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} [يونس: ٢٩]، أي:" ولقد كنَّا عن عبادتكم إيانا غافلين، لا نشعر بها".

قال الطبري:" يقول: ما كنا عن عبادتكم إيانا دون الله إلا غافلين، لا نشعر به ولا نعلم".

عن مجاهد: {عن عبادتكم لغافلين}، يقول: لكل شيء كان يعبد دون الله".

قال مجاهد:" فتقول لهم الآلهة: والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا".

قال ابن كثير:" أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك.

وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، آمرا بعبادته وحده لا شريك له، ناهيًا عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وقال: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: ٤٥]. والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبَيّن أحوالهم وأقوالهم، ورَد عليهم فيما هم فيه أتم رد".

=

=

قال السعدي: "فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة ويتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل".

قوله تعالى: {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ} [يونس: ٣٠]، أي:" في ذلك الموقف للحساب تتفقد كل نفس أحوالها وأعمالها التي سلفت وتعاينها، وتجازى بحسبها: إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

قال ابن كثير:" أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [الطارق: ٩]، وقال تعالى: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٣، ١٤]".

عن الحسين، في قوله: " {ما أسلفت}، قال: عملت". وروي عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم نحو ذلك.

وفي قوله تعالى: {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ} [يونس: ٣٠]، قراءتان:

إحداهما: «تتلو»، بتاءين، قرأ بها حمزة والكسائي، وفي تأويلها ثلاثة أوجه:

أحدها: معناه: تتبع كل نفس ما قدمت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ. قاله السدي، ومنه قول الشاعر:

إنَّ المُريبَ يَتْبَعُ المُريبا ... كما رأيت الذِّيبَ يتلو الذِّيبا

وأخرج ابن ابي حاتم عن السدي: "قوله {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ}، يقول: "مبتغ

=

=

كل نفس".

الثاني: تتلو كتاب حسناتها وكتاب سيئاتها، ومن التلاوة.

والثالث: تعاين كل نفس جزاء ما عملت. قاله ابن زيد.

عن ابن زيد في قوله: "هنالك تَتْلو كل نفس ما أسلفت}، قال: ما عملت. تتلو: تعاينه".

قال ابن كثير:" قد قرأ بعضهم: {هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ} وفسَّرها بعضهم بالقراءة، وفسّرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر، وفسّرها بعضهم بحديث: «تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت»، الحديث".

والقراءة الثانية: وهي قراءة الباقين «تَبْلُو» بالباء، وفي تأويلها وجوه:

أحدها: تسلم كل نفس. قاله الحسن.

قال القرطبي:" أي: تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها".

الثاني: تختبر كل نفس، قاله مجاهد.

الثالث: تذوق. ذكره القرطبي.

الرابع: تعلم. قاله الكلبي.

قال الزجاج:" ومعنى (تَبْلُو) تُخْبَرُ، أي: تعلم كل نفس ما قدمت، ومثل هنالك قول زهير:

هُنالِكَ إنْ يستخْبِلُوا المال يَخْبلوا... وإن يُسْأَلُوا يُعطُوا وإن يَيسروا يُغْلوا".

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القراء، وهما متقاربتا المعنى. وذلك أن من تبع في الآخرة ما أسلفَ من العمل في الدنيا، هجم به على مَوْرده، فيخبر هنالك ما أسلفَ

=

=

من صالح أو سيئ في الدنيا، وإنّ مَنْ خَبَر من أسلف في الدنيا من أعماله في الآخرة، فإنما يخبرُ بعد مصيره إلى حيث أحلَّه ما قدم في الدنيا من علمه، فهو في كلتا الحالتين مُتَّبع ما أسلف من عمله، مختبر له، فبأيتهما قرأ القارئ كما وصفنا، فمصيبٌ الصوابَ في ذلك".

قوله تعالى: {وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ} [يونس: ٣٠]، أي:" ورُدَّ الجميع إلى الله الحكم العدل، فأُدخِلَ أهل الجنةِ الجنةَ وأهل النار النار".

والمراد بالولاية هنا العامة ، لأن الولاية تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة: بمعنى أن يتولى شؤون عباده ، وهذا للكفار والمؤمنين.

ودليلها قوله تعالى في سورة الأنعام (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ).

وقوله تعالى كما في هذه الآية (ورُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

ولاية خاصة ، وهذه للمؤمنين.

كما قال تعالى (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).

وقال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ).

مقتضى النوع الأول: أن لله تعالى كمال السلطان ، والتدبير في جميع خلقه.

ومقتضى النوع الثاني: الرأفة ، والرحمة ، والتوفيق.

قال ابن كثير:" أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار".

عن قيس، قال: "دخل عثمان بن عفان على عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فقال: كيف تجدك؟ قال: مردود إلى مولاي الحق".

قوله تعالى: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [يونس: ٣٠]، أي:" وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه".

=

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١).

{قُلْ} لَهُمْ {مَنْ يَرْزُقكُمْ مِنْ السَّمَاء} بِالْمَطَرِ {وَالْأَرْض} بِالنَّبَاتِ {أَمَّنْ يَمْلِك السَّمْع} بِمَعْنَى الْأَسْمَاع أَيْ خَلْقهَا {وَالْأَبْصَار وَمَنْ يُخْرِج الْحَيّ مِنْ الْمَيِّت وَيُخْرِج الْمَيِّت مِنْ الْحَيّ وَمَنْ يُدَبِّر الْأَمْر} بَيْن الْخَلَائِق {فَسَيَقُولُونَ} هُوَ {الله فَقُلْ} لَهُمْ {أَفَلَا تَتَّقُونَ} هُ فَتُؤْمِنُونَ.

فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢).

{فَذَلِكُمْ} الْفَاعِل لِهَذِهِ الْأَشْيَاء {الله رَبّكُمْ الْحَقّ} الثَّابِت {فَمَاذَا بَعْد الْحَقّ إِلَّا الضَّلَال} اسْتِفْهَام تَقْرِير أَيْ لَيْسَ بَعْده غَيْره فَمَنْ أَخْطَأَ الْحَقّ وَهُوَ عِبَادَة الله وَقَعَ فِي الضَّلَال {فَأَنَّى} كَيْفَ {تُصْرَفُونَ} عَنْ الْإِيمَان مَعَ قِيَام الْبُرْهَان.

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣).

=

قال ابن كثير: " أي: ذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه".

قال الصابوني: " أي: ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه من أن الأوثان تشفع لهم، وفي الآية تبكيتٌ شديدٌ للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنهم شيئًا".

عن ابن عباس قوله: " {وضل عنهم ما كانوا يفترون}، هذا في القيامة".

وعن ابن عباس -أيضا- في قوله: " {ما كانوا يفترون}، أي: يشركون".

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: " {وضل عنهم ما كانوا يفترون}، وقال: ما كانوا يدعون معه من الأنداد والآلهة، وذلك جعلوها أندادا مع الله افتراء وكذبا".

{كَذَلِكَ} كَمَا صَرَفَ هَؤُلَاءِ عَنْ الْإِيمَان {حَقَّتْ كَلِمَة رَبّك عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا} كَفَرُوا وَهِيَ {لَأَمْلَأَن جَهَنَّم} الْآيَة أَوْ هِيَ {أَنَّهُمْ لَا يؤمنون(١)}.

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ٣١]، أي:" قل – أيها الرسول– لهؤلاء المشركين: مَن يرزقكم من السماء، بما يُنزله من المطر، ومن الأرض بما ينبته فيها من أنواع النبات والشجر تأكلون منه أنتم وأنعامكم؟".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل}، يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الأوثان والأصنام {من يرزقكم من السماء}، الغيث والقطر، ويطلع لكم شمسها، ويغطش ليلها، ويخرج ضحاها، ومن الأرض أقواتكم وغذاءكم الذي ينبته لكم، وثمار أشجارها".

قال ابن كثير:" يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله، فقال: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ} أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقًا بقدرته ومشيئته، فيخرج منها {حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: ٢٧ – ٣١]، أإله مع الله؟ فسيقولون: الله، {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ} [الملك: ٢١]؟".

قال ابن عاشور: "تذكير بأحوال الرزق؛ ليكون أقوى حضورًا في الذهن، فالرزق من السماء المطر، والرزق من الأرض النبات كله من حب وثمر وكلأ".

قوله تعالى: {أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ} [يونس: ٣١]، أي:" ومَن يملك ما تتمتعون به أنتم وغيركم من حواسِّ السمع والأبصار؟".

فهو الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كما قال تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ).

=

=

وقال (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ).

- قال أبو حيان: ثم ذكر ملكه لهاتين الحاستين الشريفتين: السمع الذي هو سبب مدارك الأشياء، والبصر الذي يرى ملكوت السموات والأرض، ومعنى ملكهما أنه متصرف فيهما بما يشاء تعالى من إبقاء وحفظ وإذهاب.

- وخص هاتين الحاستين بالذكر، لأن لهما أعظم الأثر في حياة الإنسان، ولأنهما قد اشتملتا في تركيبهما على ما بهر العقول، ويشهد بقدرته تعالى وعجيب صنعه في خلقه.

- **قال الشوكاني**: وَخُصِّ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ بِالذِّكْرِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ الصَّنْعَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ الْعَظِيمَةِ، أَيْ: مَنْ يَسْتَطِيعُ مَلْكَهُمَا وَتَسْوِيَتَهُمَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْخِلْقَةِ الْغَرِيبَةِ حَتَّى يَنْتَفِعُوا بِهِمَا هَذَا الِانْتِفَاعَ الْعَظِيمَ، وَيُحَصِّلُونَ بِهِمَا مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرِ الْحَاصِرِينَ.

قال الطبري:" يقول: أم من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم التي تسمعون بها: أن يزيد في قواها، أو يسلبكموها، فيجعلكم صما، وأبصاركم التي تبصرون بها: أن يضيئها لكم وينيرها، أو يذهب بنورها، فيجعلكم عميا لا تبصرون".

قال ابن كثير:" أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ} [الملك: ٢٣]، وقال {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ} [الأنعام: ٤٦]".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [يونس: ٣١]، أي:" ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في الكون كلِّه، فيخرج الأحياء

=

=

والأموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات، وفيما لا تعرفون؟".

أي: وقل لهم كذلك من سوى الله- تعالى- يملك إخراج النبات وهو كائن حي من الأرض الميتة، وإخراج الإنسان وهو كائن حي من النطفة وبالعكس، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس.

قال الطبري:" يقول: ومن يخرج الشيء الحي من الميت، ويخرج الشيء الميت من الحي".

قال ابن كثير:" أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة في ذلك كله".

- قال القرطبي: أي النباتَ من الأرض، والإنسان من النطفة، والسُّنْبُلَةَ من الحبّة، والطيرَ من البيضة، والمؤمنَ من الكافر.

- قال الرازي: قوله تعالى (وَمَن يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي) وفيه وجهان:

الأول: أنه يخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة (وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي) أي يخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر.

والثاني: أن المراد منه أنه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والأكثرون على القول الأول، وهو إلى الحقيقة أقرب،

وقال الشوكاني: قوله تعالى (وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) الْإِنْسَانَ مِنَ النُّطْفَةِ، وَالطَّيْرَ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَالنَّبَاتَ مِنَ الْحَبَّةِ، أَوِ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) أَيِ: النُّطْفَةَ مِنَ الْإِنْسَانِ، أَوِ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ: عَمَّنْ يُحْيِي وَيُمِيتُ.

- وقال السعدي: قوله تعالى (وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من

=

=

البيضة، ونحو ذلك (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) عكس هذه المذكورات.

قوله تعالى: {وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [يونس: ٣١].

أي: ومَن يدبِّر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمر الخليقة جميعًا؟

- وهذا دليل رابع على قدرة الله ووحدانيته أي: وقل لهم- أيضا- من الذي يتولى تدبير أمر هذا الكون من إحياء وإماتة، وصحة ومرض، وغنى وفقر، وليل ونهار، وشمس وقمر ونجوم...

هذه الجملة الكريمة من باب التعميم بعد التخصيص، لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها.

قال الطبري:" وقل لهم: من يدبر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمر الخلق".

قال ابن كثير:"أي: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسْأَلُون، {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه".

عن مجاهد:" {يدبر الأمر}، قال: يقضيه وحده".

قال ابن كثير: "أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسْأَلُون (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه".

قوله تعالى: {فَسَيَقُولُونَ اللهُ} [يونس: ٣١]، أي:" فسوف يجيبونك بأن الذي

=

=

يفعل ذلك كله هو الله".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: فسوف يجيبونك بأن يقولوا: الذي يفعل ذلك كله الله".

قوله تعالى: {فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس: ٣١]، أي:" فقل لهم: أفلا تخافون عقاب الله إن عبدتم معه غيره؟".

أي: أتعلمون وتعترفون بأن الله تعالى هو الخالق لكل ما سبق، ومع ذلك تشركون معه آلهة في العبادة، دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة.

قال الطبري:" يقول: أفلا تخافون عقاب الله على شرككم وادعائكم ربا غير من هذه الصفة صفته، وعبادتكم معه من لا يرزقكم شيئا، ولا يملك لكم ضرا ولا نفعا، ولا يفعل فعلا؟".

قال ابن كثير:" أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟".

عن الضحاك، في قوله: " {أفلا تتقون}، قال: تتقون النار بالصلوات الخمس".

وعن مجاهد:" {تتقون}: تستطيعون".

قال الزجاج:" لما خوطبوا بما لا يقدر عليه إلا الله - جلَّ وعزَّ - كان فيه دليل على توحيده".

قال الشنقيطي: صرَّحَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، بِأَنَّ الْكُفَّارَ يُقِرُّونَ بِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا، هُوَ رَبُّهُمُ الرَّزَّاقُ الْمُدَبِّرُ لِلْأُمُورِ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي اعْتِرَافِهِمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَمَعَ هَذَا أَشْرَكُوا بِهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مُقِرُّونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلِكَ لِإِشْرَاكِهِمْ مَعَهُ غَيْرَهُ فِي حُقُوقِهِ جَلَّ وَعَلَا - كَثِيرَةٌ، كَقَوْلِهِ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ).

وَقَوْلِهِ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).

=

=

وقوله (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله إلى قوله: فأنى تسحرون) إلى غير ذلك من الآيات.

ولذا قال تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون).

والآيات المذكورة صريحة في أن الاعتراف بربوبيته جل وعلا لا يكفي في الدخول في دين الإسلام إلا بتحقيق معنى لا إله إلا الله نفيا وإثباتا.

وأما تجاهل فرعون – لعنه الله – لربوبيته جل وعلا، في قوله (قال فرعون وما رب العالمين) فإنه تجاهل عارف؛ لأنه عبد مربوب، كما دل عليه قوله تعالى (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر) وقوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا).

قوله تعالى: {فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ} [يونس: ٣٢]، أي:" فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، وغيره من الآلهة باطل ليس بشيء".

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس قال (كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ومن فيهن ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض، ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق وقولك حق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق...).

والحق اسم لله سبحانه هو المتصف بالوجود الدائم والحياة والقيومية والبقاء، فلا يلحقه زوال أو فناء، وكل أوصاف الحق كاملة للكمال والجمال، والعظمة والجلال، قال سبحانه وتعالى: (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير) [الحج: ٦٢]، وكقوله: (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير).

=

=

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى: "الحق" في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفا.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لخلقه: أيها الناس، فهذا الذي يفعل هذه الأفعال، فيرزقكم من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويدبر الأمر؛ {الله ربكم الحق} لا شك فيه".

قال ابن كثير:" أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة".

قوله تعالى: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} [يونس: ٣٢]، أي:"، فأي شيء سوى الحق إلا الضلال؟".

فذلكم الذي فعل ما فعل من رزقكم ومن تدبير أمركم، هو الله المربى لكم بنعمه، وهو الذي لا تحق العبودية والألوهية إلا له وحده.

فمن ترك الحق وهو عبادة الله وحده، فقد وقع في الباطل والضلال وهو عبادة غيره من الآلهة الأخرى.

قال الطبري:"يقول: فأي شيء سوى الحق إلا الضلال، وهو الجور عن قصد السبيل؟".

قال ابن كثير:" أي: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له".

قوله تعالى: {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: ٣٢]، أي:" فكيف تُصْرَفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه؟ وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل

=

=

شيء؟".

قال الطبري:" يقول: فأي وجه عن الهدى والحق تصرفون، وسواهما تسلكون، وأنتم مقرون بأن الذي تصرفون عنه هو الحق؟".

قال ابن كثير:" أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؟".

قال السعدي: (فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتبا لمن أشرك به، وويحًا لمن كفر به، لقد عدموا عقولهم، بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم.

عن ابن عباس في قوله: " {فأنى}، قال: كيف".

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن حرملة بن عبد العزيز قال: "قلت لمالك بن أنس: ما ترى في رجل أمره يعنيني قال: ليس ذلك من الحق قال الله: {فماذا بعد الحق إلا الضلال}".

قال ابن ابي حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنبأ أشهب قال: سئل مالك عن شهادة اللعاب بالشطرنج والنرد أترى شهادته جائزة؟ فقال: أما من أتى منها فما أرى شهادتهم طائلة يقول الله ﷻ: {فماذا بعد الحق إلا الضلال}، فهذا كله من الضلال".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} [يونس: ٣٣]، أي:" كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق".

والمعنى: مثل ما ثبت أن الله تعالى هو الرب الحق، وأنه ليس بعد الحق إلا

=

=

الضلال، ثبت أيضًا الحكم والقضاء منه سبحانه على الذين فسقوا عن أمره، وعموا وصموا عن الحق، أنهم لا يؤمنون به، لأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلًا.

فالمراد بالفسق هنا: التمرد في الكفر، والسير فيه إلى أقصى حدوده.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كما قد صرف هؤلاء المشركون عن الحق إلى الضلال: وجب عليهم قضاؤه وحكمه في السابق من علمه".

قال الزجاج:" أي: مثل أفعالهم جازاهم ربك".

قال النسفي:" أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك".

قال ابن كثير:" أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: {قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر: ٧١]".

عن ابن عباس في قوله: " {كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا}، يقول: سبقت كلمة ربك".

قوله تعالى: {عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا} [يونس: ٣٣]، أي:" على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا".

قال الطبري:" {على الذين فسقوا}، فخرجوا من طاعة ربهم إلى معصيته وكفروا به".

قال النسفي: أي:" تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه".

قوله تعالى: {أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ٣٣]، أي:" لأنهم لا يصدّقون بوحدانية

=

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤).

{قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأ الْخَلْق ثُمَّ يُعِيده قُلْ الله يَبْدَأ الْخَلْق ثُمَّ يُعِيده فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَته مَعَ قيام الدليل.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥).

{قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقّ} بِنَصْبِ الْحُجَج وَخَلْق الِاهْتِدَاء {قُلْ الله يهدي للحق فمن يَهْدِي إِلَى الْحَقّ} وَهُوَ الله {أَحَقّ أَنْ يُتَّبَع أَمَّنْ لَا يَهِدِّي} يَهْتَدِي {إِلَّا أَنْ يُهْدَى} أَحَقّ أَنْ يُتَّبَع اسْتِفْهَام تَقْرِير وَتَوْبِيخ أَيْ الْأَوَّل

=

الله ورسالة نبيّه، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم".

قال الطبري:" يقول: لا يصدقون بوحدانية الله ولا بنبوة نبيه ﷺ".

قال الزجاج:" أي: حق عليهم أنهم لا يؤمنون، فإنهم لا يؤمنون بدل من كلمة ربك، أعلم الله أنهم بأعمالهم قد منعوا من الإيمان، وجائز أن تكون الكلمة حقت عليهم لأنهم لا يؤمنون، فـ «إنهم لا يؤمنون» بدل من كلمة {ربك} وتكون الكلمة ما وعدوا به من العقاب".

قال النسفي: قوله: {أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} " بدل من الكلمة أي حق عليهم انتفاء الإيمان أو حق عليهم كلمة الله أن ايمانهم غير كائن أو أراد الكلمة العدة بالعذاب وأنهم لا يؤمنون تعليل أي لأنهم لا يؤمنون".

عن مجاهد قوله:" {لا يؤمنون}، قال: إذا جاءت بخبر لا يؤمنون".

أَحَقّ {فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} هَذَا الْحُكْم الْفَاسِد مِنْ اتِّبَاع مَا لَا يحق اتباعه.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦).

{وَمَا يَتَّبِع أَكْثَرهمْ} فِي عِبَادَة الْأَصْنَام {إِلَّا ظَنًّا} حَيْثُ قَلَّدُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ {إِنَّ الظَّنّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا} فِيمَا الْمَطْلُوب مِنْهُ الْعِلْم {إِنَّ الله عَلِيم بِمَا يَفْعَلُونَ} فيجازيهم عليه(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [يونس: ٣٤]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: هل من آلهتكم ومعبوداتكم مَن يبدأ خَلْق أي شيء من غير أصل، ثم يفنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه؟".

يقول تعالى مبينًا عجز آلهة المشركين، وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أي: قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع: هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم ثم يفنيه، ثم يعيده ويحييه؟.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل}، يا محمد = {هل من شركائكم}، يعني من الآلهة والأوثان، من ينشئ خلق شيء من غير أصل، فيحدث خلقه ابتداء، ثم يفنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه، فإنهم لا يقدرون على دعوى ذلك لها. وفي ذلك الحجة القاطعة والدلالة الواضحة على أنهم في دعواهم أنها أرباب، وهي لله في العبادة شركاء، كاذبون مفترون".

قال ابن كثير:" وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} أي: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقًا جديدًا؟".

=

=

عن مجاهد قوله: " {يبدؤا الخلق ثم يعيده}: يحييه ثم يميته ثم يبديه ثم يحييه".
قوله تعالى: {قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [يونس: ٣٤]، أي:" قل -أيها الرسول-: الله تعالى وحده هو الذي ينشئ الخلق ثم يفنيه ثم يعيده".
قال الطبري:" فقل لهم حينئذ، يا محمد: الله يبدأ الخلق فينشئه من غير شيء، ويحدثه من غير أصل، ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل الفناء".
قال ابن كثير:" هو الذي يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له".
قال السعدي: (قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) من غير مشارك ولا معاون له على ذلك.
قال الشنقيطي: أَلْقَمَ اللهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ حَجَرًا، بِأَنَّ الشُّرَكَاءَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ بِالْإِحْيَاءِ مَرَّةً أُخْرَى، وَأَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.
وَصَرَّحَ بِمِثْلِ هَذَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:
كَقَوْلِهِ (اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).
وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا).
وَقَوْلِهِ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ).
وَقَوْلِهِ (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ).
وَقَوْلِهِ (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ).
وَقَوْلِهِ (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ).

=

=

وَقَوْلِهِ (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ). وَالْآيَاتُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَسْوِيَةَ مَا لَا يَضُرُّ، وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مَعَ مَنْ بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ الْمُتَصَرِّفِ بِكُلِّ مَا شَاءَ، لَا تَصْدُرُ إِلَّا مِمَّنْ لَا عَقْلَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ ذَلِكَ (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ).

- **قال الشوكاني**: هَذَا الْقَوْلُ الذي قاله النبي ﷺ عَنْ أَمْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ لَهُ هُوَ نِيَابَةٌ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْجَوَابِ:

إِمَّا: عَلَى طَرِيقِ التَّلْقِينِ لَهُمْ، وَتَعْرِيفِهِمْ كَيْفَ يُجِيبُونَ، وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَا يَقُولُونَ.

وَإِمَّا: لِكَوْنِ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ بَلَغَ فِي الْوُضُوحِ إِلَى غَايَةٍ لَا يُحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى إِقْرَارِ الْخَصْمِ، وَمَعْرِفَةِ مَا لَدَيْهِ.

وَإِمَّا: لِكَوْنِ الْمُشْرِكِينَ لَا يَنْطِقُونَ بِمَا هُوَ الصَّوَابُ فِي هَذَا الْجَوَابِ فِرَارًا مِنْهُمْ عَنْ أَنْ تَلْزَمَهُمُ الْحُجَّةُ، أَوْ أَنْ يُسَجِّلَ عَلَيْهِمْ بِالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ إِنْ حَادُوا عَنِ الْحَقِّ.

قوله تعالى: {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [يونس: ٣٤]، أي:" فكيف تنصرفون عن طريق الحق إلى الباطل، وهو عبادة غير الله؟".

قال الطبري:" يقول: فأي وجه عن قصد السبيل وطريق الرشد تصرفون وتقلبون؟".

قال ابن كثير:" أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟!".

عن ابن عباس في قوله: " {أنى يؤفكون}، قال: يكذبون".

عن الحسن:" {فأنى تؤفكون}، قال: فأنى تصرفون".

والمعنى: وإذا كان الأمر كذلك من الوضوح والظهور فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ والإفك الصرف والقلب عن الشيء. يقال: أفكه عن الشيء يأفكه أفكًا، إذا قلبه عنه وصرفه.

=

=

أي فكيف ساغ لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق، إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر؟!.

- وجعل سبحانه إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم في التدليل على قدرته مع عدم اعترافهم بها، للإيذان بسطوع أدلتها، لأن القادر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ).

فلما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد أو المكابرة، نزل إنكارهم لها منزلة العدم.

قوله تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} [يونس: ٣٥]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: هل مِن شركائكم مَن يرشد إلى الطريق المستقيم؟".

وهو توبيخ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين: هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالًا؟ أو يهدي حائرا؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة؟ فينزل كتابًا، أو يرسل رسولًا، أو يشرع شريعة، أو يضع نظامًا دقيقًا لهذا الكون. أو يحث العقول على التدبر والتفكر في ملكوت السموات والأرض... ؟.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل}، يا محمد لهؤلاء المشركين {هل من شركائكم} الذين تدعون من دون الله، وذلك آلهتهم وأوثانهم، من يرشد ضالا من ضلالته إلى قصد السبيل، ويسدد جائرا عن الهدى إلى واضح الطريق المستقيم؟ فإنهم لا يقدرون أن يدعوا أن آلهتهم وأوثانهم ترشد ضالا أو تهدي جائرا. وذلك أنهم إن ادعوا ذلك لها أكذبتهم المشاهدة، وأبان عجزها عن ذلك الاختبار بالمعاينة".

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ} [يونس: ٣٥]، أي:" قل لهم: الله وحده يهدي

=

=

الضال عن الهدى إلى الحق".

قال الطبري:" فإذا قالوا "لا" وأقروا بذلك، فقل لهم. فالله يهدي الضال عن الهدى إلى الحق".

قال ابن كثير:"أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله، الذي لا إله إلا هو".

قال الشوكاني: "وَهِدَايَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ إِلَى الْحَقِّ هِيَ: بِمَا نَصَبَهُ لَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِرْسَالِهِ لِلرُّسُلِ، وَإِنْزَالِهِ لِلْكُتُبِ، وَخَلْقِهِ لِمَا يَتَوَصَّلُ بِهِ الْعِبَادُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ".

وقال السعدي: "(قُلِ اللهُ) وحده (يَهْدِي لِلْحَقِّ) بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق".

قال الزجاج:" المعنى: يهدي من يشاء للحق".

قال ابن عباس: "يريد يرشد إلى الحق أهل الحق".

قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى} [يونس: ٣٥]، أي:" أفمن يرشد إلى الحق وهو سبحانه وتعالى أحقُّ بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحدًا؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلًا عن هداية غيرها؟".

قال الطبري:" أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع، أم من لا يهتدي إلى شيء إلا أن يهدي؟".

قال ابن كثير:" أي: أَفَيُتَّبَع العبد الذي يهدي إلى الحق ويُبَصّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى، لعماه وبكمه؟ كما قال تعالى إخبارًا عن إبراهيم أنه قال: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: ٤٢]،

=

=

وقال لقومه: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون} [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات".

قال الزجاج:" أي: قُرِرُوا، فقيلَ لهم: أيٌّ أولى بالاتباع؛ الذي يهدي أم الذي لا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى. وجاء في التفسير أنه يعنى به الأصنام".

عن مجاهد في قوله: " {أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى}، الأوثان- الله ﷻ يهدي منها ومن غيرها ما شاء".

قال الواحدي:" أي: آلله الذي يهدي ويرشد إلى الحق أهل الحق أحق أن يتبع أمره، أو الأصنام التي لا تهدي أحدًا ولا تهدي إلى خير؟! وهذا معنى قول ابن عباس، والحسن، والمفسرين ".

قال البغوي: إِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ: "إِلَّا أَنْ يُهْدَى"، وَالصَّنَمُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَهْتَدِيَ وَلَا أَنْ يُهْدَى؟.

قِيلَ: مَعْنَى الْهِدَايَةِ فِي حَقِّ الْأَصْنَامِ الِانْتِقَالُ، أَيْ: أَنَّهَا لَا تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ إِلَّا أَنْ تُحْمَلَ وَتُنْقَلَ، يَتَبَيَّنُ بِهِ عَجْزُ الْأَصْنَامِ.

وَجَوَابٌ آخَرُ وَهُوَ: أَنَّ ذِكْرَ الْهِدَايَةِ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا اتَّخَذُوا الْأَصْنَامَ آلِهَةً وَأَنْزَلُوهَا مَنْزِلَةَ مَنْ يَسْمَعُ وَيَعْقِلُ عَبَّرَ عَنْهَا بِمَا يُعَبَّرُ عَمَّنْ يَعْلَمُ وَيَعْقِلُ، وَوُصِفَتْ بِصِفَةِ مَنْ يَعْقِلُ.

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) أي: فما بالكم يُذْهَبُ بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خَلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [يونس: ٣٥]، أي:" فما بالكم كيف سوَّيتم بين الله وخلقه؟".

=

=

ما الذي وقع لكم، وما الذي أصابكم في عقولكم حتى صرتم تشركون في العبادة مع الله الخالق الهادي، مخلوقات لا تهدى بنفسها وإنما هي في حاجة إلى من يخلقها ويهديها.

قال الطبري:" ألا تعلمون أن من يهدي إلى الحق أحق أن يتبع من الذي لا يهتدي إلى شيء، إلا أن يهديه إليه هاد غيره، فتتركوا اتباع من لا يهتدي إلى شيء وعبادته، وتتبعوا من يهديكم في ظلمات البر والبحر، وتخلصوا له العبادة فتفردوه بها وحده، دون ما تشركونه فيها من آلهتكم وأوثانكم؟".

قال ابن كثير:" أي: فما بالكم يُذْهَبُ بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خَلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة".

- قال الرازي: واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولا ثم بالهداية ثانيًا، عادة مطردة في القرآن، فقد حكى سبحانه عن إبراهيم أنه ذكر ذلك فقال (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ).

وعن موسى أنه قال (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى).

وأمر محمدًا ﷺ بذلك فقال (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى).

وهو في الحقيقة دليل شريف، لأن الإنسان له جسد وله روح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية، فهاهنا أيضا لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهو قوله (مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية.

- وقال الشوكاني: وَالِاسْتِدْلَالُ بِالْهِدَايَةِ بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ بِالْخَلْقِ وَقَعَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) وَقَوْلِهِ: (الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ

=

=

هَدى) وَقَوْلِهِ: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى).

قوله تعالى: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا} [يونس: ٣٦]، أي:" وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين في جعلهم الأصنام آلهة واعتقادهم بأنها تقرِّب إلى الله إلا تخرصًا وظنًا".

قال الطبري:" قول تعالى ذكره: وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ظنا، يقول: إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته، بل هم منه في شك وريبة".

قال ابن كثير:" ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلا ولا برهانًا، وإنما هو ظن منهم، أي: توهم وتخيل".

قال مقاتل:" يعني: الآلهة يقول إن هذه الآلهة تمنعهم من العذاب".

قال السمعاني:" الظن: حالة بين الشك واليقين".

قال البغوي: (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا) منْهُمْ، يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَصْنَامَ آلِهَةٌ، وَإِنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ، لَمْ يَرِدْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا رَسُولٌ، وَأَرَادَ بِالْأَكْثَرِ: جَمِيعَ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ.

- وخص أكثرهم بالذكر، لأن هناك قلة منهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم لا يتبعونه عنادًا وجحودًا وحسدًا، كما قال تعالى (فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ).

ويجوز أن يكون سبحانه خص أكثرهم بالذكر، للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق، وستتبعه في الوقت الذي يريده الله تعالى.

قوله تعالى: {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس: ٣٦]، أي:"إن الظن لا يغني من اليقين شيئًا".

قال الطبري:" يقول: إن الشك لا يغني من اليقين شيئا، ولا يقوم في شيء مقامه، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين".

=

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧).

{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآن أَنْ يُفْتَرَى} أَيْ افْتِرَاء {مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {وَلَكِنْ} أُنْزِلَ {تَصْدِيق الَّذِي بَيْن يَدَيْهِ} مِنْ الْكُتُب {وَتَفْصِيل الْكِتَاب} تَبْيِين مَا كَتَبَهُ الله

=

قال ابن كثير: أي:" وذلك لا يغني عنهم شيئا".

قال السمعاني:" معناه: إن الظن لا يقوم مقام الحق بحال".

قال الصابوني:" أي: ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات، ظنٌ كاذب لا يغني من اليقين شيئًا، فليس الظنُّ كاليقين".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس: ٣٦]، وجهان:

أحدهما: أنه منزلة بين اليقين والشك، وليست يقينًا وليست شكًا.

الثاني: إن الظن ما تردد بين الشك واليقين وكان مرة يقينًا ومرة شكًا.

قال عطاء: "يريد: ليس الظن كاليقين".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس: ٣٦]، أي:" إن الله عليم بما يفعل هؤلاء المشركون من الكفر والتكذيب".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بما يفعل هؤلاء المشركون، من اتباعهم الظن، وتكذيبهم الحق اليقين، وهو لهم بالمرصاد، حيث لا يغني عنهم ظنهم من الله شيئا".

قال ابن كثير:" تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء".

عن سعيد بن جبير: " {عليم}، يعني: عالم بها".

قال محمد بن إسحاق:" أي: عليم بما يخفون".

مِنْ الْأَحْكَام وَغَيْرهَا {لَا رَيْب} شَكّ {فِيهِ مِنْ رَبّ الْعَالَمِينَ} مُتَعَلِّق بِتَصْدِيقِ أَوْ بِأُنْزِلَ الْمَحْذُوف وَقُرِئَ بِرَفْعِ تَصْدِيق وَتَفْصِيل بِتَقْدِيرِ هُوَ[1].

(١) قوله تعالى: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ} [يونس: ٣٧]، أي:" وما كان يتهيَّأ لأحد أن يأتي بهذا القرآن مِن عند غير الله، لأنه لا يقدر على ذلك أحد من الخلق".

فليس من شأن هذا القرآن المعجز، أن يخترعه أو يختلقه أحد من الإنس أو الجن أو غيرهما لأن ما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة وتشريعات حكيمة، وآداب قويمة، وهدايات جامعة يشهد بأنه من كلام خالق القوى والقدر.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، يقول: ما ينبغي له أن يتخرصه أحد من عند غير الله، وذلك نظير قوله: {وما كان لنبي أن يغل} [آل عمران: ١٦١]، بمعنى: ما ينبغي لنبي أن يغله أصحابه، وإنما هذا خبر من الله جل ثناؤه أن، هذا القرآن من عنده، أنزله إلى محمد عبده، وتكذيب منه للمشركين الذين قالوا: "هو شعر وكهانة"، والذين قالوا: "إنما يتعلمه محمد من يحنس الرومي". يقول لهم جل ثناؤه: ما كان هذا القرآن ليختلقه أحد من عند غير الله، لأن ذلك لا يقدر عليه أحد من الخلق".

قال ابن كثير:" أي: هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله تعالى الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في أقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ الله".

قال الشوكاني:"أَيْ: وَمَا صَحَّ وَمَا اسْتَقَامَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى =

=

الْحُجَجِ الْبَيِّنَةِ، وَالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ يُفْتَرَى مِنَ الْخَلْقِ مِنْ دُونِ اللهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﷻ، وَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُفْتَرًى، وَقَدْ عَجَزَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْهُ الْقَوْمُ الَّذِينَ هُمْ أَفْصَحُ الْعَرَبِ لِسَانًا وَأَدَقُّهُمْ أَذْهَانًا".

وفي قوله تعالى: {وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ} [يونس: ٣٧]، وجهان من التفسير:

أحدهما: وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله.

والوجه الثاني: وما ينبغي لمثل هذا القرآن أن يفترى من دون الله لقوله تعالى: {وما كان لنبي أن يغل} معناه: وما ينبغي لمثل النبي أن يغل.

قوله تعالى: {وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [يونس: ٣٧]، أي:" ولكن الله أنزله مصدِّقا للكتب التي أنزلها على أنبيائه؛ لأن دين الله واحد".

قال الطبري:" أي: يقول تعالى ذكره: ولكنه من عند الله أنزله مصدقا لما بين يديه، أي لما قبله من الكتب التي أنزلت على أنبياء الله، كالتوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه".

قال ابن كثير:" أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمنا عليها، ومبينا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل".

وفي قوله تعالى: {وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [يونس: ٣٧]، ثلاثة وجوه:

أحدهما: شاهد بصدق ما تقدم من التوراة والإنجيل والزبور.

الثاني: تصديق الشيء الذي القرآن بين يديه من البعث والنشور والجزاء والحساب.

والثالث: أن يكون معناه ولكن يصدقه الذي بين يديه من الكتب السالفة بما فيها من ذكره فيزول عنه الافتراء. أفاده الماوردي.

وتصديق القرآن للكتب السابقة من وجهين:

=

=

الوجه الأول: أنه حاكمًا لها بالصدق، أي: حكم بأنها صدق من عند الله ﷻ.
الوجه الثاني: أنه صدقها لأنها أخبرت به فوقع مصدقًا لها، فإن الكتب السابقة أخبرت بهذا القرآن، وأن سينزل، ووصفت النبي ﷺ الذي سينزل عليه بأوصافه التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.
- قال ابن كثير: وكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله.
- قال الرازي: قوله (ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ) وتقرير هذه الحجة من وجوه: أحدها: أن محمدًا - عليه السلام - كان رجلًا أميًا ما سافر إلى بلدة لأجل التعلم، وما كانت مكة بلدة العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم إنه - عليه السلام - أتى بهذا القرآن، فكان هذا القرآن مشتملًا على أقاصيص الأولين، والقوم كانوا في غاية العداوة له، فلو لم تكن هذه الأقاصيص موافقة لما في التوراة والإنجيل لقدحوا فيه ولبالغوا في الطعن فيه، ولقالوا له إنك جئت بهذه الأقاصيص لا كما ينبغي، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه، وعلى تقبيح صورته، علمنا أنه أتى بتلك الأقاصيص مطابقة لما في التوراة والإنجيل، مع أنه ما طالعهما ولا تلمذ لأحد فيهما، وذلك يدل على أنه - عليه السلام - إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحي من قبل الله تعالى.
الحجة الثانية: أن كتب الله المنزلة دلت على مقدم محمد عليه السلام، على ما استقصينا في تقريره في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) وإذا كان الأمر كذلك كان مجيء محمد - عليه السلام - تصديقًا لما في تلك الكتب، من البشارة بمجيئه ﷺ، فكان هذا عبارة عن تصديق الذي بين يديه.
الحجة الثالثة: أنه - عليه السلام - أخبر في القرآن عن الغيوب الكثيرة في المستقبل، ووقعت مطابقة لذلك الخبر، كقوله تعالى: (الم غُلِبَتِ الروم) الآية،
=

=

وكقوله تعالى (لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرؤيا بالحق) وكقوله (وَعَدَ الله الذين ءامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الارض) وذلك يدل على أن الإخبار عن هذه الغيوب المستقبلة، إنما حصل بالوحي من الله تعالى، فكان ذلك عبارة عن تصديق الذي بين يديه، فالوجهان الأولان: إخبار عن الغيوب الماضية والوجه الثالث: إخبار عن الغيوب المستقبلة، ومجموعها عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

قال الشوكاني: وَنَفْسُ هَذَا التَّصْدِيقِ مُعْجِزَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، لِأَنَّ أَقَاصِيصَهُ مُوَافِقَةٌ لِمَا فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ وَلَا تَعَلَّمَهُ وَلَا سَأَلَ عَنْهُ وَلَا اتَّصَلَ بِمَنْ لَهُ عِلْمٌ بِذَلِكَ.

قوله تعالى: {وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ} [يونس: ٣٧]، أي:" وفي هذا القرآن بيان وتفصيل لما شرعه الله لأمة محمد ﷺ".

قال الطبري:" يقول: وتبيان الكتاب الذي كتبه الله على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفرائضه التي فرضها عليهم في السابق من علمه".

قال ابن كثير:" أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام".

قال السمعاني:" التفصيل: التبيين".

قال ابن عاشور: والظاهر أن تعريف الكتاب تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلها.

ومعنى كون القرآن تفصيلًا لها أنه مبين لما جاء مجملًا في الكتب السالفة، وناسخ لما لا مصلحة للناس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضل بها أهل الكتاب، فكل ذلك داخل في معنى التفصيل، وهو معنى قوله تعالى (ومهيمنًا عليه) في سورة العقود.

قوله تعالى: {لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ٣٧]، أي:" لا شك في أن

=

=

هذا القرآن موحىً من رب العالمين".

قال الطبري:" لا شك فيه أنه تصديق الذي بين يديه من الكتاب وتفصيل الكتاب من عند رب العالمين، لا افتراء من عند غيره ولا اختلاق".

قال ابن كثير: أي:" بيانًا شافيًا كافيًا حقًّا لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم في حديث الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب: «فيه خَبَرُ ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم»، أي: خَبَر عما سلف وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه".

قال السعدي: "لا ريب فيه: ونفي الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين، المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة: أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمنًا لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

- فيه دليل على أنه لا ينبغي للمسلم أن يرتاب في هذا الكتاب، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله إلى قيام الساعة".

واختُلِف في "العالم"، على أقوال:

أحدها: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا قول أبي إسحاق الزجَّاج، وقتادة، ومجاهد، وابن عباس في رواية الضحاك عنه.

قال الثعلبي:"واحتجوا بقوله: {قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا} [الشعراء:٢٣ - ٢٤]".

الثاني: أنّه الإنس، والجنِّ، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن جريج، ومقاتل بن سليمان.

ودليلهم قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، ولم يكن نذيرا للبهائم.

=

=

كما ويقوي هذا القول، جمع الكلمة على (عالمون)، وهو جمع لايكون إلا مع العاقل! فيكون هذا دليلا على أن الحديث عن عوالم عاقلة.

الثالث: أن العالم: الدنيا وما فيها.

الرابع: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦٥]، أي: من الناس، وقال العجّاج:

فَخِنْدِفٌ هامَةُ هَذَا العَالَمِ — مبارك للأنبياء خاتم

وقال جرير بن الخطفى:

تنصفه البرية وهو سام — ويضحي العالمون له عيالا

الخامس: أن العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم: عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. وهذا قول الفراء وأبي عبيدة.

السادس: أن العالمين، أي: المخلوقين. قاله أبو عبيدة، وأنشد قول لبيد بن ربيعة:

ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثلهم في العالمينا

السابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيّون، وابن قتيبة، وهو معنى قول ابن عباس كذلك: "كل ذي روح دبّ على وجه الأرض".

الثامن: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق.

قال الشنقيطي:" لم يبين هنا ما (العالمون)، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: {قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا} [الشعراء:٢٣ - ٢٤]".

والظاهر أن {العالَمين}: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و

=

=

(العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و (العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم. والله أعلم.
واختلفوا في اشتقاقه على وجهين:
أحدهما: أنه مشتق من العلم، وهذا تأويل مَنْ جعل العالم اسمًا لما يعقل.
والثاني: أنه مشتق من العلامة، لأنه دلالة على خالقه، وهذا تأويل مَنْ جعل العالم اسمًا لكُلِّ مخلوقٍ.
قال الخليل: "العلم والعلامة والمعلم: ما دل على الشيء، فالعالم دال على أن له خالقا ومدبرا"، وقد ذكر أن رجلا قال بين يدي الجنيد: الحمد لله، فقال له: أتمها كما قال الله قل رب العالمين فقال الرجل: ومن العالمين حتى تذكر مع الحق؟ قال: قل يا أخي؟ فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر.
واختلفوا في مبلغ «العالمين» وكيفيتهم، على قولين:
أحدهما: أن الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض، والأرض أربع زوايا في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته. قاله أبو العالية.
عن أبي العالية في قوله:" {رب العالمين}، قال: الجن عالم، والإنس عالم وسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة، وعلى الأرض في كل زاوية منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته تبارك وتعالى".
وهذه الأخبار ليست دقيقة، قال ابن كثير بعد أن أورد قول أبي العالية: " وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح". وهذا حق.
الثاني: أن «العالمين»: ألف أمة ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وهذا قول تبيع.
وقال كعب الأحبار: "لا يحصي عدد العالمين إلّا الله، قال الله: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المثر:٣١]".

=

=

- قال السعدي رحمه الله أيضا: وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة:
فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.
والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر.
- قال بعض العلماء: واعلم أن تربيته تعالى مخالفة لتربية غيره، وبيانه من وجوه:
الأول: أنه تعالى يربي عبيده لا لغرض نفسه، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم.
الثاني: أن غيره إذا ربى فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه وفي ماله وهو متعال عن النقصان والضرر، كما قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ).
الثالث: أن غيره من المحسنين إذا ألح الفقير عليه أبغضه وحرمه ومنعه، والحق تعالى بخلاف ذلك، كما قال ﷺ: (إن الله تعالى يحب الملحين في الدعاء).
الرابع: أن غيره من المحسنين ما لم يطلب منه الإحسان لم يعط، أما الحق تعالى فإنه يعطي قبل السؤال، ألا ترى أنه رباك حال كنت جنينًا في رحم الأم، وحال ما كنت جاهلًا غير عاقل، لا تحسن أن تسأل منه، ووقاك وأحسن إليك مع أنك ما سألته وما كان لك عقل ولا هداية.
الخامس: أن غيره من المحسنين ينقطع إحسانه إما بسبب الفقر أو الغْيبة أو الموت، والحق تعالى لا ينقطع إحسانه البتة.
السادس: أن غيره من المحسنين يختص إحسانه بقوم دون قوم ولا يمكنه التعميم، أما الحق تعالى فقد وصل تربيته وإحسانه إلى الكل، كما قال: (وَرَحْمَتِي
=

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨).

{أم} بل أ {يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} اخْتَلَقَهُ مُحَمَّد {قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْله} فِي الْفَصَاحَة وَالْبَلَاغَة عَلَى وَجْه الِافْتِرَاء فَإِنَّكُمْ عَرَبِيُّونَ فُصَحَاء مِثْلِي {وَادْعُوَا} لِلْإِعَانَةِ عَلَيْهِ {مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِي أَنَّهُ افْتِرَاء فَلَمْ تقدروا على ذلك قال تعالى.

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩).

{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} أَيْ الْقُرْآن وَلَمْ يَتَدَبَّرُوهُ {وَلَمَّا} لَمْ {يَأْتِهِمْ تَأْوِيله} عَاقِبَة مَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيد {كَذَلِكَ} التَّكْذِيب {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ} رُسُلهمْ {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الظَّالِمِينَ} بِتكْذِيبِ الرُّسُل أَيْ آخِر أَمْرهمْ مِنْ الْهَلَاك فَكَذَلِكَ نُهْلِك هَؤُلَاءِ[1].

=

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).

(١) قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [يونس: ٣٨]، أي:" بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أم يقول هؤلاء المشركون: افترى محمد هذا القرآن من نفسه فاختلقه وافتعله؟".

عن وهب بن منبه قال: "الكذب هو الفرية وإن رأس الفرية الكذب على الله ثم هو ما بين ذلك حتى يأتي... كذب وما بين الكفر بالله كفر يأتي كفر النعم".

قوله تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ} [يونس: ٣٨].

=

=

أي: قل لهم: يا محمد على سبيل التبكيت والتحدي: إن كان الأمر كما زعمتم من أنى أنا الذي اختلقت هذا القرآن، فأتوا أنتم يا فصحاء العرب بسورة مثل سوره في البلاغة والهداية وقوة التأثير، وقد أبحت لكم مع ذلك أن تدعوا لمعاونتكم ومساعدتكم في بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله تعالى.

وجاءت كلمة (سورة) منكرة، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه.

والضمير في (مِثْلِهِ) يعود إلى القرآن الكريم، والمراد بمثله هنا: ما يشابهه في حسن النظم، وجمال الأسلوب، وسداد المعنى، وقوة التأثير.

وكلمة مَنِ في قوله (مَنِ اسْتَطَعْتُمْ) تشمل آلهتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة.

- وقد وقع التحدي بالقرآن على أوجه:

تحداهم أن يأتوا بقرآن بمثل هذا القرآن:

قال تعالى (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) وقال تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا).

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله:

قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله: كما في هذه الآية.

وفي قوله تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقوله (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ) قيل: أعوانكم ونصراءكم، وقيل: آلهتكم،

=

=

وقيل: ائتوا بشهداء يشهدون لكم أن ما أتيتم به يعادل القرآن أو يقاربه.

وهذا غاية التحدي لهم. وهذا كما يقول المعجِز المتحدي لمن عانده وتحداه: اذهب وائت بمن تستطيع من أصحابك وأعوانك وأوليائك لتستعين بهم.

- قال ابن كثير: ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى،... فكلٌ من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا) أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى،... لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء.

- فلا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه، كما قال تعالى (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا) أي معينًا.

قال الطبري:" قل يا محمد لهم: إن كان كما تقولون إني اختلقته وافتريته، فإنكم مثلي من العَرب، ولساني مثل لسانكم، وكلامي مثل كلامكم، فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن".

قال الصابوني:" وهو تعجيزٌ لهم وإقامة حجة عليهم".

قال ابن كثير:" أي: إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذبًا ومَيْنا: "إن هذا من عند محمد"، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قَدرتم عليه من إنس وجان.. هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووَجازته وحَلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة للعزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في

=

=

أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين".

قال السمعاني:" معنى الآية: هو الاحتجاج على الكفار بمعجزة القرآن؛ فإنهم كانوا يقولون: إن محمدا قد افتراه، فقال لهم: إن كان افتراه وأتى به من عند نفسه فأتوا أنتم بمثله".

وفي «الهاء» في قوله تعالى: {مِثْلِهِ} [يونس: ٣٨]، قولان:

أحدهما: أنه كناية عن القرآن، أي: مثل هذا القرآن. قاله مجاهد، وقتادة، واختاره الطبري.

قال قتادة:" مثل هذا القرآن حقا وصدقا لا باطل فيه ولا كذب".

قال السمعاني:" فإن قيل: قال: {فأتوا بسورة مثله} فللقرآن مثل يؤتى بسورة منه؟ الجواب: أن معناه: فأتوا بسورة من مثله في البلاغة والنظم وصحة المعنى. وقيل: إن معناه: فأتوا بسورة مثل سورة القرآن".

والثاني: معناه: قل فأتوا بسورة مثل سورته، ثم ألقيت «سورة»، وأضيف «المثل» إلى ما كان مضافًا إليه «السورة»، كما قيل: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: ٨٢] يراد به: واسأل أهل القرية. وهذا قول بعض نحويي البصرة.

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي، أن «السورة» إنما هي سورة من القرآن، وهي قرآن، وإن لم تكن جميع القرآن. فقيل لهم: {فأتوا بسورة مثله}، ولم يقل: «مثلها»، لأن الكناية أخرجت على المعنى- أعني معنى «السورة» - لا على لفظها، لأنها لو أخرجت على لفظها لقيل: «فأتوا بسورة مثلها»".

قوله تعالى: {وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ} [يونس: ٣٨]، أي:" وادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه، من الإنس والجن للاستعانة بهم".

قال الطبري:" يقول: وادعوا، أيها المشركون على أن يأتوا بسورة مثلها مَنْ قدرتم أن تدعوا على ذلك من أوليائكم وشركائكم من عند غير الله، فأجمِعُوا على ذلك

=

=

واجتهدوا، فإنكم لا تستطيعون أن تأتوا بسورةٍ مثله أبدًا".

عن ابن عباس:" {وادعوا من استطعتم} من أعوانكم على ما أنتم عليه {إن كنتم صادقين}".

عن مجاهد:" {وادعوا}، قال: ناس يشهدون به".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٣٨]، أي:" إن كنتم صادقين في أن محمدًا افتراه".

قال الطبري:" يقول: إن كنتم صادقين في أن محمدًا افتراه، فأتوا بسورة مثله من جميع من يعينكم على الإتيان بها. فإن لم تفعلوا ذلك، فلا شك أنكم كَذَبَةٌ في زعمكم أن محمدًا افتراه، لأن محمدًا لن يَعْدُوَ أن يكون بشرًا مثلكم، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورةٍ مثله، فالواحد منهم عن أن يأتي بجميعه أعجز".

قال ابن كثير:" وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين في دعواهم، أنه من عند محمد، فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم وأخبر أنهم لا يقدرون على

ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} وكذا في سورة البقرة - وهي مدنية - تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدا، فقال: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ} الآية: [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا

=

=

الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقيادا، كما عرف السحرة، لعلمهم بفنون السحر، أن هذا الذي فعله موسى، عليه السلام، لا يصدر إلا عن مُؤيَّد مُسَدد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عليه السلام، بُعِث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا» ".

قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} [يونس: ٣٩]، أي:" بل سارَعوا إلى التكذيب بالقرآن أول ما سمعوه، قبل أن يتدبروا آياته، وكفروا بما لم يحيطوا بعلمه من ذكر البعث والجزاء والجنة والنار وغير ذلك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما بهؤلاء المشركين يا محمد، تكذيبك ولكن بهم التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ممَّا أنزل الله عليك في هذا القرآن، من وعيدهم على كفرهم بربهم".

قال ابن كثير:" يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه".

قال الشوكاني: وهكذا صنع من تصلب في التقليد ولم يبال لما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف، بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه، ويعلم مبناه، كما تراه عيانا، وتعلمه وجدانا. والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه، فهو

=

=

لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب إلا مجرد كونه جاهلا لما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت، ومسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه.

- **قال ابن عاشور**: والمعنى أنهم سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه.

وإنما يكون مثل هذا التكذيب عن مكابرة وعداوة لا عن اعتقاد كونه مكذوبا.

وفي قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} [يونس: ٣٩]، وجهان:

أحدهما: لم يعلموا ما عليهم بتكذيبهم لشكهم فيه.

الثاني: لم يحيطوا بعلم ما فيه من وعد ووعيد لإعراضهم عنه.

قيل للحسين بن الفضل: "هل تجد في القرآن من جهل شيئا عاداه؟، فقال: نعم في موضعين: {بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه}، وقوله: {وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم}".

قوله تعالى: {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} [يونس: ٣٩]، أي:" ولم يأتهم بعدُ حقيقة ما وُعِدوا به في الكتاب".

قال الطبري:" يقول: ولما يأتهم بعدُ بَيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذي توعّدهم الله في هذا القرآن".

قال ابن كثير:" أي: ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفهًا".

وفي قوله تعالى: {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} [يونس: ٣٩]، وجهان:

أحدهما: علم ما فيه من البرهان. حكاه الماوردي.

=

=

قال مقاتل:" يعني: بيانه".

الثاني: ما يؤول إليه أمرهم من العقاب. وهو معنى قول عطاء.

قال الضحاك: "يعني: عاقبته وما وعد الله في القرآن انه كائن من الوعيد".

قال الزجاج:" لَمْ يأتِهِمْ ما يؤول إليه أمرهم في التكذيبِ به من العقوبة، ودليل هذا القول: {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ}".

قال الشوكاني: والمعنى: أن التكذيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه، وقبل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين والأمم السابقين، ومن حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلة التي أخبر عنها قبل كونها، أو قبل أن يفهموه حق الفهم وتتعقله عقولهم، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغي، وعرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام الله وعلى هذا: فمعنى: تأويله، ما يؤول إليه لمن تدبره من المعاني الرشيقة واللطائف الأنيقة.

- وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن (من جهل شيئا عاداه) قال نعم، في موضعين: "بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه" وقوله (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذآ إفك قديم).... (تفسير القرطبي).

قوله تعالى: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [يونس: ٣٩]، أي:" مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم".

قال مقاتل:" الأمم الخالية".

أي: كما كذب المشركون نبيهم محمدا ﷺ عن جهل وجحود: كذب الذين من قبلهم أنبياءهم، كقوم نوح وعاد وثمود، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كما كذب هؤلاء المشركون، يا محمد، بوعيد

=

=

الله، كذلك كذّب الأمم التي خلت قبلهم بوعيد الله إياهم على تكذيبهم رسلهم وكفرهم بربهم".

قال الشوكاني: أي: مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه، فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه، وقبل أن يأتيهم تأويله فانظر كيف كان عاقبة الظالمين من الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف، والمسخ، ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم، واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم.

- قال ابن عاشور: ومما يقصد من هذا التشبيه أمور:

أحدها: أن هذه عادة المعاندين الكافرين ليعلم المشركون أنهم مماثلون للأمم التي كذبت الرسل فيعتبروا بذلك.

الثاني: التعريض بالنذارة لهم بحلول العذاب بهم كما حل بأولئك الأمم التي عرف السامعون مصيرها وشاهدوا ديارها.

الثالث: تسلية النبي ﷺ بأنه ما لقي من قومه إلا مثل ما لقي الرسل السابقون من أقوامهم.

قوله تعالى: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [يونس: ٣٩]، أي:" فانظر -أيها الرسول- كيف كانت عاقبة الظالمين؟ فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين".

قال ابن كثير:" فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوا، وكفرا وعنادًا وجهلا فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فانظر، يا محمد، كيف كان عُقْبى كفر من كفر بالله، ألم نهلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخَسْف وبعضهم بالغرق؟ يقول: فإن عاقبة هؤلاء الذي يكذبونك ويجحدون بآياتي من كفار

=

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠).

{وَمِنْهُمْ} أَيْ أَهْل مَكَّة {مَنْ يُؤْمِن بِهِ} لِعِلْمِ الله ذَلِكَ مِنْهُمْ {وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِن بِهِ} أَبَدًا {وَرَبّك أَعْلَم بِالْمُفْسِدِينَ} تَهْدِيد لهم[1].

=

قومك، كالتي كانت عاقبة من قبلهم من كفرة الأمم، إن لم ينيبوا من كفرهم، ويسارعوا إلى التوبة".

عن ابن عباس قوله: " {الظالمين}، فنفاهم الله ظالمين بشركهم".

قال مقاتل:" يعني: المكذبين بالبعث".

(١) قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ} [يونس: ٤٠].

أي: ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ومنهم من لا يؤمن به أبدًا لاستحبابه العمى على الهدى.

وعليه يكون المراد بمن يؤمن به، أولئك الذين وفقهم الله لا تباع الحق عن يقين وإذعان.

وقيل: إن المعنى، ومن قومك يا محمد أناس يؤمنون في قرارة نفوسهم بأن هذا القرآن من عند الله، ولكنهم يكذبونك جحودًا وعنادًا، ومنهم من لا يؤمن به أصلًا، لانطماس بصيرته، وإيثاره الغي على الرشد.

وعلى هذا التفسير يكون المراد بمن يؤمن به: أولئك الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكن الغرور والجهل والحسد حال بينهم وبين اتباعه.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن قومك، يا محمد، من قريش، من سوف يؤمن به يقول: من سوف يصدِّق بالقرآن ويقرُّ أنه من عند الله".

قال ابن كثير:" أي: ومن هؤلاء الذين بُعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به".

قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ} [يونس: ٤٠]، أي:" ومنهم من لا يصدِّق به =

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١).

{وَإِنْ كَذَّبُوك فَقُلْ} لَهُمْ {لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلكُمْ} أَيْ لِكُلٍّ جَزَاء عَمَله {أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعَمَل وَأَنَا بَرِيء مِمَّا تَعْمَلُونَ} وَهَذَا مَنْسُوخ بِآيَةِ السَّيْف[1].

=

حتى يموت على ذلك ويبعث عليه".

قال الطبري:" يقول: ومنهم من لا يصدق به ولا يقرُّ أبدًا".

قال ابن كثير:" بل يموت على ذلك ويبعث عليه".

قوله تعالى: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٤٠]، أي:" وربك أعلم بالمفسدين الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعناد والفساد، فيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب".

قال الطبري:" يقول: والله أعلم بالمكذّبين به منهم، الذين لا يصدقون به أبدًا، من كل أحدٍ، لا يخفى عليه، وهو من وراء عقابه. فأما من كتبتُ له أن يؤمن به منهم، فإني سأتوب عليه".

قال ابن كثير:" وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو".

قال الصابوني: أي:"وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله".

عن مجاهد قال: "أن الله لا يخفى عليه الذين يريدون منك الإصلاح والإفساد".

قال عطاء: يريد المكذبين وهذا تهديد لهم".

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ} [يونس: ٤١].

أي: وإن تمادى هؤلاء الأشرار في طغيانهم وفي تكذيبهم لك يا محمد، فقل لهم:

=

=

أنا مسئول عن عملي أمام الله، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه سبحانه، وأنتم بريئون مما أعمله فلا تؤاخذوني عليه، وأنا بريء كذلك من أعمالكم فلا يؤاخذني الله عليها.

فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من قومه. وإعلام له بأن وظيفته البلاغ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله تعالى.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإن كذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون، وردُّوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: أيها القوم، لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم، لا يضرني عملكم، ولا يضركم عملي، وإنما يُجازَى كل عامل بعمله".

قال الزمخشري:" وإن كذبوك وإن تموا على تكذيبك ويئست من إجابتهم، فتبرأ منهم وخلقهم فقد أعذرت، كقوله تعالى فإن عصوك فقل إني بريء".

قوله تعالى: {أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس: ٤١]، أي:" فأنتم لا تؤاخَذون بعملي، وأنا لا أؤاخَذ بعملكم".

قال مقاتل:" يقول: أنتم بريئون من ديني، وأنا بريء من دينكم، يعني: من كفركم".

قال الطبري: أي:"لا تُؤْاخذون بجريرته، لا أوخذ بجريرة عملكم، وهذا كما قال جل ثناؤه: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [سورة الكافرون: ١ - ٣]".

قال ابن زيد في قوله: " {وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم} الآية، قال: أمرَه بهذا، ثم نَسَخه وأمرَه بجهادهم".

قال ابن كثير: يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبك هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عملهم فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ،

=

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢).

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْك} إذَا قَرَأْت الْقُرْآن {أَفَأَنْتَ تُسْمِع الصُّمّ} شَبَّهَهُمْ بِهِمْ فِي عَدِم الِانْتِفَاع بِمَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ {وَلَوْ كَانُوا} مَعَ الصم {لَا يَعْقِلُونَ} يَتَدَبَّرُونَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣).

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُر إِلَيْك أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْي وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} شَبَّهَهُمْ بِهِمْ فِي عَدِم الِاهْتِدَاء بَلْ أَعْظَم {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَار وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوب الَّتِي فِي الصُّدُور}.

=

كقوله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين).

وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين (إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ).

قال الشنقيطي: أَمر اللهُ تَعَالَى نبيه ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، أَنْ يُظْهِرَ الْبَرَاءَةَ مِنْ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ الْقَبِيحَةِ إِنْكَارًا لَهَا، وَإِظْهَارًا لِوُجُوبِ التَّبَاعُدِ عَنْهَا.

وبين هذا المعنى في قوله (قل يا أيها الكافرون - إلى قوله: ولي دين). ونظير ذلك قول إبراهيم الخليل وأتباعه لقومه (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله).

وبين تعالى في موضع آخر أن اعتزال الكفار، والأوثان، والبراءة منهم من فوائده تفضل الله تعالى بالذرية الطيبة الصالحة، وهو قوله في «مريم» (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا).

إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤).

{إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} [يونس: ٤٢]، أي:" ومِنَ الكفار مَن يسمعون كلامك الحق، وتلاوتك القرآن، ولكنهم لا يهتدون".

قال مقاتل:" يعني مشركي قريش {من يستمعون إليك}، يعني: يستمعون قولك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ومن هؤلاء المشركين من يستمعون إلى قولك".

قال ابن كثير:" أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم".

قال الزمخشري:" معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون".

قال السعدي:" يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول، ولما جاء به، {و} أن {منهم من يستمعون} إلى النبي ﷺ، وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع، ولا مجد على أهله خيرا، لا جرم انسد عليهم باب التوفيق، وحرموا من فائدة الاستماع".

عن مجاهد قوله: " {ومنهم من يستمعون إليك}، قال: قريش".

قوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} [يونس: ٤٢]، أي:" أفأنت تَقْدر على إسماع الصم؟ فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله هدايتهم، لأنهم صمٌّ عن سماع الحق، لا يعقلونه".

=

=

قال الطبري:" يقول: أفأنت تخلق لهم السمع، ولو كانوا لا سمع لهم يعقلون به، أم أنا؟ وإنما هذا إعلامٌ من الله عبادَه أن التوفيق للإيمان به بيده لا إلى أحد سواه. يقول لنبيه محمد ﷺ: كما أنك لا تقدر أن تسمع، يا محمد، من سلبته السمع، فكذلك لا تقدر أن تفهم أمري ونهيي قلبًا سلبته فهم ذلك، لأني ختمتُ عليه أنه لا يؤمن".

قال ابن كثير: أي:" فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله".

قال مقاتل:" يقول: كما لا يسمع الصم لا يسمع المواعظ من قد سبقت له الشقاوة في علم الله- تعالى، {ولو}، يعني: إذ {كانوا لا يعقلون} الإيمان".

قال الصابوني: أي:" ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون".

قال الزمخشري:" ثم قال: أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم، لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوى الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر".

قال السعدي:" وهذا الاستفهام، بمعنى النفي المتقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصا إذا كان عقلهم معدوما.

فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك ممتنع إسماعك إياهم، إسماعا ينتفعون به.

وأما سماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير".

قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ} [يونس: ٤٣]، أي:" ومِنَ الكفار مَن ينظر إليك وإلى أدلة نبوتك الصادقة، ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان".

قال ابن عباس:" يريد: متعجبين منك".

=

=

قال الزمخشري: أي:" وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المشركين، مشركي قومِك، من ينظر إليك، يا محمد، ويرى أعلامك وحُججَك على نبوتك، ولكن الله قد سلبه التوفيقَ فلا يهتدي، ولا تقدر أن تهديه، كما لا تقدر أن تحدِث للأعمى بصرًا يهتدي به".

قال ابن كثير:" أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوءتك لأولي البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار".

قال السعدي:" ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: {ومنهم من ينظر إليك} فلا يفيده نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئا".

قوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} [يونس: ٤٣]، أي:" أفأنت -أيها الرسول- تقدر على أن تخلق للعمي أبصارًا يهتدون بها؟ فكذلك لا تقدر على هدايتهم إذا كانوا فاقدي البصيرة، وإنما ذلك كلُّه لله وحده".

قال ابن عباس:" يريد أنهم لا يعقلون ما جئت به، ولا يبصرونه، لأن من أعميت قلبه لم يهتد".

قال المراغي:" أي: إنك أيها الرسول الكريم كما لا تقدر على هداية العمى بدلائل البصر الحسية، لا تقدر على هدايتهم بالدلائل العقلية، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التي تدركها".

قال الزمخشري: أي:" أ تحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى العمى- وهو فقد البصر- فقد البصيرة، لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن. وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء، يعنى: أنهم في اليأس من أن

=

=

يقبلوا ويصدقوا، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول. وقوله أفأنت... دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله ﷻ بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوبى العقل حديدي السمع والبصر راجحى العقل، إلا هو وحده".

قال الطبري:" يقول: أفأنت يا محمد، تحدث لهؤلاء الذين ينظرون إليك وإلى أدلتك وحججك، فلا يوفَّقون للتصديق بك أبصارًا، لو كانوا عُمْيًا يهتدون بها ويبصرون؟ فكما أنك لا تطيق ذلك ولا تقدر عليه ولا غيرك، ولا يقدر عليه أحدٌ سواي، فكذلك لا تقدر على أن تبصِّرهم سبيلَ الرشاد أنت ولا أحدٌ غيري، لأن ذلك بيدي وإليّ.

وهذا من الله تعالى ذكره تسليةٌ لنبيه ﷺ عن جماعةٍ ممن كفر به من قومه وأدبر عنه فكذب، وتعزية له عنهم، وأمرٌ برفع طمعه من إنابتهم إلى الإيمان بالله".

قال السعدي:" فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

ودل قوله: {ومنهم من ينظر إليك} الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ، وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة".

عن ابن عباس: {لا يبصرون}، أي: لا يبصرون الحق".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا} [يونس: ٤٤]، أي:" إن الله لا يظلم الناس شيئًا بزيادة في سيئاتهم أو نقص من حسناتهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله لا يفعل بخلقه ما لا يستحقون منه، لا

=

=

يعاقبهم إلا بمعصيتهم إيّاه، ولا يعذبهم إلا بكفرهم به".

قال الزمخشري: أي:" إن الله لا يظلم الناس شيئا أى لا ينقصهم شيئا مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب".

قال السعدي:" فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [يونس: ٤٤]، أي:" ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر والمعصية ومخالفة أمر الله ونهي".

قال الطبري:" يقول: ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم، باجترامهم ما يورثها غضبَ الله وسخطه".

قال الزمخشري: أي:" ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب. ويجوز أن يكون وعيدا للمكذبين، يعنى: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لا حق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سببا فيه".

قال المراغي:" أي: إنهم يظلمون أنفسهم وحدها دون غيرها، لأن عقاب ظلمهم واقع عليها، فهم يجنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين بعدم استعمالها فيما خلقت لأجله من اتباع الحق فى الاعتقاد والهدى فى الأعمال، وذلك هو الصراط المستقيم الموصل لسعادة الدارين".

قال السعدي:" يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم".

عن ابن عباس قوله: " {أنفسهم يظلمون}، قال: يضرون".

قال الحسن: "ينقصون".

قال السدي:" يعني: يضرون بكفرهم وتكذيبهم".

عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ:" ما أحد أحب إليه المدح من الله، ولا أكثر

=

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥).

{وَيَوْم يَحْشُرهُمْ كَأَنْ} أَيْ كَأَنَّهُمْ {لَمْ يَلْبَثُوا} فِي الدُّنْيَا أَوْ الْقُبُور {إِلَّا سَاعَة مِنْ النَّهَار} لِهَوْلِ مَا رَأَوْا وَجُمْلَة التَّشْبِيه حَال مِنْ الضَّمِير {يَتَعَارَفُونَ بَيْنهمْ} يَعْرِف بَعْضهمْ بَعْضًا إِذَا بُعِثُوا ثُمَّ يَنْقَطِع التَّعَارُف لِشِدَّةِ الْأَهْوَال وَالْجُمْلَة حَال مُقَدَّرَة أَوْ مُتَعَلِّق الظَّرْف {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله} بِالْبَعْثِ {وما كانوا مهتدين[1]}.

=

معاذير من الله عذب قوما بذنوبهم اعتذر إلى المؤمنين قال: {وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}".

(١) قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ} [يونس: ٤٥]، أي:" ويوم يَحشر الله هؤلاء المشركين يوم البعث والحساب، كأنهم قبل ذلك لم يمكثوا في الحياة الدنيا إلا قدر ساعة من النهار".

عن ابن عباس قال:" حشرها: الموت".

قال الضحاك: "قصر عندهم مقدار الوقت الذي بين موتهم وبعثهم فصار كالساعة من النهار، لهول ما استقبلوا من أمر البعث والقيامة".

قال الزمخشري:" إلا ساعة من النهار يستقربون وقت لبثهم في الدنيا. وقيل في القبور، لهول ما يرون".

قال السعدي:" يخبر تعالى، عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس".

- قال ابن كثير: يقول تعالى مذكرا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى

=

=

عرصات القيامة: كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا (إلا ساعة من النهار).
كما قال تعالى (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار....).
كما قال تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها).
وقال تعالى (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما).
وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون).
وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون).
وقوله: (يتعارفون بينهم) أي: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه.
(فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون).
وقال تعالى (ولا يسأل حميم حميما * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه * كلا).
- قال ابن القيم: ويكفى في بالزهد في الدنيا:
قوله تعالى (أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون).
وقوله (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم).

=

=

وقوله (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون).

وقوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها).

وقوله (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة).

وقوله (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين. قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون).

قوله تعالى: {يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} [يونس: ٤٥]، أي:" يعرف بعضهم بعضًا كحالهم في الدنيا".

قال ابن كثير:" أي: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: {وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلا} [المعارج: ١٠، ١٥]".

قال الزمخشري:" يعرف بعضهم بعضا، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا، وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم. فإن قلت: كأن لم يلبثوا ويتعارفون كيف موقعهما؟ قلت أما الأولى فحال من «هم» أى يحشرهم مشهين بمن لم يلبث إلا ساعة. وأما الثانية فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة، لقوله: كأن لم يلبثوا إلا ساعة، لأن التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكرا".

قال السعدي:" وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا".

عن الحسن:" {يتعارفون بينهم}، قال: يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يكلمه

=

=

يعني: يوم القيامة".

- قال القرطبي: قوله تعالى (يتعارفون بينهم) هذا التعارف توبيخ وافتضاح، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر، وليس تعارف شفقة ورحمة وعطف... والصحيح أنه لا ينقطع هذا التعارف التوبيخي عند مشاهدة أهوال القيامة، لقوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول...)، فأما قوله (ولا يسئل حميم حميما (وأشباهه فمعناه: لا يسأله سؤال رحمة وشفقة...

قال الشنقيطي:... ولكنه بين في مواضع أخر أن هذه المعارفة لا أثر لها، فلا يسأل بعضهم بعضا شيئا، كقوله (ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم) وقوله (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون).

فإن قيل: إن هناك بعض الآيات ذكرت أنهم عند ما يسألون يحسبون بأنهم لبثوا في الدنيا يوما أو بعض يوم، أو عشية أو ضحاها كما في قوله تعالى (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم).

وكما في قوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها).

فكيف نجمع بين هذه الآيات التي اختلفت إجابتهم فيها؟.

فالجواب: أن أهل الموقف يختلفون في تقدير الزمن الذي لبثوه في الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم، وعلى حسب أهوال كل موقف، فإن في يوم القيامة مواقف متعددة بعضها أشد من بعض.

قوله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [يونس: ٤٥]، أي:" قد خسر الذين كفروا وكذَّبوا بلقاء الله وثوابه وعقابه، وما كانوا موفَّقين لإصابة الرشد فيما فعلوا".

قال الزمخشري:" أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى

=

=

على خسرانهم. والمعنى أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر وما كانوا مهتدين للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم!".

قال ابن كثير:" خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خَسارة من فُرِّق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة".

قال السعدي:" ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار".

(قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) قد خسر الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله وثوابه وعقابه، وما كانوا موفقين لإصابة الرشد فيما فعلوا.

– قال الشنقيطي: وقد أقسم تعالى على أن هذا الخسران لا ينجو منه إنسان إلا بأربعة أمور:

الأول: الإيمان.

الثاني: العمل الصالح.

الثالث: التواصي بالحق.

الرابع: التواصي بالصبر.

وذلك في قوله: والعصر إن الإنسان....

وبين في مواضع أخر أن المفعول المحذوف الواقع عليه الخسران هو أنفسهم، كقوله في «الأعراف» (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون).

وقوله في «المؤمنون» (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم

=

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦).

{وَإِمَّا} فِيهِ إدْغَام نُون إنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الْمَزِيدَة {نُرِيَنَّكَ بَعْض الَّذِي نَعِدهُمْ} بِهِ مِنْ الْعَذَاب فِي حَيَاتك وَجَوَاب الشَّرْط مَحْذُوف أَيْ فَذَاكَ {أَوْ نَتَوَفَّيَنك} قَبْل تَعْذِيبهمْ {فَإِلَيْنَا مَرْجِعهمْ ثُمَّ الله شَهِيد} مُطَّلِع {عَلَى مَا يَفْعَلُونَ} مِنْ تَكْذِيبهمْ وَكُفْرهمْ فَيُعَذِّبهُمْ أَشَدّ الْعَذَاب[1].

=

خالدون).

وقوله في «هود» (أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون).

وزاد في مواضع أخر خسران الأهل مع النفس، كقوله في «الزمر»:كقوله تعالى (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين).

وقوله في «الشورى» (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم).

وبين في موضع آخر أن خسران الخاسرين قد يشمل الدنيا والآخرة:

وهو قوله (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين).

(١) قوله تعالى: {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} [يونس: ٤٦]، أي:" وإمَّا نرينَّك -أيها الرسول- في حياتك بعض الذي نَعِدُهم من العقاب في الدنيا، أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك فيهم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ: {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ}، أي: ننتقم منهم في حياتك لتقرّ عينُك منهم".

=

=

عن مجاهد قوله: " {وإما نرينك بعض الذي نعدهم}: من العذاب في حياتك".

قوله تعالى: {فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} [يونس: ٤٦]، أي:" فإلينا وحدنا يرجع أمرهم في الحالتين".

قال ابن كثير:" أي: مصيرهم ومتقَلَبهم".

قال مقاتل:" في الآخرة فأنتقم منهم".

قال أبو العالية:" يعني قوله: {إليه مرجعكم}، قال: يرجعون إليه بعد الحياة".

قال القرطبي: "والمقصود إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا".

قوله تعالى: {ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ} [يونس: ٤٦]، أي:" ثم الله شهيد على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، لا يخفى عليه شيء منها، فيجازيهم بها جزاءهم الذي يستحقونه".

قال ابن كثير: أي:" والله شهيد على أفعالهم بعدك".

قال مقاتل:" من الكفر والتكذيب".

قال ابن عباس:" أي: من محاربتك وتكذيبك".

قال الزمخشري:" فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟ قلت: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون.. ويجوز أن يراد: أن الله مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة، حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم".

أخرج الطبراني عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال: "عُرضت عليّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة، أولها وآخرها. فقال رجل: يا رسول الله، عرض عليك من خُلِق، فكيف من لم يخلق؟ فقال: "صُوِّروا لي في الطين، حتى إني لأَعْرَفُ بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه".

أعلم الله تعالى نبيه -عليه السلام- أنه ينتقم من بعض هذه الأمة، ولم يعلمه

=

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧).

{وَلِكُلِّ أُمَّة} مِنْ الْأُمَم {رَسُول فَإِذَا جَاءَ رَسُولهمْ} إلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُ {قُضِيَ بَيْنهمْ بِالْقِسْطِ} بِالْعَدْلِ فَيُعَذَّبُونَ وَيُنَجَّى الرَّسُول وَمَنْ صَدَّقَهُ {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} بِتَعْذِيبِهِمْ بِغَيْرِ جُرْم فَكَذَلِكَ نَفْعَل بِهَؤُلَاءِ(١).

=

أيكون ذلك بعد وفاته أو قبله، فقال المفسرون: كانت وقعة بدر ما أراه في حال حياته".

وقال الزجاج: "والذي تدل عليه الآية أنَّ الله - جَل وعز - أعلمَه أنه إن لم ينتقم منهم في العاجل انتقم منهم في الآجل".

(١) قوله تعالى {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)} [يونس: ٤٧]

التفسير:

ولكل أمة خَلَتْ قبلكم -أيها الناس- رسول أرسلتُه إليهم، كما أرسلت محمدًا إليكم يدعو إلى دين الله وطاعته، فإذا جاء رسولهم في الآخرة قُضِيَ حينئذ بينهم بالعدل، وهم لا يُظلمون مِن جزاء أعمالهم شيئًا.

قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ} [يونس: ٤٧]، أي:" ولكل أمة من الأمم رسولٌ أُرسل لهدايتهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولكل أمة خلت قبلكم، أيها الناس، رسول أرسلته إليهم، كما أرسلت محمدا إليكم، يدعون من أرسلتهم إليهم إلى دين الله وطاعته".

قال الزمخشري:" يبعث إليهم لينبههم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق..

=

=

أو لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به".

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ} [يونس: ٤٧]، أي:" فإذا جاء رسولهم في الآخرة قُضِيَ حينئذ بينهم بالعدل".

قال الطبري:" يعني: في الآخرة، قضي حينئذ بينهم بالعدل".

قال الزمخشري:" {فإذا جاء هم رسولهم}، بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه، {قضي بينهم}، أي: بين النبي ومكذبيه {بالقسط}: بالعدل، فأنجى الرسول وعذب المكذبون، كقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}

[الإسراء: ١٥]، أو.... فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان، كقوله تعالى وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق".

عن مجاهد: {ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم}، قال: يوم القيامة".

وعن مجاهد -أيضا-:" «القسط»: العدل". وروي عن السدي نحو ذلك.

قال ابن كثير:" فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهودٌ أيضا أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضى لهم قبل الخلائق»، فأمته إنما حازت قَصَب السبق لشرف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين".

قال الزجاج:"المعنى -والله أعلم- أنَّ كل رسول شَاهِدٌ على أمَّتِه بإيمانهم وكُفْرهم. كما قال - جلَّ وعزَّ - {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}، وكما قال جلَّ وعزَّ: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}، ويجوز - والله أعلم - أنَّ الله أعلم أنه لا يعذِّبُ قومًا إلا بعد الإعذَارِ إليهم والإنذار، أي لم يعذبهم حتى يجيئهم الرسول،

=

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨).

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْد} بِالْعَذَابِ {إِنْ كُنْتُمْ صادقين} فيه[1].

=

كما قال - جلَّ وعزَّ - {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}، وكما قال: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}".

قال الشنقيطي: صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أن لكل أمة رسولا، وبين هذا في مواضع أخر:

كقوله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا).

وقوله (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير).

وقوله (ولكل قوم هاد) إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين ﷺ أن عدد الأمم سبعون أمة في حديث معاوية بن حيدة القشيري، رضي الله عنه «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله».

(فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) أي: فإذا جاء رسولهم في الآخرة قضي حينئذ بينهم بالعدل، وهم لا يظلمون من جزاء أعمالهم شيئا.

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [يونس: ٤٧]، أي:" وهم لا يُظلمون مِن جزاء أعمالهم شيئًا".

قال الطبري:" من جزاء أعمالهم شيئا، ولكن يجازي المحسن بإحسانه. والمسيء من أهل الإيمان، إما أن يعاقبه الله، وأما أن يعفو عنه، والكافر يخلد في النار. فذلك قضاء الله بينهم بالعدل، وذلك لا شك عدل لا ظلم".

(١) قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} [يونس: ٤٨]، أي:" ويقول المشركون من قومك -أيها الرسول-: متى قيام الساعة".

والآية حكاية لأقوالهم الدالة على طغيانهم وفجورهم.

أي: أن هؤلاء لم يكتفوا بالإعراض عن دعوة الحق، بل قالوا لرسولهم ﷺ الذي

=

=

حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا في كفرهم: متى يقع علينا هذا العذاب الأليم الذي تهددنا؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت أنت وأصحابك من الصادقين في دعواكم أن هناك عذابا ينتظرنا.

وهذا القول منهم يدل على توغلهم في الكفر والجحود، وعدم اكتراثهم بما يخبرهم به الرسول ﷺ.

- ودائما الكفار يستعجلون العذاب استبعادا منهم له:

كما قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده).

وقال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب).

وقال تعالى (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات).

وقال تعالى (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين).

وقال تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب).

وقال تعالى عن قوم هود (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين).

قال الطبري:" ويقول هؤلاء المشركون من قومك، يا محمد {متى هذا الوعد}، الذي تعدنا أنه يأتينا من عند الله؟ وذلك قيام الساعة".

قال السعدي: أي:" ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: {متى هذا الوعد إن كنتم صادقين}".

وفي حديث جبريل المشهور قوله عليه السلام للنبي ﷺ: أخبرني عن الساعة؟ قال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل، سأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها وإذا تطاول رعاء البهم فى البنيان فذاك من أشراطها فى خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله {إن الله عنده علم الساعة} [لقمان: ٣٤] الآية".

=

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩).

{قُلْ لَا أَمْلِك لِنَفْسِي ضَرًّا} أَدْفَعهُ {وَلَا نَفْعًا} أَجْلِبهُ {إِلَّا مَا شَاءَ الله} أَنْ يُقْدِرنِي عَلَيْهِ فَكَيْفَ أَمْلِك لَكُمْ حُلُول الْعَذَاب {لِكُلِّ أُمَّة أَجَل} مُدَّة مَعْلُومَة لِهَلَاكِهِمْ {إِذَا جَاءَ أَجَلهمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ} يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ {سَاعَة وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}

=

وروى الإمام أحمد في مسنده عن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خمس لا يعلمها إلا الله عز وجل: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير".

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "مفاتح الغيب خمس" ثم قرأ: {إن الله عنده علم الساعة}.

وفي الصحيحين أن أعرابيا أتى النبي ﷺ فناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد قال له رسول الله ﷺ: "هاؤم" على نحو ما صوته قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: "ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها"؟ قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله: "المرء مع من أحب" فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٤٨]، أي:" إن كنت أنت ومَن تبعك من الصادقين فيما تَعِدوننا به؟".

قال الطبري: أي:" أنت ومن تبعك، فيما تعدوننا به من ذلك".

قال قتادة:"قال أصحاب رسول الله ﷺ: إن لنا يوما يوشك أن نستريح فيه وننعم فيه فقال المشركون: {متى هذا الوعد إن كنتم صادقين}، أي: تكذيبا".

يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهِ(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ} [يونس: ٤٩].
أي: قل لهم – أيها الرسول –لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها،
– وقال بعض العلماء: أي: قل لهم –أيها الرسول–: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرا، ولا أجلب لها نفعا، إلا ما شاء الله أن يدفع عني من ضر أو يجلب لي من نفع.
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل لهم: فإذ كنت لا أقدر على ذلك إلا بإذنه، فأنا عن القدرة على الوصول إلى علم الغيب ومعرفة قيام الساعة أعجز واعجز، إلا بمشيئته وإذنه لي في ذلك".
قال السعدي:" فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس، وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم، فمن الله تعالى، ينزله عليهم إذا جاء الأجل الذي أجله فيه، والوقت الذي قدره فيه، الموافق لحكمته الإلهية، فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فليحذر المكذبون من الاستعجال بالعذاب، فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين".
عن مجاهد قال: " {لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا}، ضلالة إلا ما شاء الله".
قوله تعالى: {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} [يونس: ٤٩]، أي:" لكل قوم وقت لانقضاء مدتهم وأجلهم".
قال مقاتل:" لكل أجل وقت، لأنه سبقت الرحمة الغضب".
قال الطبري:" يقول: لكل قوم ميقات لانقضاء مدتهم وأجلهم، فإذا جاء وقت =

=

انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم".

- قال ابن كثير: (لكل أمة أجل) أي: لكل قرن مدة من العمر مقدرة فإذا انقضى أجلهم.

والأجل، هو الوقت الموقت المضروب لانقضاء المهلة.

- قال ابن عاشور: والمراد بالأمة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك أو في تكذيب الرسل، كما يدل عليه السياق من قوله تعالى (وأن تشركوا بالله) إلخ وليس المراد بالأمة، الجماعة التي يجمعها نسب أو لغة إذ لا يتصور انقراضها عن بكرة أبيها.

وفي هذه الآية قولان:

القول الأول: أن المعنى أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين لعذاب الاستئصال، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة، وهو قول ابن عباس، والحسن، ومقاتل.

والقول الثاني: أن المراد بهذا الأجل العمر، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه، والقول الأول: أولى، لأنه تعالى قال (ولكل أمة) ولم يقل: ولكل أحد أجل.

قال ابن عطية: قوله تعالى (ولكل أمة أجل) يتضمن الوعيد والتهديد، والمعنى ولكل أمة أي فرقة وجماعة، وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس، أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيتها الأمة ، كذلك قاله الطبري وغيره.

قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [يونس: ٤٩]، أي:" إذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم، فلا يستأخرون عنه ساعة

=

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠).

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ} أَخْبِرُونِي {إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابه} أَيْ الله {بَيَاتًا} لَيْلًا {أَوْ نَهَارًا مَاذَا} أَيّ شَيْء {يَسْتَعْجِل مِنْهُ} أَيْ الْعَذَاب {الْمُجْرِمُونَ} الْمُشْرِكُونَ فِيهِ وَضَعَ الظَّاهِر مَوْضِع الْمُضْمَر وَجُمْلَة الِاسْتِفْهَام جَوَاب الشَّرْط كَقَوْلِك إذَا أَتَيْتُك مَاذَا تُعْطِينِي وَالْمُرَاد بِهِ التَّهْوِيل أَيْ مَا أَعْظَم مَا استعجلوه.

=

فيُمْهلون، ولا يتقدم أجلهم عن الوقت المعلوم".

كما قال تعالى (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها).

وقال تعالى (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون).

وقال تعالى (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون).

والمراد أنه لا يتأخر عن ذلك الأجل المعين لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة إلا أنه تعالى ذكر الساعة لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات.

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة، وإنما المراد بها الوقت الذي هو في غاية القلة.

قال مقاتل:" {إذا جاء} وقت العذاب، لا يؤخر عنهم ساعة ولا يصيبهم قبل الوقت".

قال الطبري:" فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم {لا يستأخرون} عنه {ساعة}، فيمهلون ويؤخرون، {ولا يستقدمون}، قبل ذلك، لأن الله قضى أن لا يتقدم ذلك قبل الحين الذي قدره وقضاه".

عن سعيد ابن أبي عروبة، قال: "كان الحسن يقول: ما أحمق هؤلاء القوم يقولون: اللهم أطل عمره! والله يقول: {إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}".

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١).

{أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ} حَلَّ بِكُمْ {آمَنْتُمْ بِهِ} أَيْ الله أَوْ الْعَذَاب عِنْد نُزُوله وَالْهَمْزَة لِإِنْكَارِ التَّأْخِير فَلَا يَقْبَل مِنْكُمْ وَيُقَال لَكُمْ {آلْآنَ} تُؤْمِنُونَ {وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} استهزاء.

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢).

{ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَاب الْخُلْد} أَيْ الَّذِي تَخْلُدُونَ فِيهِ {هَلْ} مَا {تُجْزَوْنَ إلا} جزاء {بما كنتم تكسبون}(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا} [يونس: ٥٠]، أي:" قل – أيها الرسول– لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلا أو نهارًا، فأي شيء تستعجلون أيها المجرمون بنزول العذاب؟".

قال أبو عبيدة:" أي: بيتكم ليلا وأنتم بائتون".

قال الزجاج:" البَيَاتُ كلّ ما كان بِليْلٍ".

قال المراغي:" أي: قل لهم أيها الرسول: أخبروني عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه إن أتاكم عذا به الذي تستعجلون به في وقت مبيتكم بالليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم أو بأمور معاشكم بالنهار".

قال الزمخشري:" فإن قلت: هلا قيل ليلا أو نهارا؟ قلت: لأنه أريد: إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون، كما يبيت العدو المباغت. والبيات بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم، وكذلك قوله نهارا معناه في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب. ونحوه {بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُون} [الأعراف: ٩٧]، {ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون} [الأعراف: ٩٨]".

=

=

عن مجاهد قوله: " {أرأيتم إن أتاكم عذابه}، قال: فجاءة آمنين".

قال أهل العلم:"تقدير الآية {قُلْ أَرَأَيْتُمْ} أي أعلمتم؛ لأن هذا من رؤية القلب فيكون معناه العلم، ماذا يستعجل المجرمون من العذاب إن أتاكم بياتًا أو نهارًا؟ أي: أعلمتم أي شيء استعجلوه إن أتاكم، يعني في العظم والفظاعة، وهذا على التقديم والتأخير".

قوله تعالى: {مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: ٥٠]، أي:" فأي شيء تستعجلون أيها المجرمون بنزول العذاب؟".

قال المراغي:" أي: أيّ نوع من العذاب يستعجل منه المجرمون الكذابون؟ أعذاب الدنيا أم عذاب يوم القيامة؟ وأيا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة".

قال الفراء:" إن شئت جعلت {ماذا} استفهاما محضا على جهة التعجب، كقوله: ويلهم ماذا أرادوا باستعجال العذاب؟!

وإن شئت عظمت أمر العذاب فقلت: بماذا استعجلوا!".

قال الزمخشري:" الضمير في {منه}، للعذاب. والمعنى: أن العذاب كله مكروه مر المذاق موجب للنفار، فأى شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال. ويجوز أن يكون معناه التعجب، كأنه قيل: أى شيء هول شديد يستعجلون منه، ويجب أن تكون «من» للبيان في هذا الوجه. وقيل: الضمير في {منه} لله تعالى.

فإن قلت: بم تعلق الاستفهام؟ وأين جواب الشرط؟ قلت: تعلق ب أرأيتم، لأن المعنى: أخبرونى ماذا يستعجل منه المجرمون، وجواب الشرط محذوف وهو: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه. فإن قلت: فهلا قيل: ماذا تستعجلون منه.

قلت: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام، لأن من حق

=

=

المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه، ويهلك فزعا من مجيئه وإن أبطأ، فضلا أن يستعجله. ويجوز أن يكون «ماذا يستعجل منه المجرمون» جوابا للشرط، كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟".

وقرئ: «آلان»، بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام.

قوله تعالى: {أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ} [يونس: ٥١]، أي:" أبعدما وقع عذاب الله بكم -أيها المشركون- آمنتم في وقت لا ينفعكم فيه الإيمان؟".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أهنالك إذا وقع عذابُ الله بكم أيها المشركون صدّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيها التصديق".

قال ابن كثير: "قوله تعالى (أثم إذا ما وقع آمنتم به) يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون)".

قال المراغي:" أي: أيستعجل مجرموكم بالعذاب الذين هم أحق بالخوف منه بدل الإيمان الذي يدفعه عنهم ثم إذا وقع بالفعل آمنتم به حين لا ينفع الإيمان، إذ هو قد صار ضروريا بالمشاهدة والعيان، لا تصديقا للرسول عليه السلام".

قال الواحدي:" دخول ألف الاستفهام على (ثم) للتقرير والتوبيخ، ومعناه: إن أهل الكفر قالوا: نكذب بالعذاب ونستعجله، ثم إذا ما وقع آمنا به، فقال الله -ﷻ- موبخًا ومقررًا: أثم إذا ما وقع وحلّ بكم آمنتم

به؟ يقول لنبيه عليه السلام: قل لهم: أثم تؤمنون به بعد أن نزل بكم فلا يقبل منكم الإيمان، ويقال لكم: الآن تؤمنون وقد كنتم به تستعجلون في الدنيا مستهزئين ومعاندين للحق؟".

قوله تعالى: {آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [يونس: ٥١]، أي:" وقيل لكم حينئذ: آلآن تؤمنون به، وقد كنتم من قبل تستعجلون به؟".

قال الطبري:" وقيل لكم حينئذ: آلآنَ تصدّقون به، وقد كنتم قبل الآن به

=

=

تستعجلون، وأنتم بنزوله مكذبون؟ فذوقوا الآن ما كنتم به تكذّبون".

قال الزمخشري:" أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون يعنى: وقد كنتم به تكذبون، لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار".

قال المراغي:" أي: وقيل لكم على سبيل التوبيخ آلآن آمنتم به اضطرارا، وقد كنتم به تستعجلون تكذيبا به واستكبارا".

قال السعدي:" فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسا إيمانها، كما قال تعالى عن فرعون، لما أدركه الغرق: {قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٩٠]، وأنه يقال له: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٩١]".

قوله تعالى: {ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ} [يونس: ٥٢]، أي:" ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله: تجرَّعوا عذاب الله الدائم لكم أبدًا".

قال الطبري: أي:" تجرّعوا عذابَ الله الدائم لكم أبدًا، الذي لا فناء له ولا زوال".

قال المراغي:" أي ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبدا بحيث لا فناء له ولا زوال".

عن سعيد بن جبير، في قول الله: " {ذوقوا}، يعني: العقوبة".

قوله تعالى: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [يونس: ٥٢]، أي:" فهل تُعاقَبون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم من معاصي الله؟".

قال الطبري:" يقول: يقال لهم: فانظروا هل تجزون، أي: هل تثابون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم قبل مماتكم من معاصي الله".

عن أبي العالية قوله: " {تكسبون}، يعني: من الخطيئة".

=

=

(تنبيه): أن الإيمان الاضطراري لا يقبله الله.

كما أن التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، وعند الغرغرة لا تقبل.

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ ،قال: (إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها) رواه مسلم

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه) رواه مسلم

وعن أبي عبد الرحمان عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: (إن الله - عز وجل - يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) رواه الترمذي.

الأول: إذا طلعت الشمس.

قال ابن الجوزي: وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان.

وقال القرطبي: قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسا إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت.

وقال السعدي: والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانا بالغيب، وكان اختيارا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا

=

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣).

{وَيَسْتَنْبِئُونَك} يَسْتَخْبِرُونَك {أَحَقّ هُوَ} أَيْ مَا وَعَدْتنَا بِهِ مِنْ الْعَذَاب وَالْبَعْث {قُلْ إي} نَعَمْ {وَرَبِّي إنَّهُ لَحَقّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} بِفَائِتِينَ العذاب(١).

=

بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده).

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويغلق حينئذ باب التوبة.

الثاني: عند الغرغرة.

لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون).

(١)قوله تعالى: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ} [يونس: ٥٣]، أي:" ويستخبرك هؤلاء المشركون من قومك -أيها الرسول- عن العذاب يوم القيامة، أحقٌّ هو؟".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ويستخبرك هؤلاء المشركون من قومك، يا محمد، فيقولون لك: أحق ما تقول، وما تعدنا به من عذاب الله في الدار الآخرة جزاءً على ما كنا نكسِب من معاصي الله في الدنيا؟".

قال الزمخشري: أي:" ويستخبرونك فيقولون: «أحق هو»، وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء".

وقرأ الأعمش: «آلحق هو»، وهو أدخل في الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل. وذلك أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي

=

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤).

=

سميتموه الحق، والضمير للعذاب الموعود.

قوله تعالى: {قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ} [يونس: ٥٣]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: نعم وربي إنه لحق لا شك فيه".

قال الطبري: أي:" قل لهم يا محمد: «أي وربي إنه لحق»، لا شك فيه".

قال الزمخشري:" و {إي} بمعنى «نعم» في القسم خاصة، كما كان «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة. وسمعتهم يقولون في التصديق: «إيو»، فيصلونه بـ «واو» القسم ولا ينطقون به وحده".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يونس: ٥٣]، أي:" وما أنتم بمعجزين الله أن يبعثكم ويجازيكم، فأنتم في قبضته وسلطانه".

قال الزمخشري:"بفائتين العذاب، وهو لا حق بهم لا محالة".

قال الطبري: أي:" وما أنتم بمعجزي الله إذا أراد ذلك بكم، بهربٍ، أو امتناع، بل أنتم في قبضته وسلطانه وملكه، إذ أراد فعل ذلك بكم، فاتقوا الله في أنفسكم".

عن ابن عباس قوله: " {بمعجزين}، قال: بمسابقين".

قال الشوكاني: قوله تعالى (وما أنتم بمعجزين) أي: فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع، والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئا.

- قال ابن كثير: وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد.

في سورة سبأ (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم).

وفي التغابن (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير).

{وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْس ظَلَمَتْ} كَفَرَتْ {مَا فِي الْأَرْض} جَمِيعًا مِنْ الْأَمْوَال {لَافْتَدَتْ بِهِ} مِنْ الْعَذَاب يَوْم الْقِيَامَة {وَأَسَرُّوا النَّدَامَة} عَلَى تَرْك الْإِيمَان {لَمَّا رَأَوْا الْعَذَاب} أَخْفَاهَا رُؤَسَاؤُهُمْ عن الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعبير {وَقُضِيَ بَيْنهمْ} بَيْن الْخَلَائِق {بِالْقِسْطِ} بِالْعَدْلِ {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} شَيْئًا(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ} [يونس: ٥٤]، أي:" ولو أن لكل نفس أشركت وكفرت بالله جميع ما في الأرض، وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب لافتدت به".

قال الزمخشري: أي:" ولو أن لكل نفس ظالمة {ما في الأرض}، أى: ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها على كثرتها، {لافتدت به}: لجعلته فدية لها".

قال الطبري:" و «ظلمها»، في هذا الموضع، عبادتُها غيرَ من يستحق عبادته، وتركها طاعة من يجب عليها طاعته".

قال القرطبي: قوله تعالى (ولو أن لكل نفس ظلمت) أي أشركت وكفرت. (ما في الأرض) أي ملكا. (لافتدت به) أي من عذاب الله، يعني ولا يقبل منها؛ كما قال (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به).

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "يقال للكافرين يوم القيامة: أرأيت لو كان ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديا به قال: فيقول: نعم قال: فيقول: قد كلفت ما هو أهون من ذلك، قال الله لهم: {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ} ".

قوله تعالى: {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} [يونس: ٥٤]، أي:" وأخفى الذين ظلموا حسرتهم حين أبصروا عذاب الله واقعا بهم جميعًا".

قال الطبري:" يقول: وأخفتْ رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم =

=

الندامةَ حين أبصرُوا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم".

قال الزمخشري:" لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعاينوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب، كما ترى المقدم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامدا مبهوتا. وقيل أسر رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم، حياء منهم وخوفا من توبيخهم. وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سر الشيء، لخالصه. وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة. وقيل: أسروا الندامة: أظهروها، من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره. وليس هناك تجلد".

وقد ذهب عدد من المفسرين إلى معنى { وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ} أي أخفوا الندامة وكتموها، ويكون ذلك من الأتباع، أو من الرؤساء، وممن قال بهذا: الفراء، والطبري، وابن الجوزي، والقرطبي.

وضعف أبو حيان هذا القول بقوله: (وفيه بعد؛ لأن من عاين العذاب هو مشغول بما يقاسيه).

وقال النسفي: ({ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ} أظهروها، من قولهم: أسر الشيء إذا أظهره، أو أخفوها عجزا عن النطق لشدة الأمر، فأسر من الأضداد).

وقال أبي حيان: ({ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ} من الأضداد، تأتي بمعنى أظهر، وتأتي بمعنى أخفى، وهو المشهور فيها، ويحتمل هنا الوجهين).

وقال ابن منظور: (أسر الشيء كتمه وأظهره، وهو من الأضداد، سررته كتمته، وسررته أعلنته، والوجهان جميعا يفسران في قوله تعالى: { وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ}).

والمعنى على قول الجمهور: أخفى الذين ظلموا حسرتهم حين أبصروا عذاب الله

=

=

واقعا بهم جميعا.

وقال بعض العلماء: الذين أسروا الرؤساء، أي: وأخفى هؤلاء الظلمة الندم، لما عاينوا العذاب، قال الإمام الجلال: أي أخفاها رؤساؤهم عن الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعيير.

- السبب في هذا الإخفاء وجوه:

الأول: أنهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى إسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فإنه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة.

الثاني: أنهم أسروا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم.

الثالث: أنهم أسروا تلك الندامة لأنهم أخلصوا لله في تلك الندامة، ومن أخلص في الدعاء أسره، وفيه تهكم بهم وبإخلاصهم يعني أنهم لما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته لم ينفعهم، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به في دار الدنيا وقت التكليف.

- قال القرطبي: وهذا قبل الإحراق بالنار، فإذا وقعوا في النار ألهتهم النار عن التصنع؛ بدليل قولهم (ربنا غلبت علينا شقوتنا).

- قال الرازي: قوله تعالى (وأسروا الندامة) جاء على لفظ الماضي، والقيامة من الأمور المستقبلة إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع، جعل الله مستقبلها كالماضي.

- واعلم أن الإسرار هو الإخفاء والإظهار وهو من الأضداد، أما ورود هذه اللفظة بمعنى الإخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الإظهار فهو من قولهم سر الشيء وأسره إذا أظهره.

قوله تعالى: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ} [يونس: ٥٤]، أي:" وقضى الله ﷻ بينهم بالعدل".

قال السعدي:" أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه".

=

أَلَا إِنَّ لِلَّـهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥).

{أَلَا إِنَّ لِلَّـهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض أَلَا إِنَّ وَعْد الله} بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاء {حَقّ} ثَابِت {وَلَكِنَّ أَكْثَرهمْ} أَيْ النَّاس {لَا يعلمون} ذلك[1].

=

قال الطبري:" يقول: وقضى الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل".

قال الزمخشري:" أي: بين الظالمين والمظلومين، دل على ذلك ذكر «الظلم»".

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [يونس: ٥٤]، أي:" وهم لا يُظلَمون أعمالهم شيئًا؛ لأن الله تعالى لا يعاقب أحدا إلا بذنبه".

قال الطبري:" وذلك أنه لا يعاقب أحدًا منهم إلا بجريرته، ولا يأخذه بذنب أحدٍ، ولا يعذِّب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه الحجج".

عن سعيد بن جبير: " {وهم لا يظلمون}، يعني: من أعمالهم فلا ينقص من حسابهم ولا يزاد على سيئاتهم".

(١)قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ٥٥]، أي:" ألا إن كل ما في السموات وما في الأرض ملك لله تعالى، لا شيء من ذلك لأحد سواه".

قال الزمخشري:"ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق".

قال الطبري:" يقول جل ذكره: ألا إنّ كل ما في السموات وكل ما في الأرض من شيء، لله مِلْك، لا شيء فيه لأحدٍ سواه. يقول: فليس لهذا الكافر بالله يومئذٍ شيء يملكه فيفتدي به من عذاب ربّه، وإنما الأشياء كلها للذي إليه عقابه. ولو كانت له الأشياء التي هي في الأرض ثم افتدى بها، لم يقبل منه بدلا من عذابه، فيصرف بها عنه العذاب، فكيف وهو لا شيء له يفتدى به منه، وقد حقَّ عليه عذاب الله؟".

=

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦).

{هو يحيي وَيُمِيت وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} فِي الْآخِرَة فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ[1].

=

قال الصابوني:" «أَلاَ» كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام أي انتبهوا لما أقول لكم فكل ما في السماوات والأرض ملكٌ لله، لا شيء فيها لأحدٍ سواه، هو الخالق وهو المالك".

عن ابن عباس:" قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ} [يونس: ٥٥]، أي:" ألا إن لقاء الله تعالى وعذابه للمشركين كائن لا محالة".

قال الطبري:" يعني: أن عذابه الذي أوعد هؤلاء المشركين على كفرهم حقٌّ، فلا عليهم أن لا يستعجلوا به، فإنه بهم واقع لا شك".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [يونس: ٥٥]، أي:" ولكن أكثرهم لا يعلمون حقيقة ذلك".

قال الطبري:" يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقةَ وقوع ذلك بهم، فهم من أجل جهلهم به مكذِّبون".

قال المراغي: أي:" ولكن أكثر الكفار منكرى البعث والجزاء لا يعلمون أمر الآخرة لغفلتهم عنها وقصور أنظارهم عن الوصول إلى ما يكون فيها".

قال السعدي:" فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين النقلية والعقلية".

عن ابن عباس:" {لا يعلمون}، يقول: لا يعقلون".

(١) قوله تعالى: {هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [يونس: ٥٦]، أي:" هو سبحانه المحيي =

=

والمميتُ".

قال السعدي:" أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير، لا شريك له في ذلك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله هو المحيي المميت، لا يتعذّر عليه فعلُ ما أراد فعله من إحياء هؤلاء المشركين إذا أراد إحياءهم بعد مماتهم، ولا إماتتهم إذا أراد ذلك".

وهذا من الله ﷻ ترغيب لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم، وإخراج هيبتهم من صدورهم، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله وإعلام منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده، وأنه لن يموت أحد ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له ونهي منه لهم، إذ كان كذلك، أن يجزعوا لموت من مات منهم أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين.

قال المراغي:" أي: إنه تعالى هو المحيي المميت، لا يتعذر عليه فعل ما أراد من الإحياء والإماتة، بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضائه وقدره".

عن محمد بن إسحاق:" {يحيي ويميت}: يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء من ذلك من آجالهم بقدرته".

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يونس: ٥٦]، أي:" وإِليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم".

قال السعدي: أي:" يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها".

قال الطبري: أي:" وهم إليه يصيرون بعد مماتهم، فيعاينون ما كانوا به مكذبين من وعيدِ الله وعقابه".

قال المراغي:"ثم إليه ترجعون حين يحييكم بعد موتكم ويحشركم إليه للحساب

=

يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧).

{يأيها النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَة مِنْ رَبّكُمْ} كِتَاب فِيهِ مَا لَكُمْ وَمَا عَلَيْكُمْ وَهُوَ الْقُرْآن {وَشِفَاء} دَوَاء {لِمَا فِي الصُّدُور} مِنْ الْعَقَائِد الْفَاسِدَة وَالشُّكُوك {وَهُدًى} مِنْ الضَّلَال {وَرَحْمَة لِلْمُؤْمِنِينَ} بِهِ.

قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

{قُلْ بِفَضْلِ الله} الْإِسْلَام {وَبِرَحْمَتِهِ} الْقُرْآن {فَبِذَلِكَ} الْفَضْل وَالرَّحْمَة {فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْر مِمَّا يَجْمَعُونَ} مِنْ الدُّنْيَا بِالْيَاءِ وَالتَّاء(١).

=

والجزاء بأعمالكم".

قال أبو العالية:" يعني قوله: {إليه مرجعكم}، قال: يرجعون إليه بعد الحياة".

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [يونس: ٥٧]، أي:" يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم تذكِّركم عقاب الله وتخوفكم وعيده".

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) أي: زاجر عن الفواحش، والوعظ هو التذكير بالعواقب لترق القلوب، فمن أوصاف القرآن أنه موعظة.

قال الزمخشري:" أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد".

قال الطبري:" يعني: ذكرى تذكركم عقابَ الله وتخوّفكم وعيده، يقول: من عند ربكم، لم يختلقها محمد ﷺ، ولم يفتعلها أحد، فتقولوا: لا نأمن أن تكون لا صحةَ لها. وإنما يعني بذلك جلّ ثناؤه القرآن، وهو الموعظة من الله".

قال ابن عطية: "هذه آية خوطب بها جميع العالم، والموعظة: القرآن؛ لأن الوعظ

=

=

إنما هو بقول يأمر بالمعروف ويزجر ويرقق ويوعد ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز. فما في القرآن من الأوامر والنواهي داع إلى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب".

عن الشعبي، قوله: " {موعظة}، قال: موعظة من الجهل".

قال الزجاج:" يعني: القرآنَ".

وفي قوله (من ربكم..) هذا لبيان قيمتها وأهميتها، وحث البشر على الاحتفاء بها.

وقد بين سبحانه أن القرآن وما فيه من قصص وأحكام موعظة (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين).

وفي آية ثانية قال تعالى (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين).

وفي آية ثالثة أكد سبحانه على أنه إنما يعظنا بالقرآن (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به).

والقرآن مملوء بما يتعظ القارئ به إذا تدبره وفهم معناه، وأرعى له سمعه، وفرغ له قلبه.

ولقد سمى الله القرآن العظيم شفاء في ثلاثة مواضع:

في هذه الآية.

وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد)

وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا).

قوله تعالى: {وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس: ٥٧]، أي:" وفيه دواء لما في القلوب من الجهل والشرك وسائر الأمراض".

=

=

قال الزمخشري:" أي: دواء لما في صدوركم من العقائد الفاسدة".

قال الطبري:" يقول: ودواءٌ لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهلَ الجهال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خلقه من أراد هدايته به".

عن مجاهد:" {شفاء}، قال: الشفاء: القرآن".

عن عبد الله أنه قال:"في القرآن شفاءان: القرآن والعسل. فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء".

قوله تعالى: {وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧]، أي:" وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان".

قال الزمخشري: أي:" ودعاء إلى الحق ورحمة لمن آمن به منكم".

قال الطبري:" {وَهُدًى}: يقول: وهو بيان لحلال الله وحرامه، ودليلٌ على طاعته ومعصيته.

(وهدى) أي: بيان ودلالة، أي: أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

- فالقرآن العظيم يطلق هداه على الهدى العام، ويطلق هداه على الهدى الخاص، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، ومنه (وأما ثمود فهديناهم) أي: بينا الحق على لسان نبينا صالح، ومنه قوله تعالى (إنا هديناه السبيل). وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه، ويكون سبب دخوله الجنة، ومنه قوله (من يهد الله فهو المهتدي).

- وكون الهدى يطلق إطلاقا عاما وإطلاقا خاصا إذا فهم الإنسان ذلك زالت عنه إشكالات في كتاب الله، ومناقضات يظنها الجاهل ببعض آيات الله، كقوله تعالى في نبينا ﷺ (إنك لا تهدي من أحببت) مع قوله فيه (وإنك لتهدي إلى صراط

=

=

مستقيم) فنفى عنه الهدى في آية وأثبته له في آية، فالهدى المثبت له في قوله (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) هو الهدى بمعناه العام، وهو البيان والإيضاح. وقد بين ﷺ هذه المحجة البيضاء حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ﷺ أما الهدى المنفي عنه في قوله (إنك لا تهدي من أحببت) فهو التفضل بالتوفيق وسعادة المرء؛ لأن هذا بيد الله وحده (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل).

فالمراد بالهدى هنا الهدى الخاص، وهو التوفيق والتيسير للأعمال التي يحبها الله.

قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد)

وقوله (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا).

وقوله (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون (١٢٤) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون).

{وَرَحْمَةٌ}، يرحم بها من شاء من خلقه، فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى. وجعله تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به، لأن من كفر به فهو عليه عمًى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلودُ في لظًى".

كما قال تعالى: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا).

وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو

=

=

عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد).

- قال صاحب الكشاف: المعنى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة، والتنبيه على التوحيد، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ورحمة لمن آمن به منكم.

عن سعيد بن جبير:" {هدى}، يعني: تبيانا".

عن السدي:" {هدى}، قال: نور".

عن الشعبي:" {هدى}، قال: هدى من الضلالة".

عن عباد بن منصور، قال:" سألت الحسن عن قوله: {وهدى}، قال: هو القرآن".

عن أبي العالية، قوله: " {ورحمة}، قال: رحمة القرآن".

قوله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} [يونس: ٥٨]، أي:" قل -أيها الرسول- لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته، وهو ما جاءهم من الله من الهدى ودين الحق وهو الإسلام، فبذلك فليفرحوا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل} يا محمد لهؤلاء المكذِّبين بك وبما أنزل إليك من عند ربك، {بفضل الله} أيها الناس، الذي تفضل به عليكم، وهو الإسلام، فبيَّنه لكم، ودعاكم إليه، {وبرحمته} التي رحمكم بها، فأنزلها إليكم، فعلَّمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصَّركم بها معالم دينكم، وذلك القرآن، {فبذلك فليفرحوا}".

قال الزمخشري:" أصل الكلام: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا. والتكرير للتأكيد والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما، ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا. ويجوز

=

=

أن يراد: قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته، فبذلك: فبمجيئها فليفرحوا".

عن محمد بن كعب:" {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا}، قال: إذا عملت خيرا حمدت الله عليه فافرح فهو خير مما تجمعون من الدنيا".

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "إني أمرت أن أقرأ عليك القرآن قال أبي: أو سماني لك؟ قال: نعم قال فقرأ: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا}".

وفي قوله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ} [يونس: ٥٨]، وجوه:

أحدها: أن فضل الله معرفته، ورحمته توفيقه. ذكره الماوردي.

الثاني: أن فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام، قاله ابن عباس، وزيد بن أسلم، والضحاك.

وروي عن أبي سعيد الخدري، قال:" {بفضل الله}: القرآن".

الثالث: أن فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وهلال بن يساف.

وروي عن مجاهد: " {وبرحمته}، قال: القرآن".

وقرئ: «فليفرحو» ا، بالتاء وهو الأصل والقياس، وهي قراءة رسول الله ﷺ فيما روى. وعنه «لتأخذوا مضاجعكم"، قالها في بعض الغزوات. وفي قراءة أبى: «فافرحوا» هو راجع إلى ذلك.

قوله تعالى: {هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨]، أي:" فإن الإسلام الذي دعاهم الله إليه، والقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة".

قال الطبري:" يقول: فإن الإسلام الذي دعاهم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم، خيرٌ مما يجمعون من حُطَام الدنيا وأموالها وكنوزها".

=

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْـزَلَ اللهُ لَكُـمْ مِـنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ (٥٩).

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ} أَخْبِرُونِي {مَا أَنْزَلَ الله} خَلَقَ {لَكُمْ مِنْ رِزْق فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا} كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَة وَالْمَيْتَة {قُلْ آلله أَذِنَ لَكُمْ} فِي ذَلِكَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيم لَا {أَمْ بَلْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ} تُكَذِّبُونَ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ.

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠).

{وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الْكَذِب} أَيْ أَيّ شَيْء ظَنّهمْ بِهِ {يَوْم الْقِيَامَة} أَيَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَا يُعَاقِبهُمْ لَا {إِنَّ الله لَذُو فَضْل عَلَى النَّاس} بِإِمْهَالِهِمْ

=

عن الضحاك قوله: " {هو خير مما يجمعون}، قال: خير مما تجمع الكفار من الأموال". وروي عن الحسن مثله.

عن محمد بن كعب:" {فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}، قال: من الدنيا".

عن أيفع بن عبد الكلاعي: "لما قدم خراج العراق إلى عمر خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هو أكثر من ذلك فجعل عمر يقول: الحمد لله، ويقول مولاه: يا أمير المؤمنين، هذا والله من فضل الله ورحمته، فقال عمر: كذبت ليس هذا هو. يقول الله: {بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}، وهذا مما تجمعون".

وقرأ ابن عامر: «خير مما تجمعون»، بالتاء.

وَالْإِنْعَام عَلَيْهِمْ {ولكن أكثرهم لا يشكرون[1]}.

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ} [يونس: ٥٩]، أي:" أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: {قل} يا محمد لهؤلاء المشركين: {أرأيتم} أيها الناس ما خلق الله لكم من الرزق فخَوَّلكموه، وذلك ما تتغذون به من الأطعمة".

قال قتادة:" يقول: رزقا لم أحرمه عليكم فتحرمونه على أنفسكم من نسائكم وأولادكم".

قوله تعالى: {فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا} [يونس: ٥٩]، أي:" فحرَّمتم بعضه وحلَّلتم بعضه".

قال الطبري:" يقول: فحللتم بعضَ ذلك لأنفسكم، وحرمتم بعضه عليها، وذلك كتحريمهم ما كانوا يحرِّمونه من حُروثهم التي كانوا يجعلونها لأوثانهم، كما وصفهم الله به فقال: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا} [سورة الأنعام: ١٣٦]. ومن الأنعام ما كانوا يحرّمونه بالتبحير والتسييب ونحو ذلك".

قال الزجاج:" والمعنى إنكم جعلتم البحائر والسوائب حرامًا والله لم يحَرِّمْ ذلك".

قال ابن عباس:" هم أهل الشرك كانوا يحلون الأنعام ما شاءوا ويحرمون ما شاءوا".

عن مجاهد، قوله: " {فجعلتم منه حراما وحلالا}: في البحيرة السائبة".

عن الضحاك، في قوله: " {أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا}: هو الذي قال الله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا}، =

=

إلى قوله: {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} ".

قوله تعالى: {قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ} [يونس: ٥٩]، أي:" قل لهم يا محمد أخبروني: أحصل إذنٌ من الله لكم بالتحليل والتحريم، فأنتم فيه ممتثلون لأمره، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال؟".

قال الطبري:" يقول الله لنبيه محمد ﷺ: {قل} يا محمد {آلله أذن لكم} بأن تحرِّموا ما حرَّمتم منه {أم على الله تفترون}: أي تقولون الباطل وتكذبون؟".

عن قتادة: " {قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون}: فيما حرم عليكم من ذلك".

عن ابن عباس، قوله: " {يفترون}، قال: يكذبون".

عن قتادة، قوله: " {يفترون}، أي: يشركون".

قوله تعالى: {وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [يونس: ٦٠]، أي:" وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب يوم الحساب، فيضيفون إليه تحريم ما لم يحرمه عليهم من الأرزاق والأقوات، أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم وفِرْيَتِهم عليه؟ أيحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر لهم؟".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما ظن هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب فيضيفون إليه تحريم ما لم يحرمه عليهم من الأرزاق والأقوات التي جعلها الله لهم غذاء، أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم وفريتهم عليه؟ أيحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر؟ كلا بل يصليهم سعيرا خالدين فيها أبدا".

عن ابن عباس، قوله: " {يفترون}، قال: يكذبون".

عن قتادة، قوله: " {يفترون}، أي: يشركون".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} [يونس: ٦٠]، أي:" إن الله لذو فضل على خلقه؛ بتركه معاجلة مَن افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا وإمهاله إياه".

قال الطبري:" يقول: إن الله لذو تفضل على خلقه بتركه معاجلة من افترى عليه

=

=

الكذب بالعقوبة في الدنيا، وإمهاله إياه إلى وروده عليه في القيامة".

قال السعدي: أي:" كثير، وذو إحسان جزيل".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن موسى بن أبي الصباح في قول الله: " {إن الله لذو فضل على الناس}، قال: "إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله فيقومون بين يدي الله ثلاث أصناف قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدي لماذا عملت: فيقول: يا رب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها وما أعددت لأهل طاعتك فيها فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقا إليها قال: فيقول: عبدي إنما عملت الجنة هذه الجنة فادخلها، ومن فضلي عليك أعتقك من النار قال: يدخل الجنة هو ومن معه قال: يؤتى بالعبد من الصنف الثاني قال: فيقول: عبدي لماذا عملت فيقول: يا رب خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها، وما أعددت لأهل عذابك فيها ولأهل معصيتك فيها فأسهرت ليلي وأطبت نهاري خوفا منها فيقول: عبدي إنما

عملت خوفا من النار فإني قد أعتقك من النار، ومن فضلي عليك أدخلتك جنتي فيدخل الجنة هو ومن معه الجنة ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث فيقول: عبدي لماذا عملت؟ فيقول رب حبا لك وشوقا إليك وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقا إليك وحبا لك فيقول تبارك وتعالى: عبدي إنما عملت حبا لي وشوقا إلي فيتجلى له الرب فيقول ها أنا ذا انظر إلي ثم يقول: من فضلي عليك أن أعتقك من النار وأدخلك جنتي وأزيرك ملائكتي وأسلم عليك بنفسي فيدخل هو ومن معه الجنة".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} [يونس: ٦٠]، أي:" ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على تفضله عليهم بذلك".

قال الطبري:" يقول: ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على تفضله عليهم بذلك،

=

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١).

{وَمَا تَكُون} يَا مُحَمَّد {فِي شَأْن} أَمْر {وما تتلو مِنْهُ} أَيْ مِنْ الشَّأْن أَوْ الله {مِنْ قُرْآن} أَنْزَلَهُ عَلَيْك {وَلَا تَعْمَلُونَ} خَاطَبَهُ وَأُمَّته {مِنْ عَمَل إلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا} رُقَبَاء {إذْ تُفِيضُونَ} تَأْخُذُونَ {فِيهِ} أَيْ الْعَمَل {وَمَا يَعْزُب} يَغِيب {عَنْ رَبّك مِنْ مِثْقَال} وَزْن {ذَرَّة} أَصْغَر نَمْلَة {فِي الْأَرْض وَلَا فِي السَّمَاء وَلَا

=

وبغيره من سائر نعمه".

قال السعدي:" إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته".

عن قتادة، قوله: " {ولكن أكثر الناس لا يشكرون}، وإن المؤمن ليشكر نعم الله عليه وعلى خلقه. قال قتادة: وذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول: يا رب شاكر نعمه غيره، ومنهم عليه لا يزيد: ويا رب حامل فقه غير فقيه".

قال السعدي: ولكن أكثر الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

أَصْغَر مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَر إلَّا فِي كِتَاب مُبِين} بَيِّن هُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ} [يونس: ٦١]، أي:" وما تكون -أيها الرسول- في أمر من الأمور، ولا عملٍ من الأعمال".

قال الزجاج:" أي: أيّ وقت تكون في شأن من عبادة الله".

وقال ابن ابي زمنين: أي:" من حوائجك للدنيا".

قوله تعالى: {وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ} [يونس: ٦١]، أي:" وما تقرأ من كتاب الله شيئًا من القرآن".

قال الزجاج:" وما تلوت به – من الشأن من قرآن".

قال ابن ابي زمنين: خاطب بهذا النبي ﷺ".

قال السمعاني:" فإن قيل: أيش معنى قوله: {وما تتلو منه} ولم يسبق ذكر القرآن؟

الجواب عنه من وجهين:

أحدهما أن معناه: وما تتلو من الشأن، من قرآن.

والآخر: أنه راجع إلى القرآن أيضا، فأبطن في قوله: {منه} وأظهر في قوله {من قرآن} تفخيما له".

قوله تعالى: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} [يونس: ٦١]، أي:" ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر".

وقال ابن ابي زمنين:" {ولا تعملون} يعني: العامة".

قوله تعالى: {إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس: ٦١]، أي:" إلا كنا شاهدين رقباء، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها".

قال الزجاج:" أي: إذ تنتشرون فيه، يقال: أفاض القوم في الحديث، إذا انتشروا فيه وخاضوا".

قال ابن كثير:" أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون =

=

سامعون، ولهذا قال، عليه السلام لما سأله جبريل عن «الإحسان»، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ".

قال ابن ابي زمنين:" يخبرهم أنه شاهد لأعمالهم".

عن ابن عباس، قوله: " {إذ تفيضون فيه} ، يقول: تفعلون".

عن مجاهد قوله: " {إذ تفيضون فيه} : في الحق ما كان".

قال السمعاني:" قال ابن الأنباري: إذ تندفعون فيه، و «الإفاضة»: هي الدفع بالكثرة".

قال البغوي:" الإفاضة: الدخول في العمل. وقال ابن الأنباري: تندفعون فيه. وقيل: تكثرون فيه. والإفاضة: الدفع بكثرة".

عن أبي صخر، قال: "سمعت القرظي يقول في البرهان: الذي أرى يوسف ثلاث آيات من كتاب الله: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقول الله: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس: ٦١]، وقول الله: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد: ٣٣]. قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل القرظي، وزاد آية أخرى رابعة: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا} [الإسراء: ٣٢]".

عن إبراهيم الصنعاني، قال: "كان بعض العلماء إذا اخرج من منزله كتب في يده: {وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه} ، الآية".

قوله تعالى: {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [يونس: ٦١]، أي:" وما يغيب عن علم ربك -أيها الرسول- من زنة نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء".

=

=

عن ابن عباس:" {وما يعزب عن ربك}، قال: ما يغيب عن ربك تبارك وتعالى".

قال ابن ابي زمنين:" أي: يغيب عن ربك وزن ذرة، {في الأرض ولا في السماء} حتى لا يعلمه ويعلم موضعه".

قال السمعاني:" والذرة: هي النملة الصغيرة، وقيل: ما يظهر في شعاع الشمس. والأول هو المعروف".

قال البغوي: " أي: والذرة: هي النملة الحمراء الصغيرة، وقيل: الذر أجزاء الهباء في الكوة وكل جزء منها ذرة ولا يكون لها وزن".

قوله تعالى: {وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١]، أي:" ولا أصغر الأشياء ولا أكبرها، إلا في كتاب عند الله واضح جلي، أحاط به علمه وجرى به قلمه".

قال ابن ابي زمنين: أي:" بيّنٌ عند الله - ﷻ".

عن قتادة، قوله: " {في كتاب مبين}، قال: كل ذلك في كتاب عند الله مبين".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ

=

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢).

{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء الله لَا خَوْف عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} فِي الْآخِرَة.

=

مُبِينٍ} [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩]".

- في هذه الآية عموم علم الله تعالى.

قال ابن كثير: يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

كقوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين).

فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون).

وقال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين).

وقال الطبري: والآية خبر منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خف في الوزن، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم، فإنا محصوها عليكم ومجازوكم بها.

الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣).

هم {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} الله بِامْتِثَالِ أَمْره ونهيه.

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤).

{لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا} فُسِّرَتْ فِي حَدِيث صَحَّحَهُ الْحَاكِم بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الرَّجُل أَوْ تُرَى لَهُ {وَفِي الْآخِرَة} الْجَنَّة وَالثَّوَاب {لَا تَبْدِيل لِكَلِمَاتِ الله} لَا خُلْف لِمَوَاعِيدِهِ {ذلك} المذكور {هو الفوز العظيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [يونس: ٦٢]، أي:" ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله".

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا أنه (لا خوف عليهم) أي فيما يستقبلون من أهوال القيامة (ولا هم يحزنون) على ما وراءهم في الدنيا.

والمعنى: ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم، وحسن عملهم، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله سبحانه، فمتى فعلوا ما يؤدى إلى ذلك هان كل ما سواه.

وهم: (الذين آمنوا) بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. (وكانوا يتقون) أي: وصدقوا إيمانهم، باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، فكل من كان مؤمنا تقيا كان لله [تعالى] وليا.

- وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ. لا تزلزله الشكوك، ولا تؤثر فيه الشبهات.

- أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى، الذين يراقبون الله تعالى في جميع شؤونهم، =

=

فيلتزمون أوامره، ويجتنبون نواهيه، كما قال الله تعالى: (الذين آمنوا وكانوا يتقون).

الولاية متفاوتة بحسب إيمان العبد وتقواه، فكل مؤمن له نصيب من ولاية الله ومحبته وقربه، ولكن هذا النصيب يتفاوت بحسب الأعمال الصالحة البدنية والقلبية التي يتقرب بها إلى الله، وعليه يمكن تقسيم درجات الولاية إلى ثلاث درجات:

أولا: درجة الظالم لنفسه: وهو المؤمن العاصي، فهذا له من الولاية بقدر إيمانه وأعماله الصالحة

ثانيا: المقتصد: وهو المؤمن الذي يحافظ على أوامر الله، ويجتنب معاصيه، ولكنه لا يجتهد في أداء النوافل: وهذا أعلى درجة في الولاية من سابقه

ثالثا: السابق بالخيرات: وهو الذي يأتي بالنوافل مع الفرائض، ويبلغ بالعبادات القلبية لله ﷻ مبالغ عالية، فهذا في درجات الولاية العالية.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله، لأن الله رضي عنهم فآمنهم من عقابه.. و «الأولياء» جمع «ولي»، وهو النصير".

عن سعيد بن جبير: " {لا خوف عليهم}، يعني: في الآخرة".

وقال الماوردي: يعني:" لا يخافون على ذريتهم فإن الله تعالى يتولاهم".

وقال مقاتل:" لا خوف عليهم أن يدخلوا جهنم".

قال السمعاني:" «الخوف»: انزعاج في النفس من توقع مكروه".

وفي «أَوْلِيَاءَ اللهِ» ها هنا، أقوال:

أحدها: أنهم قومٌ يُذْكَرُ الله لرؤيتهم، لما عليهم من سيما الخير والإخبات. قاله ابن عباس، والمسيب، وعبد الله بن أبي الهذيل.

=

=

وروي عن سعيد بن جبير، قال: "سُئل رسول الله ﷺ عن "أولياء الله"، فقال: الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله".

والثاني: هم {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}. قاله الإمام الطبري.

والثالث: هم الراضون بالقضاء، والصابرون على البلاء، والشاكرون على النعماء.

والرابع: هم من توالت أفعالهم على موافقة الحق.

والخامس: هم المتحابون في الله تعالى.

روي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن من عباد الله عبادًا يغبطهم الأنبياء والشهداء! قيل: من هم يا رسول الله؟ فلعلنا نحبُّهم! قال: هم قوم تحابُّوا في الله من غير أموالٍ ولا أنساب، وجوههم من نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} " أخرجه أبو داود (٣٥٢٧)، وهناد في الزهد (٤٧٥)، وابن جرير فى تفسيره (١١/ ١٣٢)، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٥)، والبيهقى فى الشعب (٨٩٩٨)، وابن قدامة المقدسي في المتحابين في الله (٤٨) والحديث قال عنه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢١٤): إسناده جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ﵁، وقال العلامة الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (٣٤٦): هذا الحديث إذا نظرت إلى رجاله وجدتهم رجال الصحيح، ولكنه منقطع أبو زرعة أرسل عن عمر كما في "تهذيب التهذيب وقال الحافظ المزي في تحفة الأشراف: إن أبا زرعة لم يدرك عمر، أما العلامة الألباني فقال في صحيح الترغيب (٣٠٢٦): صحيح لغيره، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٥/ ٣٨٧): حديث صحيح، وهذا إسناد فيه انقطاع، فإن أبا زرعة بن عمرو بن جرير لم يدرك عمر بن الخطاب، ولهذا قال البيهقي في "شعب الإيمان" (٨٥٨٤): أبو زرعة عن عمر مرسلا، قلت للحديث شواهد سيذكر المصنف

=

=

بعضها.

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢]، أي:" ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا".

قال الطبري: أي:" ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا".

عن سعيد بن جبير: " {ولا هم يحزنون}، يعني: لا يحزنون للموت".

وقال الماوردي: يعني:" {ولا هم يحزنون} على دنياهم لأن الله تعالى يعوضهم عنها".

وقال مقاتل:" {ولا هم يحزنون} أن يخرجوا من الجنة أبدا".

قال السمعاني:" «الحزن»: هم يقع في القلب لنوع عارض".

قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا} [يونس: ٦٣]، أي:" وصفات هؤلاء الأولياء، أنهم الذين صدَّقوا الله واتبعوا رسوله وما جاء به من عند الله".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: أقروا وصدقوا بوحدانية الله تعالى".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الذين صدقوا لله ورسوله، وما جاء به من عند الله".

قال سعيد بن جبير:" {آمنوا بالله}، يعني: بتوحيد الله".

قوله تعالى: {وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٣]، أي:" وكانوا يتقون الله بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه".

قال الطبري:" وكانوا يتَّقون الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه".

قال أبو الليث السمرقندي:" ويتقون الشرك والفواحش".

عن الضحاك:" {الْمُتَّقِينَ}، قال: "الذين يتقون الشرك.

عن السدي: " {المتقين}، قال: هم المؤمنون".

قال ابن زيد:" أبى أن يُتَقَبَّل الإيمان إلا بالتقوى".

=

=

قوله تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: ٦٤]، أي:" لهؤلاء الأولياء البشارة من الله في الحياة الدنيا بما يسرُّهم، وفي الآخرة بالجنة".

والبشرى والبشارة: الخبر السار، فهو أخص من الخبر، وسمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهي ظاهر جلد الإنسان، فيجعله متهلل الوجه، منبسط الأسارير، مبتهج النفس.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: البشرى من الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لأولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون".

وفي قوله تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: ٦٤]، وجوه:

أحدها: أن البشرى في الحياة الدنيا هي البشارة عند الموت بأن يعلم أين هو من قبل أن يموت، وفي الآخرة الجنة، قاله قتادة، والضحاك، والزهري.

الثاني: أن البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له، وفي الآخرة الجنة، روى ذلك عن رسول الله ﷺ أبو الدرداء، وأبو هريرة، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر، وبه قال عروة، وابن عباس، ويحيى بن ابي كثير، ومجاهد، وإبراهيم، وعطاء.

وروي عن أم كرز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ذهبت النبوّة وبقيت المبشّرات".

والثالث: أن البشرى في الحياة الدنيا الثناء الصالح، وفي الآخرة إعطاؤه كتابه بيمينه. أفاده الماوردي.

والرابع: أن البشرى في الحياة الدنيا: الرؤيا الصالحات، وفي الآخرة إذا خرجوا من قبورهم. وهذا قول مقاتل.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره

=

=

أخبر أنّ لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ومنها بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة الله، كما روي عن النبي ﷺ: «أن الملائكة التي تحضره عند خروج نفسه، تقول لنفسه: اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه».

ومنها: بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل، كما قال جل ثناؤه: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} الآية، [سورة البقرة: ٢٥].

وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشره بها، ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى، فذلك مما عمه جل ثناؤه: أن (لهم البشرى في الحياة الدنيا)، وأما في الآخرة فالجنة".

وقال السعدي: أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

(وفي الآخرة) قال الثعالبي: أما بشرى الآخرة، فهي بالجنة؛ بلا خلاف قولا واحدا، وذلك هو الفضل الكبير.

- **قال السعدي**: وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون).

وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم.

وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

- قال ابن كثير: وأما بشراهم في الآخرة، فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون).

=

=

وقال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم).

قوله تعالى: {لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ} [يونس: ٦٤]، أي:" لا إخلاف لوعد الله".

قال الطبري:" معناه: إن الله لا خُلْفَ لوعده، ولا تغيير لقوله عما قال، ولكنه يُمْضي لخلقه مواعيدَه وينجزها لهم".

قال ابن عباس: "لا خلف لمواعيده".

عن نافع قال: "أطال الحجاج الخطبة، فوضع ابن عمر رأسَه في حِجْري، فقال الحجاج: إن ابن الزبير بدّل كتاب الله! فقعد ابن عمر فقال: لا تستطيع أنت ذاك ولا ابن الزبير! لا تبديل لكلمات الله! فقال الحجاج: لقد أوتيت علمًا إن نفعك! قال أيوب: فلما أقبل عليه في خاصّة نفسه سكَتَ".

وهذا خبر عظيم القدر فيه أخلاق أصحاب رسول الله ﷺ، ظاهرة كما علمهم رسولهم، من ترك هيبة الجبابرة، ومن إنكار المنكر من القول والعمل، ومن اليقظة لمعاني الكلام ومقاصد الأعمال، ومن تعليم الناس جهرة أخطاء أمرائهم والولاة عليهم، ومن الصبر على أذى هؤلاء الجبابرة إذا كان الأذى يمسهم في خاصة أنفسهم. فأما إذا كان الأمر أمر الله وأمر رسوله، وأمر الكتاب المنزل بالحق إلى الديانين والجبابرة جميعًا، يأمرهم وينهاهم على السواء، فهم لا يخافون جبارًا قد عود سيفه سفح الدماء، ودرب لسانه على اللذع والقرص واللجاجة. فرحم الله أمة كان هؤلاء النبلاء، أئمتها وهداتها!.

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٤]، أي:" ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والظفر بالمقصود الذي لا يُضاهى".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هذه البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة -وهي الفوز العظيم-، يعني: الظفر بالحاجة والطَّلِبة والنجاة من النار".

=

=

عن أبي مالك، قوله: " {ذلك}، يعني: هذا".
قال سعيد بن جبير: " يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم".
* مسألة: ذكر مسائل في كرامات الأولياء.
مسألة: تعريف الولاية والولي.
الولي بفتح فسكون: القرب والدنو، وحصول ثان بعد أول من غير فصل يقال: تباعد بعد ولى، وكل مما يليك أي يقاربك. ويقال سقط الولي وهو المطر يلي الوسمي ويحصل بعده. والمطر الولي يقال أيضًا بوزن فعيل.
والولاء بالفتح: القرابة والنصرة يقال بينهما ولاء. وبالكسر الموالاة والمتابعة تقول أفعل هذه الأشياء على الولاء وتوالى عليه شهران. والموالاة بين شخصين تكون أيضًا مضادة للمعاداة.
والولاية بالكسر السلطان يقال وليت الأمر إليه فأنا وال. ونحن ولاة وبالفتح النصرة يقال هم على ولاية إذا اجتمعوا على النصرة. وتكون الولاية بالكسر على هذا المعنى عند الجمهور، وجعلها سيبويه اسمًا لما توليته وقمت به.
والمولى ابن العم، والعاصب، والحليف والناصر، والجار.
والولي وزان فعيل ضد العدو من وليه إذا قام به يكون بمعنى فاعل وبمعنى مفعول فمن الأول الله ولي الذين آمنوا، ومن الثاني المؤمن ولي الله للمطيع له. وكل من ولى أمر غيره فهو وليه. ويطلق على ابن العم والناصر والصديق والمحب. تقول توليته إذا جعلته وليًا. ومنه: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم). كل هذا من الصحاح والقاموس والأساس والمصباح.
وأما تعريف الولي في الاصطلاح: فقد عرفه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: (وقد قيل إن الولي سمي وليًا من موالاته للطاعات أي متابعته لها ويقابل الولي العدو على أساس من القرب والبعد).

=

=

وقال الشوكاني في تفسيره: (والمراد بأولياء الله خلقه المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ [يونس: ٦٣] أي يؤمنون بما يجب الإيمان به ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه).

وقال الدكتور إبراهيم هلال: (وهذا المعنى الذي يدور بين الحب والقرب هو الذي أراده القرآن الكريم من كلمة ولي ومشتقاتها في كل موضع أتى بها فيه سواء في جانب أولياء الله أو في جانب أولياء أعداء الله وأعداء الشيطان).

وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله ﷺ أن لله أولياء من الناس وللشيطان أولياء ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فقد قال تعالى: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقال تعالى: اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [المائدة: ٥١].

وذكر أولياء الشيطان فقال تعالى: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ [النحل: ٩٨ - ١٠٠].

وقال تعالى: الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [النساء: ٧٦].

=

=

وقال تعالى: إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [آل عمران: ١٧٥].

وعلى هذا فالتقسيم الصحيح للناس في هذه الحياة الدنيا هو أنهم ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما وهو أن أي أحد من الإنس أو الجن في هذه الحياة إما أن يكون وليا لله وإما أن يكون عدوًا لله وليست الولاية محصورة في أشخاص معينين كما يزعم الصوفية ذلك بل ما نعتقده هو أن أي مسلم يؤمن بالله وبرسوله وينفذ أوامر الله ويجتنب نواهيه فهو ولي من أولياء الله سبحانه وتعالى.

ثم إن من شرط ولاية الله سبحانه وتعالى هو أن يؤمن الإنسان بالله وبرسوله وأن يتبع الرسول في الظاهر والباطن وكل من يدعي محبة الله وولايته بدون متابعة الرسول ﷺ فهو كاذب مفتر دجال وليس من أولياء الله بل هو من أولياء الشيطان قال تعالى: قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ [آل عمران: ٣١]

قال الحسن البصري رحمه الله: (ادعى قوم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول يحبه ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله.

فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأنه لا يدخل الجنة إلا من كان معهم بل يدعون أنهم أبناؤه وأحباؤه.

وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت وكانوا يستكبرون على غيرهم).

ولكن الصوفية خصصوا لولاية الله سبحانه وتعالى أعدادًا معينة في حدود الأربعين أو الثلاثمائة أو غيرها من الأعداد التي يذكرها المتصوفة لمن يطلقون عليهم أنهم أولياء الله وأصبحوا يصفونهم بأوصاف لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى حيث ادعوا

=

=

بأن الأولياء يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون تصرفًا مطلقًا ويدعون ويستغاث بهم من دون الله وهذه كلها معتقدات فاسدة دخيلة على الإسلام جلبها المتصوفة من الطوائف الوثنية الضالة التي تعبد البشر من دون الله.

(وولاية الله موافقته بأن تحب ما يحب وتبغض ما يبغض وتكره ما يكره وتسخط ما يسخط وتوالي من يوالي وتعادي من يعادي).

(والمراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته).

وقال ابن القيم رحمه الله: (فالولاية هي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه).

وقال أيضًا رحمه الله: (فولي الله هو القريب منه المختص به).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والولاية هي الإيمان والتقوى المتضمنة للتقرب بالفرائض والنوافل).

وقال أيضًا رحمه الله: (فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضاته وتقرب إليه بما أمر به من طاعته).

وقال السيوطي رحمه الله: (وهو العارف بالله حسب ما يمكن، المواظب على الطاعات المجتنب للمعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات).

فكرامات الأولياء جمع كرامة، والكرامة في اللغة: إكرام من الإكرام، وهو ما يؤتى المكرم من هبة وعطية وهي في باب الكرامة من الله.

وفي الاصطلاح عرفت كرامة الولي بأنها أمر خارق للعادة جرى على يدي ولي.

وكونه خارقا للعادة يخرج به ما ينعم الله به من النعم على عباده مما لا يدخل في كونه خارقا للعادة، فأهل الإيمان ينعم عليهم بنعم كثيرة وهي إكرام من الله؛ لكن لا تدخل في حد الكرامة، فالكرامة ضابطها أنها أمر خارق للعادة.

والعادة هنا، خارق للعادة أي عادة؟ عادة أهل ذلك الزمان.

=

=

فقد يكون خارقا لعادة أناس في القرن الثاني وهو ليس بخارق لعادتنا في هذا الزمن، مثلا أن ينتقل من بلد إلى بلد في ساعة، من الشام إلى مكة أو إلى القدس في ساعة، ويصلي هنا إلى آخره، أو أن يحجب عن بعض المكروه، أو أن يكون عنده علم بحال أناس بالتفصيل يسمع كلامهم ويرى صورتهم في بلد بعيد عنه، هو في الجزيرة ويرى حالهم في الشام أو في مصر أو في خراسان أو ما أشبه ذلك.

هذه في زمن مضى كانت خوارق لعادة أهل ذلك الزمان لكنها بالنسبة لأهل هذا الزمان ليست بخارق مطلقا.

لهذا تضبط العادة في تعريف الكرامة (خارق للعادة) بأنها عادة أهل ذلك الزمن.

والمعجزة أيضا أو الآية والبرهان للنبي وخوارق السحرة والكهنة كما سيأتي فيها خرق للعادة لكن مع اختلاف الخارق واختلاف العادة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

(جرى على يدي ولي) قوله جرى يعني أنه أكرم به الولي فجرى على يديه.

وقد يكون أعطي القدرة وقد يكون الولي أحس بالشيء وجرى على يديه دون قدرة منه، إما من الملائكة أو بسبب شاءه الله.

وآخر جملة (على يدي ولي) يخرج منها ما جرى على يد الأنبياء فهي أمر خارق للعادة لكنه ليس على يدي ولي، وإنما على يدي نبي، كذلك خوارق السحرة والكهنة والمشعوذين فهي شيطانية ليست إيمانية، ولذلك لا تدخل في التعريف.

مسألة: اجتماع الولاية والعداوة في نفس الشخص.

وتجتمع في المؤمن ولاية من وجه، وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان. وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة، ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع، كما تقدم في الإيمان. ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى - أولى من موافقته في المعنى

=

=

وحده، قال تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ [يوسف: ١٠٦]. وقال تعالى: قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا [الحجرات: ١٤]، الآية. وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين. وقال ﷺ: أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر وفي رواية: وإذا ائتمن خان، بدل: وإذا وعد أخلف. أخرجاه في الصحيحين. وحديث شعب الإيمان... وقوله ﷺ: يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق، فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار.

فالطاعات من شعب الإيمان، والمعاصي من شعب الكفر، وإن كان رأس شعب الكفر الجحود، ورأس شعب الإيمان التصديق.

وأما ما يروى مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال: ما من جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولي لله، لا هم يدرون به، ولا هو يدري بنفسه -: فلا أصل له، وهو كلام باطل، فإن الجماعة قد يكونون كفارا، وقد يكونون فساقا يموتون على الفسق.

مسألة: حكم الشهادة لمعين بالولاية.

الشهادة للشخص معين بالولاية ثلاثة أقوال كما بين ذلك ابن تيمية رحمه الله:

الأول: قيل لا يشهد بذلك لغير النبي، وهو قول أبي حنيفة والأوزاعي وعلي بن المديني وغيرهم.

الثاني: وقيل يشهد به لمن جاء به نص إن كان خبرا صحيحا كمن شهد له النبي ﷺ بالجنة فقط، وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم.

الثالث: وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح كعمر بن عبد

=

=

العزيز والحسن البصري وغيرهما، وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة قال: وفي الحديث الذي في المسند: (يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار. قالوا: بماذا يا رسول الله؟ قال بالثناء الحسن والثناء السيئ) وفي الصحيحين: (أن النبي مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال وجبت، وجبت، ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرا فقال: وجبت، وجبت فقيل يا رسول الله ما قولك وجبت وجبت؟ قال: هذه الجنازة أثنيتم عليها الخير فقلت وجبت لها الجنة، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار، أنتم شهداء الله في الأرض) ثم قال: والتحقيق أن هذا قد يعلم بأسباب، وقد يعلم على الظن، ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم.

ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية (لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الأنصار على سكناهم فصار لنا عثمان بن مظعون في السكنى فمرض فمرضناه ثم توفي، فجاء رسول الله ﷺ فدخل فقلت رحمة الله عليك أبا السائب. فشهادتي أن قد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله قد أكرمه؟ قالت: لا والله لا أدري، فقال النبي: أما هو فقد أتاه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري- وأنا رسول الله- ما يفعل بي ولا بكم، قالت: فوالله لا أزكي بعده أحدا أبدا) وإن من الناس من يظهر منه صلاح وورع وكانت حاله بينه وبين الله على العكس من ذلك. فإذا خلا بمحارم الله انتهكها كما في حديث ثوبان عن النبي أنه قال: (لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة. بيضا فيجعلها الله ﷻ هباء منثورا، قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، قال: أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها) ولما أثنى رجل على آخر عند رسول الله انتهره قائلا (ويحك قطعت عنق صاحبك. ثم قال: إن كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة

=

=

فليقل: أحسب فلانا ولا أزكي على الله أحدا، حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك)
وقد أخبر ﷺ عمن كان يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه أنه (يؤتى به يوم القيامة ويدور كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه)
وكذلك رأى الصحابة رجلا من المسلمين يقاتل المشركين بقوة حتى أعمل فيهم القتل فأعجبوا لشجاعته وأثنوا عليه، فقال النبي ﷺ: (إن هذا من أهل النار فتعجب الصحابة حتى قالوا: أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار؟ فتبعه رجل من الصحابة فوجده قد جرح فاستعجل الموت ووضع نصاب سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه فجاء الرجل إلى النبي وقال: أشهد أنك رسول الله. قال ﷺ: وما ذاك؟ فأخبره بخبره فقال النبي ﷺ: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)
وكذلك قتل رجل في خيبر فقيل: (هنيئا له الجنة؛ فقال رسول الله: كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها من المغانم- لم تصبها المقاسم- لتشتعل عليه نارا)
فها قد خفيت حقيقة هؤلاء الرجال على أصحاب النبي ﷺ مع أنهم أعظم أولياء الله؛ بل هم أعظم ولاية عند الله من أولياء اليوم والغد. فلماذا لم ينكشف لهم ما يزعم أدعياء الولاية اليوم مكاشفته، أم أن الله فضل أولياء اليوم على سلفنا الصالح وكشف لهم ما أخفاه عن أولئك!
ولقد نهانا الله تعالى عن أن يزكي الواحد منا نفسه مع كون الواحد منا أعلم بنفسه من غيره فقال فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى [النجم: ٣٣]. فكيف نستطيع

=

أن نحكم على غيرنا بولايته وتقواه، وبصدق ظاهره وباطنه سره وعلانيته مع الله!.
مسألة: قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٦ – ٢٨٢): وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدا: مثل ما كان (أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته)، وكانت (الملائكة تسلم على عمران بن حصين)، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما. رواه البخاري وغيره. وقصة الصديق في الصحيحين (لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله ﷺ وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا). وخبيب بن عدي كان أسيرا عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة. وعامر بن فهيرة قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع وقال عروة: فيرون الملائكة رفعته. وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسا على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها. وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده. (والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه، وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء أقسم على ربك فيقول: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فيهزم العدو فلما كان يوم القادسية قال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم

=

وجعلتني أول شهيد فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدا). وخالد بن الوليد حاصر حصنا منيعا، فقالوا: لا نسلم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره.
وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة ما دعا قط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق. وعمر بن الخطاب لما أرسل جيشا أمر عليهم رجلا يسمى سارية فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر (يا سارية الجبل يا سارية الجبل فقدم رسول الجيش فسأل فقال يا أمير المؤمنين لقينا عدوا فهزمونا فإذا بصائح: يا سارية الجبل يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله).
ولما عذبت الزبيرة على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها؛ قال المشركون: أصاب بصرها اللات والعزى. قالت: كلا والله فرد الله عليها بصرها.
ودعا سعيد بن زيد على أروى بنت الحكم فأعمي بصرها لما كذبت عليه فقال: (اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واقتلها في أرضها فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت). والعلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين وكان يقول في دعائه: يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم فيستجاب له ودعا الله بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء والإسقاء لما بعدهم فأجيب ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم؛ ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات فلم يجدوه في اللحد. وجرى مثل ذلك لأبي مسلم الخولاني الذي ألقي في النار (فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمى بالخشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال: تفقدون من متاعكم شيئا حتى أدعو الله ﷻ فيه فقال بعضهم: فقدت مخلاة فقال اتبعني فتبعه فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها). (وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له: أتشهد أني رسول الله. قال ما أسمع قال أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال نعم فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائما يصلي فيها وقد صارت عليه بردا

=

=

وسلاما؛ وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله). ووضعت له جارية السم في طعامه فلم يضره. وخببت امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت وجاءت وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها. وكان عامر بن عبد قيس يأخذ عطاءه ألفي درهم في كمه وما يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها.

ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإني أستحي أن أخاف شيئا غيره ومرت القافلة. ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء فكان يؤتى بالماء له بخار. ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه. وتغيب الحسن البصري عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه. ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتا. وصلة بن أشيم (مات فرسه وهو في الغزو فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه، فلما وصل إلى بيته قال يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية فأخذ سرجه فمات الفرس). وجاع مرة بالأهواز فدعا الله عز وجل واستطعمه فوقعت خلفه دوخلة رطب في ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زمانا. وجاء الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل فلما سلم قال له اطلب الرزق من غير هذا الموضع فولى الأسد وله زئير. وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ أوقات الصلوات وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره. (ورجل من النخع كان له حمار فمات في الطريق فقال له أصحابه هلم نتوزع متاعك على رحالنا فقال لهم: أمهلوني هنيهة ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه). ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفانا لم تكن

=

=

معه قبل ووجدوا له قبرا محفورا فيه لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب. وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلي يومًا في شدة الحر فأظلته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم. وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط. (ولما مات الأحنف بن قيس وقعت قلنسوة رجل في قبره فأهوى ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر). وكان إبراهيم التيمي يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئا وخرج يمتار لأهله طعاما فلم يقدر عليه فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراء فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حبا متراكبا. (وكان عتبة الغلام سأل ربه ثلاث خصال صوتا حسنا ودمعا غزيرا وطعاما من غير تكلف. فكان إذا قرأ بكى وأبكى ودموعه جارية دهره وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه). (وكان عبد الواحد بن زيد أصابه الفالج فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ثم تعود بعده).

مسألة: الفرق بين الكرامة والأحوال الشيطانية.

من ضوابط الحكم على خرق العادة النظر في سيرة واستقامة من خرقت له:

وأما تمييز الولي الصادق الذي قد تجري على يديه الكرامات من الدعي الكاذب الذي يموه على الناس ويخدعهم، فإنما يكون ذلك بحسب صلاحه وتقواه، من قيامه بالفرائض والنوافل، واتقائه الكبائر، والصغائر، واتصافه بالصفات الكريمة، واستدامته عليها، فإن اتصف شخص بكل هذه الصفات الطيبة، وعرفت عنه، ثم حدث على يديه شيء من الخوارق فيما لا يخالف الشرع، فيجوز أن يطلق على ذلك الخارق اسم (كرامة).

=

=

أما إن كان الرجل على خلاف ذلك، مشتهرا بالفسق والفساد والضلال، وغير ذلك، فإن كل ما يجري على يديه لا يعتد به بالغا ما بلغ، والله أعلم.

من شروط الكرامة:

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: (ومن الفوائد في هذا الأصل أن ينظر إلى كل خارقة صدرت على يدي أحد، فإن كان لها أصل في كرامات الرسول ﷺ ومعجزاته؛ فهي صحيحة، وإن لم يكن لها أصل؛ فغير صحيحة، وإن ظهر ببادئ الرأي أنها كرامة؛ إذ ليس كل ما يظهر على يدي الإنسان من الخوارق بكرامة، بل منها ما يكون كذلك، ومنها ما لا يكون كذلك.

وبيان ذلك بالمثال أن أرباب التصريف بالهمم والتقربات بالصناعة الفلكية، والأحكام النجومية، قد تصدر عنهم أفاعيل خارقة، وهي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، ليس لها في الصحة مدخل، ولا يوجد لها من كرامات النبي ﷺ منبع؛ لأنه إن كان ذلك بدعاء مخصوص، فدعاء النبي ﷺ لم يكن على تلك النسبة، ولا تجري فيه تلك الهيئة، ولا اعتمد على قران في الكواكب، ولا التمس سعودها أو نحوسها، بل تحرى مجرد الاعتماد على من إليه يرجع الأمر كله، والتجأ إليه، معرضًا عن الكواكب، وناهيًا عن الاستناد إليها؛ إذ قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)... الحديث وإن تحرى وقتًا، أو دعا إلى تحريه، فلسبب بريء من هذا كله؛ كحديث التنزل، وحديث اجتماع الملائكة طرفي النهار، وأشباه ذلك) إلى أن قال رحمه الله: (وهذا الموضع مزلة قدم للعوام، ولكثير من الخواص؛ فلتتنبه له).

خرق العادة بمجرده لا يدل على الولاية:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وكل من خالف شيئًا مما جاء به الرسول، مقلدًا في ذلك لمن يظن أنه ولي لله، فإنه بنى أمره على أنه ولي الله، وأن ولي الله لا يخالف في شيء، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله؛ كأكابر

=

=

الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة، فكيف إذا لم يكن كذلك؟! وتجد كثيرًا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليا لله أنه قد صدر عنه مكاشفه في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة؛ مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانًا، أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب، أو يختفي أحيانًا عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه، فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سرق لهم، أو بحال غائب لهم أو مريض، أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي الله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء، لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ، وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة - وإن كان قد يكون صاحبها وليا لله- فقد يكون عدوا لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار، والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي الله، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم، وأفعالهم، وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة.

مثال ذلك: أن الأمور المذكورة وأمثالها، قد توجد في أشخاص، ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي الصلوات المكتوبة، بل يكون ملابسا للنجاسات، معاشرا للكلاب، يأوي إلى الحمامات، والقمامين، والمقابر، والمزابل، رائحته خبيثة، لا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظف...)

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: (ومن هنا يعلم أن كل خارقة حدثت أو تحدث إلى

=

=

يوم القيامة، فلا يصح ردها ولا قبولها إلا بعد عرضها على أحكام الشريعة، فإن ساغت هناك فهي صحيحة مقبولة في موضعها، وإلا لم تقبل إلا الخوارق الصادرة على أيدي الأنبياء عليهم السلام؛ فإنه لا نظر فيها لأحد؛ لأنها واقعة على الصحة قطعًا؛ فلا يمكن فيها غير ذلك، ولأجل هذا حكم إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده بمقتضى رؤياه، وقال له ابنه: يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ [الصافات: ١٠٢]، وإنما النظر فيما انخرق من العادات على يد غير المعصوم.

وبيان عرضها أن تفرض الخارقة واردة من مجاري العادات، فإن ساغ العمل بها عادة وكسبا، ساغت في نفسها، وإلا فلا؛ كالرجل يكاشف بامرأة أو عورة، بحيث اطلع منها على ما لا يجوز له أن يطلع عليه، وإن لم يكن مقصودًا له، أو رأى أنه يدخل على فلان بيته وهو يجامع زوجته ويراه عليها، أو يكاشف بمولود في بطن امرأة أجنبية؛ بحيث يقع بصره على بشرتها، أو شيء من أعضائها التي لا يسوغ النظر إليها في الحس، أو يرى صورة مكيفة مقدرة تقول له: (أنا ربك)، أو يرى ويسمع من يقول له: (قد أحللت لك المحرمات)، وما أشبه ذلك من الأمور التي لا يقبلها الحكم الشرعي على حال، ويقاس على ذلك ما سواه، وبالله التوفيق).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (خرق العادة قد يقع للزنديق بطريق الإملاء والإغواء، كما يقع للصديق بطريق الكرامة والإكرام، وإنما تحصل التفرقة بينهما باتباع الكتاب والسنة).

وقال العلامة الشوكاني رحمه الله: (ولا يجوز للولي أن يعتقد في كل ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أن ذلك كرامة من الله سبحانه، فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره. بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنة، فإن كانت موافقة لها، فهي حق، وصدق، وكرامة من الله سبحانه، وإن كانت مخالفة لشيء من ذلك؛ فليعلم أنه مخدوع ممكور به، قد طمع منه الشيطان؛

=

=

فلبس عليه).

وقال الدكتور تقي الدين الهلالي شيخ التوحيد والسنة في بلاد المغرب - بل في كثير من بلاد العالم الإسلامي - رحمه الله تعالى -: (.. ومن هذا تعلم أن ظهور الخوارق، وما في عالم الغيب - ليس دليلًا على صلاح من ظهرت له تلك الخوارق، ولا على ولايته لله البتة؛ فإن كل مرتاض رياضة روحية تظهر له الخوارق على أي دين كان، وقد سمعنا وقرأنا أن العباد الوثنيين من أهل الهند تقع لهم خوارق عظام).

(إذن، فيجب على كل مسلم التحقق من ذلك، ولا يجوز القطع بولاية كل من فعل خارقًا من خوارق العادات؛ لأن الغاية من خرق العادة عند المشعوذين: التلبيس على المسلمين في دينهم، كما كانت الشياطين تخدع المشركين، فتدخل في أجواف الأصنام وتصدر أصواتًا، يظنون أن أصنامهم تتحدث إليهم، أو تحركها الشياطين من مكانها، فيظنوا أنها تتحرك من تلقاء نفسها.

ولقد ذكر الشعراني أن الشيطان كان يدخل في أجواف الأصنام، والغربان، والعصافير، ويتكلم على ألسنتها بما شاء، حتى عبدت من دون الله).

من القادر على التمييز بين (الأحوال الرحمانية) و (الأحوال الشيطانية)؟

يتمكن إبليس من الإنسان على قدر حظه من العلم، فكلما قل علمه اشتد تمكن إبليس منه، وكلما كثر العلم قل تمكنه منه؛ ولذلك لا تشتبه (الكرامة الرحمانية) بالحال (الشيطانية) إلا عند الجهال، وأهل الأهواء، بخلاف أهل العلم والبصيرة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان، وكما أنه يجب الفرق بين

=

=

النبي الصادق وبين المتنبي الكذاب، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول الله رب العالمين، وموسى، والمسيح، وغيرهم، وبين مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطلحة الأسدي، والحارث الدمشقي، وباباه الرومي، وغيرهم من الكذابين، وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين، وأولياء الشيطان الضالين).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: (ومن العباد من يرى ضوءًا أو نورًا في السماء، فإن كان في رمضان قال: رأيت ليلة القدر، وإن كان في غيره قال: فتحت لي أبواب السماء، وقد يتفق له الشيء الذي يطلبه، فيظن ذلك كرامة، وربما كان اختبارًا، وربما كان من خدع إبليس، والعاقل لا يساكن شيئًا من هذا، ولو كان كرامة).

كان أبو ميسرة فقيه المغرب يختم كل ليلة في مسجده، فرأى ليلة نورا قد خرج من الحائط، وقال: تمل من وجهي؛ فأنا ربك، فبصق في وجهه، وقال: (اذهب يا ملعون) فطفئ النور.

(وكم اغتر قوم بما يشبه الكرامات، فقد روينا بإسناد عن حسن عن أبي عمران قال: قال لي فرقد: (يا أبا عمران، قد أصبحت اليوم وأنا مهتم بضريبتي، وهي ستة دراهم، وقد أهل الهلال وليست عندي، فدعوت، فبينما أنا أمشي على شط الفرات إذا أنا بستة دراهم، فأخذتها فوزنتها، فإذا هي ستة لا تزيد ولا تنقص)، فقال: (لا تصدق بها، فإنها ليست لك)، قلت: -أبو عمران هو إبراهيم النخعي فقيه أهل الكوفة- فانظروا إلى كلام الفقهاء، وبعد الاغترار عنهم، وكيف أخبره أنها لقطة، ولم يلتفت إلى ما يشبه الكرامة، وإنما لم يأمره بتعريفها لأن مذهب الكوفيين أنه لا يجب التعريف لما دون الدينار، وكأنه إنما أمره بالتصدق بها لئلا يظن أنه قد أكرم بأخذها وإنفاقها.

وبإسناد عن إبراهيم الخراساني أنه قال: احتجت يومًا إلى الوضوء، فإذا أنا بكوز من جوهر، وسواك من فضة، رأسه ألين من الخز، فاستكت بالسواك، وتوضأت

=

=

بالماء، وتركتهما وانصرفت.

قلت: في هذه الحكاية من لا يوثق بروايته، فإن صحت دلت على قلة علم هذا الرجل؛ إذ لو كان يفهم الفقه علم أن استعمال السواك الفضة لا يجوز، ولكن قل علمه فاستعمله، وإن ظن أنه كرامة، والله تعالى لا يكرم بما يمنع استعماله شرعًا، إلا إن أظهر له ذلك على سبيل الامتحان)

قال القشيري: (قال إبراهيم الخواص: طلبت الحلال في كل شيء حتى طلبته في صيد السمك، فأخذت قصبة، وجعلت فيها شعرا، وجلست على الماء، فألقيت الشص، فخرجت سمكة، فطرحتها على الأرض، وألقيت ثانية، فخرجت لي سمكة. إذ من ورائي لطمة لا أدري من يد من هي، ولا رأيت أحدًا وسمعت قائلًا يقول: أنت لم تصب رزقًا في شيء إلا أن تعمد إلي من يذكرنا فتقتله. قال إبراهيم: فقطعت الشعر، وكسرت القصبة، وانصرفت)

ولو أن هذا الصوفي تدبر قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ [المائدة: ٩٦]، لجزم قاطعا بأن اللاطم لم يكن سوى إبليس؛ إذ الله لا يعاقب على صيد ما أباحه، ولا يحرم صيد الأسماك؛ لأنها تذكر الله ﷻ؛ فإنه ما من شيء إلا يسبح بحمده ويذكره، ولو تركنا ذبح الأنعام -وهي تذكر الله- تعالى-أيضا، لم يكن لنا ما يقيم قوى الأبدان.

وذكر محمد بن أبي الفضل الهمداني المؤرخ قال: حدثني أبي قال: كان السرمقاني المقرئ يقرأ على ابن العلاف، وكان يأوي إلى المسجد بدرب الزعفراني، واتفق أن ابن العلاف رآه ذات يوم في وقت مجاعة، وقد نزل إلى دجلة، وأخذ منه أوراق الخس مما يرمي به أصحابه، وجعل يأكله، فشق ذلك عليه، وأتى إلى رئيس الرؤساء، فأخبره بحاله، فتقدم إلى غلام بالقرب إلى المسجد الذي يأوي إليه السرمقاني أن يعمل لبابه مفتاحًا من غير أن يعلمه، ففعل وتقدم إليه أن يحمل كل

=

=

يوم ثلاثة أرطال خبزًا سميدًا، ومعها دجاجة، وحلوى سكرا، ففعل الغلام ذلك، وكان يحمله على الدوام، فأتى السرمقاني في أول يوم فرأى ذلك مطروحًا في القبلة، ورأى الباب مغلقًا فتعجب، وقال في نفسه: هذا من الجنة، ويجب كتمانه، وأن لا أتحدث به، فإن من شروط الكرامة كتمانها، وأنشدني:

من أطلعوه على سر فباح به ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

فلما استوى حاله، وأخصب جسمه، سأله ابن العلاف عن سبب ذلك، وهو عارف به، وقصد المزاح معه، فأخذ يوري ولا يصرح، ويكني ولا يفصح، ولم يزل ابن العلاف يستخبره حتى أخبره أن الذي يجده في المسجد كرامة؛ إذ لا طريق لمخلوق عليه، فقال له ابن العلاف: (يجب أن تدعو لابن المسلمة، فإنه هو الذي فعل ذلك)، فنغص عيشه بإخباره، وبانت عليه شواهد الانكسار.

أمثلة من الأحوال الشيطانية:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في شأن أصحاب الأحوال الشيطانية: (وهؤلاء تقترن بهم الشياطين، وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين، قال تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]، وهؤلاء جميعًا ينتسبون على المكاشفات، وخوارق العادات، إذا لم يكونوا متبعين للرسل، فلابد أن يكذبوا، وتكذبهم شياطينهم، ولابد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور؛ مثل نوع من الشرك، أو الظلم، أو الفواحش، أو الغلو، أو البدع في العبادة.

ولهذا تنزلت عليهم الشياطين، واقترنت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن؛ قال الله تعالى: وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ

=

=

لَهُ قَرِينٌ [الزخرف: ٣٦]).

ومن الأحوال الشيطانية حال (عبد الله بن صياد)، الذي ظهر في زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال، لكنه كان من جنس الكهان، فقال له النبي ﷺ: (قد خبأت لك خبئا) قال: (الدخ الدخ)، وقد كان خبأ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ: (اخسأ فلن تعدو قدرك)، يعني إنما أنت من إخوان الكهان، والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما هو في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: (إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم).

وهذا المسيح الدجال الذي هو أعظم فتنة تمر على البشرية في تاريخها، حتى حذر جميع الأنبياء منه أممهم، وحتى قال فيه النبي ﷺ: فيما رواه أبو داود عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: (من سمع الدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه؛ مما يبعث به من الشبهات)، وسوف يأتي بأعظم الخوارق:

فمنها: ما رواه حذيفة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: (معه جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار).

ومنها: أنه يستعين بالشياطين؛ فقد روي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه؛ فإنه ربك).

ومن فتنته أنه يأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، ويدعو البهائم فتتبعه، ويأمر الخرائب أن تخرج كنوزها المدفونة فتستجيب.

=

=

ومن فتنته أنه يقتل ذلك الشاب المؤمن فيما يظهر للناس، ثم يدعي أنه أحياه، فيقول ذلك الشاب: (والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم).

يقول شيخ الإسلام في شأن أصحاب الأحوال الشيطانية:

(وهؤلاء تأتيهم أرواح تخاطبهم، وتتمثل لهم، وهي جن وشياطين، فيظنونها ملائكة؛ كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام.

وكان من أول ما ظهر من هؤلاء في الإسلام: المختار بن أبي عبيد الذي أخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في (صحيحه) عن النبي ﷺ أنه قال: (سيكون في ثقيف كذاب ومبير). وكان الكذاب: المختار بن أبي عبيد. والمبير: الحجاج بن يوسف، فقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أنه ينزل إليه، فقالا: صدق، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢].

وقال الآخر: وقيل له: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

(والأسود العنسي الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته، لما تبين لها كفره، فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذاب، كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات، ويعينه على بعض الأمور.

وأمثال هؤلاء كثيرون؛ مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة، وكانت الشياطين تخرج رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يري الناس رجالًا وركبانًا على خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جنا، ولما أمسكه المسلمون

=

=

ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله، فسمى الله، فطعنه فقتله.

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها؛ مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في (الصحيح) عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة، وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ: (ما فعل أسيرك البارحة؟، فيقول: زعم أنه لا يعود، فيقول: كذبك وإنه سيعود، فلما كان في المرة الثانية، قال: دعني حتى أعلمك ما ينفعك: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقرة: ٢٥٥]... إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ قال: صدقك وهو كذوب) وأخبره أنه شيطان.

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها؛ مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أو يحضر سماع المكاء والتصدية، فتنزل عليه الشياطين، وتتكلم على لسانه كلامًا لا يعلم، وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة؛ كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك، بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس، ولبسه، وتكلم على لسانه، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال)

ومن الخوارق ما لا يكون بتسبب شيطاني مباشر، وإنما يكون بطريق التعلم والحيلة، كما يفعله النصارى كثيرًا، وكما كان يفعل ابن تومرت، وكما روي عن الحلاج، من أنه (كان يدفن شيئًا من الخبز، والشواء، والحلوى في موضع من البرية، ويطلع بعض أصحابه على ذلك، فإذا أصبح قال لأصحابه: (إن رأيتم أن نخرج على وجه السياحة)، فيقوم، ويمشي الناس معه، فإذا جاءوا إلى ذلك

=

=

المكان، قال له صاحبه الذي أطلعه على ذلك: (نشتهي الآن كذا وكذا)، فيتركهم الحلاج، وينزوي عنهم إلى ذلك المكان، فيصلي ركعتين، ويأتيهم بذلك، وكان يمد يده إلى الهواء، ويطرح الذهب في أيدي الناس ويمخرق، وقد قال له بعض الحاضرين يوما: (هذه الدراهم معروفة، ولكن أؤمن بك إذا أعطيتني درهما عليه اسمك واسم أبيك)، وما زال يمخرق إلى وقت صلبه).

ومن ذلك ما ذكره بعض أصحاب ابن الشباس قال: (حضرنا يومًا عنده، فأخرج جديًا مشويًا، فأمرنا بأكله، وأن نكسر عظمه ولا نهشمها، فلما فرغنا أمر بردها إلى التنور، وترك على التنور طبقا، ثم رفعه بعد ساعة، فوجدنا جديا حيا يرعى حشيشا، ولم نر للنار أثرا، ولا للرماد ولا للعظام خبرا، قال: فتلطفت حتى عرفت ذلك، وذلك أن التنور يفضي إلى سرداب، وبينهما طبق نحاس بلولب، فإذا أراد إزالة النار عنه فركه فينزل عليه فيسده وينفتح السرداب، وإذا أراد أن يظهر النار أعاد الطبق إلى فم السرداب فتراءى للناس).

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (وقد رأينا في زماننا من يشير إلى الملائكة ويقول: هؤلاء ضيف مكرمون، يوهم أن الملائكة قد حضرت، ويقول لهم: تقدموا إلي. وأخذ رجل في زماننا إبريقا جديدًا فترك فيه عسلا، فتشرب في الخزف طعم العسل، واستصحب الإبريق في سفره، فكان إذا غرف به الماء من النهر، وسقى أصحابه وجدوا طعم العسل، وما في هؤلاء من يعرف الله، ولا يخاف في الله لومة لائم، نعوذ بالله من الخذلان).

مسألة: شروط الولي.

لا يكون وليا لله إلا من آمن بالرسول وبما جاء به واتبعه باطنا وظاهرا ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله؛ بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل

=

=

عمران:٣١] قال الحسن البصري رحمه الله ادعى قوم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه. قال تعالى: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ الآية [المائدة: ١٨]. وقال تعالى: وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ إلى قوله وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: ١١١، ١١٢]. وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت وكانوا يستكبرون به على غيرهم كما قال تعالى قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ [المؤمنون:٦٦، ٦٧] وقال تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ إلى قوله وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ [الأنفال:٣٠ - ٣٤] فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته إنما أولياؤه المتقون. وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول جهارا من غير سر: (إن آل فلان ليسوا لي بأولياء - يعني طائفة من أقاربه - إنما وليي الله وصالح المؤمنين) وهذا موافق لقوله تعالى فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين الآية. وصالح المؤمنين هو من كان صالحا من المؤمنين وهم المؤمنون المتقون أولياء الله. ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة وكانوا ألفا وأربعمائة وكلهم في الجنة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) ومثل هذا الحديث الآخر: (إن أوليائي المتقون أيا كانوا وحيث كانوا).

كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس وليا لله؛ بل عدو له فكذلك من

=

=

المنافقين الذين يظهرون الإسلام يقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنه مرسل إلى جميع الإنس؛ بل إلى الثقلين الإنس والجن ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك مثل ألا يقروا في الباطن بأنه رسول الله وإنما كان ملكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب كما يقوله كثير من اليهود والنصارى أو أنه مرسل إلى عامة الخلق وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه؛ بل لهم طريق إلى الله من غير جهته كما كان الخضر مع موسى أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها أو لم يكن يعرفها أو هم أعرف بها منه أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته...

والمقصود هنا أن فيمن يقر برسالته العامة في الظاهر من يعتقد في الباطن ما يناقض ذلك فيكون منافقا وهو يدعي في نفسه وأمثاله أنهم أولياء الله مع كفرهم في الباطن بما جاء به الرسول ﷺ إما عنادا وإما جهلا كما أن كثيرا من النصارى واليهود يعتقدون أنهم أولياء الله وأن محمدا رسول الله؛ ولكن يقولون إنما أرسل إلى غير أهل الكتاب وأنه لا يجب علينا اتباعه لأنه أرسل إلينا رسلا قبله فهؤلاء كلهم كفار مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله وإنما أولياء الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله فلا بد في الإيمان من أن تؤمن أن محمدا ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن؛ فضلا عن أن يكون من أولياء

=

=

الله المتقين؛ ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن كما قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا [النساء:١٥٠ - ١٥٢] ومن الإيمان به الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه. ووعده ووعيده وحلاله وحرامه؛ فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله ﷺ فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقا إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافر من أولياء الشيطان... وفي أصناف المشركين من مشركي العرب ومشركي الهند والترك واليونان وغيرهم من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة؛ ولكن ليس بمتبع للرسل ولا يؤمن بما جاءوا به ولا يصدقهم بما أخبروا به ولا يطيعهم فيما أمروا فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياء لله وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم فيكاشفون الناس ببعض الأمور ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين. قال تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [الشعراء:٢٢١ - ٢٢٣]. وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل فلا بد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم. ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة؛ ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن. قال الله تعالى: وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِين [الزخرف:٣٦] وذكر

=

=

الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسوله ﷺ مثل القرآن فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبره ويعتقد وجوب أمره فقد أعرض عنه فيقيض له الشيطان فيقترن به....

وإذا كان العبد لا يكون وليا لله إلا إذا كان مؤمنا تقيا لقوله تعالى أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس: ٦٢ - ٦٣] وفي صحيح البخاري الحديث المشهور - وقد تقدم - يقول الله تبارك وتعالى فيه: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه) ولا يكون مؤمنا تقيا حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من الأبرار أهل اليمين ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين فمعلوم أن أحدا من الكفار والمنافقين لا يكون وليا لله. وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة - وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسول - فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين؛ فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله. وكذلك المجانين والأطفال؛ فإن النبي ﷺ قال: (رفع القلم عن ثلاثة عن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يحتلم. وعن النائم حتى يستيقظ) وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول. لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء. وأما المجنون الذي رفع عنه القلم فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء. ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات؛ بل لا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة. فلا يصلح أن يكون بزازا ولا عطارا ولا حدادا ولا نجارا ولا تصح عقوده باتفاق العلماء. فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته. ولا غير ذلك من

=

=

أقواله بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ولا ثواب ولا عقاب. بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالا معتبرة في مواضع بالنص والإجماع وفي مواضع فيها نزاع. وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل وامتنع أن يكون وليا فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله؛ لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه أو نوع من تصرف مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع؛ فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين - من المشركين وأهل الكتاب - لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليا لله وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطنا وظاهرا؛ بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة. أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام. أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق أو هم على قدوة العامة دون الخاصة ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان. فضلا عن ولاية الله ﷻ. فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى.

وإن كان له في حال إفاقته فيه كفر أو نفاق أو كان كافرا أو منافقا ثم طرأ عليه الجنون فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق.

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحا ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحا كما قيل: كم من صديق في قباء وكم من زنديق في عباء؛ بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة

=

=

والفجور فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ويوجدون في التجار والصناع والزراع. وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ [المزمل: ٢٠]........

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه......

ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله لئلا يكون نبيا؛ بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقا للشرع وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف؟ توقف فيه. والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف طرفان ووسط؛ فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه وسلم إليه جميع ما يفعله ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهدا مخطئا وخيار الأمور أوساطها وهو أن لا يجعل معصوما

=

=

ولا مأثوما إذا كان مجتهدا مخطئا فلا يتبع في كل ما يقوله ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده. والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول هذا خالف الشرع.... وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ. وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله ﷻ وتجب طاعتهم فيما يأمرون به؛ بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به؛ بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله وما خالف الكتاب والسنة كان مردودا وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهدا معذورا فيما قاله له أجر على اجتهاده. لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئا وكان من الخطإ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع؛ فإن الله تعالى يقول: فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن:١٦]......... وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله ﷻ من خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم؛ بل إما أن يكون كافرا وإما أن يكون مفرطا في الجهل. وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني: إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة. وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا أو قال: لا يقتدى به. وقال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق

=

=

بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] وقال أبو عمرو بن نجيد: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل. وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع فيظن في شخص أنه ولي لله ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة فيوافق ذلك الشخص له ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه وبين أهل الجنة وأهل النار وبين السعداء والأشقياء فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين وجنده المفلحين وعباده الصالحين؛ ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولا إلى البدعة والضلال وآخرا إلى الكفر والنفاق.

مسألة: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء.

وتفضيل الأولياء على الأنبياء هذا نشأ مع عقيدة عند المتصوفة ومن شابهم - يعني غلاة المتصوفة- وهي ما أسموه بختم الولاية.

ويعنون بختم الولاية أنه كما أن للأنبياء نبيا خاتما لهم، فكذلك للأولياء ولي خاتم لهم، وكما أن خاتم الأنبياء أفضل من جميع الأنبياء، فكذلك خاتم الأولياء هو أفضل من جميع الأولياء، وعقيدة ختم الولاية ذكرها الحكيم الترمذي في كتاب سماه (ختم الولاية) وقد طبعت منتخبات منه قديما، وأسس فيها القول بأن الأولياء يختمون، وأن الولي في باطنه قد يبلغ مقاما يتلقى فيه من الله سبحانه وتعالى مباشرة، وأن الولي قد يكون أفضل من النبي، وهذه لم ينص عليها ولكنها تفهم من فحوى كلامه.

ولاشك أنه غلط في ذلك غلطا فاحشا، وإن كان هو من أهل العناية بالحديث كرواية، ومن أهل الخير والصلاح كما وصفه بذلك ابن تيمية؛ لكنه غلط في هذه

=

=

البدعة الكبرى التي ابتدعها في الأمة والشرور التي حدثت من القول بوحدة الوجود وتفضيل الولي على النبي والاستقاء من الله مباشرة إنما حدثت بعد هذا الكتاب وهذه النظرية الباطلة التي تبطل شريعة محمد ﷺ على الحقيقة، وهذا لم يختص به الحكيم الترمذي؛ بل تبعه عليه أناس منهم ابن عربي في كتابه (الفصوص) وفي كتابه (الفتوحات المكية)، ومنهم محمد بن عثمان المرغني السوداني الذي له طريقة معروفة عند أهل السودان (الطريقة الختمية)، ومنهم التيجاني، هؤلاء كانوا في القرن الثالث عشر، وصرح المرغني في كتابه (تاج التفاسير) صرح بهذه العقيدة، ومنهم التيجاني عند أهل المغرب فيما يعتقدون فيه ووصف به.

هؤلاء يعتقدون أن الولاية تختم؛ لكن ادعى ابن عربي أنه هو الذي ختم الأولياء، وادعى الميرغني أنه هو الذي ختم الأولياء وادعى أيضا التيجاني أنه هو الذي ختم الأولياء.

مسألة: بطلان عقيدة ختم الولاية.

عقيدة ختم الولاية أو ختم الأولياء مبنية على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن النبي إنما أتى بشريعة ظاهرة، وخاتم الأولياء جاء بشريعة باطنة، فخاتم الأولياء في الظاهر مع النبي وفي الباطن مستقل عن النبي، لهذا يقولون: إن الأنبياء راعوا الظاهر واهتموا بالعبادات الظاهرة، وخاتم الأولياء وصفوة الأولياء اهتموا بالأخذ عن الله.

ولهذا ابن عربي في كتابه الفصوص لما جاء إلى حديث النبي ﷺ الذي في الصحيح أن بنيان الأنبياء تم ولم يبق فيه إلا موضع لبنة، وهو قوله ﷺ (مثلي ومثل الأنبياء من بنى بنيانا فكمله وأحسنه حتى لم يبق منه إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون لم كملت هذه اللبنة- قال:- فكنت أنا اللبنة وأنا خاتم

=

=

النبيين).

قال ابن عربي -قبحه الله- في هذا الموطن: وخاتم الأولياء يرى نفسه في قصر الولاية في موضع لبنتين لبنة فضة في الظاهر ولبنة ذهب في الباطن، فهو يفضل النبي في الحاجة إليه؛ لأن البنيان احتاج إلى لبنتين وذاك احتاج إلى لبنة واحدة، ولبنته الظاهرة من الفضة في متابعة النبي ظاهرا، ولبنته الذهبية في الباطن بها يأخذ من المشكاة التي تنزل الوحي على خاتم الأنبياء، يعني يأخذوا عن الله مباشرة أو كما جاء في كلامه، وقد كرر هذا في مواضع في الفصوص وخاصة في فص واحد يعني كرر الكلام وعبر عنه.

وهذا ليس خاصا بهذا الرجل بل كذلك ادعاه غيره مثل الميرغني أو التيجاني أو من شابههم كان كل منهم يعتقد في نفسه أنه خاتم الأولياء.

الأمر الثاني: أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء؛ لأن خاتم الأنبياء يأخذ عن الله بواسطة وخاتم الأولياء يأخذ مباشرة؛ ولأن خاتم الأنبياء يأخذ الناس بما يصلح ظاهرهم وخاتم الأولياء يصلح باطنهم.

ولهذا يقول مثلا الميرغني في بعض كلامه: من رآني، ومن رأى من رآني إلى خمسة أجيال فإنهم محرمون عن النار، لما في خاتم الأولياء من النور الذي قذفه الله فيه، فينبعث هذا النور فيمن رآه ورأى من رآه إلى آخره. أو كما قال.

وهذا العقيدة بها جعلوا أن للولي ما يفضل به النبي والعياذ بالله.

الأمر الثالث: أن الولي والنبي بينهما فرق من جهة أن النبي جاءه الوحي اختيارا من الله، وأما خاتم الأولياء ففاض عليه الوحي؛ لأنه استعد لذلك بتصفية باطنه، فعنده القبول والاستعداد لأن يفاض عليه، وبهذا صار خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، هذه ثلاث مجملات في تلخيص كلامهم.

وأهل السنة يعتقدون بكرامات الأولياء، لكن بالاعتقاد الصحيح، لكن عند كثيرين

=

=

من الفئات التي تعتقد في الأولياء، مثل الباطنية والرافضة وغلاة الصوفية يعتقدون أن أفضل المقامات مقام الولي، ويليه الدرجة الثانية مقام النبي، ويليه مقام الرسول، وفيها يقول قائلهم:

مقـــــام النبـــــوة في بــــــرزخ فويـــــق الرســـــول ودون الـــــولي

(مقام النبوة في برزخ) يعني هو الوسط.

(فويق الرسول) الرسول تحت النبي مع أن الرسول هو أفضل من النبي، النبي تحته بقليل يعني بقليل. (فويق) يعني بينهما شيء يسير. (ودون الولي) يعني بينه وبين الولي مراتب. فالأعلى عندهم الولي ثم بعده النبي ثم الرسول.

وهذا القول في الترتيب قال به غلاة الصوفية وكما ذكرت لك النقل عنهم، وقال به أيضا أئمة مذهب الاثني عشرية مثل ما ذكرت لك في أول الكلام عن قول الخميني حيث قال (من ضروريات مذهبنا).

(ضروريات) معناها الشيء الذي لا يحتاج إلى استدلال، الذي يحس بأحد الحواس الخمس، ما يحتاج إلى دليل ولا برهان، الشيء الضروري ما يحتاج إلى دليل وبرهان لأنه محسوس.

قال (من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل).

يعني أن مقام الأولياء -يعني الأئمة الاثني عشر- أعلى من مقام الأنبياء. وهذا بلا شك طعن في القرآن وطعن في السنة وطعن في الصحابة، وهكذا يبلغ الأمر عند من قاله؛ لأن أفضل هذه الأمة وأحق الناس بأن يكون من الأولياء أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم العشرة المبشرون بالجنة، وهكذا، فهؤلاء هم الأولياء وهم سادة الأولياء والأصفياء وخير الصحابة رضوان الله عليهم.

وإذا كان النبي ﷺ فضل قرنه فقد فضل أبا بكر وفضل عمر.

فكيف يكون واحد من هذه الأمة يأتي ويزعم أنه أفضل من الصحابة، ثم يزعم أنه

=

=

أفضل الأولياء وخاتم الأولياء، ثم يزعم أنه أفضل من الأنبياء.

لا شك أن هذا القول من صاحبه قد يحكم بكفر صاحبه؛ بل حكم كثير من العلماء بكفر من قال هذه المقالة؛ لأنها قدح في القرآن وقدح في السنة، ورفع لمقام الولي، وتهجين مقام النبي والرسول، ورفع خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء.

ولهذا مع اختصار في المقام، ذكر الطحاوي هذه الجملة وركز عليها يعني في هذه العقيدة لأنها بدأت في زمانه وهي سبب الشر في افتراق الناس مع طرق الصوفية إلى هذا الزمان، وقال (ولا نفضل أحدا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام) ما فيه ولي يمكن أن يكون أفضل من نبي؛ بل أفضل الناس هم الأنبياء ثم يليهم الأولياء، صحابة رسول الله ﷺ وصحابة كل نبي إلى آخره.

ثم قال الطحاوي (ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء) ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام:١٢٤] ﴾.

قال بعدها (ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم)

يريد أن أهل السنة الجماعة وأهل الحديث والأثر والمتابعين للسلف الصالح يؤمنون بما جاء في الكتاب والسنة وما صحت به الرواية من كرامات الأولياء وهم يصدقون بكرامات الأولياء ولا ينفونها، وما صح عن الثقات من الروايات في بيانات كراماتهم فإنهم يصدقون بذلك ويعتقدونه ويؤمنون به؛ لأن هذا من فضل الله عليهم لأن في التصديق بهم تصديقا بما أخبر الله به في القرآن وأخبر به النبي ﷺ في السنة.

ويريد بذلك مخالفة طوائف من العقلانيين الذين أنكروا كرامات الأولياء، ويخص بالذكر منهم المعتزلة، فإنهم أنكروا كرامة الأولياء وقالوا ليس لولي كرامة لأنه لو صح أن يكون لولي كرامة لاشتبهت كرامات والأولياء بمعجزات الأنبياء، وحينئذ تشتبه الكرامة بالنبوة ويشتبه الولي بالنبي وهذا قدح في النبوة وقدح في

=

=

الشريعة.

مسألة: الكرامة تبع للولاية، والأولياء جعلهم الله هم أهل الإيمان والتقوى قال ﷻ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون) [يونس:٦٢-٦٣]، فالولي الذي يعطى الكرامة هو الموصوف بهذين الوصفين: الإيمان والتقوى.

فلو جرى الخارق على يدي من لم يوصف بالإيمان والتقوى فليس هو من الكرامة؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الولاية في أهل الإيمان والتقوى، وهم الذين يعطون الكرامة، وهاهنا سؤال: هل المبتدع أو الضال أو العاصي يعطى كرامة؟

والجواب عن ذلك: أن الأولياء -كما قرر أهل العلم- على فئتين:

* الفئة الأولى السابقون.

* والفئة الثانية المقتصدون.

فليس للظالم لنفسه المقيم على المعصية حظ في الكرامة.

لكن قد تجري الكرامة على يدي من عنده بدعة أو معصية أو ظلم لنفسه، وذلك راجع لأسباب:

السبب الأول: أن يكون ليس هو المراد بها وإنما يكون هذا المبتدع أو هذا الظالم لنفسه في جهاد مع الكافر، في جهاد مع العدو الكافر فيعطيه الله سبحانه وتعالى الكرامة لا لذاته ولكن لما يجاهد عليه، وهو الإسلام والإيمان ورد الكفر.

فيكون إعطاؤه الكرامة ليست لشخصه وإنما هي للدليل على ظهور الإيمان والإسلام على الكفر والإلحاد والشرك ونحو ذلك.

السبب الثاني: أن يكون إعطاؤه الكرامة لحاجته إليها في إيمانه أوفي دنياه، فتكون سببا له في استقامة أو في خير، فلهذا من جرى على يديه شيء في ذلك فينظر في

=

=

نفسه:

- إن كان من أهل الإيمان والتقوى فيحمد الله ﷻ ويثني عليه ويلازم الاستقامة على ما أكرمه الله به.

- وإن كان من أهل البدعة أو المعصية أو الظلم للنفس، فيعلم أن في ذلك إشارة له أن يلازم سنة النبي ﷺ والإيمان والتقوى حتى تكون البشرى له في الدنيا والأخرى، وإلا يكون قد قامت عليه حجة ونعمة من الله رآها ثم أنكرها.

مسألة: كرامة الأولياء هي أمر خارق للعادة، وتشترك مع مخاريق السحرة والكهنة في أنها أمر خارق للعادة، وكذلك معجزات الأنبياء والآيات والبراهين هي أمر خارق للعادة.

فخرق العادة في نفسه ليس مثنى عليه، فقد تخرق العادة لمبطل، وقد تخرق العادة لصالح -يعني لرجل صالح-، وقد تخرق العادة لكاهن، ساحر، وقد تخرق العادة لولي صالح.

ولهذا وجب أن يكون ثم فرقان في خرق العادة عند من حصلت له وعند الناس.

هل خرقت العادة لمؤمن تقي أو لمبطل غير متابع للسنة من السحرة والكهنة وأشباههم؟، فنعلم حينئذ الفرقان البين بين كرامة الولي وخرق العادة له وأنها خرق إيماني، خرق من الله لإكرامه وكرامته، وبين خرق العادة للساحر والكاهن والمشعوذ وأنها خارق شيطاني؛ لأن الشياطين لها قدرة في خرق عادة.

لكن ثم فرق بين خارق العادة للشياطين وخارق العادة للأولياء، وهو: أن خارق العادة للأولياء هذا:

* أولا: أنه من الله سبحانه وتعالى.

* ثانيا: وأثر من متابعة الرسول ﷺ.

* ثالثا: أنه خرق لعادة أهل الزمان، فهو في جنسه أعظم وأرفع من جنس خوارق

=

=

السحرة.

وأما خوارق السحرة فهي:

* أولا: أنها من الشيطان، مخاريق شيطانية نتجت من التقرب للشياطين والتعاون معهم حتى خدمتهم الشياطين، كما قال عز من قائل في سورة الأنعام لما ذكر حشر الجن والإنس يوم القيامة قال (ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض) [الأنعام:١٢٨]، فاستمتع الإنسي بالشيطان الجني واستمتع الشيطان الجني بالإنسي، فهذا تقرب وهذا خدم، لهذا منشؤها من جهة الشيطان.

* ثانيا: أنها متابعة للمعصية والبدعة والشرك إلى آخره التي هي مخاريق السحرة.

* ثالثا: أنها محدودة، وفي الغالب أنها تخييل وليست حقيقة، والشيطان هو الذي يتمثل وليس من أعطي الخارق أو من جرى الخارق على يديه في ظاهر أعين الناس أنه هو الذين انتقل.

مثلا وجد في الشام ووجد في مكة في نفس الوقت، وجد في مصر في القرية الفلانية ووجد في القرية الفلانية، هذا لا يمكن أن يكون إلا من الشيطان.

مثلا مثل ما قال عبد الوهاب الشعراني في ترجمة أحد من ادعى أنهم مجاذيب ومجانين وأولياء-يعني في الثناء عليه- قال في ترجمته (وكان يخطب الجمعة في سبع قرى في مصر)، وهذا خارق عند الناس، كيف القرية هذه والقرية هذه كلهم يخطب فيهم هذا؟؟، فيكون الشيطان تمثل به وخدمه حتى يغوي الناس، وبالإضافة إلى ذلك هو مجنون ومجذوب وما شابه ذلك.

فإذن الشياطين تخدم الساحر والكاهن لكن أكثر ذلك تخييل كما قال سبحانه (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) [طه:٦٦].

مسألة: كرامات الأولياء ترجع إلى نوعين:

=

=

ترجع إلى القدرة.

* وترجع إلى التأثير.

والقدرة والتأثير قد يكونان في الأمور الكونية وقد يكونان في الأمور الشرعية.

القسم الأول: كرامات ترجع إلى القدرة: القدرة قد تكون في الكونيات وقد تكون في الشرعيات:

النوع الأول من القدرة: قدرة في الكونيات:

مثال القدرة في الأمور الكونية: أن يقدره الله سبحانه وتعالى على ما لم يقدر عليه غيره من الناس؛ بأن يسمع ما لم يسمعوا، أو أن يقدر من حيث المشي أو القدرة البدنية على ما لم يقدروا، أو أنه يغلب بما لم يقدر عليه الواحد في العادة.

يعني أنه راجع إلى قدرة -يعني الكونيات- إلى قدر في السماع، في الآلات، في السمع أو في البصر أو في القوى والأركان.

هذا له مثال أو له أمثلة، فمن القدرة في السمعيات سماع سارية كلام عمر (وهو في المدينة حيث كان يخطب، فقال (يا سارية الجبل الجبل)، يعني الزم الجبل، وسارية كان في بلاد فارس وسمع الكلام، وهذا لاشك قدرة في السماع خارقة للعادة أوتيها.

وكذلك هي من جهة عمر رضي الله عنه قدرة في الإبصار حيث إنه أبصر ما لم يبصره غيره، فقال: يا سارية الجبل الجبل. فنظر إلى سارية ونظر إلى الجبل ونظر إلى العدو وكأن الجميع أمامه، ولهذا قال: الزم الجبل، هذه قدرة في الآلات، في السمع وفي البصر.

كذلك قد تكون القدرة في القوى -يعني هذه في الكونيات- قد تكون القدرة في القوى بأن يغلب ما لم يغلبه مثله، وبأن يمشي مثلا على الماء مثل ما حصل لسعد ومن معه، سعد بن أبي وقاص، ومثل أن ينوم نومة طويلة كأصحاب الكهف لا

=

=

يتغير فيها البدن ولا يتأثر.

ومثل إحياء الفرس، يعطى قوة فيمسح على الفرس أو يأمره بأن يحيى فيحيى له فرسه.

ومثل أن يدخل في النار فلا تؤثر فيه أو فلا تأكله النار.

المقصود هذه القدرة راجعة إلى قدر في الكونيات يكرم الله سبحانه وتعالى بها العبد بحيث تكون فيما يحصل له في ملكوت الله.

النوع الثاني من القدرة: قدرة في الشرعيات:

ونقصد بالشرعيات يعني المسائل الدينية، فيكون عنده قدرة بأن يستقبل من العلم والدين ما لا يستقبله غيره من جهة الحفظ -حفظ الشريعة- أو الفهم الذي يؤتيه الله سبحانه وتعالى من خصه من أوليائه أو ما شابه ذلك، فعنده قدرة في فهم الشرعيات وفي فهم مراد الله وفي الحفظ وفيما أعطي بمزيد عن عادة أمثاله.

هذا يكون بالإكرام إذا خرج عن مقتضى العادة، صار خارقا للعادة في حال بعض الناس.

القسم الثاني: كرامات ترجع إلى التأثير: التأثير قد يكون أيضا في الكونيات وقد يكون التأثير في الشرعيات.

النوع الأول من التأثير: تأثير في الكونيات: يعني تأثير يرجع إلى تأثير في الكون بأن يؤثر في المكان الذي هو فيه، أو في أبصار الناس بأن لا يروه، مثل ما حصل مثلا للحسن البصري رحمه الله حيث دخل عليه بعض الشرط لطلبه فلم يروه، دخلوا وداروا في المكان وهو جالس في وسط الدار فلم يروه، وأشباه ذلك مما فيه تأثير في قدر الآخرين.

الأول قدرة في نفسه والتأثير يكون في قدر الآخرين، التأثير في خصائص الأشياء، التأثير في خاصية الهواء، خاصية الماء ونحو ذلك، هذا قد يؤتيه الله سبحانه

=

=

وتعالى بعض أوليائه لحاجتهم إليه كما ذكرنا.

النوع الثاني من التأثير: تأثير في الشرعيات: يعني أن يؤثر في ما هو مطلوب شرعا، إذا علم فإنه يقع تعليمه موقع النفع أكثر من غيره، يعني بشيء لا يستطاع عادة، يكون فيه الأمر زائد عن العادة، له قبول والكلام يقع موقعه أكثر مما اعتداده الناس في أمثال أهل العلم، كذلك تأثير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا أمر ونهى فإنه يؤثر التأثير البالغ بحيث لا يعارض، ومثل أن يؤثر في الناس في هدايتهم إذا وعظ، إذا قال لفلان من الناس افعل كذا أطاعه، إذا وعظ رق قلبه، إذا أمر بالتوبة أطيع ونحو ذلك مما هو خارج العادة.

هذا التقسيم ذكره شارح الطحاوية في هذا الموقع، وشيخ الإسلام قسمه في الواسطية -كما تعلمون- إلى أن الخوارق التي تجري على يدي الولي وتسمى كرامة:

* تارة تكون في العلوم والمكاشفات.

* وتارة تكون في القدرة والتأثيرات.

فجعل القدرة والتأثير بابا واحدا، وجعل العلم والمكاشفة جعله بابا آخر.

وهذا التقسيم أيضا ظاهر، وهي تقاسيم باعتبارات مختلفة.

المسألة السادسة: ذكرنا لكم أن الخوارق ثلاثة أقسام:

* خارق للعادة جرى على يدي نبي ورسول، وهذا يسمى آية وبرهان ومعجزة.

* وخارق للعادة جرى على يدي ولي، وهذا يسمى كرامة.

* وخارق للعادة جرى على يدي شيطان أو عاصي أو مبتدع أو من ليس مطيعا لله ومتقيا له، فهذا يسمى حالا شيطانيا.

فالفرق بين هذه الثلاثة أشياء واضح:

أولا: أن الأمر الخارق للعادة بحسب من يضاف إليه:

=

=

* فإذا أضيف إلى النبي صار اسمه آية وبرهانا ومعجزا.

* وإذا أضيف إلى الولي فإنه يسمى كرامة.

* وإذا أضيف إلى أصحاب الكهانة والسحر والشعوذة فيسمى حالا شيطانيا.

ثانيا: أن خرق العادة الذي يجري للولي لا يكون مصحوبا بدعوى النبوة، فقد يجري للأولياء أحوال عظيمة لكنها مع عدم دعوى النبوة.

فإذا ادعى مع تلك الأحوال النبوة صار شيطانا، وصار ما يساعد به إنما هو من جهة الشياطين والسحرة وأشباه ذلك.

ثالثا: أن ما تخرق به العادة للنبي أوسع بكثير وأعظم من مما تخرق به العادة للولي، فخرق العادة للولي محدود بالنسبة لخرق العادة للنبي.

وخرق العادة للسحرة والكهنة الشياطين وأهل الشعوذة وأهل العصيان الذين يدعون الأحوال هذه ليست خرقا للعادة في الحقيقة ولكنها قدرة مما أعطى الله الشيطان أن يوهم به الناس وأن يضل الناس به، من جهة التخييل تارة، ومن جهة تصوره وتشكله في صور وأشكال تارة أخرى.

أما خرق العادة بالنسبة للأنبياء، فالأنبياء يخرق الله سبحانه وتعالى لهم العادة أي عادة الجن والإنس في زمانهم، حتى يكون ما يعطوه آية وبرهانا؛ لأن الساحر والكاهن قد يعارض النبي بما أعطي من خارق للعادة بما يمكن للشياطين أن تمد به هذا الساحر والكاهن إلى آخره. لكن جعل الله الخارق للعادة بما لا يمكن للإنسي ولا للجني لو اجتمعت أن يعطوا ذلك، كما قال سبحانه (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [الإسراء:٨٨]، فالقرآن آية، وبرهان، وهكذا آية موسى عليه السلام، الآيات التي أوليتها موسى لا تستطيعها السحرة ولا الكهنة، وكذلك ما أعطى الله سبحانه وتعالى عيسى من الآيات، وكذلك كل نبي ورسول لا يستطيعه

=

=

أهل زمانهم من الإنس والجن لو اجتمعوا، فإنهم لا يستطيعون ذلك.

ولهذا صار مثلا حمل الشيء الكبير العظيم من بلد إلى بلد لا يدخل ضمن معجزات الأنبياء كما حصل في قصة سليمان عليه السلام: (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) [النمل:٣٩]، هذا حمل لمدة أن يقوم بالمقام، (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) [النمل:٤٠]، فصار جلب هذا الشيء من مكان إلى مكان، من اليمن إلى أرض سليمان عليه السلام في فلسطين، صار جلبه ليس من آيات الأنبياء ولا من براهين الأنبياء، فصار في حق الذي أوتي علما من الكتاب: كرامة.

وما قام به الجن هذا مما يقدرون عليه، فخرق الجن للعادة بما لا يستطيع البشر قصارى ما عندهم أن يأتوا به قبل أن يقوم من هذا المقام، يعني ذلك الجني الذي قال تلك الكلمة، وهذا الذي أكرم، أكرم بأن يدعو فيؤتى بالعرش إلى سليمان عليه السلام، وهذا من جهة هو كرامة لمن أعطي، ومن جهة أخرى هو أيضا آية لسليمان عليه السلام بالنظر إلى تسخير هذا الإنس والجن له مما لا يسخر معه الإنس والجن والطير لغير نبي من الأنبياء. المقصود من ذلك:

* أن خارق النبي آية وبرهان؛ لأنه يخرق عادة الجن والإنس في ذلك الزمان.

* أما خارق الولي فهو محدود بالنسبة إلى خارق النبي في أنه تخرق له العادة التي لا يستطيعها الإنس ولا بعض الجن، لأن اجتماع الإنس والجن، هذا خاص - يعني لو أرادوا أن يحدث شيء- هذا لا يمكن لأن معجزة النبي أكبر وأعظم، وأما الولي فإنه بحسب من هو فيهم لأنها كرامة وليست آية ولا برهانا على رسالة ولا نبوة؛ بل هو خاص بما يكرم به هو.

* أما خوارق الشياطين والسحرة بما يولون به أولياء الشياطين من الإنس فهذه محدودة:

=

=
* وقد تكون تخييلا -يعني تصوير للعين-.
* وقد تكون تشكلا لكن تشكل من الجني في صورة إنسي أو في صور حيوان أو ما أشبه ذلك.
لهذا قد يظهر الجني في صورة إنسان، في صورة العبد الصالح ويكون في مكان آخر، مثل ما قال ابن تيمية رحمه الله في موضع (كان وقع بأصحابي شدة، قال: فرأوا صورتي عندهم فاستغاثوا بي، ثم أخبروني فأعلمتهم أني لم أبرح مكاني -يعني في دمشق وهم كانوا خارج دمشق-، وإنما هذا جني تصور بي).
وهذا مما أقدر الله عليه الجن، لكن لا يقلبون الحال؛ لكن يتشكلون في صورة ينظر إليها الإنسي أن هذا هو صورة فلان، من قبيل التشكل، لكن ليس ثم مادة وقلب حقيقي. لكن قد يدخلون في جسد حيوان، قد يدخلون في جسد إنسان، هذه مسألة التلبس مسألة أخرى لكن من حيث التشكيل والتصوير هذا من جهة التخييل، أو من جهة إظهار الشيء بدون حقيقة مادية؛ لأنهم هم ليس لهم مادة يعني مثل مادة الإنسان.
لهذا صار صاحب الخوارق الشيطانية، هذا ليس بكرامة وإنما هو من جهة الشيطان، ولا يعطيه الله سبحانه وتعالى على ذنبه ومعصيته واستعانته بالشياطين، فيستعين بالشياطين على ذلك.
رابعا: أن كرامة الولي لا تبلغ جنس آية النبي.
هذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة؛ -يعني أهل الحديث- في أنها لا تبلغ جنسها وإن شركتها، يعني اشتركت معها في الصورة فلا تبلغ جنسها.
يعني قد يدخل النار فلا يحترق، وإبراهيم عليه السلام دخل نارا فلم تضره أو صارت بردا وسلاما عليه؛ لكن لا يشتركان في الجنس، وإن اشتركوا في النوع.
يعني إن اشتركوا لكن هذه قدرها ليس كقدر هذه، صفة النار هذه ليست النار
=

=

كصفة هذه، وصفة ما يحصل للولي ليس كصفة ما يعطاه النبي.

وأما الأشاعرة وطائفة فإنهم قالوا تتساوى، تتساوى الكرامة بآية وبرهان النبي والمعجزة من حيث الجنس، لكن الفرق بينهما أن النبي يقول: أنا نبي، وأما الولي فيقول: أنا تابع للنبي.

والأول مثل ما ذكرت لك هو المتعين لأن الله سبحانه وتعالى فرق بين ما يعطيه النبي من خرق العادة وما يعطيه غيره فقد قال فيما يعطيه للنبي: (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) [الإسراء:٨٨]، وأما ما يعطيه الإنسي فإنه قد يكون محدودا.

مثلا أصحاب الكهف ناموا تلك النومة، ولم يتأثروا ثلاثمائة وتسع سنين، فيه من يعيش أكثر من ذلك.

وهذا أقل مما يحصل للأنبياء في جنس ما يعطون.

مسألة: أنكرت المعتزلة وجماعات كرامات الأولياء وقالوا: إن إثبات كرامات الأولياء يعود على معجزات الأنبياء بالإبطال؛ لأن الجميع خرق للعادة، وما عاد على معجزات الأنبياء بالإبطال فهو باطل. فالجواب عن ذلك أن الله سبحانه أثبت هذه الأنواع الثلاث:

أثبت الآيات والبراهين التي يعطيها للأنبياء.

وأثبت سبحانه كرامات الأولياء.

وأثبت سبحانه مخاريق السحرة وتخييلات السحرة.

فكل هذه في القرآن وفي السنة، وكلها تشترك في أنها أمور خارقة للعادة، فعدم الإيمان بها هو رد للقرآن فيما دل عليه.

وقد لا تكون الدلالة عندهم قطعية وبذلك لا تدخل المسألة في الكفر؛ لكن ظاهر أن القرآن فيه هذا وهذا.

=

=

فمثلا مريم عليها السلام أعطيت أشياء وليست بنبية لأنه ليس في النساء نبية كما هو معلوم، (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) [آل عمران:٣٧]، وكذلك قصة أصحاب الكهف، وهؤلاء جميعا ليسوا بأنبياء.

المقصود من ذلك أن جنس الكرامة هذا ثابت في القرآن وفي السنة وقصه الله، فنفي الكرامة لأنها خارق للعادة هذا رد لما أثبته الله سبحانه، والله فرق بين هذا وهذا.

وأما أنها تشتبه مع خارق الأنبياء فهذا ليس بصحيح كما ذكرنا لك من الفروق السابقة لأنه ثمة فروق ما بين كرامات الأولياء وما بين معجزات الأنبياء.

وطردوا المعتزلة هذا الباب فقالوا: كل الخوارق الشيطانية وكل الخوارق التي تجري للعقل والسحر والأشياء كل هذه مما يدخل في باب خرق العادة، لا نؤمن به ويرد، وكله جريا منهم على هذا الأصل، وهو أنه يعود على آيات الأنبياء بالإبطال.

مسألة: مما يشتبه بالكرامة: الإعانة الخاصة من الله سبحانه لبعض عباده، فقد يعين الله بعض العباد بأشياء يفرج بها عنهم الهم والكرب والضيق لكن لا تدخل في باب الكرامة؛ لأنها ليست أمورا خارقة للعادة، فثم فرق بين نعم الله تعالى المتجددة مما ينجي الله به مثلا عبده من حادث أو من مرض أو نحو ذلك ولا يكون هذا الإنجاء من الخوارق للعادة.

فلذلك يفرق ما بين جنس النعم التي يعطيها الله سبحانه خاصة العباد وما بين الكرامات، فليس كل ما ينعم الله به على العبد من الأمور العظيمة كرامة؛ بل الكرامة ضابطها أنها أمر خارق للعادة جرى على يدي ولي.

ولهذا أصحاب الطرق والذين يريدون صرف وجوه الناس إليهم قد يعظمون ذكر بعض الإنعام حتى يجعلوه كرامة، فيغرون الناس بأنهم أولياء وأنهم أكرموا بكذا

=

=

وكذا إلخ.

والله سبحانه ينعم على عباده بأنواع النعم الدينية، والشرعية والكونية، وهذه الأنواع من الإنعام هذه ليست دائما مما تخرق به العادة، لهذا نقول الكرامة مما تخرق به العادة.

المسألة التاسعة: الكرامة إذا أعطاها الله سبحانه الولي فإنه ليس معنى ذلك أنه مفضل وأعلى منزلة على من لم يعط الكرامة.

فالكرامة إكرام وإنعام من الله للعبد لأجل حاجته إليها، وقد تكون حاجته إليها دينية وقد تكون حاجته إليها كونية دنيوية، لهذا قلت الكرامات عند الصحابة، فالمدون من الكرامات بالأسانيد الثابتة عن الصحابة أقل بكثير مما يروى عن التابعين، وهكذا فيمن بعدهم؛ لأن المرء إذا قوي إيمانه وقوي يقينه فإنه قد يترك للابتلاء لا للتفريج كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي في الصحيحين: "يبتلى الرجل على قدر دينه، أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل"، "يبتلى الرجل على قدر دينه".

وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى قد يختار للولي الصالح وللعبد الصالح الذي تعظم منزلته في ولاية الله وإكرامه ومحبته له في أن يتركه للإبتلاء، وأن يتركه لغير هذه الأمور الخارقة للعادة.

فتكون إذا هذه الخوارق للعادة وهذه الكرامات لحاجته إليها ولأنه قد يصيبه ضعف في الإيمان لو لم يعط.

فبعض الناس قد يكون عنده عبادات عظيمة وقيام وصلاة وصيام ثم إذا أصابته شدة ولم يفرج عنه فإنه قد يعود على قلبه بالضعف في الإيمان، فيكرمه الله لأجل ضعفه لا لأجل كماله.

ولهذا فإن باب الكرامة ليس معناه تفضيل من جرت له، فقد يكون مفضلا وقد لا

=

=

يكون، فليست الكرامة بمجردها دليلا عند السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام؛ بل الإيمان بالكرامات -كرامات الأولياء- لأجل وجودها وأن الله سبحانه وتعالى يكرم بها عباده وأن الأدلة دلت على ذلك وليس من أجل تفضيل من حصلت له الكرامة فقد يكون أقل درجة بكثير ممن من لم تحصل له الكرامة.

إذا كان كذلك، فإنه حينئذ من دونت عنه الكرامات لا يلزم أن يكون أعلم ولا أفضل ولا أن يقتدى به ولا أن تؤخذ أقواله لأجل أنه حصلت منه الكرامة؛ بل لم يزل الصالحون إذا حصلت لهم مثل هذه الأنواع من الكرامات لم يزالوا يكتمونها ولا يشيعونها لأنها قد تكون في حقهم من الفتنة، وهم لعلمهم بالله سبحانه وتعالى وما يستحقه من الطاعة والإنابة والإقبال عليه أن لا يفتنوا الناس بذلك.

وهذا من أسباب أن المنقول عن الصحابة من الكرامات قليل جدا، وعند التابعين أكثر، ثم هكذا، كلما ضعف الناس كلما أحبوا إذا حصل لهم أي شيء أن ينشروه وأن لا يكتموه.

لهذا نقول: الواجب على الناس أن لا يعتقدوا فيمن حصل له إكرام أو كرامة.

أن لا يعتقدوا فيه؛ بل يقولون: هذا دليل على إيمانه وتقواه إذا كان متحققا بالإيمان والتقوى، وهذا دليل على محبة الله سبحانه له. وهو يسأل لنفسه الثبات ويحرص على ذلك.

وهم أيضا لا يأمنون عليه الفتنة، وإذا مات على هذه الحال أيضا من الصلاح والطاعة فإنه يرجى له الخير ولا تتعلق القلوب به، أو يستغاث به أو يؤتى لقبره ويستنجد به أو يطلب منه تفريج الكربات أو يراعى وهو في غيبته في حال الحياة ونحو ذلك كما يفعله ضلال أصحاب الطرق الصوفية ومن يعتقدون فيه ممن ينتسبون للأولياء وربما لم يكونوا منهم.

لهذا فالواجب على المؤمن أن لا يتحدث بهذه إلا إذا رأى ثم حاجة دينية لذلك،

=

=

أما إذا كانت لأجل إظهار منزلته أو لإظهار إكرام الله له ونحو ذلك، فهذا الأفضل كتمانها سيما إذا كان مع إظهارها والتحدث بها فتنة قد تصيب البعض، وإذا كان في مثل هذه الأزمنة التي يظهر فيها الجهل ويتعلق الناس بمن ظهر عليهم الصلاح لأجل الاعتقاد فيهم فإنه يجب على المؤمن أن يصد وسائل الشر وأن يسد ذرائع الشرك والغلو التي منها ذكر الكرامات وتداول ذلك.

مسألة: مما يتصل بالكرامة من المباحث مبحث الفراسة؛ لأن الفراسة الإيمانية بها يعلم صاحب الفراسة ما في نفس الآخرين.

والفراسة لفظ جاء في السنة: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"، والحديث حسنه جماعة من أهل العلم، -وضعفه غيرهم-وهو في الترمذي وفي غيره.

هذه الفراسة عرفت بأنها: شيء من العلم يلقى في روع المؤمن به يعلم حال من أمامه، إما حاله الإيماني وإما حاله في الصدق والكذب، وإما بمعرفة ما في نفسه ويجول في خاطره، ولهذا عرفت الفراسة أيضا بأنها نور يقذفه الله في قلب بعض عباده، بها يعلم مخبئات ما في صدور بعض الناس، والعلماء قسموا الفراسة إلى أقسام أشهرها ثلاثة:

الأول: الفراسة الإيمانية: وهي التي قد يدخلها بعضهم في باب الكرامة وليست منها.

الثاني: فراسة رياضية: يعني تحصل بالترويض وبالتعود وبتخفيف ما في النفس من العلائق، وهي التي يحصل فيها دربة عند بعض أصحاب الطرق.

الثالث: فراسة خلقية: وهذه ليست راجعه إلى استبطان ما في النفوس ولكن باعتبار الظاهر، ينظر إلى الخلق فيستدل بشكل الوجه على الخلق، ويستدل بشكل العينين على مزاج صاحبها، يستدل بشكل البدن أو شكل اليد أو تقاطيع الوجه على حاله من جهة الأخلاق.

=

=

فهذه اعتنى كثير من الناس، وصنفت فيها مصنفات عند جميع الأمم، من الأمم السابقة لأمة الإسلام، وفي أمة الإسلام أيضا لأنها فراسة خلقية، ويقولون: إنه ثم ترابط ما بين الخلق والخلق.

ومن الأئمة الذين اعتنوا بهذا الباب وتعلموه الشافعي رحمه الله وصنف طائفة من أصحاب الشافعي في الفراسة مصنفات الفراسة الخلقية.

المقصود من ذلك أن الفراسة -وهي النوع الأول الفراسة الإيمانية-، ليست من الكرامة لأنها أقرب ما تكون إلى الإلهام، والإلهام قد يكون خارقا للعادة وقد لا يكون.

فجنس الفراسة الإيمانية ليست من جنس الكرامات، وقد يكون من أنواع الفراسة ما يكون فيه خرق للعادة فيكون كالعلوم والمكاشفات التي يجريها الله سبحانه على يد أوليائه.

مسألة: كرامات الأولياء قد تجري للمجموع لا للأفراد، وهذا في حال الجهاد سواء أكان جهادا علميا أم كان جهادا بدنيا -يعني بالسنان-.

فقد يكرم الله سبحانه الأمة المجاهدة، جماعة المجاهدين من أهل العلم، يعني من الجهاد باللسان بقوة في التأثيرات الشرعية وبالنصر على من عاداهم بالملكة والحجة وبما يعلمون به مواقع الحجج وما في نفوسهم بما يكون أقوى من قدرهم في العادة، قد يكرمهم الله سبحانه بذلك وإن لم يكونوا من الملتزمين بالسنة.

وقد يكون كما ذكر بعض أهل البدع يعطى قوة وينتصر على عدوه من النصارى مثلا أو من اليهود أو من الملاحدة في أبواب المناظرات ويكشف له من مخبآت صدر الآخر ما لا يكون لأفراد الناس، ويكشف له من القوة والحجة في التأثير على الناس ما يدخل في باب التأثير في الكونيات والشرعيات كما ذكرت لك سابقا.

=

=

وكذلك في أبواب جهاد الأعداء بالسيف، فقد يؤتى طائفة من المسلمين من أهل البدع والذنوب والمعاصي بعض الكرامات إذا جاهدوا الأعداء.

وهذا ينظر فيه إلى المجموع لا إلى الفرد، والمجموع أراد نصرة القرآن والسنة ودين الله ضد من هو كافر بالله وضد من هو معارض لرسالة الرسل أو من يريد إذلال الإسلام وأهل الإسلام.

فيعطى هؤلاء بعض الكرامات وهي لا تدل على أنهم صالحون وعلى أن معتقد الأفراد أنه معتقد صالح صحيح؛ بل تدل على أن ما معهم من أصل الدين والاستجابة لله والرسول في الجملة أنهم أحق بنصر الله وبإكرامه في هذا الموطن لأنهم يجاهدون أعداء الله ؟ وأعداء رسوله ﷺ.

ولهذا لا يغتر بما يذكر عن بعض المجاهدين أنهم حصلت لهم كرامات وكرامات وكرامات. وهذه الناس فيها لهم أنحاء:

منهم من يكذب ويقول هؤلاء عندهم وعندهم من البدع والخرافات وإلخ، وبالتالي الكرامة لا تكون لهم، فينفي وجود هذه الكرامات.

ومنهم من يصدق بها ويجعل هذا التصديق دليلا على أنهم صالحون وأنه لا أثر للبدعة وأن الناس يتشددون في مسائل السنة والبدعة.

وأما أهل العلم المتبعون للسلف كما قرر ذلك ابن تيمية بالتفصيل في كتابه النبوات فإنهم يعلمون أن المجاهد قد يعطى كرامة ولو كان مبتدعا، لا لذاته ولكن لما جاهد له، فهو جاهد لرفع راية الله سبحانه وتعالى ضد ملاحدة، ضد كفرة، ضد نصارى، ضد يهود، ضد وثنيين، وهذا يستحق الإكرام لأنه بذل نفسه في سبيل الله.

والبدع ذنوب، والجهاد طاعة، ومن أعظم الأعمال قربة، ومعلوم أن الحسنات تذهب ما يقابلها من السيئات، فقد تكون في حق البعض حسنة الجهاد أعظم من

=

=

سيئة بعض البدع والذنوب؛ بل الجهاد سبب في تكفير الذنوب والآثام كما قال سبحانه: (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم) [الصف:١٠-١٢] الآية.

ومعلوم أن من أعظم أسباب مغفرة الذنوب الجهاد، ومن أعظم أسباب تحقيق ولاية الله ومحبته أن يجاهد العبد، لكن هذا يكون في موازنة الحسنات والسيئات والله أعلم بنتيجة هذه الموازنة.

المقصود من ذلك أن أهل السنة والجماعة يقررون أن الكرامة هي للولي الصالح كما قال تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون) [يونس:٦٢-٦٣]، وقد يعطي الله الكرامة لجمع من المسلمين، أو لفرد في جمع من المسلمين لأجل ما ذكرت لك من الحال إذا كان على غير التقوى والإيمان ومتابعة السنة أو الأخذ ببعض البدع، ولهذا لا يغتر مغتر بما يحدث من ذلك ويزن الأمور بموازينها:

- فمن نفى مطلقا فهو متجني لأنه لا علم له بذلك.

- ومن قبل مطلقا وجعلها دليلا على الصلاح والطاعة وأنه لا أثر للعقائد ولا أثر للسنة في مثل هذه المسائل هذا أيضا تجنى على الشرع وتجنى نفسه، والعلم يقضي بما ذكرته لك في ذلك.

مسألة: الواجب على المؤمنين أن يسعوا في الإيمان وفي شعبه -امتثالا للأوامر واجتنابا للنواهي- طلبا لمرضاة الله سبحانه وأن يبذلوا أنفسهم في الجهاد بأنواعه: الجهاد في العلم والجهاد في العمل والدعوة، أو الجهاد بالسيف والسنان إذا جاء وقته، أو إذا حضره المؤمن، أن يسعوا فيه طلبا لرضا ربهم، وأن لا يلتفت العبد مهما بذل إلى حصول الكرامة أو عدم حصول الكرامة.

=

=

فمن الناس من تعلقت قلوبهم بالكرامات؛ بل بما هو دونها من الرؤى وربما الأحلام ومن القصص والحكايات والأخبار وأثر ذلك على إيمانه سلبا أو إيجابا، ضعفا أم زيادة.

وهذه الأمور نؤمن بها -يعني مسائل الكرامات-، نؤمن بها لأنها جاءت في النصوص؛ لكن العبد لا يتطلبها، لا يبحث عنها، كما ذكرت لك ربما كان الأكمل في حقه أن لا تحصل له الكرامة، وربما كان الأكمل في حقه أن يبتلى، وربما كان الأكمل في حقه أن يذل ولا يعرف ما يقضي الله سبحانه به في هذه المسائل.

ومن نظر لسيرة من نعتقد فيهم أنهم من أفضل أهل زمانهم إيمانا وتقوى ومتابعة للسنة وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ومجاهدة لأعداء الله، حصل لهم من الابتلاء والفتنة ما حصل، كما حصل لإمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل، وكذلك ما حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، فالجميع حصل لهم من البلاء والسجن والفتنة، يعني والصد والإيذاء ما حصل لهم، ومع ذلك هم أكمل ممن هم دونهم ممن حصل لبعضهم من الكرامات فيما نقل بأسانيد ثابتة.

بل ابن القيم رحمه الله طيف به في دمشق وهو العالم الإمام على حمار ظهره إلى السماء ووجهه إلى الأرض تنكيلا به، ومع ذلك ما ضره لا في وقته ولا فيما بعده فالتراجم طافحة بالثناء عليه، لأن هذه مسائل من الابتلاء التي يبتلي بها الله بعض عباده كيف شاء. فالمقصود من هذا أن الميزان هو متابعة السنة.

وتحقيق الإيمان والتقوى، متابعة طريقة السلف الصالح قد يحصل معه إكرام وقد لا يحصل معه، يحصل معه ضد ذلك من الابتلاء والإيذاء، وقد يكون المبتلى أكمل ممن لم يبتل.

فالعبرة بلزوم منهج السلف الصالح وطريقة السلف الصالح، فقد يبتلى من هو من أهل البدع، وقد يبتلى من هو من أهل السنة، وقد يبتلى العاصي المذنب، وقد

=

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥).

{وَلَا يَحْزُنك قَوْلهمْ} لَك لَسْت مُرْسَلًا وَغَيْره {إنَّ} اسْتِئْنَاف {الْعِزَّة} الْقُوَّة {لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيع} لِلْقَوْلِ {الْعَلِيم} بِالْفِعْلِ فَيُجَازِيهِمْ وَيَنْصُرك[1].

=

يبتلى التقي الناصح، وهكذا.

فإذا الميزان هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وملازمة طريقة السلف الصالح في ذلك.

(١) قوله تعالى: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} [يونس: ٦٥]، أي:" ولا يحزنك -أيها الرسول- قول المشركين في ربهم وافتراؤهم عليه وإشراكهم معه الأوثان والأصنام".

كقولهم: لست برسول، مجنون، كذاب ونحوها. والحزن ضد السرور.

قال الزجاج:" أي: لا يحزنك إيعادهم وتكذيبهم وتظاهرهم عليك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يحزنكَ، يا محمد، قول هؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام".

قال الزمخشري:" {قولهم}: تكذيبهم لك، وتهديدهم، وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك، وسائر ما يتكلمون به في شأنك".

وقرئ: «ولا يحزنك»، من «أحزنه».

قوله تعالى: {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [يونس: ٦٥]، أي:" فإن الله تعالى هو المتفرد بالقوة الكاملة والقدرة التامة في الدنيا والآخرة".

قال الزجاج: أي:" إن الغلبة لله، فهو ناصرك وناصر دينه".

قال البغوي:" يعني: الغلبة والقدرة لله {جميعا} هو ناصرك، وناصر دينك، والمنتقم منهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فإن الله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا

=

=

شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحدٌ، لأنه لا يُعَازُّه شيء".

وقال سعيد بن المسيب: "إن العزة لله جميعا يعني: أن الله يعز من يشاء، كما قال في آية أخرى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: ٨]، وعزة الرسول والمؤمنين بالله فهي كلها لله".

قال الزمخشري:" إن العزة لله استئناف بمعنى التعليل، كأنه قيل: مالى لا أحزن؟ فقيل، إن العزة لله جميعا، أى إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعا، لا يملك أحد شيئا منها لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرك عليهم {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١]، {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا} [غافر: ٥١]".

وقرأ أبو حيوة: «أن العزة»، بالفتح بمعنى: لأن العزة على صريح التعليل. ومن جعله بدلا من {قولهم} ثم أنكره، فالمنكر هو تخريجه، لا ما أنكر من القراءة به.

قوله تعالى: {هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يونس: ٦٥]، أي:" وهو السميع لأقوالهم، العليم بنياتهم وأفعالهم".

قال الطبري:" يقول: وهو ذو السمع لما يقولون من الفرية والكذب عليه، وذو علم بما يضمرونه في أنفسهم ويعلنونه، مُحْصًى ذلك عليهم كله، وهو لهم بالمرصاد".

قال الزمخشري: أي:" يسمع ما يقولون. ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه. وهو مكافئهم بذلك".

- **قال السعدي:** قوله تعالى (هو السميع العليم) أي: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات، فلا يخفى عليه شيء منها.

وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

=

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦).

{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَات وَمَنْ فِي الْأَرْض} عَبِيدًا وَمُلْكًا وَخَلْقًا {وَمَا يَتَّبِع الَّذِينَ يَدْعُونَ} يَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره أَصْنَامًا {شُرَكَاء} لَهُ عَلَى الْحَقِيقَة تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ {إِنْ} مَا {يَتَّبِعُونَ} فِي ذَلِكَ {إِلَّا الظَّنّ} أَيْ ظَنَّهُمْ أَنَّهَا آلِهَة تَشْفَع لَهُمْ {وَإِنْ} مَا {هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} يَكْذِبُونَ فِي ذلك[1].

=

وهو تعالى يسمع قولك، وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلا فاكتف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله، فهو حسبه.

(١) قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} [يونس: ٦٦]، أي:" ألا إن لله كل مَن في السموات ومن في الأرض من الملائكة، والإنس، والجن وغير ذلك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ألا إن لله يا محمد كلَّ من في السموات ومن في الأرض، ملكًا وعبيدًا، لا مالك لشيء من ذلك سواه. يقول: فكيف يكون إلهًا معبودًا من يعبُده هؤلاء المشركون من الأوثان والأصنام، وهي لله ملك، وإنما العبادة للمالك دون المملوك، وللرب دون المربوب؟".

قال الزمخشري:" {من في السماوات ومن في الأرض}، يعنى: العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان، وإنما خصهم، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم، وهو سبحانه وتعالى، ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكا له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكا، وليدل على أن من اتخذ غيره ربا من ملك أو إنسى فضلا عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر".

=

=

عن ابن عباس:" قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قوله تعالى: {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ} [يونس: ٦٦]، أي:" وأي شيء يتَّبع مَن يدعو غير الله من الشركاء؟".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: وأيُّ شيء يتبع من يدعو من دون الله = يعني: غير الله وسواه = شركاء. ومعنى الكلام: أيُّ شيءٍ يتبع من يقول لله شركاء في سلطانه وملكه كاذبًا، والله المنفرد بملك كل شيء في سماء كان أو أرض؟".

قال الزمخشري:" أى: وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء، لأن شركة الله في الربوبية محال... ويجوز أن يكون {وما يتبع} في معنى الاستفهام، يعنى: وأى شيء يتبعون".

قال البغوي:" هو استفهام معناه: وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ وقيل: وما يتبعون حقيقة، لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا، وليس على ما يظنون".

وقرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه: «تدعون»، بالتاء، ووجهه أن يحمل {وما يتبع} على الاستفهام، أى: وأى شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين، يعنى: أنهم يتبعون الله ويطيعونه، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} [الإسراء: ٥٧، ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن، ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبيون من الحق.

قوله تعالى: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ} [يونس: ٦٦]، أي:" ما يتَّبعون إلا الشك".

قال الطبري:" يقول: ما يتبعون في قيلهم ذلك ودعواهم إلا الظن، يقول: إلا الشك

=

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧).

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْل لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَار مُبْصِرًا} إسْنَاد الْإِبْصَار إلَيْهِ مَجَاز لِأَنَّهُ يُبْصِر فِيهِ {إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات} دَلَالَات عَلَى وَحْدَانِيّته تَعَالَى {لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} سَمَاع تَدَبُّر واتعاظ(١).

=

لا اليقين".

قال البغوي:" يظنون أنها تقربهم إلى الله تعالى".

قال الزمخشري:" إن يتبعون إلا ظنهم أنها شركاء".

قوله تعالى: {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس: ٦٦]، أي:" وإن هم إلا يكذبون فيما ينسبونه إلى الله".

قال الطبري:" يقول: وإن هم إلا يتقوّلون الباطل تظنِّيًا وتَخَرُّصا للإفك، عن غير علمٍ منهم بما يقولون".

قال البغوي:" يكذبون".

قال الزمخشري:" يحزرون ويقدرون أن تكون شركاء تقديرا باطل".

(١) قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ} [يونس: ٦٧]، أي:" هو الذي جعل لكم -أيها الناس- الليل لتسكنوا فيه وتهدؤوا من عناء الحركة في طلب المعاش".

قال مقاتل:" يعني: لتأووا فيه من نصب النهار".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إنّ ربكم أيها الناس الذي استوجب عليكم العبادة، هو الرب الذي جعل لكم الليل وفصله من النهار، لتسكنوا فيه مما كنتم فيه في نهاركم من التَّعب والنَّصب، وتهدءوا فيه من التصرف والحركة للمعاش

=

=

والعناء الذي كنتم فيه بالنهار".

قال الزمخشري:" ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة، بأنه جعل لهم الليل مظلما ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردد في المعاش".

عن قتادة في قول الله: {الليل سكنا}: يسكن فيه كل طائر ودابة".

قوله تعالى: {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} [يونس: ٦٧]، أي:" وجعل لكم النهار؛ لتبصروا فيه، ولتسعَوْا لطلب رزقكم".

قال الطبري:" يقول: وجَعَل النهار مبصرًا".

قال قتادة:" أي: منيرا".

قال مقاتل:" ضياء ونورا لتتغلبوا فيه لمعايشكم".

قال الزمخشري:" والنهار مضيئا يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم".

قال مجاهد: "الشمس آية النهار".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [يونس: ٦٧]، أي:" إن في اختلاف الليل والنهار وحال أهلهما فيهما لَدلالةً وحججًا على أن الله وحده هو المستحق للعبادة، لقوم يسمعون هذه الحجج، ويتفكرون فيها".

قال مقاتل:" يعني: في هذا {لآيات}، يعني: لعلامات {لقوم يسمعون} المواعظ".

قال الزمخشري:" لقوم يسمعون سماع معتبر مدكر".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن في اختلاف حال الليل والنهار وحال أهلهما فيهما، دلالةً وحججًا على أن الذي له العبادة خالصا بغير شريك، هو الذي خلق الليل والنهار، وخالف بينهما، بأن جعل هذا للخلق سكنًا، وهذا لهم معاشًا، دون من لا يخلق ولا يفعل شيئًا، ولا يضر ولا ينفع، وقال: {لقوم يسمعون}، لأن

=

=

المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها، فيعتبرون بها ويتعظون. ولم يرد به: الذين يسمعون بآذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {إن في ذلك لآية}، قال:" هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

- **قال السعدي**: قوله تعالى (لقوم يسمعون) عن الله، سمع فهم، وقبول، واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك لآيات، لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

- قال الشنقيطي: فالإتيان بالليل بدل النهار والإتيان بالنهار بدل الليل من أعظم آيات الله - جل وعلا - الدالة على أنه المعبود وحده، وأنه الرب وحده، ومع كون الليل والنهار آيتين فهما أيضا نعمتان عظيمتان من أعظم نعم الله على خلقه، فهما جامعان بين كونهما آيتين وكونهما نعمتين، وبين أنهما آيتان بقوله (ومن آياته الليل والنهار) وبين أنهما نعمتان وآيتان في مواضع كثيرة من أصرحها سورة القصص حيث قال فيها: (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون (٧١) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) ثم بين أنهما نعمتان بعد بيان أنهما آيتان قال: (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) يعني النهار، فجعل الليل مظلما مناسبا للسكون والهدوء وعدم الحركة ليستريح الناس من كد الأعمال والتعب في النهار، ثم يجعل النهار مضيئا منيرا مناسبا لبث الناس في حوائجهم واكتساب معايشهم في نور ساطع من غير

=

قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨).

{قَالُوا} أَيْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَة بَنَات الله {اتَّخَذَ الله وَلَدًا} قَالَ تَعَالَى لَهُمْ {سُبْحَانه} تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ الْوَلَد {هُوَ الْغَنِيّ} عَنْ كُلّ أَحَد وَإِنَّمَا يَطْلُب الْوَلَد مَنْ يَحْتَاج إِلَيْهِ {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا {إِنْ} مَا {عِنْدكُمْ مِنْ سُلْطَان} حُجَّة {بِهَذَا} الَّذِي تَقُولُونَهُ {أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُونَ} اسْتِفْهَام تَوْبِيخ(١).

=

فتيلة ولا زيت ولا حاجة إلى مؤنة.

(١) قوله تعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا} [يونس: ٦٨]، أي:" قال المشركون: اتخذ الله ولدًا، كقولهم: الملائكة بنات الله، أو المسيح ابن الله".

وهذا إخبار عن النصارى عليهم لعائن الله، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء المشركون بالله من قومك، يا محمد: {اتخذ الله ولدا}، وذلك قولهم: "الملائكة بنات الله"".

- قال الشنقيطي: هذا الولد المزعوم على زاعمه لعائن الله، قد جاء مفصلا في آيات أخر.

كقوله تعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون) وقوله (ويجعلون لله البنات).

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ} [يونس: ٦٨]، أي:" تقدَّس الله عن ذلك كله وتنزَّه، هو الغني عن كل ما سواه".

=

=

قال الطبري:" يقول الله منزها نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك: "سبحان الله"، تنزيها لله عما قالوا وادعوا على ربهم، الله غني عن خلقه جميعا، فلا حاجة به إلى ولد، لأن الولد إنما يطلبه من يطلبه، ليكون عونا له في حياته وذكرا له بعد وفاته، والله عن كل ذلك غني، فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره، ولا يبيد فيكون به حاجة إلى خلف بعده".

قال قتادة: "إذ قالوا عليه البهتان عظم نفسه".

عن ابن عباس في قوله: " {سبحانه}، يقول: سبحان: عجب".

قوله تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [يونس: ٦٨]، أي:" له كل ما في السموات والأرض فكيف يكون له ولد ممن خلق وكل شيء مملوك له؟".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لله ما في السموات وما في الأرض ملكا، والملائكة عباده وملكه، فكيف يكون عبد الرجل وملكه له ولدا؟ يقول: أفلا تعقلون أيها القوم خطأ ما تقولون؟".

عن غالب بن عجرة، ثنا رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: "بلغني أن الله خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا فيها منفعة وقال كان لهم فيها منفعة، ولم تزل

الأرض والشجر كذلك حتى تكلم فجرة من بني آدم بتلك الكلمة العظيمة بقولهم: اتخذ الله ولدا فلما تكلموا فيها اقشعرت الأرض وشاك الشجر".

قوله تعالى: {إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا} [يونس: ٦٨]، أي:" وليس لديكم دليل على ما تفترونه من الكذب".

قال أبو عبيدة: أي" ما عندكم سلطان بهذا، و «من» من حروف الزوائد، و (سلطان) -هاهنا-: حجّة وحق وبرهان".

قال الطبري:" يقول: ما عندكم أيها القوم بما تقولون وتدعون من أن الملائكة

=

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) .

=

بنات الله، من حجة تحتجون بها -وهي السلطان- أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وصحته، وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه، جهلا منكم بما تقولون، بغير حجة ولا برهان؟".

عن ابن عباس قال: "كل سلطان في القرآن حجة". وروي عن عكرمة ومحمد بن كعب وسعيد بن جبير والسدي والضحاك، والنضر بن عدي نحو ذلك.

قوله تعالى: {أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يونس: ٦٨]، أي:" أتقولون على الله ما لا تعلمون حقيقته وصحته؟".

قال الطبري:" أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وصحته، وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه، جهلا منكم بما تقولون، بغير حجة ولا برهان؟".

قال قتادة:" القول الكذب والباطل وقالوا عليه ما لا يعلمون".

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالا واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له ، وبأنه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) وقال أيضا في آخر هذه السورة (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا).

{قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ} بِنَسَبِهِ الْوَلَدَ إِلَيْهِ {لَا يُفْلِحُونَ} لَا يَسْعَدُونَ.

مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠).

لَهُمْ {مَتَاع} قَلِيل {فِي الدُّنْيَا} يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مُدَّة حَيَاتهمْ {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعهمْ} بِالْمَوْتِ {ثُمَّ نذيقهم العذاب الشديد} بعد الموت {بما كانوا يكفرون}(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [يونس: ٦٩]، أي:" قل: إن كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل} يا محمد، لهم {إن الذين يفترون على الله الكذب}، فيقولون عليه الباطل، ويدّعون له ولدًا {لا يفلحون}، يقول: لا يَبْقَون في الدنيا".

قال الشوكاني:" أي: كل مفتر هذا شأنه، ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا. وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد، كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز. والمعنى: أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب".

قال الزمخشري:" يفترون على الله الكذب بإضافة الولد إليه".

قال السمعاني: {لَا يُفْلِحُونَ} "أي: لا ينجون".

قال الثعلبي: {لَا يُفْلِحُونَ} :" قال الكلبي: لا يؤمنون، وقيل: لا ينجون، وقيل: لا يفوزون، وقيل: لا يبقون في الدنيا".

قال الزجاج:" {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُون}، هذا وقف التمام، وقوله: {مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٧٠]، مرفوع على معنى ذلك متاع في الدنيا".

قوله تعالى: {مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا} [يونس: ٧٠]، أي:" متاعٌ قليل في الدنيا يتمتعون به =

=

مدة حياتهم".

قال القاسمي:" أي: لهم تمتع يسير في الدنيا".

قال الشوكاني:" ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل في الدنيا.. فيكون {متاع}: خبر مبتدأ محذوف، الجملة: مستأنفة، لبيان أن ما يحصل للمفتري بافترائه ليس بفائدة يعتد بها، بل هو متاع يسير في الدنيا يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها: الكذب على الله".

عن هشام بن حسان، قال: "سمعت الحسن يقول: متاع الدنيا قليل، قال: رحم الله عبدا صاحبها على ذلك".

عن الأعمش:" {فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل}، قال: كزاد الراعي".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} [يونس: ٧٠]، أي:" ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب".

قال مقاتل:" في الآخرة".

قال ابن كثير:" أي: يوم القيامة".

قال الشوكاني:" ثم يتعقبه-أي المتاع- الموت والرجوع إلى الله".

قال أبو العالية:" يعني قوله: {إليه مرجعكم}، قال: يرجعون إليه بعد الحياة".

قوله تعالى: {ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٧٠]، أي:" ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله".

قال مقاتل:" بقولهم: إن الملائكة ولد الله".

قال ابن كثير:" أي: الموجع المؤلم، بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور".

قال القاسمي:" والآية لبيان أن ما يتراءى من فوزهم بالحظوظ الدنيوية، بمعزل

=

=

من أن يكون من جنس الفلاح. كأنه قيل: كيف لا يفلحون وهم في غبطة ونعيم؟ فقيل: هو متاع يسير في الدنيا. وليس بفوز بالمطلوب".

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال ابن رجب: وقال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى.

فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشبيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، فتفارق الأجسام النفوس وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم: هل ترون إلا خرقا تبلى أو لحما يأكله الدود غدا كان الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك.

قال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه...) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام

=

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١).

{وَاتْلُ} يَا مُحَمَّد {عَلَيْهِمْ} أَيْ كُفَّار مَكَّة {نَبَأ} خَبَر {نُوح} وَيُبْدَل مِنْهُ {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْم إِنْ كَانَ كَبُرَ} شَقَّ {عَلَيْكُمْ مَقَامِي} لُبْثِي فِيكُمْ {وَتَذْكِيرِي} وَعْظِي إِيَّاكُمْ {بِآيَاتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْت فَأَجْمِعُوا أَمْركُمْ} اعْزِمُوا عَلَى أَمْر تَفْعَلُونَهُ بِي {وَشُرَكَاءَكُمْ} الْوَاو بِمَعْنَى مَعَ {ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْركُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّة} مَسْتُورًا بَلْ أَظْهِرُوهُ وَجَاهِرُونِي بِهِ {ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ} امْضُوا فِيمَا أَرَدْتُمُوهُ {وَلَا تُنْظِرُونِ} تُمْهِلُونِ فَإِنِّي لَسْت مُبَالِيًا بِكُمْ.

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢).

{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ} عَنْ تَذْكِيرِي {فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْر} ثَوَاب عَلَيْهِ فتَوَلَّوْا {إِنْ} مَا {أَجْرِيَ} ثوابي {إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين}.

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣).

{فكذبوه فنجيناه وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْك} السَّفِينَة {وَجَعَلْنَاهُمْ} أَيْ مَنْ مَعَهُ {خَلَائِف} فِي الْأَرْض {وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} بِالطُّوفَانِ {فَانْظُرْ كَيْفَ

=

الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.
وقال ﷺ لابن عمر (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري وفي رواية (وعد نفسك من أهل القبور).

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ مِنْ إِهْلَاكهِمْ فَكَذَلِكَ نَفْعَل بِمَنْ كَذَّبَ[١].

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١].

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: (واتل عليهم) أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك. وذلك لفوائد:

الأولى: تسلية للرسول ﷺ.

والثانية: حمله على الصبر.

والثالثة: أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص، وعلموا أن العاقبة للمتقين كان ذلك سببا في انكسار قلوبهم، ووقوع الخوف والوجل في نفوسهم. وحينئذ يقلعون عن أنواع الإيذاء والسفاهة.

وذكر الرازي أيضا:

منها: ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء، فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمت خفت.

ومنها: أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص، وعلموا أن الجهال، وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم، كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم، ووقوع الخوف والوجل في صدورهم، وحينئذ يقللون من أنواع الإيذاء والسفاهة.

ومنها: أنا قد دللنا على أن محمدا عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علما، ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه الأقاصيص من غير تفاوت، ومن غير زيادة ومن غير نقصان، دل ذلك على أنه ﷺ إنما عرفها بالوحي والتنزيل.

- وقال ابن عاشور:... ففي ذكر عاقبة قوم نوح - عليه السلام - تعريض للمشركين بأن عاقبتهم كعاقبة أولئك أو أنهم إنما يمتعون قليلا ثم يؤخذون أخذة =

=

رابية، كما متع قوم نوح زمنا طويلا ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا، فذكر قصة نوح مع قومه عظة للمشركين وملقيا بالوجل والذعر في قلوبهم، وفي ذلك تأنيس للرسول ﷺ وللمسلمين بأنهم إسوة بالأنبياء، والصالحين من أقوامهم، وكذلك قصة موسى – عليه السلام – عقبها كما ينبئ عن ذلك قوله في نهاية هذه القصص.

(نبأ نوح) أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك.

وقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلم يؤمنوا.

ونوح – عليه السلام –: واحد من أولى العزم من الرسل، وقد ذكر في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعا.

وكان قومه يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد.

وقد تكررت قصته مع قومه في سورة الأعراف، وهود، والمؤمنون، ونوح... بصورة أكثر تفصيلا.

أما هنا في سورة يونس فقد جاءت بصورة مجملة، لأن الغرض منها هنا، إبراز جانب التحدي من نوح لقومه، بعد أن مكث فيهم زمانا طويلا، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة غيره.

– والمقصود من هذه التلاوة، دعوة مشركي مكة وأمثالهم، إلى التدبر فيما جرى للظالمين من قبلهم، لعلهم بسبب هذا التدبر والتأمل يثوبون إلى رشدهم ويتبعون الدين الحق الذي جاءهم به نبيهم محمد ﷺ.

– **قال السعدي**: فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلا طغيانا، فتمللوا منه وسئموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم.

=

=

قال الثعلبي: أي:" واتل عليهم اقرأ يا محمد على أهل مكة نبأ خبر نوح".
قال ابن كثير:" يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ} أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك {نَبَأَ نُوحٍ} أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودَمّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك".
عن أنس أن النبي ﷺ قال: "أول نبي أرسل: نوح عليه السلام".
عن قتادة:"أن نوحا بعث من الجزيرة".
قال محمد بن إسحاق:" كان من حديث نوح وحديث قومه فيما قص الله على لسان نبيه ﷺ وما يذكر أهل العلم من التوراة وما حفظ الناس الأحاديث عن عبد الله بن عباس، عن عبيد بن عمير أن الله بعث نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله، وقد فشت في الأرض المعاصي، وكثرت فيها الجبابرة، وعتوا على الله عتوا كبيرا، وكان نوح فيما يذكر أهل العلم حليما صبورا ولم يلق نبي من قومه من البلاء أكثر مما لقي إلا نبي قتل".
قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ} [يونس: ٧١]، أي:" حين قال لهم: إن كان عَظُمَ عليكم طولُ مقامي ولبثي فيكم وتذكيري إياكم بحجج الله وبراهينه".
قال ابن كثير:" أي: عَظُم عليكم، {مَقَامِي} أي فيكم بين أظهركم، {وَتَذْكِيرِي} إياكم {بِآيَاتِ اللهِ} أي: بحججه وبراهينه".
قال الثعلبي: أي:" {إن كان} عظم وثقل وشق عليكم مقامي، فلو شق مكثي بين أظهركم وتذكيري ووعظي إياكم بآيات الله بحججه وبيناته فعزمتم على قتلي أو طردي".
قال الخازن:... وذلك أنه أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله

=

=

تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيري بآيات الله يعني ووعظي بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلي وطردي.

قوله تعالى: {فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ} [يونس: ٧١]، أي:" اعتمدت على الله، في دفع كل شر يراد بي، وبما أدعو إليه، فهذا جندي، وعدتي، وأنتم، فأتوا بما قدرتم عليه من أنواع العدد والعدد".

قال الثعلبي: أي:" فبالله وثقت".

قال ابن كثير:" أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا!".

قال محمد بن إسحاق: "وعلى الله لا على الناس فليتوكل المتوكلون".

قوله تعالى: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} [يونس: ٧١]، أي:" فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم، ودبّروا ما تريدون لمكيدتي".

قال الثعلبي: أي:" فأعدوا وأبرموا وأحكموا أمركم فاعزموا عليه".

قال ابن كثير:" أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صَنَم ووثن".

عن الحسن، قوله: {فأجمعوا أمركم وشركاءكم}، أي: فليجمعوا أمرهم معكم".

- قال ابن عاشور: وإجماع الأمر العزم على الفعل بعد التردد بين فعله وفعل ضده.

- قال الفراء: الإجماع الإعداد والعزيمة على الأمر، قال ابن الأنباري: المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم وكرهم فالتقدير: لا تدعوا من أمركم شيئا إلا أحضرتموه.

- قال الخازن: قوله تعالى (وشركاءكم) يعني وادعوا شركاءكم يعني آلهتكم، فاستعينوا بها لتجمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وإنما حثهم على الاستعانة بالأصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم.

=

=

- قال ابن عاشور:... وزاد ذكر شركائهم للدلالة على أنه لا يخشاها لأنها في اعتقادهم أشد بطشا من القوم، وذلك تهكم بهم، كما في قوله تعالى (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون).

وفي قوله تعالى: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} [يونس: ٧١]، وجوه:

أحدها: أحكموا أمركم وادعوا شركاءكم. رواه اسيد عن الأعرج.

الثاني: فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم لنصرتكم، قاله الفراء.

الثالث: فاجمعوا أمركم مع شركائكم على تناصركم، قاله الزجاج.

وفي هذا الإجماع ثلاثة وجوه:

أحدهما: أنه الإعداد.

الثاني: أنه العزم.

والثالث: أنه الإحكام. وهذا قول الأعرج.

قال الفراء:" و «الإجماع»: الإعداد والعزيمة على الأمر".

قال المؤرج: "أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه، وأنشد:

يا ليت شعري والمنى لا تنفع هل أغدون يوما وأمري مجمع"

وقد قرأها الحسن «وشركاؤكم» بالرفع، قال الفراء:"وإنما «الشركاء» هاهنا آلهتهم كأنه أراد: أجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم. ولست أشتهيه لخلافه للكتاب، ولأن المعنى فيه ضعيف لأن الآلهة لا تعمل ولا تجمع".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} [يونس: ٧١]، أي:" يكن أمركم في شأني مستورًا بل مكشوفًا مشهورًا".

قال ابن كثير:" أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي".

قال الطبري:" يقول: ثم لا يكن أمركم عليكم ملتبسًا مشكلا مبهمًا".

قال الزجاج:" أي: ليكن أمركم ظاهرا منكشفا، كما قال رؤبة:

=

=

بَـلْ لَـوْ شَـهِدْتِ النَّـاسَ إِذْ تُكُمُّـوا   بِغُمّـــةٍ لَـــوْ لَـــمْ تُفَـــرَّجْ غُمُّـــوا

غموا بالمكروه، بغمة، أي ما يسترهم، واشتقاق ذلك من الغمامة التي تستر، ويجوز ثم لا يكن أمركم عليكم غمة أي غما".

وروي عن قتادة: " {أمركم عليكم غمة}، قال: لا يكبر عليكم أمركم".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} [يونس: ٧١]، قولان:

أحدهما: أن الغمة ضيق الأمر الذي يوجب الغم، لأن الصدر يضيق به، ولا يتبين صاحبه لأمره مَصدرًا يَصْدُرُه يتفرَّج عليه ما بقلبه، ومنه قول خنساء:

وَذِي كُرْبَـةٍ رَاخَـى ابْـنُ عَمْـرٍو خِنَاقَـه   وَغُمَّتَـــهُ عَـــنْ وَجْهِـــهِ فَتَجَلَّـــتِ

الثاني: أنه المغطى، من قولهم: قد غم الهلال إذا استتر.

وفي المراد بالأمر ها هنا وجهان:

أحدهما: من يدعونه من دون الله تعالى.

الثاني: ما هم عليه من عزم.

قوله تعالى: {ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ} [يونس: ٧١]، أي:" ثم أَنْفذوا ما تريدونه في أمري".

قال ابن كثير:" فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلي".

قال الطبري:" معناه: ثم امضوا إليّ ما في أنفسكم وافرغوا منه".

قال الزمخشري:" {ثم اقضوا إلي} ذلك الأمر الذي تريدون بى، أى: أدوا إلى قطعه وتصحيحه، كقوله تعالى وقضينا إليه ذلك الأمر أو أدوا إلى ما هو حق عليكم عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ} [يونس: ٧١]، ثلاثة اقوال:

أحدها: ثم انهضوا، قاله ابن عباس.

الثاني: ثم اقضوا إليّ ما أنتم قاضون، قاله قتادة.

الثالث: اقضوا إليّ ما في أنفسكم، قاله مجاهد.

=

=

وقرئ: «ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ»، بمعنى: توجَّهوا إليّ حتى تصلوا إليّ، من قولهم: "قد أفْضَى إليّ الوَجَع وشبهه".

قال الزمخشري:"وقرئ: «ثم أفضوا إلى»، بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إلى بشركم. وقيل هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي: أصحروا به إلى وأبرزوه لي".

قوله تعالى: {وَلَا تُنْظِرُونِ} [يونس: ٧١]، أي:" ولا تؤخروني ساعة من نهار".

قال ابن عباس:" يقول: ولا تؤخرون".

قال الزمخشري: أي:" ولا تمهلوني".

قال ابن كثير:" أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: {إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٤ - ٥٦]".

قال الطبري:" وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول نبيه نوح عليه السلام لقومه: إنه بنُصرة الله له عليهم واثق، ومن كيدهم وبوائقهم غير خائف، وإعلامٌ منه لهم أن آلهتهم لا تضرّ ولا تنفع، يقول لهم: أمضوا ما تحدّثون أنفسكم به فيَّ، على عزم منكم صحيح، واستعينوا من شايعكم عليّ بآلهتكم التي تدْعون من دون الله، ولا تؤخروا ذلك، فإني قد توكلت على الله، وأنا به واثق أنكم لا تضروني إلا أن يشاء ربي.

وهذا وإن كان خبرًا من الله تعالى عن نوح، فإنه حثٌّ من الله لنبيه محمد ﷺ على التأسّي به، وتعريفٌ منه سبيلَ الرشاد فيما قلَّده من الرسالة والبلاغ عنه".

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه، وأمرهم

=

=

الذي لا يكون عليهم غمة؟ قلت: أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه، يعنى: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكى واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي. وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا. وأما الثاني ففيه وجهان:

أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعنى: ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة: أى غما وهما. والغم والغمة، كالكرب والكربة.

والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره، ومنها قوله عليه السلام «ولا غمة في فرائض الله» أى لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعنى: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهروننى به".

فهذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

وقد بادأ قومه بتسفيه آرائهم، وفساد دينهم، وعيب آلهتهم. وقد حملوا من بغضه، وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدروا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقا، وهم الكاذبون فيما يدعون، كما قال هود لقومه (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم).

قال القرطبي: وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح - عليه السلام - أنه كان

=

=

بنصر الله واثقا، ومن كيدهم غير خائف؛ علما منه بأنهم وآلهتهم لا ينفعون ولا يضرون، وهو تعزية لنبيه ﷺ وتقوية لقلبه.

- فأنت ترى في هذه الآية الكريمة كيف أن نوحا- عليه السلام- كان في نهاية الشجاعة في مخاطبته لقومه، بعد أن مكث فيهم ما مكث وهو يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده.

فهو- أولا- يصارحهم بأنه ماض في طريقه الذي أمره الله بالمضي فيه، وهو تذكيرهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله، وعلى وجوب إخلاص العبادة له سواء أشق عليهم هذا التذكير أم لم يشق، وأنه لا اعتماد له على أحد إلا على الله وحده.

وهو- ثانيا- يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم وأمر شركائهم وأن يأخذوا أهبتهم لكيده وحربه.

وهو- ثالثا- يطالبهم بأن يتخذوا قراراتهم بدون تستر أو خفاء، فإن الأمر لا يحتاج إلى غموض أو تردد، لأن حاله معهم قد أصبح واضحا وصريحا.

وهو- رابعا- يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات وأحكام وأن ينفذوها عليه بدون تريث أو انتظار، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم.

وهكذا نرى نوحا - عليه السلام - يتحدى قومه تحديا صريحا مثيرا. حتى إنه ليغريهم بنفسه، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه- إن استطاعوا ذلك-.

وما لجأ - عليه السلام - إلى هذا التحدي الواضح المثير إلا لأنه كان معتمدا على الله تعالى الذي تتضاءل أمام قوته كل قوة وتتهاوى إزاء سطوته كل سطوة ويتصاغر كل تدبير وتقدير أمام تدبيره وتقديره.

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ} [يونس: ٧٢]، أي:" فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري فليس لأني طلبت منكم أجرا حتى تمتنعوا، بل لشقاوتكم وضلالكم".

=

=

قال الزمخشري:" فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي فما سألتكم من أجر فما كان عندي ما ينفركم عنى وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم".

قال السمعاني:" معناه: فإن أعرضتم فما سألتكم من ثواب على تبليغ الرسالة".

قال ابن كثير:" أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، {فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ} أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل نبيه نوح عليه السلام لقومه: (فإن توليتم)، أيها القوم، عني بعد دعائي إياكم، وتبليغ رسالة ربي إليكم، مدبرين، فأعرضتم عمّا دعوتكم إليه من الحقّ، والإقرار بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، وترك إشراك الآلهة في عبادته، فتضيعٌ منكم وتفريطٌ في واجب حق الله عليكم، لا بسبب من قبلي، فإني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرًا، ولا عوضًا أعتاضه منكم بإجابتكم إياي إلى ما دعوتكم إليه من الحق والهدى، ولا طلبت منكم عليه ثوابًا ولا جزاء".

- قال الرازي: قال المفسرون: هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالا على دعوتهم إلى دين الله تعالى ومتى كان الإنسان فارغا من الطمع كان قوله أقوى تأثيرا في القلب.

- وقال الآلوسي: قوله تعالى (فما سألتكم) بمقابلة تذكيري ووعظي (من أجر) تؤدونه إلي حتى يؤدي ذلك إليكم إلى توليكم، إما لاتهامكم إياي بالطمع، أو لثقل دفع المسؤول عليكم، أو حتى يضرني توليكم المؤدي إلى الحرمان، فالأول لإظهار بطلان التولي ببيان عدم ما يصححه، والثاني لإظهار عدم مبالاته ﷺ بوجوده وعدمه.

- وقال ابن عاشور: والمعنى: فإن كنتم قد توليتم فقد علمتم أني ما سألتكم أجرا

=

=

فتتهموني برغبة في نفع ينجر لي من دعوتكم حتى تعرضوا عنها شحا بأموالكم أو اتهاما بتكذيبي، وهذا إلزام لهم بأن توليهم لم يكن فيه احتمال تهمتهم إياه بتطلب نفع لنفسه، وبذلك برأ نفسه من أن يكون سببا لتوليهم.

عن ابن عباس قال: "قل لهم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجرا، يقول: عرضا من الدنيا".

قوله تعالى: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ} [يونس: ٧٢]، أي:" ما أطلب ثوابًا أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ من أغراض الدنيا".

قال الزمخشري:" وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أى: ما نصحتكم إلا لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا".

قال السمعاني:" أي: إن ثوابي إلا على الله".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: إن جزائي وأجر عملي وثوابه إلا على ربي، لا عليكم، أيها القوم، ولا على غيركم".

عن مجاهد:" {إن أجري}، يقول: جزائي".

قوله تعالى: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٧٢]، أي:" وأمرت أن أكون من المنقادين لحكمه".

وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ، والإسلام هو دين جميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم.

كما قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا).

قال السمعاني:" أي: من الموحدين. ومنهم من قال: معنى قوله: {من المسلمين} أي: من المستسلمين لأمر الله".

قال الطبري: أي:" وأمرني ربي أن أكون من المذعنين له بالطاعة، المنقادين لأمره

=

=

ونهيه، المذللين له، ومن أجل ذلك أدعوكم إليه، وبأمره آمركم بترك عبادة الأوثان".

عن ابن عباس قوله: " {المسلمين}، يقول: موحدين".

قال الزمخشري: أي: من" الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذي كل مسلم مأمور به. والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير".

قال ابن كثير:" أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ، والإسلام هو دين جميعالأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨]. قال ابن عباس: سبيلا وسنة. فهذا نوح يقول: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [النمل: ٩١]، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]. وَقَالَ مُوسَى {يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: ٨٤]. وقالت السحرة: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: ١٢٦]. وقالت بلْقيس: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: ٤٤]. وقال الله تعالى: {إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا} [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي

=

=

وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أي: من هذه الأمة؛ ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات، ديننا واحد»، أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علات»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد".

قوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ} [يونس: ٧٣]، أي:" فكذب نوحًا قومُه فيما أخبرهم به عن الله، فنجَّيناه هو ومن معه في السفينة".

قال القرطبي:" {فَكَذَّبُوهُ}، يعني: نوحا، {فنجيناه ومن معه}، أي: من المؤمنين، {في الفلك}، أي: السفينة".

قال الزمخشري:" فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم في أولها، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان".

عن أبي مالك:" {في الفلك}، قال: سفينة نوح حمل فيها من كل زوجين اثنين".

عن ابن عباس أنه قال: "كان في سفينة نوح ثمانون رجلا أحدهم كان لسانه عربيا".

وعن ابن عباس أيضا:" أول ما حمل نوح في الفلك من الدواب الذرة، وآخر ما حمل الحمار قلت: أدخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فينهق فلا يستطيع حتى قال نوح ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك، قال كلمة زلت على لسانه".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ} [يونس: ٧٣]، أي:" وجعلناهم يَخْلُفون المكذبين في الأرض".

قال ابن كثير:" أي: في الأرض".

=

=

قال الزمخشري:" يخلفون الهالكين بالغرق".

قال القرطبي:" أي: سكان الأرض وخلفا ممن غرق".

قال السدي:" فأهلك القرون فاستخلفنا فيها بعدهم".

عن ابن زيد في قوله: {هو الذي جعلكم خلائف الأرض}، قال: يستخلف في الأرض قوما بعد قوم".

قوله تعالى: {وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [يونس: ٧٣]، أي:" وأغرقنا الذين جحدوا حججنا".

قال الطبري:" بعد أن أغرقنا الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا على توحيدنا، ورسالة رسولنا نوح".

قوله تعالى: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ} [يونس: ٧٣]، أي:" فتأمل -أيها الرسول- كيف كان عاقبة القوم الذين أنذرهم رسولهم عذاب الله وبأسه؟".

قال القرطبي:" يعني: آخر أمر الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا".

قال الزمخشري:" تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسلية له".

قال ابن كثير:" أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين".

عبد الرحمن بن سلمة أبو زهير عن رجل من أصحابه قال: "بلغني أن قوم نوح عاشوا في ذلك الغرق أربعين يوما".

قال محمد بن إسحاق:" فلقد غرقت الأرض وما فيها وانتهى الماء إلى ما انتهى إليه وما جاور الماء ركبته وداب الماء حين أرسله الله خمسين ومائة يوم كما يزعم أهل التوراة فكان بين أن أرسل الله الطوفان وبين أن غاص ستة أشهر وعشر ليال ولما أراد الله أن يكف ذلك أرسل الله ريحا على وجه الماء، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء فجعل الماء ينقص ويغيض

=

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤).

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْده} أَيْ نُوح {رُسُلًا إِلَى قَوْمهمْ} كَإِبْرَاهِيم وَهُود وَصَالِح {فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} الْمُعْجِزَات {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل بَعْث الرُّسُل إِلَيْهِمْ {كَذَلِكَ نَطْبَع} نَخْتِم {عَلَى قُلُوب الْمُعْتَدِينَ} فَلَا تَقْبَل الْإِيمَان كَمَا طَبَعْنَا عَلَى قُلُوب أُولَئِكَ(١).

=

ويدبر فكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه فأرسل الحمامة فرجعت إليه فلم تجد لرجليها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها فمكث سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت إليه حين أمست وفي فيها ورقة زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ثم مكث فيها سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع فعلم نوح أن الأرض قد برزت".

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ} [يونس: ٧٤]، أي:" ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى أقوامهم «هودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا وغيرَهم»".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم".

قال القرطبي:" {ثم بعثنا من بعده}، أي: من بعد نوح، {رسلا إلى قومهم}، كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغير هم".

قال أبي بن كعب:" كان في علمه يوم أقروا به من يصدق به ومن يكذب به فكان =

=

عيسى عليه السلام من تلك الأزواج التي أخذ عليها العهد والميثاق في زمان آدم".
قال ابن عاشور: "وقد أبهم الرسل في هذه الآية، ووقع في آيات أخرى التصريح بأنهم: هود وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وقد يكون هنالك رسل آخرون كما قال تعالى (ورسلا لم نقصصهم عليك)، ويتعين أن يكون المقصود هنا من كانوا قبل موسى لقوله (ثم بعثنا من بعدهم موسى)، وفي الآية إشارة إلى أن نوحا أول الرسل".
قوله تعالى: {فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [يونس: ٧٤]، أي:" فجاء كل رسول قومه بالمعجزات الدالة على رسالته، وعلى صحة ما دعاهم إليه".
قال الطبري:" فأتوهم ببينات من الحجج والأدلّة على صدقهم، وأنهم لله رسل، وأن ما يدعونهم إليه حقّ".
قال القرطبي:" أي: بالمعجزات".
قال ابن عاشور: وقد قوبل جمع الرسل بجمع (البينات) فكان صادقا ببينات كثيرة موزعة على رسل كثيرين، فقد يكون لكل نبيء من الأنبياء آيات كثيرة، وقد يكون لبعض الأنبياء آية واحدة مثل آية صالح وهي الناقة.
- قال ابن عطية: ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد ﷺ، أي كما حل بهؤلاء يحل بكم.
قوله تعالى: {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ} [يونس: ٧٤]، أي:" فما كانوا ليصدِّقوا ويعملوا بما كذَّب به قوم نوح ومَن سبقهم من الأمم الخالية".
وللمفسرين في معنى هذه الجملة الكريمة أقوال:
فمنهم من يرى أن الضمائر في «كانوا، ويؤمنوا، وكذبوا» تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن المراد بقوله: من قبل؛ أي: من قبل مجيء الرسل إليهم.

=

=

والمعنى على هذا الرأي: ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم فجاءوهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، إلا أن هؤلاء الأقوام الأشقياء. استمروا على كفرهم وعنادهم، وامتنعوا عن الإيمان بما كذبوا به من قبل مجيء الرسل إليهم وهو إفراد الله تعالى بالعبادة والطاعة فكان حالهم في الإصرار على الكفر والجحود قبل مجيء الرسل إليهم، كحالهم بعد أن جاءوهم بالهدى ودين الحق، حتى لكأنهم لم يأتهم من بشير ولا نذير.

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي الإمام البيضاوي.

فقد قال (قوله: فما كانوا ليؤمنوا) أي: فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر، وخذلان الله إياهم.. بما كذبوا به من قبل، أي بسبب تعودهم تكذيب الحق، وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل- عليهم الصلاة والسلام.

ومنهم من يرى أيضا أن الضمائر تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - إلا أن المراد بقوله من قبل: أي: من قبل ابتداء دعوة الرسل لهؤلاء الأقوام.

وعليه يكون المعنى: ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم، فجاءوهم بالأدلة الواضحة الدالة على صدقهم، إلا أن هؤلاء الأقوام قابلوا رسلهم بالتكذيب من أول يوم، واستمروا على ذلك حتى آخر أحوالهم معهم، فكان تكذيبهم لهم في آخر أحوالهم معهم، يشبه تكذيبهم لهم من قبل. أي: في أول مجيئهم إليهم.

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي: الإمام ابن كثير.

فقد قال قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول من أرسلوا إليهم، كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة).

=

=

ومنهم من يرى أن الضمير في قوله «كانوا ويؤمنوا» يعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن الضمير في قوله «كذبوا» يعود إلى قوم نوح، وعلى هذا الرأي يكون المعنى:

ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا إلى أقوامهم. فجاءوهم بالآيات البينات الدالة على صدقهم، ولكن هؤلاء الأقوام استمروا في كفرهم وعنادهم، وأبوا أن يؤمنوا بوحدانية الله التي كذب بها قوم نوح من قبل.

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي الإمام ابن جرير فقد قال: قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) يقول: فما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به رسلهم وبما كذب به قوم نوح ومن قبلهم من الأمم الخالية.

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة، تدل على أن هؤلاء الأقوام عموا وصموا عن الحق، واستمروا على ذلك دون أن تحولهم الآيات البينات التي جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم.

قال الطبري:" يقول: فما كانوا ليصدّقوا بما جاءتهم به رسلهم بما كذب به قوم نوح ومن قبلَهم من الأمم الخالية من قبلهم".

قال القرطبي:" التقدير: بما كذب به قوم نوح من قبل. وقيل:" بما كذبوا به من قبل" أي من قبل يوم الذر، فإنه كان فيهم من كذب بقلبه وإن قال الجميع: بلى. قال النحاس: «ومن أحسن ما قيل في هذا أنه لقوم بأعيانهم»، مثل: {أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} [البقرة: ٦]".

عن مجاهد، قوله: " {بما كذبوا به من قبل} ، قول الله: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} ".

عن السدي، قوله: " {فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل} ، قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق آمنوا كرها".

=

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ} [يونس: ٧٤]، أي:" وكما ختم الله على قلوب هؤلاء الأقوام فلم يؤمنوا، كذلك يختم على قلوب مَن شابهم ممن بعدهم من الذين تجاوزوا حدود الله، وخالفوا ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته عقوبة لهم على معاصيهم".

والآية بيان لسنة الله تعالى في خلقه التي لا تتخلف ولا تتبدل.

والطبع: الختم والاستيثاق بحيث لا يخرج من الشيء ما دخل فيه، ولا يدخل فيه ما خرج منه.

أي: مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين للحدود في الكفر والجحود، وذلك بخذلانهم، وتخليتهم وشأنهم، لانهماكهم في الغواية والضلال.

قال القرطبي:" أي نختم. {على قلوب المعتدين}، أي: المجاوزين الحد في الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا. وهذا يرد على القدرية قولهم كما تقدم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كما طبعنا على قلوب أولئك فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبَلون من أنبياء الله نصيحتَهم، ولا يستجيبون لدعائهم إيّاهم إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوب واكتسبوا من الآثام، كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربّه فتجاوز ما أمره به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربَّهم من هؤلاء الآخرين من بعدهم".

قال ابن كثير: "أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم".

- قال ابن عاشور: "والطبع: الختم، وهو استعارة لعدم دخول الإيمان قلوبهم".

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥).

{ثم بعثنا من بعدهم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ} قَوْمه {بِآيَاتِنَا} التسع {فاستكبروا} عن الإيمان بها {وكانوا قوما مجرمين}.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦).

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقّ مِنْ عِنْدنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْر مُبِين} بَيِّن ظَاهِر.

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧)

{قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم} إنه لسحر {أسحر هذا} وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَتَى بِهِ وَأَبْطَلَ سِحْر السحرة {ولا يفلح الساحرون} وَالِاسْتِفْهَام فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلْإِنْكَارِ.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨).

{قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتنَا} لِتَرُدّنَا {عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءنا وتكون لَكُمَا الْكِبْرِيَاء} الْمُلْك {فِي الْأَرْض} أَرْض مِصْر {وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} مُصَدِّقِينَ.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩).

{وَقَالَ فِرْعَوْن ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِر عَلِيم} فَائِق فِي عِلْم السِّحْر.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠).

=

عن سعيد المقبري في قول الله: " {وطبع}: ختم على قلوبهم".

عن قتادة، قوله: " {وطبع على قلوبهم}، أي: بأعمالهم".

{فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَة قَالَ لَهُـمْ مُوسَى} بَعْد مَا قَالُوا لَهُ {إمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ نَكُون نَحْنُ الْمُلْقِينَ} {أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ}.

فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١).

{فَلَمَّا أَلْقَوْا} حِبَالهمْ وَعِصِيّهمْ {قَالَ مُوسَى مَا} اسْتِفْهَامِيَّة مُبْتَدَأ خَبَره {جِئْتُمْ بِهِ السِّحْر} بَدَل وَفِي قِرَاءَة بِهَمْزَةٍ وَاحِدَة إخْبَار فَمَا اسْم مَوْصُول مُبْتَدَأ {إنَّ الله سَيُبْطِلُهُ} أَيْ سَيَمْحَقُهُ {إن الله لا يصلح عمل المفسدين}.

وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢).

{وَيُحِقّ} يُثْبِت وَيُظْهِر {الله الْحَقّ بِكَلِمَاتِهِ} بِمَوَاعِيدِهِ {ولو كره المجرمون}.

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣).

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلَّا ذُرِّيَّة} طَائِفَة {مِنْ} أَوْلَاد {قَوْمه} أَيْ فِرْعَوْن {عَلَى خَوْف مِنْ فرعون وملئهم أَنْ يَفْتِنهُمْ} يَصْرِفهُمْ عَنْ دِينه بِتَعْذِيبِهِ {وَإِنَّ فِرْعَوْن لَعَالٍ} مُتَكَبِّر {فِي الْأَرْض} أَرْض مِصْر {وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ} الْمُتَجَاوِزِينَ الْحَدّ بِادِّعَاءِ الرُّبُوبِيَّة.

وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤)

{وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين}.

فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥).

{فَقَالُوا عَلَى الله تَوَكَّلْنَا رَبّنَا لَا تَجْعَلنَا فِتْنَة لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أَيْ لَا تُظْهِرهُمْ عَلَيْنَا فَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى الحق فيفتتنوا بنا.

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦).

{ونجنا برحمتك من القوم الكافرين}.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧).

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ} اتَّخِذَا {لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَة} مُصَلًّى تُصَلُّونَ فِيهِ لِتَأْمَنُوا مِنْ الْخَوْف وَكَانَ فِرْعَوْن مَنَعَهُمْ مِنْ الصَّلَاة {وَأَقِيمُوا الصَّلَاة} أَتِمُّوهَا {وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ} بِالنَّصْرِ وَالْجَنَّة.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨).

{وَقَالَ مُوسَى رَبّنَا إنَّك آتَيْت فِرْعَوْن وَمَلَأَهُ زِينَة وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا رَبّنَا} آتَيْتهمْ ذَلِكَ {لِيُضِلُّوا} فِي {عَنْ سَبِيلك} دِينك {رَبّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالهمْ} امْسَخْهَا {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبهمْ} اطْبَعْ عَلَيْهَا وَاسْتَوْثِقْ {فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا العذاب الأليم} المؤلم دعا عليه وَأَمَّنَ هَارُونَ عَلَى دُعَائِهِ.

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩).

{قَالَ} تَعَالَى {قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتكُمَا} فَمُسِخَتْ أَمْوَالهمْ حِجَارَة وَلَمْ يُؤْمِن فِرْعَوْن حَتَّى أَدْرَكَهُ الْغَرَق {فَاسْتَقِيمَا} عَلَى الرِّسَالَة وَالدَّعْوَة إلَى أَنْ يَأْتِيهِمْ الْعَذَاب {وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيل الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} فِي اسْتِعْجَال قَضَائِي رُوِيَ أَنَّهُ مَكَثَ بَعْدهَا أربعين سنة.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ

الْمُسْلِمِينَ (٩٠).

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيل الْبَحْر فَأَتْبَعَهُمْ} لَحِقَهُمْ {فِرْعَوْن وَجُنُوده بَغْيًا وَعَدْوًا} مَفْعُول لَهُ {حَتَّى إذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَق قَالَ آمَنْت أَنَّهُ} أَيْ بِأَنَّهُ وَفِي قِرَاءَة بِالْكَسْرِ اسْتِئْنَافًا {لَا إلَه إلَّا الذي آمنت به بنوا إسْرَائِيل وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ} كَرَّرَهُ لِيَقْبَل مِنْهُ فَلَمْ يَقْبَل وَدَسَّ جِبْرِيل فِي فِيهِ مِنْ حَمْأَة الْبَحْر مَخَافَة أَنْ تَنَالهُ الرَّحْمَة وَقَالَ له.

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١).

{آلْآنَ} تُؤْمِن {وَقَدْ عَصَيْت قَبْل وَكُنْت مِنْ الْمُفْسِدِينَ} بِضَلَالِك وَإِضْلَالك عَنْ الْإِيمَان.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢).

{فَالْيَوْم نُنَجِّيك} نُخْرِجك مِنْ الْبَحْر {بِبَدَنِك} جَسَدك الَّذِي لَا رُوح فِيهِ {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفك} بَعْدك {آيَة} عِبْرَة فَيَعْرِفُوا عُبُودِيَّتك وَلَا يَقْدَمُوا على مثل فعلك وعن بن عَبَّاس أَنَّ بَعْض بَنِي إسْرَائِيل شَكُّوا فِي مَوْته فَأُخْرِجَ لَهُمْ لِيَرَوْهُ {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {عَنْ آيَاتنَا لَغَافِلُونَ} لَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا[1].

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا} [يونس: ٧٥]، أي:" ثم بعثنا مِن بعد أولئك الرسل كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين، بعثنا موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وأشراف قومه بالمعجزات الدالة على صدقهما".

قال القرطبي:" {ثم بعثنا من بعدهم}، أي: من بعد الرسل والأمم، {موسى =

=

وهارون إلى فرعون وملائه}، أي: أشراف قومه".

قوله: (وملئه) أي: قومه.

قال أبو حيان: "ولا يخص قوله: وملائه بالإشراف، بل هي عامة لقوم فرعون شريفهم ومشروفهم".

وقال الآلوسي: "أي أشراف قومه الذين يجتمعون على رأي فيملأون العين رواء والنفوس جلالة وبهاء، وتخصيصهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والملمات".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا} من بعد تلك الرسل {مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} أي: قومه، {بِآيَاتِنَا} أي: حجَجنا وبراهيننا".

{بِآيَاتِنَا} أي: بحججنا وبراهيننا، كما قال تعالى (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم).

- البينة هي الحجة القاطعة التي لا تترك في الحق لبسا، ومنه (البينات في الشهادات)؛ لأنها شهادات قوم عدول لا تترك في الحق لبسا، فالبينات: الحجج الواضحة البينة التي لا تترك في الحق لبسا. ومعنى (البينات) هنا على التحقيق: المعجزات؛ لأن الله ما أرسل نبيا قط إلا ومعه معجزة تقارب التحدي، يعجز عنها الخلق، فتثبت بها نبوته؛ لأن إثبات الله للمعجزات للرسل هي بمثابة قوله لهم: أنتم صادقون في خبركم عني. فهي تصديق من الله لهم؛ لأنه ما خرق لهم العادة وقت التحدي وجاء بهذا العلم الخارق الذي لا يقدر عليه غيره إلا ومعناه عنده: أنت صادق يا عبدي فيما تنقل عني. فهو تصديق من الله، ولذا سمي معجزة؛ لأن المعجزة فعل خارق يحصل عند التحدي لا يقدر عليه البشر. (الشنقيطي).

=

=

قال الزمخشري:" {بآياتنا}: بالآيات التسع".

قال مجاهد:" كان فرعون فارسيا من أهل إصطخر".

عن ابن لهيعة:"أن فرعون كان من أبناء سحرة".

عن محمد بن المنكدر قال: "عاش فرعون ثلاثمائة سنة، مائتان وعشرون لم ير فيها ما يقذي عينه، ودعى موسى ثمانين سنة".

قوله تعالى: {فَاسْتَكْبَرُوا} [يونس: ٧٥]، أي:" فاستكبروا عن قَبول الحق".

قال ابن كثير:" أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له".

قال الزمخشري:" فاستكبروا عن قبولها، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها، ويتعظموا عن تقبلها".

قوله تعالى: {وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} [يونس: ٧٥]، أي:" وكانوا قومًا مشركين مجرمين مكذبين، والمجرم مرتكب الجريمة، والجريمة: الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال".

قال القرطبي:" أي: مشركين".

قال الزمخشري:"كفارا ذوى آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردها".

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا} [يونس: ٧٦]، أي:" فلما أتى فرعونَ وقومَه الحقُّ الذي جاء به موسى".

قال النسفي:" فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله".

قال الزمخشري: أي:" فلما عرفوا أنه هو الحق، وأنه من عند الله، لا من قبل موسى وهرون".

قال السدي: "لما جاءهم رسول من عند الله عارضوه وحاصروه".

=

=

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ} [يونس: ٧٦]، أي:" قالوا: إن الذي جاء به موسى من الآيات إنما هو سحر ظاهر".

قال الزمخشري:" قالوا لحبهم الشهوات إن هذا لسحر مبين وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويها وباطلا".

قال القرطبي:" حملوا المعجزات على السحر".

قال النسفي:" قَالُوا} لحبهم الشهوات {إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ} وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر".

قال ابن كثير:" كأنهم – قبَّحهم الله – أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل: ١٤]".

قوله تعالى: {قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ} [يونس: ٧٧]، أي:" قال لهم موسى متعجبًا مِن قولهم: أتقولون للحق لما جاءكم: إنه سحر مبين؟".

والاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحر؟.

قال ابن كثير:" {قَالَ} لهم {مُوسَى} منكرا عليهم: {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ..}".

قال مقاتل:" اليد والعصا لما جاءكم".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: أيكون مثل هذا سحرا؟ فليس ذلك بسحر، ولكن ذلك علامة النبوة".

قال البغوي:" تقدير الكلام: أتقولون للحق لما جاءكم سحر أسحر هذا، فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه".

قوله تعالى: {أَسِحْرٌ هَذَا} [يونس: ٧٧]، أي:" أسحرٌ هذا الذي جئتكم به؟".

قوله تعالى: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ} [يونس: ٧٧]، أي:" والحال أنه لا يفوز ولا

=

=

ينجح الساحرون".

قال الطبري:" يقول: ولا ينجح الساحرون ولا يَبْقون".

قال مقاتل:" أى: الدنيا والآخرة".

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: الدنيا والآخرة. ويقال: لا ظفر لهم".

قال القرطبي:" أي: لا يفلح من أتى به".

قال الزمخشري:" فإن قلت: هم قطعوا بقولهم إن هذا لسحر مبين على أنه سح، فكيف قيل لهم: أتقولون أسحر هذا؟ قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله أتقولون للحق أتعيبونه وتطعنون فيه. وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه، من قولهم: فلا يخاف القالة، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه، ونحو القول: «الذكر»، في قوله {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُم} [الأنبياء: ٦٠]، ثم قال: {أسحر هذا}، فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه، وأن يحذف مفعول {أتقولون} وهو ما دل عليه قولهم: {إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِين} [يونس: ٧٦]، كأنه قيل. أتقولون ما تقولون، يعنى قولهم: {إن هذا لسحر مبين}، ثم قيل: {أسحر هذا}؟ وأن يكون جملة قوله {أسحر هذا ولا يفلح الساحرون} حكاية لكلامهم، كأنهم قالوا: أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون كما قال موسى للسحرة: {مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ} [يونس: ٨١]".

قوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [يونس: ٧٨]، أي:" قال فرعون وملؤه لموسى: أجئتنا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة غير الله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال فرعون وملأه لموسى: {أجئتنا لتلفتنا}، يقول: لتصرفنا وتلوينا {عمّا وجدنا عليه آباءنا}، من قبل مجيئك، من الدين".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [يونس: ٧٨]، ثلاثة وجوه:

=

=

أحدها: لتلوينا، قاله قتادة.

الثاني: لتصدنا عن آلهتنا، قاله السدي.

الثالث: لتصرفنا، من قولهم لفته لفتًا إذا صرفه ومنه: لفت عنقه، أي: لواها، قاله عليّ بن عيسى، والزجاج.

قال الزجاج:" أي: لتصرفنا وتعدلنا، يقال: لفته عن الأمر ألفته لفتا إذا عدلته عنه، ومن هذا قولهم: التفت إليه، أي: عدل وجهه إليه".

قوله تعالى: {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} [يونس: ٧٨]، أي:" وتكون لكما أنت وهارون العظمة والسلطان في أرض «مصر»؟".

قال الطبري:" «الْكِبْرِيَاءُ»: يعني العظمة، وهي "الفعلياء" من "الكبر". ومنه قول ابن الرِّقاع:

سُؤْدَدًا غَيْرَ فَاحِشٍ لا يُدَا نِيهِ تِجِبَّارَةٌ وَلا كِبْرِيَاءُ

وفي قوله تعالى: {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} [يونس: ٧٨]، أربعة وجوه:

أحدها: الملك والسلطان في الأرض، قاله مجاهد.

وقال ابن قتيبة:" أي: الملك والشرف".

قال الزجاج:" «الكبرياء»: الملك، وإنما سمي الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا".

الثاني: العظمة، حكاه الأعمش عن مجاهد.

الثالث: العلو، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

الرابع: الطاعة، قاله الضحاك.

- وقال ابن عطية: و (الكبرياء) مصدر مبالغ من الكبر، والمراد به في هذا الموضع الملك، وكذلك قال فيه مجاهد والضحاك وأكثر المتأولين، لأنه أعظم تكبر الدنيا.

=

=

- وقال ابن عاشور: والكبرياء: العظمة وإظهار التفوق على الناس.
والأرض: هي المعهودة بينهم، وهي أرض مصر، كقوله (يريد أن يخرجكم من أرضكم).
ولما كانوا ظنوا تطلبهما للسيادة أتوا في خطاب موسى بضمير المثنى المخاطب لأن هارون كان حاضرا فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين.
وإنما شركوا هارون في هذا الظن من حيث إنه جاء مع موسى ولم يباشر الدعوة فظنوا أنه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظا لنفسه.
قال الطبري:" وهذه الأقوال كلها متقاربات المعاني، وذلك أن الملك سلطان، والطاعة ملك، غير أن معنى «الكبرياء»، هو ما ثبت في كلام العرب، ثم يكون ذلك عظمة بملك وسلطان وغير ذلك".
قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٧٨]، أي:" وما نحن لكما بمقرِّين بأنكما رسولان أُرسلتما إلينا؛ لنعبد الله وحده لا شريك له".
قال الطبري:" يقول: {وما نحن لكما} يا موسى وهارون بمقرِّين بأنكما رسولان أرسلتما إلينا".
عن سعيد بن جبير، قوله: " {بمؤمنين}، قال: بمصدقين".
قوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [يونس: ٧٩]، أي:" وقال فرعون: ائتوني بكل ساحر ماهر، عليمٍ بفنون السحر".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقال فرعون لقومه: ائتوني بكل من يسحر من السحرة، عليم بالسحر".
قال القرطبي:" إنما قاله لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر".
قال ابن عباس:" فحشر له كل ساحر متعالم".
قال الحسن: "كان فرعون عِلْجًا مِن هَمَذانَ ".

=

=

عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- قال: "كان فرعون فارِسِيًّا من أهل إصْطَخْرَ".

وعن مجاهد: " علج من أهل همذان".

عن ابن إسحاق قال: لم يكن منهم فرعون أعتى على الله، ولا أعظم قولا، ولا أطول عمرا في ملكه منه، وكان اسمه فيما ذكر لي: الوليد بن مصعب".

عن علي بن أبي طلحة:" أنّ فرعون كان قِبْطِيًّا ولدَ زِنًا، طولُه سبعةُ أشبارٍ".

عن ابن لَهِيعة -من طريق ابن وهب-: "أنّ فرعون كان من أبناء مصر".

- قال ابن عاشور: وأمر بإحضار جميع السحرة المتمكنين في علم السحر لأنهم أبصر بدقائقه، وأقدر على إظهار ما يفوق خوارق موسى في زعمه، فحضورهم مغن عن حضور السحرة الضعفاء في علم السحر لأن عملهم مظنة أن لا يوازي ما أظهره موسى من المعجزة فإذا أتوا بما هو دون معجزة موسى كان ذلك مروجا لدعوة موسى بين دهماء الأمة.

والعموم في قوله (بكل ساحر عليم) عموم عرفي، أي بكل ساحر تعلمونه وتظفرون به، أو أريد (بكل) معنى الكثرة، كما تقدم في قوله (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية).

- قال ابن كثير: وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء موسى - عليه السلام - من قبيل ما تشعبذه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى. فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى. قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى. فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى).

=

=

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ} [يونس: ٨٠]، أي:" فأتوه بالسحرة، فلما جاءوا".

قال الطبري:" {فلما جاء السحرة}، فرعونَ".

عن محمد بن إسحاق: "يعنى قوله: {فلما جاء السحرة} أ قال: فاجتمعوا إليه أمرهم أمره فقال: لهم إنه قد جاءنا ساحر لم نر مثله قط، وإنكم إن غلبتموه أكرمتكم وقربتكم وفضلتكم على أهل مملكتي".

عن ابن عباس: "يعني قوله: {فلما جاء السحرة}، قالوا: إن هذا فعل كذا وكذا قالوا: هذا ساحر يسحر الناس ولا يسحر الساحر الساحر...".

قوله تعالى: {قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ} [يونس: ٨٠]، أي:" قال لهم موسى: ألقوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيِّكم".

قال الطبري: أي " من حبالكم وعصيِّكم".

قال القرطبي:" أي: اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم".

- قال ابن كثير: والحكمة في هذا -والله أعلم - ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم) أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى).

- وقال الخازن: إنما أمرهم موسى بإلقاء ما معهم من الحبال والعصي التي فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد.

=

=

- وقال القاسمي: وإنما سوغ لهم التقدم ازدراءا لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهي، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبدا.

- قال ابن عاشور: والإلقاء: رمي شيء في اليد إلى الأرض، وإطلاق الإلقاء على عمل السحر لأن أكثر تصاريف السحرة في أعمالهم السحرية يكون برمي أشياء إلى الأرض.

وقد ورد في آيات كثيرة أنهم ألقوا حبالهم وعصيهم، وأنها يخيل من سحرهم أنها تسعى، وكان منتهى أعمال الساحر أن يخيل الجماد حيا.

قال ابن عباس:" اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ونتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين يعني بذلك موسى وهارون، صلى الله عليهما وسلم استهزاء بهما قالوا: يا موسى لقدرتهم بسحرهم إما أن تلقي وإما (أن) نكون نحن الملقين قال: {ألقوا... فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون}، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق العصا".

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَلْقَوْا} [يونس: ٨١]، أي:" فلما ألقَوا حبالهم وعصيَّهم".

قال المراغي:" أي: فلما ألقوا حبالهم وعصيّهم السحرية".

قوله تعالى: {قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ} [يونس: ٨١]، أي:" قال لهم موسى: إنَّ الذي جئتم به وألقيتموه هو السحر، إن الله سيُذْهب ما جئتم به وسيُبطله".

أي: سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلا أو سيظهر بطلانه وفساده للناس.

قال المراغي:" قال لهم موسى غير مكترث بهم ولا بما صنعوا: إن هذا الذي

=

=

فعلتم وألقيتموه أمام النظّارة هو السحر، لا ما جئت به من الآيات البينات من عند الله وقد سماه فرعون وملؤه سحرا {إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ}، أي: إن الله سيظهر بطلانه بما يظهره على يدىّ من المعجزة حتى يظهر للناس أنه صناعة لا آية خارقة للعادة، وحجة واضحة على بطلان حجتى".

قال الواحدي:" {سيبطله}: سيهلكه".

قال السمعاني:" أي: سيذهبه".

قال الاخفش:" يقول: الذي جئتم به السحر، وقال بعضهم {آلسحر}، بالاستفهام".

قال الزجاج:" أي قال موسى: الذي جئتم به السحر، ويقرأ (ما جئتم به آلسحر). والمعنى: أي: شئ جئتم به آلسحر. هوعلى جهة التوبيخ لهم".

قال القرطبي:" تكون {ما} في موضع رفع بالابتداء، والخبر {جئتم به}، والتقدير: أي شي جئتم به، على التوبيخ والتصغير لما جاءوا به من السحر".

قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «آلسحر» بالمد على الاستفهام، وقرأ الآخرون بلا مد، يدل عليه قراءة ابن مسعود «ما جئتم به سحر» بغير الألف واللام.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٨١]، أي:" إن الله لا يصلح عمل مَن سعى في أرض الله بما يكرهه، وأفسد فيها بمعصيته".

قال الواحدي: أي:" لا يجعله ينفعهم".

قال المراغي:" أي: إن الله لا يجعل عمل المفسدين صالحا للبقاء، فيقوّيه بالتأييد الإلهى ويديمه، بل يزيله ويمحقه".

قال السمعاني:" وفي القصص أنهم كانوا سبعين ألفا، مع كل واحد منهم حبل وعصا، فألقوا تلك الحبال والعصي، فجعلت تخيل في أعين الناس كأنها ثعابين وحيات".

=

=

قال القرطبي:" قال ابن عباس: من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية. {ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين}، لم يضره كيد ساحر. ولا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر".

عن ليث، قال:"بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التي في سورة يونس: {فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)}، والآية الأخرى: {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} إلى انتهاء أربع آيات، وقوله: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} ".

قوله تعالى: {وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} [يونس: ٨٢]، أي:" ويثبِّت الله الحق الذي جئتكم به من عنده فيُعليه على باطلكم بكلماته وأمره".

قال مقاتل:" يقول يحق الله الدين بالتوحيد والظفر لنبيه ﷺ".

قال القرطبي:" أي: يبينه ويوضحه. {بكلماته}، أي: بكلامه وحججه وبراهينه. وقيل: بعداته بالنصر".

قال الطبري:" يقول: ويثبت الله الحق الذي جئتكم به من عنده، فيعليه على باطلكم، ويصححه {بكلماته}، يعني: بأمره".

قال المراغي:" ثم علل ما قال ببيان سنن الله فى تنازع الحق والباطل والصلاح والفساد فقال: {إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ، وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ} أي: إن الله لا يجعل عمل المفسدين صالحا للبقاء، فيقوّيه بالتأييد الإلهى ويديمه، بل يزيله ويمحقه، ويثبت الحق الذي فيه صلاح الخلق وينصره على ما يعارضه ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية، وهى مقتضى إرادته التشريعية التي يوحيها إلى رسله، ومن ثم سينصر موسى على فرعون وينقذ قومه من عبوديته".

=

=

قوله تعالى: {وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: ٨٢]، أي:" ولو كره ذلك المجرمون أصحاب المعاصي مِن آل فرعون".

قال المراغي:" أي: ولو كره كل من اتصف بالإجرام كفرعون وملئه".

قال القرطبي: يعني:"من آل فرعون".

قال الطبري:" يعني الذين اكتسبوا الإثم بربِّهم، بمعصيتهم إياه".

عن ابن عباس في قوله: " {المجرمون}، قال: الكفار".

قال ابن عطية:" المجرم: المجترم الراكب للخطر".

قوله تعالى: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ} [يونس: ٨٣]، أي:" فما آمن لموسى عليه السلام مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة إلا ذرية من قومه من بني إسرائيل".

قال ابن قتيبة:" وهم أشراف أصحابه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فلم يؤمن لموسى، مع ما أتاهم به من الحجج والأدلّة {إلا ذرية من قومه} خائفين من فرعون وملئهم".

قال الفراء:" وإنما قال: {وملئهم} وفرعون واحد، لأن الملك إذا ذكر بخوف أو بسفر أو قدوم من سفر ذهب الوهم إليه وإلى من معه ألا ترى أنك تقول: قدم الخليفة فكثر الناس، تريد: بمن معه، وقدم فغلت الأسعار لأنك تنوي بقدومه قدوم من معه. وقد يكون أن تريد بفرعون آل فرعون وتحذف الآل فيجوز كما قال: {وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: ٨٢]، تريد: «أهل القرية» والله أعلم. ومن ذلك قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنّ} [الطلاق: ١]".

قال ابن عطية:" وقال الفراء: «المعنى على خوف من آل فرعون وملئهم وهو من باب وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ [يوسف: ٨٢]».

وهذا التنظير غير جيد لأن إسقاط المضاف في قوله: {وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف:

=

=

٨٢]، هو سائغ بسبب ما يعقل من أن «اسأل القرية» لا تسأل، ففي الظاهر دليل على ما أضمر، وأما هاهنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إلى إضمار، إما أنه ربما احتج أن الضمير المجموع في مَلَائِهِمْ يقتضي ذلك والخوف إنما يكون من الأفعال والأحداث التي للجثة ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإيجاز أضيف إلى الأشخاص".

وفي قوله تعالى: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ} [يونس: ٨٣]، خمسة وجوه:

أحدها: أن الذرية القليل، قاله ابن عباس، والضحاك.

قال الضحاك:" «الذرية»: القليل، كما قال الله تعالى: {كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [سورة الأنعام: ١٣٣]".

الثاني: أنهم الغلمان من بني إسرائيل لأن فرعون كان يذبحهم فأسرعوا إلى الإيمان بموسى، قاله زيد بن أسلم.

قال زيد بن أسلم:" كان فرعون يذبح الغلمان فلما كان من أمر موسى عليه السلام ما كان حين ضرب موسى بالعصا، وهو قاعد عبد عنده أخرجه ثم قطر عن قتل ذرية بني إسرائيل وعرف أنه هو الذي كان يقتل في سببه ذرية بني إسرائيل فنشئت ناشئة فيما بين ذلك إلى أن جاء موسى من مدين حين بعثه الله ﷻ رسولا وهي الذرية التي قال الله: {فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون}".

الثالث: أنهم أولاد الزمن، لأنهم كانوا ذرية من هلك ممن أرسل إليهم موسى عليه السلام. قاله مجاهد، والأعمش.

قال الزجاج:" قيل إنه مكث يدعو الآباء فلم يؤمنوا، وآمنت طائفة من أولادهم".

الرابع: أن «الذرية» أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون، منهم: امرأة فرعون،

=

=

ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. قاله ابن عباس.

وقد روي عن ابن عباس:" قوله: {ذرية من قومه}، يقول: بني إسرائيل".

والخامس: أنهم قوم أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط. قاله الفراء.

قال الفراء:" فسر المفسرون «الذرية»: القليل. وكانوا- فيما بلغنا- سبعين أهل بيت، وإنما سموا «الذرية»، لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم كن من بنى إسرائيل، فسموا الذرية كما قيل لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن فسموا ذراريهم الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم".

والسادس: أن ذرية قوم موسى نساؤهم وولدانهم. أفاده الماوردي.

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال عندي بتأويل الآية، القولُ الذي ذكرته عن مجاهد، وهو أن «الذرية»، في هذا الموضع أريد بها ذُرّية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أن يقرُّوا بنبوته لطول الزمان، فأدركت ذريّتهم، فآمن منهم من ذكر الله، بموسى.

وإنما قلت: "هذا القولُ أولى بالصواب في ذلك"، لأنه لم يجر في هذه الآية ذكرٌ لغير موسى، فَلأن تكون "الهاء"، في قوله: "من قومه"، من ذكر موسى لقربها من ذكره، أولى من أن تكون من ذكر فرعون، لبعد ذكره منها، إذ لم يكن بخلاف ذلك دليلٌ، من خبرٍ ولا نظرٍ.

قال السعدي: "والحكمة -والله أعلم- بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب، أقبل للحق، وأسرع له انقيادا، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم -بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة- أبعد من الحق من غيرهم".

وبعدُ، فإن في قوله: {على خوف من فرعون وملئهم}، الدليلُ الواضح على أن الهاء في قوله: {إلا ذرية من قومه}، من ذكر موسى، لا من ذكر فرعون، لأنها لو

=

كانت من ذكر فرعون لكان الكلام، "على خوف منه"، ولم يكن {على خوف من فرعون}".

قوله تعالى: {عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ} [يونس: ٨٣]، أي:" على تخوف وحذر من فرعون وملأه أن يعذبهم ويصرفهم عن دينهم".

قال الطبري:" يعني: وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنوهم".

قال مقاتل:" يعني: ومن معه الأشراف من قومه، {أن يفتنهم}، يعنى: أن يقتلهم".

قال الأخفش:" يعني: ملأ الذرية".

قال ابن قتيبة:" {أن يفتنهم} أي: يقتلهم ويعذبهم".

قال الزجاج:" «الملأ» من القوم: الرؤساء الذين يرجع إلى قولهم".

قوله تعالى: {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ} [يونس: ٨٣]، أي:" وإن فرعون لَجبار مستكبر في الأرض".

قال ابن زيد:" يقول: تجبر في الأرض".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإن فرعون لجبّارٌ مستكبر على الله في أرضه".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [يونس: ٨٣]، أي:" وإنه لمن المتجاوزين الحد في الكفر والفساد".

قال الطبري: أي:"وإنه لمن المتجاوزين الحقّ إلى الباطل، وذلك كفره بالله وتركه الإيمان به، وجحودُه وحدانية الله، وادّعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حِلِّها".

قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ} [يونس: ٨٤]، أي:" وقال موسى: يا قومي إن صدقتم بالله -جلَّ وعلا- وامتثلتم شرعه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل موسى نبيِّه لقومه: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، وصدقتم بربوبيته".

=

قوله تعالى: {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا} [يونس: ٨٤]، أي:" فعلى الله وحده اعتمدوا فإِنه يكفيكم كل شرٍّ وضُرّ".

قال مقاتل:" يعنى: احترزوا".

قال الطبري:" يقول: فبه فثقوا، ولأمره فسلموا، فإنه لن يخذل وليّه، ولن يسلم من توكل عليه".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: ثقوا بالله وذلك حين قالوا له: {أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا} [الأعراف: ١٢٩]".

قال محمد بن إسحاق:" يعني: على الله توكلوا، أي: أرضى به من العباد".

قال السمعاني:" التوكل: هو الثقة بالله والاعتماد عليه في الأمور".

- قال الرازي: واعلم أن من توكل على الله في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

- وقال الخازن: ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان وأن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره.

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: ٨٤]، أي:" إِن كنتم مستسلمين لحكم الله منقادين لشرعه".

قال الطبري:" يقول: إن كنتم مذعنين لله بالطاعة، فعليه توكلوا".

قال مقاتل:" يعني: إن كنتم مقرين بالتوحيد".

قوله تعالى: {فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا} [يونس: ٨٥]، أي:" فقال قوم موسى له: على الله وحده لا شريك له اعتمدنا، وإليه فوَّضنا أمرنا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فقال قوم يا موسى لموسى: {على الله توكلنا}، أي به وثقنا، وإليه فوَّضنا أمرنا".

قال أبو الليث السمرقندي:" فلما قال لهم هذا موسى عليه السلام فقالوا: {على

=

=

الله توكلنا}، يعني: فوضنا أمرنا إليه".

قال الزمخشري:" فقالوا: {على الله توكلنا}، إنما قالوا ذلك، لأن القوم كانوا مخلصين، لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص".

قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [يونس: ٨٥]، أي:" ربنا لا تنصرهم علينا فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أو يُفتن الكفارُ بنصرهم، فيقولوا: لو كانوا على حق لما غُلبوا".

قال أبو الليث السمرقندي:" يقول: بلية وعبرة للقوم الظالمين. يعني: لا تنصرهم علينا".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه مخبرًا عن قوم موسى أنهم دعوا ربهم فقالوا: يا ربنا لا تختبر هؤلاء القوم الكافرين، ولا تمتحنهم بنا!، يعنون قوم فرعون".

قال البغوي:" أي: لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بأيديهم، فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا".

قال الزمخشري:" أى: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا. أو فتنة لهم يفتتنون بنا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا".

وفي قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [يونس: ٨٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: لا تسلطهم علينا فيفتنوننا، قاله مجاهد، وابن زيد.

وقال مجاهد:" لا تسلطهم علينا فيضلونا".

قال مجاهد:" لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: "لو كانوا على حق ما سلطنا عليهم ولا عذبوا"، فيفتتنوا بنا".

قال مجاهد:" لا تصبنا بعذاب من عندك ولا بأيديهم، فيفتتنوا ويقولوا: "لو كانوا

=

=

على حق ما سلطنا عليهم ولا عذبوا"".

الثاني: لا تسلطهم علينا فيفتتنون بنا لظنهم أنهم على حق، قاله أبو الضحى، وأبو مجلز، وبه قال ابن قتيبة.

والثالث: لا تفتنهم وتبتلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة. حكاه ابن عطية عن طائفة، وقال:"وفي هذا التأويل قلق".

قال ابن قتيبة:" الفتنة: العبرة، كقوله: {رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [يونس: ٨٥] وفي موضع آخر: {لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [الممتحنة: ٥] أي: يعتبرون أمرهم بأمرنا، فإذا رأونا في ضرّ وبلاء ورأوا أنفسهم في غبطة ورخاء- ظنّوا أنهم على حق، ونحن على باطل.

وكذلك قوله: فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ [الأنعام: ٥٣]".

قال الشوكاني: "وفي هذا الدعاء الذي تضرعوا به إلى الله- دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم".

قال الآلوسي: "وفي تقديم التوكل على الدعاء وإن كان بيانا لامتثال أمر موسى عليه السلام لهم به تلويح بأن الداعي حقه أن يبني دعاءه على التوكل على الله تعالى فإنه أرجى للإجابة ولا يتوهمن أن التوكل مناف للدعاء لأنه أحد الأسباب للمقصود والتوكل قطع الأسباب لأن المراد بذاك قطع النظر عن الأسباب العادية وقصره على مسببها ﷻ واعتقاد أن الأمر مربوط بمشيئته سبحانه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن".

قال ابن عاشور: "وسموا ذلك فتنة لأنها تزيد الناس توغلا في الكفر، والكفر فتنة، فمعنى سؤالهم أن لا يجعلهم الله فتنة هو أن لا يجعلهم سبب فتنة، وصفوا الكفار بـ (الظالمين) لأن الشرك ظلم، ولأنه يشعر بأنهم تلبسوا بأنواع الظلم: ظلم أنفسهم، وظلم الخلائق".

=

=

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن القوم رغبوا إلى الله في أن يُجيرهم من أن يكونوا محنة لقوم فرعون وبلاءً، وكلُّ ما كان من أمر كان لهم مصدَّة عن اتباع موسى والإقرار به، وبما جاءهم به، فإنه لا شك أنه كان لهم "فتنة"، وكان من أعظم الأمور لهم إبعادًا من الإيمان بالله ورسوله. وكذلك من المصدَّة كان لهم عن الإيمان: أن لو كان قوم موسى عاجلتهم من الله محنةٌ في أنفسهم، من بلية تنزل بهم، فاستعاذ القوم بالله من كل معنى يكون صادًّا لقوم فرعون عن الإيمان بالله بأسبابهم".

قوله تعالى: {وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [يونس: ٨٦]، أي:" وخلِّصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ونجِّنا يا ربنا برحمتك، فخلِّصنا من أيدي القوم الكافرين، قوم فرعون، لأنهم كان يستعبدونهم ويستعملونهم في الأشياء القَذِرة من خدمتهم".

قال أبو الليث السمرقندي:" {ونجنا برحمتك}، يعني: بنعمتك، {من القوم الكافرين}، يعني: فرعون وقومه".

قال البيضاوي: {ونجنا برحمتك من القوم الكافرين}، أي: "من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولا لتجاب دعوته".

قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا} [يونس: ٨٧]، أي:" وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون أن اتخذا لقومكما بيوتًا في «مصر» تكون مساكن وملاجئ تعتصمون بها".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتخذا لقومكما بمصر بيوتًا، يقال منه: "تبوَّأ فلان لنفسه بيتًا"، إذا اتخذه. وكذلك تبوَّأ مصْحفًا"،

=

=

إذا اتخذه، "وبوأته أنا بيتًا": إذا اتخذته له".

وفي قوله {بِمِصْرَ} [يونس: ٨٧]، قولان:

أحدهما: أنها الإسكندرية، وهو قول مجاهد.

الثاني: أنه البلد المسمى مصر، قاله الضحاك.

قوله تعالى: {وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} [يونس: ٨٧]، أي:" واجعلوا بيوتكم أماكن تصلُّون فيها عند الخوف".

قال الطبري:" يقول: واجعلوا بيوتكم مساجدَ تصلُّون فيها".

قال ابن قتيبة:" أي: نحو القبلة. ويقال: اجعلوها مساجد".

وفي قوله تعالى: {وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} [يونس: ٨٧]، أربعة أقوال:

أحدها: واجعلوها مساجد تصلون فيها، لأنهم كانوا يخافون فرعون أن يصلّوا في كنائسهم ومساجدهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو مالك، والربيع بن انس، والضحاك، وابن زيد، وإبراهيم النخعي.

الثاني: واجعلوا مساجدكم قِبل الكعبة، وهذا مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك.

الثالث: واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلة لكم في الصلاة فهي قبلة اليهود إلى اليوم. حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الرابع: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير.

قال القرطبي: قوله تعالى (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال أكثر المفسرين: كان بنو إسرائيل لا يصلون إلا في مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخربت كلها ومنعوا من الصلاة؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذا وتخيرا لبني إسرائيل بيوتا بمصر، أي مساجد، ولم يرد المنازل المسكونة.

=

=

هذا قول إبراهيم وابن زيد والربيع وأبي مالك وابن عباس وغيرهم.

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا.

والقول الأول أصح؛ أي اجعلوا مساجدكم إلى القبلة؛ قيل: بيت المقدس، وهي قبلة اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر. وقيل الكعبة.

- وقال رحمه الله: المراد صلوا في بيوتكم سرا لتأمنوا، وذلك حين أخافهم فرعون، فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت، والإقدام على الصلاة، والدعاء، إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم.

والراجح في معنى الآية: اجعلوا بيوتكم محلًا للطاعة والعبادة؛ وذلك لعدة أمور منها:

١ - أن الأصل في إطلاق لفظ البيوت على بيوت السكنى، ولم يرد دلالة تدل على غير هذا.

٢ - الحال التي كان عليها بنو إسرائيل من الخوف من فرعون وملئه تجعلهم لا يستطيعون الخروج للمساجد، لقوله تعالى قبلها: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ} [يونس:٨٣].

٣ - ما روي عن إبراهيم النخعي أنه قال: (كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم).

٤ - أن فرعون أمر بتخريب المساجد؛ فأُمر موسى وأخوه باتخاذ البيوت مساجد لتخفى عن فرعون.

٥ - أن هذا القول هو المناسب للتبوؤ؛ لأن التبوؤ: السكنى.

=

=

وهذا هو ما رجحه الفراء، والطبري، والواحدي، والسعدي، وغيرهم.... وقد جاء في شرعنا الأمر بالإكثار من صلاة النافلة في البيوت وأنها أفضل من الصلاة في المساجد، كما جاء عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة).

قال الشوكاني في نيل الأوطار ٣/ ٧٤: (الحديث يدل على استحباب فعل صلاة التطوع في البيوت، وأن فعلها فيها أفضل من فعلها في المساجد، ولو كانت المساجد فاضلة كالمسجد الحرام ومسجده ﷺ ومسجد بيت المقدس).

(فائدة): قال ابن عقيل في الفنون ١/ ٢٨٣: ({قِبْلَةً}: جهة للطاعات ومستقبلًا لله سبحانه في العبادات، ومن كان مأمورًا أن يجعل بيته قبلة، وهو موضع الغفلة ومناخ البطالة، أولى أن يعقل عن الله أن يجعل مواطن العبادات محترمة عن تبديلها بأمور الدنيا، وأرى أهل زماننا جعلوا مساجدهم متاجر وأسواقًا، وجعلوا بيوتهم قبورًا).

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي قدمنا بيانه، وذلك أن الأغلب من معاني "البيوت" - وإن كانت المساجد بيوتًا -البيوت المسكونة، إذا ذكرت باسمها المطلق دون المساجد. لأن "المساجد" لها اسم هي به معروفة، خاصٌّ لها، وذلك "المساجد"، فأمّا "البيوت" المطلقة بغير وصلها بشيء، ولا إضافتها إلى شيء، فالبيوت المسكونة، وكذلك "القبلة" الأغلب من استعمال الناس إيّاها في قبل المساجد وللصلوات.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز توجيه معاني كلام الله إلا إلى الأغلب من وجوهها المستعمل بين أهل اللسان الذي نزل به، دون الخفيّ المجهول، ما لم تأت دلالة تدل على غير ذلك ولم يكن على قوله: {واجعلوا بيوتكم قبلة}، دلالةٌ تقطع العذرَ بأن معناه غير الظاهر المستعمل في كلام العرب، لم يجز لنا توجيهه

=

إلى غير الظاهر الذي وصفنا، وكذلك القول في قوله {قبلة}".

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [يونس: ٨٧]، أي:" وأدُّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها".

وروي عن مقاتل بن حيان:" قوله لأهل الكتاب: {وأقيموا الصلاة}، أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ".

قال الزهري: "إقامتها: أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها".

عن الحسن في قوله: {وأقيموا الصلاة} قال: فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة". وروي عن عطاء وقتادة نحو ذلك.

قال ابن عاشور: وأمرهم بإقامة الصلاة، أي التي فرضها الله عليهم على لسان موسى، والتي كانوا يصلونها من قبل مجيء موسى اتباعا لإبراهيم عليه السلام وأبنائه.

والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدة رحلتهم.

قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٨٧]، أي:" وبشِّر المؤمنين المطيعين لله بالنصر المؤزر، والثواب الجزيل منه سبحانه وتعالى".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام: وبشر مقيمي الصلاة المطيعي الله، يا محمد، المؤمنين بالثواب الجزيل منه".

بشارة الأمة- كما يقول الآلوسي- وظيفة صاحب الشريعة، وهي من الأعظم أسر وأوقع في النفس.

هذا، ومن التوجيهات الحكيمة التي نأخذها من هذه الآية الكريمة، أن مما يعين

=

المؤمنين على النصر والفلاح، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان، إذا لم تنفع معهم النصيحة، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم على المحبة الصادقة، وعلى الأخوة الخالصة، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا.

عن سعيد بن جبير، قوله: " {وبشر المؤمنين}، قال: بشرهم بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة".

قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ} [يونس: ٨٨]، أي:" قال موسى: يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم، زينةً من متاع

الدنيا وأثاثها، وأنواعًا كثيرة من المال، آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم وهم "الملأ"، {زينة}، من متاع الدنيا وأثاثها {وأموالا} من أعيان الذهب والفضة، ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من ذلك ليضلوا عن سبيلك".

وقرئ (ربنا ليضلوا عن سبيلك) -بفتح الياء -أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجا منك لهم، كما قال تعالى (لنفتنهم فيه).

وقرأ آخرون (ليضلوا) بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم.

- واللام في قوله (ربنا ليضلوا عن سبيلك).

قيل: هي لام العاقبة والصيرورة.

أي: أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال، ليخلصوا لك العبادة والطاعة،

=

=

وليقابلوا هذا العطاء بالشكر، ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال، فأزل يا مولانا هذه النعم من بين أيديهم.

- قال القرطبي: وأصح ما قيل فيها وهو قول الخليل وسيبويه أنها لام العاقبة والصيرورة، أي لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا.

وقيل: إن هذه اللام للتعليل.

ويكون المعنى: وقال موسى مخاطبا ربه: يا ربنا إنك قد أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا، وإنك يا ربنا قد أعطيتهم ذلك على سبيل الاستدراج ليزدادوا طغيانا على طغيانهم، ثم تأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وشبيه بهذه الجملة في هذا المعنى قوله (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين).

وقد رجح هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال: والصواب من القول في ذلك عندي أنها لام كي، ومعنى الكلام: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادك عقوبة منك لهم، وهذا كما قال تعالى (لأسقيناهم ماء غدقا. لنفتنهم فيه).

وقال أبو حيان: واللام في (ليضلوا) الظاهر أنها لام كي على معنى: آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج، فكان الإتيان لكي يضلوا.

وقيل: إن هذه اللام هي لام الدعاء، وأنها للدعاء عليهم بالزيادة من الإضلال والغواية.

فيكون المعنى: وقال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا اللهم يا ربنا زدهم ضلالا على ضلالهم.

قوله تعالى: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} [يونس: ٨٨]، أي:" ربنا اطمس على

=

=

أموالهم، فلا ينتفعوا بها".

قال ابن قتيبة:" أي: أهلكها. وهو من قولك: طمس الطريق: إذا عفا ودرس".

قال الطبري:" هذا دعاء من موسى، دعا الله على فرعون وملئه أن يغير أموالهم عن هيئتها، ويبدلها إلى غير الحال التي هي بها، وذلك نحو قوله: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} [سورة النساء: ٤٧]. يعني به: من قبل أن نغيرها عن هيئتها التي هي بها، يقال منه: "طَمَسْت عينَه أَطْمِسْها وأطمُسُها طَمْسًا وطُمُوسا". وقد تستعمل العرب "الطمس" في العفوّ والدثور، وفي الاندقاق والدروس، كما قال كعب بن زهير:

مِنْ كُلِّ نَضَّاحَةِ الذِّفْرَى إِذَا عَرِقَتْ عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأَعْلامِ مَجْهُول".

وفي قوله تعالى: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} [يونس: ٨٨]، وجهان:

أحدهما: معناه: اجعل اموالهم حجارة. قاله الربيع بن انس، ابو العالية، وسفيان، والضحاك، وأبو صالح، وابن زيد.

قال الضحاك:" جعلها الله حجارةً منقوشة على هيئة ما كانت".

قال قتادة:" بلغنا أن زروعهم تحوَّلت حجارة".

وعن القرظي:" اجعل سُكّرهم حجارة".

قال ابن زيد:" قد فعل ذلك، وقد أصابهم ذلك، طمَس على أموالهم، فصارت حجارةً، ذهبهم ودراهمهم وعَدَسهم، وكلُّ شيء".

والثاني: أن معناه: أهلكها. قاله ابن عباس، ومجاهد.

عن ابن عباس:" {ربنا اطمس على أموالهم}، يقول: دمِّر عليهم وأهلك أموالهم".

قوله تعالى: {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [يونس: ٨٨]، أي:" واختم على قلوبهم حتى لا تنشرح للإيمان".

=

=

قال الطيري:" يعني: واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان".

قال أبو عبيدة:" مجازه هاهنا كمجاز «اشدد الباب»، ألا نرى بعده: {فَلا يُؤْمِنُوا} جزم، لأنه دعاء عليهم، أي: فلا يؤمننّ".

وفي قوله تعالى: {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [يونس: ٨٨]، وجوه:

أحدها: بالضلالة ليهلكوا كفارًا فينالهم عذاب الآخرة، قاله مجاهد.

وروي عن الضحاك:" أهلكهم كفارًا".

الثاني: بإعمائها عن الرشد.

الثالث: بالموت، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الرابع: اجعلها قاسية. قاله ابن قتيبة.

والخامس: معناه: اختم على قلوبهم، حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان. وهذا معنى قول ابن عباس، وبه قال الفراء، والطبري.

قال ابن عباس:" فاستجاب الله له، وحال بين فرعون وبين الإيمان حتى أدركه الغرق، فلم ينفعه الإيمان".

قوله تعالى: {فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: ٨٨]، أي:" فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الشديد الموجع".

قال الطبري:" معناه: فلا يصدقوا بتوحيد الله ويقرُّوا بوحدانيته، حتى يروا العذاب الموجع.

قال الفراء:" قوله: فلا يؤمنوا. كل ذلك دعاء، كأنه قال اللهم فلا «٥» يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وإن شئت جعلت {فلا يؤمنوا} جوابا لمسئلة موسى عليه السلام إياه، لأن المسألة خرجت على لفظ الأمر، فتجعل {فلا يؤمنوا} في موضع نصب على الجواب، فيكون كقول الشاعر:

يا ناق سيري عنقا فسيحا إلى سليمان فنستريحا

=

=

وليس الجواب يسهل في الدعاء، لأنه ليس بشرط".
عن ابن عباس:" {فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم}، قال: الغرق".
عن مجاهد: " {فلا يؤمنوا}، بالله فيما يرون من الآيات، {حتى يروا العذابَ الأليم}".
عن المنقري: " {فلا يؤمنوا}، يقول: دعا عليهم".
- وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء، وقال: إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم.
وأجيب بأنه لا يجوز لنبي أن يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه، وإنما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن، ولهذا لما أعلم الله نوحا عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن، قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا).
- قال ابن كثير: وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا).
- وقال أبو حيان:... أو علم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال، أو علم ذلك بوحي من الله تعالى، دعا الله تعالى عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول: لعن الله إبليس وأخزى الكفرة.
كما دعا نوح على قومه حين أوحى إليه (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) وقدم بين يدي الدعاء ما آتاهم الله من النعمة في الدنيا وكان ذلك سببا للإيمان به ولشكر نعمه، فجعوا ذلك سببا لجحوده ولكفر نعمه.
- وقال السعدي: قال ذلك، غضبا عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على

=

=

ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.

قوله تعالى: {قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا} [يونس: ٨٩]، أي:" قال الله تعالى لهما: قد أجيبت دعوتكما في فرعون وملئه وأموالهم".

قال الطبري:" وهذا خبر من الله عن إجابته لموسى ﷺ وهارون دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم. يقول جل ثناؤه: {قال} الله لهما: {قد أجيبت دعوتكما}، في فرعون وملئه وأموالهم.

فإن قال قائل: وكيف نسبت "الإجابة" إلى اثنين و"الدعاء"، إنما كان من واحد؟

قيل: إن الداعي وإن كان واحدًا، فإن الثاني كان مؤمِّنًا، وهو هارون، فلذلك نسبت الإجابة إليهما، لأن المؤمِّن داع... وقد زعم بعض أهل العربية، أن العرب تخاطب الواحد خطاب الاثنين، وأنشد في ذلك:

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لا تُعْجَلانَا بِنَزْعِ أُصُولِهِ وَاجْتَزَّ شِيحَا"

قال الزجاج:" يروى في التفسير أن موسى دعا، وأن هارون أمن على دعائه، وفي الآية دليل أنهما دعوا جميعا لأن قوله: {قد أجيبت دعوتكما} يدل أن الدعوة منهما جميعا، والمؤمن على دعاء الداعي داع أيضا لأن قوله «آمين» تأويله: استجب فهو سائل كسؤال الداعي".

قال عكرمة:" كان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فذلك قوله: {قد أجيبت دعواتكما}".

عن ابي صالح: " {قد أجيبت دعوتكما} قال: دعا موسى، وأمن هارون". وروي عن الربيع بن انس مثله.

عن محمد بن كعب قال: "دعا موسى، وأمَّن هارون". وروي عن ابي العالية مثله.

قال ابن زيد:" كان هارون يقول: آمين فقال الله: {قد أجيبت دعوتكما}، فصار التأمين دعوة صار شريكه فيها".

=

=

قال السعدي: هذا دليل على أن موسى كان يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن، يكون شريكا للداعي في ذلك الدعاء.

قوله تعالى: {فَاسْتَقِيمَا} [يونس: ٨٩]، أي:" فاستقيما على دينكما، واستمرَّا على دعوتكما فرعون وقومه إلى توحيد الله وطاعته.

قال الطبري:" وأما قوله: {فاستقيما}، فإنه أمرٌ من الله تعالى لموسى وهارون بالاستقامة والثبات على أمرهما، من دعاء فرعون وقومه إلى الإجابة إلى توحيد الله وطاعته، إلى أن يأتيهم عقاب الله الذي أخبرهما أنه أجَابَهما فيه".

قال الفراء:" أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة. ويقال: إنه كان بينهما أربعون سنة".

قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة".

وفي قوله تعالى: {فَاسْتَقِيمَا} [يونس: ٨٩]، وجهان:

أحدهما: فامضيا لأمري فخرجا في قومهم، قاله ابن عباس، السدي.

عن ابن عباس: " {فاستقيما}: فامضيا لأمري، وهي الاستقامة".

قال أسباط: "فزعم السدي أن موسى هو الذي دعا وأمن هارون فذلك حين يقول الله: {قد أجيبت دعوتكما فاستقيما} فخرجا في قومهم".

الثاني: فاستقيما في دعوتكما على فرعون وقومه، وحكاه علي بن عيسى.

قال الماوردي:"وقيل: إنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن لأن دعاءه موجب لحلول الانتقام وقد يجوز أن يكون فيهم من يتوب".

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [يونس: ٨٩]، أي:" ولا تسلكا طريق مَن لا يعلم حقيقة وعدي ووعيدي.

قال الطبري:" يقول: ولا تسلكانّ طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي، فتستعجلان قضائي، فإن وعْدي لا خلف له، وإن وعيدي نازلٌ بفرعون وعذابي واقع به

=

=

وبقومه".

قال مقاتل:" يعني: طريق الذين لا يعلمون بأن الله وحده لا شريك له- يعني أهل مصر".

قوله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ} [يونس: ٩٠]، أي:" وقطَعْنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه".

قال البيضاوي:" أي: جوزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم".

وقرئ «جوزنا» وهو من فعل المرادف لفاعل كـ «ضعف وضاعف».

قوله تعالى: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا} [يونس: ٩٠]، أي:" فأتبعهم فرعون وجنوده ظلمًا وعدوانًا، فسلكوا البحر وراءهم".

قال الطبري:" يقول: فتَبعهم فرعون {وجنوده}، {بغيًا} على موسى وهارون ومن معهما من قومهما من بني إسرائيل، {وعدْوًا}، يقول: واعتداء عليهم".

قال البيضاوي:" فأتبعهم فأدركهم يقال تبعته حتى أتبعته. فرعون وجنوده، {بغيا وعدوا}، باغين وعادين، أو للبغي والعدو".

قال القرطبي:" يقال: تبع وأتبع بمعنى واحد، إذا لحقه وأدركه. و «اتبع» -بالتشديد- إذا سار خلفه. وقال الأصمعي: «أتبعه» -بقطع الألف- إذا لحقه وأدركه، و «اتبعه» -بوصل الألف- إذا اتبع أثره، أدركه أو لم يدركه. وكذلك قال أبو زيد، وقيل: «اتبعه» -بوصل الألف- في الأمر اقتدى به. وأتبعه -بقطع الألف- خيرا أو شرا، هذا قول أبي عمرو. وقد قيل هما بمعنى واحد... فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا، وتبعه فرعون مصبحا في ألفي ألف وستمائة ألف، {بَغْيًا وَعَدْوًا}، أي: في حال بغي واعتداء وظلم".

وقرأ قتادة: «فاتبعهم» بوصل الألف، وقرئ «وعدوا».

=

=

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ} [يونس: ٩٠]، أي:" حتى إِذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك".

قال القرطبي:" أي: ناله ووصله".

قال الطبري:" يقول: حتى إذا أحاط به الغرق -وفي الكلام متروك، قد ترك ذكره لدلالة ما ظهر من الكلام عليه، وذلك: "فأتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعدوًا فيه"= فغرقناه {حتى إذا أدركه الغرق}".

قوله تعالى: {قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ} [يونس: ٩٠]، أي:" قال: أقررتُ وصدقتُ بأنه أنه لا إله إلا الذي آمنت وأقرت به بنو إسرائيل".

قال القرطبي:" أي صدقت بأنه {لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل}، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف، أي آمنت فقلت إنه، والإيمان لا ينفع حينئذ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس، وأما بعدها وبعد المخالطة فلا تقبل".

وقرأ الكوفيون: «آمَنْتُ إِنَّهُ» بكسر الألف من «إنه» على ابتداء الخبر.

قوله تعالى: {وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٩٠]، أي:" وأنا من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة".

عن ابن عباس: "أن النبي ﷺ قال: لما أغرق الله فرعون قال: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل}، فقال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حَالِ البحر وأدَسِّيه في فيه، مخافة أن تدركه الرحمة".

قال الخازن: والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل - عليه السلام -، وقيل الملائكة، وقيل: إن القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى (فاليوم ننجيك ببدنك). والقول الأول أشهر ويعضده ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال (لما أغرق الله فرعون قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل

=

=

قال جبريل يا محمد فلو رأتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة).

- وقال الشوكاني: وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل: هي من قول الله سبحانه، وقيل: من قول جبريل، وقيل: من قول ميكائيل، وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه.

- فآمن حيث لا ينفعه الإيمان: فعند الاحتضار لا تقبل التوبة.

عن عبد الله بن شداد قال: "اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف، وهم اثنان وسبعون، وخرجوا مع موسى من مصر حين خرجوا وهم ست مائة ألف، فلما أدركهم فرعون فرأوه قالوا: يا موسى أين المخرجُ؟ فقد أدركنا، قد كنا نلقى من فرعون البلاء؟ فأوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرْق كالطود العظيم، ويبس لهم البحرُ، وكشف الله عن وجه الأرض، وخرج فرعون على فرس حِصان أدهَم على لونه من الدُّهم ثمان مائة ألف سوى ألوانها من الدوابّ، وكانت تحت جبريل عليه السلام فرسٌ ودِيق ليس فيها أنثى غيرها، وميكائيل يسوقهم، لا يشذُّ رجل منهم إلا ضمّه إلى الناس. فلما خرج آخر بني إسرائيل، دنا منه جبريل ولَصِق به، فوجد الحصان ريح الأنثى، فلم يملك فرعون من أمره شيئًا، وقال: أقدموا، فليس القومُ أحقُّ بالبحر منكم! ثم أتبعهم فرعون، حتى إذا همّ أوّلهم أن يخرجوا، ارتطم ونادى فيها: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين}، ونودي: {آلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين}".

قال القرطبي:" يقال: إن فرعون هاب دخول البحر وكان على حصان أدهم ولم يكن في خيل فرعون فرس أنثى، فجاء جبريل على فرس وديق أي شهي - في صورة هامان وقال له: تقدم، ثم خاض البحر فتبعها حصان فرعون، وميكائيل

=

=

يسوقهم لا يشذ منهم أحد، فلما صار آخرهم في البحر وهم أولهم أن يخرج انطبق عليهم البحر، وألجم فرعون الغرق فقال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، فدس جبريل في فمه حال البحر. وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. حال البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرضه، قاله أهل اللغة. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه ذكر: «أن جبريل جعل يدس في في فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه». قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال عون بن عبد الله: بلغني أن جبريل قال للنبي ﷺ: ما ولد إبليس أبغض إلي من فرعون، فإنه لما أدركه الغرق قال:" آمنت" الآية، فخشيت أن يقولها فيرحم، فأخذت تربة أو طينة فحشوتها في فيه. وقيل: إنما فعل هذا به عقوبة له على عظيم ما كان يأتي. وقال كعب الأحبار: أمسك الله نيل مصر عن الجري في زمانه. فقالت له القبط: إن كنت ربنا فأجر لنا الماء، فركب وأمر بجنوده قائدا قائدا وجعلوا يقفون على درجاتهم وقفز «٢» حيث لا يرونه ونزل عن دابته ولبس ثيابا له أخرى وسجد وتضرع لله تعالى فأجرى الله له الماء، فأتاه جبريل وهو وحده في هيئة مستفت وقال: ما يقول الأمير في رجل له عبد قد نشأ في نعمته لا سند له غيره، فكفر نعمه وجحد حقه وادعى السيادة دونه، فكتب فرعون: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريان جزاؤه أن يغرق في البحر، فأخذه جبريل ومر فلما أدركه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس مسندا، وكان هذا في يوم عاشوراء".

قوله تعالى: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٩١]، أي:"

=

=

الآن تؤمن حين يئست من الحياة، وقد عصيت الله قبل نزول نقمته بك، وكنتَ من الغالين في الضلال والإضلال والصدِّ عن دين الله؟".

قال ابن قتيبة:" أي أفي هذا الوقت وفي هذا الأوان تتوب وقد عصيت قبل؟".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره، معرِّفًا فرعون قبح صَنيعه أيّام حياته وإساءته إلى نفسه أيام صحته، بتماديه في طغيانه، ومعصيته ربه، حين فزع إليه في حال حلول سَخطه به ونزول عقابه، مستجيرًا به من عذابه الواقع به، لما ناداه وقد علته أمواج البحر، وغشيته كرَبُ الموت: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} له، المنقادين بالذلة له، المعترفين بالعبودية، الآن تقرُّ لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهة، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض، الصادِّين عن سبيله؟ فهلا وأنت في مَهَل، وباب التوبة لك منفتح، أقررت بما أنت به الآن مقرٌّ؟".

قال الزمخشري: أي:" أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك... {من المفسدين}، من الضالين المضلين عن الإيمان، قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعنى حين أوشك أن يغرق. وقيل:

قاله بعد أن غرق في نفسه. والذي يحكى أنه حين قال آمنت أخذ جبريل من حال البحر فدسه في فيه، فللغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه".

عن قتادة، قوله: " {آلآن وقد عصيت قبل}، أي: لو كان هذا في الرخاء وكنت من المفسدين".

قال السدي: "فبعث الله ميكائيل يعيره، فقال: {آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين}".

عن ميمون بن مهران قال: "خطب الضحاك بن قيس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال: {آمنت أنه

=

=

لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين}، قال الله: {آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين}".

قال تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما).

فقوله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) أي: وليس قبول التوبة ممن ارتكب السيئات والمنكرات واستمر عليها، (حتى إذا حضر أحدهم الموت) أي: حتى إذا فاجأهم الموت وحضرت أسبابه وعلاماته وبلغت الحلقوم، (قال إني تبت الآن) أي: قال في هذه الحال حضور الموت، واليأس من الحياة، إني تبت الآن، فهؤلاء لا تنفعهم توبتهم في هذه الحال، لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين).

وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون).

وقال ﷺ (إن الله - ﷻ - يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) أي تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله.

- **قال السعدي**: فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله، أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم، لأن إيمانهم، صار إيمانا مشاهدا كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع، إنما هو الإيمان بالغيب.

قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ} [يونس: ٩٢]، أي:" فاليوم نجعلك على

=

=

مرتفع من الأرض ببدنك، ينظر إليك من كذَّب بهلاكك".

- قال الماوردي: قوله تعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) معنى ننجيك نلقيك على نجوة من الأرض، والنجوة المكان المرتفع.

قال أبو عبيدة:" مجازه: نلقيك على نجوة، أي ارتفاع ليصر علما أنه قد غرق".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لفرعون: اليوم نجعلك على نَجْوةٍ من الأرض ببدنك، ينظر إليك هالكًا من كذّب بهلاكك... و «النجوة»: الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض، ومنه قوله أوس بن حجر:

فَمَــنْ بِعَقْوَتِــهِ كَمَــنْ بِنْجْوَتِــهِ وَالمُسْتَكِنُّ كَمَـنْ يَمْـشِي بِقِـرْوَاحِ"

وفي قوله تعالى: {بِبَدَنِكَ} [يونس: ٩٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: يعني: بجسدك من غير روح، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وعبد الله بن شداد، وابن قتيبة.

قال ابن عباس:" لما جاوز موسى البحرَ بجميع من معه، التقى البحرُ عليهم - يعني على فرعون وقومه - فأغرقهم، فقال أصحاب موسى: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق، ولا نؤمن بهلاكه! فدعا ربّه فأخرجه فنبذه البحر، حتى استيقنوا بهلاكه".

الثاني: بدرعك، وكان له درع من حديد يعرف بها، قاله أبو صخر.

والثالث: أنه "شيء كان فرعون يلبسه يقال له: «البدن»". رواه المفضل بن أبي موسى ابن سالم عن أبيه.

عن قيس بن عباد وغيره قال: "قالت بنو إسرائيل لموسى: إنه لم يمت فرعون! قال: فأخرجه الله إليهم ينظرون إليه مثل الثور الأحمر".

وقرأ يزيد اليزيدي: «نُنَجِّيكَ» بالحاء غير معجمة وحكاها علقمة عن ابن مسعود.

قال مقاتل:" وذلك أنه لما غرق القوم قالت بنو إسرائيل: إنهم لم يغرقوا فأوحى

=

=

الله إلى البحر فطفا بهم على وجهه فنظروا إلى فرعون على الماء فمنذ يومئذ إلى يوم القيامة تطفوا الغرقى على الماء".

قال ابن عباس:" إن فرعون لم يغرق وكان نجاه عبرة لم يكن نجاه عافية ثم أوحى إلى البحر أن الفظ ما فيك فلفظهم على الراجل حتى رآهم من قال: إن فرعون لم يغرق وأصحابه وكان البحر لا يلفظ غريقا يبقى في بطنه حتى يأكله السمك فليس يقبل البحر غريقا إلى يوم القيامة".

قوله تعالى: {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} [يونس: ٩٢]، أي:" لتكون لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك".

قال السدي:" لبني إسرائيل آية".

وقال مقاتل:" يعني: لمن بعدك إلى يوم القيامة آية يعني علما".

قال أبو عبيدة:" أي: علامة، ومجاز خلفك: بعدك".

قال الطبري:" يقول: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك،، فينزجرون عن معصية الله، والكفر به والسعي في أرضه بالفساد".

قال قتادة:" قال: لما أغرق الله فرعون لم تصدِّق طائفة من الناس بذلك، فأخرجه الله آيةً وعظةً".

- **قال الشوكاني:** قوله تعالى (لتكون لمن خلفك ءاية) هذا تعليل لتنجيته ببدنه، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى، والمراد بالآية: العلامة، أي لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك، وأنك لست كما تدعي، ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتا بالغرق.

وقيل: المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله، يعتبر بها الناس، أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك، حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ

=

=

إليه من دعوى الإلهية، واستمر على ذلك دهرا طويلا كانت له هذه العاقبة القبيحة.

- قال الرازي: قوله تعالى (لتكون لمن خلفك ءاية) ففيه وجوه:

الأول: أن قوما ممن اعتقدوا فيه الإلهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لا يموت، فأظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم.

وقيل كان مطرحه على ممر بني إسرائيل.

الثاني: لا يبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله (أنا ربكم الأعلى) ليكون ذلك زجرا للخلق عن مثل طريقته، ويعرفوا أنه كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره إلى ما يرون.

قوله تعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [يونس: ٩٢]، أي:" وإن كثيرًا من الناس عن حججنا وأدلتنا لَغافلون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون".

قال الطبري:" يعني: عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة والألوهة لنا خالصةٌ لساهون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {آياتنا}، يعني: القرآن".

- وقد كان إهلاك فرعون وملئه يوم عاشوراء:

عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه.

(فائدة): قال ابن كثير رحمه الله: (قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويا بلا روح، وعليه درعه المعروفة، على نجوة من الأرض، وهو المكان المرتفع،

=

=

ليتحققوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى: (فاليوم ننجيك) أي: نرفعك على مكان بارز من الأرض، (ببدنك) قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا: أي لم يتمزق، ليتحققوه ويعرفوه، وقال أبو صخر: بدرعك. وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها كما تقدم والله أعلم.
وقوله: " لتكون لمن خلفك آية " أي: لتكون لبني إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٥). بتصرف.
وكذلك كان، فقد رأى بنو إسرائيل فرعون ميتا رأي العين، فكان آية لمن رآه حينها، وكان آية لكل من سمع بقصة هلاكه ممن بعدهم !!
وليس في الآية ما يدل على أن بدنه سيبقى محفوظا إلى يوم القيامة، كما يتوهم بعض الناس، فإن ذلك من تحميل القرآن ما لا يحتمل، إذ لو كان المقصود بقاء جسد فرعون آية لجميع الناس بعده، يرونه ميتا ويعاينون جثته، لبقيت جثته معروفة ظاهرة لكل " من خلفه"، ممن سمع بقصته، حتى تتم العبرة، وتظهر الآية، ويصدق الوعد؛ فأين ذهبت قصته عن الناس، حتى عفا أثرها، وزال ذكرها قرونا متطاولة، قبل أن يدعي أهل الآثار أنهم اكتشفوا جثة فرعون الذي مات غرقا ؟!!.
وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: قال بعض الناس في قوله تعالى: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً [يونس:٩٢] إن هذه الآية تدل على أن فرعون ما زالت جثمانه موجودة في الأهرامات، وبعضهم يزور ويقول: رأينا الجثمان، وبعض العلماء يقولون هذا، هل كلامهم هذا له مستند؟.
فأجاب: ليس لهم مستند إطلاقًا، لكن الذين يريدون أن يفتخروا بآثار الفراعنة – وبئس ما فخروا وفرحوا به– هم الذين يقولون: إن فرعون صاحب موسى موجود في الأهرامات، هذا كذب وكلام لا أصل له، رجل في وسط البحر وفي عذاب كيف

=

=

يمكن لأحد أن يجرأ على أن يستخرج هذه الجثة من البحر؟ هل يمكن؟! وأين الأدوات وأين الآلات التي تحفظه حتى يأتي من يبني الأهرام ويجعله في الأهرام؟ أين هذا؟! هذا كذب وباطل. لكن كما قلت: الذين صار فيهم جنون حب الآثار هم الذين يأخذون مثل هذا. ثم أي فخر لنا -أيها الإخوان- في جسد أهلكه الله ﷻ، كذب الله وكذب رسوله؟ أي فخر لنا بهذا؟ لا فخر بهذا، لكن الله نجى فرعون ببدنه؛ لأن بني إسرائيل كان فرعون قد أرهبهم وأخافهم، وتعرفون الإنسان إذا كان أمامه من يخافه لا يطمئن قلبه حتى يراه هالكًا ميتًا، لأنه يلقي الشيطان في قلبه أن فرعون نجا، وفرعون سوف يرجع إليكم يا بني إسرائيل! ويفعل فيكم كذا وكذا، فقوله: (لمن خلفك) أي: لبني إسرائيل، و(لمن خلفك) أي: في نفس الوقت، ولا يبعد أن تكون هناك قراءة ولكن لا تحضرني الآن هل هناك قراءة (لمن خَلَفَكَ) أي: لمن خَلَفَكَ في أرضك، والذين خلفوه في أرضه هم بنو إسرائيل في وقته، لكن لا أدري عن هذه الآية، لا تعتمدوا أنها قراءة لا أذكر، لكن (لمن خلفك) أي: من بني إسرائيل في ذلك الوقت.

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: (ومعنى قوله تعالى: (لتكون لمن خلفك آية) أي: لتكون لبني إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، لا يقدر أحد على التخلص من عقوبته، ولو كان ذا سلطة ومكانة بين الناس.

ولا يلزم من هذا أن تبقى جثة فرعون إلى هذا الزمان، كما يظنه الجهال؛ لأن الغرض من إظهار بدنه من البحر معرفة هلاكه وتحقق ذلك لمن شك فيه من بني إسرائيل، وهذا الغرض قد انتهى، وجسم فرعون كغيره من الأجسام، يأتي عليه الفناء، ولا يبقى منه إلا ما يبقى من غيره، وهو عجب الذنب، الذي منه يركب خلق الإنسان يوم القيامة؛ كما في الحديث؛ فليس لجسم فرعون ميزة على غيره

=

=

من الأجسام. والله أعلم) "المنتقى من فتاوى الفوزان" (١/ سؤال رقم ١٣٢).

ولكن يقال هنا: إن حصل وظهرت جثة فرعون من جديد، وثبت بكلام أهل الخبرة بالتاريخ والآثار أنها الجثة التي ذكر الله في كتابه، فإنما يكون ذلك إشارة إلى صدق ما أخبر به القرآن من نجاة بدن فرعون.

يقول العلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله: (ومن دقائق القرآن قوله تعالى: " فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية"، وهي عبارة لم يأت مثلها فيما كتب من أخبار فرعون؛ وإنها لمن الإعجاز العلمي في القرآن، إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٦٥).

والخلاصة: أن بدن فرعون نجا يومها من الضياع أو التحلل، ولا يعني ذلك لزوم بقائه محفوظا إلى يوم القيامة، فمن ثبت عنده من أهل العلم بالآثار والتاريخ أن بدن فرعون ما زال محفوظا اليوم، وهو الذي يعرض في بعض المتاحف، فلا يجوز أن يدعي أن هذا الحفظ إنما هو معجزة من الله للناس جميعا، وإنما هو فقط تصديق تاريخي جاء موافقة لما في القرآن الكريم، وذلك هو الإعجاز.

(منبهة): قال الله تعالى: (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين (٩٠)) [يونس: ٩٠].

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) فقال جبريل: يا محمد، فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه أحمد (١/ ٢٤٥)، والطيالسي في مسنده (٢٦١٨)، والترمذي (٣١٠٧)، والطبري في تفسيره (١١/ ١٦٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٥٦١)، وعبد بن حميد (٦٦٤)، والطبراني (١٢/ ٢١٦)، وابن حبان (٦٢١٥)، والحاكم (٤/ ٢٧٨)، والبيهقي

=

=

في الشعب (٩٣٩٣)، والخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ١٠٢) والحديث حسنه الجورقاني في الأباطيل (٢/ ٣٢١)، وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٣٨) له طرق، وصححه الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف (ص ٨٥)، وكذا صححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣/ ١٤)، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٢٠١٥) قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس، ووافقه الذهبي. قلت (أي الألباني): وهذا لا يعله، فقد رفعه عنه جمع من الثقات منهم الطيالسي كما رأيت، ومنهم خالد بن الحارث عند الترمذي والحاكم والنضر بن شميل عند الحاكم أيضا، ومحمد بن جعفر - غندر - عند أحمد، وقد علم أن زيادة الثقة مقبولة. ولاسيما وقد وجدت له طريقا أخرى، و شاهدا، وصححه الحويني في مجلة التوحيد (جماد آخر / ١٤١٩ هـ).

(تنبيه) قال الزمخشري في الكشاف (٢/ ٢٠٢): والذي يحكي أنه حين قال: {ءامنت} أخذ جبريل من حال البحر فدسه في فيه، فللغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه. وأما ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله فمن زيادات الباهتين لله وملائكته: وفيه جهالتان، إحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه. والأخرى: أن من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر لأن الرضا بالكفر كفر ا.هـ

فتعقبه الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف (ص ٨٥ - ٨٦) بقوله: وهذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغض من أهله، فإن الحديث صحيح الزيادات، وقد أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وإسحاق، والبزار، وأبو داود الطيالسي كلهم من رواية شعبة... ثم ساق الروايات بأسانيدها - ثم قال: وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري، فللحديث توجيه وجيه، لا يلزم منه ما ذكره

=

=

الزمخشري، وذلك أن فرعون كان كافرا كفر عناد.. ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل، وكيف توجه منفردا وأظهر أنه مخلص، فأجرى له النيل، ثم تمادى على طغيانه وكفره، فخشي جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه فتدركه رحمة الله فيؤخره في الدنيا، فيستمر في غيه وطغيانه فدس في فمه الطين، ليمنعه التكلم بما يقتضي ذلك. هذا وجه الحديث، ولا يلزم منه جهل ولا رضا بكفر. بل الجهل كل الجهل ممن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد. وأيضا: فإن إيمانه في تلك الحالة -على تقدير أنه كان صادقا- بقلبه لا يقبل، لأنه وقع في حال الاضطرار، ولذلك عقب في الآية بقوله: "الآن وقد عصيت قبل" وفيه إشارة في قوله تعالى: "فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ا. هـ وتعقبه الإمام المصنف هنا بما تراه.

وتعقبه الشوكاني في فتح القدير بقوله: والعجب كل العجب ممن لا علم له بفنّ الرواية من المفسرين، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث رسول الله ﷺ والحكم ببطلان ما صح منها، ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت، والقصور الفاضح الذي يضحك منه، كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث، فيا مسكين مالك ولهذا الشأن الذي لست منه في شيء؟ ألا تستر نفسك وتربع على ضلعك، وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين، وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه، وحاصلك الذي ليس لك غيره، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية، ولقد صار صاحب الكشاف رحمه الله، بسبب ما يتعرّض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد، ولا صدر، سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين، فتارة يروي في كتابه الموضوعات، وهو لا يدري أنها موضوعات، وتارة يتعرض لردّ ما صح، ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله ﷺ والبهت عليه، وقد يكون في الصحيحين

=

=

وغيرهما، مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج، وأدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه، ولا يدري به أقلّ دراية، وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتواضع عليها طائفة من الناس، ويصطلحون على أمور فيما بينهم، فما بالك بعلم السنة الذي هو قسيم كتاب الله، وقائله رسول الله ﷺ، وراويه عنه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عامّ، لجميع أهل الإسلام.

* أورد على الحديث عدة إشكالات:

الأول: أنه لا يجوز لجبريل عليه السلام أن يمنع فرعون من التوبة، بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة.

الثاني: أنه لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر، والرضا بالكفر كفر.

الثالث: أنه لا يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان.

الرابع: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه.

الخامس: أن التوبة بعد المعاينة غير نافعة لفرعون؛ فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب إلى جبريل فائدة.

* مسالك العلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث:

للعلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث مسلكان:

الأول: مسلك قبول الحديث مع توجيهه.

وعلى هذا المسلك جمهور العلماء من مفسرين ومحدثين، وقد ذكروا عدة أجوبة في توجيه الحديث:

الأول: أن فرعون كان كافرا كفر عناد؛ فإنه حينما توقف النيل توجه منفردا وأظهر أنه مخلص؛ فأجري له النيل، ثم تمادى على طغيانه وكفره، فخشي جبريل أن

=

=

يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه؛ فتدركه رحمة الله، فيؤخره في الدنيا، فيستمر على غيه وطغيانه، فدس في فمه الطين ليمنعه من التكلم بما يقتضي ذلك، ولا يلزم من فعل جبريل جهل ولا رضا بكفر، وأيضا فإيمانه في تلك الحالة على تقدير أنه كان صادقا بقلبه لا يقبل منه؛ لأنه وقع في حال الاضطرار، ولذلك عقب الآية بقوله تعالى: (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين (٩١)) [يونس: ٩١]، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) [غافر: ٨٥]. وهذا جواب الحافظ ابن حجر.

الجواب الثاني: أن فعل جبريل يشبه أن يكون أنه اعتقد تجويز المغفرة للتائب وإن عاين، ولم يكن عنده قبل إعلام من الله تعالى أن التوبة بعد المعاينة غير نافعة.

وهذا جواب القاضي ابن عطية.

الجواب الثالث: أن الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الإيمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق، ورده للإيمان لما جاءه، وأما فعل جبريل من دس الطين في فيه فإنما فعل ذلك بأمر الله لا من تلقاء نفسه.

وهذا جواب الخازن.

الجواب الرابع: أن المراد بالرحمة في الحديث الرحمة الدنيوية، أي النجاة التي هي طلبة المخذول، وليس من ضرورة إدراكها صحة الإيمان حتى يلزم من كراهته مالا يتصور في شأن جبريل عليه السلام، من الرضا بالكفر، إذ لا استحالة في ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الإيمان، وإن كان ذلك في حالة البأس واليأس، فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد، لكمال الغيظ وشدة الحرد.

وهذا جواب أبي السعود.

وتعقبه الآلوسي فقال: «ولا يخفى أن حمل الرحمة على الرحمة الدنيوية بعيد،

=

=

ويكاد يأبى عنه ما أخرجه ابن جرير والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل عليه السلام: لو رأيتني يا محمد وأنا أغط فرعون بإحدى يدي وأدس من الحال في فيه، مخافة أن تدركه رحمة الله تعالى؛ فيغفر له»، فإنه رتب فيه المغفرة على إدراك الرحمة، وهو ظاهر في أنه ليس المراد بها الرحمة الدنيوية؛ لأن المغفرة لا تترتب عليها وإنما يترتب عليها النجاة». اهـ

الجواب الخامس: أنه فعل ذلك غضبا لله تعالى، لا أنه كره إيمان فرعون.

وهذا جواب المناوي.

المسلك الثاني: مسلك تضعيف الحديث ورده.

وممن جنح إلى هذا المسلك: الزمخشري، والفخر الرازي.

قال الزمخشري: «والذي يحكى أنه حين قال: (آمنت) أخذ جبريل من حال البحر فدسه في فيه، فللغضب لله على الكافر، في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه، وأما ما يضم إليه من قولهم: «خشية أن تدركه رحمة الله»، فمن زيادات الباهتين لله وملائكته، وفيه جهالتان: إحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب، كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أن من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر؛ لأن الرضا بالكفر كفر». اهـ

وارتضى هذا القول ابن المنير؛ فإنه عقب على كلام الزمخشري قائلا: «ولقد أنكر منكرا، وغضب لله ولملائكته كما يجب لهم». اهـ

وقال الفخر الرازي: «السؤال الثالث: هل يصح أن جبريل أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضبا عليه؟ والجواب: الأقرب أنه لا يصح؛ لأن في تلك الحالة إما أن يقال: التكليف كان ثابتا، أو ما كان ثابتا، فإن كان ثابتا لم يجز على جبريل عليه السلام أن يمنعه من التوبة، بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة، وأيضا فلو منعه بما ذكروه لكانت التوبة ممكنة؛ لأن الأخرس قد يتوب بأن يندم

=

=

بقلبه ويعزم على ترك معاودة القبيح، وحينئذ لا يبقى لما فعله جبريل عليه السلام فائدة، وأيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر، والرضا بالكفر كفر، وأيضا فكيف يليق بالله تعالى أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام: (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٤)) [طه: ٤٤]، ثم يأمر جبريل عليه السلام بأن يمنعه من الإيمان، ولو قيل: إن جبريل عليه السلام إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله تعالى فهذا يبطله قول جبريل: (وما نتنزل إلا بأمر ربك) [مريم: ٦٤]، وأما إن قيل: إن التكليف كان زائلا عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الفعل الذي نسب جبريل إليه فائدة أصلا». اهـ

وقد تعقب العلماء هذه الجرأة من الزمخشري والرازي في ردهما للحديث وإنكاره.

فقال الحافظ ابن حجر في رده على الزمخشري: «هذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغض من أهله، فإن الحديث صحيح بالزيادة...". اهـ

وقال الخازن في رده على الرازي: «أما قول الإمام: «إن التكليف هل كان ثابتا في تلك الحالة أم لا؟ فإن كان ثابتا لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة»، فجوابه: أن هذا القول لا يستقيم على أصل المثبتين للقدر، القائلين بخلق الأفعال لله، وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر، فإنهم يقولون: إن الله يحول بين الكافر والإيمان، ويدل على ذلك قوله تعالى: (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) [الأنفال: ٢٤]، وقوله تعالى: (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم) [البقرة: ٨٨]، وقال تعالى: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) [الأنعام: ١١٠]، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه قلب أفئدتهم مثل تركهم الإيمان به أول مرة، وهكذا فعل بفرعون، منعه من الإيمان عند الموت جزاء على تركه الإيمان أولا، فدس الطين في فم فرعون من جنس الطبع

=

=

والختم على القلب، ومنع الإيمان وصون الكافر عنه، وذلك جزاء على كفره السابق، وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله.

ومن المنكرين لخلق الأفعال من اعترف أيضا أن الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق؛ فيحسن منه أن يضله ويطبع على قلبه ويمنعه من الإيمان.

فأما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فإنها من هذا الباب، فإن غاية ما يقال فيه: إن الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الإيمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق، ورده للإيمان لما جاءه.

وأما فعل جبريل من دس الطين في فيه فإنما فعل ذلك بأمر الله لا من تلقاء نفسه.

وأما قول الإمام: «لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة»، فالجواب: أن هذا إذا كان تكليف جبريل كتكليفنا، يجب عليه ما يجب علينا، وأما إذا كان جبريل إنما يفعل ما أمره الله به، والله سبحانه وتعالى هو الذي منع فرعون من الإيمان، وجبريل منفذ لأمر الله، فكيف لا يجوز له منع من منعه الله من التوبة، وكيف يجب عليه إعانة من لم يعنه الله، بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، حين لا ينفعه الإيمان.

وقد يقال: إن جبريل عليه السلام إما أن يتصرف بأمر الله فلا يفعل إلا ما أمر الله به، وإما أن يفعل ما يشاء من تلقاء نفسه لا بأمر الله، وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه إعانة فرعون على التوبة، ولا يحرم عليه منعه منها؛ لأنه إنما يجب عليه فعل ما أمر به، ويحرم عليه فعل ما نهي عنه، والله سبحانه وتعالى لم يخبر أنه أمره بإعانة فرعون، ولا حرم عليه منعه من التوبة، وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا.

وقوله: «وإن كان التكليف زائلا عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى هذا الذي نسب إلى جبريل فائدة»، جوابه: أن يقال: إن للناس في تعليل أفعال الله

=

=

قولين:

أحدهما: أن أفعاله لا تعلل، وعلى هذا التقدير فلا يرد هذا السؤال أصلا، وقد زال الإشكال.

والقول الثاني: أن أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح التي لأجلها فعلها، وكذا أوامره ونواهيه، لها غاية محمودة محبوبة لأجلها أمر بها ونهى عنها، وعلى هذا التقدير قد يقال لما قال فرعون: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وقد علم جبريل أنه ممن حقت عليه كلمة العذاب، وأن إيمانه لا ينفعه دس الطين في فيه لتحقق معاينته للموت، فلا تكون تلك الكلمة نافعة له، وأنه وإن كان قالها في وقت لا ينفعه فدس الطين في فيه تحقيقا لهذا المنع، والفائدة فيه تعجيل ما قد قضي عليه، وسد الباب عنه سدا محكما، بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ، ولا يبقى من عمره زمن يتسع للإيمان، فإن موسى عليه السلام لما دعا ربه بأن فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، والإيمان عند رؤية العذاب غير نافع، أجاب الله دعاءه.

فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين في فيه ليبأس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة، وتحقق إجابة الدعوة التي وعد الله موسى بقوله: (قال قد أجيبت دعوتكما) [يونس: ٨٩]، فيكون سعي جبريل في تكميل ما سبق في حكم الله أنه يفعله، ويكون سعي جبريل في مرضاة الله سبحانه وتعالى، منفذا لما أمره به وقدره وقضاه على فرعون.

وأما قوله: «لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر»، فجوابه: ما تقدم من أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وجبريل إنما يتصرف بأمر الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله به، وإذا كان جبريل قد فعل ما أمره الله به ونفذه فإنما رضي بالأمر لا بالمأمور به، فأي كفر يكون هنا، وأيضا: فإن الرضا

=

=

بالكفر إنما يكون كفرا في حقنا؛ لأنا مأمورون بإزالته بحسب الإمكان، فإذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفرا في حقنا لمخالفتنا ما أمرنا به.

وأما من ليس مأمورا كأمرنا، ولا مكلفا كتكليفنا، بل يفعل ما يأمره به ربه؛ فإنه إذا نفذ ما أمره به لم يكن راضيا بالكفر، ولا يكون كفرا في حقه، وعلى هذا التقدير فإن جبريل لما دس الطين في في فرعون كان ساخطا لكفره، غير راض به، والله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد، خيرها وشرها، وهو غير راض بالكفر، فغاية أمر جبريل مع فرعون أن يكون منفذا لقضاء الله وقدره في فرعون من الكفر، وهو ساخط له غير راض به.

وقوله: «كيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان» فجوابه: أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل.

وأما قوله: «وإن قيل: إن جبريل إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله... » فجوابه: أنه إنما فعل ذلك بأمر الله، منفذا لأمر الله، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه». اهـ

والذي يظهر صوابه - والله تعالى أعلم - أن فعل جبريل عليه السلام هو من باب الغضب لله تعالى، ولم يقصد في فعله هذا منع فرعون من الإيمان، وفعله هذا مأذون له فيه، بدليل إقرار الله له، والله تعالى أعلم.

(منبهة ثانية): قال العربي الضال شيخ الإتحاديه في فتوحاته المكية بصحة الإيمان عند الاضطرار، وأن فرعون مؤمن، فإنه قال: ما حاصله لما حال الغرق بين فرعون وبين أطماعه لجأ إلى الله تعالى، وإلى ما أعطاه باطنه مما كان عليه من الذلة والافتقار، فقال: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل} [يونس: ٩٠] لرفع الإشكال، كما قالت السحرة لما آمنت: {آمنا برب العالمين - رب موسى وهارون} [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢] لرفع الارتياب، وإزاحة الإشكال ثم

=

=

قال: {وأنا من المسلمين} [يونس: ٩٠] فخاطبه بلسان العتب آلآن أظهرت ما كنت قبل علمته {وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين} [يونس: ٩١] في اتباعك {فاليوم ننجيك} [يونس: ٩٢] فبشره قبل قبض روحه {لتكون لمن خلفك آية} [يونس: ٩٢] أي لتكون النجاة علامة له إذا قال ما قلته كانت له النجاة مثل ما كانت لك إذ العذاب ما يتعلق إلا بظاهرك، وقد أريت الخلق نجاته من العذاب فكان ابتداء الغرق عذابا وصار الموت فيه شهادة خالصة، كل ذلك حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى: {إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون} [يوسف: ٨٧] والأعمال بالخواتيم.

وأما قوله تعالى: {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} [غافر: ٨٥] فكلام محقق في غاية الوضوح فإن النافع هو الله فما نفعهم إلا الله، وقوله تعالى: {سنت الله التي قد خلت في عباده} [غافر: ٨٥] يعني الإيمان عند رؤية اليأس، وإنما قبض فرعون، ولم يؤخر في أجله في حال إيمانه لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الدعوى.

وأما قوله تعالى: {فأوردهم النار} [هود: ٩٨] فما فيه نص أنه يدخلها معهم بل قال الله تعالى: {أدخلوا آل فرعون} [غافر: ٤٦]، ولم يقل أدخلوا فرعون، ورحمة الله أوسع من حيث أن لا يقبل إيمان المضطر، وأي اضطرار أعظم من اضطرار فرعون في حال الغرق والله تعالى يقول: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء} [النمل: ٦٢] فقرن للمضطر إذا دعاه الإجابة وكشف السوء عنه فلم يكن عذابه أكثر من الغرق في الماء انتهى كلامه.

وقال في الفصوص (ص٢٠١): وكان –أي موسى عليه السلام– قرة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق، فقبضه طاهرا مطهرا، ليس فيه شيء من الخبث؛ لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئا من الآثام، والإسلام يجب ما

=

=

قبله، وجعله آية على عنايته سبحانه وتعالى بمن شاء، حتى لا ييأس أحد من رحمة الله، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. انتهى كلامه.

وكتاب الفصوصو يزعم صاحبه أنه تلقاه من الغيب بالوحي الإلهي ولا يترك كفرًا إلا ويضعه فيه كالحكم ببراءة قوم نوح من الشرك، وجهل نوح لأنه دعاهم إلى التوحيد، والحكم بإيمان فرعون، وجهل هارون لأنه نهي قومه عن عبادة العجل، والعجل هذا في زعم مؤلف كتاب (الفصوص) هو مظهر من مظاهر الله تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وكذلك تبرئة إبليس والحكم بنجاته، بل والحكم بأن أهل النار منعمون فهم في عذوبة لا عذاب وأنه وأنه.. ألخ.

وقد سئل ابن تيمية كما في جامع الرسائل (١/ ٢٠٣): ما تقول السادة العلماء رضي الله عنهم في قول فرعون عند الغرق: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} [سورة يونس: ٩٠] هل فيه دليل على إيمانه وإسلامه؟ أو هل يوجد في القرآن أو السنة أو القياس دليل على إيمانه أو إسلامه؟ وما يجب على من يقول: إنه مات مؤمنا، والحالة هذه؟.

فأجاب: الحمد لله، كفر فرعون، وموته كافرا، وكونه من أهل النار هو مما علم بالاضطرار من دين المسلمين، بل ومن دين اليهود والنصارى، فإن أهل الملل الثلاثة متفقون على أنه من أعظم الخلق كفرا، ولهذا لم يذكر الله تعالى في القرآن قصة كافر كما ذكر قصته في بسطها وتثنيتها، ولا ذكر عن كافر من الكفر أعظم مما ذكر من كفره واجترائه وكونه أشد الناس عذابا يوم القيامة.

ولهذا كان المسلمون متفقين على أن من توقف في كفره وكونه من أهل النار فإنه يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافرا مرتدا، فضلا عمن يقول إنه مات مؤمنا. والشك في كفره أو نفيه أعظم منه في كفر أبي لهب ونحوه، وأعظم من ذلك في أبي جهل وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ونحوهم ممن تواتر كفرهم ولم

=

=

يذكر باسمه في القرآن، وإنما ذكر ما ذكر من أعمالهم، ولهذا لم يظهر عن أحد بالتصريح بأنه مات مؤمنا إلا عمن فيه من النفاق والزندقة أو التقليد للزنادقة والمنافقين ما هو أعظم من ذلك، كالإتحادية الذين يقولون: إن وجود الخالق هو وجود الخلق، حتى يصرحون بأن يغوث ويعوق ونسرا وغيرها من الأصنام هي وجودها وجود الله، وأنها عبدت بحق، وكذلك العجل عبد بحق، وأن موسى أنكر على هارون من نهيه عن عبادة العجل، وأن فرعون كان صادقا في قوله: أنا ربكم الأعلى، وأنه عين الحق، وأن العبد إذا دعا الله تعالى فعين الداعي عين المجيب، وأن العالم هويته، ليس وراء العالم وجود أصلا.

ومعلوم أن هذا بعينه هو حقيقة قول فرعون الذي قال: {يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا} [سورة غافر: ٣٥]-٣٦].

ولقد خاطبت بعض الفضلاء مرة بحقيقة مذهبهم، وأنه حقيقة قول فرعون فذكر لي رئيس من رؤسائهم أنه لما دعاه إلى هذا القول وبينه قال: قلت له: هذا قول فرعون. فقال له: ونحن على قول فرعون؛ وما كنت أظن أنهم يقرون أو يعترفون بأنهم على قول فرعون. قال: إنما قلت ذلك استدلالا، فلما قال ذلك، قلت له: مع إقرار الخصم لا يحتاج إلى بينة.

وهم مع هذا الكفر والتعطيل الذي هو شر من قول اليهود والنصارى، يدعون أن هذا العلم ليس إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء الذي يدعونه، وأن خاتم الأنبياء إنما يرى هذا العلم من مشكاة خاتم الأولياء، وأن خاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى خاتم الأنبياء، وهو في الشرع مع موافقته له في الظاهر مشكاة له في الباطن، ولا يحتاج أن يكون متبعا للرسول لا في الظاهر ولا في الباطن.

=

=

وهذا -مع أنه من أقبح الكفر وأخبثه- فهو من أفسد الأشياء في العقل، كما يقال لمن قال: "فخر عليهم السقف من تحتهم": لا عقل ولا قرآن؛ لأن الخرور لا يكون من أسفل، وكذلك الاستفادة، إنما يستفيد المتأخر من المتقدم.

ثم خاتم الأولياء الذين يدعونهم، ضلالهم فيه من وجوه، حيث ظنوا أن للأولياء خاتما، وأن يكون أفضلهم قياسا على خاتم الأنبياء، ولم يعلموا أن أفضل الأولياء من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وهم السالفون من الأولياء لا الآخرون، إذ فضل الأولياء على قدر اتباعهم للأنبياء واستفادتهم منهم علما وعملا.

وهؤلاء الملاحدة يدعون أن الولي يأخذ من الله بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة، وهذا جهل منهم، فإن الولي عليه أن يتبع النبي، ويعرض كل ما له من محادثة وإلهام على ما جاء به النبي، فإن وافقه وإلا رده، إذ ليس هو بمعصوم فيما يقضي له.

وقد يلبسون على بعض الناس بدعواهم أن ولاية النبي أفضل من نبوته، وهذا مع أنه ضلال فليس هو مقصودهم، فهم مع ضلالهم فيما ظنوه من خاتم الأولياء ومرتبته يختلفون في عينه بحسب الظن وما تهوى الأنفس، لتنازعهم في تعيين القطب الفرد الغوث الجامع، ونحو ذلك من المراتب التي يدعونها، وهي معلومة البطلان بالشرع والعقل. ثم يتنازعون في عين الموصوف بها، وهذا باب واسع.

والمقصود هنا أن هؤلاء الاتحادية من أتباع صاحب "فصوص الحكم" وصاحب "الفتوحات المكية" ونحوهم، هم الذين يعظمون فرعون، ويدعون أنه مات مؤمنا، وأن تغريقه كان بمنزلة غسل الكافر إذا أسلم، ويقولون: ليس في القرآن ما يدل على كفره، ويحتجون على إيمانه بقوله: {حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} [سورة يونس: ٩٠].

=

=

وتمام القصة تبين ضلالهم، فإنه قال سبحانه: {آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين} [سورة يونس: ٩١]، وهذا استفهام إنكار وذم، ولو كان إيمانه صحيحا مقبولا لما قيل له ذلك.

وقد قال موسى عليه السلام: {ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} [سورة يونس: ٨٨].

قال الله تعالى: {قد أجيبت دعوتكما} [سورة يونس: ٨٩]، فاستجاب الله دعوة موسى وهارون، فإن موسى كان يدعو وهارون يؤمن أن فرعون وملأه لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

وقد قال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} [سورة غافر: ٨٢]- ٨٥]، فأخبر سبحانه وتعالى أن الكفار لم يك ينفعهم إيمانهم حين رأوا البأس، وأخبر أن هذه سنته التي قد خلت في عباده، ليبين أن هذه عادته سبحانه في المستقدمين والمستأخرين، كما قال سبحانه وتعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار} [سورة النساء: ١٨].

ثم إنه سبحانه وتعالى قال بعد قوله: {آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية} [سورة يونس: ٩١]- ٩٢]، فجعله الله تعالى عبرة وعلامة لمن يكون بعده من الأمم لينظروا عاقبة من كفر بالله

=

تعالى، ولهذا ذكر الله تعالى الاعتبار بقصة فرعون وقومه في غير موضع.

وقد قال سبحانه وتعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} [سورة ق: ١٢]- ١٤]، فأخبر سبحانه أن كل واحد من هؤلاء المذكورين، فرعون وغيره، كذب الرسل كلهم، إذ لم يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض كاليهود والنصارى، بل كذبوا الجميع، وهذا أعظم أنواع الكفر، فكل من كذب رسولا فقد كفر، ومن لم يصدقه ولم يكذبه فقد كفر؛ فكل مكذب للرسول كافر به، وليس كل كافر مكذبا به، إذ قد يكون شاكا في رسالته، أو عالما بصدقه لكنه يحمله الحسد أو الكبر على ألا يصدقه، وقد يكون مشتغلا بهواه عن استماع رسالته والإصغاء إليه؛ فمن وصف بالكفر الخاص الأشد، كيف لا يدخل في الكفر؟!

ولكن ضلالهم في هذا نظير ضلالهم في قوله:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

وقد علم أن كل رسول نبي، وكل نبي ولي، ولا ينعكس.

وقال سبحانه وتعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب} [سورة ص: ١٢]- ١٤]. وقال تعالى: {وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة * فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية} [سورة الحاقة: ٩]- ١٠].

ثم إن الله تعالى أخبر عن فرعون بأعظم أنواع الكفر: من جحود الخالق، ودعواه الإلهية، وتكذيب من يقر بالخالق سبحانه، ومن تكذيب الرسول ووصفه بالجنون والسحر وغير ذلك. ومن المعلوم بالاضطرار أن الكفار العرب الذين قاتلهم النبي ﷺ -مثل أبي جهل وذريته- لم يكونوا يجحدون الصانع، ولا يدعون لأنفسهم

=

الإلهية، بل كانوا يشركون بالله ويكذبون رسوله.

وفرعون كان أعظم كفرا من هؤلاء؛ قال الله تعالى: {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال * وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد * وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب * وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم} [سورة غافر: ٢٣]-٢٨]، إلى قوله: {وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب} [سورة غافر: ٣٦]- ٣٧].

أخبر الله سبحانه وتعالى أن فرعون ومن ذكر معه قال إن موسى ساحر كذاب، وهذا من أعظم أنواع الكفر.

ثم أخبر الله أنه أمر بقتل أولاد الذين آمنوا معه لينفروا عن الإيمان معه كيدا لموسى. قال تعالى: {وما كيد الكافرين إلا في تباب} [سورة غافر: ٣٧]، فدل على أنهم من الكافرين الذين كيدهم في تباب، فوصفهم بالتكذيب وبالكفر جميعا، وإن كان التكذيب مشتملا مستلزما للكفر، كما أن الرسالة مستلزمة للنبوة، والنبوة مستلزمة للولاية.

ثم أخبر عن فرعون أنه طلب قتل موسى وقال: {وليدع ربه}، وهذا تنبيه على أنه لم يكن مقرا بربه، ولهذا قال في تمام الكلام: {ما علمت لكم من إله غيري} [سورة القصص: ٣٨]، وهذا جحد صريح لإله العالمين، وهي الكلمة الأولى.

=

=

ثم قال بعد ذلك لما ذكره الله تعالى بقوله: {فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى} [سورة النازعات: ٢١]- ٢٤]، قال الله تعالى: {فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى} [سورة النازعات: ٢٥]- ٢٦]. قال كثير من العلماء: أي نكال الكلمة الآخرة، ونكال الكلمة الأولى، فنكل الله تعالى به على الكلمتين باعترافه، وجعل ذلك عبرة لمن يخشى. ولو كان هذا ممن لم يعاقب على ما تقدم من كفره، ولم يكن عقابه عبرة، بل من آمن غفر الله له ما سلف، ولم يذكره بكفر ولا بذم أصلا، بل يمدحه على إيمانه، ويثني عليه كما أثنى على من آمن بالرسل، وأخبر أنه نجاهم.

وفرعون هو أكثر الكفار ذكرا في القرآن، وهو لا يذكره سبحانه إلا بالذم والتقبيح واللعن، ولم يذكره بخير قط.

وهؤلاء الملاحدة المنافقون يزعمون أنه مات طاهرا مطهرا ليس فيه شيء من الخبث، بل يزعمون أن السحرة صدقوه في قوله: ما علمت لكم من إله غيري، وأنه صح قوله: أنا ربكم الأعلى، وأنه كان عين الحق.

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن جحوده لرب العالمين. قال لما قال له موسى عليه السلام: {إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل} [سورة الأعراف: ١٠٤]- ١٠٥]، {قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب إن كنتم تعقلون * قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين} [سورة الشعراء: ٢٣]- ٢٩]، فتوعد موسى بالسجن إن اتخذ إلها غيره.

وهؤلاء مع تنظيمهم لفرعون يشاركون في حقيقة كفره، وإن كانوا مفارقين له من

=

=

جهة أخرى، فإن عندهم: ما ثم موجود غير الله أصلا، ولا يمكن أحد أن يتخذ إلها غيره، لأنه أي شيء عبد العابد من الأوثان والأصنام والشياطين، فليست عندهم غير الله أصلا. وهل يقال هي الله؟ لهم في ذلك قولان.

وإخباره سبحانه وتعالى عن تكذيب فرعون وغير ذلك من أنواع كفره كثير في القرآن، وكذلك إخباره عن عذابه في الآخرة. فإن هؤلاء الملاحدة يزعمون أنه ليس في القرآن آية تدل على عذابه، ويقولون إنما قال سبحانه: {يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود} [سورة هود: ٩٨]، قالوا: فأخبر أنه يوردهم، ولم يذكر أنه دخل معهم. قالوا: وقد قال: {أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} [سورة غافر: ٤٦]، فإنما يدخل النار آل فرعون لا فرعون.

وهذا من أعظم جهلهم وضلالهم، فإنه حيث ذكر في الكتاب والسنة آل فلان كان فلان داخلا فيهم، كقوله: {إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين} [سورة آل عمران: ٣٣]، وقوله: {إلا آل لوط نجيناهم بسحر} [سورة القمر: ٣٤]، وقوله: {سلام على إل ياسين} [سورة الصافات: ١٣٠]. وقول النبي ﷺ: "اللهم صل على آل أبي أوفى"، وقوله: "لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود".

ومنه قوله تعالى: {وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب} [سورة البقرة: ٤٩]، {كدأب آل فرعون} [سورة آل عمران: ١١]، {ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر} [سورة القمر: ٤١]- ٤٢]. وقوله: {أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} [سورة غافر: ٤٦] متناول له ولهم باتفاق المسلمين، وبالعلم الضروري من دين المسلمين.

وهذا بعد قوله تعالى حكاية عن مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله} [سورة غافر: ٢٨]، والذي طلب قتله هو فرعون، فقال المؤمن

=

=

بعد ذلك: {مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به} [سورة غافر: ٤١]- ٤٢]، والداعي إلى الكفر هو كافر كفرا مغلظا، فهذا فيه.

ووصفهم أيضا بالكفر إلى قوله: {فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} [سورة غافر: ٤٥]- ٤٦]، فأخبر أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب. ثم قال: {وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار * قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} [سورة غافر: ٤٧]- ٤٨] ومعلوم أن فرعون هو أعظم الذين استكبروا، ثم هامان وقارون، وأن قومهم كانوا لهم تبعا، وفرعون هو متبوعهم الأعظم الذي قال: ما علمت لكم من إله غيري، وقال: أنا ربكم الأعلى.

وقد قال: {واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين} [سورة القصص: ٣٩]- ٤٢].

وهذا تصريح بأنه نبذه وقومه في اليم عقوبة الذي هو الكفر، وأنه أتبعه وقومه في الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم من المقبوحين هو وقومه جميعا، وهذا موافق لقوله: {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود} [سورة هود: ٩٦]- ٩٩].

=

=
فأخبر سبحانه أنهم اتبعوا أمره، وأنه يقدمهم لأنه إمامهم، فيكون قادما لهم لا سائقا لهم، وأنه يوردهم النار. فإذا كان التابع قد ورد النار فمعلوم أن القادم الذي يقدمه وهو متبوعه ورد قبله، ولهذا قال بعد ذلك: {وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين} [سورة القصص: ٤٢].
والتابع والمتبوع كما قال الله تعالى في تلك السورة عن فرعون وقومه: {وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود} [سورة هود: ٩٩].
والكلام في هذا مبسوط، لم تحتمل هذه الورقة إلا هذا، والله أعلم.
والحمد لله وحده، وصلوات الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.
(تنبيه): إن من أعظم المصائب التي أصابت الأمة الإسلامية ظهور أئمة الضلالة الذين نشروا أفكارهم وعقائدهم باسم الإسلام وهدموا أركانه ومن هؤلاء ابن عربي الصوفي المشهور بالقول بالحلول ووحدة الوجود وقد كان له أنصار انخدعو به وفيه، في كل زمان ومكان يروجون لفكره ويبشرون بمذهبه.
وهو محي الدين ابن عربي، وهو الذي يسمونه الشيخ الأكبر ويلقبونه بمحي الدين المتوفى سنة ٦٣٨ هـ من أهل وحدة الوجود الذين تقوم بدعتهم على القول بالوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر، فالعالم بما فيه إنما هو التجلي الإلهي الدائم الذي كان ولا يزال، فالموجود واحد وهو الله واجب الوجود الأزلي عين المخلوقات، فكل شيء هو الله، واختلاف الموجودات هو اختلاف في الصور والصفات مع توحد في الذات، ومن أخطر ما تصل إليه هذه العقيدة القول بوحدة الأديان وإسقاط التكاليف والقول بعقيدة النور المحمدي والحقيقة المحمدية والإنسان الكامل.
وهو صاحب كتاب (فصوص الحكم) والذي فصل فيه عقيدته المسماه بوحدة
=

=

الوجود، والذي ادعى فيه أن النبي قد كتبه له بنصه، وسلمه إياه يدًا بيد، وقال اخرج به على الناس، حيث قال: "فإني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة أريتها في العشر الآخر من محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده ﷺ كتاب، فقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أُمرنا. فحققت الأمنية وأخلصت النية وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان".

وقد جمع ابن عربي في كتابه هذا أعظم كفر عرفته البشرية في كل عصورها، دونه كفر اليهود والنصارى وسائر المشركين، فقد فصل ابن عربي في كتابه هذا عقيدته الخبيثة فيما سمى بوحدة الوجود: وأن كل هذه الموجودات القائمة من السماء والأرض والجن والإنس والملائكة والحيوان والنبات ما هي إلا الله وأن هذه الموجودات هي عين وجوده، وأنه لا يوجد خالق ومخلوق ولا رب ولا عبد، بل الخالق هو عين المخلوق، والعبد هو عين الرب، والرب هو عين العبد، وأن الملك والشيطان، والجنة والنار، والطهر والنجاسة وكل المتناقضات والمتضادات ما هي إلا عين واحدة تتصف بكل صفات الموجودات، وهي عين الله الواحد الذي ليس معه غيره.. تعالى الله عما يقول هذا المجرم وأمثاله علوًا كبيرًا.

وفضّل هذا الخبيث نفسه على سائر البشر والأنبياء المرسلين زاعمًا أنه خاتم الأولياء كما كان النبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء، والولي عنده أفضل من النبي لأنه زعم أن الولي يأخذ ويتعلم من معين الحق، والنبي يأخذ بواسطة الملك ومن يأخذ بلا واسطة خيرٌ مما يأخذ بواسطة، وإن كان الجميع عنده في النهاية عينًا واحدة، ولكنهم يتفاوتون في المراتب والمنازل.

=

=

* منزلة ابن العربي عند العلماء المحققين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في ابن العربي وطائفته-: "حتى يبلغ الأمر بأحدهم إلى أن يهوى المردان، ويزعم أن الرب تعالى تجلى في أحدهم، ويقولون: هو الراهب في الصومعة؛ وهذه مظاهر الجمال؛ ويقبل أحدهم الأمرد، ويقول: أنت الله. ويذكر عن بعضهم أنه كان يأتي ابنه، ويدعي أنه الله رب العالمين، أو أنه خلق السماوات والأرض، ويقول أحدهم لجليسه: أنت خلقت هذا، وأنت هو، وأمثال ذلك.

فقبح الله طائفة يكون إلهها الذي تعبده هو موطؤها الذي تفترشه؛ وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلًا.

ومن قال: إن لقول هؤلاء سرًا خفيًا وباطن حق، وأنه من الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خواص خواص الخلق: فهو أحد رجلين - إما أن يكون من كبار الزنادقة أهل الإلحاد والمحال، وإما أن يكون من كبار أهل الجهل والضلال. فالزنديق يجب قتله، والجاهل يعرف حقيقة الأمر، فإن أصر على هذا الاعتقاد الباطل بعد قيام الحجة عليه وجب قتله.

ولكن لقولهم سر خفي وحقيقة باطنة لا يعرفها إلا خواص الخلق. وهذا السر هو أشد كفرًا وإلحادًا من ظاهره؛ فإن مذهبهم فيه دقة وغموض وخفاء قد لا يفهمه كثير من الناس" (الفتاوى ٢/ ٣٧٨ - ٣٧٩).

ويقول أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وأقوال هؤلاء شر من أقوال اليهود والنصارى، فيها من التناقض من جنس ما في أقوال النصارى ولهذا يقولون بالحلول تارة، وبالاتحاد أخرى، وبالوحدة تارة، فهو مذهب متناقض في نفسه، ولهذا يلبسون على من لم يفهمه. فهذا كله كفر باطنًا وظاهرًا بإجماع كل مسلم، ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر كمن

=

=

يشك في كفر اليهود والنصارى" (الفتاوى ٢/ ٣٦٨).

وقال أيضًا: "ولا يتصور أن يثني على هؤلاء إلا كافر ملحد، أو جاهل ضال" (الفتاوى ٢/ ٣٦٧).

ولما سئل شيخ الإسلام عن كتاب فصوص الحكم قال: "ما تضمنه كتب (فصوص الحكم) وما شاكله من الكلام: فإنه كفر باطنًا وظاهرًا؛ وباطنه أقبح من ظاهره. وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة، وأهل الحلول، وأهل الاتحاد. وهم يسمون أنفسهم المحققين. وهؤلاء نوعان:

نوع يقول بذلك مطلقًا، كما هو مذهب صاحب الفصوص ابن عربي وأمثاله: مثل ابن سبعين، وابن الفارض، والقونوي والششتري والتلمساني وأمثالهم ممن يقول: إن الوجود واحد، ويقولون: إن وجود المخلوق هو وجود الخالق، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر، بل يقولون: الخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق. ويقولون: إن وجود الأصنام هو وجود الله، وإن عبّاد الأصنام ما عبدوا شيئًا إلا الله.

ويقولون: إن الحق يوصف بجميع ما يوصف به المخلوق من صفات النقص والذم.

ويقولون: إن عبّاد العجل ما عبدوا إلا الله، وإن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل، وإن موسى كان بزعمهم من العارفين الذين يرون الحق في كل شيء، بل يرونه عين كل شيء، وأن فرعون كان صادقًا في قوله: أنا (ربكم الأعلى (بل هو عين الحق، ونحو ذلك مما يقوله صاحب الفصوص.

ويقول أعظم محققيهم: إن القرآن كله شرك، لأنه فرق بين الرب والعبد؛ وليس التوحيد إلا في كلامنا.

فقيل له: فإذا كان الوجود واحدًا، فلم كانت الزوجة حلالًا والأم حرامًا؟ فقال:

=

=

الكل عندنا واحد، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام. فقلنا: حرام عليكم" (الفتاوى ٢/ ٣٦٤ - ٣٦٥).

وقال ابن تيمية أيضًا: "وقد صرح ابن عربي وغيره من شيوخهم بأنه هو الذي يجوع ويعطش، ويمرض ويبول ويَنكح ويُنكح، وأنه موصوف بكل عيب ونقص لأن ذلك هو الكمال عندهم، كما قال في الفصوص؛ فالعلي بنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستقصى به جميع الأمور الوجودية، والنسب العدمية: سواء كانت ممدوحة عرفًا وعقلًا وشرعًا، أو مذمومة عرفًا وعقلًا وشرعًا وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة" (الفتاوى ٢/ ٢٦٥).

ويعتذر شيخ الإسلام عن الإفاضة في بيان عقيدة هؤلاء القوم والتحذير منهم قائلًا: "ولولا أن أصحاب هذا القول كثروا وظهروا وانتشروا، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام، ومشايخ الإسلام، وأهل التوحيد والتحقيق. وأفضل أهل الطريق، حتى فضلوهم على الأنبياء والمرسلين، وأكابر مشايخ الدين: لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال، وإيضاح هذا الضلال.

ولكن يعلم أن الضلال لا حد له، وأن العقول إذا فسدت: لم يبق لضلالها حد معقول، فسبحان من فرق بين نوع الإنسان؛ فجعل منه من هو أفضل العالمين، وجعل منه من هو شر من الشياطين، ولكن تشبيه هؤلاء بالأنبياء والأولياء، كتشبيه مسيلمة الكذاب بسيد أولي الألباب، وهو الذي يوجب جهاد هؤلاء الملحدين، الذين يفسدون الدنيا والدين" (الفتاوى ٢/ ٣٥٧ - ٣٥٨).

وقال في وجوب إنكار هذه المقالات الكفرية، وفضح أهلها: "فهذه المقالات وأمثالها من أعظم الباطل، وقد نبهنا على بعض ما به يعرف معناها وأنه باطل، والواجب إنكارها؛ فإن إنكار هذا المنكر الساري في كثير من المسلمين أولى من إنكار دين اليهود والنصارى، الذي لا يضل به المسلمون، لا سيما وأقوال هؤلاء

=

=

شر من أقوال اليهود والنصارى وفرعون، ومن عرف معناها واعتقدها كان من المنافقين، الذين أمر الله بجهادهم بقوله تعالى: (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم (والنفاق إذا عظم كان صاحبه شرًا من كفار أهل الكتاب، وكان في الدرك الأسفل من النار.

وليس لهذه المقالات وجه سائغ، ولو قدر أن بعضها يحتمل في اللغة معنى صحيحًا فإنما يحمل عليها إذا لم يعرف مقصود صاحبها، وهؤلاء قد عرف مقصودهم، كما عرف دين اليهود والنصارى والرافضة، ولهم في ذلك كتب مصنفة، وأشعار مؤلفة، وكلام يفسر بعضه بعضًا.

وقد علم مقصودهم بالضرورة، فلا ينازع في ذلك إلا جاهل لا يلفت إليه، ويجب بيان معناها وكشف مغزاها لمن أحسن الظن بها، وخيف عليه أن يحسن الظن بها أو أن يضل، فإن ضررها على المسلمين أعظم من ضرر السموم التي يأكلونها ولا يعرفون أنها سموم، وأعظم من ضرر السراق والخونة، الذين لا يعرفون أنهم سراق وخونة.

فإن هؤلاء: غاية ضررهم موت الإنسان أو ذهاب ماله، وهذه مصيبة في دنياه قد تكون سببًا لرحمته في الآخرة، وأما هؤلاء: فيسقون الناس شراب الكفر والإلحاد في آنية أنبياء الله وأوليائه، ويلبسون ثياب المجاهدين في سبيل الله، وهم في الباطن من المحاربين لله ورسوله، ويظهرون كلام الكفار والمنافقين، في قوالب ألفاظ أولياء الله المحققين، فيدخل الرجل معهم على أن يصير مؤمنًا وليًا لله، فيصير منافقًا عدوًا لله" (الفتاوى ٢/ ٣٥٩).

قال الذهبي في السير (٢٣/ ٤٨): ومن أردإ تواليفه كتاب " الفصوص " فإن كان لاكفر فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة فواغوثاه بالله! وقد عظمه جماعة وتكلفوا لما صدر منه ببعيد الاحتمالات، وقد حكى العلامة ابن دقيق

=

=

العيد شيخنا أنه سمع الشيخ عز الدين ابن عبد السلام يقول عن ابن العربي: شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجا.

قال البقاعي في تنبيه الغبي: وقال مفتي المالكية بمصر والشام القاضي شرف الدين عيسى بن مسعود الزوادي المالكي (ت ٧٤٣ هـ) شارح صحيح مسلم: وأما ما تضمنه هذا التصنيف من الهذيان والكفر والبهتان فهو كله تلبيس وضلال، وتحريف وتبديل، فمن صدق بذلك واعتقد صحته كان كافرًا ملحدًا، صادًّا عن سبيل الله، مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ ملحدًا في آيات الله مبدلًا لكلماته فإن أظهر ذلك وناظر عليه كان كافرًا يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وإن أخفى ذلك وأسرّه كان زنديقًا فيقتل متى ظهر عليه، ولا تقبل توبته إن تاب؛ لأن توبته لا تعرف فقد كان قبل أن يظهر عليه يقول بخلاف ما يبطن، فعلم بالظهور عليه خبث باطنه، وهؤلاء قوم يسمون بالباطنية لم يزالوا من قديم الزمان ضلالًا في الأمة، معروفين بالخروج من الملة يقتلون من ظهر عليهم وينفون من الأرض وعادتهم التمصلح والتدين وادعاء التحقيق، وهم على أسوأ طريق، فالحذر كل الحذر منهم فإنهم أعداء الله وشر من اليهود والنصارى؛ لأنهم قوم لا دين لهم يتبعونه ولا رب يعبدونه وواجب على كل من ظهر على أحد منهم أن ينهي أمره إلى ولاة المسلمين؛ ليحكموا فيه بحكم الله تعالى، ويجب على من ولي الأمر إذا سمع بهذا التصنيف البحث عنه وجمع نسخه حيث وجدها وإحراقها، وأدب من اتهم بهذا المذهب أو نسب إليه أو عرف به على قدر قوة التهمة عليه حتى يعرفه الناس ويحذروه).

وقال ابن خلدون – رحمه الله-: (ومن هؤلاء المتصوفة ابن عربي وابن سبعين وابن برجان وأتباعهم ممن سلك سبيلهم ودان بنحلتهم، ولهم تواليف كثيرة يتداولونها مشحونة بصريح الكفر ومستهجن البدع، وتأويل الظاهر لذلك على

=

=

أبعد الوجوه وأقبحها مما يستغرب الناظر فيها نسبتها إلى الملة أو عدها في الشريعة، وليس ثناء أحد على هؤلاء حجة ولو بلغ المثني ما عسى أن يبلغ من الفضل لأن الكتاب والسنة أبلغ فضلًا أو شهادة من كل أحد، وأما حكم هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة وما يوجد من نسخها بأيدي الناس مثل الفصوص، والفتوحات المكية لابن عربي والبد لابن سبعين، وخلع النعلين لابن قسي، وعين اليقين لابن برجان وما أجدر الكثير من شعر ابن الفارض والعفيف التلمساني وأمثالهما أن يلحق بهذه الكتب، وكذا شرح ابن الفرغاني للقصيدة التائية من نظم ابن الفارض، فالحكم في هذه الكتب وأمثالها إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار والغسل بالماء حتى ينمحي أثر الكتاب لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين بمحو العقائد المختلفة).

وقال بدر الدين بن جماعة ت ٧٣٣ هـ: (وأما إنكاره - يعني ابن عربي - ما ورد في الكتاب والسنة من الوعيد فهو كافر به عند علماء التوحيد، وكذلك قوله في نوح وهود -عليهما السلام- قول لغو باطل مردود).

ونقل السخاوي عن الشيخ سراج الدين أبي حفص عمر بن رسلان البلقيني الشافعي ت ٨٠٥ هـ قوله: (لم يكن هذا الفاجر المذكور - يعني ابن عربي- على الكتاب والسنة بل كان مخالفًا ولا يحل اعتقاد عقيدته ولا العمل بما أتى به من الباطل وليس كلامه ومعتقده الفاسد تأويلًا يقتضي موافقة الكتاب والسنة، ومن اعتقد عقد الباطل أو تمسك به فليس على طريق الحق بل هو على طريق الباطل، فيلزم من اعتقد ذلك أو تمسك به أن يتوب إلى الله -تعالى- من كفره وإلحاده وزندقته فإن تاب وإلا ضربت عنقه لزندقته، وقد كتبت على ذلك كراريس بالقاهرة ودمشق وبينت فيها أنه أتى بأنواع من الكفر والإلحاد والزندقة ولم يأت بها غيره فنعوذ بالله من طريقة هذا الشيطان ومن طريقة من اتبعه، وأن يجنبنا ما

=

=

ابتدعه والحال ما ذكر والله أعلم بالصواب).

وقال الصفدي في تاريخه: (سمعت أبا الفتح ابن سيد الناس يقول سمعت ابن دقيق العيد يقول: سألت ابن عبد السلام عن ابن عربي فقال: هو شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم ولا يحرِّم فرجًا).

وممن كشف عواره وألف في بيان كفره وأمثاله الشيخ برهان الدين البقاعي الشافعي المحدث والمفسر والمؤرخ المتوفى سنة ٨٨٥ هـ بدمشق في مصنف له بعنوان: (مصرع التصوف أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي)، انظر منه الصفحات: ١٥٠ - ١٧٤.

(فائدة) في ذكر أسماء بعض العلماء الذين نقل عنهم تكفير ابن عربي.

١. برهان الدين البقاعي

٢. شيخ الإسلام زين الدين العراقي

٣. بدر الدين بن جماعة

٤. شيخ الإسلام بن حجر العسقلاني

٥. ولي الدين العراقي

٦. الإمام أبو علي السكوني

٧. علاء الدين البخاري الحنفي

٨. قاضي القضاة زين الدين التفهني

٩. قاضي القضاة محمود العيني الحنفي

١٠. الشيخ يحي السيرامي الحنفي

١١. قاضي القضاة محب الدين أحمد بن نصر الله الحنبلي

١٢. زين الدين أبو بكر القمني الشافعي

١٣. بدر الدين محمد بن الأمانة الشافعي

=

=

١٤. شهاب الدين أحمد بن تقي المالكي
١٥. شمس الدين محمد البساطي المالكي
١٦. شهاب الدين أحمد بن يحي التلمساني الحنفي
١٧. الإمام سيف الدين عبد اللطيف بن بلبان الصوفي
١٨. عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي
١٩. شمس الدين محمد بن يوسف الجزري
٢٠. برهان الدين الجعبري
٢١. زين الدين عمر بن أبي الحرم الكتاني الشافعي
٢٢. تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي
٢٣. تقي الدين الفاسي المكي
٢٤. بهاء الدين السبكي
٢٥. الكمال الدميري
٢٦. التقي الحصني
٢٧. شرف الدين عيسى بن مسعود المالكي
٢٨. نور الدين علي بن يعقوب البكري الشافعي
٢٩. نجم الدين محمد بن عقيل الشافعي
٣٠. العلامة محمد بن علي بن النقاش المصري
٣١. جمال الدين بن هشام النحوي
٣٢. قاضي القضاة عبد الرحمن بن خلدون
٣٣. شمس الدين محمد العيزري الشافعي
٣٤. عز الدين بن عبد السلام
٣٥. أبو عمرو بن الصلاح

=

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣).

{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا} أَنْزَلْنَا {بَنِي إِسْرَائِيل مُبَوَّأ صِدْق} مَنْزِل كَرَامَة وَهُوَ الشَّام وَمِصْر {وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَات فَمَا اخْتَلَفُوا} بِأَنْ آمَنَ بَعْض وَكَفَرَ بَعْض {حَتَّى جَاءَهُمْ

=

٣٦. أبو الفتح بن دقيق العيد
٣٧. شيخ الفقهاء الزين الكتاني
٣٨. شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني
٣٩. عماد الدين ابن كثير الدمشقي
٤٠. الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الموصلي
٤١. الإمام أبو حيان الأندلسي
٤٢. سراج الدين البلقيني
٤٣. برهان الدين السفاقيني
٤٤. شمس الدين الذهبي
٤٥. القاضي عضد الدين
٤٦. أبو بكر بن محمد بن صالح المعروف بابن الخياط
٤٧. شهاب الدين أحمد بن علي الناشري الشافعي
٤٨. بدر الدين حسين بن عبد الرحمن الأهدل اليمني
٤٩. شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المقرئ
٥٠. أبو عبد الله محمد بن عرفة التونسي
٥١. الملا علي القارئ
٥٢. إبراهيم بن محمد الحلبي.

الْعِلْم إنَّ رَبّك يَقْضِي بَيْنهمْ يَوْم الْقِيَامَة فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} مِنْ أَمْر الدِّين بِإِنْجَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعْذِيب الْكَافِرِينَ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [يونس: ٩٣]، أي:" ولقد أنزلنا بني إسرائيل منزلا صالحًا مختارًا في بلاد «الشام» و «مصر»".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [يونس: ٩٣]، قولان:

أحدهما: أنه الشام وبيت المقدس، قاله قتادة.

الثاني: أنه مصر والشام: قاله الضحاك.

وروي عن ابن زيد:" {ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق}، الشام. وقرأ: {إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء: ٧١]".

وفي قوله: {مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [يونس: ٩٣]،، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه كالصدق في الفضل.

والثاني: أنه تصدق به عليهم.

والثالث: أنه وعدهم إياه فكان وَعْدُه وعْد صدق. أفاده الماوردي.

وفي إضافة المبوأ إلى الصدق مدح له، فقد جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا: رجل صدق إذا كان متحليا بمكارم الأخلاق.

- قال أبو حيان: والظاهر أن بني إسرائيل هم الذين كانوا آمنوا بموسى ونجوا من الغرق، وسياق الآيات يشهد لهم.

وقيل: هم الذين كانوا بحضرة النبي ﷺ من بني إسرائيل قريظة والنضير وبني قينقاع.

- قال الرازي: أي أسكناهم مكان صدق أي مكانا محمودا.

- وقال ابن عطية: المعنى لقد اخترنا لبني إسرائيل أحسن اختيار وحللناهم من الأماكن أحسن محل، و {مبوأ صدق} أي يصدق فيه ظن قاصده وساكنه وأهله.

=

=

ويعني بهذه الآية إحلال بلاد الشام وبيت المقدس، قاله قتادة وابن زيد.
وقيل بلاد مصر والشام، قاله الضحاك.
والأول أصح بحسب ما حفظ من أنهم لم يعودوا إلى مصر، وفي القرآن كذلك (وأورثناها بني إسرائيل) يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك، وقد يحتمل أن يكون (أورثناها) معناه الحالة من النعمة وإن لم يكن في قطر واحد. (تفسير ابن عطية)

- وقال الخازن: المعنى: أنزلناهم منزلا محمودا صالحا وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق تقول العرب: هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشيء إذا كان كاملا صالحا، لا بد أن يصدق الظن فيه.

- **قال الآلوسي**: والمراد بهذا المبوأ، كما رواه ابن المنذر وغيره عن الضحاك: الشام ومصر، فإن بنى إسرائيل الذين كانوا في زمان موسى- عليه السلام- وهم المرادون هنا، ملكوا ذلك حسبما ذهب إليه جمع من الفضلاء.

وقيل: المراد به الشام وبيت المقدس، بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك.

قوله تعالى: {وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [يونس: ٩٣]، أي:" ورزقناهم الرزق الحلال الطيب من خيرات الأرض المباركة".

والمعنى: ولقد أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلا صالحا مرضيا، فيه الأمان، والاطمئنان لهم، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات الطيبات التي أحللناها لهم.

قال الطبري:" يقول: ورزقنا بني إسرائيل من حلال الرزق وهو «الطيب»".

قال مقاتل بن حيان "الطيبات: ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال

=

=

من الرزق".

قوله تعالى: {فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} [يونس: ٩٣]، أي:" فما اختلفوا في أمر دينهم إلا مِن بعد ما جاءهم العلم الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ومن ذلك ما اشتملت عليه التوراة من الإخبار بنبوة محمد ﷺ".

أي: أنهم ما تفرقوا في أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة، وهو ما بين أيديهم من الوحى الذي أمرهم الله تعالى أن يتلوه حق تلاوته، وان لا يستخدموه في التأويلات الباطلة.

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل، حتى جاءهم ما كانوا به عالمين. وذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد النبيّ ﷺ مجمعين على نبوّة محمدٍ والإقرار به وبمبعثه، غير مختلفين فيه بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوبًا عندهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم وآمن به بعضهم، والمؤمنون به منهم كانوا عددًا قليلا. فذلك قوله: فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه نبيًّا لله، فوضع «العلم» مكان «المعلوم»".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} [يونس: ٩٣]، قولان:

أحدهما: حتى جاءهم محمد ﷺ الذي كانوا يعلمون أنه نبي، وتقديره حتى جاءهم المعلوم، قاله ابن بحر، وابن جرير الطبري.

والثاني: حتى جاءهم القرآن، قاله ابن زيد.

والآية الكريمة توبخهم على جعلهم العلم الذي كان من الواجب عليهم أن يستعملوه- في الحق والخير- وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم.

- قال الخازن: يعني فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مقرين به

=

=

مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم فلما بعث الله محمدا ﷺ واختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا.

فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه حقا فوضع العلم مكان العلوم.

- وفسر بعض العلماء العلم هنا بالتوراة، أي: أن اختلافهم لم يكن عن جهل بالحق، وخفاء معالمه، وإنما كان بسبب الهوى والبغي.

وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) فالتفرق والاختلاف إنما وقع لهم بعدما اتضح لهم الحق وظهر، ولهذا قال تعالى في موضع آخر (فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم).

- قال بعض العلماء: المراد ببني إسرائيل في هذه الآية اليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام.

فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين.

قال ابن عباس: وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق ما بين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات.

والمراد ما في تلك البلاد من الرطب والتمر التي ليس مثلها طيبا في البلاد، ثم إنهم بقوا على دينهم، ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم.

والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما سماه علما، لأنه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور.

وفي كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان:

الأول: أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به

=

=

على سائر الناس، فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسدا وبغيا وإيثارا لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم، فبهذا الطريق صار نزول القرآن سببا لحدوث الاختلاف فيهم.

الثاني: أن يقال: إن هذه الطائفة من بني إسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفارا محضا بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم، فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقي أقوام آخرون على كفرهم.

- **قال السعدي**: قوله تعالى (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) وهذا هو الداء، الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين اللعين.

وإلا فإذا كان ربهم واحدا، ورسولهم واحدا، ودينهم واحدا، ومصالحهم العامة متفقة، فلأي شيء يختلفون اختلافا يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم، بسبب ذلك ما يموت؟.

فنسألك اللهم، لطفا بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: ٩٣]، أي:" إن ربك -أيها الرسول- يقضي بينهم يوم القيامة، ويَفْصِل فيما كانوا يختلفون فيه من أمرك، فيدخل المكذبين النار والمؤمنين الجنة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن ربَّك، يا محمد، يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل فيك يوم القيامة، فيما كانوا فيه من أمري في الدنيا يختلفون، بأن يدخل المكذبين بك منهم النار، والمؤمنين بك منهم الجنة، فذلك

=

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤).

{فَإِنْ كُنْت} يَا مُحَمَّد {فِي شَكّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْك} مِنْ الْقَصَص فَرْضًا {فَاسْأَلْ الَّذِينَ يقرؤون الْكِتَاب} التَّوْرَاة {مِنْ قَبْلك} فَإِنَّهُ ثَابِت عِنْدهمْ يخبرونك بِصِدْقِهِ قَالَ ﷺ لَا أَشُكّ وَلَا أَسْأَل {لَقَدْ جَاءَك الْحَقّ مِنْ رَبّك فَلَا تَكُونَن مِنْ الْمُمْتَرِينَ} الشَّاكِّينَ فِيهِ.

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥).

{ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين}.

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦).

{إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ} وَجَبَتْ {عَلَيْهِمْ كَلِمَة رَبّك} بالعذاب {لا يؤمنون}.

وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧).

{وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلّ آيَة حَتَّى يَرَوْا الْعَذَاب الْأَلِيم} فَلَا يَنْفَعهُمْ حِينَئِذٍ[1].

=

قضاؤه يومئذ فيما كانوا فيه يختلفون من أمر محمد ﷺ".

(١) قوله تعالى: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ} [يونس: ٩٤]، أي:" فإن كنت -أيها الرسول- في ريب من حقيقة ما أخبرناك به".

المراد مما أنزلنا إليك هنا: ما أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ من قصص حكيم يتعلق بأنبياء الله تعالى ورسله.

- **قال الآلوسي**: وإنما خصت القصص بالذكر، لأن الأحكام المنزلة عليه ﷺ ناسخة لأحكامهم، ومخالفة لها فلا يتصور سؤالهم عنها.

والمراد بالكتاب: جنسه فيشمل التوراة والإنجيل.

=

=

والمعنى: فإن كنت أيها الرسول الكريم- على سبيل الفرض والتقدير- في شك مما أنزلنا إليك من قصص حكيم كقصة موسى ونوح وغيرهما (فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) وهم علماء أهل الكتاب، فإن ما قصصناه عليك ثابت في كتبهم.

فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول ﷺ وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير، لا على سبيل الثبوت.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإن كنت يا محمد في شك من حقيقة ما اخترناك فأنزلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوّتك قبل أن تبعث رسولا إلى خلقه، لأنهم يجدونك عندهم مكتوبًا، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتابهم في التوراة والإنجيل".

قوله تعالى: {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} [يونس: ٩٤]، أي:" فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك من أهل التوراة والإنجيل، فإن ذلك ثابت في كتبهم".

قال الطبري:" من أهل التوراة والإنجيل، كعبد الله بن سلام ونحوه، من أهل الصدق والإيمان بك منهم، دون أهل الكذب والكفر بك منهم".

قال ابن عباس:" لم يشك رسول الله ولم يسأل".

قال الحسن:" لم يشك ﷺ ولم يسأل".

قال سعيد بن جبير:" ما شك وما سأل".

قال ابن عطية: والصواب في معنى الآية أنها مخاطبة للنبي ﷺ والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض.

- **قال الشوكاني:**... وقيل: الشك هو ضيق الصدر، أي: إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من

=

=

الأنبياء على أذى قومهم.

وقيل: معنى الآية: الفرض والتقدير، كأنه قال له: فإن وقع لك شك مثلا، وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا، فاسأل الذين يقرءون الكتاب، فإنهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك، ويعترفون بذلك لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم.

- قال البيضاوي: وفيه تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم.

وفي قوله تعالى: {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} [يونس: ٩٤]، وجهان:

أحدهما: أنه أراد مَنْ منهم مثل عبد الله بن سلام، قاله ابن زيد.

الثاني: أنه عنى أهل التقوى وأهل الإيمان ممن أدرك النبي ﷺ، قاله الضحاك.

واخرج ابن ابي حاتم بسنده عن أبي زميل سماك الحنفي، ثنا ابن عباس:" وقلت له: إني أجد في نفسي شيئا لا أستطيع أن أتكلم به قال: لعله شك أو شيء مما شك قلت: نعم قال: ما نجى من هذا أحد حتى نزل على النبي ﷺ: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك}، ثم قال: إذا وجدت من ذلك فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن".

وربما كان تساؤلا عن بدء الخلق، وأين كان الله قبل بدء الخلق، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الله؟ فإذا أحس أحدكم بشيء من ذلك فليقل: آمنت بالله عز وجل وبرسله".

وعن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال:" إن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله، فيقول: فمن خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم، فليقرأ: آمنت بالله ورسله، فإن ذلك يذهب عنه".

=

=

وعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" يوشك الناس أن يسألوا نبيهم حتى يقول قائلهم: هذا الله خالق الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقل: {الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا} [الإخلاص:٢] أحد، ثم ليتفل عن يساره، وليستعذ بالله من الشيطان".

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ:"لا يزال الناس يسألون يقولون: ما كذا ما كذا، حتى يقولوا: الله خالق الناس، فمن خلق الله؟ فعند ذلك يضلون".

- **قال السعدي**: قوله تعالى (فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) أي: اسأل أهل الكتب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيرا من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته.

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم.

وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ "عبد الله بن سلام"، وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه، ومن بعده و "كعب الأحبار" وغيرهما.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه.

فإذا كان موجودا في التوراة، ما يوافق القرآن ويصدقه، ويشهد له بالصحة، فلو

=

=

اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيرا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب، رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعا واختيارا، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب. فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسما لا معنى.

فإن قيل: فهل كان النبي ﷺ شاكًا؟.

قيل في معنى الكلام ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه خطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره من أمته، كما قال تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ} الآية [الطلاق: ١]. اختاره ابن قتيبة، والزجاج، والجصاص، وغيرهم.

قال الجصاص:" لم يرد به النبي ﷺ لأنه لم يشك قط".

قال الزجاج:" هذه آية قد كثر سؤال الناس عنها وخوضهم فيها جدا، وفي السورة ما

يدل على بيانها وكشف حقيقتها: والمعنى أن الله – جل وعز – خاطب النبي ﷺ

=

=

وذلك الخطاب شامل للخلق فالمعنى: إن كنتم في شك فاسألوا، والدليل على ذلك قوله في آخر السورة:
{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} [يونس: ١٠٤]، فأعلم الله - جل وعز - أن نبيه ﷺ ليس في شك، وأمره أن يتلو عليهم ذلك، ويروى عن الحسن أنه قال: لم يسأل ولم يشد، فهذا بين جدا، والدليل على أن المخاطبة للنبي مخاطبة للناس قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [الطلاق: ١]، فقال: {طلقتم} ولفظ أول الخطاب للنبي ﷺ وحده فهذا أحسن الأقوال".
قال ابن قتيبة:" فإن المخاطبة لرسول الله ﷺ، والمراد غيره من الشّكاك، لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلّها، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره. والجواب عن هذا مستقصى في «باب الكناية والتعريض» فكرهت إعادته في هذا الموضع".
الثاني: أنه خطاب ورد على عادة العرب في توليد القبول والتنبيه على أسباب الطاعة. كقول الرجل لابنه: إن كنت ابني فبرّني، ولعبده إن كنت مملوكي فامتثل أمري، ولا يدل ذلك على شك الولد في أنه ابن أبيه ولا أن العبد شاك في أنه ملك لسيده.
ومن ذلك قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ} [المائدة: ١١٦]، وقد علم جل ثناؤه أن عيسى لم يقل ذلك.
الثالث: أن تكون «أن» في معنى «ما»، فيكون المعنى: ما كنت في شك مما أنزلنا إليك، فاسأل الذين يقرأون، أي لسنا نأمرك لأنك شاك، ولكن لتزداد، كما قال إبراهيم: {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠]، فالزيادة في

=

=

التثبيت ليست مما يبطل صحة القصد. ذكره الزجاج.

وذكر الفخر الرازي وجوها اخرى. ارجع غليه إن شئت.

قال الطبري:"لم يكن ﷺ شاكًّا في حقيقة خبر الله وصحته، والله تعالى ذكره بذلك من أمره كان عالمًا، ولكنه جل ثناؤه خاطبه خطاب قومه بعضهم بعضًا، إذْ كان القرآن بلسانهم نزل".

فإن قيل: إن كثيرا من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته، والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:

أحدها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم.

وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ "عبد الله بن سلام" [وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه، ومن بعده و"كعب الأحبار" وغيرهما.

والثاني: ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه.

فإذا كان موجودا في التوراة، ما يوافق القرآن ويصدقه، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

والثالث: ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد.

=

=

ومن المعلوم أن كثيرا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

والرابع: أنه ليس أكثر أهل الكتاب، رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعا واختيارا، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب. فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسما لا معنى، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي، ترويجا لملكهم، وتمويها لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة.

قوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} [يونس: ٩٤]، أي:" لقد جاءك الحق اليقين من ربك بأنك رسول الله".

قال أبو الليث:" يعني: القرآن".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بأنك لله رسولٌ، وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحّة ذلك، ويجدون نعتك عندهم في كتبهم".

قوله تعالى: {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس: ٩٤]، أي:" فلا تكوننَّ من الشاكِّين في صحة ذلك وحقيقته".

قال أبو العالية:" يقول: فلا تكونن في شك من ذلك".

قال أبو الليث:" يعني: من الشاكين".

=

=

قال الطبري:" يقول: فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك وحقيقته، ولو قال قائل: إن هذه الآية خوطب بها النبي ﷺ، والمراد بها بعضُ من لم يكن صحَّت، بصيرته بنبوته ﷺ، ممن كان قد أظهر الإيمان بلسانه، تنبيها له على موضع تعرف حقيقة أمره الذي يزيل اللبس عن قلبه، كما قال جل ثناؤه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [سورة الأحزاب: ١]، كان قولا غيرَ مدفوعةٍ صحته".

قوله تعالى: {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ} [يونس: ٩٥]، أي:" ولا تكونن -أيها الرسول- من الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته".

قال الطبري:" ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، ولا تكونن يا محمدُ، من الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته".

قال مقاتل:" ثم حذر النبي ﷺ وأوعز إليه حين قالوا: إنما يلقنه الري على لسانه، فقال: ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله يعنى: القرآن كما كذب به كفار مكة".

قال أبو الليث: {بِآيَاتِ اللهِ} " يعني: بالكتاب وبالرسل".

وعن السدي، قوله: " {بآيات الله}، أما بآيات محمد ﷺ".

قوله تعالى: {فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [يونس: ٩٥]، أي:" فتكون من الخاسرين الذين سخِطَ الله عليهم ونالوا عقابه".

قال أبو الليث:" يعني: من المغبونين".

قال الطبري:" فتكون ممن غُبن حظه، وباع رحمةَ الله ورضاه، بسَخَطه وعقابه".

قال القرطبي:" الخطاب في هاتين الآيتين [٩٤، ٩٥] للنبي ﷺ والمراد غيره".

- **قال الآلوسي**: وفائدة النهى في الموضعين التهييج والإلهاب نظير ما مر، والمراد بذلك الإعلام بأن الامتراء والتكذيب قد بلغا في القبح والمحذورية إلى حيث ينبغي أن ينهى عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما، فكيف بمن يمكن اتصافه

=

=

بذلك.

- وقال الشوكاني: قوله تعالى (فتكون من الخاسرين) وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم، لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه، فكيف بمن يمكن منه ذلك.

- وقال السعدي: وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك، التكذيب به، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار، وهو عدم الربح أصلا وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمرا بالتصديق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه، علما وعملا.

فبذلك يكون العبد من الرابحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} [يونس: ٩٦]، أي:" إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك -أيها الرسول- بطردهم من رحمته وعذابه لهم".

قال أبو الليث: يعني "بالسخط، وقدر عليهم الكفر".

قال البيضاوي: أي:" ثبتت عليهم. كلمت ربك بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب".

قال ابن عباس:" {حقت عليهم كلمت ربك}، يقول: سبقت كلمة ربك".

قرأ نافع، وابن عامر: «كلمات ربك»، وقرأ الباقون: «كلمت ربك».

والمراد بكلمة ربك: حكمه النافذ، وقضاؤه الذي لا يرد، وسنته التي لا تتغير ولا تتبدل في الهداية والإضلال.

=

=

والمراد بالآية: المعجزات والبراهين الدالة على صدق الرسول ﷺ

أي: إن الذين حكم الله- تعالى- عليهم بعدم الإيمان- لأنهم استحبوا العمى على الهدى- لا يؤمنون بالحق الذي جئت به- أيها الرسول الكريم.. مهما سفت لهم من معجزات وبراهين دالة على صدقك..

ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق، حين يرون العذاب الأليم وقد نزل بهم من كل جانب.

وهنا سيكون إيمانهم كلا إيمان، لأنه جاء في غير وقته، وصدق الله إذ يقول: فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا.

وسيكون حالهم كحال فرعون، الذي عند ما أدركه الغرق قال آمنت.

- **قال الشوكاني**: والمعنى: أنه حق عليهم قضاء الله وقدره: بأنهم يصرون على الكفر، ويموتون عليه، لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال، وإن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان، كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو في حكم العدم ولو جاءتهم كل آية من الآيات التكوينية والتنزيلية، فإن ذلك لا ينفعهم لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم حتى يروا العذاب الأليم فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان وليس بإيمان، ولا يترتب عليه شيء من أحكامه.

قوله تعالى: {لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ٩٦]، أي:" لا يؤمنون بحجج الله، ولا يقرُّون بوحدانيته، ولا يعملون بشرعه".

قال أبو الليث:" يعني: لا يصدقون بالقرآن أنه من الله تعالى".

قال البيضاوي:" إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه".

قال قتادة:" حق عليهم سخط الله بما عصوه".

قوله تعالى: {وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} [يونس: ٩٧]، أي:" لا يصدقون ولا يؤمنون أبدًا ولو جاءتهم كل موعظة وعبرة".

=

=

قال أبو الليث:" يعني: علامة".

قال البيضاوي:" فإن السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود".

قوله تعالى: {حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: ٩٧]، أي:" حتى يعاينوا العذاب الموجع، فحينئذ يؤمنون، ولا ينفعهم إيمانهم".

قال القرطبي:" فحينئذ يؤمنون ولا ينفعهم".

قال البيضاوي:" وحينئذ لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون".

قال أبو الليث:" يعني: الهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة".

قال المراغي:" وليس المراد أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر، بل هم يمتنعون منه باختيارهم لفقدهم نور البصيرة واستقلال العقل فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل، والهدى والضلال لرسوخهم فى الكفر، واطمئنانهم به بالتقليد".

- وقال السعدي:... فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا، وغيا إلى غيهم، وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق، لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله، بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم، وأبصارهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، الذي وعدوا به.

فحينئذ يعلمون حق اليقين، أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئا، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم، ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد. (تفسير السعدي).

وقد بين القرآن أن هذا الطبع وهذا الختم لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب، وقد دلت آيات كثيرة على أن الله ﷻ يسبب

=

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨).

{فَلَوْلَا} فَهَلَّا {كَانَتْ قَرْيَة} أُرِيدَ أَهْلهَا {آمَنَتْ} قَبْل نُزُول الْعَذَاب بِهَا {فَنَفَعَهَا إِيمَانهَا إِلَّا} لَكِنْ {قَوْم يُونُس لَمَّا آمَنُوا} عِنْد رُؤْيَة أَمَارَة الْعَذَاب وَلَمْ يُؤَخِّرُوا إِلَى حُلُوله {كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَاب الْخِزْي فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين} انْقِضَاء آجَالهمْ[1].

=

للإنسان الضلالة بسبب ارتكاب الذنوب كما يسبب له الهدى بسبب الطاعات، قال تعالى (بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) (الباء) في قوله (بِكُفْرِهِمْ) سببية، فبيّن أن هذا الطبع بسبب كفرهم، وكقوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وكقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) وكقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا).

(١) قوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ} [يونس: ٩٨].

أي: ما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلَّا قَومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، آمَنوا كُلُّهم في وقتٍ يَنفَعُهم فيه الإيمانُ، حين رأَوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم.

عن عطاء:" {فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها}، إذا نزل بها بأس الله ولم نفعل ذلك بقرية إلا قرية يونس".

عن أبي العالية: {{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} " يقول: فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها".

عن مجاهد، قوله: " {فلولا كانت قرية آمنت}، قال: فلم تكن قرية آمنت".

=

=

عن ابن كثير: " {فلولا كانت قرية آمنت}، أي: فلم تكن قرية آمنت إلا قوم يونس ويوسف".

قال السدي:" كان يونس بن متى عليه السلام من أنبياء الله ﷺ بعثه الله إلى قرية يقال لها نينوى على شاطئ دجلة".

قال محمد بن إسحاق:" وكان من حديث يونس بن متى فيها بلغني أن الله تبارك وتعالى بعثه إلى أهل قرية أهل نينوى، وهي من بلاد الموصل".

- و (لولا) حرفٌ يَرِدُ لِمَعانٍ مِنها التَّوبيخُ، وهو هنا مُستعمَلٌ في لازِمِ التَّوبيخِ، كِنايةً عن التَّغليظِ؛ لأنَّ أهْلَ القُرى قد انقَضَوْا، وذلك أنَّ أصلَ معنى (لولا) التَّحضيضُ، وهو طلبُ الفعلِ بحَثٍّ، فإذا دخلَت على فعلٍ قد فات وقوعُه كانت مُستعمَلةً في التَّغليظِ، والتَّنديمِ، والتَّوبيخِ على تَفْويتِه، ويكونُ ما بَعدَها في هذا الاستعمالِ فِعْلَ مُضيٍّ؛ فهي هنا مُستعمَلةٌ في لازمِ التَّوبيخِ، كنايةً عن التَّغليظ.

قوله تعالى: {لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس: ٩٨]، أي:" لمَّا أيقنوا أن العذاب نازل بهم تابوا إلى الله تعالى توبة نصوحا، فلمَّا تبيَّن منهم الصدق في توبتهم كشف الله عنهم عذاب الخزي بعد أن اقترب منهم".

قال سعيد بن جبير:" غشى قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب بالقبر".

عن معروف الموصلي:" أن سحابة غشيتهم تنضح عليهم شرر النار".

قال قتادة:" كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل".

(إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) إلا قوم يونس، وهم أهل نِينَوى، وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا لديه. واستكانوا

=

=

وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى (إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ). (ابن كثير).

- فقول ابن كثير: بعد ما عاينوا أسبابه، أي حين رأَوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم.

وممن ذهب إلى القول: وهو أنهم رأوا علامات دالة على العذاب دون العذاب عينه، فآمنوا فتاب الله عليهم.

الزجاج، والواحدي، وابن عطية، والرازي، والقرطبي، وابن تيمية، وابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور.

وذهب بعض العلماء: إن قوم يونس خصوا من بين الأمم بأن تيب عليهم لما آمنوا بعد معاينة بعد معاينة العذاب. وبهذا قال: الطبري، والسعدي.

- **قال السعدي**: قوله (إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا) بعدما رأوا العذاب (كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا.

قال الله تعالى (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) إلى قوله (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر بل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه والله أعلم.... (تفسير السعدي).

- قال الماوردي: قوله تعالى (كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وفيه

=

=

وجهان:

أحدهما: أنهم تابوا قبل أن يروا العذاب فلذلك قبل توبتهم، ولو رأوه لم يقبلها كما لم يقبل من فرعون إيمانه لما أدركه الغرق.

الثاني: أنه تعالى خصهم بقبول التوبة بعد رؤية العذاب، قال قتادة: كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل.

- قال ابن عطية: وذهب الطبري إلى أن قوم يونس خصوا من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين وليس كذلك، والمعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذب أو الموت بشخص الإنسان كقصة فرعون، وأما قوم يونس فلم يصلوا هذا الحد.

وقال القرطبي: وقال الطبري: خص قوم يونس من بين سائر الأُمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين.

وقال الزجاج: إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأُوا العلامة التي تدلّ على العذاب، ولو رأُوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

قلت: قول الزجاج حسن: فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك.

ويَعْضُد هذا قوله عليه السلام: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

والغرغرة الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت، وأما قبل ذلك فلا.

وقد روى معنى ما قلناه عن ابن مسعود، أن يونس لما وعدهم العذاب إلى ثلاثة أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأُمهات والأولاد؛ وهذا يدلّ على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب.

ويكون معنى (كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي) أي العذاب الذي وعدهم به يونس أنه

=

=

ينزل بهم، لا أنهم رأُوه عِيانًا ولا مخايلة؛ وعلى هذا لا إشكال ولا تعارض ولا خصوص، والله أعلم.

وبالجملة فكان أهل نينوى في سابق العلم من السعداء.... (تفسير القرطبي).

- وقال الخازن: واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عيانًا أم لا:

فقال بعضهم: رأوا دليل العذاب فآمنوا؛ وقال الأكثرون إنهم رأوا العذاب عيانًا بدليل قوله (كشفنا عنهم عذاب الخزي) والكشف لا يكون إلا بعد الوقوع أو إذا قرب وقوعه.

- اختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين:

أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية.

والقول الثاني فيهما لقوله تعالى (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

- قال الشنقيطي: قَوْلُهُ تَعَالَى (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ إِيمَانَ قَوْمِ يُونُسَ مَا نَفَعَهُمْ إِلَّا فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ، لِقَوْلِهِ: كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

ويفهم من مفهوم المخالفة في قوله: (في الحياة الدنيا) أن الآخرة ليست كذلك، ولكنه تعالى أطلق عليهم اسم الإيمان من غير قيد في سورة «الصافات»، والإيمان منقذ من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، كما أنه بين في «الصافات» أيضا كثرة عددهم، وكل ذلك في قوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين).

=

=

قال ابن عباس:" بعثه الله إلى أهل قرية فردوا عليه ما جاءهم به فامتنعوا منه فلما فعلوا ذلك أوصى الله إليه إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا، فاخرج من بين أظهرهم فأعلم قومه الذي وعده الله من عذابه إياهم فقالوا: ارمقوه فإن هو خرج من بين أظهركم فهو والله كأين ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وعدوا العذاب في صبيحتها اندلج فرأه القوم فحذروا فخرجوا من القرية إلى براز بين أراضيهم وفرقوا بين كل دابة وولدها ثم عجوا إلى الله وأنابوا واستقالوا فأقاله، وتنظر يونس الخبر عن القرية وأهلها حتى مر به مار فقال: ما فعل أهل القرية قال: فعلوا أن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض ثم فرقوا بين كل ذات والد وولدها ثم عجوا إلى الله وتابوا إليه فقبل منهم وأخر عنهم العذاب".

وفي قوله تعالى: {لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [يونس: ٩٨]، وجهان:

أحدهما: أنهم تابوا قبل أن يروا العذاب فلذلك قبل توبتهم، ولو رأوه لم يقبلها كما لم يقبل من فرعون إيمانه لما أدركه الغرق.

الثاني: أنه تعالى خصهم بقبول التوبة بعد رؤية العذاب، قال قتادة: كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل.

قال قتادة:" لم تكن قرية آمنت من الأمم قبل قوم يونس كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس فاستثنى الله قوم يونس".

عبد الله بن مسعود:"أن يونس النبي ﷺ وعد قومه العذاب وأخبر أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام ففرقوا بين كل والدة وولدها ثم خرجوا وصاروا إلى الله واستغفروا فكشف الله عنهم العذاب".

قال ابن ابي حاتم:" وذكر لنا أن قوم يونس كانوا ببعض أرض الموصل، فلما

=

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

=

فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم، فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشي من كل بهيمة وولدها فعجوا إلى الله أربعين صباحا فلما عرف الله ﷻ منهم الصدق بقلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم، لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل".

عن أبي الجلد قال: "إن العذاب لما هبط على قوم يونس جعل يحور على رءوسهم مثل قطع الليل المظلم فمشى ذو العقول منهم إلى شيخ من علمائهم فقالوا: إنا قد نزل بنا ما ترى فعلمنا دعاء ندعو الله به عسى أن يرفع عنا عقوبته قال: قولوا يا حي، يا حي ويا حي محي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت فكشف عنهم العذاب".

قوله تعالى: {وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: ٩٨]، أي:" وتركهم في الدنيا يستمتعون إلى وقت إنهاء آجالهم".

قال عكرمة:" الحين: الذي لا يدرك".

قال ابن عباس:" «الحين» حينان: فحين يعرف، وحين لا يعرف، فأما الذي لا يعرف: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} ".

وفي قوله تعالى: {وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: ٩٨]، وجهان:

أحدهما: إلى أجلهم، قاله السدي.

الثاني: إلى أن يصيرهم إلى الجنة أو النار، قاله ابن عباس.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "إن الحذر لا يرد القدر، وإن الدعاء يرد القدر وذلك في كتاب الله: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ}، الآية".

وروي عن علي -أيضا- قال: "تيب على قوم يونس يوم عاشوراء".

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩).

{وَلَوْ شَاءَ رَبّك لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْض كُلّهمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِه النَّاس} بِمَا لَمْ يَشَأْهُ الله مِنْهُمْ {حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} لَا.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠).

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِن إِلَّا بِإِذْنِ الله} بِإِرَادَتِهِ {وَيَجْعَل الرِّجْس} الْعَذَاب {عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} يَتَدَبَّرُونَ آيَات الله[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [يونس: ٩٩]، أي:" لو أراد الله لآمن الناس جميعًا، ولكنْ لم يشأ ذلك لكونه مخالفًا للحكمة، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار، لا إيمان الإكراه والاضطرار".

كما قال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين).

وقال تعالى (ولو شاء الله ما أشركوا).

وقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها).

وقوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى).

- قال ابن عاشور: قوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) عطف على جملة (إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون) لتسلية النبي ﷺ على ما لقيه من قومه.

(أفأنت تكره الناس) أي: تلزمهم وتلجئهم.

(حتى يكونوا مؤمنين) أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل إلى الله (يضل من يشاء =

=

ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات).

كما قال تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء).

وقال تعالى (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين).

وقال تعالى (إنك لا تهدي من أحببت).

وقال تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب).

وقال تعالى (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله.

- قال ابن عطية: المعنى أن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمنا فلا تأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك، وادع ولا عليك فالأمر محتوم، أفتريد أنت أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك والله ﷻ قد شاء غيره.

قال البيضاوي:" بحيث لا يشذ منهم أحد. جميعا مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، وهو دليل على القدرية في أنه تعالى لم يشأ إيمانهم أجمعين، وأن من شاء إيمانه يؤمن لا محالة، والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ} - يا محمد - لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلّهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١]".

قوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩]، أي:" أفأنت

=

=

يا محمد تُكره الناس على الإيمان، وتضطرهم إِلى الدخول في دينك؟ ليس ذلك إِليك".

قال ابن عاشور: والاستفهام في (أفأنت تكره الناس) إنكاري، فنزل النبي ﷺ لحرصه على إيمان أهل مكة وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان حتى ترتب على ذلك التنزيل إنكاره عليه.

- قال الخازن: "وفي هذا تسلية للنبي ﷺ لأنه كان حريصا على إيمانهم كلهم فأخبره الله أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له العناية الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم".

قال السعدي:" أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله على شيء من ذلك".

قال البيضاوي:" {أفأنت تكره الناس} بما لم يشأ الله منهم. حتى يكونوا مؤمنين وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار، وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلا عن الحث والتحريض عليه إذ روي أنه كان حريصا على إيمان قومه شديد الاهتمام به فنزلت".

قال ابن كثير:" أي: تلزمهم وتلجئهم {حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل [إلى] الله {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨]، {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢]، {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣]، {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦]، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠]، {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية: ٢١، ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من

=

=

يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله".

قال الصابوني:" والآية تسليةٌ له ﷺ وترويحٌ لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم قال ابن عباس: كان النبيُّ ﷺ حريصًا على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكّر الأول، ولا يضلُّ إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول".

عن سعيد بن جبير:" {مؤمنين}، يقول: مصدقين".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} [يونس: ١٠٠]، أي:" وما كان لنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه وتوفيقه، فلا تُجهد نفسك في ذلك، فإن أمرهم إلى الله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه: وما كان لنفس خلقتُها من سبيل إلى تصديقك، يا محمد، إلا بأن آذن لها في ذلك، فلا تجهدنّ نفسك في طلب هداها، وبلِّغها وعيدَ الله، وعرِّفها ما أمرك ربك بتعريفها، ثم خلِّها، فإن هداها بيد خالقها".

وفي قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} [يونس: ١٠٠]، وجوه:

أحدها: معناه إلا بأمر الله تعالى، قاله الحسن.

الثاني: إلا بقضاء الله. قاله سفيان.

والثالث: إلا بمعونة الله.

والرابع: إلا بإعلام الله سبل الهدى والضلالات.

قوله تعالى: {وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [يونس: ١٠٠]، أي:" ويجعل الله العذاب والخزي على الذين لا يعقلون أمره ونهيه".

قال ابن كثير:" وهو الخبال والضلال {عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}،أي: حججَ الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى، وإضلال من ضل".

=

قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١).

{قُلْ} لِكُفَّارِ مَكَّة {انْظُرُوا مَاذَا} أَيْ الَّذِي {فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض} مِنْ

=

وفي قوله تعالى: {وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [يونس: ١٠٠]، خمسة أوجه من التفسير:

أحدها: أن "الرجس": السخط، قاله ابن عباس.

الثاني: أنه العذاب. قاله الحسن.

وقال الفراء:" أنه العذاب والغضب".

الثالث: أنه الإثم، قاله سعيد بن جبير.

الرابع: أنه ما لا خير فيه، قاله مجاهد.

الخامس: أنه الشيطان، قاله قتادة.

وعن ابن زيد:" {رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}، قال: الرجس: الشر من عمل الشيطان".

- **قال الشوكاني**: والمراد بالذين لا يعقلون: هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله، ولا يتفكرون في آياته، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة.

- قال ابن عطية: قوله تعالى (الرجس) وهو في هذه الآية بمعنى العذاب.

- وقال ابن عاشور: والرجس: حقيقته الخبث والفساد، وأطلق هنا على الكفر، لأنه خبث نفساني، والقرينة مقابلته بالإيمان كالمقابلة التي في قوله (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا إلى قوله (فزادتهم رجسا إلى رجسهم)، والمعنى: ويوقع الكفر على الذين لا يعقلون.

والمراد نفي العقل المستقيم، أي الذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحق ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الأدلة.

الْآيَات الدَّالَّة عَلَى وَحْدَانِيَّة الله تَعَالَى {وَمَا تُغْنِي الْآيَات وَالنُّذُر} جَمْع نَذِير أَيْ الرُّسُل {عَنْ قَوْم لَا يُؤْمِنُونَ} فِي عِلْم الله أَيْ مَا تَنْفَعهُمْ.

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢).

{فَهَلْ} فَمَا {يَنْتَظِرُونَ} بِتَكْذِيبك {إِلَّا مِثْل أَيَّام الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلهمْ} مِنْ الْأُمَم أَيْ مِثْل وَقَائِعهمْ مِنْ الْعَذَاب {قُلْ فَانْتَظِرُوا} ذَلِكَ {إني معكم من المنتظرين}.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣).

{ثُمَّ نُنَجِّي} الْمُضَارِع لِحِكَايَةِ الْحَال الْمَاضِي {رُسُلنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا} مِنْ الْعَذَاب {كَذَلِكَ} الْإِنْجَاء {حَقًّا علينا ننجي الْمُؤْمِنِينَ} النَّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابه حين تعذيب المشركين(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ١٠١]، أي:" قل -أيها الرسول- لقومك: تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من آيات الله البينات".

انظروا وتأملوا وتفكروا فيما اشتملت عليه السموات من شموس وأقمار، وكواكب ونجوم، وسحاب وأمطار... وفيما اشتملت عليه الأرض من زروع وأنهار، ومن جبال وأشجار، ومن حيوانات ودواب متنوعة.

انظروا إلى كل ذلك وتفكروا، فإن هذا التفكر يهدى أصحاب العقول السليمة إلى أن لهذا الكون إلها واحدا عليما قديرا، هو وحده المستحق للعبادة والطاعة. قال القرطبي:" أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال".

=

=

قال ابن كثير:" يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا [مسخر] مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه".

- وقال ابن عاشور: وقد عمم ما في السماوات والأرض لتتوجه كل نفس إلى ما هو أقرب إليها وأيسر استدلالا عليه لديها.

- قال ابن القيم: الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة.

فالنوع الأول كقوله (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس...).

وقوله (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) وهو كثير في القرآن

والثاني كقوله (أفلا يتدبرون القرآن) وقوله (أفلم يدبروا القول) وقوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته).

=

=

- وقال رحمه الله: مبينا من يعتبر بآيات الله الكونية والشرعية:
قال تعالى (إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) وقال (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) فأخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) وقال في الساعة (إنما أنت منذر من يخشاها).

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

قوله تعالى: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١]، أي:" ولكن الآيات والعبر والرسل المنذرة عباد الله عقابه، لا تنفع قومًا لا يؤمنون بشيء من ذلك؛ لإعراضهم وعنادهم".

قال القرطبي:" {وما تغني}، «ما» نفي، أي ولن تغني. وقيل: استفهامية، التقدير أي شي تغني. {الآيات}، أي: الدلالات. {والنذر}، أي: الرسل، جمع نذير، وهو الرسول ﷺ. (عن قوم لا يؤمنون) أي عمن سبق له في علم الله أنه لا يؤمن".

قال ابن كثير:" وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الألِيمَ} [يونس: ٩٦، ٦٩]".

عن مجاهد، قوله: " {لا يؤمنون}، قال: أوجب عليهم أنهم لا يؤمنون".

=

=

قوله تعالى: {فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ} [يونس: ١٠٢]، أي:" فهل ينتظر هؤلاء إلا يومًا يعاينون فيه عذاب الله مثل أيام أسلافهم المكذبين الذين مَضَوا قبلهم؟".

قال ابن كثير: أي:" فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم".

قال السعدي:" أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله، بعد وضوحها، {إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم} أي: من الهلاك والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم وسنة الله جارية في الأولين والآخرين".

قال قتادة:" أي: مثل قوم نوح وعاد وثمود".

قال القرطبي:" الأيام هنا بمعنى الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم. قال قتادة: يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود وغير هم. والعرب تسمي العذاب أياما والنعم أياما، كقوله تعالى: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ} [إبراهيم: ٥]. وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام".

قوله تعالى: {قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} [يونس: ١٠٢]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: فانتظروا عقاب الله إني معكم من المنتظرين عقابكم".

قال القرطبي:" أي تربصوا، وهذا تهديد ووعيد. {إني معكم من المنتظرين}، أي: المتربصين لموعد ربي".

قال الربيع:" خوفهم عذابه وعقوبته ونقمته".

قوله تعالى: {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا} [يونس: ١٠٣]، أي:" ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين نُنجّي رسلنا والذين آمنوا معهم".

قال ابن كثير: "أي: ونهلك المكذبين بالرسل".

قال القرطبي:" أي: من سنتنا إذا أنزلنا بقوم عذابا أخرجنا من بينهم الرسل

=

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤).

{قل يأيها النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكّ مِنْ دِينِي} أَنَّهُ حَقّ {فَلَا أَعْبُد الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره وَهُوَ الْأَصْنَام لِشَكِّكُمْ فِيهِ {وَلَكِنْ أَعْبُد الله الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} يَقْبِض أَرْوَاحكُمْ {وَأُمِرْت أَنْ} أَيْ بِأَن {أكون من المؤمنين}.

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) .

{و} قِيلَ لِي {أَنْ أَقِمْ وَجْهك لِلدِّينِ حنيفا} مائلا إليه {ولا تكونن من

=

والمؤمنين، و «ثم» معناه ثم اعلموا أنا ننجي رسلنا".

عن الربيع بن أنس قال: "ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى الله رسله والذين آمنوا فقال: {ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين}".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ١٠٣]، أي:" وكما نجينا أولئك ننجِّيك -أيها الرسول- ومن آمن بك تفضلا منَّا ورحمة".

قال القرطبي:" أي: واجبا علينا، لأنه أخبر ولا خلف في خبره".

قال ابن كثير: " حقا: أوجبه تعالى على نفسه الكريمة: كقوله {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ١٢] كما جاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي» ".

وقرأ يعقوب. «ثم ننجي» مخففا. وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب. «ننجي المؤمنين» مخففا، وشدد الباقون، وهما لغتان فصيحتان: أنجى ينجي إنجاء، ونجى ينجي تنجية بمعنى واحد.

المشركين}.

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦).

{وَلَا تَدْعُ} تَعْبُد {مِنْ دُون الله مَا لَا يَنْفَعك} إنْ عَبَدْته {وَلَا يَضُرّك} إنْ لم تعبده {فإن فعلت} ذلك فرضا {فإنك إذا من الظالمين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي} [يونس: ١٠٤]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء الناس: إن كنتم في شك من صحة ديني الذي دعوتكم إليه، وهو الإسلام ومن ثباتي واستقامتي عليه، وترجون تحويلي عنه".
قال القرطبي:" يريد كفار مكة. {إن كنتم في شك من ديني}، أي: في ريب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه".
قوله تعالى: {فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [يونس: ١٠٤]، أي:" فإني لا أعبد في حال من الأحوال أحدًا من الذين تعبدونهم مما اتخذتم من الأصنام والأوثان".
قال القرطبي: أي:" من الأوثان التي لا تعقل".
عن قتادة، قوله: " {من دون الله}، قال: الوثن".
- وفي الآية جوب البراءة من الشرك وأهله، والبراءة من الشرك أقسام:
أولا: البراءة القلبية: وهي أن تبغض المشركين والشرك بقلبك وتكرههم وتتمنى زوالهم كبغض النصارى واليهود والهندوس.
وحكم هذا القسم فرض لازم ولا يمكن أن يسقط عن المسلم.
والدليل على ذلك حديث أبي مالك الأشجعي (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله تعالى).
ثانيا: براءة اللسان: وذلك بالتصريح بأنك تبغض الكفار والتصريح أن دينهم باطل =

=

وأنهم كفار.

والدليل قوله تعالى: (قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون) قل: أي بلسانك.

وقوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون).

وهذا القسم واجب مع القدرة لقوله تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم) ويجب عليه الهجرة إن استطاع.

ثالثا: براءة الجوارح: وذلك بمجاهدتهم بالجوارح، وتكسير معبوداتهم ومساجدهم وقتلهم.

والدليل قوله تعالى: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم).

وقوله - عليه السلام - (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده...) رواه مسلم.

وهذا القسم يجب مع القدرة ويسقط مع العجز.

قوله تعالى: {وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} [يونس: ١٠٤]، أي:" ولكن أعبد الله وحده الذي يميتكم ويقبض أرواحكم".

قال القرطبي:" أي: يميتكم ويقبض أرواحكم".

عن عكرمة قوله: " {يتوفاكم}، قال: يتوفى الأنفس".

- **قال السعدي**: أي هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميتكم، ثم يبعثكم، ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويخضع ويسجد.

- قال الخازن: والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة: أن المراد أن الذي يستحق العبادة أعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولا ولم تكونوا شيئا ثم يميتكم ثانيا ثم يحييكم بعد الموت ثالثا، فاكتفى بذكر الوفاة تنبيها على الباقي.

وقيل: لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع.

=

=

وقيل إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم.

- وقال ابن عطية:... ثم صرح بمعبوده وخص من أوصافه (الذي يتوفاكم) لما فيها من التذكير للموت وقرع النفوس به، والمصير إلى الله بعده والفقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة.

(وأمرت أن أكون من المؤمنين) يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب.

قوله تعالى: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ١٠٤]، أي:" وأُمِرْت أن أكون من المصدِّقين به العاملين بشرعه".

قال مقاتل:" يعني: المُصَدِّقين".

قال القرطبي:" أي: المصدقين بآيات ربهم".

قوله تعالى: {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} [يونس: ١٠٥]، أي:" وأن أقم -أيها الرسول- نفسك على دين الإسلام مستقيمًا عليه غير مائل عنه إلى يهودية ولا نصرانية ولا عبادة غيره".

قال الطبري: أي:" أقم نفسك على دين الإسلام، {حنيفًا} مستقيمًا عليه، غير معوَجّ عنه إلى يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ، ولا عبادة وثن".

قال القرطبي:" {أن} عطف على {أن أكون}، أي: قيل لي: كن من المؤمنين وأقم وجهك، قال ابن عباس: عملك، وقيل: نفسك، أي استقم بإقبالك على ما أمرت به من الدين. {حنيفا}، أي: قويما به مائلا عن كل دين".

عن ابن عباس:" {وأَنْ أَقِمْ وجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا}، يعني: عملك".

قال الآلوسي: "إقامة الوجه للدين، كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته

=

=

تعالى، والإعراض عما سواه، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء، يقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالا، إذ لو التفت بطلت المقابلة، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين، فالمراد بالوجه الذات، أي: اصرف ذاتك وكليتك للدين".

وقوله تعالى: «حَنِيفًا»، لأهل اللغة فيه قولان:

الأول: أن "الحنيف": هو المستقيم.

قال الطبري: " «الحنيف»، فإنه المستقيم من كل شيء، ومنه قيل للأعرج: أحنف، تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ: سليم، والمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف.

الثاني: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها، وتحنف إذا مال.

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {حَنِيفًا} [يونس: ١٠٥]، على أقوال:

أحدها: معناه: حاجا، والحنيفية حج البيت. وهذا قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعطية، وكثير بن زياد، وعبد الله بن قاسم، والضحاك، والسدي.

والثاني: متبعا، أي: اتباع الحق، قاله مجاهد، والربيع بن أنس.

والثالث: سابقًا إلى الطاعة، مأخوذ من الحنف في الرجلين وهو أن تسبق إحداهما الأخرى. ذكره الماوردي.

والرابع: مخلصا. قاله عطاء. و «الحنيف» على قولهم: المخلص دينه لله وحده، قاله السدي، ومقاتل بن سليمان، وخصيف.

والخامس: مستقيما. قاله محمد بن كعب، وروي عن عيسى بن جارية مثله.

والسادس: مؤمنا بالرسل ككلهم من أولهم إلى آخرهم. قاله أبو قلابة.

قال القفال: "وبالجملة فـ «الحنيف»: لقب لمن دان بالإسلام كسائر ألقاب

=

=

الديانات، وأصله من إبراهيم عليه السلام".

قوله تعالى: {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يونس: ١٠٥]، أي:" ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه الآلهة والأنداد، فتكون من الهالكين".

والآية تأكيد للأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده وهو معطوف على أقم.

أي: استقم على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله تعالى وحده واثبت على ذلك، ولا تكونن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى.

- فلا تكونن من المشركين: لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض علي ، وأوجب الواجبات.

والشرك: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

- والحنف: الميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنيف: المائل والجنف: ضده. والأحنف: من في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلا، وقيل لمجرد الميل. قال ابن كثير: الحنيف: المنحرف قصدا عن الشرك إلى التوحيد. وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عد إمام الحنفاء الموحدين، قال تعالى: (ولم يك من المشركين) وقال: (وما كان من المشركين) وهكذا فليكن أولياء الله.

قال الطبري: "يقول: ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه الآلهةَ والأندادَ، فتكون من الهالكين".

قوله تعالى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ} [يونس: ١٠٦]، أي:" ولا تَدْعُ -أيها الرسول- من دون الله شيئًا من الأوثان والأصنام؛ لأنها لا تنفع ولا تضرُّ".

قال القرطبي:" {ولا تدع}، أي: لا تعبد. و {من دون الله ما لا ينفعك} إن عبدته. {ولا يضرك} إن عصيته".

قال البيضاوي:" {ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك} بنفسه إن دعوته

=

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧).

{وَإِنْ يَمْسَسْك} يُصِبْك {الله بِضُرٍّ} كَفَقْرٍ وَمَرَض {فَلَا كَاشِف} رَافِع {لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْك بِخَيْرٍ فَلَا رَادّ} دَافِع {لِفَضْلِهِ} الَّذِي أرادك به {يصيب به} أي بالخير {من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم}[1].

=

أو خذلته".

قال ابن عطية:" معناه قيل لي: وَلا تَدْعُ فهو عطف على أَقِمْ، وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا فأحرى أن يتحرز من ذلك غيره، وما لا ينفع ولا يضر هو الأصنام والأوثان".

عن مجاهد:" ما لا ينفعنا ولا يضرنا قال: الأوثان".

قوله تعالى: {فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ} [يونس: ١٠٦]، أي:" فإن عبدتَ تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرضتها لعذاب الله".

قال البيضاوي:" جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء".

قال القرطبي:" أي: عبد ت غير الله. {فإنك إذا من الظالمين}، أي: الواضعين العبادة في غير موضعها".

عن مقاتل بن حيان، قوله: " {الظالمين}، يعني: المشركين".

قال ابن عطية: «الظالم»: الذي يضع الشيء في غير موضعه".

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} [يونس: ١٠٧]، أي:" وإن يصبك الله -أيها الرسول- بشدة أو بلاء فلا كاشف لذلك إلا هو جلَّ وعلا".

=

=

وهذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها: (فلا كاشف له إلا هو) أي: لهذا الضر إلا هو سبحانه، لأن الخلق، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدا، لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرده الله.

قال البيضاوي:" وإن يصبك به. فلا كاشف له يرفعه. إلا هو إلا الله".

قال ابن كثير:" قوله: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ} إلى آخرها، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده، لا شريك له".

قوله تعالى: {وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يونس: ١٠٧]، أي:" وإن يُرِدْك برخاء أو نعمة لا يمنعه عنك أحد".

كما قال تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم).

- وعبر سبحانه بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى تفضله على عباده بأكثر مما يستحقون من خيرات.

قال البيضاوي: أي:" فلا دافع. لفضله الذي أرادك به، ولعله ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده".

عن مجاهد:" {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ}، هو الحق".

=

=

قوله تعالى: {يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [يونس: ١٠٧]، أي:" يصيب الله ﷻ بالسراء والضراء من يشاء من عباده".

قال ابن عطية: " مقصد هذه الآية أن الحول والقوة لله، ويبين ذلك للناس بما يحسونه من أنفسهم، و «الضر» لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان كان ذلك في ماله أو في بدنه، وهذه الآية مظهرة فساد حال الأصنام، لكن كل مميز أدنى ميز يعرف يقينا أنها لا تكشف ضرّا ولا تجلب نفعا. وقوله وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ لفظ تام العموم، وخصص النبي ﷺ الفقه بالذكر في قوله «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» وهو على جهة التشريف للفقه".

عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: "اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: ١٠٧]، أي:" وهو الغفور لذنوب مَن تاب، الرحيم بمن آمن به وأطاعه".

(وهو الغفور) لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه، كبارها، وصغارها.

(الرحيم) الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغنى عن إحسانه، طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع، أن الله، هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحدا من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

قال القرطبي:" {الغفور}، لذنوب عباده وخطاياهم، {الرحيم}، بأوليائه في الآخرة".

=

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨).

{قل يأيها النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقّ مِنْ رَبّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} لِأَنَّ ثَوَاب اهْتِدَائِهِ لَهُ {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلّ عَلَيْهَا} لِأَنَّ وَبَال ضَلَاله عَلَيْهَا {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} فَأُجْبِركُمْ عَلَى الْهُدَى[(١)].

=

قال ابن كثير:" أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أيّ ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {الغفور}، يعني: غفور الذنوب، {الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين".

قال ابن عطية: " قوله تعالى: وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ترجية وبسط ووعد ما".

(١) قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ} [يونس: ١٠٨]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء الناس: قد جاءكم رسول الله بالقرآن الذي فيه بيان هدايتكم".

- قال ابن عاشور: افتتاحها بـ(قل) للتنبيه على أنه تبليغ عن الله تعالى فهو جدير بالتلقي.

وافتتاح المقول بالنداء لاستيعاء سماعهم لأهمية ما سيقال لهم، والخطاب لجميع الناس من مؤمن وكافر، والمقصود منه ابتداء المشركون، ولذلك أطيل الكلام في شأنهم، وقد ذكر معهم من اهتدى تشريفا لهم.

قال العلامة العثيمين: قوله تعالى (قل) فيه أهمية هذا الأمر الذي أمر به النبي ﷺ، لأن كل حكم أو خبر يصدر بقل هو دليل على الاهتمام به، لأن الله جعل له عناية خاصة بالوصية بإبلاغه، وإلا فجميع الكتاب قال الله فيه (يا أيها الرسول بلغ ما

=

=

أنزل إليك من ربك).

(قد جاءكم الحق من ربكم) يقول تعالى آمرا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك.

قال القرطبي:" أي: القرآن. وقيل: الرسول ﷺ".

قال البيضاوي: أي:" رسوله أو القرآن، ولم يبق لكم عذر".

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك".

عن محمد بن إسحاق:" {الحق من ربكم}، قال: ما جاءك من الخير".

قوله تعالى: {فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} [يونس: ١٠٨]، أي:" فمن اهتدى بهدي الله فإنما ثمرة عمله راجعة إليه".

قال القرطبي:" أي: صدق محمدا وآمن بما جاء به، {فإنما يهتدي لنفسه}، أي: لخلاص نفسه".

قال البيضاوي:" فمن اهتدى بالإيمان والمتابعة. فإنما يهتدي لنفسه، لأن نفعه لها".

قال ابن كثير: أي:" فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه".

قوله تعالى: {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [يونس: ١٠٨]، أي:" ومن انحرف عن الحق وأصرَّ على الضلال فإنما ضلاله وضرره على نفسه".

قال القرطبي:" أي: ترك الرسول والقرآن واتبع الأصنام والأوثان، {فإنما يضل عليها}، أي: وبال ذلك على نفسه".

قال البيضاوي:" ومن ضل بالكفر بهما. فإنما يضل عليها، لأن وبال الضلال عليها".

قال ابن كثير: أي:" ومن ضل عنه، فإنما يرجع وبال ذلك عليه".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [يونس: ١٠٨]، أي:" وما أنا موكَّل بكم حتى تكونوا مؤمنين، إنما أنا رسول مبلِّغ أبلِّغكم ما أُرْسِلْت به".

قال القرطبي:" أي: بحفيظ أحفظ أعمالكم إنما أنا رسول".

قال البيضاوي: أي:" بحفيظ موكول إلى أمركم، وإنما أنا بشير ونذير".

قال ابن كثير:"أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى".

قال السدي:" أما «الوكيل»: فالحفيظ".

قال ابن عباس: "نسختها آية السيف".

الفهرس

